



مبنى أبي علي أسس جنة عام ١٤١٢ هـ - ١٤١٣ هـ

الأعمال الكاملة للأديب الدكتور عاصم حمدان عليّ

الجزء الثالث

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



كتاب الاثنينية

(٢٨)

الأعمال الكاملة

للأديب الدكتور

عاصم حمدان علي

الجزء الثالث

الناشر

عبدالمقصود محمد سعيد خوجه

جدة

ح) عبدالمقصود خوجه ، ١٤٢٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

علي ، عاصم حمدان

الأعمال الكاملة للأديب الدكتور / عاصم حمدان علي / عاصم حمدان علي . - جدة ، ١٤٢٦هـ

٤ مج ٢٦٤٤ ص (الجزء الثالث ٦٥٢ ص) ؛ ١٧×٢٤سم (كتاب الأثينية ٢٨)

ردمك ٨-٢١٠-٤٧-٩٩٦٠ (مجموعة)

٢-٢١٣-٤٧-٩٩٦٠ (ج ٣)

١ - علي ، عاصم حمدان - المؤلفات الكاملة أ - العنوان .

١٤٢٦/١١٤

ديوي ٨ ، ٨١٠

رقم الإيداع : ١٤٢٦/١١٤

ردمك ٨-٢١٠-٤٧-٩٩٦٠ (مجموعة)

٢-٢١٣-٤٧-٩٩٦٠ (ج ٣)

الطبعة الأولى

١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

صدرت هذه الأعمال بمناسبة "مكة المكرمة" عاصمة الثقافة الإسلامية

حقوق الطبع محفوظة

الناشر

عبدالمقصود محمد سعيد خوجه

جدة

فهرس المحتويات

النشر	
نحن والآخر	
مقدمة	
بسم الله الرحمن الرحيم	
الباب الأول الأدب والأيديولوجيا	
الأدب والأيديولوجيا	
الجزور البعيدة للفكر الحدائي	
نقاد إنجليز وكتاب عرب	
حقائق عن «الغونكور» وقضية الاتصال الثقافي	
نجيب محفوظ والالتزام الفكري	
رواية (قصر الأحلام)	
الدكتور محمد برادة والتهافت الأيديولوجي	
الباب الثاني الشرق والغرب	
حقيقة الديمقراطية	
أزمة حرية الكلمة في الغرب	
حديث عن منهجية المستشرقين	
الصهيونية وعدالة الغرب	

«لوموند» والإسلام	
من يتابع ما يصدر من ترجمات لمعاني القرآن الكريم؟	
المكوّنات الذاتية لصورة العربي في الغرب	
الباب الثالث الدين والإبداع	
نحو نقد إسلامي وفكر أصيل	
هذا الازدراء إلى أين؟	
القيادات الغربية واحترام الدين	
لماذا يوجه الإبداع الأدبي ضد الإسلام؟	
الإبداع ليس حرية مطلقة	
يساري ويساريون	
لويس عوض	
الباب الرابع نحن والاستلاب الثقافي	
اليساريون العرب والتاريخ الأسود	
الديالكتيك المتداعي وآثاره في فكر محمد أركون	
المثقفون الصامتون	
لويس عوض والحق الصليبي على الإسلام والعروبة من خلال	
أوراق العمر	
المقالح والبياتي	
يوسف الخال (١)	
يوسف الخال (٢)	
يوسف الخال (٣)	
الباب الخامس موقفنا منهم وموقفهم منا، والموقفان بإزاء الحضارة	
تراثنا العلمي في الجامعات الغربية	

الإسلام في الكتابات الغربية الحديثة (١)	
الإسلام في الكتابات الغربية الحديثة (٢)	
الإسلام في الكتابات الغربية الحديثة بيرنارد لويس (٣)	
توجيه الإعلام بين المجتمعين الغربي والإسلامي	
الحضارة الغربية في مذكرات ضحايا الإيدز	
الباب السادس الحفاظ على الهوية	
حول قضية الهوية الحضارية	
بين الولاء للهوية الثقافية والتصل منها	
المفهوم الحضاري لقضية الأصالة والمعاصرة	
لماذا ومتى يهتم الأوروبيون بتراثنا؟	
نحو رؤية أشمل لمناهج الأدب الغربي	
واطسون وموت البنيوية	
هيلين الخال تفتح النار على مجلة (شعر) ورموزها	
محمد أركون والتيار العلماني (١)	
محمد أركون والتيار العلماني (٢)	
محمد عابد الجابري بين البرهان والهذيان	
مثقفون عرب ولكن بدون هوية	

دراسات مقارنة

تمهيد	
تقدمة	
المؤثرات العربية في شعر الشاعر الإنجليزي	
شكسبير في اللغة العربية	
أنثروبولوجيا (جيمس فريزر) وشكلانية	

..... بين الأديين العربي والإنجليزي	
..... من يرسم الصورة العربية في المخيلة الغربية؟ !	
..... الصلة بين الروائي الأمريكي	
..... التآمر الصهيوني الصليبي على الإسلام	
..... بسم الله الرحمن الرحيم	
..... تقديم	
..... الفصل الأول التّواحي الفكرية	
..... الفصل الثاني التّواحي الإعلامية	
..... قائمة بأهم المصادر والمراجع	
..... قراءة نقدية في بيان حمزة شحاتة الشعري	
..... المقدمة	
..... مقدمة	
..... قراءة نقدية في بيان حمزة شحاتة الشعري (١)	
..... قراءة نقدية في بيان حمزة شحاتة الشعري (٢)	
..... قراءة نقدية في بيان حمزة شحاتة الشعري (٣)	
..... قراءة نقدية في بيان حمزة شحاتة الشعري (٤)	
..... قراءة نقدية في بيان حمزة شحاتة الشعري (٥)	
..... قراءة نقدية في بيان حمزة شحاتة الشعري (٦)	
..... قراءة نقدية في بيان حمزة شحاتة الشعري (٧)	
..... قراءة نقدية في بيان حمزة شحاتة الشعري (٨)	
..... قراءة نقدية في بيان حمزة شحاتة الشعري (٩)	
..... قراءة نقدية في بيان حمزة شحاتة الشعري (١٠)	

..... قراءة نقدية في بيان حمزة شحاتة الشعري (١١)

..... قراءة نقدية في بيان حمزة شحاتة الشعري (١٢)

..... كلمة تقدير وعرفان

..... **قطوف آخر**

..... الانبهار بالغرب .. عطل رؤية البنيويين

..... عندما يختفي رجل .. ويموت أديب

..... مسيرة التاريخ العربي بين ابن خلدون وأمين مدني

..... الفكر والأدب في المدينة المنورة بين الأسكوبي ومحمد هاشم رشيد

..... قراءة حضارية وفكرية من خلال تقرير بيرل

..... صور من التجارب الإبداعية القصصية بين جيل الحسون وعبد خال

..... تيار الحداثة بين نقد عبد الله عبد الجبار وتنظير فائز أبا (١)

..... تيار الحداثة بين نقد عبد الله عبد الجبار وتنظير فائز أبا (٢)

مصطفى بدوي وستانلي هايمن والكشف عن أبعاد تجربة

..... ت. س إليوت

..... محمد مندور .. رائد النقد العربي الحديث

..... قنطرة الإبداع من الشعراء الثلاثة إلى ما وراء السراب

..... لماذا يَسْرِقُ المَبْدُعُ وَيَسْطُو البَاحِثُ؟؟

..... روبنسون والموقف الديني في ديربان

..... المسافة بين أتلي وتوني بلير

..... جوائز الغرب والتّحيز الديني والسّياسي

..... رجل الإحسان .. هليل العبيري

..... العُرُوبَةُ أَصْلُنَا وَالْإِسْلَامُ دِينُنَا

..... التاريخ الإسلامي وصلته بالآثار النبوية

جماعات إرهابية تستحق الإدانة من الغربيين	
رحلة الشوق ونشيد الإيمان	
مُشَاهِدٌ مِنْ الْعَيْنِيَةِ فِي زَمَنِ النَّقَاءِ	
فَاتِشِيْتُ، وَالْعَرَبُ يَفْقِدُونَ أَصْدِقَاءَهُمْ	
وجه مضيء من الحياة	
يوم رحلت عنا إلى مثواك الأخير !	
وغمضت جفنيك يا عزيز القوم	
حمد الجاسر المؤرخ والنسابة والأديب	
قصة العلاقة الحميمة بين حرب وآل حافظ	
الصلة بين الأدب والبيئة في تراث الجاحظ والنقد الغربي الحديث	
طيبة وذكريات الأحبة	
العلوم الشرعية وبواعث الوفاء	
رسائل أدبية	
رسائل أدبية	
رسائل أدبية	
رسائل أدبية	
«تُراثُ الرَّبِّيعِ» يعودُ إلى الحياة مِنْ جديد	
الشيخان . . الزغيبي وابن صالح . . والمسلك الإيماني	
مرزوق بن تنباك الحربي . . وشُجُونٌ بين أدنبرة والاثنيّة	
عبيد الله كردي . . فقيد العلم والمعرفة في مآزر الإيمان	
الشيخ عمر محمد جاد وتأريخُ مُضْيَاءِ	
الشيخ عبد العزيز بن صالح . . وسيرة حميدة	
رجلٌ بين العنبريّة وسوق النّدى يوسف شكري	

عَاصِمُ حَمْدَانٍ وَمُؤَرَّخُو الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ	
أحمد محمد جمال في ذاكرة البلد الأمين	
ماتَ مُحدِّثُ العَصْرِ الشيخ محمد متولي الشعراوي	
عبد المحسن حليت . . الصوت الشعري الصادق	
«أمين بن حسن الحلواني المدني: جهوده العلمية	
«دَعْنَا نُنْصِفْكَ قَلِيلاً يَا أَسْتَاذ!»	
أحمد محمد جمال بين العلم والأدب محاورته لخالد محمد خالد	
محادثته لخالد محمد خالد	
فهرس المحتويات	

النشر

نحن والآخرون

مقدمة

حينما يتحدد الهدف يأثلق المسار وتستقيم السبيل إليه. ولن يكون قارئ هذا الكتاب في عوز إلى بذل جهد كبير لاستنباط حقيقة فحواها وضوح معالم السبيل التي ينتهجها الدكتور عاصم حمدان، فحواها مؤتلفة تُهدي من يسلكها، ومعالمها واضحة تستبين للقارئ دون عناء وسيكشف القارئ قناعة المؤلف في أن المنهج الفكري والنقدي كالشجرة التي يتفياً ظلالها الناس وتتنظم حياتهم قناعة وسلوكاً. ولن يتأتى لهذه الشجرة أن تنمو وتكبر في غير تربتها ومناخها. ولن تحظى بالرعاية والاهتمام من غير أبنائها ومن يجنون ثمارها ليس رفضاً لذات الرفض بل حجة يدعمها الدليل المستقي من أفواه وعقول أبناء هذه النظريات ومن عاشوا في كنفها واستظلوا بظلالها. فاستشهاد الدكتور عاصم برأي ت.س. إليوت والمتضمن إبراز دور الدين في الحياة للفرد أو الجماعة لا يقتضي المصادرة على الإبداع الأدبي ولا يقتضي تعارضه مع الدين ولكن المؤلف يتلمس تأصيل رؤية فكرية مستقاة من العقيدة وتكريس منهج فكري يفسر نظرنا للكون والحياة يستقي مفاهيمه من معين الدين الإسلامي. آزر المؤلف في تعميق قناعته موقف مفكري ونقاد وأدباء الغرب حيال المناهج التي تظهر وتتوارى بمجرد ظهور منهج جديد. فكما ظهرت الكلاسيكية لتمجد التراث الإغريقي وتعكف على شرحه وتفسيره احتجبت

عقب ظهور الرومانتيكية التي حاولت العودة إلى الذات والطبيعة بعناصرها الموحية لتعوض ما أغفلته الكلاسيكية. ولذا نجده يستشهد برأي الناقد الإنجليزي جورج واطسون الذي يشير فيه إلى (أن البنيوية في أوج ازدهارها ادعت أنها تفسر جميع الحقائق البشرية أو على الأصح أنها على وشك أن تفسر كل شيء ثم جاءت بعد ذلك أفكار شمولية أخرى مماثلة أفكار يونج وتياردي شاردان ومارشال مكلوان ونورثروب فراي). لذلك نعى المؤلف على بعض النقاد محاولتهم في تطويع العقيدة لإجراءات المنهج الغربي خصوصاً البنيوية والتمحل في التأويل بل ورفض المفهوم العقدي عند اصطدامه وتعارضه مع المنهج البنيوي كما يتجلى في المتابعة الدقيقة للمؤلف في مناقشته لآراء وطروحات محمد أركون وقناعته في استحالة تطبيق مناهج الفكر الغربي على تراثنا والاحتكام إليها في تحليل ودراسة عقيدتنا الإسلامية كقوله في (الديالكتيك المتداعي وآثاره): «هذه الزمرة تتغافل عن أمر في غاية الأهمية وهو أنه لا يمكننا أن نطبق المقاييس التي هي من نتاج الفكر العربي في هذا العصر على العصور الأوروبية الوسطى مثلاً، وهذا أمر لا يختلف عليه أحد وتحكم به بدهيات المنطق وأوليائه المعروفة للناس جميعاً حتى وإن تباينوا في منطلقاتهم وتعددت آراؤهم الفكرية والثقافية فكيف إذا سعت الزمرة الأركونية إلى تطبيق الديالكتيك (الماركسي) على الجوانب الاقتصادية والاجتماعية في الفكر الإسلامي، وإذا كان المحتوى العلمي من وجهة نظرها يركز أساساً على اللسانيات الحديثة وعلى وجه التحديد لسانيات (نفينست وتشومسكي).

إن بزوغ مثل هذه الدراسة ضرورة ملحة ترتقي إلى مستوى المسؤولية الدينية لتحديد موقفنا واختيار مسارنا في الحياة ونحن نشهد

الحالة الفكرية التي تتنازع عالمنا العربي الإسلامي وتقود أدباه ورجال الفكر بعامة إلى توجّهين متناقضين يتوزعان بين التقوق والانكفاء على الذات، أو التحلل والارتقاء في أحضان الغرب مع أننا نتمتع بخصوصية فكرية سامية استمددنا جذورها من مفاهيم العقيدة التي بنت شخصيتنا بقوة وثقة ولم تحل بيننا وبين الاستفادة من معطيات الآخر الحضارية ما لم تتعارض وتضطدم بأساسيات ومفاهيم العقيدة ولا يمثل ذلك لجوءاً للحلول التوفيقية بل يفصح عن جوهر العقيدة الإسلامية ووسطيتها القائمة على احترام الذات والاستفادة من إنجازات الآخر.

كما أن هذه الدراسة تمثل محاولة الاحتكام إلى الذات دون عرض عقيدتنا وفكرنا في محاكم الآخر ليصدر حكمه على توجهنا من خلال أيديولوجيته ورؤاه التي نمت في تربة ومناخ يتباينان عن تربتنا ومناخنا، وقادته مصالح وتطلعات استعمارية ذقنا ويلاتنا واستلابها ردياً من الزمن، وما زلنا نتجرع بقايا غصصها ومخلفاتها إلى يومنا هذا إذ لا يزال الحكم على الإنسان العربي والمسلم انطباعياً يخضع لتقييم الدراسات الاستشراقية التي بثتها تطلعات استعمارية صورت عقيدتنا الإسلامية وعالمنا العربي في صور تخول السيطرة والهيمنة عليه لتقليم أظافره ونقله من عالم البدائية إلى حضارة الغرب فكانت الذريعة التي أفضت إلى صب خيرات العالم العربي والإسلامي في خزائن الغرب وتركه يلوك البقايا والفتات في صورة مشوهة مزدرة نتيجة إصاق تهم الإرهاب والهمجية به لتفسير محاولاته التحررية وتبرير الهيمنة عليه.

لذا كان من الغريب الركون إلى المستشرقين والغرب بعامة في استقاء الحكم علينا وقد تغلف الحكم بغلالة البحث عن مصالحنا واستبطن فكرة

السيطرة والاستلاب والتشويه وبنفس القدر كان من الخطأ أن نلوذ باستجلاب أيديولوجية غريبة لتحدد مسار فكرنا وحياتنا ونحن نملك عقيدة ناصعة ومؤتلفة نتعامل من خلالها بكل وضوح وثقة.

وإن هذه الدراسة محاولة جادة للخروج من مأزق التضاؤل والتأقزم بالارتواء في أحضان الآخر واستلهام فلسفتنا من حقله إلى الشعور بقيمة الذات واحترامها من خلال تبني نظرية فكرية نستمد أصولها وقيمها من مفاهيم العقيدة مستفيدة من معطيات العلم والمعرفة أياً كان مصدرها فيما لا يند عن المسار الإسلامي ولا يخالف قيمه وأعرافه مستفيدة من نكوص وتراجع دعاة التجديد في الغرب وخير ما يمثلهم ت. س. إليوت وعودتهم إلى استلهام تراث عقيدتهم كما يشير المؤلف في (الأدب والأيديولوجيا).

والمؤلف مؤهل للتصدي لتأصيل رؤيته الفكرية التي تستمد مقوماتها من مفاهيم العقيدة الإسلامية وتستفيد من معطيات الفكر والثقافة بمدلولها الشامل والفضفاض. فلقد تسنى له أن يفتح عينيه على الحروف الأولى للكتابة في مدرسة العلوم الشرعية بجوار مثوى المصطفى ﷺ وتخرج في قسم اللغة العربية (كلية اللغة العربية) في جامعة أم القرى بجوار الحرم المكي الشريف ثم حصل على درجة الدكتوراه من جامعة مانشستر في بريطانيا ليحظى بمتابعة الفكر الغربي عن كثب ويقف على سمات المجتمع الغربي ويتعرف على ملامحه ووشائج العلاقة التي تربط بين أبنائه ويكتشف نظراته للآخر والمصالح التي تحكم علاقاته بالآخرين وإذعانه لتأثير التغلغل الصهيوني في بنيته وهياكله السياسية من خلال دراسة نظمه ومؤسساته السياسية وهي مزايا ومناقب أهلت المؤلف لأن

يكون من الصفوة الجديرة بمحاولة حث الخطى في سبيل تأصيل منهج يضرب بجذوره في عمق تربة العقيدة الإسلامية ومستفيداً من تعاليمها التي تحض على العلم والعمل بالاطلاع الشامل والمتنوع القائم على عقد المقارنات لإبراز خصائص هذه العقيدة دون استلاب أو تضائل بل بثقة وثبات هيأت لهذه المقالات أن ينتظم شكلها ضمن دفتي هذا الكتاب دون أن يعتورها تضارب أو يخل بها اختلاف. فوضوح السبيل يفضي إلى الوصول إلى الهدف، وتحديد الهدف يحدد معالم السبيل.

د. جميل محمود مغربي

أستاذ مادة النقد في قسم اللغة العربية

جامعة الملك عبد العزيز - جدة

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على عبدك ونييك الأمين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الأخيار.

هذه الدراسات التي يضمها هذا الكتاب بين دفتيه تختلف في موضوعاتها لأنها كتبت في فترات متباعدة، ولكنه يجمعها هدف واحد وهو كيفية التعامل مع الآخر حضارياً وفكرياً وثقافياً، وتزداد أهمية هذا الموضوع من خلال ما نشاهده اليوم بعد انتهاء فترات ما كان يسمى بالحقبة الباردة في العلاقات الدولية، إلى توجه الدول والمجتمعات إلى موضوع هو بؤرة النشاط ومركز الاهتمام - ليس فقط من رجال الفكر والثقافة والأدب ولكن أيضاً من المؤسسات التنظيمية المسؤولة في جميع بلاد الدنيا - هذا الاهتمام ينصب على الحفاظ على الهوية الفكرية والثقافية للأمة ونستطيع أن نضرب مثلاً واحداً على ذلك، أن دولة فرنسا تجمعها مع بلدان أوروبا الكثير من المصالح وتلتقي معها في الكثير من الأهداف، ولكن عند مناقشة اتفاقية (الجات) توقفت فرنسا كثيراً عند الموضوع الثقافي، فهي لا تريد غزواً فكرياً يتمثل في المسلسلات والبرامج حتى من أقرب الدول إليها سلاله وفكراً، بل إن البرلمان الفرنسي كان يناقش في الآونة الأخيرة بصورة جدية، يلتقي عندها يمينه

ويساره عند ضرورة المحافظة على اللغة الفرنسية وفرضها إجبارياً في جميع مراحل التعليم. والوضع لا يختلف كثيراً في بلد مثل المملكة المتحدة البريطانية، فكثير من النقاد الغربيين الإنجليز رفضوا بعبارة صريحة أن يكونوا ضمن ما يسمى بالمستعمرة الثقافية الفرنسية، ويقصدون بذلك ما شاع في هذه الحقبة من مذاهب فكرية أو أدبية، مثل الوجودية والبنوية وما تفرع منها من مذاهب شكلية مثل الأسلوبية.

ومن بين هؤلاء النقاد الذين قاوموا هذه النزعة التي تحاول السيطرة فكرياً وثقافياً الناقد المعروف (جورج واطسن) في كتابه (الفكر الأدبي المعاصر) وظل الإنجليز لا تغريهم ولا تجذبهم مقولات (جان بول سارتر) ولا (ميشيل فوكو)، ولا (لوفي شتراوس)، ولكنهم ظلوا يتمسكون بتراثهم الكلاسيكي الإنجليزي ويتمثلونه، ليس لمجرد التمثل وحده، ولكنهم يريدون تعميقه في نفوس الأجيال الشابة الصاعدة، فترى مثلها الأعلى في ملاحم الشاعر المعروف (جفري تشو سر) وفي مسرحيات (وليم شكسبير) الذي لا تزال إلى اليوم بعد مضي قرون طويلة تعرض مسرحياته فلا يكاد يجد الراغب في مشاهدة هذه المسرحيات مقعداً خالياً لتوافد الناس إلى العاصمة اللندنية ليروا تراجيديات (شكسبير)، ولا يزال كتاب القصة من الجيل الطالع يرون في (تشارلز دكنز) مثلاً أعلى في التقنية والأسلوب، والسرد، ولعلّه من الطريف أن نذكر هذه القصة وفيها دلالة عظيمة، لقد قام (جون ميجر) عندما كان وزيراً للخارجية بزيارة للولايات المتحدة الأمريكية، فكان من الموضوعات الرئيسة المطروحة على جدول الأعمال بينه وبين الرئيس السابق (جورج بوش الأب) موضوع غزو المسلسلات الأمريكية للمجتمع البريطاني، لأنه المجتمع الذي يفضل رؤية (كرونيشن استريت) على مسلسلات (هوليود) الفاخرة

(دلس وداينستي)، ولا ننسى تلك الدلالة العظيمة التي تمثلت في إهداء رئيسة الوزراء البريطانية السابقة (مارغريت تاتشر) إلى رئيس الوزراء الفرنسي (فرانسوا ميتران) بمناسبة الذكرى المئوية للثورة الفرنسية. حيث قدمت (تاتشر) من (داونغ استريت) إلى (الإليزيه) في فرنسا هدية رمزية تتمثل في قصة الروائي الإنجليزي المعروف (تشارلز دكنز)، ولعلها أرادت أن تقول له: إنه في الوقت الذي كانت فيه باريس قرية صغيرة كانت لندن مدينة تحفل بكل ضروب العلم والثقافة والمعرفة.

هؤلاء القوم يجمعهم أصل متقارب، وتنتظمهم منظومات سياسية وثقافية واحدة، ولكن الفكر والثقافة شيء آخر تتمسك به الشعوب الأوروبية أشد التمسك، حتى يبرز هويتها، ويميز إطار المفكر لديها. فهل لنا بعد ذلك أن نلوم الذين يدعون إلى ثقافة إسلامية عربية أصيلة في مجالات الفكر والثقافة والأدب؟ ثقافة لا تتوقف عند الماضي، ولكنها لا تلغيه ولا تزدريه، بل تنطلق منه، وتنظر إلى الأشياء من حولها في هذا العالم من خلال منظاره، ولا يمنعها بعد ذلك أن تجدد وأن تنفتح انفتاحاً واعياً على الثقافات الأخرى، ولكنه ليس انفتاح الانبهار والذوبان والتلاشي بل هو الانفتاح الذي ينمي ما تأصل ويحافظ على الأسس التي يكون في تقويضها خسارة للأمة وضياع لمستقبلها وتيه لمن يريدون أن يسلكوا الطريق لتتحدد أمامهم بكل وضوح.

وفي الختام..

- أشكر الزميل والصاديق الدكتور جميل مغربي الذي كتب مقدمة ضافية لهذا المؤلف المتواضع، وأشكر له أيضاً مراجعته لأصوله الأولى.

- وشكر آخر أخص به ابني الزميل الأستاذ مروان قماش الذي رعى هذا العمل خير رعاية وتابعة خطوة خطوة وبذل من وقته الثمين ما لا يمكن للإنسان أن يبذله ولو في مؤلف له، ولكنه وفاء التلمذة، ونبل الأصل، وكرم الأخلاق، وما أقل المريدين في هذا العصر من أمثال الابن الذي أعتز به، والأخ الذي اعتبره شريكاً في هذا العمل وهو ابني مروان قماش.

وصلى الله على سيد خلقه، وشفيع عباده، الرحمة المهداة للعالمين.. جعلنا الله من المتبعين لسنته ومن المهتدين بهديه، ومن المحبين له حباً قلبياً خالصاً يقربنا منه في الدار الأخرى في جنات النعيم.

د. عاصم حمدان

الباب الأول

الأدب والأيدولوجيا

الأدب والأيدولوجيا

لم تكن المتعة في الأدب بجميع فنونه هي الهدف الأول والأخير، كما يتصور بعض المنظرين للأدب والنقد في عالمنا العربي وعلى وجه أخص (الحداثيون) منهم، نعم لم تكن هي الهدف عند كثير من أولئك الأدباء الغربيين الذين يعجب بهم دعاة التجديد ضمن دائرة الأدب العربي، ولم يكن القول - لمجرد القول - ودون أن يكون له ذلك الارتباط القوي بتوجه صاحبه أو منطلقه العقائدي والفكري، لم يكن الأمر كذلك إلا في أذهان من لم يعرفوا من الأدب الغربي إلا صورته وأشكاله الخارجية، وإذا أردنا أن ندلل على ذلك فلن تعوزنا الأدلة أو ينقصنا البرهان. فالمرحلة الثانية من الحياة الفنية لشاعر الإنجليزية الأولى «ت. س. إليوت» وهي ما يطلق عليها النقاد مرحلة الغضب واليأس والحزن، وهي مرحلة الدعوة للعقيدة عند هذا الشاعر، فلقد اعتنق أليوت الكاثوليكية على طريقة الإنجليز لا على طريقة روما، وتنازل عن جنسيته الأمريكية وتجنس بالجنسية الإنجليزية، وأعلن في الناس أنه لا يقر المبادئ الجمهورية التي تسير عليها الولايات المتحدة وجهر بأنه محافظ يحافظ على التراث الإنساني من التجارب الخطيرة الجديدة. وفي عام ١٩٣٠م طلع على الناس بمجموعة جديدة من القصائد هي (أربعاء أيوب) وحيثما مُستمدٌ من الرُّوح الكاثوليكية، ومن بعدها مسرحية شعرية هي

(جريمة قتل في الكاتدرائية) تصوّر مَقْتَل القُدّيس «توماس بيكيتو» في العصور الوسطى.

وهو - أي «إليوت» - له أيديولوجيته الدينية التي ينطلق منها في كثير من أعماله وخصوصاً في عمله المعروف (الأرض الخراب) لذلك هاجمه بعض الشيوعيين والليبراليين العرب الذين يتصورون الحياة دوماً من دون عقيدة ومنهاج، فهذا لويس عوض يقول معلقاً على كتاب إليوت المعروف (مقالات مختارة): فهو - أي إليوت - ينظر إلى الكنيسة نظر الماركسي إلى الدولة الشيوعية أي يعدها غاية الحضارة ودعامتها الأولى، وهو يخلط بين قيم الدنيا وقيم الدين، حتى ليقحم الكنيسة في أخص شؤون الحياة الشخصية والاجتماعية كضبط النسل مثلاً فيقول في «مقالات مختارة»: «إن في هذه المسألة قبل سواها لا مفر للإنسان من أن يستهدي بالمشتغلين بالشؤون الروحية، فداء الضمير والحكم الشخصي لا يعول عليهما، كذلك ينبغي أن نقدم مشورة القساوسة على مشورة الأطباء بصفة قاطعة لأن مشورة الأطباء مضطربة».

هذه آراء من اتخذها الحداثيون العرب إماماً لهم في تجاربهم الشعرية وعدّوا قصيدته (الأرض اليباب) دستوراً لا يحيدون عنه، فإما أن يكونوا لم يقرأوه أصلاً، وإما أن يكونوا قد قرأوه ولم تمكنهم وسائلهم من كشف ومعرفة ما ترمي إليه قصائده. ونحن هنا لا نحاكم إليوت على ولائه لتراثه، وتمسكه بعقيدته ودعوته الآخرين للاقتداء به، ولكننا نشعر بحسرة وأسى كبيرين على التفريط الذي نجده عند الفئة الحداثية في عالمنا العربي، تفريطها في تراثها، وخجلها من كل ما يمت بصلة لدينها ورموزها التاريخية، ونتعجب من قول بعضهم إن الشعر الذي يتضمن

مسحات دينية ويستمد تعابيره من عقيدة الإسلام الصافية مكانه هو منابر الوعظ والإرشاد. وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لا نعتبر إنتاج «إليوت» وخصوصاً قصيدته (الأرض الخراب) وهي مملوءة بالتراث الكاثوليكي المسيحي، لماذا لا نعدّها وعظاً وإرشاداً؟ ولماذا هذه الجلبة والضوضاء؟ ولماذا نحتفي بروايات الكاتب اليهودي العقيدة - الألمانى الأصل - فرانز كافكا وهي روايات كتب بعضها أصلاً باللغة اليهودية القديمة «اليديشية» وهي في بنائها تدور على التبشير بميلاد دولة صهيونية دينية؟ نعم، لماذا نحتفي بهذا الإنتاج الغربي كل الاحتفاء برغم وضوح الروح الدينية فيه، وتشبعه بالأيديولوجيا الخاصة، ثم نهاجم كل عمل روائي في أدبنا تشم فيه رائحة العقيدة والدين؟

ألا يكون الأولى بنا أن نحتفي بما نجد في ثنايا حقيقة أنفسنا ونستطيع من خلاله الوقوف على هويتنا الشخصية ورموزنا العظيمة التي لا تستطيع الرموز الأخرى أن تشابهها أو حتى مجرد الدنو منها؟

محوران للأدب:

يقول الناقد الإنجليزي جورج واتسون في كتابه المعروف «الفكر الأدبي المعاصر»: إن البنيوية في أوج ازدهارها ادعت أنها تفسر جميع الحقائق البشرية، أو على الأصح أنها على وشك أن تفسر كل شيء ثم جاءت بعد ذلك أفكار شمولية أخرى مماثلة، أفكار «يونج» و«تياردي شاردان»، و«مارشال مكلوان» و«نورثروب فراي».

فمنذ أن حاد العقل الأدبي عن طريقه المعهود نتيجة لانهايار الإيمان بالدين منذ أكثر من قرن مضى حتى الآن وهو يسعى طوال الوقت باحثاً عما يستعيز به عن ذلك «الإيمان المفقود» هذه هي عبارات واحد من

أعمدة النقد الأدبي في الغرب، ولا يستطيع أحد أن يوجه إليه تهمة القصور في فهم التيارات الأدبية الغربية وما تنطوي عليه من إيديولوجيات، كما لا يمكن أن يصمه أحد بتهمة التحامل على الفكر الأدبي الغربي، لأنه ينتمي إلى تلك البيئة الفكرية وهو أحرص ما يكون على دفع التخرّصات حول القضايا المتصلة بها إن وجد نقداً لا يتصل بسبب من الأسباب الموضوعية العلمية المتوخاة في عملية النقد هذه.

نحن إذن إزاء محورين هامين يمكن من خلالهما النظر إلى الأدب الغربي وما يتصل به من إيديولوجية لم ينكرها عليه النقاد من أبنائه أو المنتمين إلى دوائره انتماءً حقيقياً.

المحور الأول هو «الدين» حيث كان له حضور قوي وبارز في الآثار الأدبية المشهورة عالمياً كما دللنا عليه من خلال أعمال الأديب الإنجليزي المؤمن بمسيحيته إيماناً قوياً وهو «ت.س. إليوت».

أما المحور الثاني فهو المتصل بالمذاهب الأدبية الغربية التي دعاها الناقد الإنجليزي جورج واتسون بالأفكار الشمولية، وعزا تتابع ظهور هذه المذاهب إلى سبب هام وجوهري وهو انهيار الإيمان بالدين، وبعبارة أخرى أن هذه المذاهب لا يمكن تجريدها من الأيديولوجية كما يدعي البعض في عالمنا العربي، بل هي تحمل الأيديولوجيا مما جعل «واتسون» يؤكد أن أنصار هذه المذاهب زعموا أنها قادرة على تفسير كل شيء، والذي يفسر كل شيء هو الفكر الأيديولوجي وليس الفكر الأدبي.

إن الذي ينقص رواد الحداثة في عالمنا العربي هو قدرتهم على الاعتراف بأن هذه المذاهب الأدبية الغربية «كالبنوية مثلاً» ليست منهجاً

أديباً خالصاً، بل هي تحمل من الفكر الذي انبثقت عنه في البيئة الغربية والأيدولوجية التي ارتبطت بها وتحاول التعبير عنها، هي تحمل من ذلك كله أضعاف ما تحمله من قدرة على تفسير الأعمال الأدبية ومحاولة فهم أسرارها، أو توضيح جوانب المتعة الفنية فيها. كما ينقص هؤلاء أيضاً تلك الشجاعة على الاعتراف بجوانب الضعف التي تعترى هذه المذاهب، فهي وليدة الفكر البشري وليست وحياً إلهياً منزلاً، ولكن بدلاً من أن يوضح المتحمسون لهذه المذاهب - وهو يبدو في كثير من الأحيان، حماساً ناتجاً من الصدمة الحضارية، أو العقد النفسية أكثر من أي شيء آخر - بدلاً من أن يوضحوا كل الجوانب المتعلقة بتلك السياقات الحضارية والاجتماعية التي نتجت منها وتسببت في بروزها في حقبة معينة ثم في اختفائها أو تلاشيها في حقبة أخرى، بدلاً من ذلك فإنهم أحاطوها بهالة من التقديس، وأقاموا حولها الحصون والبتارييس وكأن هذه النظريات الغربية هي من نتاج أنفسهم وإبداعات أفكارهم، وهو الأمر الذي يجعل الإنسان يشعر بكثير من الشفقة والعطف عليهم، فخيالاتهم جامحة، وأوهامهم متعددة، وعقولهم منغلقة، وهم أبعد ما يكونون عن الواقع الذي تعيشه أمتهم في تراثها وفكرها وأدبها.

الجدور البعيدة للفكر الحدائي

يحمد للزميل الكريم الدكتور محمد خضر عريف معالجته لقضية الحداثة في كتابه الموسوم «الحداثة مناقشة هادئة لقضية ساخنة» يحمد له تلك الموضوعية التي تناول بها هذا الموضوع الذي يجب أن يكون الحوار حوله هادئاً والمناقشة المتصلة بقضاياها بعيدة عن التشنج. وإن كان لا بد من الإشارة إلى أن مشايخي هذه الموضة الفكرية التي تخفي وراءها كثيراً من الأيديولوجيات يحاولون أن يبرئوا مصطلح الحداثة Modernity مما يرتبط به أصلاً من أزمات وتناقضات. وهذا ما يشير إليه «هنري لوفيفر» بقوله: «إن الحداثة لا تواصل مسيرتها بدون أزمات، إن التناقضات تعبت فيها من كل جانب وتعمل عملها الذي لو تحقق فسيحول الحياة». كما يؤكد نفسه على تلك الأهداف التي تسعى لتحقيقها وهو خلخلة المألوف مما لا يستطيع معه مناصروها إقصاء هذا المعنى الذي يتجاوز بها كونها قضية تتصل بعملية التجديد الشكلي أو اللغوي إلى فضاءات أخرى أكثر أهمية وأعمق تجذراً، يقول «لوفيفر»: «فالحداثة بقدر ما توجد في حالة تعارض مع ما هو قديم بقدر ما تختزن في عملياتها احتمالات الأزمة، فتحريك القديم يشكل خلخلة للموجود وللمألوف».

«منطق الحداثة وتحديث التقليد، محمد نور الدين أفاية، الملحق الثقافي لصحيفة الاتحاد المغربية ٢٩ يوليو ١٩٩٠م».

- وهي بقدر تعارضها وتبرمها مما هو قديم وبالتالي من كل ما يدعو إلى التقليد والاهتداء بمبادئ التراث، وبالرغم من أنها تتضمن في عملياتها احتمالات الأزمة وأنها تعاند كل تعريف وكل إرادة لتحديد لها وإعطائها تسمية معينة، فهي في الوقت نفسه تحيل إلى حضارة تعمل على إلغاء الآخر ونفي ثقافته، فهي بقدر ما تريد أن تفعل في الواقع وتغيره بقدر ما تنسج حولها من أساطير لدرجة يتداخل في ظاهرها ما هو واقعي وما هو أسطوري.

- وهذا المفهوم الأخير الذي استنتجه منظرون غربيون مدركون تمام الإدراك للسياقات الحضارية والفكرية التي انبثقت عنها هذا المصطلح يفسر لنا مواقف تلك النخبة التي تحملت طواعية عبء نشر هذه الأيديولوجية الفكرية في العالم العربي، فهم في الوقت الذي يدعون فيه إلى تعدد الآراء فإننا نجد مفهوم التعددية لديهم لا يتجاوز الانكفاء على النفس والانغلاق على الذات بل والأخطر من ذلك محاربة الآخر بطرق شاذة وغريبة كثيراً ما يحاولون إلصاقها بهذا الآخر الذي يسعون للقضاء عليه. ولقد حدثني صديق حميم عرف بتمكنه من اللغة الشعرية وقدرته الفائقة على التدليل على أن القصيدة العمودية لا يمكن أن يزاحمها ذلك الغناء الذي تنضح به تلك التجارب الفجة في ما يسمى بعالم التجريب الشعري، حدثني أن أحد منظري الحداثة صارحه في جلسة صفاء أن التيار الحداثي عمل بكل الوسائل على مضايقته (أي هذا الشاعر العمودي المعروف في الساحة) سعياً منهم في القضاء على الأصوات الشعرية

الأخرى التي لا تشاركهم الرأي وتفترق عنهم في التصور، وهذا أمر خطير يدل على تلك النزعة القمعية التي تخفيها الحداثة تحت معطفها، ثم تدّعي - أمام الرأي العام - أنها القيم الأعظم والمؤتمن الأوحد على تلك المفاهيم الحضارية الجذابة من مثل حرية الكلمة، وأخلاقيات الحوار وأدبياته، وأنها لا تعمل على نفي الآخر بقدر ما تسعى إلى مناقشته ومعرفة رأيه ولكن الادعاء شيء والتطبيق العملي شيء آخر، وهو مأزق آخر تعاني منه الحداثة وكثيراً ما أفقدها مصداقيتها حتى عند بعض أولئك الذين يميلون إلى بعض طروحاتها الفكرية والأدبية.

- وإذا كان الأستاذ الكبير أحمد الشيباني قد حدد في المقدمة التي كتبها لكتاب الدكتور عريف، قد حدد منطلقات الحداثة في الفكر العربي وجعل في مقدمتها «الإلحاد» مستشهداً بآراء الكاهن الأكبر للحدائين «أدونيس» وذلك من خلال آرائه المطروحة في كتابه «الثابت والمتحول» والذي استقاها من أستاذه الكاهن اليسوعي «بولس نوبا» (انظر المقدمة ص: د - ز) فإنه من المفارقات العجيبة أن الحداثة الأوروبية بمفهومها الحالي والتي لا بد من فهمها وفق معطيات الفكر الأوروبي والسياقات الحضارية والاجتماعية التي نما وبرز فيها هذا الفكر - هذه الحداثة الأوروبية التي يحدد النقاد الغربيون بداياتها في العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر الميلادي «١٨٨٠م» كما يشير إلى ذلك (مالكوكم برادبيري)، و (جيمس مكفارلين) في الفصل الذي عقده عن اسم الحداثة وطبيعتها في الكتاب المعروف:

Modernism, 1890-1930, (Pen Gvin Books, 1976, P40-1930).

وهي الحقبة التي شهدت ولادة وبزوغ أكبر مُنْظَرِ حداثي أوروبي وهو

«توماس ستيرنز إليوت» (Eliot) ١٩٦٥ - ١٨٨٠م. انظر عن سيرة هذا المبدع الأمريكي الأصل، الإنجليزي الثقافة والمنزع، كتاب:

(T.S. Eliot: Peter Ack Royd, London, 1984).

هذا المنظر الذي يلهج بذكره بعض أنصار الحداثة في عالمنا العربي وهم يجهلون أبسط الحقائق عن حياته وأفكاره، كان هذا المنظر «إليوت» من أوسع المثقفين اطلاعاً على التراث الذي سبقه وأعمقهم فهماً به، وكان أيضاً - ولنفس السبب - من أشدهم حباً له وتقديراً لمزاياه، وأكثرهم حماسة في الدفاع عنه والانتصار له، وأسخاهم جهداً في دراسته واستكشاف مجهوله، وترويح كاسده وتحبيب القراء الحديثين فيه «انظر: قضية الشعر الجديد، د. محمد النويهي، ط٢، ١٩٧١م، ص ٣٣٤ - ٣٣٥».

- ولكن الذي حاول الحداثيون العرب أن يتغافلوا عنه هو تلك العقيدة المسيحية «الكاثوليكية» التي كان يؤمن بها أشد الإيمان كما أن شعره كان متبلوراً حول الفرد المنقذ، هو يدعو إلى الربط بين الأدب من ناحية والأخلاق من ناحية أخرى، «وهو لا يكتفي بهذا الربط بل يصر على ربط الأدب بالإلهيات ثابتة عامة شاملة وبأخلاق ثابتة عامة شاملة، وهي إلهيات وأخلاقيات لا وجود لها إلا في الموقف الكاثوليكي من الدين، وهو يعترف بأن الحكم على الأعمال الأدبية اقترن دائماً في الماضي ولا يزال يقترن بالفكرة الأخلاقية» انظر: «دراسات أدبية، د. خليل كمال الدين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ١٩٨٥م. ص ٢٦٦».

- وإذا كان منظرو الحداثة في الفكر العربي طالبوا وفي مقدمتهم

أدونيس بإسقاط التراث كما ذكر أستاذنا الشيباني في مقدمته الإضافية لكتاب الدكتور عريف: «وقد كان أدونيس أوضح الحداثيين (إن لم أقل أوقح الحداثيين) في مطالبته بإسقاط تراثنا من إسلامي وعربي. مستجيباً في ذلك لنصيحة أستاذه الكاهن اليسوعي «بولس نوبا» الذي يخاطب أدونيس في الصفحة ١٦ من كتاب أدونيس «الثابت والمتحول» ويقول: «لقد ذكرت في الأطروحة أن التراث هو بمثابة الأب ونحن نعلم أن الابن لا يستطيع أن يكتسب حرّيته ويحقق شخصيته إلا إذا قتل الأب، فعلى العربي أن يميت تراث الماضي في صورة الأب ليستعيده في صورة الابن»، إذا كانت هذه هي رؤية أدونيس للتراث الإسلامي والعربي ورؤية تلامذة له أسلموا قيادهم لترهاته وأباطيله وهي رؤية حاقدة تعبر عن فكر شعوبي بغض، إلا أن رؤية منظر الحداثة الغربي (ت.س. إليوت) لتراثه الفكري والأدبي تغاير تلك الرؤية التي يجاهر بها أدونيس متحدياً كل مشاعر وأحاسيس أولئك الذين ينتمون لأمتنا الرائدة انتماءً حقيقياً لا مراوغة فيه، ف (إليوت) يكشف عمله الإبداعي المشهور «الأرض اليباب» (The Waste Land) عن تقديره لتراثه وتأثره به، ولعلّ العمل الشعري «لإزراباوند» Ezra Pound المعروف باسم (Hugh Selwyn Mober Ley/1919-20) كان له أثره الواضح في قصيدة إليوت التي يعتبرها الحداثيون العرب دستورهم الوحيد الذي لا يحيدون عنه، ولكن المعرفة الناقصة والقراءة المبتورة لا يمكن أن ينتج منها عمل أدبي ناضج في ملامحه ومتميز في شخصيته.

«عن تأثير أعمال إزراباوند في إليوت، انظر: The Waste Land:

Stephen: Coote, and Bryan Loughrey, Penguin Books, 1985, P. P.

- لم يكن إزرا باوند الوحيد من أدباء الغرب الذين كان «إليوت» ينظر إلى أعمالهم تلك النظرة التي تجسد احترامه لتراثه واعتزازه به، فلقد كان دانتي (Dante) دائم الحضور في أعمال إليوت بل إنه كما يقرر الدكتور لويس عوض «لا سبيل إلى فهم إليوت إلا بدراسة ملحمة دانتي المشهورة.. الكوميديا الإلهية»، كذلك يستخدم إليوت ما تعلمه من السير (جيمس فريزر) صاحب الغصن الذهبي، من مثولوجيا مقارنة بمهارة فائقة.

ولقد تجد في قصيدة واحدة من «الأرض اليباب، إشارات وتضمينات من سبنسر وشكسبير، وادي، وجولد سميث، وفرلين وأوفيد وسافو».

انظر: «في الأدب الإنجليزي الحديث: د: لويس عوض، ط ٢، ١٩٨٧م ص ٢٩٢».

- ولقد حاول لويس عوض أن يغمز من شأن إليوت لتمسكه بتراثه الديني وارتباطه به ارتباطاً شديداً، ولم يكن لويس الوحيد من الشيوعيين والليبراليين العرب الذين أظهروا امتعاضهم من هذا الارتباط، فعداؤهم للدين حقيقة تنطق بها كل أعمالهم وإبداعاتهم، وإذا كان إليوت متشبهاً بتراثه الروحي ورموزه الدينية إلى هذا المدى، فإن ذلك يدل على فهمهم لحدثا الغرب يعوزه العمق وتنقصه الموضوعية، وإن تخليهم عن منطلقاتهم الدينية تحت ستار - الحدثا - لا يجعل منهم رواداً في تاريخ أمتهم، أو علامات مضيئة على طريق تراثها الفكري كما هي الحال مع الأدباء الغربيين الذين أدركوا أن الثمن سوف يكون فادحاً لو فكروا في التخلي عن شيء من تراثهم المسيحي الذي قدموه على جميع المنطلقات الأخرى، فيما يجاهر البعض من المحسوبين على الثقافة العربية بأن

تضمين المفاهيم الدينية في العمل الأدبي يخرجهم من دائرة الإبداع إلى عمل أشبه ما يكون بالوعظ والإرشاد.

- ولو أردنا تقصي تلك المفارقات العجيبة التي وقع فيها الفكر الحدائي من جراء جهله بحدائث الغرب وما يرتبط بها من منطلقات دينية وفكرية تجعلها قضية طبيعية في ظل الظروف والسياقات الحضارية والاجتماعية التي عملت على بروزها في حقبة القرن التاسع عشر الميلادي - لو أردنا ذلك التقصي لضاق بنا المقام، وما دمنا محكومين بالمساحة المحددة على صفحات هذا الملحق الأغر فسوف نعود - إن شاء الله - لمناقشة القضية وسوف يكون رائدنا في ذلك كله البحث عن حقائق الأشياء بعيداً عن كل تعسف يؤدي إلى تشويه الحقيقة العلمية التي يسعى الجميع للوصول إليها.

نقاد إنجليز وكتاب عرب

- نالت الكاتبة الجزائرية الأصل، الفرنسية الثقافة واللغة «فاطمة جالير» جائزة «أرلتي» للمسرح الوطني بباريس، وكان مما لفت القائمين على منح هذه الجائزة هو أنّ الموضوعات التي تدور عليها قصص هذه الكاتبة هي تقاليد منطقة المغرب العربي بكل قيودها ومحرماتها، وهو موضوع يكتسب أهمية خاصة من واقع الرؤية الغربية للشعوب الأخرى، وعلى هذه الرؤية نفسها بنى «جيمس فريزر» كتابه المعروف «الغصن الذهبي» The Golden Bough (١٨٩٠ - ١٩١٥م) والذي يقوم على التفسير البنيوي لمحظورات الأكل، أو العلاقات الزوجية، أو العقائد الدينية، الموجودة في المجتمعات المختلفة، ويستثنى من هذا: المجتمعات الغربية.

ولقد طرح الناقد الإنجليزي «جورج واطسون» سؤالاً يهدف إلى توضيح التناقض الذي يبرزه تطبيق هذه الرؤية النقدية، والتفسير المذهبي لتقاليد الأمم الأخرى، وإعطائها تفسيرات معينة هي - في كثير من الأحيان - أبعد ما تكون عن المنهجية، والأسس العلمية المتجردة.

لقد قال «واطسون»: إن التفسير البنيوي لعادات وتقاليد الشعوب الأخرى هو «بديل راق لمبدأ تفوّق الرجل الأبيض في القرن العشرين، ولكي ندرك ذلك ما علينا إلا أن نتصور مقدار دهشة (فريزر) - وكان

أستاذاً بجامعة (كيمبردج) - لو اقترح عليه أحد أن يطبق أسلوبه في التحليل على طريقة الحياة (الأكاديمية) في (كيمبردج)، ومقدار دهشة (ليني شتراوس) الأديب الباريسي لو أقترح عليه أحد أن يحلل عالم الأدباء المحترفين في باريس، متبعاً - في ذلك - نفس منهجه.

حقاً إن مثل هذا الاقتراح له إمكانياته «الكوميدية». ولكن ليس من المرجح أن يتبع أحد هذه الإمكانيات خارج ميدان الصحافة الفكاهية، فالطوطميات والمحرمات مثلها في ذلك مثل الخرافات التي هي من الأشياء التي لا توجد إلا عند الآخرين، فالبداييون يفعلون هذا، و«البورجوازيون» يفعلون ذلك، أما البنيوي فمن المقصود أن يشعر بأنه أسمى من كل ما يفعله هؤلاء. (Modern, Literary Thought/ 1978).

- سوف يتهمنا البعض بأننا متحاملون على الإنتاج الذي يكتبه بعض المثقفين العرب، الذين تلوك ألسنتهم بلغات أخرى، وهو إنتاج يدور - في معظمه - على تصوير التقاليد الاجتماعية، إن لم يكن على ازدرائها، ومحاولة تشويهها، في كثير من الأحيان، وعن بواعث الاهتمام بهذا الإنتاج إعلامياً، ومكافآته مالياً، نعم سوف يتهمنا البعض بالنظر إلى الإبداع من وجهة نظر أخلاقية، وهم لا يعلمون - أيضاً - أن مبدأ احترام الأخلاق، وعدم خدش الحياء، أو انتهاك الرموز الدينية، هو مبدأ يحظى بكثير من الرعاية عند المؤسسات الثقافية والإعلامية في بلاد الغرب.

لكن لا أظنهم يتهمون ناقداً غريباً كبيراً مثل «واطسن» بأنه كان ممالئاً لتقاليد الأمم وأعرافها أو أنه كان ينطلق من رؤية منغلقة ومتعصبة تجاه المذاهب الأدبية الغربية وأساليبها في تحليل الأعمال الأدبية، إلا أن التفسير الأقرب إلى الصواب هو أن كثيراً من كبار النقاد الغربيين لا

ينظرون إلى المذاهب الأدبية الخارجة من بيئاتهم، والممثلة لبعض الاتجاهات الفكرية لديهم، لا ينظرون إليها بذلك التقديس، أو تلك النظرة السحرية التي ينظر - للأسف الشديد - من خلالها بعض المثقفين العرب الذين يبهروهم كل جديد من الغرب، ويضايقهم كل أصيل في تراثهم ولغتهم!

- بقيت مسألة هامة، في هذا السياق، وهي أن من ضمن ما تناولته الكاتبة «فاطمة جالير» في قصصها التي جذبت انتباه بعض المؤسسات الثقافية، في البلاد الغربية، هي مسرحيتها المعروفة باسم «آه لقد جئت» والتي يدور موضوعها - من وجهة نظر الكاتبة - حول التطرف الديني.

وإذا كنا - كمسلمين - نرفض أساليب التعصب، والتطرف المنافية لروح الإسلام واعتداله، إلا أن الأمر يبقى من وجهة نظر بعض المؤسسات الغربية مختلفاً، فالإسلام - عند هذا البعض - هو تطرف كله. ولا اعتدال فيه. ولا نريد أن نفصل القول في دور الإسلام في نشر التسامح والعدل، وتطبيقه على جميع الأمم. التي دخلت حظيرته، ولكن يكفيننا الإشارة إلى أن المسلمين يسمّون إبنائهم باسم نبي الله «عيسى» ووالدته العذراء «مريم» عليهما السلام، ولا يرضون أن يتعرض أحد لمكانتهما بسوء، ويدخل ضمن هذا المعتقد الإسلامي أنبياء الله كافة، ورسله، وعباده الصالحين، ولكننا هل نجد نفس القدسية والرعاية لنبي الله وخاتم رسله محمد بن عبد الله - ﷺ - عند غير المسلمين من أتباع الديانات الأخرى؟ إن الإجابة عن هذا السؤال كفيلة بتوضيح كثير من مفاهيم الاعتدال والتطرف، ودور الإسلام في التأكيد على الأول، وصونه ورعايته.

حقائق عن «الغونكور»

وقضية الاتصال الثقافي

بعض المذاهب الأدبية الغربية، والمناهج المبنية عليها، تحدث كثيراً من الانبهار المصحوب بتوتر وحماس شديدين لدى فئة معينة من أدباء ومفكرى عالمنا العربي، والذي يردّه بعضهم إلى عوامل حضارية معيّنة. والأمر نفسه ينطبق - بصورة واضحة - على بعض تلك الجوائز، التي تمنحها بعض المؤسسات الغربية لبعض الأدباء غير الأوروبيين، والذين يتحدرون من دول، كأمريكا اللاتينية، أو آسيوية أو إفريقية.

وربما كان لبعض الأدباء، الذين ينتسبون بأسمائهم فقط إلى العالم العربي حظ ضئيل من هذه الجوائز، ومع ذلك فإن بعضهم يبالغ في تصوير مكانة هؤلاء الكتاب، الذين رشحوا لجائزة من هذه الجوائز ويتجاوز الأمر الكتاب أنفسهم إلى الجائزة الممنوحة، فيبالغ في تصور أهميتها، ويتطرق في الدفاع إلى موضوعية بواعثها، ونزاهة أهدافها، بينما نجد - في حقيقة الأمر - أن بعضاً من هذه الجوائز وفي بيئتها الأصلية، هو محور لعدد من المناقشات العلمية، التي تبحث في حقيقة توجه هذه الجوائز، وعدم مصداقية القائمين على منحها، وذلك لخضوعهم لعوامل مادية وعاطفية تؤثر في القرارات، التي يتخذونها بشأن منح هذه الجائزة،

ولا تكف الصحف، والملاحق الأدبية الغربية، في كل مناسبة تمنح فيها هذه الجوائز عن فتح هذا الملف، تنويراً للقارئ الأوروبي، وتنبهاً له من مغبة الاعتماد على هذا الاختيار الأدبي، الذي تنقصه الموضوعية، ولا تتوافر فيه عوامل الصدق والإخلاص.

- لقد كان موضوع جائزة «الغونكور» وهي أبرز الجوائز الأدبية في فرنسا، مجالاً للبحث والمناقشة في هذا العام في مناسبة منحتها لبائع الصحف «جان رود» Jean Rouaud على روايته «في سبيل الوطن»، وهي رواية تروي قصة عائلة تعيش آثار الحرب العالمية، وتتمحور حول صورة الأب الذي يمثل موته النقطة المركزية فيها^(١).

كانت الملاحق الأدبية في صحيفتي «لوفيغارو» و «لوموند» هي التي فتحت نيران النقد اللاذع على ما أسمته بقبيلة «الغونكور» ويتركز النقد الموجّه إلى هذه الجائزة، وجوائز فرنسية أخرى، مثل «رينودو» و«ميدسيس» و «فيميننا» و «أنثيراليا» في أن دور نشر معينة، وهي «غاليمار» و «غراسيه» و «سوى» هي التي تحظى بنشر الروايات الفائزة، وذلك لأن هناك ارتباطاً قوياً بين الأعضاء القائمين على منح الجائزة وبين دور النشر التي أتينا على ذكرها، فبعض هؤلاء الأعضاء ينشر إنتاجه الأدبي فيها، وبعضهم يعمل مستشاراً في أقسامها الأدبية المتخصصة، بينما يحتل قسم منهم موقعاً إدارياً فيها.

وهذا ما يجعل النقد الموجه إلى المقاييس التي تمنح بها هذه الجوائز يحظى بكثير من القوة والتأثير، كما يفتح أبواباً للتساؤل لدى

(١) انظر: مقالة «وائل غزال» «غونكور أهم الجوائز الأدبية الفرنسية هدفها الريح»، «الحياة»، ٤

القارئ المعني بهذه الجوائز، أهمها أنّ عامل الاستهلاك التجاري الذي يعود بالربح الوفير على هذه الدور يتدخل كثيراً في منح جائزة، مثل جائزة «الغونكور»، والتي ذكر أحد الأعضاء السابقين في لجنتها التحكيمية، وهو «لوسيان ديكاف» تبريره للاستقالة من اللجنة، بقوله:

«لن أعود أبداً إلى أكاديمية، هي بمثابة سوق قائم على الصفقات».

كما نشر «جوليان غراك» كتاباً في أوائل الخمسينات، بعنوان «الأدب في المعدة» ويشير فيه إلى أن أعضاء لجنة «الغونكور» يقررون الجائزة، وهم يتناولون الطعام. ولم يكتف «غراك» بما نشره من تحفظات على الجائزة، ولكنه ذهب إلى حد رفض الجائزة، عندما منحت له على كتابه «ضفاف الساحل»^(١).

ولعلّ العامل التجاري نفسه كان وراء استقالة عضو آخر، في لجنتها سنة ١٩٦٨م، وهو «أراغون». وانتقاد الكاتب الفرنسي «جان أدرن - اليه» لها، والمتمثل في قوله: «غونكور هي عملية بحث تجارية».

- ولعلّ هذا النقد العلمي الدائر حول جائزة «الغونكور» في الصحافة الفرنسية المتخصصة، وهو نقد يهدف إلى تجريد الكتابة الأدبية، عندما تكون موضوعاً لجائزة، من كل العوامل الذاتية، والأهواء الشخصية، يدفعنا إلى مناقشة قضيتين هامّتين، وهما:

إلى أي مدى يستطيع نقاد الأدب، في بلادنا، التعامل مع موضوع الانفتاح على الثقافة الغربية، ومنها الجانب الأدبي، بشيء من الاعتدال، فلا نفرط ذلك الإفراط، عند التعامل مع التيارات الأدبية العالمية، وما

(١) المرجع السابق نفسه.

يتصل بها من إبداع يدور في فلكها، ذلك التعامل الذي يستبعد فكرة «المفتاح السحري» الذي يعتقد بعضنا أنه يمكن تحقيقه، من خلال تطبيق هذا المنهج الفكري أو ذاك على كل ما نحوز من تراث، ونملك من فكر، فما ناسب ذلك المنهج الغربي كان مقبولاً لدينا، وما خالفه كان مرفوضاً ومنبوذاً، على أنه في الجانب المقابل يجب ألا يشكل موضوع قراءة إنتاج غربي، والاستمتاع بصور الإبداع فيه، والاستفادة من المعطيات الحضارية عند الأمم الأخرى من خلاله - ألا يشكل ذلك حساسية لدينا، فنوصد الأبواب، ونخشى من هبوب الرياح، فالثقافة الإسلامية والعربية ثقافة راسخة الجذور، ودائمة العطاء، ولا يمكن لثقافة أخرى أن تقتلعها من نفوس أبنائها، أو تقوّض أركانها، التي امتدت امتداد ذلك التاريخ العظيم، النابع من الرسالة الإنسانية، المتمثلة في إعجاز كلام الله، وبلاغة نبيه - ﷺ .

أما القضية الأخرى فهي: إلى أي حد استطاعت الملاحق الأدبية، في عالمنا العربي، الخروج من رتابتها، وإيقاعها الواحد، إلى عملية البحث، والتقصي في القضايا، التي تهم القارئ، وتستأثر باهتمامه، فكثير أولئك الذين سمعوا عن جائزة «الغونكور» من خلال فوز عدد محدود من الكتاب العرب بها، كالطاهر بن جلّون، سنة ١٩٨٧م^(١) وقليل أولئك الذين أتاحت لهم فرصة التعرف على تاريخ هذه الجائزة، وأهدافها، وما يوجّه إليها من نقد علمي. ويدخل في ذلك - بالطبع - جوائز أخرى

(١) حول الكتاب العرب الذين يكتبون إنتاجهم باللغات الأوروبية، انظر: دراسة كاتب المقال في ملحق «الأربعاء» الثقافي، بصحيفة المدينة «مقفون عرب ولكن بدون هوية» الأربعاء ٤ جمادى الأولى ١٤١١هـ.

نسمع بأسمائها، ونجهل حقائقها.

- إنها قضية الصحافة المتخصصة في الفكر والأدب، وقضية القائمين على هذه الصحافة، والذين يميلون إلى موقف فكري معين، ويجعلون منه خندقاً يتمترسون من خلاله في مواجهة كل موقف فكري وأدبي آخر يخالفهم في الرأي، أو يناقضهم في التصور، ويتعننون كل التعنت في الانتصار لمن يحبون من الأسماء، بعيداً عن صلاحية وجدوى ما تكتبه هذه الأسماء، أو تضيفه، إلى رصيد ثقافة الأمة وفعاليتها.

ثم هي قضية أولئك النفر، الذين يملكون من المعرفة ووسائل البحث ما يؤهلهم لتبيين الحقائق المتصلة بحضارة الآخر، وثقافته، ولغاته، ولكنهم يؤثرون الصمت، ويميلون إلى التغاضي، وعندئذ يتصدى للقول في هذا الجانب من تنقصه أدوات المعرفة، وتغيب عنه حقائق الاتصال الحضاري وضوابطه ومنطقاته.

على أنه لو اقتصر هذا النفر على قول ما يعرفه لم يضره الإحجام عن اقتحام ما يجهله، أو ما لا تعينه عليه مواهبه وأدواته، ولكنه حب الظهور من غير تمكن، وتعجل للشهرة، بدون دواعيها، واستباق للزمن من غير ضابط.

ولعلّ الضحية الوحيدة في هذه القضايا، التي قاد إليها البحث في قضية جائزة «الغونكور» هو القارئ الذي يأتمن القائمين على منابر الثقافة والأدب، ناظراً إليهم كرموز مضيئة تشير إلى الحقيقة التي يبحث عنها الإنسان، والحقيقة في ثنايا الفكر، وبين سطور الإبداع، هي ما يرتقي بهذا الإنسان إلى عوالم الروح، تلك العوالم المشعة بالضياء، والمترعة بالصدق، والقريبة من المنابع الأولى للمعرفة.

نجيب محفوظ والالتزام الفكري

بالأمس القريب كنا نهش بالبكاء. وترتفع أصواتنا بالنجيب حزناً على عدم تقدير المؤسسات الغربية لفكرنا وأدبنا، ومَرَدُّ ذلك إلى أننا جعلنا الغرب وجوائز العلم مقياساً للتقدم والرقي الفكري، وجهلاً بتراثنا وقيمتها وجدواها، وعندما فاز «نجيب محفوظ» بجائزة نوبل للأدب، بدأنا ندق الطبول، ونشد الأهازيج، ونرقص فرحاً وسروراً، وكأن لسان حالنا يقول: لقد زالت عقدة النقص التي كنا نشكو منها، وحقيقة الأمر أن الهالة التي أحطنا بها هذه الجائزة والآمال التي كنا وما زلنا نعقد عليها جزء من الغزو الفكري الذي يشلّ إرادة الأمة، ويشوه وجهها الحضاري ويغير في بنيتها الثقافية.

لقد كان القائمون على هذه الجائزة من الذكاء بمكان، فلقد حجبوها عنا ردحا طويلاً من الزمن، ثم منحوها لواحد من الكتاب العرب الذين لا يشك في اتساع ثقافتهم وتنوع مواهبهم، وقدرتهم في السيطرة على الأداء اللغوي وتمكّنهم من الأسلوب الأدبي إلا أن هذا كله لا يمنعنا من القول: إن إنتاج «نجيب محفوظ» وخصوصاً في تجاربه الروائية التي يمكن إدراجها تحت ما يسمى بالمذهب الواقعي، يمثل الجانب المظلم من سلوك بعض الطبقات الاجتماعية فهو لا يتعامل مع هذه الطبقات إلا

من الجانب السلبي منها، وخاصة الطبقة الوسطى التي أكثر تعامله معها، وأكثر تركيزه على نماذجها البشرية بدءاً من «علي طه»، و «أحمد بدير»، و «مأمون رضوان»، في (القاهرة الجديدة)، وانتهاء «بحسين»، و «حسنين كامل علي» في (بداية ونهاية)، ومروراً «بأحمد عاكف» وأخيه «رشدي» في (خان الخليلي)، و«كامل رؤية لاذ» في (السراب)، و «عباس الحلو» في (زقاق المدق).

لقد أظهر محفوظ جوانب القاهرة السلبية في بنيتها الاجتماعية، وشخصياتها النمطية وبعض صور واقعها، ولنا أن نضيف أن القاهرة عمرو ابن العاص، والعز بن عبد السلام، وسعد زغلول، والرافعي، وعبد الحليم محمود، وحسنين مخلوف، ومحمد متولي الشعراوي، وزينب الغزالي، وبنت الشاطئ لتوحي بواقعية أشمل رؤية وأظهر سلوكاً، وأوضح طريقاً، ولكن «محفوظ» الذي عبّر رمزياً في (أولاد حارتنا)، عن إيمانه بالاشتراكية كمنهج بديل في الحياة هو الذي سخر موهبته الأدبية، وأداته الفنية لتصوير النفس الإنسانية في بعض مراحل هبوطها أو انحدارها، وهي واقعية تحتذي النموذج الغربي والمتمثل عند الروائيين الإنجليز والفرنسيين من أمثال «جالز ويرثي»، و «أرنولد بينت»، و«جورج موور»، و«الإخوان دي كونكورد»، و«بلزاك»، و«أميل زولا»، و«موبسان» و«فلوير».

أما الواقعية الحقيقية التي تنظر إلى الإنسان في صفاء روحه. وطهارة سلوكه، ومثالية أخلاقه، ونظافة تعامله، فهي الواقعية التي نهل من معينها أدباء ومفكرون من أمثال «علي أحمد باكثير»، و«محمد قطب»، و«عماد الدين خليل»، و«نجيب الكيلاني»، و«عبد الحميد جودة السحار».

إن هؤلاء الكتّاب الذين أناروا الطريق بإنتاجهم الفكري والأدبي
القيّم، ولم يخرجوا عن الطريق السوي الذي ارتضاه الله لعباده، لهم أكبر
من جوائز الغرب وأعظم من تقدير هيئة حكامها ومنظريها.

* * *

رواية (قصر الأحلام)

- ربما يكون من الميسور على لجنة الترشيحات الخاصة بجائزة «نوبل»، في المستقبل، اختيار واحد من كتاب ثلاثة، ينتمون إلى بلاد إسلامية، وهم: سلمان رشدي، و: ف. سي. نايبول من الهند، وإسماعيل قدرى من ألبانيا وسوف يكون المبرر غير المعلن، وراء اختيار هؤلاء لهذه الجائزة، هو: هجومهم البغيض، وتحاملهم المنكر على الإسلام.

وقبل أن نلج إلى مناقشة خبر توبة «سلمان رشدي» وعودته إلى حظيرة الإسلام، كما حملته إلينا بعض الصحف الغربية والعربية، على حد سواء، يحسن أن نشير إلى أن الباعث الحقيقي خلف هروب القاص الألباني «قدرى» من ألبانيا إلى فرنسا، هو: استعجاله لقبض الثمن من بعض أجهزة الإعلام الغربية، لما أبداه من وقاحة متناهية في روايته الأخيرة (قصر الأحلام) والتي وظف فيها أحداث التاريخ الإسلامي، في ألبانيا، للهجوم على شخصية الرسول - ﷺ - والتي تمثلها، في الرواية، شخصية شيخ الإسلام، وما تقوم به من أدوار، ولن يكون من الصعب استكناه ذلك، أو اكتشافه، فكل تطورات الحدث وما يرتبط به من رموز وأساطير تشير إلى مغزى الكاتب، وما يرمي إليه من أهداف في روايته

التي نشرت، قبل شهور قليلة، في فرنسا.

- إلا أن «رشدي» الذي لم يكن، في يوم من الأيام، روائياً من الدرجة الأولى، قد حصد - من قبل - ثمن جنوحه وشططه، فلقد فاز - في الثمانينات الميلادية - بجائزة «بوكرك» الإنجليزية، ومع أن حدث توبته الذي جاء بعد سنتين من عزله وانقطاعه عن المجتمع، بعد قضية ذاتية، مع ما نلاحظه من اختلاف لتفسير هذه التوبة، من قبل المؤسسات الإسلامية، داخل بريطانيا وخارجها، إلا أنه يدهشك ذلك الكم الكبير من المقالات التي نشرتها بعض الصحف الغربية حول موضوع توبة هذا الكاتب، بعد اجتماعه مع ستة من علماء المسلمين.

ولا تخرج هذه المقالات - في معظمها - عن كونها توبيخاً لرشدي على إعلانه التوبة، وتشكيكاً في مفاهيم العدل والتسامح والرحمة في الدين الإسلامي.

ولا تخفى هذه المقالات - أيضاً - تحريضها للمؤسسات الغربية ضد الكتاب الذين ينتمون للبلدان الأخرى، خشية أن يستيقظ ضمير هؤلاء الكتاب يوماً، فيبوحوا بما يعرفونه عما يحاك من خلف ظهور المسلمين، وعلى يد أبنائهم - للأسف الشديد - في كثير من الأحيان.

الدكتور محمد برادة والتهافت الأيديولوجي

- يدور بعض الذين يتصدون للكتابة النقدية، في العالم العربي، في حلقة مفرغة، من حيث تطلعهم إلى إيجاد منهج ملائم، ينبثق من التراث العربي النقدي، وينفتح - في الوقت نفسه - على المناهج الغربية الحديثة، للإفادة منها، في ميدان البحث والتحليل الأدبيين، ولكن سرعان ما يقع هؤلاء الكتاب في أسر «الأيديولوجية» الفكرية، والتي يحاولون إخفاءها، أو التنصل منها، عند مواجهتهم بالأدلة على تهافت هذه المنطلقات «الأيديولوجية» التي تشكل رؤيتهم لهذه الحياة، ولا يقتصر مداها على ميادين الفكر والأدب.

- في مقدمة الكتاب العرب، الذين يبصرون الكون بأعين غربية، ويصرون على تكبيل عقولهم، بنظريات الفكر «الماركسي» الكاتب المغربي الدكتور «محمد برادة» الذي تغير العالم من حوله تغيراً جذرياً، وذلك عندما تخلصت شعوب أوروبا الشرقية من جميع القيود الشيوعية، سواء كان ذلك في ميادين الاقتصاد أو الفكر والثقافة، بل إنها عبّرت عن رفضها لجميع التصورات، التي حاول منظرو الحركة «الماركسية»، على مدى قرون عديدة، فرضها بالقوة والإكراه.

وكان هذا التعبير يبدو واضحاً في تحطيم تماثيل «لينين» و «ستالين»

في الساحات والميادين العامة، والهروع جماعات إلى أماكن العبادة، وهو شعور فطري، وإدراك سليم لم يكلف منظرو التوجهات «الماركسية»، في عالمنا العربي، أنفسهم عناء التوقف عنده، ودراسة أبعاده، لاستخلاص الدرس، الذي يجب أن يعده جيداً، وهو أن العالم الغربي بمعسكريه الغربي والشرقي لم ينفصل - يوماً - عن دينه، أو يحتقر طقوسه وشعائره، بل عاد، وهو أكثر إيماناً بمنطلقاته وثوابته، في الوقت الذي ما زال يحلم فيه البعض من رموز الحركة الثقافية، في عالمنا، من أمثال «محمود درويش»، و«عبد الوهاب البياتي»، و«عبد العزيز المقالح»، و«غالي شكري»، و «كمال أبو ديب» يحلمون بعودة أمجاد الساحة الحمراء، فهناك - في اعتقادهم المنحرف - يُقدّم الولاء، ويحسن التبتل، وتذرف الدموع.

والدليل على أن هذه النخبة لم يدركها التغير الطبيعي، الذي أدرك الآخرين، وأصاب الأمم التي كانت مصدراً لهذه المعتقدات والآراء، هو ما تكتبه أو تبدعه من إنتاج فكري وأدبي.

وقبل مدة ليست بالقصيرة وقعت بين يدي أطروحة الدكتور محمد برادة التي كتبها - في الأصل - باللغة الفرنسية، وقدمها للحصول على «دكتوراه السلك الثالث» من جامعة باريس، تحت إشراف الأستاذ أندريه ميكيل، وكانت بحوثها تدور حول الناقد المعروف «محمد مندور».

وعندما قرأت مقدمة «الأطروحة» والتي تقع في حوالي مائتي صفحة، والصادرة عن دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، استوقفتني عبارات المؤلف الراضية لاتخاذ المذاهب الأدبية الغربية منهجاً لدراسة فكرنا وأدبنا، لما لهما من خصوصية وتفرد.

يقول البرّادة، في هذا السياق: «إننا غير مقتنعين بالمنهج الذي يتخذ المذاهب الأدبية المقتبسة عن أوروبا، إطاراً مميزاً للممارسات النقدية العربية، لأن ظروف النشأة والمكونات ومسار التطور والتبلور متغايرة بالحتم، ومن ثم فإن كل تعميم لمثل هذه المقاييس لا ينفذ إلى خصوصية الاتجاهات عندنا» «مقدمة الأطروحة: ص ١٠.

إلا أن هذا التوقف لم يطل، وإذا بتلك السحابة التي خلتها سوف تمطر تنقشع عن رعود وصواعق مهلكة، وتنذر بجذب مخيف، حيث رسم الرجل - فجأة - منهجه، وحدد معالم هذا النهج بقوله: «لقد آثرنا - فيما يخصنا - استيحاء المناهج الصادرة عن البنيوية التكوينية، كما بلور كل من جورج لوكاش، ولوسيان كولدمان (قولدمان) وبيير بورديو، وفي رأينا أن ميزة هذا المنهج تتمثل، فضلاً عن مرونته المفهومية، في الأهمية القصوى التي يعطيها للتاريخ بمفهومه الواسع والمعقد، ولما كان معظم الدراسات المتصلة بالمجتمع العربي وثقافته مطبوعاً بإضفاء القداسة على حساب التحليل الموضوعي، فإن الصدور عن منهج تاريخي جدلي مرتبط بالقوى الاجتماعية، وصراعاتها، وانعكاساتها الأدبية والفنية، من شأنه أن يسهم في تخليص دراساتها من هالات التقديس والتبرير القائم على أحكام مسبقة» (المقدمة: ص ١١).

لقد عاد «برّادة» للحلقة المفرغة التي تحدثنا عنها في بداية هذه الكلمة، ونقض ما ذهب إليه - في بداية المقدمة - من رفض وعدم اقتناع بالمذاهب الأدبية الغربية، كإطار للدراسات النقدية العربية، واستبدل مذهباً بمذهب آخر، وأراد أن يتخلص من اتباع وتقليد، فإذا به يقع في إصار اتباع وتقليد من نوع آخر، إلا أنه - مع تحديده للمنهج الذي أثره بالاتباع، وهو البنيوية التكوينية - لم يذكر لقارئه أن هذا المنهج هو وليد

التصور «الماركسي» بل هو ألصق المناهج بهذا التصور وأقربها منه، وإن كانت كلمات «برادة» الواردة عند تحديده لمعالم هذا المنهج البنيوي، «الماركسي» تشي بتوجهات صاحبه، وتوضح مرامييه، فالكلمات مستمدة من قاموس خاص، لم يعد يخفى على القارئ العادي، فضلاً عن القارئ المثقف، وهل يحتاج الإنسان إلى تتبع المصطلحات التالية التي حفلت بها عبارات الباحث: من مثل: تاريخ جدلي، القوى الاجتماعية، الصراعات، هالات التقديس، ليعرف مصدرها الفكري، ومنطلقها العقائدي، قبل ولوجها ساحة النقد، وتخفيها تحت قناع أدبي خالص؟

- لم يكن تناقض برادة - في المقدمة - هو كل ما استوقفني في الكتاب، ولم يكن انحيازه تجاه البنيوية التكوينية «الماركسية» بالجديد عليه، فالرجل سبق له أن بشر بهذا المذهب، وترجم بعض المصادر الخاصة به، وليته توقف عند هذا الأمر، ولم يتورط في أمر أشد نكايه وأعظم خطراً: ألا وهو الانتقاص من شأن شخصية الرسول - ﷺ - وذلك عند انتقاده لبعض الكتاب: الذين يهتمون حياتهم - بحسب تعبيره - بالكتابة عن حياة الرسول - ﷺ - وليتبرأ الكاتب من مقولة شنيعة كهذه حاول إلصاقها بالكاتب الذي خصص دراسته عنه: وهو «محمد مندور» ولكنني عند العودة إلى نص «مندور» والمنقول عن كتابه (في الميزان الجديد)، والمثبت في مقدمة «برادة»: لم أجد أثراً لهذه العبارة المفتراة، وبالتالي فلا بد أنها تكون من وضع «برادة» نفسه: الذي يقول: «كان مندور مثله مثل الرواد في بداياتهم متأجج الغضب، ساخطاً على نفاق النقاد، وعلى تقهقر الكتاب الكبار الذين ينهون حياتهم بإصدار مؤلفات عن رسول الله» (المقدمة: ص ٤).

إن الحديث عن شمائل المصطفى - ﷺ - يعتبر في نظر «برادة» تقهقراً، كما أن التأليف في سيرته يعد من سمات النفاق في نظر هذا الكاتب الذي ينتمي إلى البلد الذي أنبت أرضه الطيبة علماء خُلدت أسماءهم في التاريخ الإسلامي، بما كتبه عن رسول الهدى، والتعريف بحقوقه: كالقاضي عياض بن موسى اليحصبي، والإمام عبد الرحمن الجزولي - رحمهما الله .

ولعل «برادة» رأى في صنيع بعض المفكرين والأدباء العرب: مثل: الدكتور «هيكل»، والأستاذ عباس العقاد، الذين كرسوا جهودهم الفكرية للدفاع عن الإسلام: كنظام ودستور حياة.. والاحتفاء بشخصية خاتم الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد - ﷺ - كما نجده عند «هيكل» في كتابه (في منزل الوحي)، وفي كتابه الآخر (حياة محمد) الذي ترجمه لأحد الكتاب الغربيين عن اللغة الفرنسية (والكتاب مع هذا عليه مآخذ عديدة).

وكما فعل «العقاد» في عبقرياته المشهورة، رأى «برادة» في هذا الصنيع، انطلاقةً من تصوره الفكري، خطوة كان يجب أن تتم في الجانب الآخر، وهو التبشير بالمذاهب المادية، والإشادة بالرموز الفكرية لهذه المذاهب، فهذا - في نظر الكثيرين، من أمثال «برادة» - هو عين التقدم، وحقيقة التطور، الذي يرجونه لمجتمعاتهم.

إلا أن على «برادة» وأمثاله الذين لن تنال كلماتهم الحاقدة من شخصية الرسول - ﷺ - شيئاً، عليهم أن يعلموا أن هذه الشخصية لم تنتزع فقط إعجاب أولئك الذين يتردد على مسامعهم اسمه الكريم، خمس مرات في اليوم، وتفتح بصائرهم، كلما توقفوا عند سيرته

العظيمة، قارئين لها، ومتعظين بأحداثها ودروسها، بل انتزعت - أيضاً - إعجاب كبار الكتّاب الغربيين الذين ينظر «برادة» إلى عطائهم الفكري بإعجاب هو النفاق بعينه، وإكبار هو التقهقر الحقيقي، ونحن نورد له - هنا - فقط اسم برتراند رسل «من أكبر الفلاسفة الغربيين» فمع أن هذا الفيلسوف لم يرض عن دينه إلا أنه أشاد بالإسلام ورسوله الكريم، وكذلك فعل الروائي الإيرلندي المعروف «برناردشو»، وقد قرأت - أخيراً - عرضاً علمياً في الملحق الأدبي لصحيفة «التايمز» البريطانية، لرحلة الكاتب الهندي «ممتاز مفتي» إلى مكة والمعروفة باسم (لييك) فوجدت أن الكاتبة الغربية Barbara, Metcalf تنعي على بعض الكتّاب الذين ينتسبون إلى الإسلام رغبتهم في التقليد الأعمى للكتّاب الغربيين، ومناهجهم الفكرية، ثم تذكرهم بشيء هام ومفيد في سياق حديثها وهو: إن الكتّاب الغربيين - وإن كانوا لا يؤمنون برسالة الإسلام - إلا أنهم يعتبرون «النبي» محمداً رجلاً عظيماً. وهذا إثبات لمقولتها، كما وردت في الملحق المذكور:

That it, Nothing, Else, Ehey, Respect, The prophet, Muhammad,
as, (a greatman).

(انظر T.L.S. Hune 1-7/1990/p/585).

الباب الثاني

الشرق والغرب

حقيقة الديمقراطية

- استأثرت بالرأي العام البريطاني أخيراً قضيتان هامتان، ومع اختلاف الجهات المرتبطة بهاتين القضيتين من حيث البواعث والشخصيات، إلا أنهما تعكسان الرؤية الحقيقية للمجتمع الغربي تجاه الأعمال الإبداعية (الكتابية منها والمرئية) التي تتعرض بالنقد أو الكشف عن بعض الجوانب الخاصة لشخصيات تحظى بالحصانة القانونية لمنزلتها الاجتماعية، أو لما تقدمه للمؤسسات السياسية والثقافية من خدمات خاصة ومميزة لا تستجيب لأدائها أو القيام بها إلا فئة محددة من الناس.

- **القضية الأولى:** هي صدور أمر قضائي بمنع المجلة الفرنسية «باري ماتش» من دخول بريطانيا لنشرها في عددها الأخير مقتطفات من كتاب يذيع بعض أسرار العلاقات الخاصة في الأسرة البريطانية المالكة، مما اضطر موزعي المجلة لقص الصفحات من ثمانية آلاف نسخة توزع في بريطانيا ووضع على كل منها عبارة «لأسباب قانونية تم نزع بعض الصفحات».

- **أما القضية الثانية:** فهي قيام اللجنة البريطانية للرقابة على الأعمال السينمائية بمنع عرض فيلم باكستاني عنوانه «انترناشيونال غيريللا» تدور أحداثه حول قصة خيالية عن موت الكاتب الهندي الأصل

البريطاني الجنسية «سلمان رشدي» مؤلف كتاب «آيات شيطانية»، وبررت اللجنة عملها هذا بأن الفيلم يخالف القوانين البريطانية التي تحرم التشهير العمد.

«وإن كان قد وافق أخيراً وتحت ضغط الصحافة والرأي العام على عرض الفيلم في مقاطعات معينة وللمتفرجين فوق ١٨ سنة».

والقضيتان تحملان دليلاً واضحاً وتقدمان شاهداً حياً على عدم حيادية ونزاهة القوانين الغربية تجاه مثل هذه القضايا، فكم من الأفلام التي تعرضت بالتشهير لفئات أو بلدان معينة وقام بعرضها التلفزيون البريطاني، وأشهر المسؤولين البريطانيين في وجه المطالبين بحظرها سلاح الحرية الشخصية واستقلالية المؤسسات الإعلامية، وذلك في سبيل نزع أحقية توجيه النقد أو اللوم من الجهة المعنية، بل ذهبت الصحافة الغربية في كثير من هذه المناسبات إلى اعتبار مبدأ الاعتراض - نفسه - دليلاً على تخلف الرؤية الحضارية وقصور الإدراك والفهم، وأن المجتمع الغربي لا يمكنه التجاوب أو التعاطف مع مثل هذه الأساليب التي تجاوزها الفكر الإنساني وتخطتها الحياة المعاصرة.

وإذا كنا كمسلمين نؤمن - انطلاقاً من تعاليم ديننا - بمبدأ عدم التشهير والترفع عن الأساليب الرخيصة التي تكشف مساوئ الآخرين ومثالبهم، فإننا لا نقصر هذا الحق على أنفسنا ونستأثر به دون سوانا.

ولكننا نطبقه حتى في حق أولئك الذين يختلفون عنا في سلوكهم الحضاري ورؤيتهم الثقافية، وهذا هو الفرق بين ديمقراطية الغرب وعدالة الإسلام.

أزمة حرية الكلمة في الغرب

- لقد كان هدف المقالة التي نشرتها على صفحات جريدة المدينة بتاريخ ١٤٠٨/١/٢١هـ، تحت عنوان «المذكرات التي فجرت قضية حرية الصحافة في الغرب»، هو توضيح للسؤال الكبير الذي يدور في ذهن الفرد العربي عن مفهوم هذه الحرية في المجتمعات الأخرى التي تختلف رؤيتها الحضارية وتكوينها الفكري عن تلك المنطلقات التي تأسست عليها رؤية المجتمع الإسلامي والعربي، وبالتالي فإنه يصبح من المتعذر عقد أي مقارنة بين رؤيتين مختلفتين في التكوين، ومتباعدتين - نسبياً - في استخلاص الحقائق من القضايا الفكرية المجردة.

- والغرب الذي توجهت حضارته، واتفقت آراء مفكريه على حفظ حق ما يسمى بحرية الكلمة لجميع أفراد المجتمع والدفاع عن هذا الحق من فوق المنابر السياسية والإعلامية في كل مناسبة يشعرون فيها - بحسب اعتقادهم - بخطر يهدد هذه القيمة الحضارية الهامة، هذا الغرب - نفسه - هو الذي يقع في تناقض غريب تجاه هذا الحق المزعوم، وآخر حدث في سلسلة هذه التناقضات الغربية ما أبدته الصحافة البريطانية من امتعاض كبير تجاه زيارة «ماريه ليبون Marie Lepon» - زعيم الجبهة اليمينية المتطرفة في فرنسا، لبريطانيا لإلقاء محاضرة على هامش المؤتمر السنوي

لحزب المحافظين، ومع أن تاريخ «ليبون» مليء بالمآخذ الشخصية والسياسية كمشاركته في تعذيب المجاهدين الجزائريين في الحقبة الاستعمارية الفرنسية وتشجيعه على شرب الخمر بصورة مفرطة لبعض أصدقائه والذين لقوا حتفهم بسبب هذه العادة الرذيلة، وأخيراً انفصاله عن زوجته التي رفض مساعدتها فاضطرت للخدمة في البيوت، كل هذا لم يشكل عائقاً أمام إعطاء «ليبون» الفرصة ليقول كلمته ويوضح آراءه لأفراد الشعب البريطاني الذين يحظى بشيء من الشعبية بينهم، لقد كان العامل الأول والأخير الذي تسبب في إعاقة هذا الاتصال - بحسب رأي رئيس حزب المحافظين «نورمان تيببت Norman Tibbet» - هو تصريح «ليبون» في مؤتمر صحفي عقد في فرنسا والذي قال فيه: «إن قضية الأفران الغازية أثناء الحرب العالمية الثانية هي أمر ثانوي، وإن كثيراً من المسيحيين (الألمان وغيرهم) ماتوا من جراء المد النازي الذي أراد أن يكتسح أوروبا عسكرياً وفكرياً».

- وحتى ندرك أبعاد هذه القضية التي أنست الغرب مبدأ حرية الكلمة الذي ينادي به، وأصابته بكثير من التناقض في مواقفه الفكرية، علينا أن نعرف أن الذي وجه الدعوة إلى الزعيم الفرنسي المتهم بعداء السامية - تملقاً لليهود - هو مستشار يهودي سابق في حزب المحافظين وأحد الممنوحين لقب (سير)، أما اسمه الحقيقي فهو «ألفرد شيرمان Alford Sherman» وقد عرف «شيرمان» هذا بآرائه العنصرية المتطرفة ضد جميع المهاجرين إلى بريطانيا - ما عدا بني جنسه من اليهود، إيماناً منه أن أوروبا يجب أن تظل وكرّاً لليهود، يحتلون منابرها السياسية، ويوجهون اقتصادها، ويحددون اتجاهاتها الإعلامية. إن آراء معلنة كهذه لم تثر يوماً

عاصفة سياسية أو ضجة إعلامية في المجتمع البريطاني، فصدورها من شخصية يهودية هو ضمان لها في أن يتقبلها الآخرون ثم يهضمونها قبل أن ترتفع أصواتهم بشيء من المعارضة والاستنكار.

- كما علينا أن نعرف أن الذي بدأ بمعارضة زيارة «ليون» هو العضو العمالي في البرلمان الإنجليزي وعضو مجلس النواب اليهودي «جريفل جانير Grevill Janner»، ثم أتى الآخرون وتسابقوا في إظهار الولاء، وكان الرفض عنيفاً لزيارة الضيف الفرنسي خوفاً على مشاعر اليهود من أن تخذش، أما أولئك المسلمون الذين عانوا من همجية «ليون» وأمثاله، عندما كانت فرنسا تدعي أن الجزائر جزء منها، أو هؤلاء المهاجرون من العرب في فرنسا - في الوقت الحاضر - والذين يواجهون - في قوة وصمود - فاشية الحركة اليمينية المتطرفة فإن الغرب لم تتحرك عاطفته الإنسانية تضامناً معهم ولم يقدم الورود وفاءً لذكراهم كما يفعل مع المعذبين في الأرض من غير المسلمين!

- هذا مثال واقعي من أمثلة عديدة يوضح لنا مدى تلك الانتكاسة التي أصيبت بها حرية الكلمة في الحضارة الأوروبية والتي لا يزال يصرخ كثير من زعمائها ومفكريها في وجوه الآخرين، بأنهم أول من تبنى فكرتها ودافع عن وجودها، ومع أن الحقيقة شيء آخر.. فإنه يكفيننا اعتباراً أن الغرب بدأ يهدم صرح تلك القيمة الإنسانية المجردة، لقد وفر اليهود له معاول الهدم وما عليه إلا أن يستجيب!

حديث عن منهجية المستشرقين

- في حوار شامل أجرته مجلة الحوادث في عددها الصادر بتاريخ ١ ديسمبر ١٩٨٨م، تحدث الدكتور كامل مصطفى الشبيبي عن الثقافة العربية والفكر الإسلامي، حديثاً تاريخياً تعرض فيه لأهم التيارات التي تأثرت بها هذه الثقافة ومن بينها التيار الاستشراقي، وصوّر - من وجهة نظره - دور هذا التيار قائلاً: «إن مما يؤسف له أن هذه الثقافة التي نعرفها، وهذه المخطوطات التي نعرفها هي في غالبها من تحقيق المستشرقين، مع الأسف، المستشرقون هم الذين بحثوا في القرآن الكريم، هم الذين بحثوا في التفسير، هم الذين فهرسوا الحديث، هم الذين نشروا كتب الجغرافيا، هم الذين حققوا الكتب التاريخية العظيمة كتاريخ ابن خلدون، هم الذين نشروا الكتب الفلكية العربية، هم الذين نشروا سائر الكتب الفلسفية.

- وكنت أتطلع من الكاتب الكريم الذي كان حديثه عن المستشرقين ودورهم في نشر ثقافتنا حديثاً تغلب عليه العاطفة ويحدوه الحماس كنت أتطلع أن أجد بعد ذلك تصوراً علمياً لحقيقة البواعث التي انطلق منها المستشرقون في التنقيب عن تراثنا، وأثر تلك البواعث على مناهج البحث عندهم، ثم النتائج السلبية التي تركتها تلك الأعمال في الفكرين الإسلامي والعربي.

- لقد تكوّنت في أوروبا خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين صورة مشوّهة عن الإسلام استمدت موادها الأولية من مصادر تاريخية بيزنطية شرقية، وأسبانية، ولاتينية، ويذكر الكاتب الأوروبي Norman Danial «نورمان دانيال» في كتابه: (Islam And The West)، «الإسلام والغرب»، أنه «رغم المحاولات الجدية التي بذلها بعض الباحثين في العصور الحديثة للتحرر من المواقف التقليدية للكتاب المسيحيين من الإسلام، فإنهم لم يتمكنوا من أن يتجردوا كلياً عنها كما قد يتوهمون».

- ربما تجرد بعض المستشرقين من مسيحيتهم عند البحث في نواح علمية أخرى، إلا أن هذا لا ينطبق على دراساتهم في الفكر الإسلامي أو عن الشخصيات الإسلامية، ولهذا فلا غرابة أن نجد الشاعر الإيطالي المشهور «دانتي» (١٢٦٥ - ١٣٢١هـ) يصوّر شخصية الرسول - ﷺ - تصويراً نرباً عن ذكره هنا، وهو الموقف العدائي - نفسه - الذي وقفه الكاتب الفرنسي «دنيس ديدرو» (١٧١٣ - ١٧٨٤م) ولا يقل موقف «فولتير» ١٦٩٤ - ١٧٧٨م، سوءاً عن موقف نظيره السابقين.

- ولئن ادعى البعض أن تغيراً جزئياً طرأ على الدراسات التي قام بها مستشرقو القرنين التاسع عشر والعشرين، في تاريخ الإسلام، وحضارته، وأصول عقائده، فهو تغيير حتمته المصالح مع بقاء الصورة الكلية المشوّهة عن الإسلام وأهله كما كانت في العصور السابقة، كما انضم إلى العامل الديني عامل سياسي ظهر نتيجة للصلات الاقتصادية، وخطط التوسع الاقتصادي التي ظهرت في أوروبا ولهذا فليس من المستغرب أن ينتقل المستشرق الهولندي «سنوك هيرغر ونج» ١٨٥٧ - ١٩٣٦م، مباشرة

من دراسته للإسلام ليشغل منصب مستشار للحكومة الهولندية في الشؤون الإدارية لمستعمراته الأندونيسية المسلمة، كما كان «لويس ماسينيون» ١٨٨٣ - ١٩٦٢م، يستشار على صعيد واسع من قبل الإدارات الاستعمارية كخبير بالقضايا الإسلامية.

- إن هدف الدراسات الاستشراقية هو إيجاد جيل يتنكر لتراث أمته وأصالتها، ويتنصل من تاريخه ويزدرية، ليكون - دون وعي - أداة طيعة في يد أعداء هذه الأمة.

الصهيونية وعدالة الغرب

وافقت الحكومة البريطانية في نهاية شهر مايو عام ١٩٩١م على قانون جرائم الحرب واعتباره جزءاً من القانون القضائي البريطاني. فما هذا القانون؟ وما البدايات التي انطلق منها والعوامل التي ساعدت على إبرازه إلى حيز الوجود بعد مداولات عديدة بين مجلس العموم واللوردات البريطانيين وما النتائج التي يترتب عليها تطبيق مثل هذا القانون؟

هذا القانون هو من مشاريع مركز سايمون روزنتاول اليهودي المعروف بصائد النازيين، وصاحب الكتاب المعروف (العدالة وليس الثأر) (Justic Not Vengeance) والذي قام منذ منتصف الثمانينات الميلادية بجولات عديدة في العالم الأوروبي بهدف تعقّب الشخصيات الأوروبية غير المتعاطفة مع الحركة الصهيونية ورميها بتهمة التعاون مع الحركة النازية، وكانت شخصية الرئيس النمساوي الدكتور «كورت فالدهايم» هدفاً من أهداف المركز ورئيسه الموغل في تعصبه لصهيونيته، وعلى الرغم من فشل المركز في إثبات التهمة على الرئيس المذكور إلا أنه تحقق عن طريقها عدد من النتائج التي ما زالت الحركة الصهيونية تكسب من ورائها تأييد عدد كبير من المؤسسات الغربية المختلفة. لقد انطلقت حركة

«روزنتال» من النمسا إلى بريطانيا لتنال بافتراءاتها شخصية هامة من شخصيات المجتمع البريطاني وهي الأميرة «مايكل» أميرة كينت متهمة والدها الألماني الأصل والذي توفي منذ سنين عديدة بأنه قبل براءة نازية في حياته، وهي - أي الحركة - مع عدم توافر الأدلة القطعية لديها لإثبات مثل هذه التهم إلا أن أبواقها في الصحافة والإعلام البريطاني طالبت بأمور عديدة منها وجوب إنهاء الحياة الزوجية بين الأميرة الكاثوليكية، وزوجها الإنجليكاني، وهو تصرف يدل على النزق الصهيوني وتطاوله، كما يثبت سيطرته على شؤون كثيرة متصلة بالمجتمعات الغربية وهي شؤون تصنف في دائرة الخصوصيات التي يفترض عدم منازعتها أية جهة أخرى. وبعد توقف الحملة التي تناولت شخصية من شخصيات الأسرة البريطانية المالكة، قدم المركز اليهودي إلى مقر رئاسة الوزارة البريطانية لائحة بأسماء سبعة عشر شخصاً زعم أنهم مجرمو حرب في بريطانيا ولقد سبق تقديم هذا الطلب قيام رئيسة الوزراء البريطانية - آنذاك - «تاتشر» بزيارة إلى الكيان الصهيوني وهي أول زيارة يجرؤ على التفكير فيها والقيام بها رئيس بريطاني منذ انتهاء مدة الانتداب البريطاني على أرض فلسطين وقيام الكيان الصهيوني فوق تلك الأرض المغتصبة. ولقد أعد لتلك الزيارة اللوبي اليهودي الذي كان يشكل قوة كبيرة ليس داخل الدائرة اليهودية الانتخابية للرئيسة تاتشر في شمال لندن فقط، بل في داخل مقر الحكومة البريطانية نفسها حيث كانت أهم الحقائق الوزارية بأيدي يهود يخفون صهيونيتهم أمام أفراد المجتمع الإنجليزي ولكنهم لا يترددون في مكاشفة الحكومة بمطالب الحركة الصهيونية ويرسمون طرق تنفيذ تلك المطالب، ويذكر عضو مجلس العموم البريطاني وأحد أعضاء مجلس التفاهم العربي - البريطاني «سيريل تاونسند» في جريدة الحياة عدد

٢٩ مايو ١٩٩١م - أن رئيسة الوزراء أعطت وعوداً في أثناء زيارتها بإمكان محاكمة من تزعم الحركة الصهيونية أنهم مجرمو حرب في الحرب العالمية الثانية، وبالتالي فقد حظي طلب المركز اليهودي بمباركة الحكومة البريطانية آنذاك.

وأعدت وزارة الداخلية البريطانية في عام ١٩٨٩م بعد سلسلة من التحقيقات قراراً يتضمن الموافقة على إصدار تشريع يتم من خلاله محاكمة المتهمين، إلا أن مجلس اللوردات رفض هذا القرار الذي حظي بعد عرضه عام ١٩٩٠م على مجلس العموم بتأييد ستين عضواً فقط، وبما أن مجلس اللوردات هو السلطة العليا التي يرجع إليها للنظر في القرارات التي يتخذها مجلس العموم، إلا أنه يملك حق الاعتراض ولا يملك حق التنفيذ؟ لذا فقد تجاوز رئيس الحكومة البريطانية آنذاك «جون ميجور» قرار مجلس اللوردات الذي رفض للمرة الثانية في هذا العام صدور مثل هذا التشريع الذي لم يصوّت لصالحه سوى أربعة وسبعين نائباً من أعضاء مجلس العموم في مقابل أكثر من مائتي صوت أبدوا اعتراضهم على القرار ومن بينهم شخصيات سياسية وفكرية هامة مثل رئيس الوزراء السابق «إدوارد هيث» ونائب رئيس الوزراء في حكومة تاتشر «سير جيفري هاو» ووزير الدفاع الأسبق «سير إيان جليمور» وكان تجاوز «ميجور» لصالح تنفيذ قانون البرلمان القاضي بمحاكمة عدد محدود من الشخصيات الطاعنة في السن وبعد مضي أكثر من نصف قرن وهي مدة زمنية يفترض بسبب طولها ضياع كثير من حثيات القضايا التي تزعم حركة مركز «روزنتال» تورط المتهمين فيها، ويمكن تفسير هذا التجاوز من حكومة «ميجور» بأنه استمرار لوجود الكتلة التاتشيرية داخل حزب

المحافظين والمتعاطفة مع القضايا اليهودية، كما يمكن رده إلى ما يشاع حول الجذور اليهودية لرئيس الوزراء الحالي حيث ذكرت صحيفة «الأوبزرفر» البريطانية في أحد أعدادها أن الاسم الحقيقي لوالد رئيس الوزراء البريطاني هو «إبراهام» وقد اضطر إلى تغيير اسمه اليهودي إلى اسم مسيحي خلال الحقبة التي كانت تخشى فيها الجماعات اليهودية من إظهار هويتها الحقيقية.

وهنا لا بد أن ندقق النظر في مواقف الحكومات البريطانية من بعض القضايا التي تفوق، في أهميتها وما يترتب عليها من نتائج، قضية محاكمة مجرمي الحرب مثل قضية حلقة «كيمبردج» للتجسس والتي كان من أهم أعضائها الجاسوس المعروف «انتوني بلنت» والذي كان يشغل منصب المستشار الفني للقصر الملكي البريطاني، والذي أكدت رئيسة الوزراء البريطانية السابقة «تاتشر» خيانتة لصالح الاتحاد السوفياتي وذلك في مجلس العموم ١٩٧٩م، وتجريده من منحة التكريم الملكية التي سبق له الحصول عليها، وكذلك قضية الحركات الإرهابية الصهيونية مثل «الأرجون» والتي تسببت في اغتيال بعض الشخصيات البريطانية المسؤولة، كما قامت بتفجير فندق الملك «داود» في عام ١٩٤٦م، مما حدا بالحكومة البريطانية - وهي التي كانت تتولى آنذاك - الانتداب على الأراضي الفلسطينية - إلى إصدار قرارات رسمية تتضمن إدانة أفراد العصاة الصهيونية ومن بينهم «مناحيم بيجين» و «إسحاق شامير» وطلبهما للمحاكمة، وهو أمر موثق في الدوائر الأمنية البريطانية حتى الوقت الحاضر وكذلك قضية «بلنت» ودعوة رئيسة الوزراء «تاتشر» في بداية الثمانينات الميلادية إلى قفل ملف حلقة كيمبردج التجسسية مع خطورتها،

وكذلك فيما يتصل بأعضاء الحركات اليهودية الإرهابية الذين بدلاً من أن تأخذهم السلطات البريطانية إلى المحاكم لتحقيق العدالة فإنهم استقبلوا فوق الأراضي البريطانية استقبال الزعماء الفاتحين، وأفردت الصحف مساحات كبيرة لذكر تفاصيل حياتهم ومن بينها صفحات سوداء من سوابق الإجرام وإدانات القتل والتعذيب التي ارتكبوها علناً في الماضي والحاضر على حد سواء.

إذا دققنا النظر في هذه الجرائم والمواقف المنبثقة عنها لثبت لنا أن قانون جرائم الحرب الذي سوف يتم تطبيقه في بريطانيا على حفنة من الرجال المرضى والمسنين بذريعة التعاون مع الحركة النازية هو قانون انتقائي سارع إلى التصويت عليه أعضاء تعرضوا لضغوط شديدة من حركة «سايمون روزنتال» الانتقالية، وتعجلت الحكومة في إقراره سيراً مع النزعة الغربية لتحقيق الرضا الصهيوني، فالغرب لا يطبق غضب اليهود، ويفقد عقلانيته أمام افتراءاتهم وأباطيلهم.

* * *

«لوموند» والإسلام

لا تزال بعض دوائر الاستشراق حبيسة الأفكار التي ورثتها عن عصور الاستعمار، وليس من دليل واضح يقوم على هذه الدعوى، ولا من إثبات يؤكد تجذرها في بعض المجتمعات الغربية مثل ما تبثه وسائل الإعلام الغربية المقروءة منها والمسموعة والمرئية بين الحين والآخر من استفزازات لمشاعر المسلمين وتحدي صارخ لوجودهم ومنطلقاتهم الدينية والحضارية والثقافية.

وإذا كان البعض وضع من قبل حدوداً للتفريق بين مواقف هذه المؤسسات من قضايا الأمة العربية والإسلامية، فإن هذه الحدود قد تلاشت نتيجة لتوحد الأهداف في سبيل النيل من هذه الأمة التي تقف فريدة ومتميزة بين أمم الأرض في مثلها وتعاليمها وتقاليدها. ثم للسعي الحثيث الذي تقوم به المؤسسات الاستشراقية لكسب عطف ورضى الحركة الصهيونية العالمية.

فهذه صحيفة فرنسية وهي صحيفة (لوموند) كانت توصف بأنها مثال للموضوعية والنزاهة والاتزان، فإذا بها تنحدر إلى قاع العنصرية البغيضة والحقْد الأعمى، وذلك عندما نشر رسامها «بلانوتوس» في عدد الصحيفة الصادر بتاريخ يوم الخميس ١٢ يونيو ١٩٩٠م، رسماً كاريكاتورياً يصوّر

فيه فتاة معلقة في السجن الاحتياطي لأنها قرأت التقرير الصادر عن منظمة العفو الدولية، وفي المقابل شخص يحمل بطاقة كتب عليها اسم القرآن (Coran) وهو يخاطب الحارس بقوله: «والأخطر من ذلك هي أنها ضبطت وهي بملابس الاستحمام» (عن صحيفة العلم المغربية ٢٢/١٢/١٤١٠هـ).

إن هذا التحدي الصارخ لمشاعر المسلمين الذين يقيمون في الأراضي الفرنسية ولغيرهم أيضاً من مسلمي العالم، يوضح مدى الحاجة الملحة لموقف إسلامي يضع حداً للانتهاكات المتزايدة التي لا تفتأ بعض المؤسسات الاستشراقية الغربية في المجاهرة بها تعمداً منها في شحن الفرد الغربي بالمشاعر السلبية تجاه الدين الإسلامي والفرد المسلم.

ولن يتوقع من المسلمين - بالطبع - أن يكونوا متسامحين أو غير مباينين حتى عندما ينال الآخرون من عقائدهم، ويسخرون من الكتاب الكريم الذي وضعه الله أمانة في اعناقهم وشرفهم بصونه والدفاع عنه.

من يتابع ما يصدر من ترجمات لمعاني القرآن الكريم؟

تعتبر ترجمة المستشرق الفرنسي «جاك بيرك» لمعاني القرآن الكريم والصادرة عن «دار سندباد» الترجمة الثالثة في موسم فرنسا الثقافي لعام ١٩٩١م، بعد ترجمتي «رينيه خوام» و «أندريه شوراكي»، كما تصل برقم الترجمات الفرنسية، في هذا الباب، إلى أربعين ترجمة، بينما يصبح عدد الترجمات في العالم - بعد صدور هذه الترجمات الفرنسية - ستمائة، وكانت البداية هي ترجمة الأب «بيار» أحد رهبان دير «كلوني» والتي تمت خلال القرن الثاني عشر الميلادي.

«جاك بيرك» هو المدرّس السابق في (الكوليج دي فرانس)، والصديق الشخصي الحميم للأديب العربي «طه حسين» ويبدو أثر هذه الصداقة على «بيرك» في محاضراته التي ألقاها أخيراً عن صاحب (الأيام)، ودافع عن مواقفه جميعاً حتى تلك التي أثارت الرأي العربي والإسلامي ضده، والتي يبدو أن «طه حسين» لم يتخل عنها حتى أخريات حياته، ولكنه قدم بعض التنازلات، في أثناء الأزمة التي تفجرت بعد صدور كتابه «في الشعر الجاهلي» وهي تنازلات لا تبرّئه من شبهة الطعن في بعض المسلّمات التي لا تقبل الجدل والمناقشة.

ولعلّ «بيرك» يحتفظ بشيء من الجميل، لصديقه طه حسين، بعدما رشحه لعضوية «مجمع اللغة العربية» في القاهرة سنة ١٩٦٨م، كما تذكر ذلك صحيفة «الحياة» في عددها الصادر بتاريخ (١٦ يناير، ١٩٩١م).

وكما شغل «طه حسين» الناس في بيئته العلمية بين الأزهر وجامعة القاهرة ردحاً من الزمن، فإننا نجد سيرة صديقه «بيرك» محوطة بكثير من صور التقلب بين مذاهب عقائدية وفكرية متعددة، فلقد كان رفيق درب لمنظري الحركة الشيوعية في بلاده.

ولعلّ هذا الانغماس، لفترة من الزمن، هو الذي دفعه لاعتناق المذاهب الأدبية المنبثقة عن الفكر الشيوعي، كالبنوية، والسيمائية، ولقد استخدم «بيرك» المنهجين الفكرين السابقين في بعض دراساته الاستشراقية للفكر العربي.

- لا أستطيع إبداء رأي، و إعطاء حكم علمي، حول هذه الترجمة التي صدرت في طبعتين، إحداهما: مجلدة وممتازة، وتبلغ صفحاتها ثمانمائة وألف صفحة، والأخرى: عادية في ثلاثة عشر ألف صفحة، لأنني لم أتمكن من الإطلاع عليها.

ولكن المعروف أن كثيراً من المستشرقين لا يستطيعون الكتابة عن الإسلام وعن القرآن خاصة، بتلك المنهجية التي كثيراً ما يدعون إليها، ويطلبون من الآخرين الالتزام بها، ويعود ذلك إلى مواقف عقدية، وتاريخية، وحضارية، وهي مواقف تتأثر كثيراً بعوامل النشأة والتلقي في البيئات العلمية الغربية التي لم تفلح بعد في تكوين تصور مستقل ومتجرد عن الإسلام وحضارته ومجتمعاته.

- إن صدور أعداد كبيرة من الترجمات عن معاني القرآن الكريم، بجهود غربية، يجب أن يدفع المنظمات الإسلامية المعنية، وخصوصاً «رابطة العالم الإسلامي» لتكوين هيئة خاصة لمتابعة ما يصدر في هذا الشأن، وإخضاعه لدراسات علمية متخصصة، خصوصاً إذا ما علمنا أن هذه الترجمات كثيراً ما تقع في أيدي بعض المسلمين، من غير العرب، ولعلهم هم الأحوج إلى معرفة الإسلام، وأحكامه، ومقاصده، معرفة أبعد ما تكون عن التشويش، والاضطراب الفكري.

* * *

المكوّنات الذاتية لصورة العربي في الغرب

لقد أصابت الشخصية العربية انتكاسة كبيرة، ولحق بها ضرر فادح وذلك كنتيجة حتمية للأزمة التي شهدتها منطقة الخليج في الأشهر الماضية، وما نعني بالانتكاسة والضرر هنا هو ازدياد قتامة صورة هذه الشخصية في الإعلام الغربي وهي صورة لم تكن - يوماً - مشرقة ولكن لم تبلغ - رغم كل الظروف - ما بلغته اليوم من سلبية وما وصلت إليه من مستوى متدنٍ. وقد تعودت وسائل الإعلام في البلاد العربية والمؤسسات الثقافية النظر إلى هذا الموضوع من زاوية واحدة وهي عدم قدرة الآخر. (أي الحضارة الغربية) على استخدام مقياس متجرد عند تصديه لشخصيتنا بالدراسة، أو تحليله لجوانب معينة ترتبط بأخلاقياتنا وسلوكنا، كما أننا كثيراً ما نغالي في قدرة اللوبي الصهيوني على تشويه أبعاد هذه الصورة وإلصاقه بها بعض السمات التي يرى أنها سوف تجلب نقمة الفرد الأوروبي أو تثير اشمئزازه وتتسبب بالتالي في نفوره من الشخصية العربية مما يعيق وجود اتصال حضاري إيجابي بين الشخصيتين الأوروبية والعربية.

إلا أن الرؤية الموضوعية يجب أن تدفعنا إلى دراسة تلك العوامل التي يمكن أن توصف بأنها من صنع أنفسنا ومن غرس أيدينا، وهو نقد

ذاتي يجب ألا نكابر في إخضاع أنفسنا له لأنه ينبع من تعاليم ديننا التي تحث الإنسان على محاسبة نفسه، والالتفات إليها بين الحين والآخر.

كما أن هذا النقد ضروري لكل المجتمعات التي تعتزم - حقاً - التعلم من أخطائها، وتتطلع إلى بلوغ مكانة حضارية سامية بين المجتمعات الإنسانية المختلفة في توجهاتها والمتبينة في منطلقاتها.

لقد جنت الشعارات الجوفاء التي رفعتها بعض الأنظمة العربية، كالثورية والقومية على مسيرة الأمة العربية وعلى شخصيتها الحضارية وذلك لأنها شعارات تنطلق من فراغ فكري وتتوسل رفع الصوت وتشنج الأعصاب في خطابها، وتعتمد في تحقيق أهدافها على الوسائل الدموية البعيدة كل البعد عن المنطلقات الحقيقية لتراث الأمة ومسلماتها.

وكانت هذه الأنظمة تتعمد إظهار هذه الدموية وسط العواصم الغربية التي يعتبر سكانها استعمال منبه السيارة سلوكاً مشيناً فكيف بهم إذا استيقظوا من مهاجمهم على أصوات تبادل العيارات النارية بين مساكنهم، وهم القوم الذين إذا مالت الشمس إلى المغيب - والتي قليلاً ما يتحقق لها إرسال أشعتها على أرضهم - خفوا إلى دورهم بحثاً عن الهدوء والسكينة، فإذا تَنَاسَر الدماء البريئة من أجساد بني قومنا يملأ أنفسهم بالهلع ويسكنها بالرعب.

ولم تسلم بيوت الله التي أقامها المسلمون في الغرب من تربص المأجورين لهذه الأنظمة بها، وبأولئك الذين يؤمنونها ممن مَنَّ الله عليهم بالتمسك بتعاليم دينهم الحنيف وشريعته السمحة، ولعلي لم أنس ما حييت تجربة مررت بها شخصياً في مطلع الثمانينات الميلادية عندما وُطئت قدمي لأول مرة بلاد الغرب فأحببت أداء صلاة الجمعة مع

الجماعة فسعيت إلى مسجد «ريجينت بارك» الشهير وسط العاصمة البريطانية، ولم نكد ننته من الصلاة حتى رأينا جموعاً تتدافع وسمعنا أصواتاً ترتفع، لقد قُتل الصحفي العربي المعروف «محمد مصطفى رمضان» بوضع طلقات صوبها إليه بعض من أبناء جنسه، ولقد كان التزام الرجل وتمسكه بدينه سبباً في فقدانه حياته. ولقد أدت هذه الحادثة فيما بعد إلى أن يقوم رجال الأمن في المناسبات الإسلامية - وأحياناً عن طريق طائرات الهليكوبتر - بحراسة المساجد، ولم تسلم بيوت الله من الاغتيالات التي كانت تدبرها الأنظمة بمجتمعات الطلاب التي شهدت هي الأخرى في منتصف الثمانينات وخصوصاً في مدينة - مانشستر - حوادث اعتداء وقتل شنيعة وكان ضحيتها عدد من الطلاب العرب، وتسببت بالتالي في تعميق أبعاد الصورة السلبية للفرد العربي، وأفسحت لمصطلحات الإرهاب والقبلية والتعصب أن تأخذ طريقها إلى وسائل الإعلام الغربي عند التعرض للقضايا العربية أو الشؤون الإسلامية، ومع أن هؤلاء الذين يقدمون على ارتكاب هذه الجرائم في ديار الغرب لا يمثلون إلا فئة محدودة هي أبعد ما تكون عن الإسلام وتعاليمه ومنطلقاته إلا أن ذلك لا يعفيانا من المسؤولية فكلنا في نظر الغرب - للأسف الشديد - ذلك الإنسان الذي لا يحل مشاكله أو يصل إلى أهدافه إلا عن طريق طلقة النار، بينما يرى الغربيون أنهم تجاوزوا هذا التصور غير الحضاري واستبدلوه بتصوير آخر يقوم على الكلمة والحوار.

وإذا كانت الأنظمة التي منيت بها المجتمعات العربية من ماركسية واشتراكية، وثورية، وتقدمية قد تسببت في تخلف وانحيار المجتمعات التي وصلت إلى الحكم فيها عن طريق سفك الدماء، فإن جنائيتها على

إفساد الصورة الحضارية العامة للأمة العربية لا تقل سوءاً عن ذلك الخراب والدمار المادي الذي أشرنا إليه، وإذا كانت تلك الأنظمة قد جنحت إلى تلك الأساليب التي لا تقرها شريعتنا التي تدعو في وضوح إلى الحسنى، وتؤمن بالكلمة الطيبة، فإن أفراداً من الأمة جنحوا - أيضاً - إلى سلوكيات أخرى ساهمت في صنع واقع مؤسف وذلك من خلال الممارسات التي تدخل ضمن دائرة جهلنا بطرق التعامل مع أفراد المجتمعات الغربية ومؤسساتها، فالعربي بطبيعته ينفر من أساليب الأمر المصحوبة بتجهم الوجه والمقترنة بإيماءات اليدين، ويتعجب من عربي ينسى ذلك القاموس الحضاري الذي تزخر به اللغة العربية التي كانت - يوماً - لغة العلم والفكر والمنطق، ثم يستعمل كلمات هي أكثر ارتباطاً بمفاهيم التسلط والعنجهية حتى عند احتياجه إلى شربة ماء أو كسرة خبز يأتيه بهما نادل يعمل في مطاعم الغرب أو حوانيته، ولعلّه إذا حصل على ما يريد نسي كلمة الشكر وعبارة الامتنان، ثم انصرف والكبر يملأ رأسه والعجب يملك عليه نواحي نفسه. ويدخل في دائرة التعامل السلبي مع الآخر الرغبة الجامحة لدى بعضنا أحياناً في تقليد الأوروبي في كل شيء وهو أمر يثير استخفاف الطرف المقابل إن لم يكن حقه وكرهيته.

إن تمسك الفرد المسلم والعربي بعاداته وتقاليده النابعة - حقاً - من دينه وتراثه تجعله في نظر الغربي كياناً متميزاً له خصائصه التي لا يرضى بالمساومة عليها أو التساهل في شأنها، كما أن هذه الخصائص لن تمنعه يوماً من التحدث إلى الآخر أو الجلوس إليه مستمعاً أو محاوراً، أو الثناء على ما يراه صالحاً من طرق تعامله والاستفادة منه كأسلوب حضاري بشرط ألا يكون ذلك متعارضاً مع القواعد الشرعية التي أمرنا الله

بمراعاتها في كل ما يصدر عنا من قول أو فعل .

كثيرة هي العوامل الذاتية التي ساهمت في تكوين الصورة المشوّهة
عنا كأفراد وأمة وذلك يحتاج إلى وقفات عديدة لا تكفي فيها مقالة
واحدة مثل هذه، ولكنها محاولة متواضعة أرجو أن يعرضها بآرائهم
المتخصصون في ميادين البحث الإعلامي والحضاري .

* * *

الباب الثالث

الدين والإبداع

نحو نقد إسلامي وفكر أصيل

- يظن البعض ممن لا يملكون الوسائل العلمية الضرورية لمعرفة حضارة الغرب، وفكره، وأدبه، أن الغرب قد انفصل - بدعوى العلمانية - عن دينه، وتراثه، ومنطلقاته وبالتالي فلا حجر - هناك - على فكر يهاجم الدين، ولا ثوابت ينطلق منها الشاعر في عملية إبداعه، أو الروائي في أحداث روايته، أو الناقد في تحليله وتقويمه.

بينما يقول الواقع الحقيقي لهذه المجتمعات شيئاً آخر، وليت البعض من أدعياء المعرفة، في عالمنا الإسلامي والعربي، كلف نفسه جهداً لمعرفة هذه الحقيقة، والتثبت منها. وعندها يستطيع أن يوجه أدواته المعرفية الوجهة الإيجابية التي تنأى عن الاحتمالية، وتبتعد عن الشطط، وتكون وسيلة فعّالة لخدمة تراثه وفكره، بدلاً من أن تكون النقيض لذلك كله.

- ففي بريطانيا - مثلاً - البلد الذي يعدّه الكثير من أنصار التغريب مثلاً لحرية الكلمة، وديمقراطية الفكر: يحرم القانون الإنجليزي أي انتهاك لتعاليم الكنيسة الإنجليزية، ولهذا فأنت لا تقرأ في صحيفة معتبرة، ولا تسمع في قناة تليفزيونية - حكومية كانت أو تجارية - خروجاً على مضمون هذه التعاليم.

بل إنك لتجد صاحب الاتجاه اليساري أكثر التزاماً بهذه الأطر الدينية من نظيره المحافظ الذي يُضرب به المثل في احترام الفكر المسيحي، والتقاليد الاجتماعية، ومع هذا فلا يعتبر ذلك كله من كلا الجانبين تحجراً في الرؤية، أو تعصباً في الفكر، أو تزمناً في الدين.

وهل نجد مثلاً نوره - هنا - على التزام المؤسسات غير المُحافظة بالتعاليم الدينية المسيحية خيراً من قيام حزب العمال البريطاني بافتتاح مؤتمره السنوي بالصلوات المسيحية، وافتخاره بدخول أعضائه للكنيسة كافة، كدليل على ولاء هذه المؤسسة لدينها وتراثها، وهو ما يجعلها - في الوقت نفسه - في موضع الثقة والائتمان على حياة الأمة وشؤونها.

وفي الوقت الذي تمثل فيه هذه المؤسسة ما يسمى بالاتجاه التقدمي فإنها ترفض أن ينتمي إليها أي عضو يؤيد الاتجاه الماركسي أو الشيوعي، ولهذا كان رفضها واضحاً وقوياً لرغبة الكاتب «طارق علي» الهندي الجنسية في الانتماء إليها، وهذا الكاتب هو أحد أصدقاء «سلمان رشدي» الذي أثار كتابه «آيات شيطانية» موجة من السخط والغضب في الأوساط الإسلامية، لما يتضمنه من هجوم على الأنبياء تحت ستار ما يسمى بمذهب الفن والخيال.

- أمّا في ميدان الأدب والثقافة - فإن من يظنه نقاد العالم العربي مجدداً في أفكاره وتقاليده الأدبية، وهو الشاعر الأمريكي الأصل، البريطاني الثقافة «توماس ستيرنز إليوت» T.S. Eliot ١٨٨٨ - ١٩٦٥م فإن شعره يتبلور حول الفرد المنقذ، والدولة المثالية لديه دولة كنيسة تشرف على التعليم فيها منظمات رهبانية، وطابعها إقطاعي، إنه يصرح قائلاً كما

يشير المرحوم الدكتور عمر فروخ: «إنه كلاسيكي الأدب، كاثوليكي أنكليكاني المذهب»^(١).

وتظهر كلاسيكية «إليوت» واحترامه للتراث الإنجليزي القديم عند دراسته للشعر الإنجليزي «بن جونسون» Ben Jonson، وتبرز صورة هذا الاحترام في قوله: «عليّ أن ألوم نفسي إذا لم أتقيد بمبدأ الاحترام عند دراستي لهذا الشاعر»^(٢)، وهو الأسلوب نفسه الذي اتبعه في دراسة عدد من الشعراء الإنجليز، مثل «وردز ورث» Words Worth و«كوليردج» Coleridge، و«شيللي» Shelley، و«كيتس» Keats^(٣)، ويبين الأسباب التي دعت له لتأليف قصيدته المعروفة «الأرض اليباب» The Waste Land وهو إعادة بناء إيمان الفرد الأوروبي الذي احتواه الفراغ الروحي بعد أحداث الحرب العالمية الأولى، وانتشار بعض الأفكار المناقضة لمفهوم الإيمان.

إنه أراد بقصيدته - بحسب تعبيره - أن يغسل أدران الحياة عن نفسيّة الفرد الذي ينتمي إلى مجتمعه - في عصر الشاعر - وذلك لا يكون إلا من خلال الشعائر الدينية التي عندما يتفياً ظلالها الناس فإنهم سوف يشعرون بالطمأنينة والسكون^(٤).

ومعلوم بالضرورة أن الدين الذي يراه «إليوت» منقذاً للبشرية من أزمتها الحضارية، هو الدين الكاثوليكي المسيحي.

(١) عمر فروخ: هذا الشعر الحديث، بيروت، ١٣٩٨هـ، ص ١٩٤.

(٢) T-S Eliot, The USE of Poetry and the USE Criticism U.K, 1980, p. 53.

(٣) المصدر السابق: ص ٦٧ - ٦٨.

(٤) Stephen COOTE, The Waste Land, Benguin Book, 1985, P.86-87.

وإذا كان هذا الشاعر قد بلغ هذا المستوى الكبير من الإيمان بدينه والإخلاص لتراثه اللاتيني^(١)، فهل وعى أنصار التجديد الهدف من وراء دراسة تراث الأمم الأخرى؟ أم أنهم يرددون الأسماء، ويهتفون بمقاطع القصائد، بكل سذاجة واستلاب فكري، لا يخدم أهداف الأمة، ولا ينهض بفكرها، ولا يرتقي بمفهوم العلم والثقافة لديها؟

- إن الذي قادني إلى هذه المقدمة هو كتاب الأستاذ الفاضل «جمعان عائض الزهراني» الذي صدر في سلسلة «دعوة الحق» عن «رابطة العالم الإسلامي» تحت عنوان «أسلوب جديد في حرب الإسلام» وقدم له فضيلة الشيخ «صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ».

ففي هذا الكتاب تتضح معالم الصورة بين ثقافتين: إحداهما يسعى مفكروها وأدباؤها وشعراؤها - ما وسعهم الجهد - لتأصيلها بالعقيدة - رغم ما طرأ عليها من تغيير وتحريف - وإغنائها بمعالم التراث اللاتيني القديم، واستيحاء رموزه ودلالاته، إنها الثقافة الأوروبية، والأخرى الثقافة الإسلامية والعربية التي تواجه حرباً شرسة من بعض العناصر الهدامة.

وقد لا نعدو الحقيقة إذا ما ذكرنا «أدونيس» كمثال لهذه النوعية من الكتاب الذين يحاولون هدم الكلمة واللغة والدين والفكر الإسلامي الحق، من خلال توجيههم لمسيرة الأدب وجهة معينة، تخدم شعوبيتهم، وتؤكد على مدى الفساد الذي تنطوي عليه أفكارهم، فهو - في محاولته لتثييت مذهب فصل الشعر عن الأخلاق والدين - الذي كثر للأسف المنادون به في عالمنا العربي - لم يجد شاعراً يستشهد به سوى أبي

نواس، فنجدّه يقول: «هكذا يؤكد أبو نواس فصل الشعر عن الأخلاق والدين رافضاً حلول عصره، معلناً أخلاقاً جديدة، هي أخلاق الفعل الحر والنظر الحر، أخلاق الخطيئة، فالنواسية استقلال يثير ويحرك؛ وقوف على حدة، يغري ويشجع، مقابل المجتمع وأخلاقه، ضمن المجتمع وخارجه في آن، والإنسان النواسي هو الإنسان العائش مع ذاته، المتخذ من العالم كله مجالاً لتوكيد ذاته الساخر من القيم العامة النهائية، ومن القائلين بها والمقيمين عليها»^(١).

هل هذا هو الأدب الذي تحتاجه الأمة؟ وهل أبو نواس يمثل الحركة الشعرية الناتجة من وعي صحيح بالمسار الفكري للأمة، والمنهج الحق الذي اتسم به الإبداع العربي الذي يستلهم عقيدة الأمة، وتراثها، ومرتكزاتها؟

وهل الوقوف في وجه الأخلاق يفسح المجال أمام إبداع أكثر إشراقاً، وفكر أرفع مستوى؟!

وهل السخرية من القيم والفضائل مجال للتنافس بين الأمم والشعوب؟

لا غرابة - بعد ذلك - أن نجد من يتسلل بين صفوف الأمة، من أنصار «أدونيس» فيعلن أن النقص فضيلة، والهدم إبداع، وتكسير الحواجز هدف سام، تسعى إلى تثبيته وتأصيله وسائل الشعر والفن، على حد سواء.

إن «أدونيس» يعلن من منبر إحدى العواصم العربية، كما يذكر

(١) أدونيس (علي أحمد سعيد) مقدمة للشعر العربي - بيروت، ١٩٧١م، ص ٥٣.

الأستاذ الزهراني عن توجهه الفكري قائلاً: «أنا شعوبي وشاعر». «أعترف بأنني مخرب عظيم».

ولا أجد تعليقاً مناسباً على هذا التحدي السافر لمشاعر الأمة، والهديان المحموم الذي ليس له من هدف سوى عزل الأمة عن دينها وتراثها، وبث الروح السلبية بين أبنائها، إن التعليق المناسب هو ما ذكرته «المجلة العربية» والذي استشهد به الكاتب، حيث قالت في عددها الصادر بتاريخ ١٢ ربيع الأول ١٤٠٩هـ: «لا تعليق، ليس بعد الكفر ذنب، وليس بعد الفخر بالتخريب صلاح!».

وفي آخر زيارة له لإحدى الدول العربية تحدث «أدونيس» عن مسألة الاستقطاب والانقسام في المجتمع العربي، مؤكداً أن الدين مسألة شخصية، فلا يجوز أن نجعله مهيمناً على الحياة، يعني: يريد أن يقبع الإسلام في المساجد، ويعود أدراجه، ليترك الساحة خالية لأضاليه وهديان أمثاله^(١).

إن «أدونيس» ينطلق - في تصورات، سواء كانت التي ضمنها كتابه «الثابت والمتحول» أو الأخرى التي يهذي بها بين وقت وآخر - من فكرة واحدة، مؤداها أن أهل السنة والجماعة - بتمسكهم بالقرآن والسنة - كانوا سبب تأخر الحضارة الإسلامية، وأن من خرجوا على القرآن والسنة، كانوا وحدهم من النقاط المضيئة في هذا التاريخ، وهذه الفكرة نفسها سبق «أدونيس» إليها المستشرق م. س. ديمانند، الأمين السابق لقسم فن الشرق الأدنى بمتحف «متروبوليتان» بنيويورك وذلك في كتابه «مذكرة الفنون الزخرفية الإسلامية»^(٢).

(١) مجلة المجتمع، العدد ٩٤٦، الثلاثاء، ٢١ جمادى الأولى، ١٤١٠هـ، ص ١٥.

(٢) أحمد بسام الساعي، الواقعية الإسلامية في الأدب والنقد، جدة، ١٤٠٥هـ: ص ١٠٦.

وقد لا أستطيع أن آتي على كل الأدلة والشواهد العلمية الموثقة التي تضمنها كتاب الأستاذ الزهراني، والتي تشير إلى ارتباط التيار الأدونيسي بالمذاهب الفكرية العالمية الهدامة، مما يجب معه التنبيه والحذر من مغبة تغلغل الدراسات التي تتزيا برداء العلمية والمنهجية، مع أنها - في حقيقة الأمر - تهدف إلى استلاب الهوية العربية، وهدم أطر الفكر الإسلامي المعرفي الصحيح الذي استطاعت أمتنا - من خلاله - فرض وجودها بين الأمم الأخرى، وليس من خلال رفض الأخلاق، وانتهاك المحرم، والتحرر من رقابة المنطق والتقاليد^(١)، كما يدّعي بعض الدارسين وفي مقدمتهم «أدونيس».

(١) الشعرية العربية: بيروت، ١٩٨٥م: ص ٦١ - ٦٣.

هذا الازدراء إلى أين؟

تميّزت العصور الماضية التي شهد فيها الفكر العربي والثقافة الإسلامية انطلاقتها الحضارية بسمات علمية متميزة كانت - بلا شك - دافعاً إيجابياً وراء ذلك العطاء الإنساني الذي شاركت به أمتنا في مجالات متعددة، شملت العلوم الطبيعية، والفلسفة، والأدب، والفنون.

وعلى الرغم من العداء الذي يناصب به الغرب هذه الأمة في تاريخها وتراثها - فإن هذا العداء لم يمنعه من أن يدوّن ثمرات العلوم الإسلامية تدويناً يشوبه التشويه والخلط - أحياناً - ثم نجده في مواضع أخرى يذعن إلى الحق، فلا يعترف فقط بما خلفه علماء المسلمين من إبداعات وإضافات، بل يذكر تلك الروح العلمية السامية التي ميّزت المسلمين عن غيرهم من الأمم الأخرى في القرون الوسطى.

فهذا المستشرق J. B. Trend «ج. ب. تريند»^(١) يذكر في بحث كتبه عن «تأثير الإسلام في التاريخ السياسي والاقتصادي لأسبانيا والبرتغال، أن جوار المسلمين للأمة الأسبانية: «كانت له فائدة واحدة - على الأقل - وهي أنه أوجد عند الأقليات القليلة الحظ من الثقافة روحاً من التسامح ندر وجودها في القرون الوسطى».

(١) تراث الإسلام، مكتبة الآداب، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م ج ١، الفصل الأول، ص ٧ - ٩.

ثم يضيف قائلاً: «حينما مات الإسلام في الأندلس كان في موته تسميم لأسبانيا».

- فالمسلمون عرفوا التسامح فيما بينهم، وثمة فرق دينية تتناظر، ومدارس فكرية تتنوع اتجاهاتها ورؤيتها العلمية، في مجالات البحث، التي انصبت عليها اهتمامات هذه المدارس، من علوم دينية استقت أصولها من كتاب الله الكريم، وسنة رسوله - ﷺ - وعلوم نحوية وصرفية وبلاغية تأسست لخدمة اللغة العربية التي نزل بها كلام الله المعجز، وتكلم بها أفصح العرب رسول الله - ﷺ .

لقد خلّفت لنا كتب التاريخ والأدب صوراً من تلك المناظرات العلمية، التي كانت إثراء للفكر المعرفي عند الفرد المسلم، والوصول به إلى مظان الحقيقة، ولم يكن المسلمون في تناظرهم هذا الذي يدل على ممارستهم لقيمة حرية الكلمة، وترسيخهم لمفهومها - لم يكونوا إلا مقتبسين لتلك الصفات السامية، التي توافرت في شخصية الرسول - ﷺ - يعلم أصحابه في هدوء، ويتعاطى معهم القول، في رضا، ويشاورهم فيما صعب من الأمر، وكله تطلع في أن يقولوا قولاً حسناً يكون فيه الخير للأمة، التي وصفها بأنها خير الأمم.

- لكن المسلمين الذين تناظروا فيما بينهم لم يختصموا اختصام الجهلة، أو يتنابدوا تنابذ المنافقين، وتبادلوا الرأي مع غيرهم من أصحاب الديانات والمذاهب الأخرى، فلم يضطروهم تبادل الرأي أن يسبوا الآخرين في آلهتهم، أو كتبهم، أو أفكارهم، لأن كتاب الله حدد المنهج العلمي الذي منه ينطلقون، فجعل الكلمة الطيبة، والموعظة الحسنة، من سمات عباده المؤمنين.

أفليس من الغريب أن هذا الدين الذي حرر الفكر الإنساني من قيود القهر والكبت والخوف، ولم يرتض للإنسانية الفرد أن تدعن للظلم البشري، بل عليها أن تقاومه بكل الوسائل والسبل.

هذا الدين الذي نشأت حرية الكلمة في ظلاله، وارتوت من منابع علومه، لم يحم الإسلام كلمته فقط، ولكن حمى كلمة أهل الملل الأخرى، فلم يصلهم منه أذى، فلقد جعل لهم الخيرة في أن يلتزموا بتعاليمهم الدينية، وتقاليدهم الدنيوية، أو أن يدخلوا الإسلام طائعين غير مضطرين، فاستجاب بعضهم، واحتفى بعضهم بما بقي لهم من إرث حضاري، ولم يحرم هذا بعضهم من أن يتخذ مكانه الملائم في المجتمع المسلم، فعرف في الدول الإسلامية - على مر العصور - وزراء وكتاب وشعراء لم تكن هويتهم الدينية سبباً في أن تتخذ مجتمعاتهم منهم موقفاً سلبياً، بل نلاحظ أن الأمر أكثر من ذلك، فهم يحظون بمكانة رفيعة في فكر أمتهم وأدبها.

- إن موضع الغرابة أن نكون - نحن أبناء العروبة - أول من يصوب الدين ومقدساته سهاماً طائشة من القول العابث، الذي يريد أن يخترق كيان الأمة، التي صمدت لكل نزق فكري رماه به أعداؤها من قبل، فارتد عليهم وبال أمره.

بل إن الغرابة تشتد، وعلامات الاستفهام تتوالى يوم نعلم أن تلك السهام النزقة قد احتضنتها مجلة علمية عرفت هيئة تحريرها بالوقار والحكمة، بل لا ننسى أنها تضم بين دفتيها بحثاً أكاديمية بحثة كتبها نخبة من مثقفي الأمة العربية، ممن هم أحرص الناس على تراث الأمة وفكرها ولغتها، وأبعد ما يكونون عن شبهة التعدي والإساءة!

- إن مجلة «كلمات» التي تتوافر بين طلاب العلم والمعرفة، في هذا البلد وغيره، في هذا الوقت، والتي تصدر عن أسرة الأدباء والكتاب في بلد عربي شقيق، أصدرت عددها الثامن، وقد تشوهت قيمته العلمية ببعض القصائد التي أدرجت تحت «باب شعر» اشتملت بعض مقاطعها على إساءة للإسلام كإقحام بعض الكلمات الدالة على المشاعر والمقدسات الإسلامية، بأسلوب يدل على ذلك الفراغ الديني والفكري الذي تعيش ظلّمته نفوس كتابها.

ولعلّ هذا الفراغ هو الذي دفع بالشاعر «سيف الرجبى» فيما أسماه بالقصيدة الرابعة من قصائده الست أن يقارن مقارنة ساقطة بين المكان الذي تتبوأه الشخصيات المريضة التي تدعي - عن طريق الخرافة الكاذبة - معرفة الغيب، وبين المكان الذي ارتبط منذ بداية الإسلام بعبادة الله، وتركية النفوس، من كل باطل وضلال.

يقول هذا الشاعر الذي يبدو أنه - على أحسن الفروض - غير قادر، ذهنيّاً، على فهم الحكمة من وراء تجمع المسلمين لصلاة الجمعة:

«هل أبحث عن نيران أخرى لحكمة الأجداد».

«وأرحل إلى أسواق بيع المغيّين»؟

«أم أرجع إلى مسجد الوادي».

«أحضر قربان الجمعة»^(١).

لا أظنني بحاجة إلى القول: إن الشعراء والكتاب الأوروبيين، وحتى الملحدين منهم يحتفظون - في نفوسهم - باحترام وتقدير لرموز دينهم

المسيحي، ولا يجروون على تناول مقدساتهم بأسلوب ساخر كهذا، لا نستطيع الوصول إلى رأي ثابت في تفسيره، ولكنه يحق لنا أن نستنكره، وناقش بواعثه.

أما قصيدة «إيقاعات لـ ٨٦ للشاعر أحمد مدن» فقد ورد في جزء من مقطعها الثامن ما هو أكثر نزقاً، وأشد افتراءً، وأعظم بلية، ولكنه البلاء أصاب الأمة في فكر أبنائها، فاختاروا له من الأسماء أغربها. ومن الأشكال أضعفها.

«نشرد حزن الندى».

«وتغدو أصابعنا في المدى».

«كاشتعال المطر».

«يدق النصاب».

«ونقتسم البسمة».

«وليس لنا غير أن».

«نحشر «الله» والمقصلة»^(١)

- إن التراث الشعري الخالد، عند جميع أمم الأرض، لم تخلده أساليب الهرطقة، ولا عبارات التجرؤ والتناول على العقائد المنزلة من عند الله، وما يتصل بها من إيمان أو عبادة، بل على العكس من ذلك - فلقد كان تطلع الإنسان إلى خالق هذا الكون، والاستشراف إلى الآفاق الإيمانية عاملاً من عوامل الإبداع، التي تتعاقب فيها التجربة الإنسانية مع ذلك الفيض الروحي.

ولقد استطاعت هذه التجارب أن تحقق الخلود لنفسها وتستأثر بإعجاب أذواق النفوس البريئة من مرض الجحود والصغار. ويظل الشعر يُكتب في الرقاع، ويروى في المجمع، ويستشهد به العلماء على اختلاف منازعهم، وتباين اهتماماتهم، إلا أنَّ ما بقي منه محفوراً في ذاكرة الزمن نزر محدود من الملاحم أو القصائد، التي ارتوت من منابع الخلود، ولم تتمرد على الفطرة، التي تجد في الدين حباً يغمر النفوس، وتطهيراً من أدران الحياة، ومنقذاً للإنسان مما يتردى فيه من كوارث يقودها إليه تحايل في جلب المصلحة، وأثرة في حب السيطرة، ورغبة في الانتقام ممن يختلف معهم في اتجاه أو سلوك.

وهذا تيار الشعر الإسلامي ما زالت أنغامه تترنم بروائع «محمد إقبال» و «أحمد شوقي» وما زال الأدب الغربي ينظر إلى تجربة John Milton «جون ملتون» في ملحمة المعروفة Paradise Lost «الفردوس المفقود»^(١) أو إلى T.S. Eliot «توماس ستيرنز إليوت» في قصيدته المشهورة The Waste Land «الأرض اليباب»^(٢) ينظر إليها نظرة مثالية يمتزج فيها الإعجاب بالإكبار ففيها من منظورهم الديني ما تتعلق به نفوسهم، وتسبح في عوالمه أرواحهم، إنهم يديرون وجوههم لتراثهم الديني، ويرونه المنقذ لكوارثهم على الرغم مما داخله من أباطيل، وتحكم في منطلقاته من أساطير، ويدير بعضنا ظهره لإشراقة النور،

The Peotical Works of John Milton. (١)

Jamesui Betand CO. London Vol, 11, P. XXIV.

T.S. Eliot. (٢)

A Study in Character and Style, By Ronald Bush Oxford University Press 1984,

وصفاء العقيدة، ورحابة الأفق العلمي، الذي انفردت به منطلقات ديننا الإسلامي.

- ولا أريد الوقوف عند قصيدة «سعدي يوسف» التي لا تخلو مقاطعها من تضمين للرموز المسيحية، «كالكنيسة والناقوس»^(١)، وهو تضمين تشعر معه احتفاء الشاعر بهذه الرموز، وهذا أكبر رد على الشعراء الآخرين الذين كانت كلماتهم المفتقدة لنبض الشعر، وقوة الصورة، تحمل - أيضاً - نقيصة أخرى لاستهدافها لأئمن ما في حياة هذه الأمة، وهو الدين الإسلامي.

قد أتهم بأنني متحمس في فكري لكنني سأقول لمن تبعثرت الكلمات بين يديه، وخرج من مجال الإبداع إلى سيئة الابتداع، فذهب يهذي قائلاً:

«إنك حين تطرق باب المعنى يفتح لك».

«في اختلاف الحروف قلق وشك».

«بينما الناس يبصرون السماء أرى أن العرش».

«وأهل العرش»^(٢)

سأقول له:

لقد جفت الحقيقة لديك أيها الشاعر، قبل أن يجف القلم، الذي ظننت أنك تسطر به شيئاً، ولم تدر أنك الذي لم تقل غير قول تنفر منه الأسماع، وتتأذى منه الجوارح!

(١) مجلة كلمات. ص ١٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٨.

وافتنونا أيها العارفون من الناس في أمر كهذا فقد كثر الرديء من القول، الذي يعتقد أصحابه أن الأمم سوف تتسابق على تدوينه، ليكون في إبداعات الخالدين، وما علموا أن الأمم تزدري الذين يبدلون صورهم وأشكالهم، فكيف بالذين يتجرؤون بالقول على عقائدهم وتراثهم؟!

القيادات الغربية واحترام الدين

ذكر ملحق صحيفة التايمز الأدبي قبل سنوات عديدة قوله مشهورة عن الرئيس الأمريكي المعروف «إيزنهاور» وهي «إن انتماءك للشعب الأمريكي يعني أن تكون فرداً متديناً». ولقد تذكرت هذا القول عندما قرأت تصريح الناطق باسم البيت الأبيض «مارلين فيتزواتر» إن الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش الأب اتصل هتافاً عند استنفاد كل الوسائل الممكنة للحل السلمي في منطقة الخليج باثنين من رجال الدين وأبلغهما أنه يصلي من أجل السلام، وإن الرجال الثلاثة صلوا معاً. وقد قرأت من قبل وعلى صفحات هذه الجريدة الغراء بقلم الأستاذ الكريم محمد صلاح الدين أنه عند تسلم الرئيس بوش الأب لمهام السلطة في بلاده كان أول ما بدأ به حياته العملية هو التوجه بالدعاء مما يدل على ممارسته لشعائر دينه واحترامه لرموزه ومقدساته.

- والرئيس بوش الأب لم يكن الوحيد بين زعماء العالم الغربي الذي يكشف سلوكه عن مثل هذا التوجه فلقد شاهدت في أثناء حرب «الفوكلاند» والتي خرجت منها بريطانيا منتصرة تَرَدُّدُ رئيسة الوزراء البريطانية السابقة مارجريت تاتشر على الكنيسة، وإعلانها أنها ذاهبة لأداء الصلاة. ولعل البعض في عالمنا العربي تأخذ الدهشة ويتملكه

الاستغراب لو عرف أن أحد الأعضاء السابقين لحزب العمال «الاشتراكي» ووزير الخارجية البريطاني في حكومة «جيمس كالاها» ١٩٧٦ - ١٩٧٩م الدكتور «ديفيد أوين» يذكر في برنامج تليفزيوني أعد خصيصاً عن حياته أنه يذهب بين الحين والآخر إلى الكنيسة متأملاً ومتعبداً. ويشبه هذا السلوك الديني الطبيعي الصادر عن هذه الشخصية المعروفة في عالم السياسة والفكر البريطاني سلوك شخصية أخرى كانت تنتمي إلى الحزب نفسه وهو المتحدث باسم مجلس العموم البريطاني لفترة طويلة وهو جورج توماس الذي نقلت صحيفة «التايمز» عنه قولاً يدعو فيه بني قومه للالتزام بديانتهم إذا ما أرادوا خيراً وصالحاً لأُمور دنياهم وشؤون حياتهم.

- ولقد سُئِلَتْ هذه الأدلة والشواهد الواضحة ليرى الفرد العربي كيف أن هؤلاء القوم يتشبثون بمنطلقاتهم الدينية ولا يخرجون على المرتكزات الأساسية في تراثهم وأن ممارساتهم الحضارية لم تقف حائلاً بينهم وبين العمل على تعميق الحس الديني في نفوسهم والتوجه إلى خالق هذا الكون ومبدعه في أوقات السلم والحرب على حد سواء بينما نجد أن بعضاً من أدياء الفكر والثقافة في عالمنا العربي والإسلامي - وللأسف الشديد - لا يزالون يتبجحون بمواقفهم العدائية من الدين وأهله ولا يرون في الحضارة إلا ذلك الخروج المقيت على مقدسات الأمة التي لم ترثها عن جاهلية ولم تأخذها عن مصدر بشري ولكنها تلقتها عن وحي أمين ورسالة صادقة مدعومة بالأدلة والبراهين وإن هذا البعض يخجل من أن يفتتح خطبة أو كتاباً له باسم الله والصلاة على نبيه ﷺ ويرى في كل عمل إبداعي يتضمن إشارة دينية أو مغزى أخلاقياً يرى فيه تحجراً في

الفكر وضيقاً في الأفق ويطالب بإحالته إلى منابر الوعظ والإرشاد وذلك عين الجهل المركب والتفكير السقيم فالمطابع في أوروبا لا تزال تقذف بالأعداد الهائلة من الدواوين والروايات التي تحمل توجهاً دينياً وتهدف لنشر الخير والفضيلة.

- إن الشيوعيين والعلمانيين في عالمنا العربي والإسلامي عقول متحجرة، وقلوب مقفلة، وبصائر ضالة، ولعلّ خلف هذا التحجر وذلك الصداً وتلك الضلالة تكمن بواعث تخلفهم عن الركب الحضاري العالمي الذي كان ومازال مرتبطاً بالدين أشد الارتباط وساعياً للبحث عن الحقيقة خلف مظاهر هذا الكون ونواميسه.

- إن الأمم لا يعجل في تقدمها الضلال ولا يسعى بها إلى الحضارة التمرد على الفطرة البشرية ولا يعظمها في أعين أعدائها.. تخليها عن تراثها وعاداتها وتقاليدها.

* * *

لماذا يوجه الإبداع الأدبي ضد الإسلام؟

- نشرت صحيفة «الميل البريطانية»^(١) The Mail on Sunday صورة تجمع بين أعضاء الحكومة البريطانية من حزب المحافظين وحزب العمال «المعارض» وهم يؤدون ما يسمى صلاة الشكر في كنيسة القديسة «مارجريت» بمقر البرلمان الإنجليزي.

وتعتبر هذه الصورة تجسيداً حياً لعواطف المجتمع البريطاني بجميع فئاته تجاه العقيدة المسيحية ووثيقة عملية تبطل ذلك المفهوم الذي انطبع في أذهاننا عن انقطاع الصلة بين الحضارة الغربية وفكرها وآدابها وفنونها وذلك التراث الديني المسيحي المتجذر في نفوس أفراد المجتمع الغربي، وحرصهم على التمثيل به، وافتخارهم بالانتماء إليه.

- وإذا كانت هذه العقائد المسيحية التي امتدت إليها عوامل التحريف وخالطتها آراء البشر على مر العصور، تلقى من أتباعها هذا الحماس والتبجيل فما بال كثير ممن ينتسبون إلى عقيدة الإسلام - وخصوصاً من المفكرين والأدباء - يسيئون إلى دينهم الذي نشأوا عليه، ويحاولون جهدهم التعلق بالعقائد التي نبذها أهلها، وأجمع روادها على فساد أسسها وتطبيقاتها؟

- لقد أذهلتني تلك الحملة الشعواء التي تزعم كبرها بعض مفكري وأدباء العالم العربي ضد الدين الإسلام وشعائره وتراثه، وبدأت واضحة في الوثيقة التي تولى نشرها كاتبان غربيان، هما «لوك باربولسكو» و«فيليب كاردينال» تحت عنوان «رأيهم في الإسلام»^(١) حوار صريح مع أربعة وعشرين أديباً عربياً، في هذه الوثيقة التي تبرز صورة هؤلاء الأدعياء على حقيقتهم رغم محاولات وسائل الإعلام العربي في تقديم إنتاجهم لنا ضمن مذاهب أدبية معينة كالتجديد والحدثة.

هذه الوثيقة تحمل لنا إجابة كاتب مثل «جمال الغيطاني» الذي قال عندما وجه إليه سؤال عن «إمكانية اعتماد الإسلام من قبل دولة عصرية كنظام للحكم بأنه - أي الكاتب - يدعو للدولة العلمانية التي تبدو أكثر ملاءمة لإدارة مجتمع عصري، بينما يعنى الإسلام بعلاقات الفرد مع ربه ومع الغير».

ويفتخر الروائي المعروف «طاهر وطار» بإيمانه بالمبدأ الشيوعي القائل إن الدين أفيون الشعوب، كما يحاول الإشادة بالتوجهات العربية المستحدثة نحو أفكار ماركس ولينين.

أما الشاعر «عبد الوهاب البياتي» فيؤكد أنه ليس للدين انتماء قومي أو جغرافي فهو جزء من الثقافة العالمية وتراث قائم بذاته، وبهذا يعبر شاعرنا الذي تلهب الأكف من التصفيق له في منتديات الشعر عن إيمانه بما يسمى بوحدة الأديان، ولم يعد خافياً أن هذه العقيدة نبتت في أحضان المعابد اليهودية، وتسعى الحركة الصهيونية لتثبيت منطلقاتها في المجتمعات الإسلامية.

(١) صدر الكتاب باللغة الفرنسية باسم L'islam En Questions ونشرته دار الساقى في لندن، سنة ١٩٨٧م، وهي الدار التي يمارس من خلالها «أدونيس» كثيراً من السلطة والتأثير، فيما تنشره من دراسات وتعهده من ندوات.

وهذه الوثيقة لا تخلو من بعض المفارقات العجيبة. فإجابة الكاتب «عبد الرحمن المنيف»^(١) ترى إمكانية مشاركة الدين في إعادة بناء وتنظيم المجتمع بشرط الاستناد إلى ركائز علمانية^(٢)، وهو خلط واضح يدل على تجاهل صاحبه بمنطلقات الدين الإسلامي كعقيدة ربانية ونظام كامل للحياة الإنسانية لا يمكن خضوعه بأي حال من الأحوال للآراء البشرية المحدودة بعامل المكان والزمان والتي تتحكم فيها - أيضاً - النزعات والأهواء المختلفة.

وإذا كنا لا نستغرب من مبشر^(٣) يحاول البروز في مسوح الأدب،

(١) مؤلف رواية «مدن الملح» التي صدرت في جزئين كما أن له جهوداً روائية أخرى مشتركة مع جبرا إبراهيم جبرا.

(٢) هذا الرأي لا يذهب بعيداً عن الدعوة التي يحمل لواءها محمد أركون والتي تتضح أسسها وأبعادها في مقولته التي صرح بها في ندوة جمعية الصداقة الفرنسية - العربية - حيث قال: «فالعرب يمكنهم أن يفيدوا كثيراً من فرنسا، ومن التيارات الفكرية التحريرية والجادة في الثقافة الفرنسية وهنا أشير على وجه الخصوص، إلى مسألة العلمنة المعاشة في فرنسا منذ ثورة ١٧٨٩م، ويمكن أن ينتهز العرب الفرصة لحل أكبر مشكلة مطروحة على المجتمعات العربية والإسلامية، وهم يحلون عنها طريق توليد فكر تحريري وتنويري داخل الإسلام والثقافة العربية، وهذا الفكر غير موجود للأسف الشديد، حتى اليوم. انظر: مجلة الأزمنة (فبراير) ١٩٨٩م، المجلد الثالث، العدد ١٤، ص ٧٥ - ٧٧.

(٣) يشير العلامة الشيخ (محمود محمد شاكر) إلى الدور المشبوه الذي قام به لويس عوض منذ سنة ١٩٥٤م، بقوله: «إنه عرف بدعوته للأدب العامي في صدر حياته، ورأيته منذ دخل صحيفة الأهرام يجمع حول نفسه، وتجمع له بعض المراكز الثقافية القائمة في مصر والتابعة مباشرة لمراكز التبشير العالمي، من يصلح أن يكون معبراً عن رأي لويس عوض، ويكون متسماً بالنزاهة ولا مطعن في نزاهته من المصريين المسلمين الذين خدعوا بشكل ما، بما يسمى كسر عمود الشعر العربي، وباستعمال اللغة العامية والدعوة إلى إحلالها محل الفصحى ثم من يجتمع حوله ممن يحقر شأن العرب وتاريخهم، وثقافتهم ودينهم، ويزدري بكل ذلك ازدراء ظاهراً، ويعد الثقافات الأوروبية كلها هي المصدر الذي ينبغي أن نستقي منه مادة تكويننا الحديث بلا تردد أو تمحيص» انظر: محمود محمد شاكر» أباطيل وسمار، القاهرة، ط ٢، ١٩٧٢م، ص ١٤٨.

وصليبي يتقنع بأردية الفكر العالمي والثقافة الإنسانية محاولته إصاق التهم الباطلة بالدين الإسلامي^(١) والتشكيك في علمائه ومفكره^(٢)، وإنكاره على اللغة العربية وحدتها القدسية، كما أكد ذلك في كتابه «مقدمة في فقه اللغة العربية»^(٣). وإذا كانت لا تدهشنا - أيضاً - تلك العبارات المجردة من أدنى حدود المعرفة واللياقة التي كان يستخدمها الهالك - كاتب ياسين - عند حديثه عن الإسلام وشعائره، أو عند مناقشته لقضية التعريب^(٤) في بلد عربي كالجزائر، والتي ظل يحاربها لآخر أيام حياته. إلا أنه لأمر غريب وقضية مستنكرة أن نسمع هذا الهذيان من كاتب يعتبر والده أحد الدعاة المخلصين للإسلام، والمحافظة على التراث العربي تاريخاً وفكراً وأدباً، وزعيماً من الزعماء المعروفين بانتمائهم الوطني الخالص.

(١) يذكر لويس عوض في كتابه الأخير الذي دوّن فيه مذكراته الشخصية «أوراق العمر، سنوات التكوين» ما يدل على استهتاره بالأديان، ونفوره من شعائرها، ويربط بين هذا المنحى في شخصيته وبين تكوينه الأسري المبكر، يقول في ذلك: «وكنّا في بيتنا لا نتكلم أبداً في موضوع الصوم والصلاة، بل كنّا نعدّها قلة أدب أو قلة ذوق» انظر: لويس عوض ٧٥ عاماً، حياة أرهقت صاحبها «مجلة المصور المصرية، العدد: ٣٤١٢ - ٥ شعبان: ١٤١٠هـ، ص ٢٢ - ٢٥.

(٢) يصف الكاتب التوجهات الإسلامية عند كل من جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، بهذه العبارات الباطلة: «فبالنسبة لجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده كانت الديانة بمثابة سلاح يشهر للدفاع عن النفس» انظر «رأيهم في الإسلام»، ص ١١١.

(٣) جرت مصادرة هذا الكتاب، بناء على طلب من مجمع البحوث الإسلامية في سنة ١٩٨٠م.

(٤) أجرت مجلة الشراع اللبنانية حواراً مع كاتب ياسين قبل وفاته صرح فيه بأنه ليس عربياً ولا مسلماً، وإنما جزائري، وإن اللغة الأولى للشعب الجزائري لم تكن العربية بل «التمازيت» ومطالباً بالكف عن التعريب، وأن يتعلم جميع الأطفال، منذ الحضانة لغتهم التي هي التمازيت. انظر: «كاتب ياسين في آخر حديث له» «مجلة الشراع، العدد رقم ٣٩٨، الاثنين، ٩ نوفمبر ١٩٨٩م، ص ٥٦ ت ٥٧.

إن الكاتب «حسن أحمد أمين» يرى أن المخرج الوحيد للعالم الإسلامي هو الانتماء للمحور الشيوعي، فخضوع هذا العالم لهذا المحور جدير بإكسابه وجوداً فعلياً في الميدان العالمي، وإن يكن رأيه هذا ليس كل ما تحمله عقليته من سخافات^(١)، وما تدعو إليه مؤلفاته من انحرافات، فهو مثلاً يرى أن أحكام الشريعة الإسلامية تنتفي عنها صفة الألوهية، وتندرج ضمن التطور التاريخي للتقاليد والعادات الاجتماعية، وهو يشبه المؤسسات الدينية القائمة في بعض البلاد الإسلامية بالتنظيم الكنائسي، ويعقد مقارنات ساقطة بين العلماء والكهنة المسيحيين.

- إن العالم الذي يشهد في هذه الحقبة سقوط معقل الشيوعية، وانحسار موجة أفكارها، في بيئتها الطبيعية ومنتدياتها الحقيقية، سوف يعجب كل العجب من هذا الجهل الفاضح، والخواء الفكري والتبعية الممقوتة، المتمثلة في آراء هذه الثلة التي تعتبر نفسها مسؤولة عن توجيه الفكر والأدب في بلادها.

(١) يذكر الدكتور «إحسان عباس» أن المرحوم أحمد أمين كان يملئ عليه رسالة لابنه الذي كان يدرس في أوروبا، ينصحه فيها بالاستمسك بعروة الخلق الشرقي، إلا أنه توقف عن الإملاء بعد أن اكتشف مضمون رسالة تتعلق بسلوك ابنه هذا الذي كان يوجه دوماً إليه الرسائل الناصحة. انظر: الدكتور إحسان عباس «من الذي سرق النار» خطرات في النقد والأدب، جمع وتقديم الدكتورة وداد القاضي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، ص ٤٣٩ - ٤٤٠.

الإبداع ليس حرية مطلقة

تُطرح في الساحة الثقافية في الوقت الحاضر قضية هامة وهي: هل من حق المؤسسات الدينية - الأزهر مثلاً - أن تمنع طباعة أو نشر بعض الكتب التي يكون فيها مساس بالمشاعر الدينية كالانتقاص من حق الرسول - ﷺ - أو التشكيك في الوحي الإلهي أو التعرض لأصحاب رسول الله - ﷺ - بما لا يتفق مع منزلتهم ومكانتهم التي لا تقبل الشك أو التأويل؟ فلقد تناقلت الأخبار عن صدور روايات أدبية وقصائد شعرية تتخذ من الرمز وسيلة للطعن في الإسلام ومقدساته وشعائره. وعندما قامت المؤسسات المعنية بالعمل على منع مثل هذه الأعمال وجدنا أصواتاً كثيرة تنادي بعدم المساس بحرية الرأي وترك القاص أو الشاعر يقول ما يريد فالإبداع شيء والدين شيء آخر بحسب تعبيرهم، لأن الإبداع يجب ألا يخضع للضوابط الدينية والأخلاقية.

وهذه مقولة فاسدة تعبر عن جهل أصحابها بمفهوم الكلمة ودورها. فالكلمة التي شرف الله الإنسان بحمل أمانتها لا يمكن أن تسير في طريق معاكس للحق، والجمال لا يمكن بلوغه عن طريق ما يعد تحدياً للقوانين الإلهية التي أراد الله لها أن تسود هذا الكون وتعمل على نشر الفضيلة فيه والحيلولة دون تفشي الفساد والرذيلة. وإضافة إلى هذا الدور الهابط

الذي يريده البعض للكلمة أن تؤديه فينزلونها من منزلتها السامقة، ويسلبونها بهاءها الحقيقي ويشوهون صورتها الأزلية بالزيف والكذب والخداع، فإنهم - أيضاً - يجهلون مفاهيم الحرية التي يريدونها بلا ضوابط ويحصرّون مهمة الإبداع في تصوير اللحظات الهابطة للنفس، ويتصورون - وهماً وخداعاً - أن الفكر الأوروبي يؤمن بمثل هذه الحرية ويدعو إليها. فما الذي يمنع من الاقتداء بالغرب والسير خلفه في هذه القضية، ومع أن القائلين بهذا يجهلون مسلّمة هامة وهي أن لكل مجتمع ظروفه الحضارية والاجتماعية الخاصة به وبالتالي فلا مجال لقياس مجتمعاتنا على المجتمعات الغربية فهو شيء يرفضه المنطق ولا يقبل به العقل الواعي والمدرك للسياقات الحضارية الخاصة بكل أمة. مع هذا الذي ذكرناه فالفكر الأوروبي لا يؤمن بحرية مطلقة في الإبداع. ففي بريطانيا مثلاً يحرم التجديف ضد الديانة المسيحية، ولا يمكن لعمل كتابي أو تليفزيوني أن يتعرض لما يدخل في نطاق الإساءة للمشاعر الدينية للمجتمع وإذا ثبت ذلك فالعمل عندئذٍ لا تتم إجازته ويتعرض صاحبه للعقوبة بل إن التعرض للشخصيات التاريخية والرموز الاجتماعية يمكن أن يؤدي لسقوط صحيفة أو مجلة أو القائمين عليها، كما حدث عندما تعرضت مجلة يصدرها التجمع الشبابي في حزب المحافظين لشخصية رئيس الوزراء السابق - هارولد مكميلان - فأُسّرت سكرتيرية الحزب لإصدار أمر من المحكمة بالتخلص من أعداد المجلة التي تتضمن الإساءة لهذه الشخصية السياسية، كما أدّت هذه الحادثة إلى استقالة المشرف على تحرير المجلة.

وعلى الرغم من رفع شعار العلمانية في بعض البلدان إلا أنه يحرم

التعرض لشخصية الرسول - ﷺ - ويؤدي هذا الفعل المشين إلى العقاب كما ينص على ذلك القانون في بلد كتركيا مثلاً، وإذا كان هذا هو الوضع في بعض البلاد الغربية أو البلاد الإسلامية التي تأخذ بالقانون الغربي في حياتها، فكيف يمكن أن نتصور أن أديباً يدفعه خياله المريض للانتقاص من شخصية الرسول الأعظم - عليه صلوات الله وسلامه - أو شاعراً يدفعه غروره للاستهزاء بآيات الله الكريم والمنزهة عن كل تحريف، ثم نجد من يدافع عن مثل هذه الأعمال الساقطة بحجة الإبداع وتحت قناع الحرية المزيفة؟

إن الحرية لم تكن في يوم من الأيام دعوة إلى الباطل، بل كانت على العكس من ذلك المفهوم الموجود في أذهان البعض، دافعاً للكلمة الطيبة وردعاً عن الكلمة الخبيثة، فالحرية تحمي العقول والقلوب مما يفسد طبيعتها أو يخرجها عن فطرتها، كما أن الإبداع لا يمكن حصره في قضية واحدة وهو الاهتمام بلحظات الضعف عند الإنسان، وتاريخ الفكر العالمي يحمل لنا أدلة كثيرة على أن الإبداع الذي استطاع أن يثبت وجوده في كل الحقب والعصور هو ما كان هدفه الارتقاء بالروح والسمو بالمشاعر والارتفاع إلى آفاق الحق والفضيلة، وما سواه فهو إبداع لا يتجاوز دائرته الضيقة التي أبدع فيها ولا يتذوقه إلا أصحاب النفوس السقيمة والعقول المتخبطة، فاللهم اهدنا إلى الحق وجنبنا ما يغضبك ويسخطك.

يساري ويساريون

- «إريك هيفر» Eric Heffer مفكر إنجليزي وأحد الأصوات المعروفة في مجلس العموم ويميل إلى التوجه اليساري في حزب العمال البريطاني، توفي قبل مدة وجيزة بعد معاناة مريرة مع داء عضال استمرت لمدة تزيد على عام ونصف. ولقد وجدت في مواقف هذا المفكر ما يمكن الإشارة إليه لنستطيع التمييز بين جوانب الفكر الغربي وأولئك الذين يندسون في صفوف المثقفين العرب، ويدعون التقدمية ويكذبون على مجتمعاتهم بأنهم في تقدميتهم هذه إنما يستندون إلى أسس الفكر الغربي ويحاولون الاستفادة من معطياته، مع أننا عند دراستنا لهذه النخبة العربية نجدتها بمواقفها تجسد خذلاناً حقيقياً للقيم الإسلامية والعربية من جهة، وإخفاقاً في فهم وإدراك الفكر الآخر، فضلاً عن تمثيل حقيقي له واستيعاب لأبعاده.

المفكر «هيفر» رغم اقتران اسمه بالنخبة اليسارية في الساحتين الفكرية والسياسية، إلا أن هذا الاقتران لم يفقده ارتباطه بالكنيسة الإنجليزية، وذلك يعود لنشأته في أحضان التعاليم المسيحية حيث كان يتردد على الكنيسة حوالي ثلاث مرات في يوم الأحد المخصص لتلقي هذه التعاليم، ولقد أدى به هذا الارتباط إلى تأليف كتاب عن المسيحية وهو واحد من

أربعة كتب أنجزها في الفترة التي كان يصارع فيها المرض، وتأليفه لهذا الكتاب عن ديانتته جعل صحيفة التايمز اللندنية تطلق عليه صفة «شديد التمسك بالتعاليم الأنجليكانية» High Anglican.

ولعلّ هذا التمسك يبدو - أيضاً - في تطلعه إلى النموذج المسيحي المتمثل في الربط بين حرفته الأصلية وهي النجارة وما كان يشغل به الأنبياء والرسل من حِرَف.

وهو مع يساريته التي لازمته طوال حياته التي قاربت سبعين عاماً، كان أول مفكر وسياسي إنجليزي يرفع صوته في مجلس العموم ليدين الغزو السوفييتي لأفغانستان في وقت كانت فيه النخبة البريطانية المحافظة لا تجرؤ على هذه الإدانة، كما كان أول معضد لحركة «تضامن» البولندية والتي سجلت في بداية الثمانينات الميلادية المشاهد الأولى في صراع دول أوروبا الشرقية مع الحركة الماركسية ورموزها المتهالكة، كما كان عدواً معروفاً للنزعة السلطوية والمركزية الحزبية التي كان يمثلها الحكم الشيوعي في الاتحاد السوفييتي، ولهذا طالب بحرية الفرد والإصلاح، في الوقت الذي لم يكن يتصور أحد أن زعيماً اسمه «جورباتشوف» سوف يبرز من بين أعضاء الكرملين لينادي إلى ما يسمى «البروسترويكا». وعندما تألب اللوبي الصهيوني على بريطانيا لينال من الأميرة «مايكل» أميرة كينت، كان «هيفر» يمثل الصوت الوحيد الذي يطالب بوقف تلك الحملة القذرة التي شنتها مجموعة صحف الناشرين اليهوديين «روبرت ماكسويل» و «روبرت مردوخ» متعللة بجذور الأميرة الألمانية وديانتتها الكاثوليكية التي ترفض الاعتراف بالقدس كعاصمة موحدة لإسرائيل.

وعندما حال المرض بينه وبين حضور جلسات مجلس العموم ثم

حضر فجأة في الجلسة التي خصصت لمناقشة حرب الخليج في شهر يناير لعام ١٩٩١م قابله أعضاء المجلس على اختلاف توجهاتهم بالتصفيق، وقام رئيس الوزراء البريطاني المحافظ الذي لم يمض على وجوده في «داوننج ستريت» سوى مدة وجيزة، قام من مكانه مخترقاً الصفوف وانحنى مسلماً على واحد من أكثر الأصوات حدة في انتقاد الحزب الحاكم والحزب المعارض الذي ينتمي إليه هو نفسه، وكان «ميجور» بهذا الصنيع يجسد تقليداً رائعاً تعلمه الغرب من حضارتنا الإسلامية العريقة وهو احترام الخصوم وتقدير أصحاب الفكر الآخر دون أن يعني ذلك تسليماً بما يقولون أو تنازلاً عن المنطلقات والأسس.

إنني لم أقدم هذا القدر من سيرة هذا المفكر إلا ليتسنى للقارئ الموازنة بين مواقفه الصريحة والواضحة ومواقف النخبة اليسارية في العالم العربي التي لا تصر فقط على عدم انتقاد الفكر الشيوعي وكأنه شيء مقدس لا يجوز المساس به، ولكنها تتمادى في غيها إلى درجة معاداة وخصومة الذين يقدمون على مثل هذا الانتقاد، وهي النخبة نفسها التي تطلق على مجاهدي أفغانستان المسلمة اسم العناصر الثورية المتمردة في صحفها ومنابرها الإعلامية، ورفضت وكانت ترفض حتى إدانة الوجود الشيوعي على هذه الأرض المسلمة وإذا كان بعض مفكري أوروبا الذين نلمس في حياتهم ميولاً محددة تجاه التوجه اليساري لا يرضون أن يكون هذا التوجه على حساب عقائدهم المسيحية الراسخة في نفوسهم، فإن كثيراً من مثقفي العالم العربي - وهو أمر مؤسف ومحزن - يخلعون من الانتماء لهذا الدين العظيم أو الإشادة بنبيه الخاتم - ﷺ - ويعدون ذلك تأخراً ورجعية، بل إن بعضهم يتناول في وقاحة وخسة على مقامه

السامي وشخصيته العظيمة، ولو كان لهؤلاء الذين نطلق عليهم في عالمنا العربي - النخبة المثقفة - قلوب يعون بها وضمائر يرجعون إليها لما احتجنا إلى أن ندلل لهم على فساد تصوراتهم بنماذج وأمثلة من الفكر الآخر، ولكن الذي قادنا إلى ذلك شدة انبهارهم بالفكر الغربي وتعلقهم بتقاليده ورموزه، ولكنه للأسف الانبهار الذي لا يتجاوز النظرة الأولى، والتعلق الذي لا يُعمل أدوات الفكر ولا ينزع إلى معرفة عميقة بمصادر العلم لدى الأمم الأخرى، وهو أمر يضعنا أمام سؤال هام: ألسنا بحاجة إلى عقول ناضجة وأقلام مؤمنة بدينها أمينة على تراثها لتوقفنا على حقائق الفكر الأوروبي لنميز غثه من سمينه ونعرف سيئه من صالحه؟

لويس عوض

كانت كلمات الأستاذ الفاضل محمد صلاح الدين على صفحات جريدة المدينة الغراء في يوم الثلاثاء ١٤١١/٣/٦هـ في موضوع تسابق بعض الصحف العربية في الثناء على كاتب عاش طوال حياته مناوئاً للدين الإسلامي، واللغة العربية وآدابها، ورواد الكلمة في تاريخها الحضاري الطويل، وهو الدكتور «لويس عوض» - كانت كلمات تحمل الدعوة إلى الاستناد إلى الحقائق الموضوعية في معالجة القضايا المتصلة ببعض الكتاب الذين عاشوا في ظل المجتمعات الإسلامية بما تمثله من تسامح وإنصاف، ولكنهم استغلوا هذه القيم الإنسانية الرفيعة في مهاجمة الأمة الإسلامية من خلال التشكيك في إرثها العلمي، ومساهماتها الحضارية.

- يحاول البعض أن يعقد مقارنة غير متكافئة بين «لويس عوض» والعقاد، وطه حسين، بحجة أنهم جميعاً من دعاة التنوير، إلا أنه بقليل من البحث العلمي المتجرد يمكننا القول إن «عوض» لا يمكن تصنيفه مع أديبين كبيرين كالعقاد، وطه حسين، فالأول لم يكن في يوم من الأيام معادياً للعروبة، كما أن كتاباته تحمل تصوراً إسلامياً واضحاً، بل وتنطلق من هذا التصور في نقض الكثير من الآراء الخاطئة عن الدين الإسلامي، وحياة عظمائه، كما أن طه حسين على الرغم من انبهاره بالحضارة

الغربية في مطلع حياته والذي يحسن تفسيره في ضوء مكوّنات طه حسين العاطفية إلا أنه ساهم في الرقي بالأدب العربي من خلال عشقه للغة القرآن وتجنبه لجميع الدعوات المشبوهة التي تسعى للتقليل من شأنها أو تغيير بنيتها، أو إحلال العامية بدلاً منها، بينما نجد «عوض» يختم حياته الفكرية بعمل يكرس فيه كل قواه للهجوم على اللغة العربية، وهو كتاب «مقدمة في فقه اللغة العربية» والذي صدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٠م، ثم صودر بناء على طلب من مجمع البحوث الإسلامية وهذا العمل الذي يثبت إصرار عوض على المجاهرة بالعداء والتصدي لدراسة الفكر العربي من خلفية حاقدة يصعب تفسيرها بالنموذج المحلي الذي دعا إليه فاروق رزق في صحيفة الحياة بتاريخ ٣٠ صفر ١٤١١هـ ويضع رأي جابر عصفور والمنشور في مجلة «الهلال» والذي حاول من خلاله أن يجعل من كتابات «عوض» تكريساً لمفهوم العروبة الصادقة، يضعه في موقف النقيض من «عوض» نفسه، وليس من أولئك الذين تصدوا لنقد أعماله التي يسيطر عليها توجه واضح نحو الافتخار بالفرعونية وإحلالها محل العربية وهي السمة الأساسية للمجتمع المصري العظيم.

تبقى مسألة هامة وهي أن «عوض» لم يكن فقط ينعي على المجتمع المصري تعلقه بالدين وتطبيقه لشعائره وذلك من خلال تأكيده على إبراز النقيض لذلك والمتمثل في صور من تكوينه الأسري الخاص حيث ذكر في كتابه الأخير (أوراق العمر - سنوات التكوين): «كنا في بيتنا لا نتكلم أبداً في موضوع الصوم والصلاة بل كنا نعدّها قلة أدب أو قلة ذوق» بل ذهب إلى مهاجمة بعض الأدباء الغربيين المتمسكين بعقائدهم الدينية تمسكاً صارماً في حياتهم الخاصة والمبشرين بها أيضاً من خلال

إبداعاتهم الأدبية، وكان من بين هؤلاء، ت. س. إليوت، صاحب القصيدة الذائعة الصيت «الأرض اليباب».

لقد أخفق «عوض» رغم تنقله بين المجتمعين الإنجليزي والأميركي لفترة من الزمن - أثناء دراسته العليا - كما أخفقت زمرة أخرى من الدارسين العرب، في الإحاطة بقضية هامة وجديرة بالمتابعة والدراسة وهي أن الأدباء الغربيين ينزلون أديانهم منزلة رفيعة، ولا يرضون بأن تكون محتوياتها - على الرغم من تعرضها للتغيير والتبديل على مر العصور - هدفاً رخيصاً يكرسون له مواهبهم الأدبية وأدواتهم الفنية.

إن نظرة متعمقة إلى إبداعات دانتي، وملتون، وجيفري تشوسر، فرانز كافكا، وعزرا باوند، وإليوت تجعلنا أكثر إيماناً بأن مفاهيم العلمانية وما يرتبط بها من دعوات وأفكار، لم تتلقها الأوساط الثقافية الغربية بذلك الانبهار والاندھاش الذي أصبح - وللأسف الشديد - سمة من سمات بعض الشخصيات الأدبية العربية التي تسنمت في غفلة من الوعي وفقدان التقييم منابر الكلمة ومواقع التأثير.

الباب الرابع

نحن والاستلاب الثقافي

اليساريون العرب والتاريخ الأسود

- قد يخلط البعض بين مواقف العمّاليين أو اليساريين الغربيين ومواقف الزمرة الماركسية أو اليسارية في العالم العربي، فاليسار الغربي الذي عبّر عن موقفه المعارض للحرب في الخليج لم يفعل ذلك لأنه متعاطف مع الديكتاتورية العراقية أو مقر لاحتلالها غير المشروع لأرض الكويت، ولكن لأنه يرفض نمط الحرب ومبدأ القتال كما ظهر ذلك في موقف اليساريين الغربيين من الحرب العالمية الأولى التي عارضوها في البداية ولكن سرعان ما اقتحموا ميدانها، وهو سلوك يدل على التناقض الذي كانت وما زالت تعيشه الحركات اليسارية في الغرب، ولكن على الرغم من موقفهم من الحرب الأخيرة التي حوّل مجلس الأمن الدول المعنية بالإقدام عليها بعد استنفاد كل الوسائل السلمية الممكنة، إلا أنهم - أي اليساريين الغربيين - يرفضون الغزو العراقي ويدينونه، وهذا ما عبّر عنه النائب العمالي البريطاني المستقيل ووزير الظل للضمان الاجتماعي «توني بانكس» والذي وصف صداماً بأشنع العبارات قائلاً: «هذا هو المخلوق المسخ الذي يجبر شعبه إلى الدمار الشامل» ولم يكن «توني بين» وزير الطاقة السابق في حكومة ويلسون العمّالية والسياسي البريطاني الشهير المعروف بمواقفه المتميزة في مجلس العموم هو الآخر مقرأً للأسلوب البربري الذي أنتهجته القيادة العراقية في تعاملها مع جارتها المسالمة دولة الكويت.

هذا هو موقف اليسار الغربي وهو يختلف عن الموقف الذي عبر عنه الشيوعيون واليساريون العرب والذين رفضوا الحرب من منطلق إقرارهم للغزو العراقي وتأكيدهم على الدعاوي الباطلة التي يرفع شعارها هذا النظام الأهوج ويستخدمها ذريعة يتستر من ورائها على جرائمه وانتهاكاته ويرى هؤلاء اليساريون العرب في شخصية صدام صورة البطل القومي والزعيم المنقذ وما ذلك إلا لأنهم يعشقون الظلم، ويؤمنون بالديكتاتورية، ويتلذذون برؤية تطاير الرؤوس بغير حق وسفك الدماء التي تروي عند أصحابها نزعات الإثم وشهوات الباطل.

- اليساريون العرب الذين ينادون بالوطنية ويعتقدون في دعاوى صدام الكاذبة بتحرير الأرض الفلسطينية المغتصبة هم أول من خان هذه القضية وخذل أهلها بعد قيام الكيان الصهيوني على أرض فلسطين سنة ١٩٤٨م. ومن يرجع إلى رسائل الشاعر العراقي بدر شاكر السياب الذي عُرف بانضمامه إلى الحزب الشيوعي العراقي في بداية حياته ثم انفصاله عنه سوف يذهل من تواطؤ الحركات اليسارية في العالم العربي مع الحركة الصهيونية، بل إن السياب يعبر في إحدى رسائله عن ضرورة اتخاذ موقف حازم تجاه زميله في المسيرة الأدبية ورفيقه في الحزب «عبد الوهاب البياتي» لأن هذا الأخير ذهب في طروحاته الشيوعية وما يترتب عليها من مواقف مذهباً غريباً يدل على تخليه عن كل حس وطني وتجرده من كل قيمة إنسانية.

- اليساريون العرب وفي مقدمتهم النظام العراقي ومنظمة التحرير الفلسطينية كانوا أول من أقر بالاحتلال الشيوعي للأرض الأفغانية المسلمة ووقفوا مواقف عدائية من الجهاد الأفغاني لتحرير أرضه المسلوبة وقيام

الدولة الأفغانية المسلمة، على الرغم من أن معظم الأحزاب الشيوعية في العالم الغربي ومنها أحزاب بريطانيا وفرنسا نددت في ذلك الوقت بهذا الاحتلال وشجبتة وهذا في حد ذاته يكفي لتحديد مسار العقلية الاستلابية التي يفكر بها اليساريون العرب، والتبعية المطلقة والعمياء التي ينتهجونها في التعامل مع الأحداث والتي تدل على تخلفهم وانحطاطهم الفكري.

- واليساريون العرب رأوا في نبذ دول أوروبا الشرقية للنظام الشيوعي وفي إصلاحات جورباتشوف السياسية، رأوا فيها خيانة للمبادئ وهرطقة فكرية يجب أن تُصد وتُقاوم، ومن يريد التأكد من ذلك فليرجع إلى مقالات غالي شكري، وخطب لطفي الخولي، وأشعار محمود درويش، والبياتي، والمقالح، وتنظيرات محمد عابد الجابري.

- ليس بغريب على اليسار العربي وفيهم النخبة التي تتطلع - للأسف الشديد - بعض الدوائر الثقافية في العالم العربي إليها على أنها النخبة المنتقاة والتي يجب أن تمنح امتيازاً لتقود عالمنا إلى حيث مرابع الحرية والعدالة والفضيلة، ليس بغريب بعد هذا التاريخ الأسود، والمواقف المخذولة، والتوجهات الخائنة أن يرى هؤلاء في احتلال الكويت شرعية، وفي سرقة الأموال شرفاً وفي انتهاك الأعراض فضيلة، وفي التخريب والهدم والحرق حضارة فكل إناء بما فيه ينضح.

الديالكتيك المتداعي وآثاره

في فكر محمد أركون

جاء زمن كنا نشكو فيه من الاستشراق وظلمه المتمثل في تلك التصورات الخاطئة عن الإسلام، وحضارته، وتاريخه، ومع هذا فلقد وجد بين هؤلاء المستشرقين من كان منصفاً في تقييمه للحضارة الإسلامية، عادلاً عند تعرضه لتلك الإنجازات التي قام بها علماء الإسلام في مختلف ميادين المعرفة. ولكننا بلينا في عصرنا الحاضر بأقوام من بني جلدتنا ينصبون أنفسهم للحديث عن الفكر الإسلامي في جامعات الغرب ومنتدياته، وليس لهم من هدف إلا التقليل من معطيات الحضارة الإسلامية، وبصورة أكثر سوءاً وسلبية من المحاولات الاستشراقية التي عرف المسلمون بواعثها الحقيقية وعملوا على تعريضها وتفنيدها. محمد أركون واحد من هؤلاء، يتحدث يوماً بصوت السياسي، ويجادل يوماً آخر بصفة المفكر، ولا يتورع من أن يضع نفسه موضع الفقيه الذي يرجع إليه الناس طالبن رأيه فيما يعترض حياتهم من مشكلات وقضايا، وهو شيء لم يسمع الناس به من قبل ولو تحدث إليهم أحد بهذا الأمر لعدّوا ذلك ضرباً من الأسطورة أو الخيال اللذين يرفضهما الواقع رفضاً باتاً ولا يمكن لمقتضيات العقل وحيثيات المنطق أن تتعامل معهما بتلك

الجدية التي يمكنها أن تتعامل بها مع حقائق الأشياء والمستندة إلى الضوابط التي لا يختلف الناس حولها مهما تنوّعت آراؤهم واختلفت توجهاتهم الفكرية.

- لقد كان آخر ما تمخض عنه فكر «أركون» الذي لا يترك مناسبة دون أن يؤكد فيها على عروبه وإسلامه، ولا نعرف أي نوع من أنواع العروبة يقصد، أما الإسلام فإن ما يدعو إليه أركون بين الفينة والأخرى من مقولات يتعارض كلياً مع حقائق هذا الدين وشريعته الخالدة - نعم كان آخر ما تمخض عنه هذا الفكر السقيم هو تلك المقولة الفاسدة التي تضمنها موضوعه المنشور في صحيفة البيان المغربية، وعلّق عليها ملحق الفكر الإسلامي بصحيفة العلم «أركون بين الفتنة والجنون، بقلم فريد بن عدي» العدد ٢٣٤١ محرم ١٤١٢هـ ولقد قال أركون: إن «التراث العربي الإسلامي أسطورة» وليس محتوى علمياً.

- إن أركون الذي يحاضر في بعض جامعات الغرب يمكنه الرجوع إلى ما كتبه بعض مفكري الغرب وعلمائه عن دور التراث الإسلامي في مسيرة الحضارة الإنسانية ولولا هذا التراث لتوقفت هذه المسيرة ولما تمكن إنسان هذا العصر من الاستفادة من المعطيات الحضارية المتعددة، بل إن كبرى جامعات الغرب تحتفي بين الحين والآخر بذكرى علماء الحضارة الإسلامية من أمثال «ابن سينا والفارابي والرازي وابن خلدون والإمام أبي حامد الغزالي وابن رشد» وغيرهم ممن لا تخفى أسماؤهم على أركون الذي يتخبط في آرائه التي يعتبر من العبث الوقوف عندها، أو محاورته حولها، ولكن افتتان البعض من أبناء الأمتين الإسلامية والعربية بآرائه الشاذة دفعنا إلى الإشارة إلى مثل هذا الفكر الذي لا

يحتوي حقيقة على ما يمكن أن يطلق عليه مسمى فكر أو ثقافة، ولا بد أيضاً من فهم السياق الفكري الذي تصدر عنه مثل هذه المقولات، فهذا السياق العام يرتكز بصورة رئيسة على الفكر الماركسي الذي ما زال أركون مفتوناً به ومشدوداً إلى مرتكزاته التي أثبت الواقع تهافتها وتناقضها مع الفطرة البشرية، فنحن نجده يشيد برواد هذا الفكر قائلاً: «إن ماركس، ونيشه وفرويد يمثلون القيمة، وماركس هو الفيلسوف الذي وفر لنا بروز الفكر الجدلي، الذي ينطبق على دور الاقتصاد في التاريخ» غريال الديالكتيك.

ولم يقتصر أركون على الإشادة بماركس وفلسفته المادية ولكنه كثيراً ما يستخدم مبادئ الفلسفة الماركسية في تحليلاته وقراءته للفكر الإسلامي مثل «صراع الشداد» و«حركة التاريخ» و«فلسفة التناقض». وأركون في هذا المنحى لا يختلف عن تلك الزمرة المحسوبة ظلماً على الفكرين العربي والإسلامي، والتي ما إن تتلقف شيئاً من الفكر الغربي أو تطلع عليه حتى تبدأ ترديده دون وعي وإدراك، فكيف إذا كان هذا الشيء الذي تلوك ألسنتها به أضحى في الفكر الغربي نفسه من مخلفات الماضي، بل إن المفكرين الغربيين ليخجلون من الإشارة إليه بعد سقوط الحكم الماركسي والذي لم يكن إلا وهماً كبيراً يعيش بين دفات الكتب وفي رؤوس الفئة المستفيدة وحدها من كدح الفئات المسحوقة في المجتمع واستخدامهم متى شاؤوا في إذكاء روح الصراع في تلك المجتمعات التي ما انكشف الغطاء عنها حتى بدت لاهثة متعبة تبحث عن الحد الأدنى من تطلعاتها ورغباتها المشروعة. ثم إن هذه الزمرة التي يحلو لها الحديث بين الحين والآخر عن عالمنا الذي تنتسب إليه بالاسم فقط، بينما هي في واقع الأمر بعيدة كل البعد عن معاشة واقعه وتفهم الظروف المحيطة

به حتى يكون حديثها عنه مبنياً على أسس وضوابط علمية تمكنها من الاقتراب من تلك المنهجية التي تتهم الجانب الآخر بعدم التزامه بها. هذه الزمرة تتغافل عن أمر في غاية الأهمية وهو أنه لا يمكننا أن نطبق المقاييس التي هي من نتاج الفكر الغربي في هذا العصر على العصور الأوروبية الوسطى مثلاً، وهذا أمر لا يختلف عليه أحد وتحكم به بدهيات المنطق وأوليائه المعروفة للناس جميعاً حتى وإن تباينوا في منطلقاتهم وتعددت آراؤهم الفكرية والثقافية فكيف إذا سعت الزمرة الأركونية إلى تطبيق الديالكتيك «الماركسي» على الجوانب الاقتصادية والاجتماعية في الفكر الإسلامي، وإذا كان المحتوى العلمي من وجهة نظرها يرتكز أساساً على اللسانيات الحديثة وعلى وجه التحديد لسانيات «بنفينست وتشومسكي».

إن ذلك - بلا شك - يعد من الظلم والإجحاف الكبيرين، ولهذا فلا غرابة من أن تأتي أحكامهم جائرة وآراؤهم مضطربة ولا غرو أن يغمطوا تراث هذه الأمة حقه، فالرؤية الواضحة لا يمكن أن تصدر عن نفوس يملؤها الحقد على مجتمعاتها وتتحكم فيها الآراء الجاهزة والمقاييس المحدودة العاجزة عن استيعاب المفاهيم الحضارية لكل أمة على حدة والتعامل مع تلك الخصائص التي تتميز بها المجتمعات وتنفرد بها دون غيرها من المجتمعات الأخرى. وباختصار فإن أركون يحفظ الكثير من المصطلحات الغربية الجاهزة ولكنه لا يحفظ شيئاً من تاريخ أمته ولا يمتلك الحد الأدنى من أدوات البحث العلمي وهو التجرد والنزاهة وهذا وحده يكفي في الطعن فيما يطرحه من آراء مبتورة يسعى لتسويقها بيننا بعض أنصاره ومريديه.

المثقفون الصامتون

- لقد كان للنظام العراقي الآثم خلال عقد من الزمن أو أكثر خططه المتعددة في اجتذاب عدد من المثقفين والكتاب العرب خصوصاً أولئك الذين يصنفون من ضمن النخبة التقدمية التي تزعم أنها تسعى لتطوير الفكر العربي، وتحديث أدبه وفنونه. ولقد وجد هذا النظام وشائج عديدة تربط بين فكره العلماني المتجرد من العقيدة الإسلامية وبين الاتجاهات الحديثة التي تسعى لتغيير معالم الثقافة العربية عن طريق استخدام المناهج المستمدة من الفكر الماركسي (كنظرية لوسيان غولدمان Gold Mann) في دراسة تراث الأمة وفكرها، وتفسير النشاط العقلي للمبدعين على ضوء مفاهيم الجمالية الماركسية وهي المفاهيم التي اعتمدها «لوكاشي» عند تحليله لعدد من أعمال الكتاب الماركسيين سنة ١٩٣٠ - ١٩٣١م.

- الفكر العلماني الذي تنطلق منه القيادة العراقية ينظر إلى الإسلام في مجمله - كما تثبت المنشورات الحزبية المضللة - على أنه تراث اجتماعي صرف يجب إبعاده عن التطبيق العملي والممارسة الحياتية، ولكن لا يمانع - في الوقت نفسه - من استغلاله كوسيلة لجذب البسطاء، وإغراء السذج من عامة الناس، وكذلك الوضع مع المنهج الإنثروبولوجي الذي وضع أسسه «ليفى شتراوس» وسلفه «سيرجيمس فريزر»، Sir،

James Frazer في كتابه المعروف «الغصن الذهبي» The Golden Bough والذي يصنف العقائد الدينية وما أتت به من تشريعات مثل تحريم زواج الأقارب، والنهي عن أكل لحوم حيوانات معينة ضمن باب الأساطير التي لا يمكن للعقل المتمدن الراقي أن يعتنقها ولكن يمكن الاستفادة منها كمعادل فني في الأعمال الإبداعية على مختلف أشكالها.

- هذا المنهج الأنثروبولوجي المتوافق مع الفكر العلماني في كثير من تصوراته الدينية، والذي يصر بعض المفكرين العرب على الأخذ به في دراسة الفكر العربي، هو الوسيلة التي ولج منها النظام العلماني العراقي لإغراء عدد من الأسماء الثقافية الفاعلة في الساحتين الفكرية والأدبية بأن تكون أصواتاً تطبل له، وأبواقاً تبرر سلوكه الدكتاتوري وممارساته البربرية وهي الأصوات نفسها التي تمتنع عن إدانة أفعاله المهينة والمزرية ضد الشعب الكويتي الآمن، ولعلّها تحتج بأعذار واهية، وتختلق تبريرات مضحكة لا يمكن قبولها عقلاً فضلاً عن تصديقها. فبعضهم يدعي أنه أديب لا يفقه في شؤون السياسة لذا فهو يسعى للترفع عنها، والآخر شاعر أسطوري لا يجد في الأزمة الحالية ما يفجر طاقة الإبداع فيه. وقد نعذرهم أنهم في يوم من الأيام أسرفوا في مديح الطاغية دون علم وعلى غير هدى، وأنهم قبلوا الأوسمة والجوائز في مهرجانات «المربد» و«الفاو» لأنه غرر بهم، ولكن صمتهم اليوم بعد أن تكشف لهم الحقائق وتبدت لأعينهم النوايا السيئة لا يمكن تفسيره إلا على ضوء ما ذهبنا إليه في بداية هذا المقال وهو وحدة المنطلق الفكري وتطابق الرؤية الأيديولوجية بدءاً من نزعة سفك الدماء وانتهاء بتغيير ملامح الثقافة العربية، والهوية الفكرية للأمة والمرتبطة بالإسلام عقيدة ومنهجاً.

لويس عوض والحقْد الصليبي على الإسلام والعروبة من خلال أوراق العمر

كثير هم أولئك الذين يدبجون المقالات ويكيلون المديح لفئة محسوبة على الثقافة العربية لم تتورع عن المجاهرة بالعداء للإسلام والكراهية للعروبة. ولم يستطع أحد أن يجري في هذا الميدان كما جرى الكاتب الشيوعي «لويس عوض». ولعلّ مذكراته التي كتبها وهو على فراش المرض توضح هذه الحقائق التي يجب على أولئك المعجبين بضجيجه أن يدركوها، فلا يمكننا بحال من الأحوال أن نسكت عن هذا الجانب المظلم في فكر هذا الرجل ونحن الذين كثيراً ما ننفر من الدراسات الاستشراقية لأنها تنضح بالحقْد على الإسلام وأهله، وقليل منها ما هو براء من ذلك. وإذا كان هذا موقفنا من الفكر الاستشراقي الحاقْد، فإن نظرة عجلَى على ما تفوه به عوض سوف تحيل ما قاله المستشرقون - عن تعصب - في الإسلام مدحاً وتجعله ثناء، لأن ما خطه قلم هذا الصليبي الحاقْد هو السم الذي لا يستطيع مسلم أو عربي أن يتجرع قطرة واحدة منه، فما بالنّا نمدح من يشتموننا ونحب من يكرهوننا، ونصفق لمن يستهزئون بنا، ونرفع الرايات لمن أفنوا حياتهم يبحثون عن الثغرات ليصلوا منها إلى غاياتهم المؤءودة وهي ضرب

الإسلام وإلصاق التهم بكتابه المنزل، ولغته الخالدة، ورموزه المضيئة.

يقول لويس عوض في مذكراته [أوراق العمر سنوات التكوين] - مكتبة مدبولي - القاهرة] متحدثاً بكل صراحة عن شيوعيته «وقد بهرتني كتابات سلامة موسى في هذه السن الباكرة فكنت أشرح ما أتعلمه منها من مبادئ ومعلومات لزملائي من الطلبة في مدرسة المنيا الثانوية، بل وكنت أكتب موضوعات الإنشاء بالإنجليزية عن الاشتراكية والشيوعية، وأناقش مستر سوينبيرن وذات مرة قال لي في الفصل عام ١٩٢٩م أنت التلميذ الشيوعي الوحيد في هذه المدرسة»، ص ٣٢٩.

ولا نعلم إذا ما كان هذا الأستاذ الأوروبي يستهزئ بشيوعية لويس عوض، أم يمدحه - لأنه رآه متفانياً في الذود عنها، فالمعروف أن الأوروبيين وخصوصاً - الإنجليز منهم - كانوا يكرهون الفكر الشيوعي كراهية لا حدود لها، ومع أن هناك حزباً شيعياً في بريطانيا منذ عشرات السنين إلا أنه لم يفلح يوماً في أن يفوز ولو بنائب واحد في مجلس العموم البريطاني، ولقد قفل هذا الحزب أبوابه بعد سقوط الشيوعية في معقلها وبقائها حية بين بعض الرفاق في عالمنا العربي.

أما كراهيته للعرب، فلعلّ العبارات التالية تكون درساً لأنصار الفكر القومي الذين كانوا يحسنون الظن بعروبة لويس عوض، يقول من وُصف أخيراً بأنه مدرسة ثرية بالعمق والمعرفة: «وكنْتُ لا أحب البدو، ولا أخالطهم بل كنت أكرُّ احتقاراً شديداً، لكل الأقوام البدوية وأتصورها معادية للحضارة - بنت الزراعة والصناعة - والاستقرار وكنْتُ أراها عقيمة عقم الصحراء». ويعلّل عوض احتقاره الشديد للبدو وحياتهم - ويدخل في هذا عقائدهم وعاداتهم الاجتماعية - بالأسباب التالية: «وربما كان هذا

الموقف من البدو نتيجة لما كنت أسمعه في أسرتي وخارج أسرتي، من أن الحياة - حياة العرب - قائمة على السلب والنهب والخطف والعدوان على الفلاحين» ص ٤٥٠.

ولا أعلم كيف يأتي مثل هذا الكلام من شخص يؤمن بالبحث العلمي والموضوعي ويدرسه لطلابه؟ فهل السماع - وحده - يكون سبباً في أن نكره أقواماً أو نمقتهم؟ أم أن هناك أسباباً أخرى لهذا العداء المتمكن في نفس «لويس عوض» لم يرد الإفصاح عنها كما أفصح عن سلوكياته الساقطة في المذكرات نفسها؟

ويرسم لويس في مذكراته صورة منفرة للعربي بقوله: «ولم أر عربياً إلا وكان حاملاً بندقية كأنما البندقية أداة إنتاجه، أو كأنه في حرب دائمة مع البشرية، ولم أكن أفهم كيف يمكن أن يقيم مدنية من ليس له عنوان ثابت، وكان من محفوظاتي في القرآن أن الأعراب أشد كفراً ونفاقاً، وكان كل العرب عندي أعراباً» ص ٤٥١.

العرب جميعاً عند من جعله بعض كتّاب أعمدة الصحافة الساذجة مدافعاً عن الحرية، العرب جميعاً عنده أعراب، يحملون بنادقهم ليقتلوا وسيوفهم ليصارعوا وهم ليسوا بأهل حضارة، ونسي أو تناسى أن حضارة المسلمين والعرب كانت تقوم أمام عينيه في حواضر العالم العربي من القاهرة ودمشق إلى الرياض والرباط، ونسي أنه كان هو شخصه عالة على الفكر الذي تركه أولئك القوم الذين ليس لهم عنوان ثابت، والغريب جداً أن عوض يستشهد استشهاده خاطئاً بآية من القرآن كتاب الله الكريم ووحيه المنزل على خاتم رسله سيد العرب والعجم محمد بن عبد الله - عليه صلاة الله وسلامه - وهو الذي عاش طوال حياته يحارب هذا

الكتاب ولغته وعلى الذين يمارون في ذلك أن يرجعوا إلى كتابه عن فقه العربية وهو الكتاب الذي استصدر مجمع البحوث الإسلامية أمراً بمنعه لما يحمله من دعاوى باطلة ضد لغة القرآن في بلد القرآن وعلمائه وحفظته .

ولا يتوقف عوض بين الحين والآخر في مذكراته - سيئة الذكر - عن التعرض للعرب بلسان كله الفحش وعبارات يتورّع عن التفوه بها كل من نظن أنه عدو لهذه الأمة وتاريخها وحضارتها .

تقول عبارات «لويس عوض» بالحرف الواحد: «وذات يوم كنت جالساً في محطة العلمين وإذا أحد البدو يدخل المحطة، ودون أن يسلم جلس قبالي وشرع يأكل معي، وتجمعت في نفسي كل كراهيتي للعرب، فنهضت قائلاً: من أذن لك أن تدخل المحطة؟» ص ٤٥١.

والسؤال الذي طرحه عوض لا يقصد من ورائه شخصاً معيناً، ولكنه يقصد به أمة كاملة، فهو لا يعادي الأشخاص ولكنه يعادي الأمة، ولا تتجمع الكراهية إلا في نفس لا تعرف الخير ولا تحس به، إنها النفس المظلمة والبصيرة المنغلقة.. وإذا كان هذا رأيه الذي سطره قبل وفاته في الأمة التي لا يخجل بعض أبنائها من أن يجعله من رموزها المبدعة وعلاماتها المضيئة - بينما هو يتبرأ منها ومن الانتساب إليها - إذا كان هذا رأيه الذي قاله وهو يتمتع بالحرية الكاملة لما يريد أن يقوله والدليل على ذلك أنه نشر بين دفتي كتاب، فما هو رأيه الحقيقي في كاتب مثل «العقاد» ومفكر مثل «محمد عبده»؟ هذا ما سوف نعود إليه في كتابات نقدية قادمة إن شاء الله.. موضحين أن رأيه غير الموضوعي في بعض الشخصيات الإسلامية مثل «جمال الدين الأفغاني» و «محمد عبده» كان

ترديداً لمقولات غربية قام بترجمتها عندما كان يتردد كأستاذ زائر في بعض الجامعات الأمريكية، أما كتابه في الأدب الإنجليزي الحديث الذي لم يذكر فيه مصدراً واحداً من المصادر التي استقى منها موضوعاته فقد كشف المتخصصون في الأدب الإنجليزي عن سطو عوض على أفكار غيره في الوقت الذي يدافع فيه البعض عن سرقاته الفكرية، وهم يجهلون اللغة التي يمكن أن تقودهم إلى مواضع السطو الفكري الذي هو أسوأ أنواع السطو وأشدّها ضرراً، وكان بإمكانهم أن يتركوا الأمر لأصحابه، والعلم لأهله ويعرفوا مواقعهم فلا يتجاوزونها، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

* * *

المقالح والبياتي

لعلّه من قبيل التذكير أن أشير إلى أنني كتبت في زاوية (رؤية فكرية) مقالاً أوضح فيه أبعاد الموقف الفكري المتناقض للشاعر عبد الوهاب البياتي والذي حاول أن ينفي عن نفسه تهمة التوجه الماركسي بعد أن أثبتت هذه العقيدة فشلها وتهافتها وذلك في مقابلة معه بصحيفة الحياة ٣١ مارس و ١ أبريل ١٩٩٠م. والأدهى من ذلك أنه زعم في تلك المقابلة أنه كان واحداً ممن بشروا بسقوط سور برلين منذ أمد بعيد مع أن مراجعة بسيطة لدواوينه الشعرية وخصوصاً «عشرون قصيدة من برلين» تجسد لنا تبعيته الذليلة وإيمانه الأعمى بمنظومة الفكر الشيوعي مع رغبة جامحة ودعوة محمومة لنشرها في المجتمعات العربية وكذلك فعل عدد آخر من الكتّاب العرب الذين بشروا في مطلع الخمسينات الميلادية بنظرية الواقعية الاشتراكية المنبثقة عن الفكر الماركسي نفسه مستخدمين كل الأساليب الرخيصة في سبيل وأد كل إبداع لا ينطلق من هذه «الموضات» الفكرية التي يشهد الغرب في كل عقد من الزمن بروزها ثم تلاشيها واختفاءها تبعاً لتطورات سياسية واجتماعية واقتصادية تمر بها تلك المجتمعات.

وجاءت أزمة الخليج لتُعرّي «البياتي» وزمرة أخرى ممن هم على

شاكلته في المعتقد والمنهج ولتبرز مرة أخرى تناقضاتهم الفكرية وتوضح إغواجهم الذي لا يمكن له أن يعتدل ويستقيم مهما حاول الآخرون تحسين صورته وتلميحه أمام أعيننا. فلقد أعلن البياتي المنادي بالحرية تأييده لخانتق الحريات في بغداد ودبح قصائد المديح في طاغية العصر وهو الذي كان بالأمس ينعي على القصيدة العربية دورانها في الأغراض الشعرية التقليدية.

وإذا كان الإنسان لا يستطيع أن يخفي ما يعتمل في أعماق نفسه ولا يمكن له أن يقدم نفسه بوجوه متعددة بحسب المناسبات ومقتضيات الظروف فإن البياتي وشريكاً آخر له في المعتقد الفكري وهو الدكتور عبد العزيز المقالح أعلنوا في ندوة إذاعية بثتها إذاعة صنعاء مساء يوم الجمعة الموافق ١٩٩٠/٩/٢١م عن تأييدهما لمبدأ إعادة توزيع الثروة وهما ينطلقان في هذه الدعوة من إيمانهم المطلق بالنظرية الشيوعية التي دفنها «جورباتشوف» في الساحة الحمراء ودفن معها الرموز الشيوعية الأخرى المقترنة في أذهان أهلها وأبنائها بالقهر والظلم والاستبداد لمنافاتها للفترة التي خلق الله الناس عليها ومصادمتها لحقائق هذا الكون وهو ما أدى في النهاية إلى تأكلها وفشلها وسقوطها.

لم يكتف البياتي الذي استغل في يوم من الأيام كرمنا وتسلل خلصة إلى بعض المنابر الثقافية لينشدنا شعراً فجاً وإبداعاً رخيصاً قال عنه البعض يومها: إنه أضاع قناديل الليل وأزاح ستار العتمة وغسل النفوس والأرواح معاً. نعم هذا البياتي نفسه ورفيقه «المقالح» يطلقان علينا سمات الرجعية والتخلف وهما لا يقصدان بذلك سوى تمسكنا بالإسلام واعتزازنا بسلفيته عقيدة ومنهجاً فكرياً.

لقد استهجن بدر شاكر السياب ومجموعة أخرى من شعراء العراق في بداية الخمسينات الميلادية أسلوب البياتي الأرعن في التبشير بالمنهج الماركسي والدعوة إلى تطبيقه في كل شؤون الحياة العربية بدءاً من السياسة وانتهاءً بالثقافة مع أنهم كانوا يشاطرونه في تلك الفترة المعتقد نفسه، [مقالة شوقي بغدادي، بدر شاكر السياب من الداخل، صحيفة الحياة ٢٦ مارس ١٩٩٠م].

ويدور الزمن ليثبت البياتي من جديد شدة تخلفه الفكري ويكشف عن حقد متأصل يتطابق مع حرفية الأيديولوجيات الميتة التي يأمل بعودة الحياة إليها. ويجد نصيراً قوياً في المقالح الذي جعل منذ زمن جامعة صنعاء وكرراً للتوجه اليساري، يحتضن فيه الكُتّاب الذين تتخلص منهم بلادهم وتنفيهم من أراضيها بسبب رعوناتهم الفكرية من مثل كمال أبو ديب الذي أطلق عليه أستاذنا الفاضل أحمد الشيباني في سلسلة مقالات له بصحيفة الرياض حاخام الفكر الحداثي ويُكوّن منهم أي المقالح فئة تسعى للطعن في دين الأمة والعمل بكل الأساليب على تغيير الوجه الحقيقي لتراثها ومحاولة طمس معالم الفكر العربي الأصيل بحجة التحديث والتجديد وتحت ستار براق ينخدع به البسطاء والسذج من أشباه المثقفين وأنصاف الكُتّاب.

يوسف الخال

(١)

مما بليت به الأمة الإسلامية والعربية في العصر الحديث تسلل بعض الشخصيات الهدامة إلى مواقع الفكر والإعلام فيها، ولم تكتف هذه الشخصيات بنشر آرائها الغريبة التي تسعى لهدم الحضارة الإسلامية التي بنيت على المصدر الإلهي المستمد من كتاب الله وسنة رسوله - ﷺ - بل تعدت ذلك إلى إيهام عقول شباب الأمة أن الدواء الناجع للأمة من مشاكلها يكمن فيما تدعو إليه من آراء وما تتبناه من نظريات. ولعلنا لا نعدو الحقيقة إذا ما قلنا إنه نتيجة لهذا الإيهام الباطل أصبحت هذه الشخصيات، من منظور بعض شدة الأدب في بلادنا، روّاداً تمجد. وإن أولئك الذين يتعرضون لهذه الشخصيات التي قام بتنصيبها أعداء هذه الأمة بالنقد أو المحاوراة العلمية هم أعداء الفكر الحر والتجديد المنشود. ولقد قامت مجلة «البيان» الصادرة «عن المنتدى الإسلامي في لندن» في عددها الصادر في شهر شعبان ١٤٠٩هـ بعرض لفكر واحد من هذه المعاول الهدامة في تراث الأمة وفكرها، وهو الشاعر يوسف الخال، وقد قام بهذا العرض الدكتور وليد الطويرقي بادئاً بموقفه من اللغة العربية، حيث يدعو «الخال» إلى اعتماد لغة الكلام «العامية» لغة أدبية لأنها لغة

عربية متطورة من اللهجات الجاهلية، ولعلّ من المفارقات العجيبة في هذا الصدد ربطه بين استعمال اللغة العامية والنضال العربي ضد الوجود الإسرائيلي. فهو يدعو لتأجيل كل نضال ضد إسرائيل حتى يغير العرب لغتهم من فصحي إلى عامية حيث كتب في أواخر حياته في النهار العربي والدولي بتاريخ ١٩٨١/١/٢٥م وبلغة عامية لبنانية: «اللغة أكبر مشكلة عمبيوا جهوها العرب، هي أكبر من مشكلة إسرائيل لأن مشكلة إسرائيل مربوطة بمشكلة اللغة ومن دون حل مشكلة اللغة باعتماد المحلية ما يتحرر العقل العربي، وما بيتقدم الإنسان العربي، حتى يتغلب على مشكلة إسرائيل»!

أما موقف الخال من التراث العربي واعتزازه بنصرانيته والذي يدل على سوء توجهه ويوضح حقيقة موقفه من الإسلام وتراثه، فهو ما سوف نقوم بإذن الله بإيراده فيما يلي من الموضوعات.

* * *

يوسف الخال

(٢)

لعلّه مما يدعو إلى الغرابة أن ينسى بعض المتحمسين لأدب ت.س. إليوت، أن قصيدة (الأرض اليباب) قد بنيت أساساً على فكرة مسيحية صرفة تنبثق من تعصب هذا الكاتب لدينه وتراثه، كما قد يتجاهل البعض أن كثيراً من روايات «فرانز كافكا» كانت تنطلق من فكر صهيوني يبشر بالعودة إلى أرض الميعاد وتأسيس الدولة اليهودية، والمتحمسون كذلك ليوسف الخال يريدون منا أن نتغاضى عن نصرانيته واعتزازه بالكتاب المسيحي المقدس. فقد صرح - أي الخال - كما يذكر الدكتور وليد الطويرقي «بأنه سعيد أن يلقي وجه خالقه وفي يده اليمنى شعرية غيّرت إلى الأفضل مسيرة الشعر العربي، وفي اليد اليسرى ترجمة عربية حديثة للكتاب المقدس أتاحت للألوف المؤلفات من قرائه أن يخترقوا قدر الإمكان في المرحلة الراهنة جسد اللغة العربية القديمة الميت - كذا بحسب تعبيره - إلى روح مضمونه الحي».

وفي مناسبة أخرى يذكر بكل فخر: «إنني كشاعر مسيحي والمسيحية جزء من تراثي إن لم تكن في جوهره وصميمه، المسيحية مرتبطة ارتباطاً

كيانياً عميقاً مع التراث الذي سبق التاريخ العربي في هذه البقعة من الأرض».

إن «الخال» وأمثاله من المرتبطين بالفكر المسيحي العربي ينطلقون في معالجة قضايا اللغة والأدب والفكر من منظور ثقافي مسيحي صرف يعتبر الإسلام عقبة كبرى في طريق التبشير بالمسيحية، ومحاولة كتابة تاريخ الأمة العربية اعتماداً على التراث المسيحي، وهو ما يصطدم مع حقائق التاريخ والفكر، فالأمة العربية لم تشارك في النهضة الحضارية العالمية إلا من خلال الدين الإسلامي الذي أيقظها من سباتها وغيّر من رؤيتها للحياة والكون وبث فيها الروح العلمية التي أنتجت ذلك التراث الحي الذي كان إسلامياً في منطلقاته وإسلامياً في توجهه، وبالتالي إسلامياً في هويته. ولعلنا نذكر أولئك المتحمسين للخال وفكره أن النصرانية التي كانت محدودة الانتشار في الجزيرة العربية قبل مجيء الإسلام ونزول القرآن الكريم لم تستطع أن تجمع أمتنا على كلمة واحدة أو أن تهيم نفوس أبنائها للعمل الحضاري وتجعلهم قوة جديدة بين الأمم الأخرى في تلك الحقبة، إن الذي فعل ذلك كله هو الإسلام وحده، فهل من معتبر من أولئك الذين خدعوا بمقولات التجديد ونظريات التحديث في الفكر والأدب العربي ولم يتعمقوا في الوسائل والأهداف التي انطوت عليها هذه الحركات؟

إن هدفها الوحيد أن يخلع أبناء العروبة رداء الإسلام ويستبدلوه برداء جديد براق ظاهره الرحمة وباطنه العذاب.

يوسف الخال

(٣)

لقد كفانا أدونيس مؤونة توضيح أبعاد موقف الخال من التراث العربي.. وذلك في كتابه (قصائد مختارة). إذ يقول: «التراث العربي عنده - أي الخال - هو التراث الإنساني كله.. إنه التراث الذي تكون على الأرض منذ القدم وتفاعل عبر المتوسط مع التراثات التي تشكل بجملتها الحضارة الحديثة، وإن كان يوسف الخال يصدر في شعره عن المسيحية العربية.. أكثر مما يصدر عن الإسلامية العربية.. فلا يعني ذلك أن شعره غير عربي».

إن توجهات أدونيس تجاه التراث العربي تتوافق مع توجهات الخال في بناء فكر يعتمد في منطلقاته على المسيحية العربية، وهي توجهات - كما ذكرنا في موضوعات سابقة - تتجاهل حقائق تاريخ الأمة العربية، فمتى كان للنصرانية دور في تشكيل هوية التراث العربي أو تحديد منطلقاته؟ وأين كانت هذه القوة الحضارية الفاعلة في بناء فكر حضاري مستقل قبل مجيء الإسلام؟ وهل تستطيع المسيحية العربية في أي وقت من الأوقات كما يتطلع الخال وأمثاله.. أن تقدم بديلاً لهذا التراث الإسلامي الفاعل والقوي؟

إن هدف الخال هو الفصل بين الفكرين الإسلامي والعربي، ولهذا فهو يضع نفسه - كما يذكر الدكتور الطويرقي - «فوق التراث برمته ويشرف عليه بنظرته المملوءة بالغرور والعجرفة والادعاء».

يقول الخال في أسئلة الشعر: «فأنا معني جداً بتراثي العربي الذي لا تراث لي سواه، وإنما أريد أن أغنيه وأعززه وأنقذه وأفرزه وأرفض ما أرفض منه، وأقبل ما أقبل.. وذلك لجعله أساساً حديثاً صالحاً لبناء حياة أفضل لنا ولأولادنا».

في الوقت الذي توضح مقولة الخال السابقة موقفه الانتقائي من التراث، فإنه يمكن اعتبارها تجسيدا لمأساة المسيحيين العرب الذين يعلمون قطعاً باستحالة انتمائهم إلى الحضارة الأوروبية، ولهذا فهم يتطلعون إلى تغيير واقع التراث العربي ليتناسب مع موقفهم العقائدي.. مع أنهم متيقنون في دواخلهم من أن التراث العربي لا يستطيع أحد بحال من الأحوال فصله عن نسقه الإسلامي، وأن مقولة وجود تراث عربي لا يرتبط بالإسلام وأسسها هي مقولة أريد بها التمويه على أصحاب العقول الساذجة.. وما أكثرهم في عالمنا.

الباب الخامس

موقفنا منهم وموقفهم منا، والموقفان

بإزاء الحضارة

تراثنا العلمي في الجامعات الغربية

- لقد ترك وجود العرب حوالي ثمانمائة عام في شبه جزيرة أيبيريا علامات لا تمحى على الأرض الأيبيرية، وعلى الفنون واللغات التي يتكلمها الناس.

- ولكن الجانب الأهم هو ما تركته الحضارة الإسلامية من آثار على الحضارة الأوروبية في ميدان العلوم التطبيقية، وهو التأثير الذي يقف الغرب إزاءه موقفاً متناقضاً، فتارة يثبته وأخرى ينفيه، ويأتي هذا النفي نتيجة لتعصب بعض المؤرخين الغربيين ضد كل ما هو إسلامي أو عربي. ولو أردنا أن نحصي الأمثلة لتأثير التراث الإسلامي على الغرب فإنه سوف يطول بنا المقام، إلا أننا سوف نأتي على ذكر مثال فريد ذكره المستشرقان شاخت وبوزورث في كتاب [تراث الإسلام ج ٣، عالم المعرفة، الكويت]، وهو: إن مؤسس علم التشريح الحديث أندرياس فيساليوس Andereos Vesalius نشر في عام ١٥٣٨م، جداوله التشرحية الستة كدراسة تمهيدية لمؤلفه الرئيسي المعروف باسم الصنعة Fabrica، الذي كتبه عام ١٥٤٣م، وقد ورد في النص اللاتيني لهذه الجداول عدد من المصطلحات العربية. ولم تكتف هذه الدراسة بشرح النصوص الواردة في الجداول المذكورة شرحاً دقيقاً، بل أظهرت كيف اهتدى

«فيساليوس»، إلى معرفة المصطلحات في اللغات السامية التي لم يكن هو نفسه ضليعاً فيها. ويختم المستشرقان حديثهما عن هذه القضية قائلين: وهكذا حملت جداول فيساليوس التشريحية التراث العربي في الطب إلى مطالع العصور الحديثة.

- ويذكر العالم المسلم «فؤاد سيزكين» في كتابه «محاضرات في تاريخ العلوم العربية والإسلامية» أن المستشرق الألماني وستنفلد F. Wustenfeld ألف في سنة ١٨٤٠م. (تاريخ الأطباء العرب)، ومن أهم ما نشر في أواخر القرن التاسع عشر (فهرس مكتبة برلين) الذي ألفه الوارد A. Ahlwardt في عشرة مجلدات كبيرة بين سنوات ١٨٨٧ - ١٨٩٩م، وهو فهرسة للمخطوطات العربية في مكتبة برلين.

- إن احتفاظ دور المخطوطات في الجامعات الغربية بخزائن خاصة للتراث الإسلامي يكاد يكون أمراً شائعاً ومعروفاً وهو يؤكد مقولة اعتماد الحضارة الغربية ونهضتها الحديثة على ما خلفه المسلمون والعرب من تراث متعدد الجوانب، إلا أن أهم تلك الجوانب هو الجانب العلمي - التطبيقي. ولقد أتيح لي أثناء دراستي بجامعة مانشستر لتحضير درجة الدكتوراه التردد على مكتبة «جون رايلندز» Jhon Rylands التابعة للجامعة نفسها، وقد أنشئت هذه المكتبة في نهاية القرن التاسع عشر، وشكلت المخطوطات العربية المشتراة من «الإيرل كراو فورد» Earl Crow Ford في عام ١٩٠١م. جزءاً كبيراً من مقتنيات المكتبة التي لا يزال موقعها القديم يتوسط مدينة مانشستر.

- ومن خلال الاطلاع على الفهرس الذي صنع خصيصاً لفهرسة هذه المخطوطات العربية والذي يقع في حوالي ١١٥٣ صفحة، نجد ما يقرب

من حوالي خمسين مخطوطاً هاماً في الطب مثل كتاب (القانون في الطب) لابن سينا و(الموسوعة الطبية) المعروفة باسم (دستور العجائب وفهرسة الخرائب). وهذه الموسوعة مكوّنة من عدة أجزاء في العلوم الآتية: العلم الطبيعي، علم الحساب، علم الهندسة، علم أحكام النجوم، علم التشريح، علم الموسيقى، ومن المعلومات المدوّنة في آخر هذه الموسوعة يظهر لنا أنها كتبت في مكة المكرمة وفي وقت متأخر من القرن العاشر الهجري.

- كما نجد مخطوطات في علوم الرياضيات والهندسة، مثل كتاب (المعطيات) لأقليدس، ترجمة إسحاق بن حنين ومراجعة ثابت بن قرة، وكتاب (أصول الهندسة والحساب) لنصير الدين الطوسي، ورسالة لابن الهيثم في تربيعة الدائرة، وكتاب (معرفة مساحة الأشكال البسيطة والكروية) لحسن ومحمد وأحمد أبناء موسى بن شاكر وكتاب (المخروطات) لمحيي الدين يحيى بن محمد بن أبي شاكر المغربي الأندلسي.

- يضاف إلى ذلك عدد من المخطوطات في علم الفلك، وأخرى في علم الفلسفة تقرب من حوالي أربعين مخطوطاً. أما المخطوطات العربية التي تتناول علوماً نظرية، كالعلوم الشرعية، والتاريخ والجغرافيا، فهي كثيرة وسوف يكون لنا وقفة أخرى معها.

- إن التراث العربي يسكن في دُور الغرب العلمية لقرون عديدة ثم هو يلاقي الجحود من الغربيين - أنفسهم - الذين أفادوا منه - باعتراف المنصفين من أبنائهم - في بناء الحضارة العلمية الحديثة. ولكنهم أعرضوا عن روح المنهج الإسلامي الذي طبقه المسلمون عندما كانوا رواداً للعلوم

والمعرفة. أما الجحود الأمر الذي يلاقيه هذا التراث فهو هذا التجاهل من أبنائه الذين يستهويهم بريق الحضارة الغربية ولكنهم أبعد ما يكونون عن التعمق في أسس بنائها، وعن التفريق بين اصيلها وزائفها. كما أنهم يجهلون كيفية الاستفادة من معطياته. وهو قصور في الرؤية الحضارية لا يكون علاجه إلا بالعودة إلى تراثنا الحي ودراسته عن إيمان ومعرفة وبصيرة.

* * *

الإسلام في الكتابات الغربية الحديثة

(١)

- تحدث الدكتور محمد الرميحي، في مقال له: بعنوان «الإسلام والثقافة اليهودية - المسيحية»^(١) في مجلة «المجلة» (١٤/١١/١٩٨٩م) عن موقف الثقافة اليهودية المسيحية Judaeo-Christiani في المجتمع الأوروبي من الدين الإسلامي، وثقافته، وتراثه. ويدلل الدكتور الرميحي، على ذلك، بعدة حوادث، من أهمها: منع الفتيات المسلمات المحجبات من دخول مدارسهن في بلد يدعي الحرية والعدالة.

والموقف - نفسه - يتكرر في كل بلد أوروبي عندما يتشبث المسلمون بحقوقهم المشروعة، أو يمارسون نوعاً من ثقافتهم التي يستمدونها من دينهم الإسلامي، أو تقاليدهم الاجتماعية التي لا تلحق أذى - عند استخدامهم لها - بالمجتمعات الأخرى، أو ينتج عنها تهديد لمصالح البلد الذي يعيشون فيه كأقلية دينية، لها منطلقاتها، ورؤيتها الخاصة في هذه الحياة، وما يتصل بها من شؤون وممارسات مختلفة.

(١) د. محمد الرميحي: الإسلام والثقافة اليهودية المسيحية - العدد «٥٠٩» ١٤/١١/١٩٨٩م:

إلا أن المتتبع للحركة الثقافية والعلمية، في الغرب، يجد أن هذا الموقف المضاد للإسلام والمسلمين إنما مرده لنوعية الثقافة التي يتلقاها الفرد الأوروبي، من هذه المصادر الثقافية، والوسائل الإعلامية، التي لا تترك مناسبة سانحة إلا وتوجه - من خلالها - العديد من الاتهامات للدين الإسلامي، ولكن دون دليل يثبت ما تذهب إليه من تهمة، أو تبحث فيه من قضايا. إنما هو الحقد المتأصل، والمواقف المتوارثة عن المؤسسات الاستشراقية المتعصبة.

- لقد تخصص - على سبيل المثال - كاتب من كُتّاب صحيفة «التايمز» البريطانية، وهو «روبرت سلك» Robert Kilry Silk في تعميق موجة العداء ضد الدين الإسلامي، من خلال مقاله الصحافي الذي ينشره يوم الجمعة من كل أسبوع.

ففي يوم ١٣ أكتوبر ١٩٨٩م ت صدر مقاله الذي يناقش فيه قضية «السيادة الوطنية» National, Sovereignty^(١) وموقف رئيس الوزراء البريطاني السابق «أدوارد هيث» Edward Heath من قضايا شعوب أوروبا الشرقية، وعملها على التخلص من السيطرة الشيوعية، كما حدث في هنغاريا، وبولندا، وألمانيا الشرقية أخيراً، وعند تحدّثه عن النتائج التي تتركها هذه المحاولات القومية على العالم، ومحاورة السياسية، نجده يقارن بين هذه النتائج والنتائج التي ارتكبتها المسلمون باسم «القرآن» فيرى

Robert Kilry Silk. (١)

- The International Sanity in our Sovereignty
- The Times Newspaper
- Friday 13th october, 1989

أن أعمال المسلمين، في هذا الشأن، تجاوزت كل الشرور التي يمكن أن تنتج عن أي حركة وطنية عرفها التاريخ!

ولعلّ الكاتب المتعصب لم يقرأ التاريخ قراءة واعية ليعلم مدى تسامح المسلمين مع الأمم الأخرى - مسيحيين كانوا أم يهوداً - عندما كانوا يحكمون شبه الجزيرة الأيبيرية، ومقارنته بذلك الموقف الذي انتهجته المسيحية، عندما استولت على شؤون الحكم في الأندلس، ويدخل في ذلك دور محاكم التفتيش التي تعقبت المسلمين، وأجبرتهم على الهجرة والفرار. على أنه لا يعدم - أيضاً - المصادر الغربية التي تشير إلى مدى تسامح المسلمين في الأراضي المقدسة في فلسطين، وخصوصاً مواقف القائد المسلم «صلاح الدين الأيوبي» الذي لم يرض بإراقة دم شخص واحد من غير المسلمين. . أو العرب. وأين هذا الموقف الإنساني والحضاري من المذابح التي ارتكبتها الصليبيون ضد المسلمين في فلسطين؟ ومن أشهرها: مذبحه المسلمين بالقدس في يوليو ١٠٩٩م، والتي وصفها «وليم الصوري» من المؤرخين الصليبيين قائلاً: «إن البلد أصبح مخاضة واسعة من دماء المسلمين أثارت خوف الغزاة واشمئزازهم».

- إن الجهل بطبيعة الدين الإسلامي، أو علاقة الأمة الإسلامية بالأمم الأخرى على مر العصور ليس هو العامل الوحيد خلف هذه الهجمة الثقافية الشرسة، ولكن الخلفية العنصرية تلعب دوراً هاماً في التحدي السافر لمشاعر المسلمين وقضاياهم، يضاف إلى ذلك ما تحاوله الصهيونية - خصوصاً الكتّاب اليهود الذين تفسح لهم الصحافة الغربية صفحاتها - من نسف كل المحاولات الجادة التي يبذلها المسلمون لشرح مواقفهم الحقيقية للمجتمعات المسيحية الغربية.

الإسلام في الكتابات الغربية الحديثة

(٢)

- تعرضنا - في موضوعات سابقة - لمقالة الكاتب «روبرت سلك» Robert Kilry Silk المنشورة بصحيفة التايمز البريطانية (١٣ أكتوبر ١٩٨٩م) والتي يرى فيها أن المسلمين يستخدمون القرآن الكريم في تبرير أعمالهم السلوكية والشريرة. وكلمة الشريرة هي من عبارات الكاتب نفسه (Evils) وهدفه من استعمالها هو تعبئة نفوس الإنجليز، أو من يعيش معهم من الأمم الأخرى بمشاعر الحقد والاشمئزاز ضد الجالية الإسلامية والعربية التي عانت - في السنوات الأخيرة - من أعمال انتقامية عديدة تحدثت عنها الصحافة البريطانية في حينها.

وحتى نؤكد على أن الذي يورده هذا الكاتب المتعصب وأمثاله إنما يمثل اتجاهاً في الحركة العلمية والثقافية البريطانية، نعود لمقال آخر نشره الكاتب نفسه، في صحيفة التايمز - أيضاً - بتاريخ ٢٤ نوفمبر ١٩٨٩م^(١) يناقش فيه وضع الأقليات الأخرى، والتي تشكل جزءاً من المجتمع

(١) Robert Kilry Silk, Silent Slide Ti Wards, Separate Development, The Times News Paper Friday, 24 November, 1989.

البريطاني مثل: الأفريقيين، والإيرلنديين، واليهود، وأحقيتهم في اختيار نظام الحياة الذي يعيشونه، حتى لو أدى ذلك الاختيار إلى انفصالهم عن طريقة الحياة البريطانية، بسبب عدم تهيئهم للاندماج فيها.

ولكن وضع المسلمين - من وجهة نظر الكاتب - مختلف جداً. فهم - بحسب عباراته الاستفزازية - يؤمنون بقانون آخر غير القانون البريطاني، وأن لهذا القانون - وحده - الأحقية في التحكم في مناهج حياتهم، ويتهم الكاتب - هذا القانون - أنه يسمح لهم - أي للمسلمين - بحرق الكتب والتحريض على قتل الآخرين، ثم إنهم على استعداد لشرح خلفية هذا السلوك أو الاعتذار عنه، لممثلي دوائهم، من حزب العمال.

ويضيف الكاتب إلى ذلك أن المسلمين يطالبون بعدم خضوع نسائهم للتقاليد التي تخضع لها المرأة البريطانية، وأن هذا - من وجهة نظره - يمثل انتهاكاً للحقوق المدنية، وخرقاً للنظام البريطاني الذي يعطي المرأة الأحقية في اختيار ما تشاء من سبل الحياة، والتمتع بمباهجها ومبازلها، وهو يرى أن كل من يساعد المسلمين على إقرار هذه التقاليد الإسلامية الخاصة بالمرأة فهو شريك في سياسة عدااء المرأة، وسلب حقوقها.

- ونرى - من البداية - أن الكاتب يدافع عن حقوق الأقليات الأخرى - واليهود جزء منهم - ثم يسلب المسلمين هذا الحق المشروع. وهو تناقض صريح، وخروج عن المنهجية، وتعامل بعقلية استعمارية صرفة.

المسلمون - كما تثبت الأحداث والشواهد في المجتمعات الغربية - الرأسمالية والشيوعية - هم الذين تعرضوا ويتعرضون لحرق دورهم، وانتهاك وسلب حقوقهم.

أما ما قام به المسلمون، في بريطانيا وغيرها، من الاعتراض على الكتب التي تهاجم دينهم، أو تتعرض لشخصية رسولهم بالتجريح أو الانتقاص، فهم يتساوون في ذلك مع بقية الأقليات الأخرى التي تدفعها غيرتها الدينية للمعارضة والمطالبة، كما حدث لليهود في بريطانيا، عندما ساروا في مظاهرة علنية في عام ١٩٨٥م ضد الزعيم المسلم عمر فرخانة، وتمكنوا من إصدار أمر، من وزارة الداخلية بعدم السماح له بدخول بريطانيا، بحجة عداؤه لليهودية، وكما يحدث اليوم في الولايات المتحدة الأمريكية من ضجة كبرى حول الكتاب^(١) الذي صدر حول حياة الزعيم الأمريكي «مارتن لوثر كنج» Martin Luther King والذي اتهم فيه مؤلفه هذا الزعيم بعدم استقامة سلوكه الشخصي، وخصوصاً في الأيام التي سبقت مقتله في عام ١٩٦٨م. لقد طالب عدد من الشخصيات، ومن بينهم النائب الديمقراطي «جيسي جاكسون» Jesse Jackson برفع التهمة عن بطلهم التاريخي، وزعيمهم الديني.

وإذا كان لهؤلاء الحق في دفع التهمة عن بشر عادي أفلا يحق للمسلمين أن يطالبوا بدفع التهم عن أنبياء الله ورسوله؟

ويبدو أن الكاتب انضم إلى الدائرة الفرنسية المتعصبة والتي تطالب الفتيات المسلمات بكشف رؤوسهن، وعدم التقيد بالزي الإسلامي الذي يحفظ للمرأة مكانتها، ويؤكد على طهرها وعفتها.

(١) اسم الكتاب الذي صدر حول حياة «مارتن لوثر كنج» هو: And The Walls Came Tumbling Daown ومؤلفه هو صديق لكنج، واسمه Ralph David Abernathy انظر مقالة التايمز: Adultery of Martin Luther King - Frim, Martin itcher, Washington, The Times News Paper, 14, october, 1980.

والكاتب الذي يعترض على حجاب المرأة المسلمة، ويرى فيه قيداً على الحرية وعلامة على تمييز الهوية، واستقلال الشخصية، لا يجد حرجاً في ذهاب الطلاب اليهود إلى المدارس الغربية، وهم يرتدون قبعاتهم الدينية أو يعلقون شارات نجمة داود على صدورهم، أو يتلقون دروسهم الخاصة على أيدي الحاخامات في الديانة اليهودية، والتاريخ الصهيوني في قاعات الدرس، التي خصصت أصلاً - من وجهة النظر الغربية - للدراسة العلمانية التي تؤكد على الفصل بين تعاليم الدين وأمور الحياة الدنيا.

- ما الذي يجعل من الإسلام، في تصور هؤلاء الكتاب الغربيين أداة للقمع، وباعثاً على الجمود، وعائقاً عن التقدم، ومانعاً للحريات، بينما تحظى اليهودية بكل أساليب القداسة ورموز الاحترام والتبجيل؟

إن القضية تكمن في تجزئة المقاييس التي ينظر - من خلالها - الغربيون للأديان المختلفة، فهناك مقياس خاص بالإسلام يقوم على الانحراف المتعمد، وتؤثر فيه الأهواء الخاصة، ويخضع لكل المسارات الذاتية المنبعثة من رواهب الحملات الصليبية المتمزطة، والدراسات الاستشراقية الجاهلة. وبالمقابل فهناك مقياس آخر للدين اليهودي والديانات الأخرى - حتى الوثنية منها - يسعى لاسترضاء مشاعر أتباع هذه الديانات، وإشباع رغباتهم الخاصة، بإظهار الميل لهم، والرضا عن شعائهم وتقاليدهم، وتقبل كل السخافات المقتزنة بها، ووصفها بكل سمات الحضارة والرقى والتقدم.

الإسلام في الكتابات الغربية الحديثة

بيرنارد لويس (٣)

- بيرنارد لويس Bernard Lewis هو واحد من أشهر المستشرقين، في العصر الحديث، ولا بأس أن نلم بشيء من حياته، قبل استعراض وتحليل الكتاب الأخير من مؤلفاته التي تخصصت في البحث في القضايا المتعلقة بتاريخ الأمة الإسلامية والعربية.

- تحصل «لويس» الذي ولد في لندن سنة ١٩١٦م. على شهادة «الليسانس»، و «الدكتوراه» من جامعة لندن، سنة ١٩٣٦م، كما تحصل على «دبلوم» الدراسات السامية من جامعة باريس سنة ١٩٣٧م، وعمل أستاذاً بمعهد الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن، ثم أستاذاً بالدراسات الخاصة بالشرق الأدنى في جامعة برنستون^(١).

- تخصص «لويس» في تاريخ الدولة العثمانية، ولذا أصدر كتابه المعروف باسم (ظهور تركيا الجديدة) كما شملت اهتماماته التاريخ العربي، فأصدر كتابه (العرب في التاريخ)^(٢) The Arabs In History

(١) المستشرقون، ط ٤، ج ٢، ص ١٤٣ - ١٤٤.

(٢) سوف نقوم بعرض لهذا الكتاب في حلقة أخرى من هذه الدراسة - إن شاء الله.

ونجده في كتابه هذا يردد فرية استفادة الرسول - ﷺ - من المصادر الدينية التي كانت موجودة في عهده، وخصوصاً «اليهودية» وهذا ما يكشف لنا عن تعصب «لويس» ليهوديته، رغم ادعاء هؤلاء المستشرقين بتجردهم من عواطفهم والتزامهم بالمنهج العلمي.

- آخر مؤلف صدر للويس هو كتابه المعروف باسم Semites and Anti semites في لندن، بالمملكة المتحدة، عام ١٩٨٦م عن دار Weiden Feld Nicolson.

يذهب «لويس» في كتابه الأخير هذا إلى أن الأقليات اليهودية التي كانت تشكل جزءاً من البلاد العربية والإسلامية عوملت ببعض المعايير غير المعتبرة من الناحية السياسية، كما أنها قوبلت في الحياة الاجتماعية بسلوك يمكن وصفه بالانغلاقية والازدراء، ولكن «لويس» يعد هذه المعاملة التي رافقت الوجود اليهودي في المجتمعات الإسلامية والعربية، تختلف عن ذلك النوع من العداء Anti-Semitic الذي أفرزته المجتمعات الغربية تجاه اليهود، ويحدده «لويس» بالعداء الشخصي Personal Hostility والذي تسبب في متاعب طبيعية «جسمانية» وصدمات عنيفة للجانب اليهودي الذي كان يشكل جزءاً من المجتمعات الغربية، إلا أن «لويس» يعود فيرى أن موجة عداء السامية بمفهومها الأوروبي، وصلت إلى البلاد العربية في وقت متأخر، في القرن التاسع عشر الميلادي.

ويشير «لويس» إلى أبعاد أخرى في قضية عداء السامية، مبيناً - من وجهة نظره - مظاهرها في المجتمعين العربي والأوروبي، فهو يرى - مثلاً - أن اليهود لم يشكلوا أهمية بالغة في المجتمع الإسلامي، وذلك نابع - في تصوره - من أن المفكرين الإسلاميين - وهم طبقة مؤثرة في

المجتمع - لم يعيروا اليهود شيئاً من الاهتمام. ويضرب مثلاً بالعالم المسلم «ابن خلدون» الذي يتكلم عن اليهودية كدين منزل من عند الله بعبارات تدل على الاحترام والإعجاب، بينما يتحدث عن الشعب اليهودي في الحقبة التي عايش أحداثها بشيء من الازدراء من الناحيتين الاجتماعية والسياسية بينما - في المقابل - نجد المسيحي أو الأوروبي يفكر وعقله ممتلئ بالشخصية اليهودية، التي تشكل خطراً على المجتمع عندما تتاح لها الفرصة التي تمكنها من أسباب التفوق والقوة.

إلا أن هناك ناحية أكثر أهمية من الناحيتين السابقتين اللتين ذكرهما «لويس» بداية في أبعاد التشابه والاختلاف المتصلة بقضية عداء السامية في المجتمعين الأوروبي والعربي، وهذه الناحية - كما يشير لويس - هي أن اتجاه عداء السامية في المجتمع الغربي يمكن وصفه بأنه عميق إلى حد يبلغ معه درجة القلق، ومتصل اتصالاً وثيقاً بالمفاهيم الحضارية، بينما هو في المجتمع الإسلامي سطحي، ولا يحتل إلا موقعاً ثانوياً من المفاهيم الحضارية، ولكن المؤلف يتوقع في خاتمة كتابه^(١) أن موجة عداء السامية بمفهومها الأوروبي يمكن أن تكتسح العالم الإسلامي، من خلال الصراع القائم بين العرب وإسرائيل في أرض فلسطين.

ولا بد لنا من وقفات ناقدة لتحليلات «لويس» المتعلقة بالوجود اليهودي في العالم، وصلة ذلك بما يسمى بموجة عداء السامية.

أولاً من ناحية التصور الإسلامي لليهودية، فهو تصور يختلف عن

Ernest Cellner, Prejudial, encounters. (١)

The Times Leteraysupp Lement.

August, 22, 1986, p. 903

التصور الأسطوري الفوقي اليهودي، فالإله الذي كان يدعو إبراهيم الخليل - عليه السلام - إلى عبادته هو غير إله اليهود الذي تصفه التوراة، لأن دعوة إبراهيم الخليل إلى عبادة الإله الواحد كانت دعوة عامة موجهة إلى جميع السكان الوثنيين في عصره بلا استثناء، الإله الأوحد خالق السموات والأرض وجميع البشر، رب جميع المخلوقات بلا تمييز بين الأقوام^(١) كما يرى المسلمون أنه لا يمكن للتوراة الحقيقية التي جاءت من عند الله ككتاب سماوي يمكن أن تشتمل على التحريف الذي يتصل بسلوك الأنبياء والرسل، فبينما تؤمن التعاليم الإسلامية بعصمة الأنبياء والرسل الذين يجب أن يتخذ الناس من سلوكهم قدوة يقتدون بها نرى التوراة المحرفة تفتري عليهم بأعمال قبيحة تتنافى ومكانتهم الدينية والاجتماعية.

وفي ضوء هذه الحقائق عن التوراة المحرفة يمكن تفسير موقف المفكرين الإسلاميين كابن خلدون، وابن حزم^(٢)، من الديانة اليهودية الحقيقية المنزلة من عند الله، والتوراة التي عملت فيها الأيدي اليهودية بالتحريف والتغيير حتى تتواءم مع تطلعات الشعب اليهودي، وأكذوبته الدينية التي شكلت - فيما بعد - «أساساً للأيدولوجية الصهيونية، بما فيها من وعد يمنح اليهود حقاً إلهياً في أرض فلسطين ومن اعتبار الشعب اليهودي شعباً مختاراً بموجب ذلك الحق الإلهي، لكي يطأ بأقدامه

(١) الدكتور أحمد سوسة: العرب واليهود في التاريخ، الطبعة الثانية، ص ٢٣٩ - ٢٤٠.
(٢) لاحظ «ابن حزم» أن التوراة التي بأيدي اليهود ليس فيها ذكر لنعيم الآخرة أصلاً، ولا لجزاء بعد الموت، وهو أمر يدل على مدى التحريف الذي شهدته التوراة على أيدي اليهود.
انظر: محمد ندا: جنائيات بني إسرائيل على الدين والمجتمع، ط ١، ١٤٠٤هـ، الرياض، ص ٢١٣.

الحقوق الإنسانية لمن عاشوا، وكدحوا طيلة آلاف السنين فوق أرض فلسطين»^(١).

أما من ناحية وضع اليهود في المجتمعات الإسلامية والعربية - فإنهم كانوا يعاملون معاملة أهل الذمة، أو أهل الكتاب، وليس من موقف يدل على التزام خلفاء المسلمين بهذا المبدأ أبرز من القصة التي تروى عن موقف الخليفة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - من اليهودي الذي وجده يتسول في شوارع المدينة، حيث علم أن سبب تسوله هو الحصول على المال، لدفع الجزية، فأمر برفع الجزية عنه وتخصيص مرتب له من بيت مال المسلمين. إن هذه القصة - بكل أبعادها الإنسانية - وغيرها من الحقائق والشواهد لا تجد مكاناً لها في كتابات «لويس» عندما يتحدث عن وضع اليهود في المجتمعات الإسلامية والعربية.

ولئن تعرض يهود البلاد العربية لأذى أو تهديد، قبل قيام الدولة الصهيونية، فإنما كان من تدبير الحركات الصهيونية - نفسها - لتجبرهم على الهجرة إلى أرض فلسطين، كما حدث ليهود العراق في سنة ١٩٥٠م عندما قامت المخابرات الإسرائيلية بإلقاء القنابل عليهم، لتوهمهم أن الخطر يهددهم في العراق^(٢).

وإذا كان اليهود تعرضوا لكثير من عمليات الإرهاب والتنكيل في البلاد الأوروبية فإنهم كانوا - باعتقاداتهم الخاطئة والمزعومة في نظرية «العرق» - سبباً رئيسياً في تلك المواقف الأوروبية المناوئة التي يدفع ثمنها - اليوم - الشعب الفلسطيني من دم أبنائه ونسائه وأطفاله.

(١) روجيه جارودي، ملف إسرائيل: ط ١، ١٤٠٣هـ، دار الشروق، ص ٤٧.

(٢) المصدر السابق، ص ١٤٣.

لقد اتهم «هتلر» اليهود في كتاب «كفاحي» بأنهم يريدون تدمير الجنس الأبيض الذي ييغضونه أشد بغض، وذلك بالهبوط به إلى الدرك الأسفل، عن طريق اختلاط الدم والهجين «فاليهودي يسمم دم غيره بينما يصون دمه»^(١).

إلا أن السلاح الذي تُلَوِّح به الحركة الصهيونية - اليوم - وهو مذابح «الهلوكوست» Holocaust، هو سلاح ابتزازي عمدت من خلال المبالغة فيه إلى نشر الرعب في المجتمعات الأوروبية، فوجد البرلمان الفرنسي - مثلاً - يناقش، في دورته، مشروع قانون يقضي بتجريم أي مواطن فرنسي ينكر حدوث مذابح لليهود في أوروبا أو يشك فيها^(٢). ويقوم بعض المتعاطفين من أعضاء البرلمان الإنجليزي مع الحركة الصهيونية بالبحث عن عدد كبير يتجاوز المائة من مجرمي الحرب النازية الذين اتخذوا بريطانيا مقراً لهم^(٣) في الوقت الذي يقوم فيه وزير الدولة البريطاني للشؤون التعليمية بمحاولات كبيرة لإجبار لجنة المناهج التاريخية على اعتماد موضوع انبثاق وأفول الحركة النازية، وما صاحبها من مذابح النازية، كمادة إجبارية يتلقاها أبناء الشعب الإنجليزي^(٤).

(١) المصدر السابق ص ٨.

(٢) محمد صلاح الدين: القارئ العربي، صحيفة المدينة المنورة، العدد ٨٢٢٩، ٢٣، ربيع الآخر ١٤١٠هـ.

(٣) Eileen, Macdonald.

124, Nazis, in, Britain, Face, Probe, in to, War, Crimes.

Observer, News Paper, 22 October, 1989, P. 6.

Nicholas Wood Minister Puts Holocaust On Syllabus. (٤)

The Times News Paper November 15, 1989.

كما أن «سايمون وزنثال» Simon Wiesenthal^(١) المعروف بصائد النازيين، يطوف العالم الأوروبي في مهمة صهيونية متجددة، غرضها تشويه الحقائق التاريخية عن بعض الشخصيات الأوروبية المتعاطفة مع قضية الشعب الفلسطيني، وخصوصاً شخصية الرئيس النمساوي الدكتور «فالدهايم» الذي على الرغم من تبرئته من قبل لجنة رسمية بريطانية^(٢) إلا أنه لا يزال هدفاً لحملات شنيعة تتهمه بعداء السامية، وارتكاب جرائم تاريخية في حق الشعب اليهودي.

وإن كان «لويس» توقع ردة فعل من الشعوب الإسلامية والعربية تتمثل في موجة عداوة جديدة، ولكنه لم يبحث في الأسباب الداعية لانبعاث ظاهرة كهذه، إلا أن الذي حدث فعلاً بعد انتهاء «لويس» من تأليف كتابه، هو ظهور سلاح جديد أشد وقعاً، وأعظم تأثيراً على الكيان الصهيوني من أي شيء آخر ألا وهو سلاح أبناء الأرض المحتلة من الفلسطينيين، ذلك السلاح البدائي الذي استطاع الصمود في وجه أعظم الأسلحة تقنية، وأكثرها فتكاً، والذي تزوده بها الشعوب الأوروبية غريبها وشرقيها.

وليس ببعيد كنتيجة للتكتيك الأخرق الذي تستخدمه الحركة الصهيونية

(١) قام بإصدار كتابه المعروف باسم: Justic Not, Vengeance «العدالة وليس الثأر» واطلعت على تحليل للكتاب المذكور قام به وزير الخارجية في حكومة الظل البريطانية «جيرالد كوفمان» Gerald Kaufman في صحيفة «الميل» البريطانية تحت عنوان: Arch, Nazi Hunter's, quest for Justic.

The Mail, on Sundag, October, 15, 1989.

Michael Evans, Waldheim, Report, Denies Cover - Up.

The Times News Paper, October, 18, 1989. (٢)

في داخل المجتمعات الأوروبية، وهو التذكير بمذابح النازيين، استدراراً للعطف، وصدأً لأي تعاطف إنساني مع الشعب الفلسطيني، ليس ببعيد انبثاق موجة عدااء جديدة ضد اليهود في الدول الأوروبية التي تتحمل شعوبها - عن طريق ما يدفع من الضرائب، كما يحدث في ألمانيا الغربية - كثيراً من ضروب العنت والمشقة والتقشف في سبيل استمرارية الكيان الصهيوني، وعدم تضعضعه أو ضعفه.

لقد تجاوزت الحركة الصهيونية كل حدود اللياقة المعروفة، وتنكرت في الوقت نفسه لكل أولئك الذين يمدون لها يد المساعدة والإنقاذ. ولقد آن الأوان لهذه الشعوب المغرر بها، عن طريق حكوماتها، أن تتخذ موقفاً طبيعياً تبصر من خلاله بمواضع الحق والباطل في هذه القضية التي يمارس الصهاينة - من خلال ما يتاح لهم من وسائل وسبل - كل أنواع الظلم والإرهاب في حق شعب آخر هو الشعب الفلسطيني الأعزل.

* * *

توجيه الإعلام بين المجتمعين الغربي والإسلامي

- لا بد لنا في بداية هذه الكلمة أن نشير إلى قضية هامة تستحق كثيراً من البحث والمناقشة وهي قضية توجيه الإعلام، وما دام أن الآخر أصبح يشكل بعداً هاماً في رؤيتنا الحضارية، فإنه يحسن بنا أن ننظر إلى تعامله مع هذه القضية في ضوء ما يتوافر لنا من معلومات.

- إن القضايا المتعلقة بمصير الأمة أو معتقدها أو أهدافها الاستراتيجية تحظى في المجتمع الغربي بحصانة قوية، بل تلتقي عند احترامها وعدم تخطي أسسها أو انتهاك منطلقاتها كل التيارات التي تمثل فئات هذا المجتمع وتدافع عن مكتسباته ومصالحه.

ومن شواهد هذا التوجيه الإعلامي الذي يجب أن يخضع لمباركة الحكومة ورضائها الحرص على عدم نشر الكتب التي يمكن أن تؤدي إلى إفشاء الأسرار الخاصة بالأمن الوطني. ولقد أثارت قضية كتاب (صائد الجواسيس) لبيتر رايت، وهو ضابط سابق في جهاز المخابرات البريطاني كثيراً من الأسئلة حول المدى الذي يمكن أن تذهب إليه الحكومة في مراقبة الإعلام ومحاسبته، فحكومة المحافظين لم تتوان في متابعة عدم نشر الكتاب إلى الحد الذي طلبت فيه من المحاكم الكندية إصدار أمر

قضائي بتوقيف نشره في كندا، بل في الوقت الذي كان القارئ الأوروبي يعرف أسرار المحاولات التي كانت تقوم بها المخابرات الإسرائيلية والبريطانية في سبيل إسقاط حكومة هارولد ويلسون العمالية في منتصف السبعينات الميلادية بعد أن أدى «ويلسون» دوره المنوط به في دعم الحركة الصهيونية لمدة طويلة من خلال الحركة العمالية ومؤسساتها - في الوقت نفسه كانت الحكومة البريطانية تجرم أي صحيفة تقوم بنشر مقتبسات من كتاب «رايت». وكان قطاع من الرأي العام يشجع الحكومة على هذا المنحى المتشدد الذي التزمت به تجاه الكتاب ومؤلفه، ولقد فكرت الحكومة في فترة من الفترات أن تصدر قراراً بمنع دخول الكتاب إلى الأراضي البريطانية وقد أشار إلى هذا الوزير اليهودي المختص بالحكومة «ديفيد ينغ».

وعندما قامت المجلة الفرنسية «باري ماتش» بنشر مقتطفات من كتاب يذيع بعض أسرار العلاقات الخاصة في الأسرة البريطانية المالكة، أصدرت الحكومة البريطانية أمراً قضائياً بمنع المجلة الفرنسية من دخول بريطانيا، مما اضطر موزعو المجلة في بريطانيا لقص الصفحات من ثمانية آلاف نسخة ووضع على كل منها عبارة «لأسباب قانونية تم نزع بعض الصفحات». وكثيرة هي الكتب التي لا يجرؤ المواطن البريطاني أو الفرنسي على جلبها معه إلى داخل البلاد لأسباب عديدة ومن بينها الكتاب المعروف «بروتوكولات حكماء صهيون».

- أما الصحف فمع أن المسؤولين فيها يتسامحون في عملية طرح كثير من الأفكار المتعلقة بالقضايا الداخلية أو الخارجية إلا أنه يظل وجود الحدود الدقيقة والفاصلة بين ما هو مقبول ومرفوض أمراً ماثلاً في

الأذهان عند كل من جهاز التحرير والكتاب أنفسهم، وعندما أطلق الناشر اليهودي «روبرت ماكسويل» إنذاره للقائمين على مؤسسته الصحفية الضخمة Mirror بعدم نشر المعلومات الخاصة بأمن إسرائيل والتي قد تستفيد منها الدول العربية وتستخدمها في مواجهتها ضد الدولة الصهيونية، لم تملك الصحف التابعة لمؤسسته إلا الاستجابة لهذا التوجه الديكتاتوري المتعارض مع كل القيم الحضارية التي ينادي بها المجتمع الغربي في كل المناسبات، ويدعو الآخرين للتمسك بها وعدم التفريط في شأنها.

- وإذا كانت مجموعة «ميرور» البريطانية قد التزمت بتعاليم ناشرها «ماكسويل» التي جاهر بها بعد أن حضر مؤتمراً لرجال الأعمال اليهود الذي دعا إليه الإرهابي إسحاق شامير، فإن القسم الثاني من شارع الصحافة البريطاني الذي تمثله مجموعة «التايمز والصن» التابعة للناشر اليهودي الآخر «روبرت مردوخ» لا تحتاج إلى مثل هذا الإنذار، فهي لا تجرؤ على الذهاب بعيداً عن مناقشة قضية الشرق الأوسط حتى لا تنزلق من حيث لا تشعر في إيضاح الصورة الحقيقية عن بواعث الصراع وجذوره في هذه المنطقة، وهي بواعث تتصل بتعنت إسرائيل واستبدادها وممارساتها الإرهابية منذ أربعين عاماً، بل إنني وجدت من خلال بعض المقالات الافتتاحية لصحيفة «التايمز» محاولات الصحفية المستمرة لتصوير الصراع هناك بين الفلسطينيين والإسرائيليين بأنه مجرد بروز فئات مناهضة لشرعية الحكومة الأساسية كما هي الحال مع الجيش الانفصالي الإيرلندي الذي يحاول نبذ الشرعية الإنجليزية بالسبل والوسائل كافة، وهو اتجاه يؤكد تأثر المؤسسات الصحفية ليس فقط بوجهة نظر الحكومة تجاه بعض القضايا بل يشتمط إلى أبعد من ذلك في فرض أفكار هؤلاء الناشرين الذين يعيشون في المجتمعات الغربية بشخصيات متناقضة وولاء مزدوج.

- إن المؤسسات الإعلامية في الغرب تتلقى كثيراً من التعليمات

الخاصة بالتمكين لقضية أو فكرة معينة أو مناوئتها ثم لا تلبث هذه المؤسسات أن تتبنى الأسلوب الذي تراه مناسباً لطرح هذه الفكرة، وهي أساليب تعتمد كثيراً على العرض المشوّق والإخراج الجذاب مما يضمن إمكانية اقتناع شرائح عديدة من هذا المجتمع بجدوى تلك الفكرة أو نقيض ذلك من حيث عدم شرعيتها أو صلاحيتها أو حتى أحقية مناقشة جوانبها، بينما يزعم القانون الغربي العام المحافظة على مبدأ تمكين الرأي الآخر من شرح قضيته واعتبار ذلك أمراً مقدساً، لكن هناك فرقاً كبيراً بين القول والتطبيق خصوصاً عندما تتدخل عوامل أخرى تحدد الموقف الذي يجب أن تلتزم به هذه المؤسسات، والترويج له وترسيخ مفاهيمه، ولهذا فإن مناقشتنا للفرد الغربي حول قضايا معينة يجب ألا ينظر إليه من رؤية تربط بين مواقف هذا الفرد والعوامل الذاتية والممارسات الشخصية له، بل يجب أن يتعدى ذلك لننظر إليه على أنه الموقف الذي انصهر في أتون المؤسسات التي يخضع لتأثيرها ثم قدم له في شكل جيد وجذاب ولهذا فهو يصر على التمسك به وعدم قبول ما يمكن أن يؤدي إلى زعزعته في نفسه أو تبديل إيمانه العميق به.

- ولهذا، ألا يحق لنا بعد هذه الإطالة البسيطة على تركيبة المؤسسات الإعلامية الغربية ودورها في توجيه قضايا مجتمعاتها، ألا يحق لنا أن نجعل من مبادئنا وتعاليمنا وخصوصاً تلك التي لا تقبل المناقشة ولا تخضع للمزايدة، ونعني بها التعاليم المتمثلة في كتاب الله وسنة رسوله - ﷺ - أن نجعل منها أساساً ينطلق منها إعلامنا العربي والإسلامي في طرح أفكاره وتحديد مطالبه؟ أن نجعل من تلك التعاليم الروح التي تتخلل جميع اتجاهاتنا الفكرية والثقافية؟ وأنا إذا حافظنا على

هذه الأسس وبرهنا على التزامنا بمضامينها واحترامنا لرموزها سوف نكون قد صددنا بطريقة تلقائية كل المحاولات الرامية للتشكيك في هذه المنطلقات أو السخرية منها أو التقليل من شأنها وهو ما دأبنا على الشكوى منه لزمّن طويل وما علمنا أن العلاج بأيدينا وأن الوقاية في هذا الجانب لن تكون إلا من صنعنا ووليدة إرادتنا وعزيمتنا فالآخرون لن يقيدوك إذا أردت التحرك والأعداء سوف يضطرون إلى احترامك إذا أثبت لهم احترامك لمبادئك والتزامك بها نهجاً وأسلوباً.

* * *

الحضارة الغربية في مذكرات ضحايا الإيدز

- تطارد الشرطة الإيطالية «انجيلو ألان» أستاذ التاريخ - سابقاً - في جامعة «تورنتو» الذي أدى إدمانه المخدرات إلى إصابته بمرض الإيدز، وعندما أعلمه الأطباء بأنه لن يعيش بسبب هذا الداء القاتل أكثر من أربعة أو ستة شهور حاول نقل تلك الحقيقة إلى صديقه الفرنسية «ماريان» ولكن بأسلوب درامي أثر على زوجته وأدى إلى إقدامها على حقن نفسها بجرعة من دمه الملوث الذي بدأت آثاره القاتلة تظهر على جسدها وكان ذلك بعد الشهر الثالث من أخذها لتلك الحقنة التي سوف تتسبب في القضاء عليها بعد مدة حددها الأطباء بثمانية عشر شهراً.

لقد أفاقت المرأة الفرنسية على الحقيقة المرة بعد فوات الأوان مما أصابها بنوبات هستيرية تردد فيها عبارات قاسية على الرجل الذي لعب بعواطفها وحملها على التفكير في وسيلة للرحيل معه من هذه الحياة فكانت تلك الفكرة الشيطانية القاتلة.

والأهم من هذا كله في هذه القصة التي نقلتها صحيفة العلم المغربية «٢٩ أغسطس ١٩٩١م» عن «أورينت برس» هي المذكرات التي بدأت الضحية «ماريان» في كتابتها لإحدى دور النشر الباريسية مقابل خمسة ملايين فرنك فرنسي «ما يقارب المليون دولار» والذي تبرعت به لمؤسسة

خاصة تتولى تنظيم حملة إعلامية لمكافحة الإيدز والجسور المؤدية إليه من المخدرات إلى العلاقات الشاذة وغيرها من الانحرافات، ففي هذه المذكرات أو القصة المأساوية التي اختارت لها الكاتبة عنواناً مثيراً هو «لحظة الخطأ الأعظم» لا تتحدث فقط عن مراحل العلاقة الآثمة بينها وبين مدمن المخدرات «انجيلو» وما أدت إليه تلك العلاقة التي نشأت خارج إطار القانون الإلهي والطبيعي في هذه الحياة، ولكنها تتحدث عن جذور انتشار مرض الإيدز في العالم الغربي وتحده دون موارد في انحراف الحضارة الغربية عن الطريق السوي وتركيزها على النواحي المادية فقط والتي تسببت في انتشار مفاهيم الجبروت والعظمة في المجتمع الأوروبي وتغلغلها بالتالي في نفسية الفرد الغربي الذي بدا ميلاً إلى الاعتقاد بأنه سيد الكون والمتصرف الوحيد فيه، فكان لا بد من عقاب إلهي يذكره بحقيقة وجوده ويحسسه بمدى ضعفه وعدم تمكنه من دفع الشرور عن نفسه حتى وإن حاز كل أسباب التكنولوجيا وتوافرت بين يديه كل منجزات هذه الحضارة المادية. تقول مخطوطة «ماريان» التي تم نشر مقتطفات منها: «الآن وأكثر من أي وقت مضى أصبحت أؤمن بمبدأ التوازن، والذي هو السيد المطلق للطبيعة ولكل الوجود البشري، لقد أعمت التكنولوجيا أبصارنا، نحن - ناس الغرب - وترنحنا بنشوة العظمة والجبروت والتفوق على باقي ناس الكرة الأرضية، لقد أخلينا بمبدأ التوازن فجاء عقاب الإيدز سيفاً كونياً ليضربنا دون غيرنا وليظهر حقارة غرورنا وأكذوبة حضارتنا وتفوقنا نحن ناس الغرب كائنات تافهة نذرنا الآخرين فيما الأحرى بنا أن نذرنا أنفسنا أولاً قبل أن يذرنا الآخرون».

حاول الطبيب الذي يشرف على علاجها الدكتور «شيفرون» أن يخفف عن نفسها وقع هذه المأساة التي كانت من صنع يدها وبمحض إرادتها، فذكر لها أن أبحاثاً جارية على علاج الإيدز في الولايات المتحدة قد تكفل بالنجاح في غضون ستة شهور من الآن، كان ردها حول هذا الموضوع هذه العبارات التي يجدر بكل إنسان أن يقف عندها لأنها صادرة عن تجربة حية وواقع معاش، وهي تمثل - في الوقت نفسه - شهادة الإنسان الغربي على حضارته ونقده المتجرد لها، وهي شهادة يستحيل دفعها بالمبررات العنصرية أو المكوّنات الحضارية الخاصة التي تحكم رؤية الآخرين لهذه الحضارة أو تسعى للتقليل من شأنها، تقول كلمات الرد الذي دونته «ماريان» إزاء الوعود الطبيعية لعلاج الإيدز: «أؤمن الآن بما أصبحت أسميه رسالة «الإيدز» رسالة كونية مسلطة علينا لإنقاذنا من وحول المفاسد والموبقات التي نتخبط فيها منذ منتصف القرن الماضي، والتي بلغنا ذروتها على عتبة نهاية هذا القرن العشرين البشع».

الباب السادس

الحفاظ على الهوية

حول قضية الهوية الحضارية

- استطاعت طائفة «السيخ» التي تشكل حوالي ٢٥٠,٠٠٠ فرد من أفراد المجتمع الكندي أن تنتزع قراراً من المؤسسة الملكية الكندية للبوليس يسمح لأفراد هذه الطائفة الذين يعملون في الجهاز البوليسي بارتداء العمام التقليدية والاحتفاظ بلحاهم المتميزة حيث يشكل ذلك جزءاً من تعاليمهم الدينية التي لا يمكنهم التفریط فيها أو ممالة الآخرين فيما يتصل بالقضايا المتصلة بها.

(The Daily Mail, May 15, 1991).

ولعلّه لم يكن من السهل صدور قرار مثل هذا يمكن الفرد من هذه الطائفة بالتميز دون الآخرين الذين يلزمهم نظام هذا الجهاز بارتداء القبعات الخاصة والتي تمثل هي الأخرى تقليداً كندياً خالصاً، ولكن إصرار الطائفة السيخية جعلها تقاوم لأكثر من عامين كاملين في سبيل الحفاظ على جزء هام من هويتها الشخصية وتقاليدها الدينية الموروثة. وهذه ليست المرة الأولى التي تقف الطوائف السيخية من تقاليدها هذا الموقف الذي يدل على تخوفها من الذوبان في المجتمعات الغربية التي تعيش فيها ولكن سبقتها إلى ذلك الطائفة السيخية في بريطانيا، وهي في هذا الإصرار العجيب على الحصول على حقوقها التي يكفلها لها النظام الغربي تتمثل مع الطوائف اليهودية التي لا ترضخ أبداً لأي ضغوط ترى فيها مساساً

بشخصيتها القومية أو تعاليمها الدينية، ولا يقتصر ذلك على المسائل التعبدية أو الدروس الدينية أو شعائر الذبح والختان والزواج، ولكنه يشمل أيضاً المسائل الشكلية مثل ارتداء القبعات اليهودية المتميزة، وإسبال الشعر بطريقة خاصة تمكّن الفئات الأخرى في المجتمع الغربي من تمييز اليهودي من غيره. ومع أن جزءاً كبيراً من الجاليات الإسلامية وخصوصاً - غير العربية - التي تعيش في المجتمعات الغربية تحاول التمسك بهويتها الإسلامية والمحافظة على أداء شعائرها الدينية والاحتراز من كل ما يمكن أن يؤدي بأجيالها الناشئة إلى التأثير بمعطيات الحضارة السلبية والتركيز على الاستفادة من المعطيات الإيجابية، إلا أنه تبقى ملاحظة هامة في هذا السياق وهي أن بعضاً من أبناء المجتمعات العربية والإسلامية ينسون كل ما يتصل بدينهم وعاداتهم وتقاليدهم إذا ما ذهبوا إلى تلك المجتمعات للدراسة أو النزهة، ويظنون أنه بمجاراة الغربيين في كل شيء يمكنهم أن يحوزوا على إعجاب ورضى تلك المجتمعات بينما هم في حقيقة الأمر يعرضون شخصياتهم للازدراء والاستخفاف حتى وإن لم يعبر لهم الغربيون بصراحة عن مثل هذا الشعور، كما أن هذا البعض إذا عاد إلى بلاده يحاول أن يدافع متحمساً عن كل ما يتصل بالحضارة الغربية سواء كان ذلك في الجانب الفكري والمتمثل في الحماسة لبعض المناهج والمذاهب الثقافية أو التربوية التي لا تتواءم مع منطلقاتنا الدينية ومكوناتنا الحضارية، أو في الجانب السلوكي الذي يسعى لتقليد الغربي في كل شيء حتى فيما يتصل بارتداء الملابس وطريقة التحدث وأساليب التعامل في المنزل وخارجه، وهو أمر بقدر ما يثير الشفقة والحزن، يضع أسئلة كبيرة حول مدى تمثل هذه النخبة لتاريخها وارتباطها بمجتمعاتها وولائها لأمتها.

بين الولاء للهوية الثقافية والتصل منها

توفي - في شهر يوليو من عام ١٩٩١م - الروائي اليهودي الأصل، والأمريكي الثقافة «إسحاق بيتفيس سنجر»، ولقد سبق لهذا الكاتب الذي يُدعى «بحكواتي أرض اليديش» أن حصل على جائزة «نوبل» للآداب سنة ١٩٧٨م وهو في سن الرابعة والسبعين.

ولسنا - هنا - في مجال الحديث عن حياة هذا الكاتب، ولكن نود التركيز على الجوانب الفكرية والثقافية، التي ظل «سنجر» وفيّاً لها طوال حياته، فهو من ناحية شكّل - مع مجموعة من الكتّاب اليهود - دعائم ثقافة «الفيتو اليهودي» الذي كان يتنفس حياته، عن طريق «اليدشية»، وهي اللغة اليهودية القديمة، والمتكوّنة - في الأصل - من عناصر ألمانية وعبرية وسلافية.

- عن طريق هذه اللغة عمل «إسحاق سنجر» وأخوه «يهوشوا» ورفاقهما من الكتّاب اليهود، على المحافظة على الثقافة اليهودية، وتقديمها للمجتمعات اليهودية، قبل أن تنقض على الأرض المسلمة والعربية «فلسطين» وتقيم عليها ذلك الكيان العنصري.

ولقد علّل «سنجر» اختياره مع أخيه الكتابة باللغة اليدشية بأنها «اللغة التي نتكلمها في مطبخ أمي» فهي - من وجهة نظر الكاتب - اللغة

المحملة بالذكريات والتقاليد والأساطير، كما ذكرت ذلك صحيفة «لوموند» الفرنسية، وقام ملحق صحيفة «العلم» الثقافي (٢٤ أغسطس ١٩٩١م) بترجمته عنها.

ويضاف إلى هذا الولاء الثقافي للغة اليديشية، التي كتب بها، من قبل عدداً من رواياته الكاتب اليهودي المعروف «فرانز كافكا» - Franz Kafka فإن عالم «سنجر» الروائي يركز - بالدرجة الأولى - على المفاهيم اليهودية الدينية، والواقع الصهيوني المعاش، سواء اتصل الأمر بالمرأة الروسية التي اعتنقت اليهودية «العبد»، أو الفتاة اليهودية، التي تكثفت (نسبة إلى الكاثوليكية) عن حب «تاج الريش» أو بالسارق التائب «ساحر لوبلين» وهو في هذا التخيل الفانتازي - لا يخرج عن النمط الكتابي عند جميع الروائيين اليهود، الذين عاشوا في المجتمعات الغربية، قبل نشوء الكيان الصهيوني، مثل: بينجامين ديزرائيلي (Benjamin-Disraeli) (١٨٠٤ - ١٨٨١م) أو فرانز كافكا Franz-Kafka. وبشروا - في كتاباتهم الروائية - بميلاد هذا الكيان، أو أولئك الذين عاشوا بعد نشوء هذا الكيان، وظلوا متعصبين لغتهم الأصلية اليديشية، ولثقافتهم اليهودية، ولم تستطع الحضارة الغربية (لغة، وثقافة) أن تذيبهم في بوتقتها، أو تنال من تميزهم الفكري، وخصوصياتهم الثقافية، مما تدل عليه أعمال الشاعر اليهودي السوفيتي «جوزيف بروودسكي» (Joseph Brodsky) الفائز بجائزة «نوبل» للآداب لعام ١٩٨٨م الذي كان من حيثيات منحه هذه الجائزة: عدم فقدانه لسماته الشخصية في الفكر واللغة، والشكل الإبداعي أيضاً.

فعلى الرغم من إجادته للغة الإنجليزية فعملية الإبداع عنده لا تتم إلا في إطار من لغته الأصلية، وفكره اليهودي.

- إن كثيراً من الكتّاب العرب الذين عاشوا في المجتمعات الغربية، قد تخلوا - طواعية - عن لغتهم العربية، بينما ظلوا محسوبين على فكرنا وثقافتنا، وفي الوقت ذاته أناطوا بأنفسهم دوراً مشبوهاً، وهو النقل الآلي للجوانب السلبية في المجتمع العربي، وتعميق أبعاد الصورة المترسخة في الفكر الغربي عن الفرد العربي، وهي صورة - بلا شك - غير مشرقة، وعالم مليء بالتناقضات والسلوك غير الحضاري.

وخير من تطوع لحمل هذه الرسالة السلبية للغرب عدد من الكتّاب، الذين اختاروا اللغة الفرنسية وسيلة تمكّنهم من نقل هذه الإبداعات للفكر الآخر وثقافته، وهي إبداعات كثيراً ما هللت لها الصحافة العربية، وملاحقها الثقافية والأدبية، وكأنها سبق حضاري عظيم، ولا بد أن تقفز - إلى أذهاننا - في هذا السياق أسماء عديدة، مثل: الطاهر بن جلون، والطاهر وطار، ومحمد شكري، ورشيد بوجدره.

- إن الكاتب العربي الذي قد تفسح له الصحافة الغربية مكاناً في عالمه، وترحب بعض دور النشر العالمية بتقديم إنتاجه إلى القارئ الغربي وتخصص مؤسسات معينة جوائز هي - في العرف الغربي - من الدرجة الثانية أو الثالثة أو الأخيرة، لا تفعل ذلك احتفاءً بإبداع عربي يعمل على مد الجسور بين الثقافتين العربية والغربية، ويضع الثقافة العربية وفكرها في المكان اللائق بها، كثقافة ساهمت في صنع المنجزات الحضارية العالمية، وفكر كان له دور فاعل في الربط بين الثقافات المتعددة، كما تعدى ذلك الدور إلى الإضافة المتميزة، والإبداع الذاتي.

ولو كان لهذا الإبداع المحتفى به من قيمة حقيقية لاستطاع أن يغير - ولو إلى درجة معينة - بعضاً من ذلك التصور السلبي، والنظرة البغيضة

تجاه كل ما هو عربي ومسلم!

بينما نجد - في المقابل - أن الكتاب اليهود، الذين لم يتخلوا عن لغتهم، مثل «إسحاق سنجر» الذي أتينا على شيء من سيرته الأدبية، رفعوا - في كتاباتهم - من شأن الفرد اليهودي، وجعلوه في الموضع الذي لا ترتقي إليه الشبهات، والمكانة السامية المرتبطة، بكل ما هو حضاري ومقبول من جهة النظرة الغربية.

ولعلّ هذا هو السر الحقيقي وراء تقديس الفرد الغربي للشخصية اليهودية، وتعاطفها العميق مع قضاياها، وتعظيمها لها في كل مطالبها وأهدافها، التي لا تتوانى المؤسسات الرسمية الغربية في تحقيقها لها، معتبرة تلك المطالب هدفاً من أهداف المجتمع الغربي نفسه، وذلك لتداخل الأهداف الغربية واليهودية في كل واحد لا يتجزأ، ونظرة شاملة تتوحد من خلال منظور حضاري، استطاع تشكيله الكتاب اليهود، بتواصلهم مع ثقافتهم الأصلية، وكرّسوا - في سبيل تحقيقه - كل مواهبهم، وقدراتهم الإبداعية.

* * *

المفهوم الحضاري لقضية الأصالة والمعاصرة

- يكون للكلمة المقدرة الفعالة على كسب أرضية صلبة، وللحوار التأثير الطبيعي والتوجيه الرائد، عندما يقتربان بالتأمل الواعي والمناقشة المقنعة، وميدان هذا التأمل وتلك المناقشة هو ما يسمى في ميدان الفكر «بالتراث والتجديد»، أو لعله أخذ اسماً آخر هو «الأصالة والمعاصرة».

ولعلّ التأمل يقودنا لنرى أن ميدان هذه القضية واسع، حتى ليشمل نواحي عدة، يصعب فصل بعضها عن بعض. وهذه النواحي يتصل بعضها بأمورنا الحياتية التي لا نوليها - في كثير من الأحيان - ما تستحقه من نظر وتمعن، ومنها ما هو فكري نراه، في هذا الحوار اللامنتهي، بين ما يسمى بالقديم والجديد، في ميدان العلوم الإنسانية، بمختلف فنونها.

والفصل في هذه النواحي لا يمكن أن تُوفّرهُ مقالة كهذه، وإن كان لهذه المقالة من هدف فهو مناوشة بدائية للقضية، نتمكن - بعدها - من توسيع دائرة نقاش هادف يوصل الأسس، ويرسم الأهداف، لأن أهمية هذا النقاش تنبثق من أن الأمة الإسلامية والعربية تسعى - في انطلاقتها الحاضرة - لتثبيت معالمها الأساسية التي لا تقبل مساومة أو تخاذلاً، كما تتطلع - في الوقت نفسه - إلى إغناء هذه المعالم بالتجارب العلمية الرائدة التي سبقتها فيها أمم أخرى.

وهذا السبق أمر طبيعي، يدركه كل من قرن جهده بالعزم والإخلاص

على تحصيله، ويتوافر عليه كل من استخدم القدرات العقلية الكامنة في نفسه، في سبر أغوار هذه العوالم الطبيعية الممتدة، والتي أحكمت صنعها القدرة الربانية الخالقة، وقلدت هذا الإنسان - في حدود قدرته - أمانة البحث عنها، والاستفادة منها، في آن واحد.

- وفي الرجوع إلى ماضي حضارتنا الإسلامية نجد دليلاً واضحاً، وأثراً ملموساً، في أن الدعوة العالمية الإسلامية فتحت آفاقاً رحبة أمام أولئك الرواد الأوائل، فكان لقاؤنا بالشعوب الإسلامية الأخرى هو لقاء - في الوقت نفسه - بالحضارات الأخرى.

واستطاعت القاعدة الإسلامية السمحة - المقترنة بوعي وانطلاقة روادها - استخلاص ما هو قوي في ذاته ومتلائم - في الوقت نفسه - مع هذه القاعدة الراسخة، فكانت التجربة التي أضافت عنصر القوة، ونأت عن عنصر الضعف والغرابة، ولم نشعر - ونحن نقرأ إبداعات رائدي الحضارة الإسلامية - في تلك الفترة، إلا أنهم جميعاً يمثلون قاعدة واحدة متكاملة، نسقها ذلك العطاء المتجدد في دين الإسلام المجيد.

والخطأ، كل الخطأ، في أن يتسلل إلينا التفكير القائل بأن انطلاقة الإسلام كانت مرحلة واحدة قطعناها في تاريخ متعدد المراحل، حتى إذا أتينا لدراسة متعمقة، واعية نجد أن الإسلام كان الانطلاقة الحقيقية لإبداعات الأمة العربية، ومشاركتها في البناء الحضاري المتكامل.

ولقاؤنا - في الوقت نفسه - بشعوب أخرى كان الإسلام إنقاذاً لها مما تردت فيه، وصهرراً لقدراتها في البوتقة الإسلامية، فضمن القاعدة الإسلامية كان اللقاء التاريخي، وفي رحابها الشاملة السمحة، تهيأت الظروف لتلك القدرات جميعاً، في أن تتمكن من المشاركة والإبداع.

تلك المشاركة وذلك الإبداع هو ما نرى آثاره في حضارتنا الإسلامية، في «الأندلس» التي كانت مركزاً حضارياً، تمكنت الأمة «العربية» من خلال إشعاعاته، من إعادة بنائها الحضاري، وإن الدرس الذي يجب أن نعيه - إن لم نكن وعيناه بعد - أن حضارتنا الإسلامية توقفت عن العطاء، في ذلك المركز الحضاري، بسبب ما تولد من عصبيات، ووجد وهجها المتوقد تحت تأثير الأهواء الذاتية التي نهت عن الانحدار فيها تعاليم الدين القويم.

- إن المشاركة في البناء الحضاري المعاصر - علمياً وفكرياً - لن تكون بنبذ تعاليم الإسلام، أو التقليل من الدور الذي أداه تراثه الفعال في تكوين الأمة التي مكنت لنا الوقوف - بعزة وكرامة - بين أمم الأرض، وسيظل التراث المورد الأصيل الذي نعود إليه كلما تعددت بنا السبل، وتفرقت بنا المناهج التي رفضتها، وسوف ترفضها طبيعة تكويننا التاريخي.

كما أن المشاركة الحضارية تتطلب مع هذه القاعدة الراسخة انفتاحاً، لا يفقد الأصالة، وأخذاً لا يتعارض مع التشريع، وتفهماً لشعوب الأمم الأخرى، فالانغلاق الفكري يؤدي - في الوقت نفسه - بالأمة إلى الانكماش، وفقدان الدور الذي يجب أن تؤديه.

- إن الانغلاق والتعصب لم ولن يكونا معولي بناء في تاريخ الأمة التي فتحت ذراعيها في يوم من الأيام لشعوب الأرض، ويجب أن تظل كذلك، وهذا أسمى ما تتطلع إليه أمة تردد في ثنايا كتابها المجيد قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٣).

لماذا ومتى يهتم الأوروبيون بترائنا؟

- إن الكلمة الواعية - بلا شك - هي التي تعمل على إيضاح العلاقة بين أدب الأمة وفكرها: فالأدب - في كل العصور، وعند جميع الأمم - هو تعبير عن هوية - أمة - ومنطلقاتها الحضارية، وإرثها التاريخي؛ ولهذا كان اهتمام الغربيين كبيراً بالتراث العربي القديم؛ لأنه كان تعبيراً حقيقياً عن هويتها الحضارية.

ولم يقف اهتمام الغربيين بترجمة تراثنا الذي أدركوا قوته العلمية المنبثقة من تَمَيِّزه بسمات لا يشترك معها فيه تراث الأمم الأخرى، بل وجدوا فيه مجالاً للاستفادة، وهو ما تعبر عنه الدراسات المقارنة بعملية التأثير ولهذا فليس من المستغرب أن نجد استهجاناً من مفكري الغرب وأدبائه لذلك النوع من أدبنا الذي وصفه الأستاذ الفاضل محمد صلاح الدين «بأنه غريب بين أهله، مبتور الصلة بمجتمعه، لا يمثل من قريب أو بعيد ضمير الأمة، ولا وجدان حضارته وثقافته».

- بل إن الأمر بلغ بأحدهم وهو الأديب الإيطالي «إيجانز يوسيلوني» أن يقدم النصيحة للأدباء العرب في «مؤتمر الشعر العربي الحديث»، الذي انعقد في أوائل الستينات قائلاً: «أتمنى أن أقرأ شعركم عربياً، خالصاً؛ لأنه إنما يأخذ مكانته بين الآداب العالمية بتفرده وأصالته».

وهذا الرأي يتشابه مع رأي الكاتب الإيطالي المعروف «البرتو مورافيا» الذي حضر «معرض الكتاب» الأخير بالقاهرة، وسئل عما يقرأ من الأدب العربي فأجاب قائلاً: «لقد قرأت الأدب العربي القديم الكلاسيكي، قرأت منه الشعر، وقصص «ألف ليلة وليلة»، وكذلك قرأت القرآن الكريم، وأرى: أن الأدب الإيطالي يدين بالكثير للأدب العربي القديم، فأعمال «بوكاتشيو» هي نتاج مباشر لأدب «ألف ليلة وليلة» والأدب العربي القديم.

- وبين يدي بحث كتبه أحد المختصين في الأدب العربي من الأساتذة الإنجليز وهو البروفسور «أديموند بوزورث» رئيس قسم الدراسات الشرقية بجامعة مانشستر، وعنوان البحث هو «تأثير الأدب العربي في الأدب الإنجليزي».

ويبرهن «بوزورث» في بحثه هذا على أن الأديب الإنجليزي المشهور في القرن الرابع عشر الميلادي (Geofrey Chaucer) «جيفري تشوسر»، قد تأثر - عن طريق البلاد الأوروبية الأكثر احتكاكاً بالثقافة الإسلامية - ببعض القصص العربية: حيث يظهر ذلك جلياً في عمله الأدبي المعروف باسم (Squierres Tale) قصة سيد كما يؤكد «بوزورث» ويشاركه الرأي بعض النقاد الأوروبيين مثل (Corbett) «كوربيت» إن العمل الذي حمل «تشوسر» إلى آفاق الشهرة الأدبية، والمعروف باسم (Conter Bury Tales) «قصص كانتر بيري»، إنما هو نتيجة لقراءاته باللغة اللاتينية للقصص العربي؛ الذي كان تأثيره مباشراً في الأعمال الإيطالية المشهورة في القرون الوسطى؛ مثل مجموعة (Boccaccio) «بوكاتشيو» القصصية، والمعروفة باسم «ديكاميرون» (De-Camerone) الأيام العشرة.

- إن نقطة الضعف التي يجدها الغرب - اليوم - في أدبنا، هي ترديدنا لبعض نظرياته في الأدب، بعد لفظه لها بعشرات السنين، ثم هو ترديد لا استيعاب ولا تمثيل فيه، أما تلك الأعمال الأدبية التي تنتسب إلى العالم الإفريقي، أو دول أمريكا اللاتينية، وحظيت باهتمام الغرب، فاهتمامه بها نابع من كونها تعبيراً صادقاً للأبعاد الحضارية لتلك الأمم.

ولعلّ هذا ما يدفع الأدباء اليهود - في أي قطر يعيشون فيه - إلى الكتابة بلغتهم الفطرية، ثم هم - دوماً - يعبرون بكل وضوح عن افتخارهم بذلك الرصيد الحضاري، والإرث الثقافي للأمة اليهودية، مع أنهم أقرب الأمم للتراث الغربي في فكره وأدبه، ولكنهم أبعد ما يكونون عن قراءته ثم تقيّئه، كما يفعل البعض - اليوم - للأسف الشديد، في عالمنا العربي والإسلامي.

* * *

نحو رؤية أشمل لمناهج الأدب الغربي

لقد تعرضت في موضوعات سابقة إلى ضرورة مناقشة سبل فهم المذاهب الأدبية والفنية في سياقها الحضاري، وإن هذا الفهم سوف يساعدنا على رؤية تلك المذاهب في إطار من الموضوعية والعقلانية التي تحتاجها الأمم - جميعها - عند انطلاقها في ميادين البناء الحضاري والفكري، يدفعها إلى ذلك شعورها بالرغبة في اللحاق بالأمم الأخرى التي سبقتها في تلك الميادين ويعد من الشذوذ والنزق أن تتجاهل أمة كالأمة الإسلامية كل موروثها الحضاري لتتعلق بمذاهب ظهرت في الوجود استجابة لبواعث تخص مجتمعات تختلف في تكوينها الذاتي ورؤيتها المادية والروحية لهذا العالم الذي نعيش فيه، كما أن الانغلاق على النفس والتوجه نحو الدائرة الضيقة التي تتمحور حولها نشاطات الأمة أمر يبعدنا عن معاشة الواقع، والنظر في الحلول العملية التي تمكننا من التعامل مع الآخر الذي يتباين عنا في منطلقاته وتقاليده، وإن هذا التعامل الواعي والانفتاح المنضبط لن يفقد الأمة خصوصياتها، بل هو قادر على إعطائها ما تفتقر إليه في صراعها الحضاري من إيمان وثقة كما أنه يولد فيها القدرة على الصمود والتحدي.

إلا أن الأمر - للأسف الشديد - يختلف عند بعض الذين انتدبوا

أنفسهم لترجمة أو تطبيق تلك النظريات والمذاهب الغربية، فهم ينظرون إليها على أنها كفيلة بحل كل مشاكلنا وقادرة على دفعنا في جميع ميادين العمل الحضاري، وليس في حقول الأدب والفن وحدها، فلقد اطلعت أخيراً على حوار أجرته صحيفة الحياة «الثلاثاء ٢٧ جمادى الأولى ١٤١٢هـ» مع واحد من أشد المتحمسين لهذه الثقيلعات وتلك المذاهب، فكان مما قاله في هذا الحوار وهو الجزء الذي أجاب به عن سؤال وُجّه إليه حول «نظريته التطبيقية في الأدب» - بالطبع هي نظرية غربية المنشأ وإسنادها إليه هنا من باب المجاز - لقد قال هذا المُنظّر: «أعتقد أننا في ثقافتنا العربية الراهنة في حاجة إلى تأسيس فكري فلسفي ونظري يساعدنا في تنظيم نظرتنا إلى أنفسنا وإلى العالم من حولنا، هذا التأسيس لا يخص الأدب وحده، بل يشمل كافة مناحي حياتنا» وبالمناسبة فصاحب القول كان يتحدث عن النظرية «البنوية» وما بعد البنوية، وإنك لتحس وهو يتحدث عن هذا المذهب الغربي وكأنه من بنات أفكاره الخاصة أو هو وليد تصوره الذاتي ونشاطه الذهني المنفرد، ولو أن الأمر اقتصر على تطبيق ما أسماه بنظريته الأدبية على نصوص أدبية لوجدنا لقوله سبيلاً، وانتحلنا له عذراً في تعصبه لهذا المذهب، على الرغم من أن ناقداً غريباً مشهوراً هو «جورج واتسون» George Watson قد أقر بموت البنوية في معقلها وذلك في الفصل الذي عقده خاصة لدراستها في كتابه المعروف «الفكر الأدبي المعاصر» Modern Literary Thought وقد قال «واتسون» في هذا الشأن ما نصه: «ليس النقد الإنجليزي - الأمريكي مستعمرة من مستعمرات باريس، ولذلك لم يتحول الكثيرون من نقاد العالم المتحدث بالإنجليزية إلى (البنوية) في الخمسينيات والستينيات على حين أن أولئك الذين اعتنقوا البنوية لم ينتجوا أكثر من مؤلفات قدموا فيها أفكار

أساتذتهم في باريس. وعلى الرغم من أن البنيوية هي الآن مدرسة ميتة لا تظهر إلا في هيئة أشباح لنظرية، فإن بعض هذه الأشباح لا تزال تتردد على التراث النقدي بشدة تستحق المناقشة، وهي غالباً تقلل من شأن عقلانية الإنسان».

إنني أجدني متفقاً مع «واطسون» في رؤيته الموضوعية تجاه ذلك المذهب الذي يريد البعض ما وسعه الجهد وواتته الفرصة في أدلجة حياتنا ضمن إطاره وحصرها في مفاهيمه الشكلية، وإن كان هذا المفكر الأوروبي يرى أن البنيوية في صورتها الجامدة تقلل من عقلانية الإنسان، فكيف به لو علم أن بعضاً ممن تنقصهم الدراية بتراث الأمم الأخرى، ويفتقرون إلى الحس الحضاري الذي ينفذ إلى أعماق الأشياء ولا يكتفي بظواهرها وأشكالها الخارجية، يطلبون منا علانية أن نترك كل ما يدخل ضمن خصائصنا الذاتية وموروثنا الثقافي لنتريدي زياً بلي عند أهله، ونتعلق بمذاهب تخطأها الزمن، وإن هذه المطالبة في حد ذاتها لا تقلل فقط من العقلانية ولكنها تؤدي إلى أمر أشد هَوَلاً وأعظم خطراً ألا وهو وأد ثقافتنا المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالماضي الذي عاشه أسلافنا أو الحاضر الذي نعيشه أو المستقبل الذي نتطلع إلى استمراريته.

واطسون وموت البنيوية

تعرضنا في كتابات نقدية سابقة لمقولة الناقد الإنجليزي «جورج واطسون» (George Watson) إن البنيوية تقلل من شأن عقلانية الإنسان، وقارنا هذا النقد الموضوعي لهذا المذهب الأدبي الذي اندثر في الغرب، وتلك المحاولات التي يتزعمها بعض المتحمسين - من غير دراية - لهذا المذهب وسواه، وتتركز محاولاتهم في فرض البنيوية على مجتمعاتهم التي يعيشون فيها متطلعين إلى أن تكون البنيوية أسلوباً للحياة ومنهجاً للتفكير، وإذا كان الغربيون - وهم مَنْ نشأت هذه المذاهب بين ظهرانيهم - لا يجعلون لها من الأهمية والقداسة ما يجعله لها بعض أبناء الأمة الإسلامية والعربية، فعندئذٍ تتبين لنا الشجاعة التي يتمتع بها بعض المنظرين الغربيين في الانتقاص من قدر ما يرون فساداً من نظريات ومذاهب «كما حدث» مثلاً في نظرية «دارون»، كما تتبين لنا القدرة على مكاشفة الذات بالأخطاء التي يكون في استمراريتها ضرر بالأمة والمجتمع الذي ينتسبون إليه، وإن مقارنة ما يتمتع به بعض هؤلاء الغربيين من قدرة على تحليل واقعهم الفكري والأدبي تحليلاً موضوعياً بما تلوكه ألسنة بعض المتحمسين من أبناء الأمة العربية للمذاهب الغربية عن جدوى هذه النظريات والتقليعات الأدبية والفنية، وعن قدرتها الأسطورية على إنقاذنا بحسب تصور هؤلاء المتحمسين من تخلفنا الفكري. إن تلك

المقارنة تدل دلالة واضحة على فشل هؤلاء المتحمسين في قراءة الواقعين الغربي والعربي قراءة حضارية واعية وعدم تمكنهم من النفاذ من الشكل الظاهري لهذه النظريات، التي أدت إلى بروزها تراكمات حضارية واجتماعية وفكرية في المجتمع الغربي نفسه، وكانت الباعث الحقيقي لظهور ونشوء هذه النظريات ثم اندثارها، ولا يخرج صنيع هؤلاء عن صنيع بعض منظري الحركات الشيوعية والماركسية في العالم الثالث الذين كانت إجابتهم الوحيدة عند مواجهتهم بالفشل الذريع الذي منيت به نظريات «ماركس» ودعاوى «ستالين» و«لينين»، تنحصر في أن مجتمعاتهم لم تزل في حاجة إلى تلك النظريات رغم سقوطها في بيئتها الأصلية التي انبثقت منها، وذلك لأننا لا نزال نسمع دعاوى هذا البعض بأن فشل البنيوية في مقارنة الواقع الفكري الأوروبي لا يعني فشلها في مقارنة واقعنا، وتصور كهذا يحمل تناقضاً عجيباً يدعو الأوروبيين أنفسهم للدهشة والاستغراب، ويحملهم على النظر إلينا بكثير من الاستخفاف والازدراء.

- إن مقولة نشوء المذاهب الغربية المتعددة إنما كان نتيجة للفراغ الروحي وافتقاد الفرد الغربي للمفاهيم الإيمانية التي تملأ عليه حياته. وتقدم له تفسيراً مُرضياً لكل ما يدور في ذهنه من تساؤلات. . هذه المقولة ليست عربية المنشأ والهوية، وإنما تعود إلى المجتمع الغربي نفسه، فكثير من المفكرين الأوروبيين سجلوا شهاداتهم حول هذا الموضوع وقالوا بهذا التفسير الذي يرفضه أنصاف المثقفين في عالمنا، وكان من بين هؤلاء المفكرين الغربيين «واطسون» الذي قال في كتابه المعروف «الفكر الأدبي المعاصر» (Modern Literary Thought) ومع

ذلك فمزاعم النبوية عظيمة جداً إذا كانت تدعي في أوج ازدهارها - أي في أواخر الخمسينات وما تلاها مباشرة من سنوات - أنها تفسر جميع الحقائق البشرية، أو على الأصح أنها على وشك أن تفسر كل شيء، لقد كان لفرويد، في العشرينيات ولماركس في الثلاثينيات، ما يناظر هذه الجاذبية بسبب تقديمهما حلاً فكرياً شاملاً لجميع المسائل، ثم جاءت بعد ذلك أفكار شمولية أخرى مماثلة: «أفكار يونج» و«تياردي شاردان» و«مارشال مكلوان» و«لانج» و«نورثروب فراي» فمنذ أن حاد العقل الأدبي عن طريقه المعهودة نتيجة لانحياز الإيمان بالدين لأكثر من قرن مضى وحتى الآن، وهو يسعى طول الوقت باحثاً عما يستعويض به من ذلك الإيمان المفقود.

إننا كمسلمين - والله الحمد - لم نفقد إيماننا لنبحث عن بديل له، ولم نتعرض مجتمعاتنا لتلك الهزات التي تعرضت لها المجتمعات الغربية، فالظروف مختلفة جداً، والسياقات الحضارية والفكرية لا تتماثل أبداً.. فكيف يتطلعون بعد ذلك إلى تنظيم نظرتنا إلى أنفسنا والعالم من حولنا وفق تأسيس فكري غربي معين تلاشى من الغرب نفسه كما طالب أحدهم أخيراً في حماس وتشنج عجيبين؟!..

هيلين الخال تفتح النار على مجلة (شعر) ورموزها

أجرت صحيفة الحياة الأحد ١٨ أكتوبر ١٩٩٢م «صفحة الثقافة والفنون» حديثاً مع «هيلين الخال» استغرق حلقتين كاملتين، تناولت في الأولى منهما شخصية زوجها «يوسف الخال» عندما كان موظفاً في الأمم المتحدة في طرابلس الغرب، وعلاقته بالشعر الأمريكي، كما تناولت الحلقة الثانية علاقاته الشخصية ومرحلة تأسيس مجلة شعر، وكان السؤال الأخير الذي وجه إلى المرأة التي قالت عن زوجها السابق إنه أعلن حرباً ضدها حرباً حقيقية لم يترك خلالها سلاحاً إلا واستعمله، لقد كان آخر الأسئلة يتصل بوجهة نظرها في شعر هذه الشخصية، وكان السؤال على الوجه التالي «ما رأيك في شعر يوسف»؟

- «اسمح لي ألا أكتفي برأيي فيه، وإنما أن أعطي رأيي الشخصي في شعره، وشعر (أدونيس) والشعر العربي الحديث بشكل عام، في ذلك الوقت. أعتقد أنه كان شعراً بعيداً عن الحياة الواقعية. لا أعرف كيف هو الشعر الحديث الآن، جماعة (شعر) كتبوا شعراً قرأته مترجماً غالباً، وهو كما تلقيته لا أستطيع أن أتخيله كونياً أو إنسانياً، لم يكن ذلك الشعر في رأيي يلامس قضايا إنسانية تهتم الأمريكي أو الأوروبي فضلاً

عن العربي، ولا أستطيع أن استثني من هؤلاء إلا محمد الماغوط، فهو الوحيد الذي تجد في شعره شيئاً حقيقياً، له صلة بالناس، بالأرض، أما الآخرون، فكان شعرهم خيالياً، وميتافيزيقياً ولا تستطيع لمسه، ولا أجد شعر «أدونيس» أفضل من شعر «محمد الماغوط» كذلك الحال بالنسبة إلى أنسي الحاج، أرجو ألا أكون مخطئة، وكلامي ينطبق على شعر قرأته قبل سنوات، أحسست أن ذلك الشعر كان أصحابه يقدمون فيه أسئلة كبيرة، ويصوغون خيالات ومشاعر لا أعتقد أنها كانت حية وحارة، كان شيئاً ثقافياً، ربما لأنهم كانوا غارقين في اللغة وكتاباتهم حملت هم البحث اللغوي أكثر مما حملت من تجارب حية».

- هذا رأي زوجة «يوسف الخال» في شعره وشعر رفقاءه الذين أكدت أثناء إجابتها أنهم حاولوا فيما بعد التقليل من قيمة أستاذهم، وعملوا على التحرر من مرجعيته بل وتنكروا لمواقفه التي تصفها بأنها كانت إيجابية تجاه هذه الزمرة الحداثية، ورأيها هذا له أهميته لسببين رئيسيين الأول هو أن «هيلين» عاشت مع «الخال» المرحلة الأخصب من حياته، في نيويورك، وطرابلس الغرب وبيروت وعاصرت مرحلة تأسيس مجلة «شعر» في الخمسينات الميلادية كما تشير المقدمة التي كتبها «نوري الجراح» [الحياة ١٧ أكتوبر ١٩٩٢م]. أما السبب الثاني فهو أن هذه الشخصية التي جاهرت بهذا الرأي الصريح في شعر يوسف الخال ومن حوله من شعراء الحداثة لم تكن بعيدة عن دنيا الفن والشعر ففي الوقت الذي كانت لها اهتماماتها بالفن التشكيلي حيث عملت ناقدة فنية في صحيفة «الديلي ستار» وأعطت دروساً في الجامعة الأمريكية، وافتتحت مركزاً يعرض لوحات الفنانين التشكيليين في بيروت سنة ١٩٦٣م وأطلقت

عليه اسم «جاليري وآن» كذلك كان لهذه الفنانة التشكيلية اهتماماتها الأدبية فهي تتحدث عن الفرق بين اهتماماتها الشعرية واهتمامات زوجها يوسف الخال. قائلة: «كنت أميل إلى الشعر اليومي، وشعر الصوت الشخصي، مثلاً كنت أحب شعر ديLAN كومس، وهو في الشعر كتشايفسكي في الموسيقى، وفي نيويورك تعرفت إليه، ولم كن أحب شعر «إزرا باوند» ولا لعبة التناص التي نراها في شعره، ولا أحس أن شعره يعنيني».

- وهذا النقد الموضوعي الذي وجهته «هيلين» إلى شعر «يوسف الخال وأدونيس» واصفة إياه بأنه تنتفي عنه صفة الكونية الإنسانية، وأنه أبعد ما يكون عن ملازمة الواقع الذي يعيشه الإنسان ولهذا نجده يفتقد إلى تلك الروح التي تجعل منه شعراً ينبض بالحياة والحيوية، هذا النقد هو الذي يفسر لنا كيف أن هذا الإنتاج الشعري الذي كان «الخال» ينشره في مجلة «شعر» له وللآخرين من الشعراء الذين يحاولون تقليد نماذجه الشعرية لم يكن ليحظى بالحد الأدنى من التواصل مع القارئ العربي، كما يفسر لنا - أي نقد هيلين - عملية الرفض التي قوبل بها الإنتاج نفسه من قبل القارئ الغربي الذي يرى فيه تقليداً لأشكال يعرفها هذا القارئ على صورتها الأصلية في أدبه الغربي وباستطاعته التواصل معها، وبالتالي فهو يرفض هذه النماذج لأنه يعتبرها مسخاً مشوهاً، ولا يمكن لهذا النوع من الأدب المشوه أو الممسوخ أن يتفاعل مع القضايا الحية والنابعة من بيئة الشاعر نفسه والتي يسعى الآخر - أي القارئ الغربي - لمعرفة أو اكتشافها، وعملية المعرفة أو الكشف هذه تتصل بالبحث عن البديل لما هو موجود في بيئته الفكرية والثقافية، وهذا البديل من المتوقع أن يكون

صورة مختلفة كل الاختلاف عما ألفه أو تعود عليه، وخصوصاً أن الفرد الأوروبي أصبح ضجراً من الحياة المادية التي يعيشها، وناشراً من انعكاساتها الآلية في فضاءات الشعر والفن، وإن ما يبحث عنه القارئ الغربي هو ذلك النوع من الأدب الذي ينقله إلى عوالم الروح وما تمثله من طهر وصفاء وشفافية.

- إن آراء «هيلين الخال» حول مؤسس مجلة «شعر» التي توقفت في بداية الستينات الميلادية بسبب عدم قدرتها على التواصل مع القارئ العربي، كما أن آراءها الأخرى في رموز شعراء الحداثة جديدة بالنقاش والحوار الموضوعيين من كل الدوائر سواء تلك المتحمسة حماساً متطرفاً لهذا النوع من الشعر، أو الأخرى التي ترفضه رفضاً قاطعاً لأسباب وبواعث تتصل برؤيتها لعملية الإبداع الشعري، وما يمكن أن تسهم به في حياة الأمة الفكرية والثقافية إسهاماً حقيقياً يجعل منها ذات هوية مستقلة وطابع متفرد وهما الطريق الصحيح إلى أدب كوني ينظر إليه الآخرون نظرة احترام وتقدير وينزلونه تلك المنزلة التي يستحقها وهو ما استطاع الأدب العربي القديم أن يبرهن عليه من خلال تلك الشهادات المتوالية من كبار أدباء الغرب ومفكره لأنه الأدب الذي استطاع أن يؤثر تأثيراً فعالاً في مسار الأدب العالمي، ويثري فنونه المتعددة، ويضيء الجوانب المعتمدة منه.

محمد أركون والتيار العلماني

(١)

- حفل المجلد الثالث من مجلة «الأزمة» العدد ١٤، فبراير ١٩٨٩م بعدد من الدراسات التاريخية والاجتماعية والأدبية وكان بينها تغطية كاملة عن الندوة التي أقامتها جمعية الصداقة الفرنسية - العربية، لمناقشة بعض مسائل الحضور العربي في فرنسا. وكان من جملة المشاركين في هذه الندوة محمد أركون أستاذ تاريخ الفكر الإسلامي الرابع في جامعة باريس الثالثة وقد شارك فيها ببحث عن «المستقبل للخط التنويري».

- تناول «أركون» في بحثه هذا عدداً من الموضوعات ذات الصلة بالوجود العربي في فرنسا وإمكانية تفاعله مع الأجواء الثقافية في المجتمع الفرنسي، وقد دعا أركون العرب من هذا المنطلق وفي نزعة علمانية محضة إلى ذلك التفاعل أو ما أسماه بالتبادل الثقافي قائلاً: من هنا نستطيع أن نخطط للتبادل الثقافي في كلا الاتجاهين، وليس في اتجاه واحد فقط. فالعرب يمكنهم أن يفيدوا كثيراً من فرنسا، ومن التيارات الفكرية التحررية والجدادة في الثقافة الفرنسية، وهنا أشير على وجه الخصوص إلى مسألة العلمنة في فرنسا منذ ثورة ١٧٨٩م، ويمكن أن ينتهز العرب الفرصة لحل أكبر مشكلة مطروحة على المجتمعات العربية

والإسلامية، وهم يحلون لها عن طريق توليد فكري تحليلي وتنويري داخل الإسلام والثقافة العربية، وهذا الفكر غير موجود للأسف الشديد حتى اليوم.

- يعترف «أركون» إذًا أن الثقافة الإسلامية والفكر العربي يرفضان الفكر التحرري والتيار العلماني، وهو يتأسف على عدم الاستفادة من هذه التيارات الفكرية التي يصفها بأنها جادة ولهذا يتطلع إلى رؤيتها داخل كيانه الإسلامي الذي يختلف كل الاختلاف عن الكيان الفرنسي.

- وليس من الضروري - بمكان - أن يربط «أركون» بين وجود العرب في المجتمعات الغربية وبين انتحالهم لهوية ثقافية غير هويتهم. إن أركون بهذا لا يدعوهم إلى خير سوف يفيدون منه كما يتصور بل يدعوهم إلى الدمار الذي سوف يحطم وجودهم فضلاً عن استمداده لأسباب الحياة والقوة.

- إن مسلمي الأمس الذين انفتحوا على الثقافات الأخرى لم يكونوا بهذه التبعية الفكرية التي يتصورها أركون والذي ينطلق من معايير فكرية تختلف عن المعايير الإسلامية في منطلقاتها ووسائلها. وأهدافها. لقد كان لمسلمي الأمس وجودهم الخاص الذي أثر بشكل واضح على الأمم الأخرى ولم يرتض ذاته موضعاً للتلقي السلبي والانبهار الحضاري المميت وما على مسلمي اليوم - إن أرادوا تقدير الأمم الأخرى واحترامها - إلا التشبث بكل الأسس التي وجدت في دينهم الحنيف، والاعتزاز بالتراث الفكري الذي خلفه السلف الصالح من أمة الإسلام.

- ولعلّه من المفيد في هذا الشأن أن نذكر أن المجتمعات اليهودية التي تعيش منذ قرون متعددة في البلاد الغربية، تتعامل مع الحضارة

الأوروبية من منطلق الاعتزاز بالتراث الديني والفكري الخاص بها، ولا ترتضي التفريط في أقل الأشياء «كاللباس والأكل مثلاً» وهو ما جعل النظرة الأوروبية إلى التراث اليهودي تتسم دوماً بالإكبار والإعجاب.

- فهل لأركون وأمثاله من منظري الفكر العلماني تناول القضايا الفكرية بين الحضارتين الأوروبية والإسلامية بشيء من الدرس العميق الذي لا يعتمد فقط على العاطفة النفسية والتجارب الفردية الخاصة؟ لأن الأمة لن تجني من وراء هذا العنت الفكري إلا تقويضاً لأسسها. ومحوراً لمعالمها الخاصة بها، وفناء لها بين الأمم الأخرى التي تحترم القوى، وتحققر العاجز الضعيف.

* * *

محمد أركون والتيار العلماني

(٢)

- رأينا في الموضوع السابق كيف أن محمد أركون دعا في صراحة تامة إلى مشروع علمنة الفكر الإسلامي تأسيساً بالعلمنة التي يعيشها المجتمع الفرنسي منذ ثورة ١٧٨٩م.

- وتكاد تسيطر فكرة الثورة الفرنسية سيطرة كاملة على فكر «أركون» فهو يدعو مُفكّري العالم العربي في كلمته نفسها التي ألقاها في جمعية الصداقة الفرنسية - العربية يدعوهم إلى الاستفادة من هذه الثورة التي يصفها بالتنويرية. والأهم عنده من ذلك كله هو: كيف استطاعت هذه الثورة - على حد تعبيره - الفصل بين العامل الديني والعوامل الأخرى في المجتمع؟

- يقول أركون «في هذه المناسبة أود أن أشير إلى حدث تاريخي كبير سيحصل هنا في باريس وهو الاحتفال بالذكرى المئوية الثانية للثورة الفرنسية (١٧٨٩ - ١٩٨٩م) وأتمنى أن يشارك فيها كل المثقفين العرب والمجالات العربية بهذه الطريقة يحصل التفاعل الحر والمعطاء بين الثقافة العربية والثقافة الفرنسية وتفيد إحداها من الأخرى، ويمكننا استعادة الرمزية الدينية بكل أبعادها في الأديان التوحيدية الثلاثة من أجل إعادة

التحديد والتفريق من جديد بين العامل الديني والعامل السياسي. والعالم العربي يفيد كثيراً من هذه العملية، لأن العامل السياسي فيه يتلاعب بالعامل الديني في كل اتجاه. ويسيء بذلك إلى السياسة والدين والمجتمع جميعاً، وقد أثرت الثورة الكبرى التي جاءت تتويجاً لعصر التنوير على كل أنحاء أوروبا بوصفها مغامرة عقلانية وفتحاً لا مثيل له في التاريخ، وينبغي أن تصل آثارها إلى كل العالم المتوسط.

- إن «أركون» بمقولته هذه إما أن يكون جاهلاً بطبيعة المجتمع العربي الذي يختلف كل الاختلاف عن المجتمع الفرنسي ولا أظنه كذلك. أو يكون متجاهلاً ويسعى إلى الترويج لفكرة الحضارة المتوسطة التي دعا إليها من قبل الدكتور طه حسين في كتابه (مستقبل الثقافة في مصر) حيث أعلن: «أن العقل المصري منذ عصوره الأولى عقل إن تأثر بشيء فإنما يتأثر بالبحر الأبيض المتوسط، وإن تبادل المنافع على اختلافها فإنما يتبادلها مع شعوب البحر الأبيض المتوسط».

- وإذا كان طه حسين قد نسي حقائق التاريخ عند دعوته إلى فَرَسَة العقلية المصرية، كَأَسْرِ المصريين للويس التاسع ملك فرنسا في أثناء الحروب الصليبية، وأن المصريين أيضاً قاوموا جيش «نابليون بونابرت» عندما دخل أرض مصر في أواخر القرن الثامن عشر مما دفع «نابليون» إلى أن يصب نيران مدافعه على الأزهر من على قلعة صلاح الدين.

- إذا كانت عبارات «طه حسين» المتحمسة لثقافة البحر الأبيض المتوسط لم تستطع أن تحجب هذه الحقائق، فإن عبارات «أركون» يدحضها الواقع التاريخي جملة وتفصيلاً يدحضها واقع صراع الإمبراطورية البيزنطية في شرق أوروبا ضد الدولة العباسية، وصراع إمبراطورية

شارلمان أو الإمبراطورية الرومانية المقدسة في غرب أوروبا ضد الدولة الأموية في الأندلس، كما تدحضها مذابح الصليبيين ضد المسلمين في فلسطين. ومن أشهرها مذبحة المسلمين بالقدس في يوليو ١٠٩٩م التي وصفها «وليم الصوري» - من المؤرخين الصليبيين - قائلاً: «إن البلد أصبح مخاضة واسعة من دماء المسلمين أثارت خوف الغزاة واشمئزازهم..». وكتب مؤرخ صليبي يقول: إنه عندما زار الحرم الشريف غداة المذبحة لم يستطع أن يشق طريقه وسط أشلاء المسلمين إلا بصعوبة بالغة. وإن دماء القتلى بلغت ركبته.

ثم ماذا يقصد «أركون» من عملية التفريق بين العامل الديني والعامل السياسي والذي يمكن للعالم العربي استفادته من الثورة الفرنسية؟

- ليس هناك من يجهل أنه قد تشكلت في نهاية القرن الثامن عشر وعند قيام الثورة الفرنسية الملامح النهائية للفكر الرأسمالي الذي يقوم على فصل الدين عن الحياة. فهل هذا ما يعنيه أركون بالتحديد؟ هل يريد أركون أن يحدثنا عن طبيعة النظام الإسلامي أو يشكك في حقيقة تلاؤمه مع الحياة كنظام شامل لا يقبل التفرقة أو التجزئة؟

- إن عبارات أركون تخفي الكثير من دسّه على التاريخ الإسلامي، وتفصح جهله بالأسس التي يمكن للحضارات أن تلتقي عندها أو قد تختلف، ولا شك في أن طبيعة الفكر الإسلامي أو العربي تختلف في جوهرها وأهدافها عن طبيعة الأفكار التي أفرزتها الثورة الفرنسية والتي يمجدها الفكر الأركوني، هذا الفكر الذي يرتدي ثوب العروبة ويتنفس بروح أبعد ما تكون عن منطلقات الأمة وتراثها.

محمد عابد الجابري بين البرهان والهديان

- لم يكن محمد عابد الجابري كوكباً لامعاً في سماء الفكر الإسلامي والعربي الأصيل حتى يهوي كما نعتته المقالات المتتابعة التي نشرها الدكتور تركي الحمد في صحيفة «الشرق الأوسط» منكرّاً عليه موقفه من أزمة الخليج والمتمثل في إقراره لذلك الغزو الأحقق والاعتصاب الباطل. ولم يكن قط قومياً ينزع به حماس إلى السير في ركاب الغوغائية والانضواء تحت شعاراتها البرّاقة كما حاول أن يصنّفه - ذات مرة - الدكتور حسن الهويمل الذي طالب في مقاله الأسبوعي بصحيفة «البلاد» ٢٣ محرم ١٤١٢هـ، بإبداء الأدلة التي تكون بها قادرين على تحديد المسار الفكري حدثياً كان أو يسارياً أو ماركسياً لكاتب أو مفكر بعينه. وكانت دعوته تلك مرتبطة بالإعجاب الذي أبداه بالدكتور جابر عصفور «لموضوعيته ومعقوليته واقتداره وسيطرته على الفكرة التي يعالجها وبعده عن الادعاء» وأخيراً هو في الصفوة - في نظر الدكتور الهويمل - لأنه من أبرز كتّاب مجلتي «فصول» و«إبداع».

ولا شك في أن مطلب الدكتور الهويمل - بعيداً عن بواعث الإعجاب الذي أظهره تجاه (عصفور) وثنائه على دوريات أدبية لا تخفي حقيقة توجهها على القارئ العربي - هذا المطلب له أهميته في تحديد

مسار الفكر العربي والوقوف على توجهات الكتاب العرب الذين يشاركون في بناء ثقافة الأمة وتوجيه دفتها الحضارية. ولكن ما رأي الدكتور الهويمل في أن بعضاً من المثقفين العرب يجاهرون - دون أن يطالبهم أحد أو تضطهرهم المواقف لإبراز هويّاتهم الثقافية أو الدفاع عنها - بماركسيّتهم ويساريّتهم، ولم تنته تلك المجاهرة حتى بعد أن تبرأ من الشيوعية والاشتراكية منظروها ورؤّادها الحقيقيون من مفكري الغرب ومثقفيه. ولعلّ دكتورنا الكريم لم يفت ذلك الحماس المستميت الذي يبديه غالي شكري، ومحمود أمين العالم، وعبد العظيم أنس وغيرهم في الدفاع عن الماركسية وكأنهم نشأوا في الساحة الحمراء التي تخلصت أخيراً من كل رموز ذلك الماضي المتعفن إلا بقايا من تماثيل لينين وستالين يلعب بها الصبيان ويتلهون بها في أوقات فراغهم. وإني لطارح أيضاً سؤالاً في هذا السياق على الدكتور الهويمل وهو: هل نجد فيما يكتبه هؤلاء ومن بينهم الدكتور جابر عصفور «الحدثاء أمس واليوم وغداً» (لمارشال بيرمان) (Marshall Berman) [إبداع - العدد الرابع - ١٩٩١م، ص ٢٧ - ٤٢] هل نجد في ما يكتبونه الروح الحقيقة للفكر الإسلامي والتي هي - بلا شك - حد فاصل يمكننا من خلاله تحديد هويّاتهم التي ينطلقون منها وتوجهاتهم الفكرية التي يسعون لتثبيتها ونشرها في مجتمعاتنا الإسلامية والعربية؟ وإذا كان الجواب بالنفي وهو الشيء الذي أميل إليه فليعذر الدكتور الهويمل كل لخط يدور حول هذه الشخصيات وكل نقد يحاول كشف ما تنطوي عليه كتاباتهم من مضمون فكري لا يخدم تاريخ هذه الأمة ومنطلقاتها الحضارية وتراثها الفكري الذي يجب أن يسان من كل عبث، وتدفع عن ساحته كل تلك المحاولات التي تريد تفسيره وفق الأهواء الباطلة، وهذا حق مشروع لكل أمة ويمكن أن

يقام عليه الدليل من خلال تلك العاطفة المتقدمة والحماس المتأجج لدى مفكري ومبدعي الأمتين المسيحية واليهودية والذي يصل بهم إلى الدفاع عن تلك الأساطير التي تحفل بها كتبهم الدينية التي امتد إليها العبث وأصابتها عوامل التحريف. وهل نحن بحاجة إلى أن نذكر بالرؤى المسيحية الواضحة والمتجسدة في الأعمال الأدبية المشهورة لـ «تاسو» و«دانتي» و «ملتون»؟ وهل من الضروري أن نسوق دليلاً على المرجعية الدينية اليهودية في أعمال الروائي «فرانز كافكا» التي كتب بعضها باللغة اليهودية القديمة «اليديشية»؟ كما يظل السؤال مطروحاً حول «ت. س. إليوت» المبدع الأمريكي الأصل والإنجليزي الإقامة والثقافة والذي يعجب به رواد الحداثة في عالمنا العربي. فهل فقهنّا أن الكاثوليكية المتعصبة كانت خلف معظم أعماله ويشمل ذلك قصيدته المشهورة «الأرض اليباب»؟

وأعود للجابري الذي بدأت مقالتي بالحديث عنه لأذكر الذين انحصر نقدهم له في موقفه من أزمة الخليج بأن ذلك الموقف لا يمكن فصله بأي حال من الأحوال عن مجمل توجهاته الفكرية. وإذا كان هناك نقد يسعى للفصل بين ما كتبه الجابري في منظومته «نقد العقل العربي» وبين ما اتخذه من موقف مؤيد للغزو العراقي للبلد العربي الكويت فهو نقد لا يمكن أن يصل بنا إلى الحقيقة عن هذا الكاتب الذي ينظر إلى التراث العربي بعينين غريبتين وغريبتين - في الوقت نفسه - ويحاول أن يشوه وجهه النقّي بتلك المناهج المنبثقة عن الفكر الماركسي التي استخدمها في دراساته، مثل «النبوية» وغيرها. وهو كثيراً ما يوظف في دراساته وكان آخرها (العقل السياسي العربي محدداته وتجلياته)، يوظف جملة مفاهيم توظيفاً إجرائياً ومن حقول معرفية مختلفة ومتباينة، كعلم النفس، وعلم

الاجتماع، وفلسفة اللغة. ومعلوم أن عملية توظيف المفاهيم في الأبحاث الأكاديمية كانت وما زالت تطرح مشاكل علمية تتصل بمصدر هذه المفاهيم وخلفياتها الفلسفية والأيدولوجية، ولم تكن كتابات الجابري عن أزمة الخليج لتخرج عن نسق تلك الرؤية الضيقة والسقيمة التي طبعت كتابات اليسار العرب عموماً، وهو ما نجد شواهدة عند «عبد العزيز المقالح» و «عبد الوهاب البياتي» و«محمد برادة» و«كمال أبو ديب» و«جورج طرايشي» وغيرهم.

وإذا كان الجابري يدعونا علانية في كل كتاب يصدره كما فعل في «العقل السياسي العربي» وفي آخر مؤلفاته «التراث والحداثة» إلى الانتظام الواعي في فكر ابن خلدون، وابن رشد، وابن حزم، والشاطبي وبالتأكيد على مفاهيم البرهان والمدرسة البرهانية، وضرورة الالتزام عند قراءة التراث أو الرجوع إليه بهذه المفاهيم القادرة على بعث الوعي في الأمة والانطلاق بها في المسار الحضاري الكبير، فإنه نفسه أول من خذل هذا البرهان وتنحى عن الأخذ بأحكامه وهو ما يفقده مصداقيته فيما يدعو إليه ويضيف بعداً آخر لضرورة مراجعة ما يقوله ويكتبه.

* * *

مثقّفون عرب ولكن بدون هوية

تحدث الأستاذ الفاضل محمد صلاح الدين في «رؤيته المعاصرة» عن موضوع افتتاح مؤسسات تعليمية أجنبية في بلاد عربية مسلمة تهدف لاستقطاب النخبة القادرة في العالم العربي والإسلامي وتغريب روحها وعقلها^(١). ولا شك في أن الكاتب الكريم قد أصاب الحقيقة في تفسيره للأهداف المعلنة والمضمرة من وراء وجود هذه المؤسسات التي يروج لها على أنها تهدف لتهيئة كوادر علمية لإدارة المشاريع والشؤون المحلية في البلاد التي تنهياً لأبنائها فرص الدراسة في هذه المؤسسات عن طريق منح وامتيازات خاصة.

- والأمر في نشر الثقافة الأجنبية في بعض البلاد العربية والأفريقية وما يترتب على ذلك في بعض الأحيان من ترسيخ مفاهيم معينة ينطلق منها البعض بقوة وحماس كبيرين نحو تغيير البنيات الثقافية لهذه المجتمعات لا يقتصر فقط على إقامة مثل هذه المؤسسات بل هناك مخطط عام لتهيئة المبتورين من الكُتّاب والمبدعين عن طريق منحهم الجوائز الثقافية وكذلك إفساح المجال أمامهم للتدريس في أكثر الجامعات شهرة وأرقاها مستوى من حيث الإمكانيات والوسائل العلمية في الوقت

(١) المسلمون العدد (٣٠١) ٢٢ ربيع الآخر ١٤١١هـ.

الذي تشكو فيه كثير من هذه الجامعات الغربية من السياسة الاقتصادية المتقشفة والمُتَّبعة من قبل حكومتها والتي تهدف إلى دمج الأقسام المتشابهة وتقليص عدد الأساتذة والمحاضرين فيها، ورفع الرسوم الدراسية على الطلاب الراغبين في الانضمام إلى هذه الجامعات.

- ويكفينا شاهداً حياً في هذه القضية منح الجائزة الوطنية الكبرى للآداب في فرنسا للكاتب الجزائري «كاتب ياسين» عام ١٩٨٦^(١) كما حصل «الطاهر بن جلون» عام ١٩٨٧م على جائزة (الجنكور)^(٢) ويحظى كتاب آخرون مثل (رشيد بوجدره) و «الطاهر وطّار» و «محمد شكري» برعاية كبيرة من المؤسسات الإعلامية والثقافية في البلاد الغربية. ومع أن هذه الأسماء التي يكتب أصحابها أدباً يستمد مضمونه من المجتمعات العربية وفي أحيان كثيرة بلغة غير عربية، هي أسماء تُعلن بوضوح انتماءها للأيديولوجية الماركسية حتى وإن تخطى الماركسيون أنفسهم عن هذه العقيدة، فكاتب ياسين صرح بأنه يفتخر بالتسمية التي تطلق عليه وهي «كاتب لينين» وأنه يعتبر هذه التسمية شرفاً كبيراً له لأنها تعود لأفكاره اليسارية. وقد جاء هذا التصريح ضمن إجابة عن أسئلة وجهها له - ولعدد آخر من الكتاب في البلاد العربية - الكاتبان الفرنسيان «لوك

(١) انظر مقالة بيار برنار بعنوان «لا تتوهموا كثيراً» الشرق الأوسط عدد ٤٢٣٠ الخميس ٦/٢٨/١٩٩٠م.

(٢) أعلن مؤخراً أن لجنة من عشر شخصيات أدبية ستمنح أول جائزة أدبية بقيمة ٣٠٠ ألف فرنك فرنسي «٥٥ ألف دولار» في الخامس والعشرين من نوفمبر في طولون جنوب شرق فرنسا لعمل إبداعي متوسطي وأوضح الإعلان أن جائزة لوفان الأدبية ستمنح لكاتب فرنسي أو فرنكوفوني يختار الوقائع والشخصيات والمشاهدات في عمله ضمن الإطار المتوسطي ويرأس اللجنة «هيرفي بازان» وتضم في عضويتها الكاتب المغربي الطاهر بن جلون. انظر صحيفة العلم المغربية الجمعة ٢٧ يوليو ١٩٩٠م.

باربولسكو» و «فيليب كاردينال»^(١) حول الإسلام وتطبيقه في المجتمعات العربية. وأما «الطاهر وطار» فهو لا يريد أن يحيد قيد أنملة عن الإيمان بالمبدأ القائل (الدين أفيون الشعوب)^(٢).

ومثله «رشيد بوجدرة» الذي يرفع عقيرته قائلاً: «أنا شيوعي خلافاً لكثير من المثقفين والأدباء العرب أصحاب النزعات اليسارية المترددة، ولا يختلف كثيراً عن هذه الفئة «محمد أركون» الذي تنازعه جامعات أجنبية مثل جامعتي لوس أنجلوس ولوفان مع الجامعات الفرنسية الكبرى مع ملاحظة أن اللغة الأساسية للكاتب هي اللغة الفرنسية. يصرح «أركون» دون موارد بأن (الإسلام ليس نظاماً للحكم لا تاريخياً ولا عقائدياً) ويشتط في أحكامه الجائرة قائلاً: إن الدولة الأموية لم تكن إسلامية ومثلها الخلافة العباسية^(٣). ويدعو لإعادة النظر في مجموع التقاليد الإسلامية لتوحيدها وكشف الرواسب المتراكمة التي اعترتها^(٤). وهو يرجع وجود مثل هذه الرواسب لما يسميه بسلطان النص المطلق^(٥) ومعروف ما يعنيه الكاتب بهذا فهو يشير إلى كتاب الله الكريم القرآن. ولا شك في أن عبارات أركون هذه تدل على جهل مركب بالدين الإسلامي ونصوصه ومعرفة أحكامه معرفة حقيقية وذلك للتغريب الذي يتعمق شخصيته فكراً وروحاً ومنهجاً وهو مع هذا الجهل المطلق والعقلية

(١) صدر الكتاب باللغة الفرنسية Lislam En Ques رأيهم في الإسلام وقامت بنشره دار الساقى بلندن ١٩٨٧م انظر إجابة كاتب ياسين والتي اشتملت عليها صفحات الكتاب ١٩١ - ٢٠١.

(٢) المصدر السابق نفسه ص ١٧٦.

(٣) المصدر السابق نفسه ص ١٧٢.

(٤) المصدر السابق نفسه ص ١٥٠.

(٥) المصدر السابق نفسه ص ١٤٦.

اليسارية المنغلقة لا يفتأ ينصب نفسه متكلماً باسم الإسلام والمسلمين في بعض الندوات التي تعقدها الجامعات الغربية كما حدث ذلك في الندوة التي أقامتها جمعية الصداقة الفرنسية - العربية والتي دعا فيها إلى علمنة الإسلام تحت ستار ما سماه بالتبادل الثقافي. يقول أركون في تلك الندوة: من هنا نستطيع أن نخطط للتبادل الثقافي في كلا الاتجاهين وليس في اتجاه واحد فقط فالعرب يمكنهم أن يفيدوا كثيراً من فرنسا ومن التيارات الفكرية والتحررية والجادة في الثقافة الفرنسية وهنا أشير على وجه الخصوص إلى مسألة العلمنة في فرنسا منذ ثورة ١٧٨٩م ويمكن أن ينتهز العرب الفرصة لحل أكبر مشكلة مطروحة على المجتمعات العربية والإسلامية وهم يحلون لها عن طريق توليد فكري تحليلي وتنويري داخل الإسلام والثقافة العربية وهذا الفكر غير موجود للأسف حتى اليوم^(١).

يعترف - إذن - أركون بأن الثقافة الإسلامية والفكر العربي يرفضان الفكر التحرري والتيار العلماني وهو يتأسف على عدم الاستفادة من هذه التيارات الفكرية التي يصفها بأنها جادة ولهذا يتطلع إلى رؤيتها داخل كيانا إسلامي الذي يختلف كل الاختلاف عن الكيان الغربي.

- وليس من الضروري - بمكان - أن يربط أركون بين وجود العرب في المجتمعات الغربية وبين انتحالهم لهوية ثقافية غير هويتهم. وأركون بهذا ليس يدعوهم إلى خير سوف يفيدون منه كما يتصور بل هو يدفع بهم - بدعوته هذه - إلى الدمار الذي يحطم وجودهم فضلاً عن استمداده لأسباب الحياة والقوة.

(١) مجلة الأزمنة المجلد الثالث العدد ١٤، فبراير ١٩٨٩م.

إن مسلمي الأمس الذين انفتحوا على الثقافات الأخرى لم يكونوا بهذه التبعية الفكرية التي يتصورها أركون والذي ينطلق من معايير فكرية تختلف عن المعايير الإسلامية في منطلقاتها ووسائلها. لقد كان لمسلمي الأمس وجودهم الخاص الذي أثر بشكل واضح على الأمم الأخرى ولم يرتض ذاته موضعاً للتلقي السلبي والانبهار الحضاري المميت. وما على مسلمي اليوم - إن أرادوا تقدير الأمم الأخرى واحترامها - إلا التثبت بكل الأسس التي وجدت في دينهم الحنيف والاعتزاز بالتراث الفكري الذي خلفه السلف الصالح من أمة الإسلام.

- ولعلّه من المفيد في هذا الشأن أن نذكر أن المجتمعات اليهودية التي تعيش منذ قرون متعددة في البلاد الغربية تتعامل مع الحضارة الأوروبية من منطلق الاعتزاز بالتراث الديني والفكري الخاص بها، هذا التراث الذي ربط رئيس اتحاد الأدباء العبريين «حاييم هزاز» بينه وبين وجود الشعب اليهودي في قوله: إن عبقرية الشعب اليهودي تكمن في ذاكرته التي ظلت تعي على امتداد عشرين قرناً كونه وحدة غير قابلة للتفتت^(١) بل إن هذه المجتمعات اليهودية لا ترضى التفريط في أقل الأشياء كاللباس والأكل مثلاً وهو ما جعل النظرة الأوروبية إلى التراث اليهودي تتسم دوماً بالإكبار والإعجاب^(٢).

- ولا يكتفي أركون بهذا التناول الذي يحاول الربط بين أمتين أو حضارتين تختلفان جذرياً كل الاختلاف ولا يمكن قياس واحدة منهما

(١) انظر عبد الله عبد الجبار - الغزو الفكري في العالم العربي المكتبة الصغيرة، ط ١، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م، ص ٤٢.

(٢) انظر عاصم حمدان محمد أركون والتيار العلماني صحيفة المدينة المنورة العدد «٧٩٤١» ٢٤ جمادى الآخرة ١٤٠٩هـ.

على الأخرى لأن الحضارة نظام كامل يشمل وحدات هامة مثل التصور العقدي للكون والسلوك الاجتماعي والنظام الاقتصادي ولا يمكن أن نتصور بهذه السهولة انتزاع وحدة من هذه الوحدات لنستنبتها في أرض غير أرضها وبيئة تتباين عن بيئتها وسياق اجتماعي غير سياقها وسوف تكون إلى الشذوذ والغربة أقرب منها إلى أي شيء آخر.

- نعم لم يكتف بذلك بل أراد أن يجعل من نفسه مفسراً كبيراً وفقهياً مجتهداً يفسر آيات الله على هواه، ويتناول كتاب الله الكريم من مفهوم النص المفتوح القابل للقراءات المتعددة. وهذا يُستدل به على خلفيته الفكرية المتشعبة بالمذاهب الأدبية الحديثة مثل البنيوية وغيرها ولكنه يشير إلى ظاهرة خطيرة يجب التنبه إليها والتحذير منها لأنه إذا اقتحم ميدان دراسات القرآن من ينتمي إلى الإسلام باسمه وتجراً على قدسيته وشكك في مصدره الإلهي وغمز ولمز في قضايا إعجازه فإن ذلك سوف يكون حافزاً لغيره من المسلمين في التنفيس عن أحقادهم الدفينة من خلال جعل موضوع الدراسات القرآنية ميداناً مفتوحاً وحمى مباحاً يدخله من يشاء مفسراً على هواه أو انطلاقاً من تصوراته الخاصة ودلالاته ومقاصده ومعانيه.

- يقول أركون في الفصل الأول من هذا الكتاب وتحت عنوان مفهوم كلام الله: إن تعريفنا القرآن يتيح لنا دراسة مفهوم كلام الله باعتباره موضوعاً لغوياً، وبذا نتساءل ما هي السبل اللغوية والأدبية بالمعنى الصحيح التي يشيد بها النص القرآني بنية علاقة إدراك - شعور مرتكز إلى مفهوم إله حي مبدع متعال. ومن الثابت المعلوم جداً في الواقع أن معاصري «محمد» قد تأثروا وسرعان ما رضخوا للشكل الخارق

وللكلام المبلغ باسم الله، والقرآن ذاته يقدم الحاصل الأدبي لهذا الكلام على أنه لا يقلد^(١).

- وأول ما نلاحظه بوضوح على هذا التعريف «الأركوني» هو تعامله مع القرآن على أنه نص لغوي ثم يجعل موضوع التأثر بهذا الكلام هو السبب في الرضوخ إلى أحكامه نافياً أن مسلمي العصر الأول كانوا يناقشون - كما تثبت كتب السيرة - الرسول - ﷺ - في جميع المسائل والأحكام وكذلك فعلوا مع أصحابه - رضوان الله عليهم .

- ثم يحدد موقفه من مصدر القرآن عندما يقول المبلغ باسم الله وليرجع أركون إلى القرآن إن كان بإمكانه قراءته لأن القرآن يتأبى على ذوي النفوس السقيمة والقلوب الزائغة. ليرجع ويقرأ قراءة واعية تلك الآيات التي نزلت في تحذير الرسول - ﷺ - من الميل إلى آراء المشركين وعتابه ونهيه عن معاودة مسائل كان قد اجتهد فيها مثل استغفاره لعبد الله بن أبي بن سلول. وهذه مسائل يمكن الرجوع فيها إلى كتب دراسة القرآن وإعجازه إلا أنه يمكننا القول - في هذا السياق - إن بعضاً من المستشرقين لم يملك إزاء هذه الشواهد الدالة على أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون من وضع الرسول - ﷺ - نفسه إلا التصديق بمعجزته الربانية ومصدره الإلهي.

- ولقد بنى أركون على هذه المقدمة المتهافتة نتيجة هي أشد تهافتاً من سابقتها وهي أن قضية الإعجاز القرآني قد فرضت على المسلمين^(٢) دون حول منهم ولا قوة.

(١) انظر محمد أركون والفكر العربي ترجمة الدكتور عادل الهوا «منشورات عويدات - بيروت - باريس» ط ٤. ١٩٨٦م، ص ٢٣.

(٢) المصدر السابق ص ٣٣.

- لقد نزل القرآن أول ما نزل في بيئة لم تكن تتعاطف مع الرسول - ﷺ - بل إنها تحاربه وتناصبه العداء وهي على الرغم من امتلاكها لناصية البيان العربي الذي لا يفقهه أركون بعد أن استعجم لسانه وقلبه - معاً - هي على الرغم من كل الحثيات السابقة كانت تذهب إلى فناء الكعبة لتسترق السمع إلى نبي الهدى وهو يرتل القرآن فلا تلبث أن تستمرئ ذلك السماع وتعاوده مرات ومرات ولم يقل واحد منهم - عندئذٍ - وهم في موقف المقاومة للرسول - ﷺ - ودعوته؛ إن ذلك التأثير الغريب الذي تسلل إلى نفوسهم وتركها حيرى كان مفروضاً عليهم. وكيف يفرض الضعيف على القوي والخائف على الآمن والفرد على الأمة الكثيرة العدد والعدة؟ بل لقد ظل موضوع هذا التأثير القرآني المرتبط بإعجازه على كل من ألقى عليه السمع ولو كان هذا السمع عابراً ظل باباً من أبواب الدخول في هذا الدين، حتى عندما فقدت الدولة الإسلامية كيانها السياسي وسلطتها الرسمية. فقد حدثني أستاذنا الفاضل الدكتور مصطفى عبد الواحد أن عدداً كبيراً من الإنجليز الذين دخلوا في الإسلام كان صوت المقرئ المعروف الشيخ محمد رفعت - رحمه الله - في ترتيله للقرآن سبباً في هدايتهم إلى هذا الدين الباقي ما بقيت الأرض والسماء. فأى فرض هذا الذي يذهب إليه أركون؟ وأي دعوة باطلة تنقضها وقائع التاريخ في الماضي وشواهد حاضرنا القائم؟!

- ولعلّ الغريب جداً في احتفاء بعض المؤسسات الغربية الثقافية منها والإعلامية بهؤلاء الكتاب هو عدم حيولة توجهاتهم الماركسية دون إعطائهم ما يطمحون إليه من مناصب وبيحثون عنه من جوائز وتسهيل السبل أمام نشر مؤلفاتهم وترجمتها إلى لغات عدة. كما حصل بالنسبة

إلى إنتاج الكاتب «محمد شكري» الذي ترجمت أعماله «الخبز الحافي، الشطار، مجنون الورد، والخيمة» إلى بعض اللغات العالمية مثل الإيطالية والألمانية والكاتالانية والأسبانية^(١) مع أن هذه المؤسسات - نفسها - هي التي تضع العراقيل ولا تتورع عن مخالفة القوانين والأعراف في سبيل مقاومة الكتابات الصادرة عن كتاب ينتمون حقيقة للمجتمعات الغربية جنساً وثقافة والتي يتوقع من أصحابها التوجه الماركسي أو النزعة اليسارية كما حدث مع الكاتب المعروف آرثر ميلر Arthur Miller^(٢) والممثل الكوميدي تشارلي شابلن الذي هوجم واتهم بميوله الشيوعية من قبل مما كان سبباً وراء نزوحه إلى سويسرا في عام ١٩٥٢م حيث استقر حتى مماته في ٢٥ ديسمبر ١٩٧٧م^(٣) وهو الأمر نفسه الذي وقع مع الكاتب البريطاني المعروف كين ليفنغستون Livingstone^(٤) الذي أزيح من منصبه كرئيس لبلدية لندن سنة ١٩٨٦م وكان اتجاهه اليساري سبباً رئيسياً وراء إزاحته من هذا المركز الهام. ولا يتعد كثيراً موقف الإعلام في بلاده من النموذج الماركسي الآخر وهو الكاتب «طارق علي» أحد أصدقاء سلمان رشدي والذي حاول الانضمام إلى حزب العمال البريطاني في بداية الثمانينيات الميلادية ولكن رئيس الحزب آنذاك والصحافي المعروف «مايكل فووت» رفض طلبه في الانضمام مبيناً له أن نزعه الماركسية غير

(١) انظر محمد شكري استمرار العالمية صحيفة اتحاد المغربية الخميس ٢٨/١١/١٤١٠هـ.

(٢) انظر هذا الكتاب.

20th Century Literary Criticism (Edited by Avid - Lodge) Longman London
New York 1984 P.P. 456 - 63.

(٣) انظر مقالة الدكتور جمال عبد الناصر وتشارلي شابلن من التصعلك إلى الرمزية السيكلوجية «مجلة القاهرة العدد ١٠٥، ٢٢ ذو القعدة ١٤١٠هـ ص ٤٤ - ٩٤.

Who's Afraid of Margaret Thatcher? In praise of Socialism London 1984. (٤)

مقبولة في المجتمع البريطاني مما يسبب خسارة للحزب وفقداناً لشعبيته بين الناس مع أن حزب العمال عرف بتبنيه للمنطلقات اليسارية في بعض طروحاته الاجتماعية والاقتصادية .

ولعلّ في ضوء هذه الشواهد الأخيرة التي سقناها للتدليل على موقف المؤسسات الغربية من التوجهات الماركسية وهي التي تعكس صرامة ووضوح الموقف الغربي من هذه التوجهات المتحجرة والمتعفنة لعلّه يحق لنا أن نتساءل: لماذا هذه المؤسسات نفسها والواعية بكل مواقفها وممارساتها تحيط بعض الكتاب العرب الغارقين إلى حد رؤوسهم وأرجلهم في مستنقعات الفكر الماركسي والفارضين على أفكارهم سياجاً من الأيديولوجيات الشكلية والميتة - تحيطهم بهذه الهالة الإعلامية التي لا يتورعون في غمرة الانبهار بها عن أن ينالوا من الدين والثقافة التي ينتمون إليها - بأسمائهم فقط - في زمن استعادت فيه أوروبا شرقها وغربها ثقتها بالدين وأكدت على احترامها للمقدسات والشعائر والعبادات؟

* * *

دراسات مقارنة بين الأدبين العربي والغربي

تمهيد

لقد تحمّل الأستاذ الدكتور الصديق عادل عطا إلياس، أستاذ الأدب المقارن بجامعة الملك عبد العزيز، العبء عَنِّي في تقديم هذه الدراسات النقدية في ميدان الأدب المقارن الذي أقر بأنه ليس بالتخصص الرئيس لدراستي الأكاديمية العليا، ولكنه يدخل ضمن دائرة اهتماماتي ومتابعاتي التي تنطلق من أن أدبنا العربي والإسلامي أدب ثري وغني أثر في عصوره الذهبية في آداب الأمم الأخرى من شرقية وغربية. كما تأثر في العصور اللاحقة بآداب الأمم الغربية. فالقصة والرواية والأدب المسرحي وقصيدة النثر هي نتاج هذا التلاقح الفكري والثقافي بين الحضارتين العربية والغربية. كما أن شاعراً رائداً مثل بدر شاكر السياب، لا يمكن قراءة إنتاجه بعيداً عن الأثر الغربي وخصوصاً ما تركه الشاعر الأمريكي الأصل، الإنجليزي الهوية والثقافة ت. س. إليوت صاحب القصيدة المشهورة (الأرض اليباب)، من أثر أدبي واضح على الطلائع الأولى من الشعر العربي الجديد والمتمثل فيما عُرف بشعر التفعيلة.

بداية لا بد من توجيه الشكر لنادي المدينة المنورة الأدبي الذي أسهم إسهاماً فعالاً في نشر المفاهيم الإيجابية للثقافة والأدب العربيين في بلد الرسول ﷺ، خاصة، وبلادنا العزيزة بعامة. فجزور هذا النادي العتيق تمتد إلى السبعينيات الهجرية عندما كانت تقوم النخبة الكريمة من أدباء

وشعراء البلدة الطاهرة بتقديم إنتاجها الأدبي شعراً ومقالاً وقصة تحت مظلة (أسرة الوادي المبارك). ثم كان إنشاء النادي الأدبي بالمدينة بتوجيه ودعم من رعاية الشباب كما هو الشأن في بقية مناطق هذه الأرض الكريمة من مملكتنا العزيزة - التي يسعى المسؤولون فيها إلى الحفاظ على الهوية العربية والإسلامية لفكرنا وثقافتنا وأدبنا. وإذا كان المربي الأستاذ الناقد عبد العزيز الربيع - رحمه الله - قد تولى مسؤولية إدارة هذا النادي في حقبة الأولى، فإن الأديب الإنسان والشاعر المرهف الأستاذ السيد محمد هاشم رشيد ومن حوله من أساتذة كرام ورجال أفاضل يبذلون غاية جهدهم لتقديم الأفضل والأحسن في ميدان الفكر والثقافة. وبما يحقق أهداف المسيرة التنموية والفكرية في هذه البلاد التي شهدت التقاء الأرض بالسماء، وتفجرت من أرضها ينابيع الحضارة الإسلامية التي تجمع بين متطلبات الجسد والروح، وتدعو للوسطية والاعتدال والتسامح، وتبث معاني الحب والوداد في النفوس وترسخ كل ما هو صالح لوجود الإنسان فوق هذه الأرض.

كما أخص بالشُّكر الزميل الكريم الدكتور عادل الياس الذي قرأ الأصول الأولى لهذه الدراسات واقترح - بحكم تخصصه في الأدبين العربي والغربي - ما هو مفيد ونافع لإخراج هذا العمل في صورته النهائية. أما الزميل الأستاذ مروان قماش فلقد اقتطع من وقته الثمين الشيء الكثير ليراجع معي هذا العمل بكل جد وإخلاص، فله وللجميع خالص الشكر والتقدير والامتنان.

والله ولي التوفيق

كتبه العبد الفقير إلى الله

عاصم حمدان علي

المدينة المنورة ١٤١٧/٩/٢٤هـ

تقدمة

للدكتور عاصم حمدان منزلة كبيرة في نفسي وقدر عظيم. فعندما طلب مني أن أكتب مقدمة لمجموعة الدراسات هذه شعرت بالغبطة وبالحيرة معاً. سررت لأنني أعتر بكتاباته عموماً واغتبطت لأنه بدأ في سبر غور الفكر الأوروبي برغبة حميدة وجادة ليس ليبين مدى تطوره وتطور أدبه، وليس لينهل منه على حساب أدبنا العربي، بل ليضع يدي القارئ على حقائق قد تكون قد غابت عليه أو على السواد الأعظم. وهي حقائق تتمثل في مدى تأثير الفكر والأدب العربي على الفكر والأدب الأوروبي وليضع نصب أعيننا حقيقة أخرى لا تقل أهمية عن سابقتها - وهي وإن لم يقلها صراحةً إلا أنها تفرض نفسها وبوضوح في أن الأدب العربي أدب قوي وثري ويمتد في القدم والسمو وإلا لما تأثر به أدباء الغرب. وأعتقد بأنه، ولضيق المقام، لم يشأ الدكتور عاصم ذكر هؤلاء الذين تأثروا بالأدب العربي جميعاً، وهم يصعب حصرهم ولا شك.

أما الحيرة فتكمن في السؤال: هل أستطيع أن أفي الدكتور حقه في مقدمة مختصرة؟

وقد قسم الدكتور عاصم مجموعته إلى أقسام ستة يربط بينها رابط مشترك مكوناً بذلك وحدة الموضوع قيد الدراسة، وهذا الرابط والقاسم

المشترك يتمحور حول عامل التأثير بحيث تنقل سعادته بين جيفري تشوسر ووليم شكسبير وغيرهما ضارباً الأمثلة ليوضح مدى أهمية عاملي التأثير والتأثير بين الأدبين الإنجليزي والعربي .

وكما نوهت في مقدمة الكلمة كم سررت بأن أرى أخاً وزمياً عزيزاً يتعرض بالدرس لمثل هذه الدراسات التي تتطلب في الحقيقة وقتاً أطول ودراسات أعمق . وكم كنت أتمنى لو أن سعادته قد استفاد أكثر في دراسته عن تشوسر ووليم شكسبير وشخصية شايлок ويهودي مالطا وغير ذلك مما نجده في كتابات عظماء الأدب الإنجليزي الذين تأثروا بالأدب العربي وخصوصاً الشعراء الرومانتيكيين أمثال ووردزورث وكيترز وشيلي وغيرهم .

أجد في الدراسة عن جيفري تشوسر نواة قيمة لعمل أطول خاصة وهي تشمل بعض أفذاذ الأدب و الفن والشعر مثل دانتي اليرجيري وبتارك وبوكاشيو وتأثيرهم ومن ثم تأثيرهم على تشوسر، وفي (حكايات كنتبري) يلعب عامل التأثير بالأدب العربي دوراً بارزاً، ولا أرغب في الخوض فيها لأدع القارئ يجوب بنفسه بين أعماق الموضوع، ويدرس بحرّية وبدون تأثير عليه .

وفي تناوله لموضوع (شكسبير في اللغة العربية) قسّم سعادته الدراسة إلى عدة أقسام فرعية فتطرق إلى الترجمة الآمنة وكيف أنها تعتبر بمثابة الهدية القيمة والكنز الثمين . ثم تطرق إلى الشعر والترجمة، وعرج على القدرة الإبداعية ومعايشة وليم شكسبير قبل أن يحط الرحال عند الطبيعة الإنسانية آخر العناوين الجانبية . وفي الحقيقة فهذا الموضوع ككل يحتاج إلى دراسات متتابعة خاصة وقد أصبحت الترجمة تمثل علماً من العلوم

وتمثل أداة هامة وخطرة في نقل الفكر والتراث والأدب والعلوم وغيرها من أمة إلى أخرى. وكما قيل فإن المترجم الصادق الأمين لا يهدي إلينا ترجمة صادقة فقط بل إن عمله وإنتاجه يعتبر عملاً إبداعياً في حد ذاته.

ولو تطرقنا إلى ترجمة الشعر نستطيع بأن نقول بأن ترجمة الشعر - وخاصة شعر العظماء من أي أمة - يعتبر من أصعب أنواع الترجمة على الإطلاق. فالترجمة فن وموهبة وتمكن من اللغات، ولكن المترجم لقصيدة شعر يجب أن يكون لديه التذوق الشعري فيشعر بالقصيدة ويعايشها ويجوب في أجوائها الموسيقية واللغوية وغير ذلك. ولسنا في صدد تقديم شرح مستفيض عن الترجمة وأنواعها إلا أن هذه الدراسة هي أيضاً مهمة وهي أيضاً يمكن أن تكون البذرة الأولى لدراسة أطول وأعمق محلاة ومزينة بالأمثلة العملية كما فعل الدكتور عاصم هنا.

يتعرض الدكتور عاصم في دراسة أخرى إلى موضوع هام وهو نظرة العالم الثالث إلى آدابهم نظرة تحتية وتشدقهم بالآداب الغربية مُغفلين - أو متناسين - ما تحت أيديهم من آداب وتراث محلي قد يسمو على الآداب الغربية ويضارعها قوة. وكما نوه المستشرق الفرنسي جاك بيرك وغيره من النقاد والأدباء فإن العالمية هي وليد طبيعي للمحلية وبدون الاهتمام بالمحلية فلن يتحقق للثقافة أو الأدب أو العلم أي تقدم.

ويتطرق الدكتور عاصم إلى الدراسة بين الأدبين العربي والإنجليزي ويرى ضرورة إعطاء بعض المفكرين والدارسين الفرصة الإعلامية متمثلة في وسائلها المختلفة كالصحف والمجلات وما شابه ذلك بحيث يقرأ السواد الأعظم ما يكتب هؤلاء إثراء للعلم ونشر الثقافة. ويضرب مثلاً بما يكتبه سعادة الأخ الدكتور عدنان وزان في الأدب المقارن وتاريخ الاستشراق

وفنون الرواية والقصة والمسرح، وهي إضافات علمية هامة في ميدان الدراسات المقارنة وخاصة الدراسة المقارنة بين الأدبين العربي والإنجليزي وموضوع الشخصية اليهودية المسخ في مسرحيات كل من الكاتب الإنجليزي وليم شكسبير والكاتب المسلم علي أحمد باكثير. كذلك تطرق إلى دراسة الدكتور الوزان لشخصية اليهودي ومدى تأثر شكسبير في رسمها بكريستوفر مارلو في مسرحية (يهودي مالطا) ومدى دناءة هذه الشخصية سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وأخلاقياً.

في الحقيقة إلى جانب ما تحمله هذه الدراسات القصيرة من أهمية فهي تظهر بين طياتها جهد الباحث ولم تأت من فراغ. فالدكتور عاصم - كما أعده - قد اختار الطريق الصعب والشاق ليخطو بين جنباته بخطى ثابتة وكعاشق للأدب والفكر وهو أستاذ الأدب العربي، إذ وجد أنه لا مندوحة من أن يُعمل قلمه المرهف في الأدب الإنجليزي. وهي خطوة شجاعة يحمد عليها. فالآداب ليست حِكْراً على أحد أو على تخصص معين، فكل من يملك الحس الأدبي المرهف وكل من يملك القدرة على الدراسة والنقد والتحليل وكل من يتحلى بالحيادية في المناقشة وتناول الموضوعات قيد الدراسة، كل من يملك ذلك - أمثال الدكتور عاصم - يجب ألا يتردد في تناول موضوعات ووضع دراسات تتعلق بالآداب الأخرى وعلاقتها بأدبنا. وإن بدا للقارئ أن الكتاب الذي بين يديه الآن كتاب مقتضب فليعلم أن الدارس لا ينظر إلى الكم بقدر ما ينظر إلى الكيف وإلى القيمة العلمية والثقافية التي تقبع بين جنباته ناهيك عن الجهد في البحث والتدقيق والدراسة.

إنني أشيد بكل دارس وباحث غيور على الثقافة العربية والأدب العربي

وخصوصاً عند تناوله للدراسات التي تتخذ الآداب والفكر الأوروبي أو الغربي قاعدة ومحوراً لتبين من خلالها مدى قوة ومتانة الأدب العربي ومدى تأثير الآداب الأخرى به.

د. عادل عطا الياس

أستاذ الأدب المقارن ورئيس قسم اللغات الأوروبية
بكلية الآداب جامعة الملك عبد العزيز

المؤثرات العربية في شعر الشاعر الإنجليزي

جيفري تشوسر (١٣٤٠ - ١٤٠٠م)

في هذا البحث الموسوم بـ (المؤثرات العربية في شعر الشاعر الإنجليزي جيفري تشوسر^(١) ١٣٤٠ - ١٤٠٠م) نسعى إلى التحقيق من قضية تأثر هذا الشاعر الذي أصبح شعره نموذجاً يحتذى في الأدب الإنجليزي، من قضية تأثره بالأدب العربي الذي أصبح في تلك الفترة ذائعاً ومشهوراً في مراكز الثقافة الأوروبية لأسباب متصلة ببلوغ الحضارة الإسلامية المستوى الذي يمكنها من التأثير في الآخر فكراً وثقافة. ويدور نطاق هذا التأثير حول محورين هامين: الأول هو صلة هذا الشاعر

(١) جيفري تشوسر Geoffrey Chaucer، ابن تاجر إنجليزي يدعى جون تشوسر الذي توفي سنة ١٣٦٦م، ولد جيفري في لندن واختلف في تاريخ ولادته إلا أن الموسوعة Cham Bers's للأدب الإنجليزي تميل إلى اعتماد سنة ١٣٤٠م كتاريخ لولادة الشاعر، وكان في بداية حياته فارساً صغيراً في القصر الملكي مما جعل الملك إدوارد الثالث وابنه من بعده يخصصانه بكثير من العطف، وكان عمله سفيراً للقصر الملكي في إيطاليا تعبيراً عن تلك الرعاية الخاصة، ولقد كان اشتغاله بالأدب في الفترة التي قضها في إيطاليا موازياً لاهتماماته الأخرى، مما جعل الأدباء الإنجليز ينزلونه المنزلة التي ينزلها الإيطاليون لشاعرهم الكبير دانتي.

الإنجليزي ببعض رواد الأدب الإيطالي مثل دانتي وبتراش وبوكاشيو الذين أثبتت الدراسات العلمية تأثرهم بعناصر من الفكر الإسلامي والأدب العربي. ولا يغفل البحث وهو يتعرض لتأثر الشاعر الإنجليزي بملامح واضحة من الأدب الإيطالي، لا يغفل تلك القنوات التي تم فيها الالتقاء بين هذا الشاعر الإنجليزي ونظرائه من الشعراء الإيطاليين. ونرى أن فرضية تأثر تشوسر بالأدب العربي في هذا المحور تميل إلى الأخذ بالرأي الذي يرى أن المؤثرات غير مباشرة وتتم عبر وسيط آخر وهو اللغات الأسبانية والفرنسية وغيرها.

أما المحور الآخر فتدور فيه على إمكانية التأثير المباشر بالأدب العربي. فبعض الدارسين الغربيين يرى أن جزءاً من قصص تشوسر الشعري يمثل في سماته ذلك التأثير الذي أحدثه البناء الفني لقصة (ألف ليلة وليلة) العربية في الأدب الأوروبي، والتي بدأت نتيجة لجهود الترجمة في الانتشار والذيع مع بداية القرن الرابع عشر الميلادي. ويقود النقاش في هذه القضية إلى توقف ضروري عند تمثل بعض الشخصيات الفكرية والأوروبية لمضامين هذا العمل الإبداعي العربي (ألف ليلة وليلة) وانعكاس ذلك على إنتاجهم القصصي والشعري كما مثلنا لذلك بـ (حكايات جرم) للأخوين يعقوب (١٧٨٥ - ١٨٦٣م) في الأدب الألماني، (وحكاية الشتاء) التي استمد أيضاً الشاعر الألماني القصصي «كرستوف ماي فليند» (١٧٣٣ - ١٨١٣م) مادته القصصية فيها من مضامين هذا العمل العربي المشهور.

لم يكن تأثير الأدب العربي في الأدب الإنجليزي تأثيراً مباشراً بل كان يتم عبر وسيط آخر وهو اللغات الأسبانية والفرنسية وغيرها، وذلك لتجاور البلدان التي تحدث هذه اللغات بالحواضر الإسلامية وما صاحب هذا

التجاور من إعجاب بالأدب العربي وخصوصاً الجانب القصصي منه . وإذا كان هذا التأثير تم في مرحلته الأولى عن طريق شبه الجزيرة الليبيرية وتلك الإمارات الصليبية التي كانت تقوم في جزء من بلاد الشام، فإنه في مرحلته الثانية تمّ عن طريق آيرلنده واسكندنافيا، وربما كان ذلك عن الطريق التجاري الممتد بين بحر قزوين وبحر البلطيق^(١).

ظهرت آثار هذا التأثير بين الأدبين العربي والإنجليزي في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي في قصة الشاعر الإنجليزي (جيفري تشوسر) المعروفة باسم (حكاية الفارس الغلام Squires Tale)، والتي يدل مطلعها الشعري على حدوثها في بلاط خان المغول على نهر الفلجاء، أو كما يقول تشوسر نفسه: في السراي ببلاد التتار^(٢).

At Sarray, in the land of Tartarye Ther dewlte aking that
werryed Russ.

ويذهب (هاملتون جب) و(أدموند بوزورث)^(٣)، إلى أن الإشارة التي وردت في مطلع هذه القصة الشعرية تعود إلى عاصمة القبيلة الذهبية في جنوب روسيا، وفيها دلالة على التأثير بقصص ألف ليلة وليلة، والتي يحتمل يُعزى انتشارها في أوروبا إلى أولئك التجار الإيطاليين الذين كانوا يترددون على إقليم البحر الأسود.

(١) هاملتون جب، الأدب، تعريب عبد اللطيف حمزة، (تراث الإسلام، لجنة الجامعيين للنشر، القاهرة، ج١، ص ١٨٠).

(٢) Chaucer Complete Works, ed, Walter W. skeat (London-Oxford University Press, New York, Toronto. 1976) p 628.

(٣) C.E. Bosworth, the Influence of Arabic Literature on English Literature (Azvre, London, No.5, 1980, p15).

ومع تخصص الباحثين الإنجليزيين «جب» و«بوزورث» في الدراسات الأدبية إلا أنهما لم يبحثا في حياة «تشوسر» أو أبي الشعر الإنجليزي كما أطلق عليه الشاعر الإنجليزي (جون درايرن) وذكرته موسوعة الأدب الإنجليزي^(١)، أو (مؤسس اللغة الجميلة) كما دعاه «توماس هو كليف» (١٣٧٠ - ١٤٥٠م)، مما يمكن أن نستدل منه على تأثر مباشر بين هذا الشاعر الإنجليزي والبيئات الفكرية التي كانت تعتبر في عصره مصدراً مباشراً للثقافة العربية كفرنسا وإيطاليا مثلاً.

تشير المصادر التي تعرضت بالتفصيل لحياة (تشوسر) إلى أنه عمل في الخدمة العسكرية مما أهله لأن يكون أحد أفراد جيش إدوارد الثالث الذي غزا فرنسا عام ١٣٥٩م^(٢)، ولم يرجع (تشوسر) إلى بلده بريطانيا بعد هذا الغزو حيث بقي أسيراً لدى الفرنسيين لمدة تصفها المصادر الأدبية بأنها قصيرة - سنة واحدة تقريباً (١٣٥٩ - ١٣٦٠م) - مما ينفي افتراض تأثره باللغة الفرنسية في مدة وجيزة كهذه. ويرجع بعض الدارسين تردد كلمات فرنسية في كتابات (تشوسر) في تلك الفترة إلى الوسط الأدبي الإنجليزي والذي كان يشجع كثيراً على تعلم اللغة الفرنسية^(٣) بينما يربط عدد من النقاد بين استخدام (تشوسر) للتكنيك القصصي الذي يتكىء على التجارب المتخيلة في بناء بعض قصائده مثل (برلمان الطيور Parlement of fowles) و(كتاب الدوقة Book of the Duchess) و(بيت الشهرة The House

Chambers's cyclopaedia of English, liter ature, new Edition, by, david patrick (١) LL. D, london, and EDIN BURG: (W., R. chambers, limited 1901).

Amy Cruse, English Literature through the ages (George G Harrap, Co. L. T. D, (٢) London. Bombay, Sydney, 1928) p. 80.

F. St. John, Corpett, History of British Poetry (London: Gay and Bird, 1904) p. (٣) 75.

(of Fame)، وبين منابع الثقافة الفرنسية، وأن هذا التكنيك يعد ثمرة طبيعية لاتصال الشاعر بالأدب الفرنسي الذي عرف مثل هذه الأساليب الفنية والتي افتتن بها تشوسر إلى الحد الذي دفعه إلى ترجمة القصيدة الفرنسية الشهيرة (قصيدة الورد Le Roman de la Rose)^(١)، وهي قصيدة يمكن تصنيف تجربتها ضمن ما يسمى بالرؤية المتخيلة^(٢). وإذا كان الأدب الفرنسي قد ترك بصماته وملاحمه على جزء من إنتاج تشوسر الشعري فيما يتصل بقضية البناء الفني للقصيدة والمتمثل في استعماله للبيت المؤلف من ثمانية مقاطع أو في اعتماد الخيال مصدراً من مصادر التجربة وما يرتبط بذلك من عمق فلسفي وحوار مكثف بدا واضحاً، على وجه التحديد، في عمله الشهير (برلمان الطيور)، فإن هذا الأسلوب المقتبس قد أصبح موضع احتذاء من قبل بعض الشعراء الإنجليز في العصور التي تلت عصر «تشوسر»^(٣) وخير مثال لهذا الاحتذاء الذي يدل على مكانة «تشوسر» في تاريخ الأدب الإنجليزي هو الشاعر Thomas Warton توماس وارتن^(٤)

(١) Geoffrey Chaucer, the Frank lin,s Tale ed., A. V. C. Schmidt (Hodder and Stoughton, London, Sydney, Auckland, Toronto, 1980, p. 8.

(٢) يذكر بعض النقاد الغربيين أن هذه القصة الفرنسية، كعمل أدبي تأتي في الدرجة الثانية بعد الإنجيل من حيث عدد القراء، ولقد كان أسلوبها الأدبي المتميز «التخيل الشعري» سبباً رئيساً وراء شهرتها الأدبية في القرون الوسطى مما دفع تشوسر إلى ترجمة أجزاء منها: انظر:

Piero Boitani: English Medieval Narrative in the thirteenth and fourteenth centuries, translated by Joan Krakover Hall (Cambridge University Press, Cambridge, 1982) PP. 71-113.

(٣) Thomas Quayle, Poetic diction, Astudy of Elghteenth Centruy Verse (London, 1924, p. 86).

(٤) كان قساً لمدينة Basingstoke حوالي منتصف القرن الثامن عشر الميلادي وأستاذاً للشعر في أكسفورد، وقام بنشر ترجمة لعمل فيرجل Eclogues and Georgics.

انظر: Alan Bold, Long man Dictionary of Poets (Long Man Group Limited, 1985, PP. 298-99).

الذي يرى بعض النقاد الإنجليز حضوراً قوياً لعمل «تشوسر» المذكور (برلمان الطيور) في بعض إبداعاته الشعرية.

كانت صلة «تشوسر» بالبلاط الملكي في بلاده صلة قوية مما هيا له فرص القيام برحلات ديبلوماسية سرية في الفترة «١٣٧٠ - ١٣٨٠م كان من بينها رحلتان إلى إيطاليا. وقد حقق، إلى جانب مهماته الرسمية، بعضاً من رغباته الشخصية المتصلة بنزعه الأدبية، حيث قضى وقتاً أدبياً ممتعاً مع الشاعر الإيطالي بترارك (١٣٠٤ - ١٣٧٤م) والذي كان قد بلغ السبعين من عمره، وذلك في منطقة Padua شمال إيطاليا^(١) استمع فيه إلى بعض القصص الشعري الذي أصبح ذائعاً في الوسط الأدبي الإيطالي في تلك الفترة. وقد كان من نتائج ذلك الاتصال بمنابع الثقافة الإيطالية وقوع «تشوسر» تحت تأثير تيارات الأدب الإيطالي، وعلى وجه أخص التأثير بإنتاج الشعراء دانتى، وبترارك، وبوكاشيو^(٢). وبدا ذلك التأثير واضحاً في إنتاجه الشعري الذي أبدعه في الحقبة الأخيرة من حياته (١٣٧٢ - ١٤٠٠م)، حيث بدأ ممارسة نظم القصيدة التي تقوم على البيت المؤلف من عشر تفعيلات^(٣) وبدا هذا النظام الموسيقي والشعري واضحاً في مقدمة

(١) تشير المصادر الأدبية الإنجليزية إلى أن زيادة تشوسر إلى إيطاليا تمت في سنة ١٣٧٢هـ، حيث قضى ما يقرب من عام كامل متنقلاً بين عدة أماكن في إيطاليا، وكان من بينها القرية التي يقيم فيها الشاعر الإيطالي «بترارك».

انظر: English Literature Though the ages p. 81.

(٢) Henry Morley, First Sketch of English Literature (Cassell Petter Galpin, London, (٢) Paris, and New York) second Edition P. 110.

(٣) (نخبة من الأساتذة المختصين)، تاريخ الأدب الغربي (طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ج ١، ص ١٣٠).

(أسطورة النساء الصالحات The Legend of Good Women)، وكذلك في بناء قصيدته الأكثر شهرة (حكايات كنتربري Canterbury Tales)^(١) وفي أحد مقاطع هذه القصيدة تطالعنا الرموز الخاصة بالثقافة الإيطالية من شخصيات أدبية مثل (فرنسيس بترارك)، أو مواضع معينة حيث التقى الشاعر المذكور^(٢).

يذهب بعض الباحثين، ومنهم المستشرق الإنجليزي (هاملتون جب)، إلى أن القصص الخرافية الغنائية Chante - Fable نادرة الوجود في الآداب الأوروبية في حين أنها شائعة في الآداب العربية الشعبية. ثم إن من الآداب العربية ما كان موضوعه الرحلات وعجائب المخلوقات. وقد تركت هذه أثراً في الأدب الأوروبي، وحدث ذلك في عصر كانت فيه أوروبا تكاد لا تعرف السفر إلا بقصد الحج إلى الأراضي المقدسة. ولم يكن هناك بد من هذا النقل الشفوي الذي كان يصحب هذه الأسفار من ذبوع العناصر الخرافية وانتقالها إلى جهات بعيدة نائية. وبهذه العناصر كان شعراء إيطاليا

(١) يؤرخ بعض دارسي الأدب الإنجليزي لبداية كتابة «قصص كنتربري» بسنة ١٣٨٨م، أي قبل وفاة تشوسر بعامين كما يشيرون إلى أنه على الرغم من وجود خمسين نسخة خطية لهذه القصيدة إلا أنها جميعاً كتبت في تواريخ مختلفة من الخمسين سنة التي تلت وفاته انظر: English Literature through the ages, p. 85.

ولمزيد من التفصيل حول (قصص كنتربري) وبالتحديد حول التكنيك الشعري الواحد الذي ينتظم هذه القصيدة مثل الحكمة، والنتيجة وموقف الشاعر من عملية السرد، حيث تدور القصص حول موضوع شائع في الأدب الإنجليزي في تلك الحقبة وما تلاها وهو الزيارة أو الحج Pilgrimage

انظر: Helen Cooper, (the Girl with two lovers, : four Canterbury Tales) (Medieval studies) ed. P. L. Heyworth, Oxford, 1981, pp. 65-81.

(٢) English Literature Through the ages p. 82.

في القرن الثالث عشر الميلادي من أمثال «ماركو بولو» Marco Polo^(١) يزينون مواد كتابتهم. ومن المرجح أيضاً أن «بوكاشيو» Boccaccio، الذي عاش في القرن الرابع عشر الميلادي (١٣١٣ - ١٣٧٥م) قد استشف قصصه الشرقية التي ضمنها قصص (الديكاميرون Decamerone)، من تلك المصادر التي نقلت عن طريق المشافهة^(٢)، وخصوصاً أنه عرف في الحقبة التاريخية التي ظهرت فيها إبداعاته بأنه النموذج الفريد للأديب القاص "Sory Teller"^(٣).

وفي الوقت الذي يؤكد دارسو الأدب الإيطالي محاكاة «تشوسر» في كتاباته القصصية للأسلوب القصصي المتمثل في إبداعات «بوكاشيو»^(٤)، يرى بعض دارسي تاريخ الأدب الإنجليزي^(٥) أن الفكرة الأساسية لعمل تشوسر (قصص كنتبري) هي فكرة مستوحاة تحديداً من عمل «بوكاشيو» (الأيام العشرة The ten Days)^(٦)، بينما يميل بعض الدارسين الغربيين إلى

(١) (ماركو بولو) رحالة مشهور، ولد في أسرة عريقة في البندقية ١٢٧١م، اتصل بامبراطور الصين التتري في عصره وعمل له في سفارات عدة، دَوَّن وقائع الرحلات التي قام بها إلى الشرق في كتاب يعتبره الدارسون الأول من نوعه في كشف أسرار الشرق للعالم الأوروبي. انظر تراث الإسلام، ص ١٧٩، وكذلك:

Richard Garnett, the History of Italian Literature (London, William Heinemann), p. 105.

(٢) تراث الإسلام، ص ١٧٩ - ١٨٠.

(٣) The History of Italian Literature, p. 90.

(٤) Op. Cit. p.91.

(٥) F. St. John Corbett: A history of British Poetry (London, 1904) p. 74.

(٦) الموضوع الرئيسي لقصيدة بوكاشيو المعروفة باسم «الديكاميرون» الأيام العشرة والتي كتبها سنة ١٣٥٢م، هو أن مجموعة من الناس يقضون عشرة أيام في مقر ريفي قرب فلورنسا بإيطاليا ليقصوا مائة حكاية بعد تناول طعام العشاء، وقد تشبع تشوسر بفكرة بوكاشيو هذه وحاول =

رأي مضمونه أن جزءاً من قصص «تشوسر» الشعري يمثل في سماته تأثير البناء الفني لقصص (ألف ليلة وليلة) العربية في الأدب الأوروبي) والتي بدأت نتيجة لجهود الترجمة في الانتشار والذيع مع بداية القرن الرابع عشر الميلادي^(١) وإن يكن القارئ الإنجليزي - مع استثناء للفئة المثقفة - لم يتمكن من معرفة القصة والتفاعل معها إلا في بداية القرن الثامن عشر الميلادي عندما قام أنطوان جالاند Antoine Galland، أستاذ الدراسات العربية في الكلية الملكية بباريس، بترجمتها. وعن هذه الترجمة الفرنسية تم نقل هذا العمل الأدبي إلى اللغة الإنجليزية، إلا أنه في عام ١٨١١م قام الدكتور جوناثان سكوت Jonathan Scot، أستاذ الدراسات الشرقية - عندئذٍ - بالكلية الهندية الشرقية، بنشر طبعة منقحة من القصة وذلك بالرجوع إلى الأصل العربي. ويبدو أن صداقة جوناثان بالدكتور وايت أستاذ الدراسات العربية بجامعة أكسفورد كان لها دور في دفع الأول للاهتمام بالقصة العربية، ولكن الطبعة الإنجليزية التي حظيت برعاية علمية كبيرة هي الطبعة التي قام بنشرها المستشرق الإنجليزي المعروف «إدوارد وليام لين» Edward Lane سنة ١٨٣٩م^(٢)، ويؤكد هذا الرأي الذي يميل إلى ذيع القصة وتغلغلها بصورة مثيرة في المجتمع الأوروبي خلال القرن الثامن عشر الميلادي، ما ذهب إليه «محسن مهدي» أستاذ الدراسات العربية بجامعة هارفارد ومحقق كتاب ألف ليلة وليلة من أن السواح

= توظيفها في قصيدته «قصص كنتبري» مع اختلاف ظاهر في الأحداث والأمكنة والشخصيات.
انظر المصدر السابق: ص ٧٤.

(١) W. J. Courthope: A history of English Poetry (London, 1926) vol, 1, p. 285.

(٢) The Arabian Nights Entertain ments (Revised with Notes by the Rev. Geo Fyler Town Send), London, Friderick Wame and Co. And New York, Preface.

الأوروبيين ممن زاروا القاهرة خلال القرن الثاني عشر من الهجرة «القرن الثامن عشر الميلادي» كانوا قد عرفوا الكتاب مترجماً إلى لغاتهم من نسخ خطية اعتقدوا هم أيضاً أنها ناقصة، فجاءوا يبحثون عن نسخة كاملة منه^(١).

وإذا كانت البدايات لترجمة هذا العمل قد تركت آثارها - كما يرى البعض - في أعمال أديب وشاعر إنجليزي كبير مثل «تشوسر» فإن الترجمات الأخرى والمتتابعة قد تركت آثاراً مختلفة منها دفع بعض الشخصيات الإنجليزية المعروفة بنشاطها العلمي والفكري لزيارة الشرق خاصة الجزيرة العربية. ومن هؤلاء «سير ريتشارد بيرتن» (١٨٢١ - ١٨٩٠م) أحد المستشرقين الذين عرفوا بإجادتهم للغة العربية والذي أقدم بنفسه في أخريات حياته بالتعاون مع الدكتور «ستاين هوسر Steinhauser»^(٢) على ترجمة ألف ليلة وليلة. ولكن ظروفاً غامضة أدت في نهاية الأمر إلى دفع «بيرتن» لحرق أجزاء من هذه الترجمة^(٣) قبل إتمامها والتي يتوقع بعض الباحثين أن تكون ترجمة ذات قيمة كبيرة لمعرفة «بيرتن» العميقة بالشعر ولإقامته في بعض المدن العربية وخصوصاً دمشق والتي مكنته من معرفة المجتمع العربي، والتعاطف مع بعض قضاياها.

على أن قصص ألف ليلة وليلة لم يقتصر ذيوها والاهتمام بها وما

(١) كتاب ألف ليلة وليلة من أصوله العربية الأولى، (حققه وقدم له محسن مهدي) شركة ا. ي. بريل للنشر ليدن، ١٩٨٤، المقدمة ص ١٨ - ١٩.

(٢) Georgiana M. Stisted: the True life of Captain sir Rechard, F Burton, London. 1985, p. 399.

(٣) Ropt Irwin for th, un knowable, (the Times Literary Supplement, October 12- 18, 1990, pp. 1089 - 1090.

يمكن أن ينتج عنه من تمثل لها واستيحاء لعناصرها الفنية من قبل الأدباء والشعراء على المجتمع الإنجليزي وحده، بل اتسع نطاق ذلك ليشمل مجتمعات أخرى مثل المجتمع الألماني. فحكايات «جرم» Grimm للأخوين يعقوب (١٧٨٥ - ١٨٦٣م) في الأدب الألماني تدل على تأثرها الواضح بهذه القصص من خلال ما اعترف به المؤلفان في التعليقات على هذه الحكايات، يضاف إلى هذا أيضاً تأثر الشاعر الألماني القصصي «كريستوف ماري فيلند» (١٧٣٣ - ١٨١٣م) بقصص ألف ليلة وليلة حيث استمد منها مادة قصيدته القصصية (حكاية الشتاء)^(١).

نحن إذاً إزاء رأيين مختلفين ولكنهما يقودان إلى نتائج متشابهة: الأول يميل إلى أن «تشوسر» تنقسم حياته الأدبية إلى ثلاث مراحل: الأولى منها تمتد حوالي ثلاثة عشر عاماً (١٣٥٩ - ١٣٧٢م)، وهي مرحلة التأثر بالثقافة الفرنسية، ثم المرحلتان الأخيرتان، واللذان تصلان إلى حوالي ثمانية وعشرين عاماً (١٣٧٢ - ١٤٠٠م) وهي الحقبة الزمنية التي تأثر فيها الشاعر بإنتاج الشعراء الإيطاليين وعلى وجه أخص «دانتي» و«بوكاشيو» اللذين أثبتت الدراسات تأثرهما بعناصر من الفكر الإسلامي والأدب العربي. فدانتي كما أثبت المستشرق الأسباني أسين بالاثيوس سنة ١٩١٩م "Asin Palacios" تأثر في البنية العامة لملاحمة دانتي «الكوميديا الإلهية» بالعناصر الإسلامية^(٢)، كما أكد هذا الرأي بعد سنوات قليلة الباحثان «مونيوت سندينو» و«أنريكو تشير ولي» اللذان نشرتا الترجمات اللاتينية

(١) عبد الرحمن بدوي، دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي القاهرة ١٩٦٧م، و ط ٢، ص: ٨١، ١٠١، ١٠٢.

(٢) نذير العظمة، المعراج والرمز الصوفي (بيروت ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، ص ١٠١، ١٠٣).

والفرنسية لوثيقة معراج النبي ﷺ. وقد تمت هذه الوثيقة في القرن الثالث عشر الميلادي برعاية ملك أسبانيا «ألفونسو العاشر» وذهب الباحثان إلى أن وجود هذه الترجمات يدل على ذبوع قصة الإسراء والمعراج في جميع الأوساط الثقافية في عهد دانتي^(١)، كما أن الدراسة التحليلية لمضمون بعض أبيات هذه الملحمة تبرهن على تأثير واضح بالفكر الإسلامي. فالموضوع الرئيس للملحمة في رأي شيللا رالفز Shilla Ralphs تمثله أبياتها القائلة: (الإنسان جاء من عند الله ونهايته سوف تكون إليه)^(٢) وهو معنى لا يحتاج إلى إعمال فكر لردّه إلى عقيدة التوحيد التي جاء بها الدين الإسلامي الحنيف. أما بوكاشيو، فمع أن قصصه «الديكاميرون» لم تنل حتى الآن حظها من العناية والبحث، إلا أن الأثر العربي في هذه المجموعة واضح جداً حتى في اسم الكونت وهو (لوكانور) إذ إن هذا الاسم تحريف لاسم (لقمان الحكيم) الذي تنسب إليه حكايات عديدة جداً في الأدب القصصي العربي. ومن بين الحكايات المأخوذة عن العربية فيها، حكاية التاجر الذي عاد من الغربية، وتتضمن مغزى حكاية (عطيل) التي استوحاها شكسبير فيما بعد في مسرحية (عطيل)، كما أن الأثر العربي لم يكن حاضراً فقط في أعمال بوكاشيو بل تجاوزته إلى عدد آخر من الأدباء الإيطاليين مثل «سترابرولا Straparola» الذي ألف مجموعة قصصية بعنوان (الليالي الممتعة) وفيها تشابه واضح مع قصص عربية، خصوصاً قصص ألف ليلة وليلة. كذلك ألف بازيل مجموعة قصص بعنوان (الأيام

(١) صلاح فضل، تأثير الثقافة الإسلامية في الكوميديا الإلهية لدانتي (ط٢، بيروت ١٤٠٥هـ) ص ٣٩ - ٤٠.

(٢) Shella Ralphs, : Astudy in the nature of Dante Paradise (Manchester University, (٢) Press, 1959) p. 1.

الخمسة) فيها يروي قصصاً كانت تتناقل شفاهاً في إقليم نابلي وأخرى في إقليم أقریطش، وهي قصص تركية الأصول، وهذه بدورها عربية الأصول^(١). ومن خلال هذا الارتباط الفكري والتأثر الأدبي بين الأديب الإنجليزي «تشوسر» والأديبين الإيطاليين دانتي وبوكاشيو يمكن تفسير الملامح العربية في إنتاج تشوسر سواء كان ذلك في المضمون كما تدل عليه حكاية الفارس الغلام، أو في البناء الفني لقصص كانتري وأمثالها.

أما الرأي الآخر الذي تتشكل بداياته عند الباحث الإنجليزي W.J. Cour Thope^(٢)، والذي ينطلق من نظرة أشمل تخص الأدب الأوروبي في القرن الرابع عشر الميلادي الذي بدأ يتفتح على المؤثرات القادمة من الشرق العربي، وهي مؤثرات تأتي قصص ألف ليلة وليلة في مقدمتها، فلا يمكن بالتالي أن يشذ عن هذا التلاحق الفكري والتلاقي الحضاري أديب كبير مثل تشوسر الذي دل البناء القصصي لديه على تأثره بأساليب هذا العمل الإبداعي العربي.

من هذه المنطلقات العلمية التي قادنا إليها البحث في حياة الشاعر تشوسر يمكننا القول: إن عمل الشاعر في البلاط الإنجليزي لم يكن حدثاً عابراً يدور في نطاق محدد لا يتجاوزه، بل كان، من منظور حضاري، عملاً هياً للجزيرة الإنجليزية الفرصة لاستقبال المؤثرات الفكرية من بلدان أوروبية أخرى مثل فرنسا وإيطاليا والتي كان تجاورها مع بلاد الأندلس يشكل نقطة التقاء وتأثر الحضارة الغربية بالحضارة الإسلامية والعربية عامة

(١) دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي (مصدر سابق) ص ٦٨ - ٦٩.

(٢) A History of English Poetry, p. 285.

ويدخل ضمن ذلك اللغة العربية والأدب العربي اللذان وصلا إلى مرحلة ناضجة تغري بالتمثل والاحتذاء^(١).

في سياق هذا الانفتاح الغربي على حضارة الإسلام وتراثه، والذي ساعد على وجوده تسامح الإسلام وعدالته ورحابة آفاقه الفكرية، تمكن تشوسر، الذي يتميز بعقلية متفتحة، من التقاط بعض المؤثرات الفكرية التي رأى فيها الأدباء الإنجليز تفرداً وخصوصية يعكس احتفاءهم بها وكشفهم لأهميتها في الرقي بلغتهم وأدبها، ووصف «توماس هوكيلف» السابق لشخصية «تشوسر» بأنه مؤسس اللغة الإنجليزية الجميلة، كما يدل على هذا التفرد أيضاً ولع الشعراء الذين أتوا من بعده باستخدام القافية الملكية Rhyme Royal^(٢)، وهي القافية التي أخذها عن الشعراء الإيطاليين^(٣) الذين تحققنا من عملية تأثرهم بالأدب العربي وتمثلهم لبعض نصوصه ومحاولة تقليدها والنسج على منوالها.

(١) حول أثر اللغة العربية في اللغتين الإسبانية والبرتغالية وتأثير الكتابة العربية النثرية في الكتابات الإسبانية.

انظر: أميريكو كاسترو، حضارة الإسلام في أسبانيا (ترجمة الدكتور سليمان العطار، القاهرة، ١٩٨٣، ص ٤١، ٤٥، ٧٤).

(٢) تاريخ الأدب الغربي (مصدر سابق) ص ١٢٩، ١٣٠.

(٣) عن تأثر تشوسر بالقافية في الشعر الإيطالي وخصوصاً عند دانتي وبوكاشيو، انظر:

J. Norton Smith, Chaucer's Anelida and Arcite (Medieval studies) pp. 81. 99.

شكسبير في اللغة العربية

الترجمة الآمنة تهدينا متعة أدبية :

تظل مقولة الجاحظ التي أطلقها في كتابه (الحيوان) حول استحالة ترجمة الشعر إلى غير لغته رأياً يدور حوله النقاش، وتتشعب فيه المذاهب فمن قال: إنه على الرغم من الخصوصية التي تجعل ثقافة المجتمع معبرة عن شخصيته بحيث يتعذر قبولها كاملة عند مجتمع آخر له شخصية أخرى، فإن ما يمكن نقله، حتى وإن قل، له فائدته عند المنقول إليه نتيجة للتفاعل مع الثقافة المحلية وما عساها تؤديه من خصوبة وغنى، وإلا لما أحدث ما نقل من الأدب العربي إلى أوروبا من تأثير كبير وما أحدثه من روائع الفن هناك مثله، والعكس وارد كذلك، فكم أحدث ما ترجم من أدب الغرب إلى اللغة العربية من إضافة إلى الأدب العربي.

الشعر والترجمة :

ونجد الشاعر عبد الوهاب البياتي يُفرق بين نوعين من التجربة الشعرية التي يمكن ترجمتها إلى لغة أخرى فهو يرى أن الشعر العربي الذي يعتمد على سحر اللغة المكتوب بها يفقد جماليته، لأننا لا نستطيع نقل هذا السحر إلى لغة أخرى، أما الشعر الذي لا يعتمد على سحر اللغة وحده، وإنما يعتمد على العناصر الأساسية المكونة للتجربة الجمالية الشعرية، فإنه

لا يفقد الشيء الكثير من جماليته عند الترجمة؛ وفي مثل هذه الحال تصبح العملية عملية إبداع في إبداع.

القدرة الإبداعية :

ضرب البياتي مثلاً على القدرة الإبداعية بأعماله الشعرية التي ترجمت إلى اللغات الروسية والفرنسية والإسبانية والإنجليزية. فقد جاءت هذه الترجمات - على حد قوله - مقبولة من قبل قراء اللغات التي ترجمت إليها، وعزا ذلك إلى تخصص هؤلاء المترجمين في الشعر، وإلى معاشتهم التجربة الشعرية عند بدايتها. ولعلي لا آتي بجديد إذا ما أكدت رأي الشاعر «البياتي» حول ضرورة معاشة التجربة الشعرية، مضيفاً إلى ذلك توافر القدرة الإبداعية عند المترجم الذي تتمكن أدواته الفنية من معرفة مكامن السحر في اللغة المنقول منها واللغة الأخرى المنقول إليها، وأن وجود الكثير من النماذج السيئة للترجمة الشعرية لا ينفي وجود نماذج أخرى في الترجمة تتصف بالقوة والإجادة - حتى إذا ما صافحت عين القارئ خالها شعراً كُتب في اللغة الفطرية للقارئ نفسه، وهذا ما حدث لي عندما قرأت لأول مرة النص الشعري :

أو تَرْضِينَ يَوْمَ صَيْفٍ شَبِيهَاً	أنت أَبْهَى مِنْ يَوْمِ صَيْفٍ وَأَعْدَلْ
كَمْ يُقَاسِي غَضُّ الْبَرَاعِمِ فِي الصَّيْفِ	إذا الرِّيحُ نَكَلَتْ مَا تَنْكُلُ
وزَهِيدٍ فِي طَوْلِهِ أَمَدُ الصَّيْفِ	قَصِيرٌ عَنْ أَمْنِيَاتِ الْمُؤْمَلِ
قد تَلْظَى عَيْنُ السَّمَاءِ سَعِيراً	يَجْعَلُ الصَّيْفُ فَوْقَ مَا تَتَحَمَلُ
وكثيراً مَا يُظْلِمُ الذَّهَبُ الْـ	— لَامِعٌ فِي نَوْرِ وَجْهِهَا الْمُتَهَلِّلِ
أَوْ يُؤَلِّي عَنْ كُلِّ رَبَّةٍ حُسْنِ	كُلِّ حُسْنٍ كَانَتْ بِهِ تَتَجَمَّلُ
يَسْلُبُ الْحِطُّ سَحْرَهُ أَوْ عَوَادِي	الدَّهْرُ وَالدَّهْرُ قَلْبُ يَتَحَوَّلُ

إنما أنتِ صَيِّفٌ حُسْنُكَ باقٍ خالِدٌ سِحْرُهُ فلا يتبدَّلُ
لا ولن تفقدي جمالك يوماً أو تعيكَ الأيام فيه فيذبَلُ
كذب الموت إن تشدَّقَ فخراً لن تكوني في من أظَلَّ وذُلَّلُ
بل سينمو في خالداات القوافي لك مَجْدٌ على الزمان مؤثَّلُ
طالما استنشَقَ الهواءُ وظلت تبصر العينُ ما يدورُ ويجري
سوف يحيا في الناس شعري هذا وستحيين في الخلودِ بشعري

إننا إزاء نص تتوافر فيه الخصائص التي تجعل منه قطعة أدبية يمكن
الاستمتاع بها قراءة، وحفظاً واستشهاداً، لا ينقصها سمو في المعنى، ولم
يتطرق إليها خلل في وحدة أبياتها، ولربما خالها القارئ قولاً عربياً خالصاً
وإننا لمضطرون أن نخرج القارئ من هذا الخيال الذي ذهب إليه، والوهم
الذي وقعت فيه نفسه، فما هذه القطعة إلا ترجمة أمينة لقصيدة الشاعر
الإنجليزي «ويليام شكسبير» William Shakespeare (١٥٦٤ - ١٦١٦)
ونصها الإنجليزي هو:

Shall I compare thee to a summer's day?
Thou art more lovely and more temperate:
Rough winds do shake the darling buds of may,
And summer's lease hath all too short a date:
Sometime too hot the eye of heaven shines,
And Often is his gold comploxion dimm'd:
And every fair from fair sometime declines,
By chance, or nature's changing cours untrimm'd;
Byt they eternal summer shall not fade,
Nor lose possession of that fair thou ow'st,

Nor shall death brag thou wander'st in his shade,
When in eternal lines to time thou grow'st;
So long as men can breathe, or eyes can see,
So long lives this, and this gives life to thee.

معايشة شكسبير :

إذا كان شكسبير قد حظي بالخلود في لغته وبين بني جنسه للحياة التي بعثها في أدب اللغة الإنجليزية فإن مُترجم هذه القصيدة هو أحد رواد الشعر العربي الحديث إنَّه البروفيسور وليد ناصر عرفات الذي عايش تجربة شكسبير الشعرية معايشة حقيقية مكنته من سبر أغوارها ومعرفة أبعادها، إضافة إلى التمكن اللغوي، والعمق الثقافي في كلتا اللغتين. هذه العوامل وغيرها جعلت الشاعر وليد عرفات ينقل إلينا نصًّا شعريًّا خالدًا لم نستمتع فقط بقراءته ولكنه ترك أثرًا قويًّا في نفوسنا، وأثار العديد من الأسئلة حول أدباء الترجمة الحرفية التي تطالعنا أعمالهم الرديئة بين الحين والآخر، ثم يدَّعون أنهم منظرو الفكر وأصحاب الرأي الأول والأخير في أقوال «كوليردج» Coleridge، «وودز ورث» Words Worth، و«ت. س. إليوت» T. S. Eliot.

الطبيعة الإنسانية :

ويذكر الدكتور زكي نجيب محمود في (فلسفة النقد) أن الشاعر إما أن يكون من الطراز الذي يريد أن يقود ويهدي، وإما أن يجيء وفي يده مجهر يُسلِّطه على الطبيعة الإنسانية كما هي كائنة لا كما ينبغي لها أن تكون. وقد كان شكسبير من هذا الفريق الثاني وبصحبه شعراء من أمثاله: زهير بن أبي سلمى، وأبو العلاء المعري، وسوفو كليز، ودانتي وغيرهم،

فقد كان - أي شكسبير - شاعراً كاشف الغطاء عن طبيعة الإنسان كما فطرت، متعقباً إياها إلى جذورها التي تضرب في الأغوار العميقة، تلك الأغوار التي لم تخرج بعد إلى مستوى الإفصاح باللفظ فظلت خلجات يحسها الإنسان ولا يجد لها العبارة التي تصوغها فتجليها إلى أن يسعفها الشعر.

وفي القصيدة التالية التي قام بترجمتها من اللغة الإنجليزية الدكتور وليد عرفات يسلط شكسبير مجهره الشعري على الطبيعة الإنسانية في حالة صراعها مع الحياة قوة وضعفاً، غنى وفقراً، قناعة وطمعاً، فرحاً وحُزناً. ثم لا ينسى الشاعر في غمرة هذا التصوير الدقيق الذي اهتمت إليه أدواته الفنية المبدعة أن يصف لنا أثر الحب الخالص المتجرد من النوازع المادية، المتطلع إلى الآفاق العلوية، وأثره في معالجة النفس البشرية من ظلمة ألمت بها، وضعف انقادت إليه، وصنيع تجرعت من ورائه كأس الحسرة والندامة: يقول الشاعر وليد عرفات:

عندما ابتلي من الحظ سخطاً	وألاقي من أعين الناس شذرا
فأواري عن أعين الناس دمعي	باكياً وحشتي وأندبُ سرا
عبثاً أسمعُ الناس صراخي	إن في أذنّها عن السمع وقرا
وإذا ما رأيت حالي وحظي	فتوالت مني الشتائم تترى
وتمنيتني كمن هو أغنى	أملا ضاحكاً وأسعد دهرًا
وتمنيت مثل ما نال حسناً	ومن الصحب مثل ما نال وفرا
وإذا قل بالذيذ رضائي	بعدما سرنني فصار الأمرا
فتشهيت تارة علم هذا	وتمنيت حذق ذلك أخرى
ثم هانت نفسي وكدت أراها وسط	هذه الأفكار أحقر قدرا

ربما جئت خاطراً في فؤادي فإذا جئت بدل العسر يسرا
فأغتنى كالطير طارت صباحاً نحو —————
إنه ذكر حبك العذاب إما جـ —————
فأراني ولست أرضى بحالي عـ —————
 رش «قارون» أو ممالك كسرى

ونورد أيضاً النص الإنجليزي الأصلي لقصيدة شكسبير

When in disgrace with fortune and men's eyes
I all alone beweep my outcast state,
And trouble deaf heavn with my bootless cries,
And look upon myself, and curse my fate,
Wishing me like to one more rich in hope
Featur'd Like him, like him, with friends posscs'd,
Desiring this man's art, and that man's scope,
With what I most enjoy contented least;
Yet in these thoughts myself almost despising,
Haply I think on thee, - and then mystate,
Like to the lark at preak of day areseing
From sullen earth, sings hymns at heaven's gate;
For thy sweet love rememper'd such wealth prings
That then I scorn to change my state with kings.

أنثروبولوجيا (جيمس فريزر) وشكلانية

(ليني شتراوس) من منطلق نقدي أوروبي

أجرى الأستاذ عبد الرحيم الرفاعي حواراً مع المستشرق الفرنسي المعروف «جاك بيرك» قبل وفاته بعدة أسابيع ونشر في الصفحة الثقافية بجريدة الشرق الأوسط ١٦/٨/١٩٩٥م^(١). وقد كان حديث «بيرك» يحمل نصائح عدة لكثير من الكتاب العرب الذين ينظرون إلى ثقافتهم وتراثهم بشيء من الازدراء بينما يُعلون من شأن الثقافة الغربية. ولقد ربط «بيرك» بين المشاكل الاجتماعية الموجودة في الغرب وما يترتب على ذلك من تأثيرات ثقافية... يقول بيرك: «مجتمعاتنا الغربية تعاني من الترهل في الكائنات والأشياء، ولهذا فكثير من مشاكل الغرب تبدو أوضح لأنها وصلت إلى نقطة المأزق أو عدم القابلية للمزيد من الحلول التي استنفدت». وعن فقدان العامل الروحي وأثره على المجتمع الغربي وثقافته يذكر «بيرك»: «لقد انتهت مراحل الاستغلال والاستعمار، ونهب الثروات وحلت - الآن ساعة الحقيقة ومواجهة المشاكل التي تتكاثر وتنهال فما إن تُحل واحدة حتى تهل أخرى وهكذا، انظر مثلاً إلى المشاكل الخاصة بالبطالة الآن وما لها من تأثيرات ثقافية، وهذا يكلف مجتمعاتنا

(١) وصية «جاك بيرك» للشعوب التي خدم ثقافتها بعنوان (لا يفِل الحديد إلا الحديد).

الصناعية الشيء الكثير، وها هي أمام أعيننا تصاب بالجذب المادي والروحي، فالتكلفة عالية جداً.

وعندما وجه الأستاذ الرفاعي سؤالاً عن مدى حاجة ثقافة بلدان العالم الثالث إلى نظام جديد، كانت إجابة «بيرك» في منتهى الوضوح: إن المثقفين العرب يخطئون الطريق إذا ما تخلوا عن ثقافتهم المحلية وأنه يجب ألا يعلقوا الآمال الكبيرة على الجوائز العالمية التي كشف «بيرك» عن دوافع منحها بين الحين والآخر لبعض الكتاب والمثقفين العرب. كما قال «بيرك»: «إن الاهتمام بالثقافة المحلية هو الطريق نحو التخلص من التخلف الثقافي، ونبد السعي وراء ما يسمى بـ (العالمية) فالعالمية تأتي عن طريق اللهات وراء اصطناع شيء بعيد عن واقع البلد الذي يعيشه المواطن والمثقف والمنتج».

الأستاذ «الرفاعي» ناقش مع الباحث «بيرك» الجوائز التي تمنح لبعض الكتاب العرب كجائزة «الغونكور» وهي أبرز الجوائز الأدبية في فرنسا وغيرها من الجوائز العالمية، فنجد الرجل الغربي يتحدث بصراحة متناهية عن حيثيات منح هذه الجوائز فيقول «بيرك»: أما الاعتراف العالمي بثقافة العالم الثالث - إذا حدث - فسيكون بمثابة جائزة للتعويض عن المهانة التاريخية الطويلة، فضلاً عن زيادة المهام في الحاضر. فهناك أمم عديدة تسعى بطريقة أو بأخرى نحو صبغ التنمية بالنزعة الثقافية والأخلاقية».

ولعلّه من المفيد أن نشير إلى أن الملاحق الأدبية في صحيفتي (لوفيغارو) و(لوموند) الفرنسيتين فتحت قبل سنوات قليلة نيران النقد اللاذع على ما أسمته بـ (قبيلة الغونكور)^(١).

(١) انظر كتاب «نحن والآخر» إصدارات نادي المدينة المنورة الأدبي ١٤١٥هـ/م ص (٢٧-٣٠).

ويتركز النقد الموجه إلى هذه الجائزة وجوائز فرنسية أخرى، مثل: (رينودو) و(ميدسيس) و(فيمينيا) و(انتيراليا) في أن دور نشر معينة، وهي (غاليمار) و(غراسية) و(سوى) هي التي تحظى بنشر الروايات الفائزة وذلك لأن هناك ارتباطاً قوياً بين الأعضاء القائمين على منح الجائزة ودور النشر التي أتينا على ذكرها. فبعض هؤلاء الأعضاء ينشر إنتاجه الأدبي فيها وبعضهم يعمل مستشاراً في أقسامها الأدبية المتخصصة، بينما يحتل قسم منهم موقعاً إدارياً فيها.

وقد هاجم «بيرك»، في حديث له مع مجلة «الوسط» العربية التي تصدر من لندن، الأسلوب الذي استخدمه «سير جيمس فريزر»^(١) (Sir, James Frazer ١٨٥٤ - ١٩٤١م، في كتابه المعروف (الغصن الذهبي) دراسة في الأديان المقارنة. (The Golden Bough: A Study in Comparative Religion "1890" في دراسات المجتمعات غير الغربية - دراسة عقائدية واجتماعية - لكن «فريزر» كما يذكر جورج واطسن

(١) سير جيمس فريزر، ولد في مدينة «جلاسكو» الاسكتلندية سنة ١٨٥٤م، بدأ دراسته في مدرسة (Helens Gurjh) التي هيأت له لدخول جامعة «جلاسكو» ثم «كيمبردج» وأصبح بعد ذلك عضواً في الكلية الدينية المعروفة باسم (Trintty college) درس «فريزر» القانون، ولكنه لم يمارس مهنة المحاماة، ثم تحول لدراسة علم «الأنثروبولوجيا» Anthropolgy وهو علم يبحث في الجنس البشري وأعرافه وعاداته وتقاليده، بدأ في إخراج سلسلة كتابه المشهور «الغصن الذهبي» سنة ١٨٩٠م، واستمر في إخراج بقية أجزاء الكتاب التي بلغت «١٣» مجلدات بما في ذلك ثبت المراجع والفهارس العامة للكتاب، وأنهى عمله هذا سنة ١٩١٥م، وحظي بلقب «فارس» سنة ١٩١٤هـ، ولقد أخرج أعمالاً أدبية أخرى، كما ترجم الأدبي المعروف (Pausanias) سنة ١٨٩٨م، وكانت وفاته سنة ١٩٤١م.

أخذت الترجمة عن كتاب:

(George Watson) لم يكن موضوعياً في دراسته التي نأى بها عن المجتمعات الغربية وجعلها تنصب على من يدينون بديانات أخرى غير المسيحية، كما استثنى منها البنيويين الذين يتوهمون أنهم أسمى من أن تتعرض سلوكياتهم لمثل هذا المنهج الذي طبقه - بازدواجية واضحة - كل من ليفي شتراوس، وسير جيمس وجورج فريزر».

يقول واطسن: «وتشترك حجج فريزر، وليفي شتراوس في صفة هامة وهي أنه يكفي أن نعرض لمحظور في الأكل أو العلاقات الزوجية، أو لعقيدة دينية بالتحليل المقارن لكي نجعل هذه الأشياء غير قابلة لأن يعتنقها العقل المتمدن الراقى. لقد كانت البنيوية دائماً عقيدة راقية بكل ما في هذه العبارة من غرور وتعالٍ إذ قدمت لمعتنقيها إحساساً بالثقة وبأنهم أسمى من أن يرتكبوا تلك الحماقات التي توجد في سلوك القبائل النائية والأمم المتخلفة التي يدرسونها من بعيد، وكانت بديلاً راقياً لمبدأ تفوق الرجل الأبيض في القرن العشرين. ولكي ندرك صحة ذلك ما علينا إلا أن نتصور مقدار دهشة «فريزر» وكان أستاذاً بجامعة «كيمبردج» لو اقترح أحد عليه أن يطبق أسلوبه في التحليل على طريقة الحياة الأكاديمية في كيمبردج، ومقدار دهشة ليفي شتراوس الأديب الباريسي لو اقترح عليه أحد أن يحلل عالم الأدباء المحترفين متبعاً في ذلك منهجه نفسه، حقاً إن مثل هذا الاقتراح له إمكاناته الكوميديّة، ولكن ليس من المرجح أن يتتبع أحد هذه الإمكانيات خارج ميدان الصحافة الفكاهية. فالمحرمات، مثلها في ذلك مثل الخرافات، من الأشياء التي لا توجد إلا عند الآخرين، فالبداؤون يفعلون هذا، والبرجوازيون يفعلون ذلك. أما البنيوي فممن المقصود أن يشعر، وهماءً، بأنه أسمى من كل ما يفعله هؤلاء. وهذا الافتراض بالسمو الوهمي

للبنوي هو في رأينا افتراض لم يكتسبه عن جدارة^(١).

يطلب الناقد الإنجليزي الكبير «واطسون» بإنصاف الحضارات الأخرى، والابتعاد عن الأوهام التي نتجت عن افتقاد الحيادية في المناهج التي يستخدمها الألسنيون، كما أدت إليه تلك الهالة الوهمية التي أحيطت بالفلسفة (البنوية) إبان ظهورها في فرنسا.

يقول جورج واطسون، عن اقتناع ووعي كبيرين بأهمية النقد الصادق: «لقد آن الأوان أن يقوم رجل ويدافع علناً عما في الحضارات التي ندرسها من صدق المحتوى، تلك الحضارات التي نهيب بالشباب أن يدرسوها. فلا يزال موقفنا هذا من الأمور التي لا يسهل قبولها الآن، ومن الحواجز التي تقف عقبة في طريق قبوله، ولع الناس بأشكال الأسطورة، وبتراكيب الأحاسيس، بحيث تستحوذ بنية هذه الأشياء على عقولهم استحواداً كاملاً والذي يجعله حاجزاً في نظرنا هو فرط اهتمامه بالتركيب، أو البنية، وإصراره على استخدام ألفاظ مثل «الأسطورة» و«الإحساس»^(٢).

ويبدو أن موقف النقد الإنجليزي السلبي من البنوية وما يترتب عليها من أفكار، ومحاولة تشويه تراث الأمم الأخرى بتطبيق المنهج البنوي الأسطوري، إنما يعود للموقف الإنجليزي العام من التوجه اليساري، سواء كان ذلك في شكل سياسي أو فكري. وإذا كانت البنوية لم تطرح نفسها سياسياً إلا أنها كانت تنطوي على جوانب أساسية قد لا تظهر هذه الجوانب ظهوراً مباشراً أو تضيع في تعقد المناقشات وتشعبها، لكن تأثير

(١) Modern Literaryt Thought by George Watson, Heidelberg 1978.

ترجمة د. محمد مصطفى بدوي ص (٦١-٦٣).

(٢) المصدر السابق ص (٦٤).

«البنوية» في العديد من المجالات الثقافية لا يقل عن تأثيرها السياسي . فلقد زودت البنوية في بدايتها اليسار الفرنسي بنظرية شبه سياسية، نظرية لم تتناقض مع التوجه الاشتراكي لهذا اليسار ولكنها تباعدت به عن التورط المباشر في الماركسية^(١) .

وإذا كان الدارسون الغربيون لا ينفون تلك الصلة العميقة بين البنوية - كمنهج فلسفي وليس مذهباً أدبياً نقدياً إجرائياً كما يحاول بعض الكتاب العرب أن يوهمنا بذلك - وبين التوجهات اليسارية المرفوضة في كثير من بلدان العالم الغربي، - في الحقبة التي ظهرت فيها الفلسفة البنوية، فإننا لن نصاب بدهشة أو استغراب عندما نقرأ هذه العبارة لناقد إنجليزي كبير حين يقول: «ليس النقد الإنجليزي - الأمريكي مستعمرة من مستعمرات باريس» ولذلك فلم يتحول الكثير من نقاد العالم المتحدث بالإنجليزية إلى «البنوية» في الخمسينيات والستينيات، على حين أن أولئك الذين اعتنقوا البنوية لم ينتجوا أكثر من مؤلفات قدموا فيها أفكار أساتذتهم من باريس . وعلى الرغم من أن البنوية هي الآن مدرسة ميتة لا تظهر إلا في هيئة أشباح لنظرية، فإن بعض هذه الأشباح لا تزال تتردد على التراث النقدي بشدة تستحق المناقشة وهي - غالباً - تقلل من شأن عقلانية الإنسان^(٢) .

كشف النقاد الإنجليز بأن رفضهم للمنهج (البنوي) إنما هو ناتج من استخفاف (البنوية) بالعقائد الدينية البشرية . فكل ما جاءت به هذه العقائد

(١) إديث كيروزيل عصر البنوية من (ليني شتراوس إلى فوكو) ترجمة د. جابر عصفور ط «٢» الدار البيضاء ١٩٨٦م ص (١٤) .

(٢) الفكر الأدبي المعاصر: جورج واطسن .

- ترجمة د/ بدوي ص (٦٠) .

إنما يتحول لدى البنيويين إلى أسطورة لا معنى لها. ومن هنا جاءت نداءاتهم التحذيرية بأن الاهتمام بالعقائد البشرية لا بد من أن يؤدي في نهاية الأمر إلى التقليل من شأن هذه العقائد فليس بوسع من له اهتمام جاد بما في الالتزامات الدينية وغيرها من صدق وكذب أن يهتم أولاً بما تؤلفه هذه الالتزامات من أنماط وتماثلات. فلم يؤمن الناس كما آمنوا، ولم يعيشوا ويموتوا من أجل إيمانهم لكي ينظر أحفادهم إلى معتقداتهم نظرة جمالية مستعلية، كما لو كانوا لا يجدون فيها شيئاً أهم من مجرد نمط في سجادة أو أشكال في نسيج تطريزي لقد كانت البنيوية ساحة للعب ليس أكثر في نهاية الأمر. ويزداد ذلك وضوحاً عندما ننظر إلى اهتمامها - أي البنيوية - السائدة بالأسطورة^(١).

ويمضي الناقد «واطسون» في تحليل أعمق للمذاهب الشكلية وقي مقدمتها البنيوية قائلاً: «هناك مواضع شبه كثيرة بين البنيوية وبين النزعة الشكلية في القرن الثامن عشر التي اختصرها وردز ورث»^(٢) (William Wordsworth «١٧٧٠ - ١٨٥٠»). باعتبارها ضيقة الأفق ومجانبة للحق، ويشتم فيها رائحة المكتبات الخاصة، فهي عاجزة عن أن تدرك أن الشعر كما قال «وردز ورث». «هدفه الحقيقة». ولا يقصد بذلك أنه يستهدف مجرد إحساس واهن بالإخلاص أعجزه الوعي المزيف وإنما يستهدف الحقيقة ذاتها. إن إدراك «وردز ورث» هذا في غاية الخطورة لحيوية الأدب ولاحتفاظه بسمته الطيبة، ولكنه إدراك ثبت أن البنيوية قد عجزت عادة عن

(١) المصدر السابق ص (٦٤).

(٢) انظر ترجمته في Longman Dictionary of Poets, by Alan Bold, 1985, p. 310.

بلوغه^(١)، ولهذا حذر ناقد يجمع بين الثقافتين العربية والإنجليزية وهو الدكتور محمد مصطفى بدوي، من مخاطر هذه الشكلية التي شاعت في الغرب في العقدين الماضيين، وبدأت تنتقل إلى العالم العربي، أو في بعض أجزائه على الأقل، ولاسيما في شمال أفريقيا. وكان الباعث على هذا التحذير الواعي بالخلفية الحضارية والثقافية، لكل من الأدب الغربي والأدب العربي، هذا الباعث هو أن الشكلية المتمثلة في نظريات «كالبنوية» سبق أن تجاوزها الأدب العربي في مسيرته الطويلة، فمجرد التفكير في تطبيقها أو محاذاتها في أي صورة من الصور هو عامل جمود لا تطور، وباعث تعثر لا تقدم، كما يحاول البعض أن يوهمنا به من دون أدنى دراية بتطور الأدب ومناهجه النقدية. ويوضح د. بدوي هذه الحقيقة في عباراته التالية: «بل نحن نرى - أي في المذاهب العربية الشكلية - أنها أخطر علينا نحن العرب مما هي على الفرنسيين أو الأمريكيين أو الأوروبيين بعامه، فالشكلية والذاتية والإغراق في المصطلحات الفنية في الدراسات الأسلوبية ليست بالغربية على تراثنا النقدي العريق، وعلى حين أن الذاتية لم تتطور وتتعد، بل ظلت تنحصر في أحكام شخصية على شيء من السذاجة؛ فإن الشكلية والمصطلحات الفنية تطورت تطوراً بالغاً ونتج منها تراث نقدي عظيم، سرعان ما تحول إلى تراث بلاغي عقيم. ولا يزال بعضنا على الأقل يذكر تضخم المصطلحات البلاغية من بداية نشأتها إلى أن تصل إلينا كمحسنات لفظية صرفة تعلمناها في مدارسنا على نحو آلي وطلب منا التعرف عليها في النصوص على نحو آلي أيضاً، ولذلك فالعودة بنا إلى هذا الموقف الشكلي التصنيفي المجرد مهما كان

(١) جورج واطسن، ٦٨ - ٦٩.

مقنعاً في أحدث الأزياء ستكون وبالأعلى على نقدنا وأدبنا معاً^(١)، ^(٢).

ولا يقف الناقد «بدوي» عند توضيح الأثر السيئ للشكلية على الأدب وفنونه، بل إنّه يدعو إلى مناوأتها والوقوف أمام تسللها إلى دائرة النقد الأدبي المعاصر صراحة - وهو الأستاذ بجامعة الإسكندرية سابقاً والأستاذ بجامعة أكسفورد حالياً والذي سبق له أن ترجم كتابي «رتشاردز» - (مبادئ النقد الأدبي) و(العلم والشعر) وكتاب (الحياة والشاعر) للشاعر الناقد «ستيفن سبندر» ويبني الناقد «بدوي» دعوته هذه على أسس علمية متينة وواضحة فهو يقول: «إنها دعوة يلزمنا مناوأتها لأننا نختلف عن الغرب في أننا ما تخطينا الشكلية الجامدة إلا حديثاً جداً وفي القرن العشرين بالذات، وبالتالي لم يغش الموقف النقدي الآخر الذي يؤكد التجربة والعنصر الحيائي في الأدب مدة كافية بحيث يمكننا أن نلائم بين الشكل والحياة، كما يفعل بعض النقاد في الغرب على أحسن الافتراضات»^(٣).

ويحذر الباحث «بدوي» من الدعوة التي أخذت طريقها إلى الإبداع العربي منادية بالغموض. وكأنني بالدكتور «بدوي» يرى أن بعض النقاد والأدباء العرب يتلقفون كل دعوة أو موضوعة غربية دون أن ينظروا إلى السياقات الحضارية والفكرية التي انبثقت منها هذه الدعوات والتقليعات الأدبية التي تجاوزها الأدب الغربي نفسه، فيما ظل البعض في عالمنا العربي متمسكاً بها أشد التمسك داعياً إليها من غير وعي حضاري ناتج من

(١) مقدمة د. بدوي، لكتاب الفكر الأدبي المعاصر، ص ٨ - ٩.

(٢) المقدمة لكتاب «واطسون» ص ٩.

(٣) عبد الله عبد الجبار، الغزو الفكري في العالم العربي، المكتبة الصغيرة ط ١، ١٣٩٤هـ -

تراث الأمة نفسها. وتبدو كلمات «بدوي»، النابعة من معرفة دقيقة بتطور مراحل الإبداع والنقد في الحضارتين العربية والغربية التي أطلقها مع بداية الثمانينيات الميلادية، تبدو كلماته اليوم أكثر رسوخاً بعدما انقشع الوهم عن أعين بعض الذين جذبتهم الأضواء الاصطناعية لمجلتي (شعر) و(مواقف) اللتين استشرف الأستاذ الناقد الكبير عبد الله عبد الجبار بُعد ما ينشر فيهما عن الروح العربية الأصلية، وحذر مثل د. «بدوي» من الدعوة إلى الغموض غير المطلوب^(١).

يوضح الأستاذ عبد الجبار موقفه كناقد واع بما يجري في عملية الإبداع في اللغتين العربية والإنجليزية - وأدونيس يتصور اللغة مثل آنية مليئة بأشياء ماضية، ويقول: «أول ما أعمله أن أفرغ هذه اللغة من محتواها وأحاول أن أشحنها بدلالات جديدة تخرجها من معناها الأصلي، ثانياً أعدل علاقتها بجاراتها، ثالثاً أغير جذرياً النسق الموضوعية فيه، وبهذه الأفعال الثلاثة يخيل إلي أنه يمكن أن أبتكر لغة جديدة». ويعلق الأستاذ عبد الله عبد الجبار على مقولة أدونيس هذه بموضوعية وتجرد وهو يشعر - أي أدونيس - بأن هذا ما يعوق الاستجابة لشعره، وعلى ذلك فنحن بإزاء فعل واع لإفراغ اللغة من مضمونها الأصلي وتغيير العلاقات بين مفرداتها، بل إن الغموض هدف مطلوب لهذه المدرسة، هذا الغموض - غير المطلوب إبداعاً ونقداً، هو ما أشار إلى عبثيته د. بدوي، عندما قال: «كذلك لن يفيدنا أن ننحرف في تيار موضوعة الحديث ونجري وراء موضوعة النقد الجديد الفرنسي في حين ظهوره في الخمسينيات الميلادية» التي تنزع نحو

(١) المقدمة لكتاب الفكر الأدبي المعاصر.

الانغلاقية والغموض حتى إننا نجد رائدها «رولاند بارت» Roland Barthes^(١) ينادي بأن الوضوح قيمة بورجوازية طبقية يجب أن يتخلص منها التفكير المتحرر».

(١) لمزيد من المعرفة عن هذه القضية يمكن الرجوع لكتاب «بارت» المعروف باسم «النقد والحقيقة» ترجمة إبراهيم الخطيب ط ١ ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

بين الأدبين العربي والإنجليزي

يعيش كثير من الإنتاج الفكري والأدبي، لعدد من الدارسين، بمعزل عن بيئاتهم الطبيعية التي يجب أن يتأثروا بها في موضوعاتهم التي يتناولونها، وتتأثر به فيما يثير هذا الإنتاج من نقاش، ويبعثه من حوار، وينميه من قدرات على معرفة ما تزخر به الحياة من صراع حضاري وفكري. وهذه الأدوات العلمية هي التي تمكن الفرد، في هذه الحياة، من بناء ذاته بناء قوياً. وهذا البناء ضروري لمعرفة الخيوط الدقيقة التي تفصل بين ما يمكن قبوله وما يمكن رفضه، وخصوصاً في مجال ما يسمى بالعلوم الإنسانية التي تحاول كل أمة إلباسها الأطر الخاصة بها، وتسخيرها لخدمة معتقداتها ومنطلقاتها.

ولعل إنتاج الزميل الدكتور عدنان وزان الذي يتوزع بين حقول متعددة، يأتي في مقدمتها الأدب المقارن^(١)، وتاريخ الاستشراق^(٢)

(١) انظر - مثلاً - كتابه باللغة العربية الصادر عن جامعة أم القرى بمكة «مطالعات في الأدب المقارن» وكتابه الآخر الصادر باللغة الإنجليزية عن الجامعة نفسها ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

Comperative Essays in literature.

(٢) الاستشراق والمستشرقون، العدد ٢٤ من سلسلة «دعوة الحق» الصادرة عن رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة.

وفنون القصة^(١) والرواية والمسرح^(٢).

هذا الإنتاج على الرغم من غزارته وعمقه، يصدق عليه فكرة الإنتاج الذي يتنفس في غير بيئته، ويعيش بعيداً عن سربه الأصلي. ويمكن عزو ذلك إلى ابتعاد الوسائل الإعلامية، كالصحف والمجلات، عن حقل الدراسات العلمية، وتركه للدوريات المتخصصة، التي لا تجذب إلا اهتمام فئة معينة من القراء إذا ما قيس ذلك بعدد المتابعين، إلا أنه ينقص بعضها القدرة على المواءمة بينها وبين ما تتطلع إليه الملاحق العلمية والصفحات الثقافية حتى يتحقق لهذا الإنتاج الاهتمام المطلوب الذي يضعه بين فنون الإبداع الثقافي والفارق الأدبي.

لقد كان آخر إنتاج الدكتور الوزان إضافة علمية هامة في ميدان الدراسات المقارنة، بين الأدبين العربي والإنجليزي، حيث بحث الزميل الكريم موضوع الشخصية اليهودية في مسرحيات كل من الكاتب الإنجليزي «وليام شكسبير» والكاتب المسلم «علي أحمد باكثير».

فعلى الرغم من مرور قرون عديدة على بروز أديب اللغة الإنجليزية «شكسبير» إلا أن إنتاجه يظل مجالاً خصباً لآراء النقاد والمتخصصين في دراسات الشعر والمسرح، وذلك يدل على مدى اهتمام الغرب برموزه الفكرية، التي لا ينقطع عن التواصل معها روحاً وثقافة.

(١) هناك كتابان صدرا للمؤلف باللغة الإنجليزية حول موضوعات القصة والرواية وهما:

The Study of Fiction (1404-1984) Oedipus Rex in Arabic and Greek Legacy: Acritique (London, 1987).

(٢) انظر مثلاً كتابه الصادر في سلسلة ينابيع الثقافة عن جامعة الإمام محمد بن سعود، وبتقديم فضيلة الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، بعنوان «مفهوم المسرح الإسلامي والمسرح الغربي» ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م.

وقد وقف الدكتور الوزان وقفات علمية فاحصة عند مسرحية شكسبير المعروفة (تاجر البندقية) وتأثرها في فكرتها بمسرحية الكاتب الإنجليزي «كريستوفر مارلو» Christopher Marlowe^(١) (١٥٦٤ - ١٥٩٣م) والمعروفة باسم (يهودي مالطة). وكما عمل اليهود من خلال نفوذهم السياسي والاقتصادي والإعلامي على صرف الدراسات الأدبية الحديثة عن موضوع مسرحية «شكسبير» لما تمثله من صورة سيئة ولكنها حقيقية، ولما تبعته من أفكار منفرة، ولكنها صادقة عن المجتمعات اليهودية، وخصوصاً في علاقاتها مع المجتمعات الأخرى، التي تختلف عنها عقيدة وفكرًا، فإنهم أيضاً - اليهود - أقدموا على تفسير أحداث المسرحية بما يتفق مع ميولهم ونزعاتهم، كما تثبتته المقدمة التي كتبها «جون راسل براون John R. Brown» للمسرحية المذكورة، الصادرة - باللغة الإنجليزية - عام ١٩٨٤م.

في هذه المقدمة يحاول محقق المسرحية أن يوحي بأن الشخصية الرئيسية في المسرحية شخصية «شيلوك» Shylock، هي من اختراع «شكسبير» نفسه. ولا يمكن لأحد أن يناقش نوايا اليهود أو بواعثهم، اعتماداً على سلوكيات هذه الشخصية^(٢). بينما تنبئ محاولة كاتب المسرحية عن هدف واضح يتمثل في نقل صور من أحداث المجتمع

(١) تعتبر مسرحية «مارلو» يهودي مالطة "The Jew of Malta" التي كتبها في فترة ما بعد سنة ١٥٨٨م، ولم تنشر إلا سنة ١٦٣٣م من أبرز إنتاج هذا الكاتب المسرحي، انظر:

The Oxford Companion to English Literature-Third Edition.-Edited 1946, Oxford, p. 497 98 - (the Merchant of Venice, London and New York, by John Russell Brown- Methuen, 1984, p. XXXvii).

(٢) هي مجلة تعنى بكشف تاريخ اليهود وتحذر دائماً من مغبة سيطرة اليهود على كثير من شؤون المجتمع البريطاني، وتعرض نتيجة لهذا النهج لكثير من المصاعب والحملات، وتحمل المجلة هذا الاسم باللغة الإنجليزية: "Nationalism Today".

الإيطالي، وما كان لليهود من دور مرسوم في بث الشرور والانحرافات والربا بين سكانه الأصليين.

كما تعرض «براون» لقضية استنزاف اليهود لدماء الأمم الأخرى وخصوصاً من المسيحيين، وذلك لاستخدام هذه الدماء في تحضير الفطير المقدس، فيرى أنها تدخل في باب الأسطورة. بينما يؤكد الرحالة الإنجليزي «سير ريتشارد بيرتن» Sir Richard Burton (١٨٢١ - ١٨٩٠م) في أحد كتبه الممنوعة - في الوقت الحاضر - من التداول حقيقة هذا الطقس اليهودي، وأنه عاين - أي بيرتن - عن طريق التجربة الشخصية الأحداث المرعبة لهذا الطقس وربما كان الكتاب المحظور الذي قرأت الإشارة إليه قبل سنوات في «مجلة الحزب القومي البريطاني»^(١) هو كتاب «بيرتن» المعروف باسم (تجارب شخصية في سوريا)^(٢) Personal Experience in Syria والذي كان انعكاساً لتجربة الكاتب الخاصة، حيث عمل قنصلاً في دمشق^(٣) في الفترة ١٨٦٩ - ١٨٧١م.

كثيرة هي تلك الأسئلة الحيوية المتصلة بالشخصية اليهودية، وسلوكياتها المنحرفة أو الشائنة، التي يطرحها هذا الكتاب. ولكنني أحسب المؤلف - كما ذكر الدكتور عبد الواحد لؤلؤة - في المقدمة، يريد من

Georgiana. M. Stisted-the True Life of Captain Sir Richard F. Burton london, (١) 1985, Appendix.

The Oxford Companion, p. 122. (٢)

The Truel, Life, of Captain Sir, Richard. F. Burton, (By, Georgiana, M. Stisted, (٣) london, 1985).

وانظر كذلك مقالة: Robert, Lrwin

Apassion, For, the unknowable (the Times, Literary, Supplement, No: 4567, October, 12-18-199011.

القارئ أن ينظر بعينه، ويحس بقلبه، ويعود إلى النصوص؛ لذا فإنني أترك كثيراً من الأسئلة التي تتشكل في ذهن القارئ عن هذه القضية إلى تجربته الذاتية في الكشف عن النصوص المتصلة بها، ومرجعيتها التاريخية وقيمتها الأدبية.

من يرسم الصورة العربية في المخيلة الغربية؟!

يرى بعض الدارسين أن تأثير الحركة الصهيونية في السياسة العالمية كانت له جذوره العميقة في مجالات الفكر والثقافة، وهو ما تحاول هذه الدراسة الكشف عنه، من خلال الآثار العلمية التي عبر مؤلفوها - من خلالها - عن منطلقاتهم الفكرية تجاه هذه الحركة العنصرية التي تستهدف القضاء على الوجود العربي والتراث الإسلامي^(١).

نقف اليوم عند شخصية من الشخصيات التي حاولت أن تقاوم الإغراءات والضغوط الصهيونية، وهي شخصية المفكر والسياسي البريطاني إرنست بيفين Ernest Bevin^(٢) مما جعله، نتيجة لهذه المقاومة الطبيعية المنبعثة عن رؤية واضحة وفكر متفرد، غرضاً لعدد من المحاولات الرامية لرسم صورة غير حقيقية عن شخصيته ومواقفه واتجاهاته.

كان بيفين يقف موقف العداء من الوسائل التي تستخدمها الحركة

(١) لمعرفة مزيد من التآمر الصهيوني على الأمة الإسلامية، انظر مؤلفات اليهودي - غير الصهيوني - إسرائيل شاهاك، ومنها على سبيل المثال:

The Zionist plan the middle east-belmont massachusetts 1982.

(٢) كان يشغل منصب وزير الخارجية البريطاني في حكومة «اتلي Attlee» العمالية، التي قادت بريطانيا بعد الحرب العالمية الأولى ١٩٤٩ - ١٩٥١م انظر:

Mark, Stephens Unskilled Labourer and World States Man. London, 1985.

الصهيونية لتحقيق أهدافها وطموحاتها، ويصنفها ضمن الحركات العنصرية الشاذة^(١) إلا أن السلاح القوي الذي كانت الصهيونية تتذرع به في الأوساط الاجتماعية والثقافية الأوروبية في حقبة ما بعد الحرب العالمية الأولى، وهو العمل على التذكير بالمذابح النازية، جعل يبين يبدو بهذه العقلية المتفتحة والصَّارمة المتميزة كأنه عدو - من المنظور الصهيوني - لليهود Antisemite^(٢) وهو ما استغلته الأوساط اليهودية، في بريطانيا، وهي تهمة شنيعة تلصقها به، مضيعة إليها أنه المفكر والسياسي الوحيد، في تلك المدة، الذي ينحاز لوجهة النظر العربية في القضية الفلسطينية، بينما كان يبين - في حقيقة الأمر - يبحث عن صيغة حيادية تلتزمها الحكومة البريطانية، في أثناء حقبتها الانتدابية، ترضي الجانبين اليهودي والعربي^(٣). كما كان يلقي بتبعة توتر العلاقات بين الجانبين البريطاني والعربي إلى الإفراط اليهودي في الضغط على الجانب البريطاني، لتحقيق المطامع الصهيونية في أرض فلسطين^(٤).

لم يسلم «يبين» على مرور حقبة طويلة على الانسحاب البريطاني من فلسطين، وقيام الدولة الصهيونية، بصورة غير شرعية، ومن دون أحقية تاريخية ثابتة - لم يسلم هذا الصوت المتميز من هجوم متتابع تشنه عليه الحركة الصهيونية، من وقت إلى آخر، بعد وفاته. حدث هذا في أيلول (سبتمبر) عام ١٩٧٠م، في الاحتفال الذي أقامته الجمعية الصهيونية التابعة

Christopher, Mayhew and Michael Adam, the Middle East Cover-Up. London (١) 1975 p 17.

Post-Victorian Britain 1862-1951, london 1982, p 468. (٢)

David Wains, A Sentence of Exile Conflict, 1897, 1977, London p 91.(٣)

Post Victorianp, 468. (٤)

للحركة العمالية بمناسبة مرور خمسين عاماً على تأسيسها، وعلى مسمع من زعيم الحزب - آنذاك - هارولد ويلسون Harold Wilson^(١) وكان قد تولى ذلك الهجوم على بيفين عضو من أعضاء الحركة العمالية يدعى اين ميكاردو Ian Mikardo^(٢).

اتهم ميكاردو «بيفين» بأنه لم يكن عدواً للصهيونية فقط ولكنه عدو لليهودية أيضاً وأنه كان يكوّن مع عدد من العاملين في مكتب الشؤون الخارجية، مجموعة من الصبيان الذين كان لثقافتهم المتدنية أطر متميزة يشتركون فيها مع العرب، كالتطلع إلى «الرومانسية» وحب الخيول، كما أن هجومه تضمن تهماً خلقية حاول ميكاردو إلصاقها بالأمة العربية، مما يدل على مدى الحقد الذي تنطوي عليه شخصية هذا المفكر البريطاني.

ولا بد أن نشير إلى أن ميكاردو ينطلق في حماسه للحركة الصهيونية من توجهه اليساري، الذي يدخل ضمن دائرته المعروفة، في الفكر البريطاني المعاصر، جملة من الشخصيات، ذات الميول الثقافية والفكرية المتعددة. ومن أبرز هذه الشخصيات: المفكر والمنظر العمالي مايكل فوت Michael Foot^(٣). الذي يبدو الأثر الصهيوني واضحاً في منطلقاته

(١) د. عاصم حمدان: التآمر الصهيوني الصليبي على الإسلام، دعوة الحق - العدد ٨٥، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م، ص ١٤.

(٢) كان عضواً عاملاً في حكومة الظل العمالية، ويقوم - دوماً - بدوره الصهيوني في مجلس العموم البريطاني بالدفاع عن القضايا الصهيونية، كما حدث في عام ١٩٨٣م، بعد وقت يسير من الغزو الإسرائيلي حيث طالب بقتل مكتب منظمة التحرير في لندن.

(٣) كان يعمل رئيساً لتحرير صحيفة «ستاندر المسائية» ثم صحيفة «تريبون» Tribune ثم انتقل - بعد ذلك إلى المجال السياسي في عام ١٩٤٥م، ورشح رئيساً لحزب العمال بين ١٩٨٠-١٩٨٣ انظر:

الفكرية، ومواقفه السياسية، فلقد دافع - في مطلع حياته - عن الإرهابيين اليهود الذين كانوا يرتبطون بمنظمة «الهاغاناه» وهي منظمة سرية عسكرية قامت بأعمال إرهابية في فلسطين المحتلة في أثناء الانتداب البريطاني، مما دفع بالحكومة البريطانية لاعتقال بعض أعضاء المنظمة في عام ١٩٤٦م^(١).

كما أنه لم يُخفِ ميّله لليهودية عند حديثه في كتابه (ديون التكريم) عن شخصية الكاتب الروائي والزعيم اليهودي «بينجمن دزرائيلي» Benjamin, Disraeli الذي يعدّه الدارسون مبشراً بالتعاليم الصهيونية، منذ ظهور روايته (الرؤى)^(٢) عام ١٨٣٣م أي قبل قرابة خمسين عاماً من ظهور الصهيونية كحركة سياسية. كما أن فوت كتب في صحيفة «الأوبزرفر» تحليلاً لمذكرات المفكر دينيس هيلي Denis, Healey التي صدرت عن دار مايكل جوزيف Michael Joseph تحت عنوان (أجمل أيام حياتي)، The Time, of My, Life. ولم يجد نقداً يوجهه لهذا الكاتب الذي عمل في مرحلة سابقة سكرتيراً في مكتب إرنست بيفين Ernest Bevin إلا أنه لم يتعرض - أي هيلي - لمواقف بطله بيفين من المجتمع اليهودي في بريطانيا وتطلعاته التلمودية في أرض فلسطين، وبما أنها من وجهة نظر «فوت» مواقف سلبية^(٣)، أخفقت في بلوغ المستوى الذي كانت تطمح إليه مآرب اليهود وأنصارهم، فإنه كان من واجب هيلي - كما يرى فوت - أن يُدوّن مواقف الجانب الآخر من القضية نفسها، وهي مواقف الاتجاه اليساري

(١) David Childs, Britain since 1945, London 1984 p. 49.

(٢) Michael Stapleton, the Cambridge Guide to English Literature., Cambridge University Press 1985 p. 293.

(٣) Michael Foot, Retrospective Wisdom, Observer News Paper, 15 October 1989 p. 49.

المتمثلة في كتابات ريتشارد كروس مان R. Cross Man واينورين بيفان،
وصحيفة (تريبون Tribune) التي كان يشرف على تحريرها فوت بنفسه،
وهي مواقف وكتابات لم تكن تُعنى بأكثر من إظهار الولاء المطلق للحركة
الصهيونية، ولكن ضمن مظهر خلاب وزائف يدّعي العدالة وينادي
بالمنهجية .

الصلة بين الروائي الأمريكي

«بول بولز» Paul-Bowles والكاتب محمد شكر

شهدت الثمانينيات الميلادية موجة جارفة لنقل أعمال شخص ينطق بالعربية يدعى - محمد شكري - وهو أقرب إلى الأمي منه إلى المتعلم فضلاً عن أن يكون مثقفاً أو أديباً أو روائياً كما يحلو له أن يصنف نفسه. فقد قام الروائي الأمريكي الشهير «بول بولز» Paul-Bowles بصياغة ترجمة ذاتية له. كما أقدم الأديب طاهر بن جلون على ترجمة كتابه الموسوم (الخبز الحافي) إلى الفرنسية «١٩٨٠م». وقامت المخرجة «آني ديفيت» بمسرحته وعرضه على خشبة مسرح باريس (١٩٨٣م)، وإضافة إلى (الخبز الحافي) فقد ترجمت أعمال أخرى لشكري مثل: (الشطار) و(مجنون الورد) و«الخيمة» إلى بعض اللغات العالمية مثل: الإيطالية، والألمانية، والأسبانية^(١).

هل هو كاتب قصة ورواية؟

ما أسهل أن يطلق الكاتب على نفسه لقب قاص أو روائي، كما فعل

(١) انظر: محمد شكري: استمرار العالمية، صحيفة الاتحاد الاشتراكي المغربية، الخميس، ٢٨/

محمد شكري عندما أصدر كتابه (الخبز الحافي). فقد جعل من هذا النص في وقت واحد «سيرة ذاتية - روائية - شطارية»، وهو خلط عجيب تنبه له بعض النقاد المتميزين مثل الناقد المغربي سعيد يقطين عندما سئل في مقابلة صحافية معه هذا السؤال: «أين نضع محمد شكري في مسيرة الرواية المغربية؟ فكانت إجابة «يقطين»: حجم عطاء شكري لا يتوازي مع ما أحرزه من شهرة لأن الكتابة عن الذات ليست كالكتابة عن الآخر»، وشكري حتى الآن يكتب عن نفسه، والسيرة الذاتية ليست هي الرواية، فمحمد شكري كاتب جيد للسيرة الذاتية^(١).

هذا تصنيف لأعمال شكري من ناقد يُعد من أعرف الناس به. ولو رجعنا لأي مصدر لوجدنا التعريف الحقيقي للعمل القصصي. فهذا الناقد الدكتور محمد غنيمي هلال يؤكد على أن العمل القصصي كالعمل المسرحي، لا بد من توافر الحدث فيه. والقصة تهتم على الأخص بالوصف، لا أقصد وصف الأشياء، ولكن وصف الحياة والأشخاص ومجال الأحداث التي يبررها، وتهتم كذلك بصراع الشخصيات النفسي في هذا المجال لتحقيق ما يقومون به من أعمال، وللقصة في معناها الحديث أهمية حاضرة، حتى إذا ما عالجت الماضي لم يكن ذلك تغنياً بالماضي فحسب، كما في الملحمة - مثلاً - بل لا بد أن تكون لهذا الماضي أهمية حاضرة، أي إنه ماضينا الذي ينير جوانب حاضرننا، أو يكون قالباً عاماً لقضاياها، أو يدفع به إلى الأمام^(٢).

(١) انظر: أخبار الأدب المصرية، العدد: ٣١، الأحد ٢١ شعبان ١٤١٦هـ، الموافق ١٤ يناير ١٩٩٦م.

(٢) انظر: النقد الأدبي الحديث، د. محمد غنيمي هلال، ط، ١٩٨٢، ص ٤٩٢.

ويعترف «شكري» في لقاء أجراه معه الكاتب إدوارد الخراط بأن عمله (الخبز الحافي) وثيقة اجتماعية أكثر منه عملاً أدبياً، فكان يقصد أنه قام بعملية شبه تسجيلية لفئة اجتماعية منسحقة، ضمنها هو وأسرته^(١).

ولقد أصبحت وثيقة (الخبز الحافي) عملاً متداولاً بين الناس، وصعق الناس على مختلف مستوياتهم الثقافية لما تضمنه هذا العمل من تشويه متعمد للمجتمع العربي على يد رجل أقرب ما يكون إلى الأمية والجهل منه إلى العلم والمعرفة. وهذا التشويه هو الذي دفع الكاتب الأمريكي «بول بولز» Paul-Bowles إلى ترجمة هذا العمل الرديء إلى اللغة الإنجليزية. ويعترف «شكري» في الثمانينيات الميلادية - وهذه أقواله مدونة في مجلة (عيون المقالات) المغربية، يقول «شكري» بصراحة متناهية وفي لغة لا تحتمل التأويل، أو التنصل: الناشر بيتر أون كان قد سمع من «بول بولز» شذرات عن حياتي المتشردة فاقترح عليه أن يطلب مني كتاباً عن سيرتي الذاتية، الحقيقة أنني كنت أريد أن يظهر لي أول كتاب بأي ثمن لأثبت لنفسي أنني صرت كاتباً وعندما طلب مني «بول بولز» كتابة «سيرتي الذاتية» قلت له فوراً، ولكنها مكتوبة، وهي عندي في الدار منذ فترة - ويعترف «شكري» أنه كان يكذب على بولز - فيقول: «طبعاً لم تكن لي منها جملة واحدة مكتوبة، ولكنها كانت مكتوبة في ذهني». أيّ ذهن هذا الذي يتحدث عنه شكري؟ وإذا كان «بولز» اهتم بهذا العمل لأسباب خارجة عن قيمة «شكري» وأعماله من ناحية أدبية محضة، فإن شكري بعد حين يتهمه (إلى بول) بالكذب. يقول شكري حول هذا الموضوع: «كنت أنا و«بول بولز» نستغرق يومين أو أكثر في ترجمة الفصل الواحد، إلى

(١) عيون المقالات، ٣، ١٩٨٦ الكيان والمكان، «مقابلة مع محمد شكري، ١٣١-١٤٠».

الإنجليزية بينما أكون قد كتبت الفصل الذي يليه. كنت أُملي عليه الإسبانية التي يجيدها، وأحياناً تسعفني الجملة بالفرنسية، أما اللغة الدارجة التي يذكر «بول بولز» أنه نقلها مني فهو قول كاذب»^(١).

وإذا كان من البديهي أن «شكري» لم يتعلم إلا في مرحلة لاحقة من حياته، وأضحى مدرساً في المدرسة الابتدائية كما يثبت ذلك ما أورده بنفسه في عمله التي أطلق عليه اسم (الشطار) فإن رواية «بولز» الذي يذكر فيها أنه نقل عن «شكري» عمله شفهيّاً باللغة الدارجة هي الأقرب إلى الواقع. ويعترف «شكري» في لقاء آخر معه أن «بولز» نقل عمل شاب آخر لم يكن يعرف القراءة والكتابة، فلقد كان يملي على «بول» حياته باللهجة المغربية الدارجة، وبما أن «بول بولز» قد تعلم قليلاً اللهجة المغربية فقد نقلها بطريقته إلى اللغة الإنجليزية^(٢).

ويحفل العمالان (الخبز الحافي) و(الشطار) بكثير من الكلمات الدارجة، وإن كان العمل الأول أكثر تجسيداً لهذه الظاهرة من الأعمال الأخرى اللاحقة. في (الخبز الحافي)، ينفر صاحب الذوق الأدبي الخالص من تلك المشاهد الشاذة التي يحاول شكري تسويقها في زمن طاعون العصر «الإيدز»، وهذا التقزز وذلك النفور هو الذي جعل شكري في مرحلة لاحقة يتهرب من كون (الخبز الحافي) تمثل سيرته الذاتية كما اعترف للكاتب «إدوارد الخراط»، ونشر ذلك في مجلة (المقالات)، فنجده أخيراً يقول: «سيرتي الذاتية ليست سيرتي الشخصية بقدر ما هي تصور لنموذج الطفل المغربي أو المراهق أو الشاب. ويعترف في المكان نفسه

(١) المقالات ٣، ١٩٨٦م، ص ١٣٤.

(٢) انظر: محمد شكري في زمن الأخطاء، عكاظ، ٢٣ جمادى الآخرة ١٤١٦هـ، ص ١٥.

بجهله وأميته قائلاً: «فتوقفت عندما بلغت العشرين من عمري» بعد ذلك لا نعرف المرحلة الحقيقية لتناقض شكري الواضح إذ يقول: «بدأت أتعامل مع بعض الرموز في العالم، وهي مرحلة التعلم، ذهبت إلى مدينة العرائش ودرست هناك أربع سنوات فأصبحت معلماً»^(١).

قرأت (الشطار) فلم أر شخصاً يحقق على والده وأسرته كما يحقق شكري، ولا أتصور كاتباً مهما كانت درجة أخلاقه من الانحطاط والإسفاف أن يصل إلى ما وصل إليه صاحب (الخبز الحافي) و(الشطار) وغيرهما، فهو لا يجوب بفكره إلا عوالم الانحلال، والشذوذ، والسلوكيات الفاضحة التي ادّعى «شكري» أنها «تصور نموذج الطفل المغربي»، وبالتالي العربي والإسلامي من وجهة النظر الأخرى التي تولي هذه الأعمال اهتماماً بالغاً وتسعى لتعميمها على العالم كله. ولعمري هي بعيدة كل البعد عن عالمنا الغربي والإسلامي.

إن شكري شيخ متصاب، وأميّ فتح عينيه على عالم الأضواء من خلال عالم الرذيلة، واكتشف الشهرة من خلال تسليطه الضوء على بؤرة ضيقة ومحصورة في المجتمع الذي عايشه ومن خلال سعيه الدؤوب من خلال أمانيه الغارقة في بحر الظلمة والفساد، أن تعم تلك الرؤية مساحة البلاد العربية كافة. إنها مراوغة كاذبة يجب علينا توضيح أبعادها المغلفة بطابع أدبي مزيف، موقنين بأن نقل أعمال شكري لعدد من اللغات العالمية لا يمثل تقدير الغرب لثرائنا الأدبي وأعمال أدبائنا الإبداعية بل هو سعي لتشويه صورة المجتمع العربي والإسلامي في أعين الغربيين. وإذا كان

(١) انظر: محمد شكري في زمن الأخطاء، عكاظ، ثقافة، ٢٣ جمادى الآخرة ١٤١٦هـ/ ١٦ نوفمبر ١٩٩٥م.

الرحالة الغربيون قد قاموا بهذه المهمة من قبل، وظلت الصورة النمطية للعربي والمسلم مستمدة من أحاديث الرحالة وحكاياتهم الملفقة في كثير من الأحيان - حتى العصر الحاضر - فإننا قد كفينا الغرب مؤونة تحمل الصعاب فقد ظهر من بني جلدتنا من يفوق الغرب - وعندما أقول الغرب، فأعني قطاعاً خاصاً منه، وشريحة معينة من شرائحه فقد ظهر منا من يفوقه حقداً، ويتميز عليه حمقاً ولجاجة، وينافسه سوءاً مضمرأً، وكتابة فضائية شاذة. وبإمكان بعض المتربصين بنا السوء أن يصافحونا مهنتين على ظهور كُتاب وأدباء يغدرون بآمتهم وتأريخهم في وضح النهار وعلى مرأى من الجميع دون خجل أو حياء.

التآمر الصهيوني الصليبي على الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ
الْحَكِيمُ﴾ (البقرة: ٣٢)

تقديم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فقد كانت سنين عجافاً في تاريخ الأمة الإسلامية والعربية تلك التي تمتد ما بين ١٤٠٠ - ١٤٠٦ هـ = ١٩٨٠ م - ١٩٨٦ م، ويشاء الله أن تكون هي السنين التي قضيتها دارساً في جامعات بريطانيا، تنقلت فيها بين أكثر من جامعة، وعشت في أثنائها تلك الفواجع التي تركت آثارها وندوبها على نفس كل فرد مسلم يهمله مصير أمته، وتقلقه صروفها وأحداثها.

فلم أكد أمضي عاماً واحداً حتى قامت إسرائيل في عام ١٤٠١ هـ بضرب المفاعل النووي العراقي، واستمعت يومها - إلى رئيس الولايات المتحدة الأمريكية السابق - رونالد ريغان - وهو يدافع عن هذا الاعتداء الغاشم ويصفه بأنه كان دفاعاً عن النفس، وعندما قامت رئيسة وزراء بريطانيا - «مارغريت تاتشر» في مجلس العموم لتستنكر ذلك الاعتداء، فإذا بأصوات ترتفع من المقاعد الخلفية للمجلس على ذلك الاستنكار وتؤكد حق المعتدي في ترويع البلد الآمن.

ولم ينقض عام على هذا الحادث الأليم حتى وجدت إسرائيل مجالاً

آخر تؤكد من خلاله فرض وجودها العسكري ونظريتها التوسعية، ونحن في عام ١٤٠٢هـ والعام الذي غزت فيه إسرائيل أرض لبنان، وكان عالم الشتات في التاريخ الفلسطيني الباسل، وعام الدماء البريئة، الطاهرة، التي تعاون اليهود والمسيحيون - معاً - على إراققتها في مخيمات صبرا وشاتيلا. كنا يومها نجلس أمام التلفزيون لنشاهد الأخبار المروعة، ونتابع تطور الأحداث الدامية والألم يأخذ منا كل مأخذ، وتزداد مساحة أسئلة الاستفسار عن سر هذا التعاطف الذي توليه المؤسسات السياسية الغربية والأجهزة الإعلامية فيها لهذا النهج النازي الذي تسير عليه دولة إسرائيل العنصرية فلا نكاد نقع على إجابة شافية أو تفسير مرضٍ.

وكما كان يتم ترحيل الفلسطينيين من أرض لبنان وبمساعدة من القوى العظمى في العالم، قام بعض أفراد الحزب المعارض في بريطانيا ينادي بقفل مكتب منظمة التحرير الفلسطينية الموجود في لندن، لماذا يفعلون هذا؟ لماذا جميعهم يتفقون على محاربة الوجود الفلسطيني؟ أين هي الديمقراطية الغربية والحرية الفكرية؟ تلك الشعارات المزعومة التي عشنا على صورها الخلافة قبل أن تطأ أقدامنا أرض هذا البلد، ويتهاوى البناء، ويتلاشى الحلم، لنستيقظ على صور الواقع الأليم الذي لا نقوى على الفرار من وطأته لأنه يستهدف وجودنا كأمة ذات عقيدة وحضارة وتراث.

وتوالى الأحداث تباعاً، وكان أهمها قبل أن تنقضي سنوات الغربة هو ضرب مقر منظمة التحرير في تونس عام ١٤٠٥هـ ورفض البريطانيون مقابلة الوفد الفلسطيني المكوّن من محمد ملحم والياس فريج بعد وصولهم إلى لندن في عام ١٤٠٦هـ، وكان الرفض الأخير استجابة لضغوط اللوبي الصهيوني في كل من أمريكا وبريطانيا.

وعندما نذكر اللوبي الصهيوني في الأقطار الغربية فإنه في كثير من الأحيان تنقصنا الدراسة المستفيضة لجذور هذا اللوبي وامتداده في النواحي الفكرية قبل أن تصل آثاره إلى النواحي السياسية والإعلامية .

وهذه الفصول التي أقدمها بين يدي القارئ هي محاولة متواضعة في هذا الشأن لا تكتفي بظواهر الأشياء بل تحاول أن تتعمق صور الولاء الغربي للفكر الصهيوني، وتبرهن على وجوده من خلال الآثار الفكرية والمواقف السياسية، مؤكدة في الوقت نفسه على ضرورة إيجاد (إعلام إسلامي) ينبثق من عقيدة الأمة وفكرها ليتصدى في قوة ومعرفة للمد الصهيوني الذي لا تزال جذوره تضرب في أعماق المجتمع الغربي ويحتل المواقع الاستراتيجية في أجهزة الإعلام المتعددة.

بقي أن أشير إلى أن بعض هذه الفصول نشر في صحيفة المدينة المنورة على حلقات متوالية، وبعضها الآخر بقي بين أوراقني فلما عزمت على إخراج هذا الكتاب أضفته إلى الحلقات السابقة.

ويعود الفضل إلى فكرة إخراج هذا الكتاب إلى معالي أمين عام رابطة العالم الإسلامي آنذاك الدكتور عبد الله عمر نصيف، الذي أتوجه إليه بخالص الشكر على اهتمامه ومتابعته، كما أشكر أستاذنا الفاضل أحمد محمد جمال، على ما أبداه من توجيهات واقتراحات وكذلك صديقي الدكتور عدنان محمد وزان، على متابعته الكريمة.

والله ولي التوفيق

د. عاصم حمدان علي

كلية الآداب جامعة الملك عبد العزيز

الفصل الأول

النّواحي الفكرية

(١) التغلغل الصهيوني في أوروبا : اتجاهاته وآثاره

إن يكن وعد «بلفور» بإنشاء وطن قومي لليهود قد حاز موافقة جماعية من ممثلي الأحزاب السياسية العاملة - آنذاك - في المملكة المتحدة البريطانية فإنه لم يعرف بصورة علنية - يومها - ذلك التعاطف الخاص الذي أبدته الحركة العمالية البريطانية تجاه طموحات الصهيونية العالمية قبل أن يصبح ذلك الوعد سياسة بارزة، يتبناها أولئك الذين يحرصون على كسب الرأي العام في مجتمعهم. لقد وافقت الحركة العمالية البريطانية في اجتماعها السنوي الذي عقدته في شهر ديسمبر من عام ١٩١٧م، وفي مدينة لندن، على البيان التالي:

(إن الحركة العمالية البريطانية تظهر رغبتها في تخليص أرض فلسطين من الحكم العثماني الغاشم! في سبيل إنشاء دولة حرة لأولئك اليهود الذين يرغبون في العودة إلى تلك الأرض، ولربما عمل ذلك على إنقاذهم من أي تدخل جنسي أو ديني)^(١) ولم تكتف الحركة العمالية

(١) - Paul Goodman, The Jewish National Home 1917 - 1942 London , 1943 p.p. -

بإصدار هذا البيان الذي لم يراع عدلاً أو عرفاً، ولكنها قامت بعرضه على الاجتماع السنوي للأحزاب الاشتراكية والعمالية لدول الحلفاء في شهر فبراير من عام ١٩١٨م، ولقد قامت هذه الأحزاب بتبنيه دون نقاش أو معارضة. إن الوعود التي قدمتها الحركة العمالية قد اقترنت بالتطبيق الفعلي كلما تمكنت الأولى من الوصول إلى مجال السلطة التنفيذية. لقد حدث هذا مثلاً عندما تكوّنت ثاني حكومة أقلية عمالية بالمملكة المتحدة في عام ١٩٢٩م، وبقيادة «رامزي مكدونالد». وقد قام هذا الأخير بانتزاع أمر الشؤون الفلسطينية من يد وزير حريته «سيدني ويب» وتسليمها للجنة وزارية خاصة أعطيت كامل السلطة في مناقشة الأمر مع لجنة من الوكالة اليهودية. وقامت اللجنتان بكتابة رسالة طويلة للدكتور «وايزمان» ثم قام رئيس الوزراء - آنذاك - «مكدونالد» في عام ١٩٣١م بتوقيع هذه الرسالة التي اعتبرت فسخاً لما يسمى بالورقة البيضاء. وتتمثل أهمية هذه الرسالة في السماح للهجرة اليهودية إلى أرض فلسطين أن تصل إلى معدل أربعين ألف مهاجر لعام ١٩٣٤م، واثنين وستين ألف مهاجر لعام ١٩٣٥م، ويعلق «وايزمان» على هذا الأمر بقوله «إنها مسألة كانت تعتبر ضرباً من الحلم في عام ١٩٣٠» ولقد تمكنت الحركة الصهيونية العمالية خلال الفترة الزمنية ١٩٣٠ - ١٩٤٠، من تقوية مواقعها تدريجياً داخل الحركة العمالية البريطانية حتى استطاعت في نهاية الأمر أن تكون مؤثراً فعّالاً في المسارات التي تنتهجها هذه الحركة، ويمكن التدليل على هذا التغلغل الرهيب من خلال فقرات القرار الذي اتخذته اللجنة التنفيذية لحزب العمال في عام ١٩٤٤م، ثم تبناه الحزب في اجتماعه السنوي «حقاً إن فلسطين قضية، وانطلاقاً من مبادئ إنسانية فلا بد من دعم: استقرار دائم وهذا لا يمكن تحقيقه إلا من خلال تحول سكاني؛ شجعوا العرب على

الهجرة من الأرض، ودعوا اليهود تستقر فيها وعلى هذا الأساس فلا بد من تنظيم ذكي للهجرة العربية حتى تستقر في موطن آخر، يجب علينا ألا ندع العرب يقفون في وجه اليهود الذين يتطلعون إلى الاستقرار في هذا الجزء من فلسطين، كما يجب علينا مناقشة إمكانية مشروع ضم بعض الأراضي العربية الأخرى من الدول المجاورة لتصبح جزءاً من فلسطين»^(١).

هذه فقرات من ذلك القرار الذي لم يراع فيه أبسط القواعد الإنسانية التي تحكم العلاقات بين الأمم والشعوب، والأدهى من ذلك أن لغته ومضمونه يكشفان بوضوح عن تطرف مشين، وتعصب مقيت لصالح الحركة الصهيونية التي شعرت بأن قراراً كهذا ذهب إلى أبعد مما يمكن توقعه من رواد الحركة العمالية والذين تجاوزوا في حماسهم الصهيوني ذلك الحماس الذي يمكن أن يبرزه اليهود أنفسهم تجاه قضيتهم، ولكن هذا القرار غير الإنساني كانت له آثاره السيئة فيما بعد على الشعب الفلسطيني الأعزل الذي لم تؤخذ حقوقه التاريخية وتطلعاته الإنسانية في اعتبارات أولئك الساسة الذين نصبوا أنفسهم حكاماً في قضية لا يعلمون من حيثياتها وحقائقها شيئاً، بل لم يبذلوا أي جهد في سماع وجهة النظر الأخرى وهم الذين ينتسبون إلى منظمة تدعي في جملة ادعاءاتها الباطلة وقوفها إلى جانب الشعوب المقهورة والعمل على نشر مبادئ الخير والعدالة، إلا أن السؤال الذي يطرح نفسه هنا: ما هو سر هذا الحماس المفرط والتعصب الأعمى للحركة الصهيونية من قبل الحركة العمالية

Christopher Mayhew, Michael Adams: The Middl E. East Cover Up London, (١)

البريطانية؟ والإجابة تأتي من بعض الباحثين: إنه الولاء المزدوج الذي وجد عند بعض رجال السياسة والفكر الأوروبي، ذلك الولاء الذي نجحت الحركة الصهيونية في استثماره لخدمة قضاياها وتوجيهه وجهة غير إنسانية، وسوف نتبع - إن شاء الله - في الحلقات القادمة هذا التيار الخطير وآثاره مدعمين ذلك ببعض الآثار الفكرية والشواهد التاريخية.

(٢) التغلغل الصهيوني في أوروبا: اتجاهاته وآثاره

لقد أشرنا في المقالة السابقة إلى قضية ما يسمى بـ (الولاء المزدوج) عند بعض ساسة ومفكري العالم الأوروبي تجاه الحركة الصهيونية هذا الولاء هو القاعدة القوية التي تعتمد عليها هذه الحركة العنصرية في كل سياساتها التعسفية والعدوانية التي تنتهجها، ولقد حمل أعباء هذا الولاء أول ما حملة نفر من أعضاء الحركات العمالية في العالم الغربي، يأتي في مقدمتهم شخصيات من الحركة العمالية البريطانية، ولهذا فإنه ليس من المستغرب أن نجد السفاح الصهيوني (مناحم بيجين) يصور في مذكراته مقدار الثقة التي توليها الحركة الصهيونية العالمية للحركة العمالية البريطانية عندما استطاعت الأخيرة الوصول إلى سدة الحكم بأغلبية ساحقة في انتخابات عام ١٩٤٥م، يقول ذلك الإرهابي: «ولهذا هبت عاصفة من الفرح في الأوساط اليهودية عند وصول الأنباء بسقوط تشرشل وإيدن في الانتخابات.. ولقد عزا المتفائلون ابتهاجهم وتفؤلهم إلى الصداقة التقليدية التي تربط الصهيونية العالمية بحزب العمال البريطاني»^(١).

(١) يوميات الإرهاب مناحم بيجين.

ولقد تسربت جهود الحركة الصهيونية بعد هذه الانتخابات إلى أعماق الحركة العمالية البريطانية، بل استطاعت أن تحكم سيطرتها على لجنة السلطة التنفيذية للحركة نفسها بالعمل على ترشيح أحد المتطرفين في تأييد الصهيونية ليكون رئيساً لهذه اللجنة بين عامي ١٩٤٥ - ١٩٤٦م وهو البروفيسور «هارولدلسكي» الذي أعلن بصراحة أنه يحاول تنظيم جبهة معارضة لرئيس الوزراء - آنذاك - «كليمنت إيتلي» ووزير خارجيته «إيرنست بيفين»، وذلك - على حد تعبيره - لخيانتهما للمطالب اليهودية.

ولم يسلم «بيفين»، الذي لم يكن بحال من الأحوال عدواً لليهودية أو الصهيونية، من هجوم متتابع شنته عليه الحركة الصهيونية حتى بعد وفاته، ولقد حدث هذا في سبتمبر عام ١٩٧٠م، وفي الاحتفال الذي أقامته الجمعية الصهيونية التابعة للحركة العمالية بمناسبة مرور خمسين عاماً على تأسيسها^(١) وعلى مسمع من رئيس الحزب «هارولد ويلسون» صاحب الولاء المطلق للدولة العنصرية الصهيونية، لقد تولى هذا الهجوم على «بيفين» عضو من أعضاء الحركة العمالية يدعى «إين بيكاردو»^(٢) ولم يزد على أن ردد نفس التهمة التي حاول «لسكي» من قبل إصاقها بـ «بيفين» ولعلّه من الطبيعي أن نتساءل إذا لم يكن «بيفين» في حقيقة أمره عدواً للصهيونية أو «اليهودية» فلماذا هذا الهجوم العنيف عليه من الحركة الصهيونية؟

(١) The Middle East Cover-Up p. 35.

(٢) لا يزال عضواً عاملاً في حكومة الظل البريطانية العمالية، ويقوم دوماً بدوره الصهيوني، في مجلس العموم البريطاني بالدفاع عن قضايا الصهيونية والنيل من الشعب الفلسطيني.

إن الإجابة يمكن اختصارها في أن هذا الرجل لا يحمل في شخصيته ما يسمى بـ (بازدواجية الولاء) تلك العقيدة التي تسعى الصهيونية في أن تنشئ عليها أولئك الذين يفترض فيهم صنع القرار السياسي والفكري، ولا تكتفي الصهيونية في أن تصاب هذه الشخصيات المعنية بهذا المرض المخيف وهو الانشطار في الولاء بين المجتمعات التي تنتمي إليها والحركة الصهيونية، بل تتطلع وتعمل على أن تكون الأولوية في هذا الولاء من حق الدولة العنصرية الصهيونية، وذلك بلاء عظيم وشر مخيف.

(٣) التغلغل الصهيوني في أوروبا: اتجاهاته وآثاره

إن المواجهة الحضارية بين الإسلام، كونه ديناً أثبت على مر العصور التاريخية عدالته وسماحته في التعامل مع الشعوب والأديان الأخرى، وبين الحركة الصهيونية التي تستخدم في الظاهر أساليب برّاقة ومخفية كلّ الأساليب الملتوية في سبيل فرض تعاليمها العنصرية على نماذج مختلفة من الناس، لقد استطاعت الصهيونية منذ تأسيسها على يد «تيودور هيرتزل» في عام ١٨٩٧م أن تسخر الكثير من الشخصيات الأوروبية التي كانت خائفة بحكم طبيعتها أو أنه اعتراها شيء من الخور عندما تسلطت عليها القوى الصهيونية نفسها، فإذا بتلك الشخصيات التي يفترض فيها التبصر والحكمة تحيد عن الشعب البريطاني وعندما زار «ويلسون» القدس المحتلة في ٢٧ ديسمبر من عام ١٩٧٢م وكان يومها زعيماً للحزب المعارض تحدث مندداً بتأييد الحكومة البريطانية للقرار الجماعي الذي اتخذته هيئة الأمم المتحدة في الثامن من ديسمبر من العام نفسه والذي دعا الصهيونية إلى الالتزام بمبدأ عدم ضم الأراضي المحتلة بالقوة وإن

احترام حقوق الفلسطينيين عامل هام في قيام سلام عادل في الشرق الأوسط وطلب منها الكف عن الأساليب الرامية إلى تغيير البناء الديموغرافي والملاحم الطبيعية للأراضي العربية المحتلة.. ولقد كانت لويلسون هذا مواقف أخرى أثبتت فيها مناصرته للصهيونية دون منطق أو مناقشة متناسياً أن المنبر العمالي الذي اعتلاه يؤكد بالقول فقط وقوفه في وجه الحركات العنصرية التي تظلم الشعوب وتسلبهم حقوقهم. وهل من حركة في العالم تتمثل فيها الخصائص العنصرية مثل تمثلها في الصهيونية؟ إنه موقف شاذ وغريب ولكن هناك مواقف أكثر شذوذاً وأعظم غرابة سوف نتبعها في هذه الدراسة - والله ولي التوفيق.

(١) من ملامح التأثير الصهيوني في الفكر الأوروبي

لئن تمكّنت الصهيونية في العصر الحديث من تنفيذ بعض مبادئها الفاشية في التنكيل بالشعب الفلسطيني المسلم الذي صادرت أرضه وسلبت حقوقه، وزجت بشبابه في السجون، وتعقبت أنصاره في كل أنحاء العالم لتقتلهم حيث تجدهم فإنها لم تفعل ذلك إلا لأنها تعلم علماً لا يساوره شك في أنها لن تتمكن يوماً من مسح الشخصية العربية والإسلامية، أو إحكام السيطرة عليها فكرياً ونفسياً.

إلا أنها تستطيع التسلل إلى بعض المجتمعات الأوروبية فتتخير صفوتها ثم لا تلبث أن تتعهد هذه الصفوة بالرعاية وتبث فيها ما تعتقده من مبادئ وأنها لتختار وسائل جذابة في عرض تلك المبادئ، فهي تعرف أن العقلية الأوروبية مأخوذة بما يسمى - افتراء - بالعدالة والمساواة في المجتمع، إذن فلترسخ مبادئها عن طريق تلك المفاهيم لا ضير عليها من بعد أن تكون الحقيقة نقیض ما حاولت عرضه أو الدعوة إليه.

ولقد كان لوجود اليهود داخل المجتمعات الأوروبية وتمتعهم بقدر كبير من النفوذ المالي والاجتماعي دوره في بث المبادئ الصهيونية بين كثير من أفراد المؤسسات السياسية والفكرية والأدبية المختلفة، والذين حرصت الصهيونية على ضمهم لحظيرتها الفكرية الموبوءة فمنحتهم عضوية دائمة في مؤسساتها فحققت لهم ما يصبون إليه من مكانة وشهرة، ولقد كان ذلك وحده كافياً في أن تتمتع الشخصية الصهيونية في الفكر والأدب الأوروبي الحديث بصورة أسطورية عجيبة تناقض تلك الصورة القديمة التي حاولت بعض الكتابات الأدبية إبراز مظاهرها السيئة من جشع وبخل كشخصية «شيلوك» في المسرحية المعروفة «تاجر البندقية»^(١) للكاتب الإنجليزي «وليم شكسبير» ١٥٦٤ - ١٦١٦ م.

وهناك مجال فكري آخر يستطيع الباحث أن يدرك منه مدى الصلة الوثيقة بين بعض الشخصيات الأوروبية البارزة والفكر الصهيوني، بل ولا يعدم منه الشواهد على تواطؤ هذه الشخصيات - نفسها - مع الحركة الصهيونية في تحقيق مآربها الاستعمارية، وذلك المجال هو ما يعرف بـ (المذكرات الخاصة) التي يدوّن فيها أصحابها بكل تفصيل ما يجري في حياتهم الخاصة والرسمية من أحداث، وما يعتقدونه من رأي، وما يضطلعون به من دور.

وسوف نشير في الفصل التالي إلى بعض الأمثلة من هذه المذكرات، وهدفنا هو الكشف عن حقيقة التوجه الصهيوني في عداوته للأمة العربية والإسلامية، وتعزية أنصاره الذين كثيراً ما برزوا لنا في دور الصديق أو الناصح وظلوا هناك في الخفاء ينشدون تراتيل النصر لأبناء صهيون.

(٢) من ملامح التأثير الصهيوني في الفكر الأوروبي

يعتبر المفكر أو الزعيم الأوروبي أن كتابة المذكرات اليومية واجب وطني يجب أن ينهض به ونشاط ثقافي له قراءه الذين يدرسون من خلاله تاريخ أمتهم في حقبة زمنية معينة، كما يعكس هذا الفن الأدبي قدرة الكاتب على تحليل الأحداث الهامة التي عايشها و شارك في صنع قرارها بحكم مسؤولية أنيطت به، أو دور اجتماعي تطوَّع لأدائه، وربما دعا بعض هؤلاء الرّواد من يثقون فيه من كتّاب أو محررين فزودوهم بالمعلومات والوثائق وعهدوا إليهم بكتابة أدق التفاصيل عن حياتهم العلمية والوظيفية، وما ارتبط بهذه الحياة من تجارب شخصية ربما تأرجحت بين القوة والضعف، والنجاح والفشل.

ومن أهم المذكرات الشخصية التي نستطيع أن نتبين من خلال جزئياتها مدى تأثر بعض المفكرين والكتّاب الأوروبيين بالفكر الصهيوني وحرصهم على الدفاع عن مؤسساته ودولته العنصرية، هي مذكرات الكاتب، والشاعر، والمنظر العمالي البريطاني (ريتشارد كروس مان) ١٩٠٧ - ١٩٧٤م الذي تخرج في الكلية الجديدة بجامعة أكسفورد، ثم أصبح واحداً من أشهر المحاضرين فيها. وكان موضوع محاضراته هو «ألمانيا والخطر النازي» مما أعطاه الفرصة ليصبح عميداً للكلية التي تخرج فيها. وفي عام ١٩٤٥م انتقل إلى عالم الصحافة ليصبح محرراً في مجلة (رجل الدولة الجديد) إلا أن فوز حزب العمال البريطاني في انتخابات ١٩٦٤م هياً له الفرصة ليصبح أحد أعضاء هذه الحكومة التي استمرت إلى نهاية عام ١٩٧٠م وعاد «كروس مان» في عام ١٩٧٢ ليتولى رئاسة تحرير المجلة التي كان أحد أفراد تحريرها من قبل لمدة تقرب عقدين من الزمن.

لقد اقترن «كروس مان» في مطلع حياته بامرأة يهودية وربما كان لهذا الاقتران أثره البالغ في الاتجاه الصهيوني الذي التزم به، فلقد اعترف في أواخر حياته «أن أعظم عمل قدمه خلال حياته العملية هو توجيهه الصادق لخدمة الصهيونية»^(١) كما أشار في ثانياً مذكراته أنه كان يحرص على حضور اجتماعات الحركة الصهيونية وأن زملاء له من الحركة العمالية كانوا يشاطرونه هذا الحضور، ويصف لنا - أيضاً - كيف أنهم كانوا يتسابقون إلى إلقاء الخطب في هذه الاجتماعات، وربما أدى بهم هذا التسابق إلى التفاخر بالمستوى الذي استطاع كل فرد منهم الوصول إليه في تعصبه للحركة^(٢).

ويشير كروس مان إلى موقفه الصريح من حرب ١٩٦٧م العربية - الإسرائيلية ولا يرى داعياً لأن يخفي شعوره المناصر للدولة العنصرية الصهيونية باستقباله لبعض ممثليها الرسميين وفرحته بلقائهم في تلك الظروف الحرجة التي أحاطت بالحرب ونتائجها، وتكفي هذه الناحية الأخيرة للتدليل على الفكر الأهوج الذي كان يحمله هذا الرجل، فولاؤه للصهيونية لم يحمله فقط على إغفال وإلغاء وجهة النظر الأخرى في هذا الصراع ولكنه انحرف به إلى المسار الذي يفقد معه الشخص ولاءه لمجتمعه وحضارته، ليصبح واحداً من أولئك الذين تفخر الصهيونية بأنها سلبتهم عقولهم وأماتت ضمائرهم.

(٣) من ملامح التأثير الصهيوني في الفكر الأوروبي

يتسابق اليوم زعماء ومفكرو العالم الأوروبي على اختلاف ميولهم

(١) David Childs. Britain Since 1945. London, 1984, p. 161.

(٢) The Cross Man Diaries London, 1981, p. 353.

واتجاهاتهم في التعبير عن الولاء للحركة الصهيونية. ومن أمثلة ذلك التسابق حديثهم المزعوم عن الاضطهاد الذي يتعرض له اليهود في انحاء مختلفة من العالم. ولربما تضمنت أوراق العمل المشتركة بين زعماء بعض الدول الأوروبية ونظرائهم من الدول الأخرى التأكيد على حق الهجرة لتلك الأقليات اليهودية إلى ما يسمونه افتراء بـ (أرض الميعاد) في الوقت الذي يتمتع فيه هؤلاء اليهود بامتيازات اقتصادية واجتماعية في معظم الدول التي يعيشون فيها لا يماثلهم فيها حتى أولئك الذين يعتبرون أنفسهم المواطنين الأصليين لتلك البلاد.

إن هذا التسابق والدفاع عن الكيان الصهيوني له جذوره التاريخية والفكرية في المجتمعات الأوروبية وهو تيار مستمر ومتدفق منذ أن انبثقت الحركة الصهيونية إلى الوجود ونالت من الدعم الأوروبي ما لم تنله أي حركة أخرى في تاريخ الحضارة الإنسانية على الإطلاق. وإن الدارس لتاريخ الفكر الأوروبي ليصاب بخيبة أمل عندما يتمعن في بواعث تلك المواقف التي نهض فيها زعماء أوروبا أو مفكروها للدفاع عن الكيان الصهيوني الغاشم أو تحليل تلك الكتابات التي تكشف عن مدى إعجابهم المفرط ببعض الزعماء الصهاينة الذين كانوا يستغلون المجتمعات الأوروبية في تحقيق طموحاتهم السياسية والاجتماعية بينما تنطوي قلوبهم على حق دفين لهذه المجتمعات وشعوبها.

ولقد استشهدنا في الحلقة السابقة على مدى تأثير الفكر الصهيوني على بعض المفكرين الأوروبيين ومدى تعصب هؤلاء المفكرين لهذا الفكر وتحاملهم على الفكر الإسلامي والعربي. استشهدنا على ذلك بالكاتب ريتشارد كروس مان ١٩٠٧ - ١٩٧٤م والآن نأتي على زميل آخر له هو المفكر والمنظر العمالي مايكل فووت ١٩١٣ الذي درس الفلسفة

والاقتصاد والسياسة في جامعة أكسفورد البريطانية ونال بعد ذلك مكانة مرموقة في الصحافة الإنجليزية حيث أصبح في عام ١٩٤٣م رئيساً لتحرير صحيفة «ستاندرد المسائية» ثم انتقل إلى صحيفة «تريبيون». إلا أن طموحات «فووت» لم تقف به عند عالم الصحافة ولكن حملته في عام ١٩٤٥م إلى مجلس العموم البريطاني ليكون ممثلاً عمالياً عن منطقة «ديفين بورت»^(١) وبعد سلسلة من المناصب الهامة في هذا الحزب شغل فووت منصب نائب رئيس الحزب ثم رئيساً للحزب في عام ١٩٨٠م حتى استقالته في عام ١٩٨٣م بعد هزيمة الحزب في الانتخابات العامة.

لقد عرف فووت بين زملائه بالقدرة على الحديث المؤثر في تلك الاجتماعات التي يقوم فيها خطيباً بحكم عمله الرسمي في حزب العمال حتى وصفه البعض بأنه كان أحد الذين تمكّنوا من السيطرة على اللغة الإنجليزية التي يصفها أهلها بأنها لغة غريبة. واستغل فووت هذه المقدرة فسخرها في مطلع حياته للدفاع عن الإرهابيين اليهود الذين كانوا يرتبطون بمنظمة «الهاغاناه»^(٢)، وهي منظمة سرية عسكرية ولقد ارتكبت أعمالاً إرهابية في فلسطين المحتلة في عهد الانتداب البريطاني مما دفع بالحكومة البريطانية لاعتقال بعض أعضاء المنظمة في عام ١٩٤٦م.

سجل فووت على نفسه موقفاً سلبياً يتنافى مع أبسط القواعد المنطقية عندما دافع عن أعضاء هذه الوكالة اليهودية الإرهابية فدعاهم بـ (الرفقاء) الذين كان يرحب بهم حزب العمال عند حضورهم لاجتماعاته السنوية كما طالب الحكومة بإطلاق سراحهم دون مناقشة أو محاكمة.

(١) Michael Foot: Another Heart and Other Pulses, London 1984.

(٢) Britain Since 1945, p. 49.

(٤) من ملامح التأثير الصهيوني في الفكر الأوروبي

لقد كشفت أيضاً بعض مؤلفات الكاتب «مايكل فووت» عن ميوله الصهيونية الحقيقية فلقد تحدث في كتابه (ديون التكريم)^(١) عن شخصية الكاتب الروائي والزعيم اليهودي «بنجامين دزرائيلي» ١٨٠٤ - ١٨٨١ م الذي اعتبره الدارسون مبشراً بالتعاليم الصهيونية منذ أن ظهرت روايته المعروفة (الرؤى) عام ١٨٣٣ م^(٢) أي قبل حوالي خمسين عاماً من ظهور الصهيونية كحركة سياسية.

يحاول «فووت» في مقالته التي ضمنها كتابه المذكور عن حياة «دزرائيلي» والتي اختار لها عنواناً مثيراً هو (المحافظ الطيب)^(٣) والمحافظ هنا نسبة إلى حزب المحافظين، يحاول أن يجعل منه شخصية أسطورية تتسم بالصفات المثالية وتعتنق مبدأ التسامح الديني إلا أنه في المقالة نفسها يعرج على تمسك هذه الشخصية بتقاليدها اليهودية في كثير من القضايا ويخص منها المظهر واللباس وهي أمور يوليها الصهاينة من اليهود كثيراً من الاهتمام ولا يفرطون في شيء منها. وهذا التمسك الذي ربما رأى الكاتب فووت فيه جانباً مضيئاً من جوانب هذه الشخصية ينقض ما يحاول الكاتب نفسه وغيره من الكتّاب والمفكرين من بني جنسه التأكيد عليه - زوراً وبهتاناً - وهو أن أولئك اليهود الذين تسنموا أعلى المراكز في المجتمعات الأوروبية كانوا على قدر كبير من التسامح وسعة الأفق والابتعاد عن العنصرية. وهي دعوى لا تثبت أمام حقائق الماضي

(١) Michael Foot: Depts of Honour London, 1980.

(٢) Hani Al-Raheb: The Zionist Character In English Novel London, 1980, p. 39.

(٣) The Good Tory.

والحاضر معاً التي تبرهن على أن ولاءهم ينصرف دائماً على عقيدتهم الصهيونية التي تحرّم عليهم التمثل بتلك الصفات التي يحاول الآخرون - نفاقاً - أن يخصصهم بها دون غيرهم من شعوب الأرض وتلك مأساة من مآسي الفكر الأوروبي جديرة بالدراسة والتحليل.

من وسائل الحركة العنصرية الصهيونية

تتعدد الوسائل والطرق التي تحارب بها الحركة الصهيونية الإسلام وأهله وهي لم تكتف - في الوقت نفسه - بمواجهة العالم كله بهذه الوسائل الدنيئة التي تستخدمها وبذلك الطرق غير الإنسانية التي تسلكها، بل إنها تحاول أن تضيف طابع الطهر والسلام على ما تقوم به من جرائم، وتعطيه صفة الشرعية التي يجب ألا تقهر أو تطاول، انطلاقاً من أن أي نقد يوجه للحركة الصهيونية هو ما يمكن إدراجه فيما يسمى بـ(عداء السامية) ويمكن أن يؤدي بصاحبه إلى المحاكمة القضائية كما حدث للعالم المسلم الفرنسي «رجاء جارودي» عندما أصدر كتابه (ملف إسرائيل)، فقد تعرض للمحاكمة والتهديد والقتل. ولقد تسللت الصهيونية بهذا السلاح المخيف «عداء السامية» إلى أخطر سلاح في هذا العصر وهو الإعلام فتمكنت من السيطرة على مؤسساته وقنواته.. وهذا بدوره أدى إلى انخداع الإنسان الأوروبي الذي يتلقى معلوماته وثقافته عن طريق هذه المؤسسات، إلى انخداعه بتلك الصورة الزاهية التي رسمت أبعادها عن الصهيونية ودولتها، وما فتئت تكرر له القول في خبث ودهاء، إن هدفها الأساسي هو تحويل الصحراء الجرداء إلى جنات عدن التي سوف ينعم بها كل فرد بغض النظر عن دينه وعرقه. وإن هذا التحويل الاقتصادي يصاحبه تحويل آخر في تثقيف شعب هذه الأرض والانطلاق

به إلى عوالم الحرية الفكرية، وهي أباطيل بدأت تتكشف لكل أولئك الذين لم تنطل عليهم الدعاوي الكاذبة واعتمدوا على تجاربهم الشخصية في الوصول إلى الحقيقة عن وضع الشعب الفلسطيني المكافح الذي يحرم من حقوقه في بناء المدارس والمستشفيات.. بل وتصادر ممتلكاته، ويمنع من الحصول على الأشياء اللازمة لحياته، هذا قليل من كثير عن معاناة هذا الشعب المسلم والعربي، الذي استطاع أن يتحسسه أحد أعضاء البرلمان البريطاني، كلير شورت وأشير إليه في مقال مقتضب في صحيفة «الجارديان» في عدده الصادر في اليوم السادس من شهر مارس ١٩٨٦م.

لقد شُرد جزء كبير من هذا الشعب المناضل من الأرض التي سكنتها أجيال متلاحقة منه على مدى عشرات القرون، ثم لا يسمح له بالعودة إليها، ولقد أعلنت الصهيونية عن فشلها الذريع في تغيير هوية الشعب الفلسطيني الذي يعيش بعزة وكرامة فوق أرضه المحتلة لقد ظنت الصهيونية أن ما تسميه بعملية تحديث حياة الفلسطينيين سوف يدفع بولائهم لذلك الكيان غير الإنساني الغاشم، فإذا بها تجد أن ذلك الولاء لا يذهب إلا للأرض التي أحبوها والتراث العربي الذي آمنوا به واعتنقوا مبادئه، لقد أصابها اليأس القاتل عندما تكشف لها أن الخطر الحقيقي على كيانها المتداعي يكمن في عقول أولئك المثقفين من الشباب الفلسطيني الذين يتعلمون اللغة العبرية ليستخدموها سلاحاً في نضالهم الطويل ضد وجودها غير الشرعي الذي تحاول أن تحميه من السقوط تلك القوى التي ارتضت لنفسها أن تكون في موضع العبد الذليل، لقد جاء التصريح عن هذه الحقائق المرة والتي تحاول الصهيونية إخفاءها عن

مسمع العالم الذي خدعت بعض دوله بأكاذيبها، وشفقت أحياناً لبطشها، جاء ذلك التصريح على لسان الحاخام «الصهيوني كاهانا» والذي يؤمن بأن الدولة الصهيونية ما هي إلا دولة عنصرية ولهذا فهو يدعو لطرده السكان الأصليين من العرب أينما وجدوا داخل الأراضي المحتلة. ولقد أعلن أن دعوته هذه ما هي إلا نتيجة لحقيقة مؤلمة في نظره - وهي «إنك لا تستطيع شراء العرب وهذا فقط في حد ذاته يدعوك أن تحترمهم» بل ذهب إلى القول - كما نقلته عنه المجلة القومية البريطانية في عددها السادس والثلاثين فبراير ١٩٨٦م - «لو فكر أحد في أنه سوف يتمكن من شراء الكبرياء القومي لأولئك الذين نسميهم - غير المتعلمين - من العرب عن طريق تحديث حياتهم، فإن ذلك الشخص الذي عرض له مثل هذا التفكير يجد نفسه في وضع سيئ وبائس.

إن إعلان الصهيونية العنصرية عن فشلها الذريع في تغيير حقيقة الشعب الذي يؤمن بعدالة قضيته. . ولم يسمح لأحد أن يطال كرامته، هو الدليل الأكيد على أن القضية تعيش في قلوب أبنائها حية نضرة ترتوي من منابع الإيمان الخالد، وإن أبناء القضية والأرض هم أفراد أمة الإسلام والعروبة التي أمرها دينها الحنيف بأن تنبذ الظلم ولا تستسلم للعدوان.

النظامان العنصريان والغرب

يتعامل العالم الغربي ممثلاً في مؤسساته السياسية والإعلامية والاجتماعية مع النظامين العنصريين في جنوب أفريقيا - سابقاً - وإسرائيل - حالياً -، بنظرة يمكن وصفها بالازدواجية ومقياس يتناقض مع أحكام المنطق العلمي، فبينما كان يقوم بتوجيه النقد في كثير من المناسبات

للممارسات العنصرية التي كانت تقوم بها حكومة الأقلية البيضاء في جنوب أفريقيا نراه يحجم عن أي خطوة يمكن تفسيرها بأنها إدانة لما تقوم به السلطات الإسرائيلية ضد الشعب الفلسطيني، لأن الغرب دأب - من منطلق ديني - على العمل على تثبيت نظرية وهمية عن الشعب اليهودي، وهي أنه: شعب مبرأ من الخطأ وأن ذلك ينسحب على دولته التي ظل العالم الغربي يتحدث عنها بمثابة رومانسية وهي مثالية بعيدة عن كل موازين الحق والحقيقة. وحتى ندلل على هذه الازدواجية الغربية في التعامل مع هذين النظامين العنصريين، يمكننا أن نوجز هنا أوجه الشبه بينهما:

كلا النظامين يعامل هيئة الأمم المتحدة بغطرسة، وعنجهية، وينتهك دوماً دستورهما ولا يحترم قراراتها.

كل منهما يعمل على إظهار نفسه للدول الغربية بأنه يعمل على الحد من انتشار الفكر الشيوعي في منطقته، بينما هو في واقع الأمر يبارك هذه الأيديولوجية في الداخل والخارج.

يمثل نظام «بريتوريا» والنظام «الإسرائيلي» الدور الاستعماري الذي يتحكم في مصير شعوب مناطق تمكّن من احتلالها عن طريق الاغتصاب والقوة.

كلاهما لا يملك أي حق قانوني أو معنوي في المناطق التي احتلها اغتصاباً.

كلاهما يستعمل القوة العسكرية الوحشية عند تعامله مع شعوب هذه المناطق المحتلة.

بينما تقوم سلطات جنوب أفريقيا بتوطين السكان الأفارقة - في

مناطق خاصة دون أن تعمل على إخراجهم من وطنهم، تقوم السلطات الصهيونية بترحيل السكان غير اليهود من منازلهم وإبعادهم عن وطنهم.

تنفرد الدولة الصهيونية بمنهجها العنصري الذي لا يشابهها فيه أحد، وهو أن غير اليهودي لا يحق له سكنى - فلسطين - حتى ولو كان ذلك الشخص مولوداً على أرضها وعاشت أسرته - من قبل - فيها لعدة قرون، مع أن اليهود بمختلف اتجاهاتهم لم يصلوا إلى قرار يحدد المقصود من كلمة يهودي.

يدافع الغرب عن الدولتين العنصريتين بأنهما استطاعتا أن تطورا الجوانب الاقتصادية بالرغم من وقوعهما بين دول غير صديقة تضمّر العداء لهما. والغرب ينظر - فقط - إلى هذه الناحية متغافلاً عن الجوانب الأساسية وأهم هذه الجوانب أن قيامهما في دولتين هو قيام غير شرعي لا تقره الأعراف والقوانين الدولية التي تدعو الحكومات الغربية إلى المحافظة عليها وحمايتها من كل من يحاول الخروج عليها وهو منطق يبرز - أيضاً - تلك الازدواجية في السياسة الغربية عند تعاملها مع هاتين الدولتين العنصريتين بالقياس إلى التعامل مع الدول الإسلامية أو الأفريقية فهؤلاء الذين ينتمون إلى ما أطلق عليه في مصطلحاتهم السياسية - بالعالم الثالث - هم المصدر الوحيد للمتاعب والقلق، ولهذا نجدهم هدفاً لاتهامات الإعلام الغربي بقضية الإرهاب، أو انتهاك الأعراف، وستظل هذه النظرة سارية ما دام الغرب - لم يحاول ولو لمرة واحدة - أن يتخلص من نظرية السيطرة والفوقية التي هي العامل الحقيقي وراء المتاعب السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي يعاني منها هذا العالم الذي لن يصلحه إلا السلام المنبثق عن عدالة وحرية حقيقيتين:

بين الانتقام من النازية والانتصار للصهيونية

لقد أشرنا في المقالات السابقة من هذه الدراسة أن الحركة الصهيونية العالمية لا تترك وسيلة من الوسائل التي من شأنها أن تيسر لها عملية السيطرة على العقلية الأوروبية إلا واستغلتها شر استغلال، وأنه لتأخذك الحيرة وأنت تقرأ ما تحاول القوى الصهيونية - أخيراً - أن تتشبث به من قضايا في سبيل التستر على تلك الجرائم التي ترتكبها ليس فقط ضد الشعب الفلسطيني العربي المسلم ولكنها شملت أيضاً أولئك الأقوام الذين لم يناسبهم الإسلام العداء يوماً بسبب انتمائهم إلى عقيدة أخرى، إلا أن العداء والتنكيل جاءهم من أولئك الذين يطلقون على أنفسهم شعب الله المختار - زوراً وبهتاناً.

إن القضية التي يثيرها أنصار الصهيونية في الصحافة الأوروبية ويتناولونها بالدراسة والتحليل تعمداً منهم في إثارة الرعب ونشر الفتن في قضية التنكيل النازي لليهود، ومدى تواطؤ بعض الشعوب الأوروبية في التستر على نفر من أولئك الذين اشتركوا بطريق أو بآخر في قتل اليهود وتعذيبهم، وتدعي الصهيونية في جملة ادعاءاتها أن بعضاً من هؤلاء المتهمين استقروا منذ حوالي أربعين عاماً في البلاد التي هاجروا إليها، والصهيونية لا تكتفي بإثارة هذه المشكلة عن طريق أنصارها في الصحافة والإعلام ولكنها - في الوقت نفسه - تبعث ممثلين لها يطوفون هذه البلاد التي يقرنون مواقفها - بطريق غير مباشر - بمواقف الحركة النازية ولقد كونت الحركة الصهيونية لتتبع هذه القضية ما أسمته بـ «المركز الأمريكي لصيادي النازية» ولقد تمكن هذا المركز الصهيوني من الاطلاع على سجلات الأمم المتحدة وعلى كثير من الوثائق التي تحتفظ بها الحكومات

الأوروبية وكان من بينها وثائق لم تمض عليها المدة القانونية لنشر محتوياتها، بل إنها هددت أنه في حالة عدم قبول بعض هذه الدول بمبدأ التعاون معها في الكشف عن أولئك الذين وصفتهم بأعداء السامية وتمكينها من القبض عليهم ومحاكمتهم فإنها سوف تدفع بأنصارها في بعض البرلمانات الأوروبية إلى استخدام امتيازاتهم البرلمانية في تسمية هؤلاء الأشخاص^(١). إننا لا نريد أن نناقش هنا قضية التعذيب النازي لليهود، والتي بالغوا - أنفسهم - في وصفها، ورسموا حولها صوراً مضللة، بل وجعلوا من ذلك الوصف وتلك الصورة رمزاً فنياً في عالم السينما وأسطورة أدبية في الكتابة الشعرية والروائية، ولكن الذي يحسن بنا أن نلفت إليه هو مدى حرص الصهيونية في تعقب أولئك الذين أبدوا أو يبدون عداً لتعاليمها الجائرة، ثم قدرتها على استعمال الوسائل غير القانونية في سبيل دعم مواقفها الفكرية في المجتمعات الأخرى، ولعلّ الإعلام العربي والإسلامي يتمكن من إيجاد خطة شاملة تهدف إلى توعية شعوبنا بحقيقة ما ترمي إليه المخططات الصهيونية، ثم فتح قنوات للحوار والمناقشة مع الشعوب الأخرى عن الخطر الصهيوني الذي يريد أن يكتسح كل شعوب هذه الأرض في سبيل أن تكون له السيطرة والمنعة إنه الخطر الذي فاق بمساوية الظاهرة والخفية ذلك الخطر النازي الذي لا تفتأ الصهيونية في هذه الأيام بوصفه بكل ما هو سيئ^(٢). ولعلّها نسيت أن الأسوأ منه هو ما تبته من رعب وتدعو إليه من باطل.

(١) انظر مقالة «سيمون جنكنز» في صحيفة التايمز اللندنية الأسبوعية الأحد ١ مارس ١٩٨٧م، ص ٢٥.

(٢) انظر مقالة «سيمون فرييمان» في نفس الصحيفة في عددها الصادر في ٢٢ فبراير ١٩٨٧م، ص ٢٦.

مواقف للإنجليز وأخرى لليهود

تتعدد الوسائل التي يستخدمها اللوبي الصهيوني في العالم الغربي لقلب الموازين لصالحه عندما يستشعر خطراً على كيان الدولة الصهيونية، حتى لو كان ذلك الخطر لا يتعدى مجرد التصريح الكلامي غير المصحوب بقرار سياسي يدعمه أو يجعله موضع التنفيذ، ومن ضمن وسائله في بريطانيا مثلاً.. اتهام موظفي وزارة خارجيتهم بأنهم (Arabists) أي «مستعربون» وهي نسبة إلى مدرسة اللغة العربية التي أنشأتها بريطانيا في عام ١٩٤١م في مدينة القدس لتدريس بعض الدبلوماسيين مواد اللغة الثقافية العربية. وقد أنشأ الإنجليز هذه المدرسة قبل الحرب العالمية الثانية لشعورهم بالحاجة إلى تحدث اللغة العربية، إضافة إلى أهداف أخرى كانت تمليها النظرة الاستعمارية - آنذاك - إلا أن أحداث تفجير فندق الملك داود في عام ١٩٤٦ على أيدي عصابة الأرجون الصهيونية التي كان من زعمائها الإرهابيان «بيجين وشامير» دفعت الحكومة البريطانية لنقل المدرسة مؤقتاً إلى الأردن، ثم استقرت أخيراً في عام ١٩٤٧م في منطقة «شيملان» في لبنان.. واستمرت كذلك حتى إغلاقها في عام ١٩٧٦ بسبب المتاعب التي واجهها بعض المنتسبين إلى المدرسة وخصوصاً أثناء حرب حزيران في عام ١٩٦٧م عندما كانت الحكومة العمالية البريطانية بزعامة «هارولد ويلسون» في موقف انحيازي كامل للدولة الصهيونية، وعندما فاز حزب المحافظين في عام ١٩٧٠م بقيادة «إدوارد هيث» أعلن وزير خارجيته «السير اليس دوقلس هوم» برنامج حكومته حيال قضية الشرق الأوسط، وهو برنامج يؤكد على الحقوق الفلسطينية في أي تسوية سلمية تشهدها المنطقة، ذلك البرنامج وجد فيه المتعاطفون مع الصهيونية خروجاً على السياسة التقليدية

البريطانية التي شهدتها فترة الستينات الميلادية تحت تأثيرات «ويلسون» ومستشاريه من اليهود أو من الإنجليز ذوي النزعة الصهيونية.

ولقد كانت شكوك هؤلاء المتعاطفين في محلها، فعند قيام حرب أكتوبر واتحاد الأمة العربية في مواجهة إسرائيل رفضت حكومة «هيث» إمداد إسرائيل بالسلاح كما رفضت السماح للطائرات الأمريكية بالتزود من الوقود في أراضيها في حالة اضطرارها للهبوط في المطارات البريطانية وهو موقف استقلالي يعد من حسنات ذلك الزعيم البريطاني القوي الذي لم يمهل اليهود طويلاً، فتألبوا ضده. وأسقطوا حكومته في عام ١٩٧٤م ليشكل «ويلسون» من جديد حكومته العمالية الثالثة.

وعندما جاء المحافظون إلى الحكم في عام ١٩٧٩م كان من ضمن وزراء تلك الحكومة اللورد «بيتير كارنجتون» والذي كان من قبل وزيراً للدفاع في حكومة «هيث» السابقة وأحس اليهود بتوجه «كارنجتون» في أقواله لصالح الفلسطينيين فلم يمهلوه هو الآخر، لقد دبوا تورط بريطانيا في حرب خطيرة مع الأرجنتين واستقال «كارنجتون» في عام ١٩٨٢م بسبب أزمة تلك الحرب ليخلفه زعيم مجلس العموم فرانسيس بيم، وكانت غلطة هذا الأخير أنه قال «لا» للغزو الإسرائيلي للبنان واليهود يريدون - دوماً - من العالم الغربي «نعم» ولم يعمر «بيم» في منصب وزير الخارجية طويلاً ففي أول تشكيل وزارتي بعد فوز حزب المحافظين للمرة الثانية في عام ١٩٨٣م تم استبداله بـ «السير جيفري هاو» وقد حاولت إسرائيل الضغط على «هاو» ليرفع حظر بيع السلاح لإسرائيل والذي فرضته بريطانيا عليها أثناء غزو لبنان، ولكنها لم تفلح في ذلك على الرغم من العلاقات الودية التي تربط الحكومة المحلية ببعض زعماء حزب العمل الإسرائيلي.

وفي الزيارة الأخيرة التي قام بها «ديفيد ميللر» الوزير بوزارة الخارجية البريطانية، إلى الأراضي العربية المحتلة، وخصوصاً إلى مخيمات اللاجئين الفلسطينيين، حيث شاهد بنفسه حقيقة الأوضاع السيئة التي يعيشها هؤلاء اللاجئين لأكثر من عشرين عاماً وكانت لحظة من اللحظات التي لم يتمالك الوزير فيها نفسه لقد أنساه الشعور الإنساني المتجرد كل تحفظ دبلوماسي يمليه تاريخ العلاقة بين بريطانيا ودولة الكيان الصهيوني، فذهب يصف السياسة الإسرائيلية في غزة والضفة الغربية بأنها غير إنسانية وتصيب بالإحباط، وأنها سوف تتسبب في وحشية أكثر وسوف تقود إلى كثير من المشكلات المستعصية في المستقبل.

لقد تكلم الرجل الإنجليزي وهم يتطلبون في هذه المواقف ألا يتكلم الشخص بالعاطفة الإنسانية، ولكن بالمنطق الصهيوني الذي لا يعترف إلا بالقوة الوحشية يريدون منه أن يستحسن قتل النساء والشيوخ وسجن الأطفال لجريمة حمل الحجارة يريدون منه أن يهنتهم على مدى قدرتهم في تطبيق الأحكام العسكرية والقوانين العنصرية، في أرض لا يملكون فيها أي حق شرعي أو معنوي وضد شعب لا يدين لهم بطاعة أو ولاء، فكان هجومهم على «ميللر» عنيفاً، لقد وصفه «رابين» وزير الدفاع الإسرائيلي بأنه غر صغير يحسن كثرة الكلام. أما رئيس الدولة «تشم هبرزوج» الإيرلندي اليهودي الذي عاشت أسرته في الأراضي البريطانية، فاكسب بذلك أحقية التدريب في الجيش البريطاني، ثم أعلن انسلاخه وتنكره، فلم يسلم «ميللر» أيضاً من هجومه، وفي ذلك دلالة كبيرة على مدى تنكر اليهود للذين يحسنون إليهم حتى حفل الغداء الذي كان مقرراً أن يقيمه له بعض أعضاء الحكومة ألغوه لأن نفوسهم لن تطيب من

الحقد الذي يملؤها، والخطرة التي تتظاهر بها. ولم يمنع هذا كله «ميللر» من أن يقول: «إن الإسرائيليين دوماً ينبذون كل من يحاول رفع صوته ولو قليلاً».

لم يبد «ميللر» ندماً على أقواله، بل وجد تشجيعاً وتجاوباً من مجلس العموم البريطاني عندما تحدث بكل صراحة عن أحداث زيارته ولكن الصحف ذات الاتجاه الصهيوني عادت لتصفه بأنه «مستعرب» وأن ذلك سوف يكلفه كثيراً ولعلهم يعنون أن الشخصية التي يتوقع لها أن تشغل منصب وزير الخارجية البريطانية بعد أمد ليس ببعيد سوف تأخذ «ميللر» بشدة اليهود الذين يعيشون في بلاد الغرب ولكنهم يدينون بالولاء للكيان الصهيوني، انتظروا قليلاً فإنهم يتحدثون عن وزير خارجية جديد يهودي الأصل والنزعة.

النجوم اليهودية الصاعدة في السياسة الأوروبية

تفتقر صحافتنا الإسلامية والعربية إلى المعلومات الدقيقة والمنظمة عن الشخصيات اليهودية ذات الاتجاه الصهيوني والطموح السياسي والتي تتخذ من المجتمعات الأوروبية منطلقاً لتحقيق المصالح الخاصة بالكيان الصهيوني.

وتكتسب دراسة هذه الشخصيات أو التنبيه إلى أنشطتها أهمية خاصة في موضوع صراعنا الحضاري مع الحركة الصهيونية فلا يستطيع أحد أن يجادل في أن قيام الكيان الصهيوني كان نتيجة لجهود افراد متميزين ينتمون إلى المجتمع اليهودي في بريطانيا والذي تعود نشأته إلى سنة ١٦٥٦م ويتوزع بنسب مختلفة بين مناطق كينت، مانشستر، ليفربول، ليدز، سندرلاند، إيرلندا.

ومما يميز هذه الشخصيات في كثير من الأحيان حضورها الدائم بين أفراد المجتمع البريطاني ويقترن عادة بهذا الحضور تقنص هذه الشخصيات لصفات إنسانية نادرة يتطلع إلى تحقيقها هذا المجتمع الذي تمكنت من نفوس أفرادها صفات مادية منها الأنانية وفقدان الرحمة والتعاطف.

ولا يقتصر ذلك الدور المنظم الذي تستخدمه هذه الشخصيات اليهودية في التأثير على أفراد المجتمع البريطاني وحده فربما كان من ضحاياه عدد من أولئك المهاجرين من دول إسلامية وأفريقية أخرى، والذين يتطلعون إلى حياة آمنة ومستقرة في مجتمع لا يعرفون من قوانينه وشؤونه إلا النزر اليسير الذي لا يفي بتثبيت الحقوق المشروعة الخاصة بهم والمترتبة على وجودهم في هذا المجتمع.

ومن بين الشخصيات العديدة التي تقوم بتمثيل هذا الدور الخطير في المجتمع البريطاني شخصية النجم الصاعد في حكومة الظل العمالية «جيرالد كوفمان» وهو يهودي بولندي ينتمي إلى أسرة متعصبة ليهوديتها، فوالده يصر على اختيار أصدقائه من اليهود المتمسكين بحرفية تعاليم الديانة اليهودية كما اعترف بذلك كوفمان في مذكراته التي نشرها في لندن ١٩٨٥م تحت عنوان «حياتي في الشاشة الفضائية» My Life In The Silver Screen.

لقد تلقى كوفمان دراسته الأولى في مدينة «ليدز» ثم سلك طريقه إلى الحياة السياسية ليكون نائباً عمالياً في البرلمان البريطاني عام ١٩٧٠م.

ولم يكتف هذا النجم اليهودي في أن يكون نائباً عادياً، فسرعان ما أصبح أحد أولئك الذين يعتمد عليهم الزعيم العمالي «هارولد ويلسون»

في إعداد الخطب والكلمات التي تتطلبها المناسبات الخاصة والعامة، ثم شغل منصب المتحدث للشؤون الداخلية في حكومة الظل العمالية منذ عام ١٩٨٣م وفي التغيير الأخير الذي أحدثه زعيم المعارضة «نيل كينيك» بين أفراد فريقه السياسي نجد «كوفمان» يشغل أهم مركز فيه وهو الشؤون الخارجية والذي كان يشغله من قبل Denishealey أحد أقطاب السياسة البريطانية الذين عرفوا بتعاطفهم مع القضية الفلسطينية وانتقاداتهم العلنية في كثير من المناسبات للأساليب العنصرية التي تتبعها الحركة الصهيونية إزاء الشعب الفلسطيني.

ولنا أن نتساءل، ألم يأن للفرد المسلم والعربي - وهو المعني من قبل غيره في هذا الشأن - أن يطلع على الأساليب المنظمة التي تنتهجها الحركة الصهيونية في تحقيق مطامعها الكبيرة؟ ويرى ذلك الإخلاص الذي يتمتع به اليهود لدينهم ولغتهم وثقافتهم كما يشاهد التسامح الكبير الذي تبديه المجتمعات الأوروبية تجاه بعض أفراد المجتمع اليهودي الذين يجعلون من منابرهم السياسية وإعلامها وسيلة لتحقيق مطامعهم وترسيخ كيان دولتهم، في الوقت الذي تبدي فيه هذه الدول - نفسها - امتعاضاً ملموساً وكراهية مشاهدة تجاه المجتمعات المهاجرة الأخرى التي لا تتطلع إلى أكثر من تحقيق الحد الأدنى من سبل العيش والاستقرار.

القوة والطموح من منظور العقلية اليهودية

إذا أردنا أن نعرف أسرار اختراق الحركة الصهيونية للمجتمعات الأوروبية وتمكّنها من السيطرة على مؤسساتها السياسية والإعلامية.. فإنه يجب علينا دراسة الشخصية اليهودية دراسة دقيقة تبدأ من معرفة

المنطلقات العقائدية والفكرية التي تنتهجها هذه الشخصية في التعامل مع العقلية الأوروبية. وبما أن الأخيرة تؤمن بمبدأين أساسيين: الأول منهما هو مبدأ القوة.. وثانيهما هو مبدأ المنفعة الذاتية المجردة من كل قيمة أخلاقية يأمر بها الدين أو يدعو إليها العرف، فلا ضير إذن على الشخصية اليهودية أن تلتزم بهذين المبدأين. فلم يظهر اليهود - يوماً - لأقرب حلفائهم من الدول الغربية ضعفاً أو استكانة ولم يجدوا طريقاً ممهداً يقودهم للمنفعة إلا وسلكوه فإن لم يجدوه ممهداً فليس هناك شيء اسمه التراجع والتخاذل بل العمل الدؤوب ليتحقق ما توجهت طموحاتهم إليه.

ولقد برزت في بعض المجتمعات الأوروبية شخصيات يهودية حققت عن طريق مبدأي القوة والمنفعة بروزاً مميزاً في ميداني الاقتصاد والسياسة ولم تنس أن ذلك البروز يجب استغلاله بطريقة ذكية لصالح الحركة الصهيونية التي استطاعت من خلال ومكانة هذه الشخصيات التي تنتمي إلى مؤسساتها أن تحقق مكاسبها على مدى أربعين عاماً بداية باحتلال فلسطين وانتهاء بغزو لبنان.

ومن أبرز الأمثلة على ذلك شخصية اللورد «دافيد ينج» الذي هاجر إلى بريطانيا مع أسرته بعد الحرب العالمية الأولى واستطاع عن طريق شركته التجارية من اختراق حزب المحافظين والتدرج من وظيفة مستشار غير رسمي في (دوانج ستريت) مقر الحكومة البريطانية إلى وزير للعمل ثم وزير للتجارة والصناعة في آخر تشكيل لحكومة حزب المحافظين بعد فوزهم بالانتخابات للمرة الثالثة.

لقد ذكرت صحيفة التايمز اللندنية في عددها الصادر بتاريخ ١٢/٧/

١٩٨٧م ص ٤٤ نقلاً عن كتاب^(١) يسجل فيه مؤلفه وقائع الانتخابات البريطانية الأخيرة: أن شخصية لورد ينج حظيت بثقة المسؤولين في حزب المحافظين. وانطلاقاً من هذه الثقة فلقد لعبت هذه الشخصية دوراً رئيسياً في قضية الاتصال الجماهيري وعرض برنامج الحزب بصورة مكّنت المحافظين من تحقيق مكاسب كبيرة.

إلا أنه لم يرغب عن ذهن هذا المهندس الجديد أن التخطيط للحزب الذي ينتمي إليه أن يكون مرتبطاً بالمنفعة الذاتية وطموح الشخص وذلك ليس تجنباً على الرجال أو تصوراً ذهنياً لما تنطوي عليه شخصيته ولكنها عبارته التي أفلتت منه أثناء معركة الانتخابات البريطانية حيث أبدى تخوفه من برنامج حزب العمال الاقتصادي في حالة فوزه بالانتخابات قائلاً «ماذا سوف يحدث لأسهم الشركة التي امتلكها لو أن هذا الحزب حقق الأغلبية المطلوبة؟». ثم أردف قائلاً: وما هي قيمة أي واحد منا لو تمكنوا (أي العمال) من تحقيق الفوز؟.

نعم إن «ينج» لم يجانب الصواب فهو كأبناء جنسه من اليهود يرون في المال قوة لا تقهر ولكن ذلك المال يجب أن يسخر لشيء واحد فقط وهو بناء دولة صهيون الغاشمة التي يجب أن تعيش ولا تقهر. . إنهم يحلمون ثم يعملون فيحيلون الحلم حقيقة وما علينا بني الإسلام إلا أن نعمل حتى نجعلهم يحلمون فقط. فهل نحن عاملون؟

(١) اسم الكتاب الذي صدر في هذا الشأن هو:

Campaign: The Selling of the Prime minister, by Rodney Tyler.

الفصل الثاني

النواحي الإعلامية

الصهيونية والإعلام الغربي

تحت عنوان «الوصول إلى أوروبا وأمريكا» وفي جريدة عكاظ، بعددها الصادر يوم السبت ٢٤ جمادى الأولى ١٤٠٧هـ أثار الأستاذ عدنان كامل صلاح قضيتين حساستين متلازمتين: الأولى هي عجز الإعلام العربي عن استغلال الفرص المناسبة للوصول عبر القوة الصهيونية على هذا الرأي، ولعلّ هذه السيطرة - من وجهة نظري - هي الأكثر حساسية في قضية الصراع العربي - الإسرائيلي، الذي يمثل تحدياً حضارياً كانت بدايته في عام ١٩١٧م، عندما قام وزير الخارجية البريطاني - آنذاك - «أرثر بلفور» بكتابة رسالة إلى اللورد اليهودي «روث شايلد» تلك الرسالة التي عبر فيها «بلفور» عن تعاطف حكومته مع طموحات الحركة الصهيونية في إنشاء وطن قومي للشعب اليهودي فوق أرض فلسطين، ولم يكن ذلك الوعد إلا نتيجة طبيعية لتلك الجهود التي بذلها الدكتور «وايزمان» رئيس الحركة الصهيونية العالمية - آنذاك - والذي استطاع خلال دراسته في جامعة مانشستر بالمملكة المتحدة في الفترة

الزمنية ١٩٠٤ - ١٩١٤م، أن يتسلل إلى المجتمع الأكاديمي البريطاني وأن ينفذ عن طريق تفوقه في حقل علم الكيمياء إلى عالم الصحافة حيث رحبت به صحيفة «الجارديان» وكانت يومئذ تصدر بمدينة مانشستر وقام محررها المعروف «س.ب. سكوت» ببناء سمعة خاصة لهذا الصهيوني الذي كان منبوذاً في فترة لاحقة بسبب عداوته الخاص للمجتمع البريطاني المسيحي، ولم يكتف «سكوت» بالترحيب بهذا المفكر الصهيوني ولكنه وضع أيضاً كل إمكانيات صحيفة «الجارديان» في خدمة القضية الصهيونية والتي كان «وايزمان» نشطاً في نشر مبادئها في الأوساط الثقافية البريطانية، ثم ما لبث «سكوت» أن قدم «وايزمان» إلى المؤسسات السياسية وتمكن هذا الأخير أن يبرز في شخصية العالم الزاهد في المناصب والجوائز العلمية التي عرضتها عليه الجامعة التي قضى فيها سنوات دراسته، ولكنه سعى سعيًا حثيثاً لانتزاع وعود أعضاء تلك المؤسسات لمؤازرة القضية الصهيونية ولقد كانت الحركة العمالية البريطانية ميداناً خصباً للتغلغل العنصري الصهيوني منذ عام ١٩٠٢م. وفي عام ١٩٢٢م تأسست المنظمة العالمية الاشتراكية الصهيونية داخل حزب العمال البريطاني، ومن ضمن اهتمامات هذه المنظمة الدفاع المكثف عن القضايا الصهيونية إضافة إلى تدعيم أواصر الصداقة بين الحركة العمالية البريطانية والدولة العنصرية الصهيونية. وإذا كانت المنظمة الصهيونية العالمية تستخدم وسائلها المتعددة للتأثير في المسارات التي يرغب أفراد الشعب البريطاني في اتخاذها فإنها لا تقوم بهذا الدور وحدها فهناك مجلس النواب اليهودي البريطاني الذي تسيطر عليه مجموعة من اليهود المتطرفين والذين يؤمنون بمبادئ حزب «حيروت» الصهيوني الداعية إلى القتل والتنكيل بكل من يقف في سبيل انتشار الحركة الصهيونية. ويقف إلى جانب هاتين

المنظمتين بعض العاملين في هيئة الإذاعة البريطانية والتي كان يرأس مجلس أمنائها إلى حد قريب أحد اليهود الذين يعلنون ولاءهم للصهيونية دون تحفظ وهو «ستيوارت ينغ» وهذا ما يجعلنا لا نستغرب ذلك التعاطف الذي تبرزه بعض وسائل الإعلام الأوروبي تجاه الحركة الصهيونية التي لا تألوا جهداً بمناسبة وبغير مناسبة في إثارة قضية التنكيل النازي باليهود حتى تتمكن من استدراار عطف الرأي الأوروبي تلك العقدة المفتعلة التي أخفت وتخفي وراءها حقيقة الجرائم التي ترتكب في حق الشعب الفلسطيني المناضل.

الإعلام الإسلامي في مواجهة التحديات

لم يتمكن الإعلام العربي والإسلامي بعد من إيجاد رؤية واضحة وشاملة تجاه القضايا التي ترتبط بمصير أمتنا في الوقت الحاضر ويأتي في مقدمة هذه القضايا موضوع السيطرة الصهيونية على قنوات الإعلام الغربي وما تؤدي إليه هذه السيطرة من إعطاء القضايا التي تتصل بالشعب اليهودي أبعاداً إنسانية وحضارية غير حقيقية كما أن هذه السيطرة حققت هدفها الذي سعت إليه منذ أمد طويل وهو الربط بين شخصية الفرد المسلم وقضية الإرهاب الدولي بكل صوره وأشكاله.

وكان عام ١٩٨٦ عاماً حافلاً بعدد من القضايا التي أبرزت تمكن هذا الإعلام الصهيوني في عرض آرائه والانتصارات لمبادئه، بينما كان تناول الإعلام الإسلامي والعربي للقضايا نفسها ينم عن شيء من الضعف في الإحاطة والمعرفة وعدم القدرة على اتخاذ الوسائل الملائمة لاستغلال هذه الأحداث الهامة في مواجهة النفوذ الصهيوني المتغلغل بصورة أسطوانية داخل المجتمعات الأوروبية.

ومن ضمن هذه الأحداث التي أبرزت الفرق الشاسع بين الإعلامين الإسلامي والصهيوني، تلك الزيارة الخاصة التي حاول أن يقوم بها الزعيم الأمريكي المسلم «عمر فرخانة» في بداية عام ١٩٨٦م للمملكة المتحدة، وبما أن «فرخانة» عرف بعدائه للاتجاهات الصهيونية وانتصاره للقضية الفلسطينية، فلقد كان ذلك كافياً لقيام الإعلام الصهيوني بشن حملة عدائية ضد هذا الزعيم المسلم كان نتيجتها منعه - بعد وصوله إلى مطار هيثرو - من دخول بريطانيا بحجة أن وجوده قد يثير بعض المشكلات الطائفية، لقد تمكّن المجتمع اليهودي في بريطانيا من أن يقول كلمته ثم يملّي على الآخرين تنفيذها لأنه مؤمن كل الإيمان بمحتواها وعلى استعداد أن يضحّي في سبيلها. وإذا بحثنا عن موقف الفرد المسلم من هذا الحدث فإننا نجده لم يعطه ما يستحقه من اهتمام ورعاية ولم يرتفع به إلى تلك الآفاق المتصلة بالوضع الحضاري والكيان الفكري للأمة، ولعلّ أشياء من هذه السلبية مردّها إلى ذلك العجز الذي أشرنا إليه في قدرة المؤسسات الإعلامية الإسلامية. ولربما أن مرد ذلك العجز إلى أسباب يأتي في مقدمتها احتذاء هذه المؤسسات تقليداً وغفلة للإعلام الغربي في طرق معالجته أو تحليله للقضايا العالمية ونسيت هذه المؤسسات أن الإعلام الغربي يفتقد كثيراً من المصداقية بسبب عدم قدرته على التحيد عند تناوله لتلك القضايا استناداً إلى مواقف تاريخية وفكرية معينة وإنه ربما ارتكب الأخطاء الجسيمة واضطر إلى تغيير الحقائق خوفاً من طائلة النفوذ الصهيوني وتحسباً للعواقب التي ينجم عنها أي مساس بوجوده ومصالحه الذاتية.

الإعلام الغربي وقضية حقوق الإنسان

إن تحقيق الاستقلالية في المؤسسات الإعلامية الإسلامية قاعدة ضرورية لتجنب ما وصفناه في الموضوع السابق من عدم تحقق المصادقية في وسائل الإعلام الغربي «صحافة، وإذاعة، وتلفزة» فيما يتصل بتلك القضايا التي يمكن وصفها بأنها ذات سمة مصيرية في تاريخ أو كيان الأمتين العربية والإسلامية.

انساق إعلامنا الإسلامي خلف الإعلام الغربي حيث كان التوقف ضرورة يملئها استقراء الأحداث التي يحاول الغرب تفسيرها لنا من منطلقات تختلف تمام الاختلاف عن المنطلقات الحقيقية التي يؤمن بها، ويعمل من خلالها على تحقيق إرادته التي لا يؤثر فيها إلا ما يفرضه النفوذ الصهيوني من رغبات لا يقوى الغرب بمؤسساته الإعلامية والثقافية على مناقشتها فضلاً عن عدم تحقيقها.

جندت الصهيونية الإعلام الغربي في السنوات الأخيرة لإثارة موضوع «حقوق الإنسان» في المجتمع السوفيياتي (سابقاً)، فلم يوافق زعيم أوروبي على القيام بزيارة رسمية للمعسكر الروسي ما لم يتضمن برنامج الزيارة الاجتماع ببعض المنشقين السوفييات «كاندريه ساخروف» وما لم يشمل البيان النهائي للزيارة نفسها على التأكيد على الحقوق المهدرة لهذا الإنسان، وتنتهي الزيارة وتبدأ وسائل الإعلام الغربي في إبراز صور هؤلاء الزعماء الأوروبيين وهم يتحدثون إلى هؤلاء المنشقين والذين كثيراً ما تخلع عليهم صفات العبقرية والعظمة والإنسانية.

تعمدت هذه الوسائل الإعلامية في كثير من المناسبات عدم التعرض للتوجه الفكري أو الاعتقاد الديني لهؤلاء المنشقين والاكتفاء بوصفهم

بالمنشقين السوفيات إلا أن هذه الوسائل تدرك تماماً أن العامل الوحيد خلف هذه الإثارة المفتعلة حول هذه الشخصيات هو انتماؤها العقائدي للديانة اليهودية وتوجهها الفكري للحركة الصهيونية وأنه لو تجردت هذه الشخصيات من انتمائها العقائدي والفكري لما حظيت بشيء من هذه الهالة العظيمة التي لم يتنبه الإعلام العربي والإسلامي إلى خطورتها فأخذ يردد المقولة الغربية - نفسها - دون وعي وتبصر وتلك غفلة ما كان لإعلامنا العربي أن يقع فيها وهو الذي تقع عليه مسؤولية تمحيص ما يتلقاه القارئ والمستمع في مجتمعاتنا اعتماداً على منطلقاتنا العقائدية والفكرية.

إن ما نراه أحياناً من شواهد حية تتصل بهذا الموضوع تجعلنا كالذي يضحك عندما يضحك الآخرون وينوح عندما ينوحون، ولعلّه مما يعمق أبعاد هذه الصورة المحزنة أن هذا الذي نحتذيه في أفراحنا وأتراحنا هو عدو لا يمكن الاطمئنان إليه لمجرد ابتسامة صفراء ترضي غرورنا أو صيحة حزن تمطر غيمة في عيوننا.

الإعلام الغربي وقضية تهويد القدس

حاول الإعلام الغربي أن يربط بين الاستيلاء الإسرائيلي على القدس الشرقية في حرب حزيران ١٩٦٧م وبين ما أسماه بالمكتسبات التي تحققت للمدينة في ظل الإدارة الإسرائيلية، ومن بين هذه المكتسبات - بحسب زعمه - حرية زيارة الأماكن المقدسة التي لم تكن متوافرة خلال الفترة بين ١٩٤٨ - ١٩٦٧م^(١).

(١) كيت ماجواير - تهويد القدس، مركز الدراسات العربية - بيروت، ١٩٨١م - ص ٣٥.

ويستند هذ الادعاء الإعلامي الزائف إلى تلك النبوءة المفتراة التي رسختها الصهيونية في الفكر المسيحي المعاصر عن أرض الميعاد التي وعد الله بها نسل نبيه إبراهيم من اليهود فقط.

إن المنطق ليقضي من هذا الإعلام الذي كثيراً ما يفاخر بالعقلانية في تبني الآراء وبالمنهجية في تقصي الأخبار، أن يقف موقف المحقق الأمين الذي يرى أن نبوءة كهذه يمكن أن تتداعى بسهولة أمام رفض العقل البشري لادعاء باطل يقوم على تمييز الله بين عباده فيختص شعباً منهم برعايته ليمنحهم من ملكوته ما يحرمه على الشعوب الأخرى.

كما أن هذه الفكرة التي روج لها الإعلام الغربي تتناقض مع مقاييس الحق المعاصرة التي يمكن من خلالها أن نحكم على أحقية شعب ما على أرض معينة اعتماداً على حقيقة الولادة على هذه الأرض والإقامة الطويلة والمتواصلة عليها، وهو ما يستحيل انطباقه على الشعب اليهودي الذي تدفق إلى فلسطين خلال القرن الأخير من أواسط أوروبا، بولندا، روسيا، الولايات المتحدة وهم في غالبيتهم من الخزر انسال القوقازيين الروس الذين اعتنقوا اليهودية في منتصف القرن الثامن الميلادي^(١).

ولقد كان من واجب الإعلام الذي نشط في التنصير بعصر ذهبي لمدينة القدس بعد توحيدها بصورة غير شرعية تحت الحكم العسكري الإسرائيلي، أن ينقل الصورة الحقيقية لسلسلة الأحداث البربرية التي استهدفت بصورة رئيسية الأماكن المقدسة للمسلمين أتباع ذلك الدين الذي سن خلفاؤه ابتداء من الخليفة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - كل أسس المساواة والعدل بين أتباع الديانات المختلفة التي وجدت على هذه

(١) سمير جرجس «القدس»، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ١٩٨١م، ص ٤٠.

الأرض المقدسة، كما كان لأماكن العبادة المسيحية نصيب من تلك الأحداث. فلقد تم في عام ١٩٧٩م إحياء الهجمات ضد المنظمات المسيحية من قبل جماعات يهودية أرثوذكسية.

وبهذا نرى أن الإعلام الغربي قد فشل في تحقيق مبدأ المصادقية الذي يتشدد به في كل مناسبة فلم يجسر على النقد أو إبداء الرأي فيما أقدمت عليه الصهيونية من تعسف في تفسير نبوءة أرض الميعاد الكاذبة، والتي أقحمت فيها الكتب الدينية المسيحية، ثم لإغماض هذا الإعلام عينيه وصم أذنيه عن تلك الاعتداءات الإرهابية المتكررة التي شهدتها الأماكن المقدسة والمؤسسات والأحياء غير اليهودية، ولعلّ السبب في صمته المشين هو أنه مازال يحلم بتلك المكتسبات التي لم يكن لها وجود إلا في ادعاءات الفكر الصهيوني الجائر.

الإعلام الغربي والجاليات الإسلامية

بعد أن دالت دولة الاستعمار من تلك البلاد التي حكمتها تحت شعار إنقاذها مما وقعت فيه من تخلف اجتماعي واقتصادي، وبعد أن رفعت يدها عن تلك الشعوب التي لم تتورع يوماً في أن تنتشي بمنظر دمائها المسفوكة.. خرجت وفي نفسها حنين إلى العودة ولكن أخفته إلى حين، ولم يكن ذلك الإخفاء خوفاً من سطوة أو رغبة في وداد، ولكنها الاستراتيجية والطموح المنفعي الذي يحكم تصرفاتها وتبني عليها سياستها.

وحيث إن المبادئ التي تنادي إلى الأخذ بها الحكومات الغربية من المثالية والكمال فيها من القوة - ظاهراً - ما يجعلها فوق أي شبهة يوجهها الآخرون إليها لذا فهي تلجأ إلى عدد من الأساليب الملتوية التي

تحقق بها رغباتها الدفينة والتي تعبر عن عقلية يمكن وصفها بأنها تتنافى مع ذلك التدرج الطبيعي الذي بلغته العقلية الإنسانية وحقت به مستوى حضارياً معيناً تنتفي معه كل سمات السيطرة والفوقية والعنصرية. لذا فهي تلتزم الصمت إزاء كثير من التصرفات غير الإنسانية التي ترتكبها بعض المؤسسات السياسية ضد الأقليات التي تعيش داخل المجتمع الغربي وتشارك في عملية تنميته ولكنها لا تحظى بالحصانة التي تمكنها من دفع ما يمكن أن يرتكب ضدها.

فالجالية الإسلامية والعربية المقيمة في فرنسا والتي يبلغ عددها حوالي ثلاثة ملايين ونصف المليون نسمة تتعرض لحرب جسدية ونفسية تقوم بها (الجبهة الوطنية) أو ما يسمى باليمين المتطرف.

والمسألة لا تتوقف عند أولئك الضحايا العرب - ومن بينهم الكثير من الكهول والأطفال - والذين كانوا هدفاً لرصاص هذه الحركة الفاشية، وتبلغ القضية ذروة مأساتها عندما نجد الأحزاب الأخرى (اليمينية واليسارية) وهي أحزاب رسمية مسؤولة نجدها تتبنى في غير استحياء الأطروحات اللوبية (نسبة إلى ماري لوبين زعيم الاتجاه المتطرف في فرنسا).

وفي بلد آخر كالولايات المتحدة الأمريكية فإن المنظمات الصهيونية الرسمية تتولى مهمة مضايقة الإسلام وأهله وليس بغريب علينا تلك الأعمال الإرهابية التي تعرض لها كثير من أعضاء «جمعية الأمريكيين - العرب لمناهضة التمييز العنصري».

وامتدت في حمأة ذلك الحقد الأعمى يد آثمة إلى المفكر الإسلامي (عمر الفاروقي) فقتلته مع زوجته وعلى مرأى من أطفاله وضاعت قضية

إجرامية كهذه في بلد ما يسمى بالعدالة والحرية لأن القتل مسلم والقاتل يهودي .

وفي بريطانيا لا يمر يوم من الأيام إلا وأنت تسمع عن قصة عائلة مسلمة وقد تعرض منزلها للسلب وأبنائها للضرب وكبارها للشتم بألفاظ تكشف عن فكر عنصري متجذر عند من يقومون بهذه الأعمال التي يحاول البوليس - أحياناً - إخفاء تفاصيلها تعاطفاً مع المتسببين فيها .

ولا شك في أن وسائل الإعلام الغربي التي كثيراً ما تردد كلمات إرهابيون Terrorists أو عصابات Guerillas عند الحديث عن قضايا الشرق الأوسط وخصوصاً القضية الفلسطينية، أو كلمة Tribalism «القبلية» عند التغطية الإعلامية للشؤون الإفريقية. هذه الوسائل مسؤولة عن شحن نفسية الفرد الغربي بهذا الشعور العنصري الذي تتفجر طاقته بشكل مفرغ .

صورة العربي في السينما الأوروبية

تناول الزميل الدكتور «راكان حبيب» في موضوعاته القيّمة التي ينشرها على صفحات مجلة «اقرأ» عدداً من قضايا الإعلام العربي، وكانت إحدى هذه القضايا الهامة التي نبّه إليها هو استغلال الأفلام الأوروبية والأمريكية لأي فرصة لترسيخ النظرة العدائية ضد العرب .

ومع أن المقالة لم تعرض لأمثلة من هذه الأفلام إلا أنها اكتفت بتلك الإشارة الموجزة لهذا الموضوع الحساس الذي يجب أن تشغل موضوعاته مساحة كبيرة من صحافتنا الواعية في سبيل توفير أطر ثقافية واضحة وقوية للقارئ ليستطيع من خلالها مواجهة التيارات الفكرية والثقافية الأخرى، التي تعمل منذ أمد طويل وبوسائل عديدة على إثارة

الشكوك حول الأسس الحضارية والمسار التاريخي للأمة التي ينتمي إليها هذا القارئ عقيدة وفكراً وسلوكاً.

وسأكتفي في موضوع اليوم بالإشارة إلى صورة العربي في السينما الفرنسية التي لم يكن من ضمن اهتماماتها في السنوات السابقة التعرض للشخصية العربية بهذه الصورة السلبية، إلا أن الحضور الصهيوني المتزايد في المجتمع الفرنسي - أخيراً - نجح إلى حد بعيد في التأثير على بعض المخرجين الفرنسيين لتنفيذ ما يسعى إلى تثبيته من صور سيئة ومشاهد دنيئة عن الفرد العربي.

ففي فيلم «بوليس» للمخرج «موريس بيالا» يمكننا أن نلاحظ اقتحام شخصية العربي للسينما الفرنسية، لكن، على أي شكل؟ فكل العرب الذين يطاردتهم مفتش الشرطة «مونجان» بائعو مخدرات مجرمون صغار غشاشون ومزورون.

ولقد أنتج عدد المخرجين ذلك المسار الذي ابتدأه «موريس» ففرى صورة العربي نفسها لم تتغير إن لم تزد سوءاً في فيلم (الأخ الأكبر) الذي أخرجه «فرانسيس جيروا» وقام ببطولته النجم السينمائي جيراردو باردو وكذلك الحال نفسه في فيلم (الميزان) للمخرج بوب سوام وفي فيلم (وداعاً بونتان) لكود بيري^(١).

لقد أصبح العربي في السينما الفرنسية يقوم بنفس دور الإنسان الإفريقي في الأفلام البوليسية الأمريكية وبنفس دور الهنود الحمر في

(١) جميع المعلومات المتعلقة بهذه الأفلام رجعنا فيها إلى مقال «العربي يقتحم الشاشة لكن على أي شكل» والذي نشر بمجلة «جون افريك» عدد ١٢٩٦ - ١٩٨٥م ترجمة كل من فريد بوغدير وعاسين سعيد.

أشرطة رعاية البقر الأولى ولئن استطاعت شخصية الإنسان الإفريقي أو الهندي الأحمر أن تثبت وجودها في المجتمع الأمريكي وتبرهن على خيالية تلك الصور السلبية التي رسمت بإيحاء من العقلية الاستعمارية التي تؤمن بتفوق جنسي وتدعو إلى عنصرية غير إنسانية، فإنه مما لا شك فيه أن الوجود العربي والإسلامي في كثير من دول العالم الغربي لديه القدرة الكافية في أن يثار لكرامته ويعمل على تغيير تلك الصورة المشينة بأسلوب حضاري يتمثل في تحمل الأمانة ومراقبة السلوك والتزام أسلوب المناقشة والإقناع وهو ما أمرتنا به الآيات البينات في كتاب الله الكريم وجسده لنا رسول الله ﷺ في كل مرحلة من مراحل الدعوة الإسلامية.

الإعلام وهوية المعركة

ارتفع الإعلام الإسلامي والعربي إلى مستوى الأحداث التي تشهدها أرض فلسطين أخيراً، وكان دور الإعلام السعودي.. كما وصفه الأستاذ عبد الله الحصين في كلمته بعدد يوم الثلاثاء ٧ رجب ١٤٠٨هـ دوراً سباقاً إلى رصد وتجسيد الانتفاضة بكل ما فيها من زخم الإثارة وعمق الإحساس وصدق الموقف ولا شك أن ذلك الموقف هو التجسيد الحي لمواقف المملكة الثابتة من هذه القضية منذ عهد المغفور له جلالة الملك عبد العزيز - رحمه الله.

ولعلّ السؤال الذي يتطلع الكثير إلى طرحه من قبل الإعلام والصحافة العربيين هو: ما هي نوعية المعركة التي تخوضها الأمة الإسلامية مع الحركة الصهيونية العالمية؟ هل هي - فقط - معركة سياسية تريد فيها إسرائيل الاحتفاظ بالأرض التي احتلتها على مراحل متعددة؟ أم

أن المعركة تنطلق من مواقف عقائدية وحضارية يمكن تلمس أوجهها في هذا الدعم العسكري والمعنوي الذي تحظى به الدولة العنصرية من المعسكرين الشرقي والغربي؟ فأمريكا مثلاً التي تريد أن تبرز وجهها الإنساني بالدعوة إلى الانسحاب العسكري من أفغانستان، هي القوة التي يستمد منها الكيان الصهيوني كل موجبات غطرسته وعنجهيته، في معركته، البربرية مع الشعب الفلسطيني الأعزل، والمعسكر الشيوعي الذي لا يحتفظ بعلاقات رسمية مع هذا الكيان نفسه، هو المصدر الأساسي الذي تستمد منه إسرائيل عوامل وجودها واستمراريتها وذلك عن طريق فتح باب الهجرة اليهودية إلى أرض فلسطين، وعياً منها بأهمية الجانب الديموغرافي «السكاني» في تحديد أبعاد ومستقبل هذا الصراع التاريخي والحضاري.

إن مصطلح «إيباك» الذي يتفوه الأمريكيون باسمه في حذر ويتحدثون عن مدى تأثيره في صناعة القرار الأمريكي بكل خوف وتهيب هو اختصار لاسم (لجنة العلاقات العامة الأمريكية - الإسرائيلية) وهي أحد العناصر الأساسية في تشكيل السياسة الخارجية الأمريكية، وتختار لها مكتباً تتم حراسته حراسة مشددة، ويقع بالقرب من مبنى الكونغرس ويتحكم في بيع أسلحة أمريكية للدول الأخرى، وتتشاور الخارجية والبيت الأبيض مع هذه الجماعة ويجري الجنرالات وأعضاء الشيوخ اتصالاتهم بها^(١).

والغريب أن هذه الجماعة ليست إسرائيلية، وهي مؤسسة للأمريكيين الذين يؤيدون إسرائيل في الإدارة الأمريكية والكونجرس، والرأي العام.

(١) رسالة واشنطن، صحيفة الأهرام المصرية، ١١/٧/١٩٨٧م، ص ٥.

ويوجد في دول العالم الغربي الأخرى شبيه لهذه المنظمة من حيث بواعث تأسيسها وتوجه أهدافها ولعلّ Paole Zion^(١) «المنظمة العالمية الاشتراكية الصهيونية لحزب العمال البريطاني» هي الأكثر شبهاً بهذه المنظمة الأمريكية، ولقد بدأت المنظمة البريطانية نشاطها السياسي في عام ١٩٢٠م بعد اندماجها بصورة رسمية في حزب العمال، فعملت على الدفاع المكثف عن القضايا الصهيونية في داخل الحزب وبين أروقة مجلس العموم البريطاني، كما استطاعت أن تفرض سيطرتها بصورة تدريجية حتى أصبح من حقها إخضاع الأفراد الراغبين في الحصول على عضوية في الحزب إلى امتحان عنصري عسير، وفي حالة عدم اقتناعها بالشخصية المتقدمة فإنه يصبح من المستحيل أن يتجرأ المسؤولون على ضم تلك الشخصية - صهيونياً - إلى مؤسستهم الحزبية.

ومن المواقف التي تحتفظ بها ذاكرتي عن هذه المنظمة هو استغلالها لاندلاع القتال بين بعض الفصائل الفلسطينية في «لبنان» في عام ١٩٨٣م فلقد وقف أحد أعضائها البارزين، وهو النائب العمالي Ian Mikardo «اين ميكاردو» يحث مجلس العموم على اتخاذ قرار جماعي بقفل المكتب الفلسطيني «بلندن»، ولكن المجلس أعرض عن رأي كهذا ولم يلتفت إلى تلك العبارات المغلفة بحماس صهيوني لا يستغرب من أعضاء اليمين أو اليسار في الحزب الذي طالما تحدث اليهود وأنصارهم من فوق منابرهم بكل غريب وعجيب.

وسوف تتحرك الصهيونية بعد القرار الأمريكي الذي يتناقض مع تلك المبادئ التي ينادي بها الإعلام الغربي من حرية، وعدالة، ومساواة

تتحرك من خلال أصدائها في البرلمانات الأوروبية لإصدار قرارات مماثلة، وسوف يضحى الموقف الأمريكي سابقة سيئة في حق الشعب الأمريكي - نفسه - الذي أخضع للابتزاز الصهيوني، وهبى بكل الوسائل للإيمان بجميع الترهات التلمودية، إنه رفض للعقل، وتحدي للعقلانية، واستخفاف بالمبادئ.

المجتمع الإسلامي في بريطانيا والضغط الصهيونية

«تحت عنوان مثير وغريب وهو (Which Way Leads to Paradise) (أي السبل يقود إلى الجنة) «نشرت صحيفة التايمز» اللندنية في عددها الصادر بتاريخ ١٩ أغسطس ١٩٨٧م تحقيقاً عن وضع المسلمين في المجتمع البريطاني وقد حددت الصحيفة هدف هذا التحقيق بقولها في مقدمته «إن المسلمين يواجهون اختباراً صعباً يتمثل في مدى قابليتهم لتقبل الثقافة المهيمنة في المجتمع الذي يعيشون فيه أو الاكتفاء بترائهم الخاص وهو - أي التراث - ما سوف يؤدي بهم في النهاية إلى العزلة.

ثم يذهب التحقيق للإشارة إلى أن عدد المسلمين في الجزيرة البريطانية قد بلغ المليون، وإنه من المتوقع أن يزداد هذا العدد بصورة كبيرة مع حلول عام ٢٠٠١م وتعود الصحيفة للتأكيد على الهدف الذي بنت عليه تحقيقها وهو معرفة مدى استعداد الأجيال القادمة لتقبل الثقافة الأوروبية وإنه في حالة رفضهم لمعطياتها سوف يواجهون مستقبلاً خطيراً ولا تتردد الصحيفة في أن تتنبأ بمستقبل انعزالي لأفراد الجالية المسلمة وهذا ما سوف يدفع المجتمع البريطاني لأن يربط بين هذه العزلة الثقافية وبين تلك المخاطر التي بدأت تشهدها مياه الخليج العربي.

وقبل أن نتعمق في كثير من جزئيات هذا التحقيق الفريد فإنه يحق

لنا أن نتساءل عن الدوافع عند صحيفة معروفة كهذا في أن تبدأ تحقيقها بإثارة قضية المواجهة الثقافية أو الحضارية بين الجالية الإسلامية والمجتمع البريطاني. هل هو من قبيل تهيئة القارئ أو الفرد البريطاني ليتخذ موقفاً محدداً من الإسلام وأهله؟ أم هي قضية الخوف من انتشار الإسلام بين قطاع كبير من أفراد المجتمع البريطاني وخصوصاً في مدن بريطانية معروفة مثل لندن ومانشستر وبرمنغهام وكاروف وجلاسكو؟ وإنه مما يؤكد هذا الدافع الأخير هو أن الجزء الثاني من التحقيق ركز على شخصية الداعية الإنجليزي المسلم يوسف إسلام والذي كان يعرف سابقاً في عالم الموسيقى والفن بلقب Cat Stevens «كات ستيفينز»، ثم قطع صلته بالفن وأهله بعد اعتناقه للدين الإسلامي في عام ١٩٧٧م ليصبح واحداً من الدعاة الإسلاميين الذين تشغلهم قضية إيجاد مدارس مستقلة لأبناء المسلمين تتوجه نسبة كبيرة من مناهجها للدراسات الإسلامية. ويرى يوسف إسلام أن الدافع وراء قيام مثل هذه المدارس إنما يعود بالدرجة الأولى إلى وضع المجتمع البريطاني الذي لا يهتم أفراداه بتعاليم الدين المسيحي بل إن الأجيال فيه غدت تتعرض بصورة واضحة للآراء غير الدينية والممارسات غير الأخلاقية ويرد على القائلين: بأن وجود المدارس الإسلامية في مجتمع غربي هو تجزئة لهذا المجتمع، لأن واقع هذا المجتمع يقول شيئاً آخر، فماذا عن هذه النسبة الكبيرة من الأطفال الذين يتركون دورهم ثم لا يعودون إليها؟ أليس في المناهج الإسلامية التي تدعو إلى الحب والاحترام، ما يصلح اعوجاج هذا المجتمع ويقوم ما فسد من سبل التربية فيه؟

ولكن الصحيفة التي طرحت قضية المواجهة الثقافية بين الجالية

الإسلامية وبقية أفراد المجتمع البريطاني بصورة مفتعلة، لم تملك الشجاعة الكافية لتشير إلى أن الذي وقف ضد مطلب الجالية الإسلامية بإيجاد مدارس مستقلة لم يكن المجتمع البريطاني أو تقاليده العلمية، التي ينبثق بعضها من الديانة المسيحية التي يكن لها المسلمون في صورتها الحقيقية كل الاحترام والتقدير، ولكنها التعاليم الصهيونية ممثلة في شخصية الوزير اليهودي السابق للتعليم «كيث جوزيف» الذي قاد معارضة واضحة ضد المطلب الإسلامي منذ توليه مسؤولية التعليم في بريطانيا في عام ١٩٨٣م حتى استقالته في عام ١٩٨٦م بسبب مواجهة جميع نقابات المدرسين لما سماه ببرنامج الإصلاحات الجديدة الخاص بثقافة المدرس وعدد ساعات عمله وأجره.

لقد ظل جوزيف إلى اليوم الأخير الذي أنهى فيه عمله يعارض مطالب المسلمين التعليمية حفاظاً، بحسب تعبيره، على التقاليد العلمية والثقافية للمجتمع البريطاني. ولكن ماذا عن تلك الامتيازات الخاصة التي تحظى بها الجالية اليهودية في بريطانيا؟ وفي مقدمة تلك الامتيازات السماح لرجال الدين اليهود بالتردد على المدارس الإنجليزية بحجة إعطاء دروس دينية لجميع أبناء الجالية اليهودية المنتمين إلى هذه المدارس والذين يأتون لتلقي العلم فيها متميزين عن غيرهم بارتداء القبعات الخاصة بهم، بينما يبقى محظوراً على أبناء الجاليات الأخرى ارتداء أي لباس خاص يميزهم عن بقية زملائهم من الدارسين.

ولنا أن نتساءل أيضاً لماذا هذا التسامح المفرط مع كل ما هو يهودي؟ وذلك الحجر والتضييق على كل ما هو إسلامي؟ فهل من مجيب؟

(١) اليهوديان والصحافة البريطانية

لم تجد الصحف البريطانية وصفاً ملائماً للشخصيات العربية التي قامت بواسطة الطائرات الشراعية بعملية فدائية ناجحة ضد الأهداف العسكرية في الأرض المحتلة إلا تلك الكلمات المألوفة في قاموسها (Zterrorist) «الإرهابيون» معبرة بذلك عن تعاطفها مع الاحتلال الصهيوني للأرض العربية ورافضة في الوقت نفسه المقاومة المشروعة للشعب الفلسطيني ولم تبخل صحيفة مثل التايمز أو الديلي إكسبرس بنشر صور بعض الجنود الإسرائيليين وهم يكون معانقين بعضهم البعض بعد انقضاء عملية دفن من قتل من زملائهم الجنود وذلك بغية كسب عواطف القارئ الإنجليزي إلى جانب ذلك الجندي الإسرائيلي الذي لا يهمه سوى إثارة الرعب بين أفراد شعب عزل يرون الظلم ثم لا يستطيعون له دفعاً.

والصحافة البريطانية التي دأبت على استعمال مثل هذه الكلمات التي تسيء إلى ذلك العدد الكبير من أفراد الجالية المسلمة التي تعيش داخل الجزيرة البريطانية نفسها وتشارك مشاركة إيجابية في تنمية المجتمع البريطاني منذ أمد طويل هي الصحافة نفسها التي تسيء إلى شعوب إنسانية أخرى وتتعامل مع شؤونهم بقاموس من الكلمات أنتجته عصور الاستعمار والإقطاع وكان على هذه الصحافة التي تربط بلدها بعلاقات سياسية واقتصادية مع شعوب أخرى أن ترفع «حضارياً» عن هذه الكلمات المسيئة وتنظر إلى قضايا هذه الشعوب بنظرة بعيدة عن التأثير اليهودي الذي يمارسه بعض الناشرين اليهود من أمثال روبرت موردخ الذي يملك مجموعة الصحف البريطانية المعروفة باسم الصن أو روبرت ماكسويل الذي يملك قطاعاً آخر من المؤسسات الصحفية في بريطانيا وأمريكا.

إن هذين التاجرين أو الناشرين اللذين يمارسان من خلال الصحافة سلطة قوية على العقول والأفكار يرفضان دوماً أي محاولة لدفع مسار هذه الصحافة إلى الاتجاه المعتدل ولكنها محاولات يجب أن تتم لأن الخاسر الوحيد في هذه القضية هو المجتمع الغربي.

(٢) اليهوديان والصحافة البريطانية

تحدثنا في المقالة السابقة عن سيطرة الناشرين اليهوديين روبرت مردوخ وروبرت ماكسويل على قطاع كبير من المؤسسات الصحافية في بريطانيا فلقد آلت - في السنوات الأخيرة - ملكية صحيفة التايمز إلى «مردوخ» المعروف بإمبراطوريته الصحافية التي تتوزع بين دول كأستراليا والولايات المتحدة الأمريكية أما ماكسويل الذي يتحكم في ست صحف إنجليزية بما فيها الصحيفة المعروفة Daily Mirror «ديلي ميرور» فهو صاحب انتشار غريب في كثير من دول العالم الغربي وبعض دول العالم الآسيوي والأفريقي.

لقد ساهم ماكسويل في القناة الفرنسية المعروفة باسم T. F. I. ويملك حصة في مؤسسة الطباعة الكينية كما وقع أخيراً اتفاقاً يتم بموجبه تزويد الصين ببرامج تلفزيونية ومن آخر أهدافه التجارية في مجال الصحافة والإعلام هو رغبته في الإسهام في شركة الطباعة الأمريكية (Bell and Howell).

لقد كان لتسلط «ماكسويل» على القنوات الإعلامية في دول العالم الغربي أثره في إضفاء سمات أسطورية على شخصيته فهو الذي تصفه مجلة «النيوزويك» في عددها الصادر بتاريخ ٣٠ نوفمبر ١٩٨٧ بأنه العامل الذي لا يفرق بين منتصف الليل أو منتصف النهار كما أنه يتحدث تسع

لغات مختلفة لذا فقد حظي في أيام قصيرة بمقابلة رئيس جمهورية فرنسا ورئيس وزرائها وملكة الدنمارك ورئيسة وزراء بريطانيا وهو في الوقت نفسه المتعاطف العمالي الذي يصرح بعداؤه للشيوعية ولكنه يحتفظ بعلاقات حميمة مع زعماء دول أوروبا الشرقية وللتدليل على ذلك فلقد قام أخيراً بزيارة ودية لدولة «بلغاريا» أثمرت في نهايتها عن تعاون صناعي وتجاري . .

لقد ولد «ماكسويل» بحسب رواية «النيوزويك» في تشيكوسلوفاكيا من أسرة يهودية مزارعة وانضم إلى حركات المقاومة ضد النازية في موطن نشأته ثم في فرنسا وأخيراً انضم إلى الجيش الإنجليزي وكوفئ على خدماته في هذا الجيش بمنحه ميدالية عسكرية في سنة ١٩٤٥م .

ثم جاءت حكومة «هارولد ويلسون» العمالية في عام ١٩٦٤م، وكان «ويلسون» معروفاً بتعاطفه مع الحركة الصهيونية وزعمائها فأصبح ماكسويل على أثر ذلك نائباً عمالياً في مجلس العموم البريطاني، ومن هناك دخل التاريخ من أوسع أبوابه وعلى أكتاف الذين يهتمهم أن تنتصر الصهيونية في كل الميادين، وبما أن ذلك لن يتحقق إلا بالسيطرة على الإعلام وقنواته، فكان لا بد لمردوخ وماكسويل أن يتربعا على عرش الصحافة في الغرب .

(١) الذين يجروون على الكلام

ذكر الأستاذ عبد الله القصبي في مقال له بصحيفة المدينة في عددها الصادر بتاريخ ٢٩ شعبان ١٤٠٨هـ أنه من المؤلم أن يأتي إلى بلادنا «بول فندلي» Paul Findly مؤلف كتاب (الذين يجروون على الكلام) They dare to Speakout ويقضي بضعة أيام ولا يدعوه نادٍ ولا تستقبله

صحيفة ولا يطلب منه أن يحاضر أو يتكلم . وعبارة الأستاذ الفاضل السابقة فيها شيء من التعميم، فلقد قامت صحيفة سعودي جازيت بإجراء مقابلة مع فندلي ونشرتها في عددها الصادر بتاريخ ٩ رجب ١٤٠٨هـ ولقد كشف الكاتب الأمريكي في هذه المقابلة عن حقائق جديدة تتصل بخضوع الإدارة الأمريكية لنفوذ اللوبي الصهيوني، كما أن الصحيفة نفسها تقوم بنشر كتابه على حلقات متتالية، وهو جهد لا بد من الإشارة إليه وإن كان هذا الجهد لا يغني الصحف الأخرى أو المؤسسات العلمية والثقافية من قيامها بالدور المطلوب تجاه هذا الكاتب ومؤلفه الذي أصبح منذ عام ١٩٨٠م هدفاً لأهبط حملة برلمانية في تاريخ ولايته الأمريكية «إلينوي» شنتها المدن التي يتركز فيها النشاط الموالى لإسرائيل وذلك بسبب انغماسه في شؤون الشرق الأوسط وكان هدف الحملة هو إقصاؤه عن التمثيل في الكونغرس الأمريكي وجعله عبرة للآخرين الذين يتجرؤون على اتباع نهج يخالف ذلك النهج الصهيوني الذي اختطته اللجنة الأمريكية - الإسرائيلية للشؤون العامة «إيباك» Aipac والتي يطيع أوامرها جميع أعضاء مجلس الشيوخ والنواب حيث أدخل في روعهم أنها تعرف كل ما يقال عن سياسات الشرق الأوسط حتى وإن كان ذلك يجري في الأحاديث الخاصة .

وللتاريخ فإن فندلي لم يكن الشخصية الأولى في العالم الغربي التي تتعرض لضغوط اللوبي الصهيوني فقد سبقه إلى ذلك عدد آخر من الكتاب السياسيين الأوروبيين الذين أرادوا أن يقولوا الحقيقة حول الصراع العربي - الإسرائيلي فعمل ذلك اللوبي على إسكاتهم بكل الطرق والوسائل . ومن هؤلاء العضوان السابقان في حزب العمال البريطاني

كريستوفر مايهو Christopher Myhew ومايكل آدمز Michael Adams اللذان أصدرتا كتابهما المعروف باسم (تغطية الشرق الأوسط) The Middle East Cover up في عام ١٩٧٥م بعد أن رفضته كثير من دور النشر البريطانية لأنه يبحث في جذور اللوبي الصهيوني في بريطانيا وعلى وجه التحديد في المؤسسات السياسية والإعلامية، كما تعرض المؤلفان لاتهامات الصحيفة الصهيونية الصادرة من بريطانيا «جويش كرونكال» Jewish Chronicle وكذلك لضغوط المؤسسات الصهيونية الأخرى مثل مجلس «نواب يهود بريطانيا» والذي يحق لأعضائه ترشيح أنفسهم ليصبحوا ممثلين عن الأحزاب السياسية البريطانية في مجلس العموم مما يكسبهم نفوذاً قوياً داخل هذا المجلس لا يتحقق للممثل الإنجليزي، ولقد استطاع كثير من اليهود الوصول إلى عدد من المراكز السياسية الهامة في الحكومة البريطانية عن طريق مجلس النواب اليهودي Board of Deputies of British Jews ولا تزال حكومة المحافظين الحالية تعتمد في وزارة المالية والتجارة والصناعة وشؤون اسكتلندا على وزراء يهود إضافة إلى عدد آخر يتوزع بين مجلس اللوردات، والمجالس البلدية المحلية.

(٢) الذين يجرؤون على الكلام

من الشخصيات البريطانية التي عانت من ضغوط اللوبي الصهيوني، شخصية رئيس مجلس بلدية لندن السابق «كين ليفينقستون» Ken Livingstone. S حيث عبر بصراحة في مناسبات عديدة عن رأيه في مجلس النواب اليهودي البريطاني وانتقد سيطرة اليهود المتطرفين والمتممين إلى حزب «حيروت» على شؤونه، كما انتقد - أيضاً - في عام ١٩٨٢م الغزو الإسرائيلي للبنان على حد سواء.

ولقد تمكّن اللوبي الصهيوني من ممارسة نفوذه بطريق غير مباشر حتى أصدرت الحكومة البريطانية قراراً بإلغاء مجلس البلدية الذي يرأسه «ليفينقستون» وإبداله بمجلس آخر يختلف في تكوينه وصلاحياته عن المجلس السابق.

ومن الكتاب الذين تعرضوا لحمالات مشابهة الكاتبة الاسكتلندية «ماريون وول فسون» Marion Wool Fson والتي تنحدر من أصل يهودي بسبب كتابها الجريء عن المناضل الفلسطيني بسام الشكعة والمعروف باسم (صورة فلسطيني) Portrait of Palestinian.

لقد تعرضت «وول فسون» لحمالات عديدة عن طريق الرسائل والمكالمات التليفونية والتي كانت تحذرهما الاستمرار في كتابة تاريخ هذا الزعيم الفلسطيني الذي أبعدته السلطات الإسرائيلية من بلاد أجداده بحسب تعبير الكاتبة نفسها.

إن الحركة الصهيونية تستغل جميع الإمكانيات المتاحة لها في المجتمعات الغربية للتعتيم على الحقائق العلمية المجردة، وتستخدم كل الأساليب الإرهابية ضد أولئك الذين تحاول أقلامهم أن تسطر كلمة حق وإنصاف ولعلّه من واجب الصحافة العربية والإسلامية أن تكشف للفرد الأوروبي ما تحاول الصهيونية فرضه من قيود على فكره، وهي بهذا تعمل على انتهاك حقوقه المشروعة في أرضه وبين أفراد مجتمعه.

منظمة ايباك وصناعة القرار الأمريكي

إن إغلاق المكتب الإعلامي الفلسطيني بواشنطن بقرار رسمي من الحكومة الأمريكية بعد أن أقره مجلس الشيوخ وتسابق الأعضاء الجمهوريون والديمقراطيون بتوقيع أسمائهم عليه، يؤكد ذلك الموقف

العدائي الذي التزم به اللوبي الأمريكي اليهودي ضد الأمة الإسلامية والعربية منذ قيام الكيان الصهيوني الغاشم فوق الأرض العربية التي سلبت خيراتها وشرد أبنائها في جميع أنحاء الدنيا. ولو كان لهذا اللوبي سلطة مطلقة لطمس اسم فلسطين من كتب التاريخ وجعل وجود الشعب الفلسطيني ضرباً من الخيال والأسطورة الكاذبة، ولا نستغرب ذلك فتلك العقيدة الصهيونية تجر المؤمنين بها من الشعوب الأخرى إلى ارتكاب صنوف من السلوك غير السوي، والإقدام على المواقف المذهلة التي سوف ينظر إليها التاريخ الإنساني في مستقبل الأيام على أنها رجعة بالإنسان - نفسه - إلى عصور الظلام التي صودرت فيها تلك الحرية التي منحها الله إياه ليعبر بها عن كل ظلم يلحق به ولا يستطيع له دفعاً.

لقد برّر الأمريكيون قرارهم بإسكات الصوت الفلسطيني المعتدل بأن إغلاق المكتب من أولويات أهداف اللوبي الصهيوني «إيباك» وهو الرد الوحيد الذي تملكه الإدارة الأمريكية عندما احتج سفراء العرب على هذا القرار الغريب والأغرب منه أن يأتي من شخصية مسؤولة في وزارة الخارجية الأمريكية مثل شخصية «ريتشارد مورفي» الذي كان من المتوقع أن يبدي مبررات تتفق مع أحكام العقل وحيثيات المنطق.

أما الدول الغربية فأحزابها العمالية والاشتراكية التي تدّعي الالتزام بقضاياها العادلة والحرية هي الأكثر دفاعاً عن الفكر الصهيوني وقضاياه، وكمثال على ذلك فعندما اجتمعت دول عدم الانحياز في السنوات الأخيرة عارضت «أستراليا» إدراج كلمة فلسطين في البيان الختامي للاجتماع كما استطاعت الصهيونية أن تتسلل إلى أحزاب اليمين أو الأحزاب المحافظة في الغرب بصورة تدريجية، وأصبح عدد اليهود

المتكلمين باسم هذه الأحزاب أمراً لافتاً للنظر، كما حدث في حزب المحافظين البريطاني الذي شغلت فيه شخصيات يهودية أو ما زالت تشغل المناصب الحكومية الرسمية كوزارة المالية، والداخلية، والثقافة، والتجارة، والصناعة، والعمل وشؤون اسكتلندا إضافة إلى وجود شخصيات يهودية دينية في مجلس اللوردات ومجلس أمناء هيئة الإذاعة البريطانية الرسمية B. B. C. كما يستحوذ اليهوديان الملتزمان روبرت ماكسويل وروبرت مورديخ على قطاع كبير من المؤسسات الصحفية في بريطانيا وأستراليا وكندا والولايات المتحدة.

لقد ذكر أحد اليهود مرة في التلفزيون البريطاني أن عداء اليهود قضية تقليدية بين الشعب الألماني. ولكن ماذا عن قضية التعاطف مع الصهيونية في بعض المجتمعات الغربية، إنها قضية تقليدية - أيضاً - ولكن ما هي دوافع هذه القضية وجذورها؟

إن الإعلام الإسلامي والعربي مدعو للنظر في هذه القضايا بمنهاج علمي دقيق يستطيع أن يتمكن من خلاله تلمس أوجه التوافق أو الاختلاف ومواضع التأثير والتأثير بين الفكرين الأوروبي والصهيوني. بالمواقف السياسية والتوجهات الإعلامية إنما تتشكل ضمن أطر فكرية واجتماعية وتكون وليدة قناعات عقدية وحضارية.

جورباتشوف والصحافة الغربية

خصصت مجلة (التايم) الصادرة بتاريخ ٤ يناير ١٩٨٨م جزءاً كبيراً من صفحاتها عن حياة الزعيم السوفيياتي ميخائيل جورباتشوف، بل اختارته من بين الشخصيات السياسية العالمية ليكون الشخصية الأكثر تأثيراً وجاذبية، وقد حاولت المجلة أن تتعمق كثيراً في الحياة الشخصية للزعيم

السوفياتي إلا أنها اعترفت بالعجز أمام بعض الأسئلة الخاصة بحياته العائلية مع أن العدد نفسه حمل مقالة خاصة عن شخصية زوجته نقلت صوراً من طريقة مناقشتها له وخصوصاً في الاجتماعات العامة التي تتطلب منها أن تكون أكثر هدوءاً ومجاملة له - أي لزوجها - بحسب تعبير المجلة.

وسارت صحيفة الصنداي تايمز على غرار المجلة السابقة فتحدثت في عددها الصادر بتاريخ ٢٧ ديسمبر ١٩٨٧ عن المنحى الجديد للتيار الإعلامي الغربي تجاه شخصية «جورباتشوف» فبينما كان الزعماء السابقون له يغلغلون النواذف بين بلدهم والبلدان الأوروبية الأخرى، نجده يحاول فتح هذه النواذف.

وتناولت الصحيفة كتاباته السياسية التي أصبحت تحظى بشهرة كبيرة في الأوساط الغربية، بل إنها حققت مستوى عالياً من الانتشار بين طبقات المجتمع، إلا أنه مما يلفت النظر أن مجلة «التايم» ذكرت إشارة عابرة تفيد أن جورباتشوف شارك في حملة عداء ضد السامية Anti-semitic تزعمها الرئيس السوفياتي ستالين - في عام ١٩٥٣م بينما تشير صحيفة الصنداي تايمز أن مستوى حقوق الإنسان قد تحسن في عهد جورباتشوف، فلقد أطلق سراح ما يقارب ٢٧٥ سجيناً، وأن نوعاً جديداً من الديمقراطية قد بدأ تنفيذه في الاتحاد السوفياتي (سابقاً) وظهر ذلك في السماح لحوالي ٧٠٠٠ من اليهود بمغادرة البلاد، ولا أظن أن الربط بين ما ورد في مجلة التايم وصحيفة الصنداي تايمز يحتاج إلى كثير من الذكاء. فالإعلام الغربي يبحث مدققاً في حياة الزعيم السوفياتي ليجد مدخلاً مناسباً لإشعاره بتأنيب الضمير وهو في الوقت نفسه يهلهل مرحباً

بما يحلو له أن يسميه بالاتجاه الديمقراطي أو الإنساني الجديد في - روسيا - وهو اتجاه لا يعني في حقيقة الأمر أكثر من الحذب والعطف على الحركة الصهيونية داخل الاتحاد السوفياتي. وإذا علمنا أن جزءاً كبيراً من يهود أمريكا ينتمون أصلاً للاتحاد السوفياتي، ثم هاجروا إلى هذا العالم الغربي، وأخذوا يمارسون تدريجياً نفوذهم السياسي والاقتصادي فإنه عندئذ نجد تفسيراً واضحاً لهذه الضجة الإعلامية التي يحظى بها جورباتشوف في صحافة الغرب، إنها كلمة الشكر يقدمها الغربيون للزعيم الشيوعي نيابة عن المجتمع اليهودي، وإذا وجدنا تفسيراً لهذه الضجة الإعلامية التي تحمل لواءها كل أجهزة الإعلام الغربي فإننا لا نجد عذراً لبعض وكالات الإعلام العربي والإسلامي التي تسير خلف هذه الضجة الإعلامية الغربية فتظن جهلاً أن عبارات حقوق الإنسان تعني ذلك العدد الهائل من المسلمين الذين يعيشون تحت ديكتاتورية الحكم الشيوعي وتعسفه، وإن الاتجاه الديمقراطي يراد به الاعتراف بحقوق جميع الشعوب التي تنضوي تحت حكم الكرملين.

فهل ينتبه القائمون على صحافة عالمنا ووكالاته إلى هذا الخطأ الفادح الذي تترتب عليه كثير من الأضاليل التي عمد الإعلام الغربي إلى غرسها في أذهاننا، ودس زيفها بين مجتمعاتنا المسلمة التي تحتاج إلى توعية بقضاياها المصيرية وتبصير بما يدسه لها أعداؤها.

نصيب الشعراء في جائزة نوبل

قامت الدنيا ولم تقعد في صحافة الغرب بدءاً بصحيفة «الأوبزيرفر» البريطانية وانتهاء بمجلة التايم الأمريكية ولم تكن هذه الضجة المفتعلة إلا احتفاء بالشاعر Joseph Brodsky جوزيف برودسكي الذي فاز بجائزة

نوبل في الأدب فلقد أفردوا الصفحات لصوره الشخصية التي يبدو في بعضها مبتسماً وفي بعضها الآخر متأملاً أما قصة حياته فقد تناولوها من كل جوانبها، فهو ينتمي إلى أسرة من «ليننغراد» في الاتحاد السوفياتي حيث عاش هناك حتى عام ١٩٧٢م وهي السنة التي أبعد فيها إلى الولايات المتحدة الأمريكية التي استقبلته استقبال الفاتحين، فذلك الشاعر الذي كان نصيبه الطرد من المدرسة في مراحل تعليمه الأولى أصبح عضواً بارزاً في جامعة (Michigan) ميتشيجن ثم منح الجنسية الأمريكية في عام ١٩٧٧ وأهله كتاباته وأشعاره ليفوز بجائزة مؤسسة «آرثر» والتي تقدر بحوالي ٢٨ ألف دولار أمريكي.

لقد سلك الإعلام الغربي أسلوباً غريباً في تقديمه للشاعر برودسكي فهو يصفه بالإنسانية أولاً، ثم يذكر عن شخصيته جملة من الصفات التي تكاد تجرده من بشريته، وتضفي عليه شيئاً من الطهر والقداسة، فهو بارع في الأداء الشعري منذ أن كان في العشرين من عمره، والشعر جنى عليه وقاده إلى تهمته بالخروج على التعاليم الاشتراكية فسجنته السلطات السوفياتية لمدة معينة ثم أطلقت سراحه بعد أن ثار الغرب ممثلاً في زعمائه ومفكره على هذا الصنيع المضاد للحقوق الإنسانية.

وتسعى وسائل الإعلام الغربية - أيضاً - إلى نفي السمة السياسية عن هذه الشخصية، وهي تبرز ما ورد في أشعاره من نقد واستنكار بأن أي إبداع إنساني يتم إنجازه في مجتمع ديكتاتوري يمكن تصنيفه ضمن دائرة الفكر المعارض ولئن أرادت هذه الوسائل أن تنفي عن «برودسكي» أي سمة سياسية، فإنها اعترفت بأن قصائده الشعرية أعادت الحياة إلى العديد من الكلمات الدينية التي اختفت في الحقبة «الستالينية» مثل الله، الروح،

الضمير . كما أكدت أن برودسكي لم يفقد شيئاً من سماته الشخصية في الفكر واللغة والشكل أيضاً فعلى الرغم من إجادته للغة الإنجليزية فعملية الإبداع عنده لا تتم إلا في إطار لغته الأصلية.

إن التكنيك الذي استخدمه الإعلام الغربي يسعى - دائماً - إلى إيجاد روح التعاطف عند الفرد الأوروبي مع فئة معينة من الناس دون سواها فكثير من المقالات التي تحدثت عن إنسانية وذكاء وخفة دم «برودسكي» تعمدت أن تغفل الحديث عن يهوديته وأن عملية نفيه - مع الاعتراف بدكتاتورية النظام الشيوعي - ترتبط بتلك العقيدة التي تؤمن بها الطوائف اليهودية في كل مكان وزمان وهي: (تسلط على كل خير تنبته أرض الآخرين وتأمّر مع صهيونيتك ضدهم).

أما محاولة نفي السمة السياسية عن شخصية «برودسكي» فهو درء لهذا الإعلام من الوقوع في تناقض صريح، فأولئك الشعراء والكتّاب الذين كانت تتعقبهم فاشية النظام العنصري في جنوب أفريقيا وما زالت تتعقبهم نازية الحركة الصهيونية في أرض فلسطين، يتعمد الغرب إهمالهم، إن أبدعوا، ولا يتحدث عن مأساتهم إن قتلوا أو عذبوا والحجة لهذا التنكر لإبداعهم الأناني ومواقفهم الثابتة هو التزامهم بالاتجاه الوطني. والفكر الغربي يدعي تجرد مقاييسه من الآثار الدينية أو الوطنية، وهي حجة واهية تتداعى مع هذا الضجيج الذي افتعلته وسائل الإعلام حول شخصية «برودسكي» الذي فاز بجائزة نوبل تدعيماً لموقفه الانشقاقي وإعجاباً بفكره الديني اليهودي الذي تمثل فيما ترجم من أعماله الشعرية إلى اللغة الإنجليزية.

وحتى تكتمل الصورة فقد منحت جائزة «نوبل للسلام» أيضاً لرئيس

جزيرة كوستاريكا تقديراً كما يدعي الإعلام الغربي لجهوده في إحلال السلام بين دول أمريكا الوسطى، لكن بقي عليهم أن يعرفوا أن الآخرين يعلمون أن الجائزة منحت لهذه الجزيرة في ذكرى مرور عشرين عاماً على احتلال إسرائيل لمدينة القدس، فلقد تقدمت هذه الجزيرة عدداً من مثيلاتها من الدول الانتهازية في نقل سفارتها من تل أبيب إلى القدس في أثناء حرب حزيران ١٩٦٧م.

واليوم يوم الوفاء والغرب على استعداد أن يكرم الأصدقاء نيابة عن الآخرين.

جائزة نوبل وقصر الأليزيه

الحديث الذي يتناقله الناس عن السيطرة اليهودية على جائزة «نوبل» ليس فيه أي مبالغة بل إن كل مناسبة تتصل بهذه الجائزة تزيد من حقيقة هذا التسلط وتوجهاته السياسية، كما حدث عندما منحت الجائزة للشاعر اليهودي السوفياتي المنشق سياسياً «جوزيف برودسكي» ولكن حدثاً مهماً جرى لم نجد له - للأسف الشديد - أي أثر يذكر في صحافتنا الإسلامية والعربية، ونوهت عنه بالمقابل صحيفة التايمز اللندنية.

أما الحدث فهو أن السياسي اليهودي (Elie Wiesle) وأحد الحائزين على جائزة نوبل أقام رابطة تهدف إلى تنظيم شؤون الفائزين بهذه الجائزة حيث يتوجب عليهم مناقشة الأمور التالية: حقوق الإنسان.. نزع السلاح النووي.. المجاعة في العالم، وانتشار مرض الإيدز، أما أعضاء الرابطة الذين ينتمون إلى ثمانية عشر بلداً ففيهم السياسي اليهودي «الدكتور هنري كيسنجر» الذي منحت له الجائزة في عام ١٩٧٣م - كما يدعون - لجهوده في إنهاء حرب فيتنام - وفي رأيي الشخصي - فإن الجائزة منحت

له لجهوده الدائمة في تثبيت دعائم الكيان الصهيوني، والعالم اليهودي السوفياتي - الدكتور «اندروسوخروف» الذي يتخذ العالم الغربي من قضيته الشخصية عاملاً بضغط به على الدول الشيوعية لتقديم بعض التنازلات الهامة، وزعيم النقابات المستقلة في «بولندا» الذي تستغل أجهزة الإعلام الغربي - أيضاً - قضيته استغلالاً دولياً.

لقد أرادت هذه النخبة الأدبية «شكلاً» والسياسة «حقيقة» أن تختار مناسبة هامة لاجتماعها فلم تجد - بحسب تعبيرها - ذكرى أروع وأعظم من تلك الذكرى التي ترتبط بتاريخ الشعب اليهودي، وهي مرور ثلاثة وأربعين عاماً على إجلاء اليهود من المعسكر النازي وهي القضية التي تستخدمها الحركة الصهيونية للضغط على العالم الغربي في تحقيق مزيد من الابتزاز المالي والمكاسب السياسية على حساب الشعب الفلسطيني.

أما المكان الذي اختير ليتمكن أعضاء الجائزة من إلقاء خطبهم الرنانة عن السلام المرتقب لهذا العالم على أيدي اليهود، فلقد كفاهم الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران مؤونة ذلك، لقد وضع تحت تصرفهم قصر «ألايزيه» المشهور، ثم لم يكتف بذلك فقد تبرع بنصف تكاليف ومنصرفات هذا المؤتمر البالغة «٤٧٠،٠٠٠» جنيه استرليني.

أما السؤال الذي لن تكون إجابته صعبة فهو: لماذا أظهرت فرنسا أريحياتها وعطفها تجاه مؤتمر كهذا؟ والإجابة عن ذلك أن الانتخابات الفرنسية كانت على الأبواب والرئيس ميتران كان يطمع في تجديد مدة رئاسته والحل السحري - بحسب اعتقاد الأوروبيين - عند بني يهودا.

أما نحن هنا في بلاد المسلمين والعرب فعلينا أن نتبصر بأمورنا ونستفيد من الأولويات التي يهتم بها أعداؤنا ومستعمرو مقدساتنا إنهم

يعملون ساسة ومفكرين وأدباء كل ما في جهمهم لخدمة أهدافهم الحضارية من تثبيت لهوية الشعب اليهودي ودراسة لتاريخه وإحياء للغته الكلاسيكية «اليديشية» ومحافظة على كل الفنون الأدبية المختلفة المتصلة بها، في الوقت الذي يشكك فيه بعضنا بتاريخنا الإسلامي العظيم وازدراء لأدبنا القديم وطمس معالمه ومميزاته بحجة التحديث والتجديد.

إن التاريخ لن يرحمنا إذا ما سلكنا طريقاً مميتاً كهذا واستمرأنا تهريجاً باسم الفكر والأدب يدفعنا إليه أعداؤنا ونحن سادرون.

قائمة بأهم المصادر والمراجع

١ - العربية:

جارودي - روجيه .

ملف إسرائيل - دراسة للصهيونية السياسية ترجمة الأستاذ

الدكتور مصطفى كامل فودة، دار الشروق - ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

جارودي - روجيه.

وعود الإسلام

- الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - ١٤٠٤هـ -

١٩٨٤م.

سعيد - إدوارد

الإشراق

- المعرفة - السلطة - الإنشاء - ترجمة كمال أبو ديب

مؤسسة الأبحاث العربية - بيروت - ١٩٨٤م.

سوسه - أحمد

العرب واليهود في التاريخ

العربي للإعلان والنشر والطباعة - دمشق.

عمر - محجوب

«شارون - هذا الرجل وحياته»

مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ١٩٨٤م.

فندلي - بول

من يجرؤ على الكلام

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

نويهض - عجاج

بروتوكولات حكماء صهيون

طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ١٩٨٧م.

وزان - عدنان محمد

الاستشراق والمستشرقون

- سلسلة دعوة الحق - السنة الثالثة، العدد ٢٤ مكة المكرمة،

١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

٢ - الإنجليزية :

- Amis, Kingsley

Harold's Years 1964 - 1976

London - 1977

- Brenner, Lenni

The Iron Wall

London - 1984

- Childs, David

Britain Since, 1945

London And New York, 1977

- Cohen - Steve

That's Funny, You Don't

Look Anti - Semitic - London, 1984

- Cosgrave, Patrick

Carrington a Life And A Policy

London, 1985

- George, David, Liloyd

War Memoirs, London

- Gilbert, Martin

Jews Hope

U.S.A. 1985

- Good Man, Paul

The Jewish National Home

London, 1943

- Hirst, David

The Gun And The Olive Branch

London, 1984

- Howardm, Anthony

The Cross Man Diaries

London, 1979

- Lewis, Bernard

The Jews of Islam

London, 1981

- Lewis, Bernard

London, 1986

- Mayhew, Christopher

The Middle east Cover Up

London, 1975

- PYM - Francis

The Policts of Consent

London, 1984

- Al-Raheb - Hani

The Zionist Character in the English Novel

London, 1985

- Rein Harz - Jehuda

Chaim Weiz Wann

The Marking of Zionist Leader

Oxford, 1985

- Runciman, Steven

A History Of The Crusades

Cambridge, 1951

- SEA Man, L.C.B

Post - Victorian Britain 1902 - 1951

London 1982

Shahak, Isreal

Isreal, Globel Role

Weapons For Repression

U.S.A, 1982

- Shahak, Isreal

The Zionist Plan For The Middle East 1982, U.S.A

- Stephens, Mark

Un Skilled Labourer And World

States Man, Ernest bevin

London, 1981

- Vital David

The Origins of Zionism oxford, 1980

- Waines, David

Asentence Of Exile, The Palestine/Isreal

Conflict, 1897 - 1977

London, 1977

قراءة نقدية في بيان
حمزة شحاتة الشعري

المقدمة

الصديق الأديب الباحث الدكتور/ عاصم حمدان، في قراءته النقدية لبيان حمزة شحاتة في مقدمته لكتاب الأستاذ عبد السلام الساسي - رحمهما الله - (شعراء الحجاز في العصر الحديث)، جاءت قراءته بأسلوب أكاديمي تحليلي بديع، أعادني إلى ذكريات طريفة عن الحرج الذي وقع فيه (الساسى) عند تنصل حمزة من كتابة هذه المقدمة، فلجأ الساسي لي مستنجداً: «يا أستاذ تعلم الحقيقة وتعرف كاتبها؟! فأقف منه موقف المتفرج، موقناً أن حمزة قد (دبّس) الساسي في أحد مقالبه الطريفة، والأخير يكاد يشد شعره ويستصرخ، وتزداد (التأتأة) التي عرف بها عند انفعاله - ولا مجيب.

إلا أنه غني عن البيان، وكما جاء في كتابة الصديق د.عاصم: أن المقدمة تحمل في ثناياها بصمات حمزة بلا ريب، والشواهد في ذلك كثيرة، وكما أشار على سبيل المثال لقصة معرفة الزيدان لأسلوب حمزة، في مقال نشر تحت توقيع (قاف)، ولكن الشاهد ليس في هذا فحسب، فالساسى كعاشق لبيان شحاتة وكونه كان راوية لشعره، وشعر مجاليه كالعواد - الذي كان أحد فرسان كتاب - (الشعراء الثلاثة)، كان عليه أن يدفع ضريبة ولعه، بتحمل دعابة حمزة هذه، وكم تحمل المسكين من

مقالب ومداعبات رفاقه، وتحضرني قصة اشتراك الساسي في الأكلة الحجازية المعروفة - المطبق - (بالباي)، ودفع قسطه التَّقدي، وعند إحضارها وهي ساخنة جداً، فوجيء الساسي، بانقضاضهم عليها، ولم يبقوا له إلا بعض حواف هذه الفطائر، فقد تم إفراغها من مضمونها - من مفروم وبيض وخلافه - فأصبحت كما يقال في أيامنا هذه - منزوعة الدسم - فعلق الساسي حانقاً: إنتو ناس تأكلوا مطبق؟! إنتو تأكلوا «شَكشوك»!. وكان «العواد» قد غضب من الساسي فهجاه بشعر، وأخذ الساسي يشكو من هذا الهجاء وينشره بين الناس، فكان بذلك يشهر بنفسه، ومما روى لي نومه في أحد المقاهي بأعالي مكة - شرفها الله - وهو ما اعتاده الناس آنذاك لشدة الحر، وعدم توافر وسائل التبريد، فكان الساسي يطلب من رفاقه قبل أن ينام القيام بربطه على الكرسي (الشريط) الذي ينام عليه، لأنه يمشي وهو نائم دون وعي منه، الأمر الذي قد يسبب له الأذى، ويعلق قائلاً: «يكفيني ما أناله منكم وأنا مستيقظ»، وكان رحمه الله شغولاً بالشعر، شغولاً بالغناء، وخصوصاً بأغاني - عبد الوهاب - وكثيراً ما يرفع عقيرته بها، منسجماً مع لحنها، مرجعاً لكلماتها، إلا أن صوته (الأجش) لا يمت للغناء بصلة، فيقول له صحبه: حرام عليك، إنك بهذا الصوت تسيء لعبد الوهاب، وتجعل الناس ينصرفون عنه، كما أن عبد الوهاب نفسه لو سمعك تغني له بهذا الشكل لأوسعك ضرباً، وربما أجهز عليك، والساسي لا يلقي لذلك بالاً. ويستمر الساسي في تحمل ما يلاقيه من مقالب، وهجاء، وعنت في حبه للشعر والفن والغناء، فلا يشنيه كل ذلك عن عشقه، ولا يصرفه عن حبه، وكأنني به يتمثل بقوله الشاعر الفلسطيني كمال ناصر:

أتوب؟ معاذ العلي، إي يوم؟! مضى شاعر للمعالي وتاب؟

وهذا الأمر يعيدنا إلى ما جاء في قراءة الصديق الدكتور/ عاصم، من إلماحات، لعبقرية شحاتة، وسعيه الدؤوب للكمال، وعدم رضائه بالأخذ من كل فن بطرف، ولكنه ينشد الإجازة والإتقان، في كل شيء كإجازة الموسيقى والعزف (كهاو) ومعرفته للألحان ومقامات الغناء، هذا الأمر الذي جعل من شحاتة نسيج وحده بين مجايليه، فريداً في هذا المنحى، فلم يرض طموحه سوى السمو لأعلى الدرجات في الإبداع، وكأني به في رقي وسمو إبداعه تنطبق عليه مقولة الشاعر وهي:

وكم أب قد علا بابنٍ دُرَى شرف كما علت برسول الله عدنان

ولا أخالني متجاوزاً لحقيقة هذا المبدع، فهو ابن هذه البيئة المعطاء، بما ضمت من عباقرة أفذاذ، الأمر الذي يوافق عليه كل من عرف هذا العملاق، ويمكن الرجوع إلى ما كتبه عن السمات العامة للأديب حمزة شحاتة في كتابي التيارات الأدبية الحديثة في قلب الجزيرة، قسم النشر والمقالة.

إن كتابي السياسي (الشعراء الثلاثة) و(شعراء الحجاز) والذي قدم للكتاب الأول بحرفية، أو كما يقال (بحرفنة)، معالي الشيخ محمد سرور الصبان، الذي حلله ووضعه تحت مجهر البحث الدقيق الواعي - حمزة - في مقدمته للكتاب الثاني، مشيراً إلى أن معاليه (رحمه الله) لم يترك فرصة لمن بعده إلا أن يكون مقلداً في التنصّل من تبعة محتوى الكتاب المقدم له، وهذا ما تأباه طبيعة - حمزة - من سعيه نحو الابتكار والإبداع، فنراه أيضاً وبأسلوبه الراقى وحديثه عن الفنون ومواطن الجمال والحسن، وكيفية

تذوقها موضحاً أسسها وقواعدها، الأمر الذي استعرضه د. عاصم بدقة وتفصيل في قراءته هذه.

عاصم أيها الصديق، ألم أذكر بداية أن قراءتك النقدية هذه تشير الشجون وتنكأ الذكريات؟ تلك أمة قد خلت، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت - رحم الله أبا شيرين وشيرين، ورحم الله أبا سلمى، وحفظك الله، أيها الأستاذ الدكتور الأخ الصديق.

عبد الله أحمد عبد الجبار

مقدمة

بقلم الأديب الحجازي الأستاذ حمزة شحاتة

الحجر مادة البناء الأولى .

فالإنسان يقيم به المأوى المقصود فيه الغرض على سد الضرورة والحاجة منه .

والبناء يصنع به منزلاً متكامل الصورة في النفع والتناسق والوثائق على نحو أوسع استيعاباً للمطالب المتطورة .

والنحات يصنع منه التماثيل والزخارف وفاتن الأشكال ، لا يضع فيها دقة الصناعة وجمالها والنفع . بل المعنى والفكرة ورمز الفن وتعبيره ، وأثرها في الخيال .

فصناعة النحت أتاحت للحجر تعبيراً أرقى من تعبيره في المأوى الحاجي ، وفي المنزل الكامل .

والكلام هو وسيلة التعبير عن أغراضنا وأداة تشكيلها وتصويرها ، فهو - بهذا - مادة البناء الأولى في مطالب النفس والفكر .

يصنع به المتحدث صور أغراضه ومراميه وشعوره .

ويصنع به الخطيب والكاتب وسيلة التأثير والاستفزاز ، والاستهواء

وترسيخ الغرض وتوكيد المطلب وعرض الفكرة والدعوة إليها.

ويصنع به الشاعر كل ذلك أو بعضه في صور أعمق فنية، وأوضح مثالية، وأفصح جمالاً، وأروع فتنة.

والناس لا يطلبون في المأوى الحاجي ما لا يحققه إلا المنزل المتكامل، ولا في المنزل المتكامل - من حيث توسع أغراض الصناعة والارتفاق - ما يطلبونه في صناعة النحت التي تستهدف التعبير الفني عن الفكرة؛ فهم أيضاً لا يلتمسون في الخطيب وما يلتمسونه عند الكاتب، ولا عند الكاتب ما يلتمسونه عند الشاعر.

فالشاعر إذن صاحب صناعة فنية مثالية رفيعة، تتصرف بمادة البناء الأولى في أبنيتها وصورها تصرفاً يتيح لها تعبيراً غني وأروع وأحفل بالفكرة والإشارة والرمز والمعنى والمضمون، أو تصرفاً أوسع مدى من تصرف المتحدث والخطيب والكاتب.

هذا الكلام مبدأ أو محاولة، لتبسيط فكرة التفريق بين المتحدث بالكلام المرسل مطلبه الإفصاح، والخطيب هدفه التأثير والاستهواء، والكاتب غايته ترسيخ الفكرة وتأسيسها، والشاعر يستهدف ما شاء في حياة الفكر والخيال والشعور وحركة النفس وخلجاتها واستجاباتها وحقائقها وأوهامها، أو في حياة الواقع والقانون والمنطق والقاعدة والعمل والتكوين، والرأي والعقيدة ولكن من هذا السبيل وبهذا الأسلوب سبيل الجمال وأسلوبه الخاص.

بهذا التفريق - إن كان معقولاً - تتفاوت مراتب الكلام حديثاً ومرسلاً، وصناعة حديث، وكتابة أديب، وشعراً.

والشعر - على ما يبدو أنه الصحيح - كلام وصناعة وفن. ولكنه في

كل صورة من هذه الصور، الترف الحافل بمعاني القدرة المعبرة وذخائرها النفسية، في أبهى الحلل والأثواب، حتى بساطته - وهي من أسمى صفاته وغاياته - إنما تكون ترف البساطة الفنية بالمدخورات، لأفقرها العاري أو المتكلف.

إن بواعث الشعر - فكرية كانت أو نفسية - هي ذات بواعث الحياة وانفعالاتها ومعانيه وخيالاته وصوره هي التي تجول في كل نفس وفكرة غامضة مكبوحة. أو واضحة طليقة، وباهتة أو لامعة.

والكلام هو وسيلة تصويرها والتعبير عنها، أو هو مادة بنائها، فلا جرم كانت ديباجة الشاعر وأسلوبه قوة وضعفاً وانطفاءً ونصوعاً، وصحة واعتلالاً، هي الدلالة والفارق والمقياس وميزان الحكم على قدرة الصناعة وحذقها وأهبتها واكتمال أدواتها.

وندير الكلام على طريقة أخرى فنقول: إن بواعث الشعر هي بواعث الغناء في كل نفس إنسانية، ونظن الأمر في هذه الفكرة من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى دليل أو موازنة.

وباعث الغناء يقر في نفس كل إنسان تقريباً. فكل إنسان يغني لنفسه بكلام ذي معنى يصنعه ويستعيّره أو يدندن بشيء يقل أو ينعدم نصيب المعنى وأثره فيه، وما في ذلك ضير ولا به غرابة فهو طبيعي بل ضروري في كثير من الأحوال، فلو سأل سائل، لماذا يغني الإنسان لنفسه؟ لما كان هذا السؤال إنكاراً أو اعتراضاً، وإنما يكون تقصياً للأسباب والبواعث والعلل.

أما إذا سأل: لماذا يغني الإنسان للناس؟ فإن السؤال هنا يشمل الإنكار أو احتماله ويشمل مسوغات الإقرار لفتح بابها أو قفله قبولاً أو رفضاً.

والإنسان إذا غنى للناس - احترافاً أو هواية - كان أول واجباته وأخلقها بالالتزام والرعاية من جانبه أن لا يقول شيئاً على أنه باب من أبواب الكلام يُفهم، بل شيئاً يستجاب ويطرب ويحرك الإقبال من باب حُسْن التصويت، ورخامة التنعيم، وقوة الاستجابة للمشاعر أولاً.

فهذه الصفات تنزل منزلة الأسلوب واتساق العرض وجماله وتأثيره في بسط النفس واجتذابها إلى ما تحتها أو وراءها من غرض هذا المغنى المائل في المقطوعة المغناة أو القول المردد.

وقد يفتقد في المغني حسن الصوت ولطافته فيستعيز السامع من ذاك قوة النبر أو امتداد النفس أو عمق الترجيع أو القدرة على الضبط والتوازن أو سعة الحيلة في التصرف فهذا تحريك للإقبال والتأثر والانفعال في السامع بلون أو أكثر من ألوان القدرة والحدق يعوضه عن فقدان مطلبه الأساسي من المغني.

فإذا حرم المغني من ذلك كله ولم تبق له إلا قوة المعنى وجماله وبراعته في بناء المقطوعة، لم يَعدْ أن يكون مردداً أو مرتلاً أو مُنشدًا... وهذا على أي حال غير مطلب الغناء والتطريب وغير ما يستحق به رافع عقيرته!! اسم المغني أو المطرب.

* * *

وعلى أن الشعر كالغناء في بواعثه وغاياته تأثيره كان لكل إنسان يحسن بواعث الشعر أن يقوله. كما كان لكل إنسان يحس بواعث الغناء أن يغني. لا حجر في ذلك على كليهما أمام قوانين الحرية والاختيار. أما أن يرفع المغني أو الشاعر عقيرته بين الناس فمسألة أخرى تختلف كل

الاختلاف، فهو هنا عارض بضاعة، أو طالب مقايضة، أو ملتمس مكانة، أو مستهدف غرض أدبي في الجماعة، أو متطوع لها - احتيلاً على المحمّدة - بما يفرض فيه أنه خير ما عنده، أو خير ما يقدر عليه؛ على معنى أنه مُغن أو شاعر، والمعنى المائل في عديد هذه الصور يتضمن الدعوة إلى المشاركة فيما يستحق بحشم مشقة السعي والإقبال والتلبية، واحتمال المنة المظنونة.

والإنسان وحده يأكل ما يشاء أو ما لا يقدر على أحسن منه وأطيب، ليس لأحد عليه حجر في الاكتفاء بالميسور والتافه وبما ليس به غناء في إقامة البنية أو حفظ الرmq، ولكنه متى دعا الناس إلى وليمة وجب أن يزكي دعوته ببسط أسباب الكفاية والإمتاع والتوسعة لهم، وتوخي غاية التجميل والإحسان على مقدار غرضه من دعوته أو على مقدار حرمة ضيوفه عليه أو على أنفسهم فهذا هو الصحيح.

ولو سألنا الآن: ما هي أغراض الشعر؟ لوجدنا أنها الجمال والتأثير، وإبداع الصور، أو استعارتها لتوشينها وجلائها وتلوين الحقائق والأفكار، أو صنعها أو صنعهما، أو ما شاءت المذاهب والطاقت، والمعنى المنطوي في ذلك كله، والدائر على تفسير جهد الشاعر، إنما هو مباحاته المضمرة بقدرته على هذا النحو من الإنتاج الفكري الرفيع - ما في ذلك شك -.

والشاعر في وسعه أن يكتفي بميسور الشعر أو بما دونه لنفسه وللمن ينزل منزلتها عنده، ولكنه متى أقام المعرض لكفايته على أعين الناس وأسماعهم فقد أولم! أو رفع عقيرته بالغناء! فما يحسن به حينئذ أن يستبقى من غايات فنه بعضها حين يفقد سائرهما، ولا أن يكون هذا السائر المفقود هو القوام، أو ما يدخل في باب المطالب الأصلية للشعر والغناء.

ونوضح الأمر فنقول: إن الأسلوب قوام الشعر كما هو قوام الغناء، أو كما هو قوام كل فائن وجميل وقوي ومؤثر في جملة ما يتوقف حصول تأثيره، على اجتذاب الرغبة فيه وإثارة الإعجاب به وتحريك الميل إليه.

نعم! إن الأسلوب قوام الشعر، ومظهر غاياته ومقاصده وهو في هذا كالجمل تهيأ له الوسامة والقسامة وحلاوة الشارة على قانون مقاييسها الجسدية، ولا تتهيأ له الحركة والنبض والروح وتأثير انطلاق معانيه، فيكون جمالاً (أسلوبياً) تجتمع له أسباب القدرة ومظاهرها ولا تتم له بها الغلبة والسيطرة على المشاعر والنفوس، ولكنه يظل جمالاً سليماً في القاعدة والتعريف، جمالاً يحرك الإعجاب والميل إلى التأمل إن لم يحرك الرغبة ويبعث الصبوة ويشير الهوى. فهو بهذا خير من دلائل الحركة الباطنة والنبض، والمعنى، والتعبير الملحوظ - في جسم متنافر التركيب، أو شاذ المقاييس، أو مطموس معالم الوسامة.

فالأسلوب في الشعر هكذا؛ هو شارة الحسن وشيائه في مثال الجمال، ولا معدى عن أن يكون صفة الشعر الأولى ومزيتة وأساسه وقوامه.

ولا شك أن الجمال التام هو ما تجتمع له سلامة الصورة موازنة لمعاني التأثير في تعبير المفاتن الجسدية أو شيء من هذا إلى شيء من ذلك.

ولكننا نسأل: أي جمال - أسلوبى - يخلو من صفات التأثير ودواعيه وأسبابه؟ كما نسأل: أي كلام يمكن أن يخلو من المعنى؟ إنما أسوأ الفروض أن يكون وجود صفات التأثير ودواعيه وأسبابه في الجمال - الأسلوبى - وجوداً ناقصاً أو مرجوحاً فلا يكون بهذا النقص سبباً مباشراً

في التأثير أو السبب المباشر له، بل معنى فيه، أو عنصراً في جملة عناصره، أو عاملاً من عوامله فهذا أخلق بأن يكون المعقول والواقع المفسر.

ولنذهب أبعد من هذا المذهب فنتصور جمالاً توازنت فيه معنويات الروح المعبرة المنطلقة، على مقاييس جمال الجسد وحسن شارته، ولكنه فقد جمال الاتساق في التصرف وبراعة الحركة في المشي والالتفاف والإيماء والاستجابة أو فقد لبوس النشاط المستمد من حذق القدرة في الإدراك والفطنة واللمح والحنكة والدربة المكتملة في استخدام المفاتن أو استخدام ما تدور عليه من انسجام الزينة والملبس! أفلا يكون بهذه العنجهية جمالاً يستشير العطف والمرحمة والإشفاق أو ربما استثار السخرية، لما طرأ على جملة أسلوبه من النقص والاضطراب والمفارقة بسبب فقدان هذه العوامل التي هي أسلوب، أو تكميل له؟؟

فالأسلوب في هذه الحالة، هو فن القدرة على استخدام المظاهر وتطويعها للتعبير عما ترمز إليه تعبيراً تنهض به الفتنة ويستقيم التأثير.

إن فن الحركة وفن توزيع الألوان، أو الأنوار والتصريف في تسليطها وتقدير نسب سقوطها على الأمكنة والشخوص والمناظر والحالات، وفن تزويق الملابس بالتقصير والتطويل، والتضييق والإرخاء والشد واللف والضم والمواءمة أو المفارقة بين خطوط اتجاهاتها بالمعارضة والانحراف - إن كل ذلك أسلوب يضع صوراً من الجمال أخاذة السحر والفتنة تكبر الصغير وتجلو الغامض أو تكسب بالغموض المتوخى أسباباً مثيرة للافتتان... أو توارى القبح أو تصغ بالمغالطة عن الحقيقة صواباً فنياً يهز - أو يحرك - الإقبال.

فإن كان الشعر فناً والشاعر فناً أو كانا صناعة وصانعاً فالحقيقة لا تختلف وهي أن الشعر موضوعه وغايته الجمال والتأثير في كل مدخل ومخرج من مداخله ومخارجه، وإلا كان كل كلام يغني عن الشعر وكل مبین عما يحس ويتخیل ویبتغی يغني عن الشاعر.

والناس؟ أفلا يحبون ويتألمون ويحسون ويصفون ويفرحون بالطبيعة ويتحمسون ويستجيبون لكل ما يستجيب له الشاعر ويستثير بعضهم بعضاً. ويفكرون ويحللون ويتنادرون ويتمثلون الأمثال والحكم - على نحو لا يختلف إلا باختلاف صيغ الكلام وأساليبه؟ فما حاجتهم إذن إلى الشعر والشاعر إن لم يكن أسلوبه في العرض والتركيب والتلوين والتصوير واستخدام الخيال والتصرف بعناصر الجمال تعقيداً... وتبسيطاً وتوليداً - جاعلاً لكل ما يعرفون ويحسون أبعاداً وصوراً وفتنة أعم وأغنى وأحفل ببواعث التأثير؟؟

وهكذا، فما حاجتهم إلى النجار والبناء؟ أفلا يسع أحدهم أو يسعهم بالتعاون والاشتراك أن يصنعوا من الحجر والخشب ما يشاءون على النحو الممكن ومعناه المقصود؟!

والآن - وإن كنت لم أستوف الكلام بعد إبقاء على صبر القارئ - أدعوه أو أعزم عليه - باسم الله - أن يخوض وحده معركة سافرة ضد ثلاثين شاعراً - على وجه التقريب - من شعراء الحجاز في هذه المجموعة التي اختار جامعها - غفر الله له - أن لا يقدم لهم أو لها سواي دون عباد الله قاطبة ففعلت بعد أن سدت في وجهي أبواب الهروب والإفلات.

والقارئ لا شك يعلم أن من مصطلح أدب التقديم الذي جرى فيه الناس على مألوف العادة والعرف أن يكون تنبيهاً عريضاً إلى المحاسن

وإعلاناً عنها أو لها إشارة مجملة إلى نقائضها وأضدادها لا تخرج عن نافذة الاستبراء بحركة... أو بحركتين إن رؤي أن هذا ضروري لإثبات الأمانة.

وهذا - ولا أكتُم القارئ - مزاج ثقيل الوطأة على مزاجي وعقلي أو هو امتحان عنيف لطبيعتي بما لا تواتيني عليه. فما يسهل عليّ أن أنزل منزلة المعلن أو قارع الجرس أو السمسار يروج السلعة بالباطل أو بما يدخل تحته من صور الحق والجد المصنوعة الجاهزة للطلب!!

وإني لأعرف كما يعرف أي عاقل من القراء - فما يعينني غيرهم - إن الجيد إعلان ذاته فحسبه من الداعي إلى الإقبال عليه التنبيه الرصين أو الإشارة الم مجملة. أما الرديء فهو أخلق بطول الكلام عنه وفيه وحوله، من الناقد أو العارض أو «المقدم».

والمقدم وهو هنا أنا - إذا كان القارئ لا يعلم - وسيط بين الشاعر وقرائه. فأول ما ينبغي أن يتصف به أمانة الوسطاء في دفع أسباب الخداع والتضليل، ووضوح البراءة منهما، ويشهد القارئ الجاد أنني فعلتها بما قلت وإن كنت لم أفتح الباب على مصراعيه واعتماداً على فطنة الناس وزكائهم.

ولقائل أن يقول: ولكن الناس يعرفون أو هذا هو المفروض فيهم، فما ضرورة تنبيههم إلى المساوي؟ أو يجهلون فما حكمة أن تفتح عيونهم على ما يسوء ويعثي؟ والرد على هذا يتلخص في أن الإنسان - الطبيعي - إنما يستهدف حتى من تحمل الخبر الخالص نفعاً لنفسه ولو جاء هذا النفع من باب اللذة والارتياح. وإذن، فلا أقل لمن يقدم مجموعة من الشعر - كهذه - من أن يدفع التهمة عن رأيه وفطنته وبصره وإلا كان قارع جرس، أو حامل طبله، أو سمساراً. وما أحسب أن الجامع، يبطن الرضاء لي

بهذه المنزلة، وعلى أعين القراء وأسماعهم، وفي هذا المقام الذي لم يحملني على التعرض لأذاه المؤكد إلا هو ومن استعان بهم علي. نعم إنه كذلك كان شر ما في الدنيا صداقة جامعي الشعر وحاشدي الشعراء.

أوهبني بائع دابة سليمة! فما يكون اشتراطي العيب فيها تفادياً لاحتمالات السوء الممكنة، وأخذاً بخطة الحزم في سد باب الذرائع؟؟ فهذا ما أثرته لنفسي على بينة.

وأمر آخر! هو أن سعادة الوزير المفوض الأستاذ الكبير الشاعر محمد سرور الصبان كان قد سبقني - في غرة المحرم ١٣٦٨هـ - إلى تقديم (شعراء ثلاثة!) فقال أحسن الله إليه: «الشعراء الثلاثة الذين نقرأ بعض شعرهم في هذه المجموعة ليسوا كل الشعراء الممتازين في البلاد ولكنهم - دون شك - من نخبة الشعراء الممتازين فيها». فماذا يقول القارئ في هذا وفي أنني - ثالث! - هؤلاء الشعراء على إباء مني وعناد بلغا حد الحرارة والتهديد بمقاضاة الجامع؟! وعلى إيماني بخطأ الناس في اعتباري شاعراً لمجرد أنني أنظم في بعض الحالات؟؟

إنها غمزة من الأستاذ الكبير للجامع ولثلاثة الشعراء مجموعته! غمزة زادها وضوحاً بقوله: «ومع أن هذه المجموعة ليست كل نتاج هؤلاء الشعراء، ولا كل جيد شعرهم، وسواء أكانت من مختارات الجامع! أو من مختارات الشعراء أنفسهم فإنها مجموعة صالحة للتعبير عن...»

ثم قال: «ولست هنا في معرض النقد».

وهكذا أرادت فطنة الأستاذ الكبير أن تدفع وهم القراء الذين عساهم يستمدونه من قلة في العدد لعلها تحملهم على ظن التفرد بالامتيار على سائر الشعراء، لثلاثة منهم!! وكأنما أراد سعادة الأستاذ الكبير أن يقول:

إنهم شعراء ثلاثة، وليسوا الشعراء الثلاثة، وبين التعريف والتنكير هنا فرق ملحوظ يفسر الغمزة التي تناولت المختار من شعرهم بالتشكيك فيه؛ ويفسر تعريضه بقالبية هذا المختار للنقد، لو كان في معرضه!

لست أسوق هذا الكلام الذي طالت به المقدمة فانقلبت شيئاً آخر لا أعرف له اسماً، إلا لأدلل على ضرورة الجزم بوجوب الأمانة والفتنة والتحرز والأخذ بأسباب التحوط - ولو كتابة كما فعل الأستاذ - لكل من يقدم ثلاثة شعراء فما فوق!!

وهكذا يذهب سعادة الشيخ - دوني - حتى بحسنة السبق إلى هذا، ولكن! أيفوتني اقتفاء أثره؟ فما زلت أرى أن الناس ينالون الحظ أضعاف ما ينالون بجد المساعي حتى في دنيا الأدب والشعر... والتقديم! كلا! والله. وما يعيبني الرضاء بالميسور إن كان هو كل ما يتأتى لمثلي على وعورة الجهاد ووعثاء الإمعان في السعي وكمال العدة على أقوم الوجوه وأسدها. والأستاذ الكبير يعد أحد الشعراء في هذه المجموعة الزاخرة بالعدد الوافر من الشعراء التي أقدم لها مكرهاً لا مختاراً... بل هو حامل رايته في نظام الصف والترتيب. لهذا وحده يجعل الأمر أدعى لإبراء الذمة، وتخليص الضمير... وابتغاء مرضاة الله بقوله الحق! وإلا فماذا؟

لقد وجد الأستاذ الكبير ما قاله في المجموعة الأولى فترى ما الذي كان يقوله مما يدفع به التهمة عن فطنته أو يوجه به الغمزة لو كان هو مقدم مجموعة اليوم لا أنا؟! فهذه مجموعة ضخمة من الشعر! وعدد من الشعراء وفير: وهذا اختيارهم لا اختيار الجامع: - والحمد لله - ونحن نستقبل نهاية عام ١٣٧٠هـ لا مطلع عام ١٣٦٨هـ.

أهناك شيء آخر؟ إنه الحصر والاستيعاب على ما يبدو. فهل يرى

سعادة الأستاذ الكبير أن أعرف الناس بهذا؟ أو أن أقتفيه فأقول: عن هذا العدد من الشعراء الممتازين - وكلهم موهوب - هو «ما تيسر»! حشده الآن... أو في خلال سنتين مضتا أو ثلاث والبقية تأتي؟ وإن هذا الشعر الممتاز ليس هو أجود ما قالوه ولكنه منه ولا أجود ما قال أشباههم ولكن بسبيله؟ وأنه - على هذا - صالح لتمثيل دورنا في (تكوين الأدب العربي الحديث... أو للتعبير عنه وكان الله سميعاً بصيراً؟؟)

إنها غاية من غايات الاحتياط والتحرز والغمز لا أتعلق بغبار الأستاذ الكبير فيها. وما أكثر ما خانني حظي وأسلمني فلتكن مرزأة من مرازيه التي اعتدتها حتى ألفتها..

ويحلو لي الآن أن أصرف حديثي إلى القارئ - مترفقاً على صبره - فأقول: إن الناس يتعلمون الرقص قبل أن يقوموا به علانية في المجتمعات. ويحذقون قيادة السيارات قبل أن يقتحموا بها الشوارع. أو أن هذا هو المفروض والواجب. فإذا خرج راقص في حفل عن مساوقة الموسيقى والإيقاع وداس في كل دورة من دوراته مرة أو مرتين على قدم من يزامله كان لا يصلح أن يرقص على أعين الناس وأسماعهم لأن الرقص عرض سليم واتساق وجمال وترابط وانسجام وقدرة على التصرف وتعبير، وقواعد. أو... لأنه أسلوب!

وإذا اضطربت عجلة القيادة بين يدي قائد السيارة فتأرجحت أو جنحت أو كان لا يتاح لها التماسك والربط عند وجوب أحدهما أو كليهما، أو كانت لا تناسب وتتدفق وتلف وتتحول في إحكام وسلامة واتزان يدل كل منهما على صحة التقدير وقوة السيطرة كان سائقها جاهلاً بخصوصيات القيادة كفن أو كصناعة أو كعمل... ولو اقتنى مصنع سيارات، لأن

قيادتها فطنة ولمح وإدراك وحذق وحسن تقدير وصناعة. أو، لأنها أسلوب، فالأمر على هذا القياس بالنسبة للشعر والشعراء.. ولو كان حجازياً... ولو كانوا حجازيين؟؟
إنه أمر يهول...

وما على القارئ الآن - وهذا هو الحق لا غيره - إلا أن يخوض المعركة وحده فيسأل نفسه، أو يسأل سواه - وله الخيرة - ما هو نصيب كل شاعر - في هذه المجموعة من قصة الأسلوب والديباجة هذه، إشراقاً وقوة ومتانة تركيب؟ وما هي قدرته على التصرف وفطنته وحذقه في الصياغة والتركيب والتعبير والاتساق وسلامة الحركة ورشاقته... وتجنب وطء الأقدام أثناء الرقص؟ وما هو حقه في ادعاء الشاعرية واكتساب رسمها؟ أو حقه في أن يرفع عقيرته بين الناس في الشعر؟؟

فإذا عرف القارئ شيئاً - وسيعرف - فقد تهيأت له أسباب الحكم والتحديد واستعان بخير الطرق وأقلها مشقة على التقصي والكشف عن مزية كل شاعر وطابعه وخصوصياته وشخصيته وقدرته. وقد وقع على الجمال الذي يجتمع له إلى حسن الشارة والميسم في ظاهره. جمال المعنى وفتنة الدعوة والتأثير في ما تحت هذا الظاهر المجلو، أو وقع على القبح الشنيع يزيده شناعة أنه شعر من صناعة شاعر بين شعراء.

أما أنا فقد نصبت الميزان وأقمت المقاييس ومهدت الجادة بما وسعني من جهد ودفعت التهمة عن فطنتي بما حسب القارئ به وكفى. وأدبت للوساطة حرمتها أو حقها من الأمانة ولم يعد للقارئ إلا أن يزن ويذرع ويحدد الفروق والمراتب والدرجات فما يتسع طوقي لأكثر من هذا ولو اتسع لكنت خليقاً بالألا أتجاوزه اتقاء لما تجر إليه الجرأة على حرمان

الشعراء من نصيب الدفاع وأوصاب الذیاد في هذا الزمن المدبر الذي تضخم فيه كل شيء حتى الشعر والشعراء.

وهذا حق نفسي علي في التماس السلامة بالتقية والاحتباس أو بقبول تهمة العجز عن اضطلاعي بأعباء الملاحاة المتوقعة من نيف وعشرين شاعراً... وذوي عصبیاتهم الأدبية، وأشیاعها... فإن الأمر - على ما يرى القارئ - جدير بأن يروع القلب أو يخلعه، والإنسان مطالب باتقاء التهلكة فإن قال القارئ - متخابثاً - وهو مطالب أيضاً بأن لا يجهر بالسوء قلت إن تعميم الرمز والتضمين والإشارة وإطلاق الدلالة بالقواعد التي يكتشف بها النقص أو تفرق المعابث في الشعر والشعراء مثلاً ليس من باب الجهر بالسوء أو الهمس به. أفلا يقول الواعظ لوجه الناس وعلیتهم... وفي المسجد... وبملء صوته: «أيها الناس لقد فسدت أعمالكم وزاد إمعانكم في الضلال وركوب الموبقات الأوزار والسوء وكيت وكيت من الرذائل» فلا يكون لأحد من سامعيه أن يأخذ بتلابيبه إلى حيث يقاضيه فإذا ما رمى رجلاً بعينه أو بسامعه بشيء مما قال: لزمه ما يلزم المعتدي على كرامة مسلم فأقام البيئة وأخذ بالجريرة؟

ولم يبق للقارئ بعد هذا في عنقي إلا أن أسأل الله لي وله المغفرة، وحسن العاقبة، وسلامة المصير، ولطف الختام.

* * *

وبعد، فإن من شعراء هذه المجموعة من لا يفخر الحجاز وحده بهم ويتيه، بل كل بلد عربي، وهم: السرحان، وعواد، وقنديل، وحسين عرب، وأشباههم في معظم السمات وفي بعضها دون جملتها.

ومنهم مستحق الرثاء، ومنهم مستوجب التَّعْزير، حتى يعلن التوبة من رفع عقيرته بمثل هذا الهراء ظنه شعراً، فأفسد به - أو كاد - جو هذه المجموعة الرقيقة حتى أوشك أن يتحول به إلى جو مظاهره من المظاهرات التي يغلب عليها عنصر الرعاع والدهماء. وغفر الله لي ولسعادة الأستاذ الشيخ محمد سرور الصبان فهي جريرة من جرائم تقديمه للشعراء الثلاثة في (غرة المحرم ١٣٦٨هـ) فتحت هذه الشقوق والغيان فانطلقت منها هذه الأحياء الشاعرة تكثيراً للعدد أو تسويغاً لدعوة الأستاذ الكبير أو تحقيقاً لأمله العريض فيها أو إغراقاً للسوق بالعملة الرديئة على الطريقة الشائعة.

والله من وراء القصد وهو الغفور الرحيم.

(١)

المقدمة النقدية الخالدة التي كتبها الشاعر الكبير الأستاذ حمزة شحاتة - رحمه الله - لكتاب المرحوم الأستاذ عبد السلام بن طاهر الساسي (شعراء الحجاز في العصر الحديث) (القاهرة - دار الكتاب العربي - ١٩٥١م - ١٣٧٠هـ) والتي تنصل منها شحاتة - فيما بعد - لأسباب أعرفها، هي بيانه الشعري. فلقد كان (شحاتة) مُعتزاً بفكره، وأدبه، وكان، كما ذكر لي المرحوم الشاعر السيد علي بن حسين عامر، لا يتراجع عن مواقفه، بل إنه يحارب في سبيلها إلى النهاية.

وأستاذنا الفاضل الأديب الكبير عمر عبد ربه - أطال الله بقاءه - يعرف عن هذه الشخصية الشيء الكثير بحكم صلته الأدبية بالشاعر أحمد قنديل الذي رثاه صديقه شحاتة بقصيدة تُعد من درر الشعر العربي، ولا يكون الصديق إلا في الرثاء. وهناك مقولة للشاعر الدكتور غازي بن عبد الرحمن القصيبي، ذكرها في سيرته الشعرية، بأنه يفتخر بأن يكون شاعر الرثاء، في إشارة إلى الذين يقللون من قيمة هذا الفن الأدبي. ولقد قرأت للقصيبي قصائد رائعة كتبها في الشهيد الملك فيصل - رحمه الله - وزملاء وأقارب له من أمثال (محمود نصيف)، (فؤاد بخيت)، (طارق المؤيد)، (نزار قباني)، ولكنني أختلف معه فيما كتبه عن المرحوم فائز بدر، ويعلم

صديقه أبو الشيماء الأستاذ محمد سعيد طيب، والدكتور عبد الله مناع، والأستاذ الأديب محمد عمر عامودي، عن بواعث اعتراضه فلقد نكأت كلمات القصص الجراح أبنائه، وتمنوا لو أن الدكتور القصص كتب تلك المقطوعة النثرية الرائعة في حياة فائز، وليس بعد وفاته، مع أنني كنت شخصياً أختلف مع فائز في حياته.

أعود إلى مقدمة (شحاتة) التي نجده يربط فيها بين الشعر والفنون الإبداعية الأخرى، من نثر، ونحت، وخطابة، منطلقاً من عبارة موجزة في كلماتها ولكنها عميقة في دلالاتها.

تقول هذه العبارة: «الحجر مادة البناء الأولى» ثم يقارن بين الحجر كمادة أولية يعمر بها الكون، والكلمة التي تتشكل منها صور الإبداع الأدبي فيقول: «والكلام هو وسيلة التعبير عن أغراضنا وأداة تشكيلها وتصويرها، فهو - بهذا - مادة البناء الأولى في مطالب النفس والفكر»، ومع أن الناقد والشاعر (شحاتة) يتعرض بكثير من التفصيل غير الممل إلى المقارنة بين الشعر وفنون القول الأخرى، إلا أنه لا يخفي ميله إلى الشعر، وأنه يتفوق على هذه الفنون، وأنه يُعبر عن خلجات النفس بصورة لماعة. وكأنني بالأستاذ شحاتة يميل في هذه الناحية إلى مدرسة الطبع في الشعر العربي التي يُعتبر أبو عبادة الوليد بن عبد الله البحتري (٢٠٦ - ٢٨٤هـ) رائدها، ولقد عبّر البحتري عن طبيعة الشعر التي تعتمد على اللوحة السريعة الخاطفة التي تُسجل تلقائياً اللحظة الشعورية التي تومض في نفس الشاعر دون إخضاعها للتفكير العقلي، عبر هذا المنحى في بيت ذائع من الشعر فقال:

والشعر لمح تكفي إشارته وليس بالهذر، طولت خطبه^(١)

(١) د. يوسف خليف، تاريخ الشعر في العصر العباسي، دار الثقافة، ١٩٨١م ص ١٤٢ - ١٤٣.

يقول (شحاتة) مقارناً بين الشعر وسواه من فنون الإبداع: «الشاعر - إذن - صاحب صناعة فنية، مثالية، رفيعة، تتصرف بمادة البناء الأولى في أبنيتها، وصورها تصرفاً يتيح لها تعبيراً أغنى وأروع وأحفل بالفكرة والإشارة، والرمز والمعنى، والمضمون، أو تصرفاً أوسع مدى من تصرف المتحدث والخطيب والكاتب»^(١).

وميل شاعرنا إلى ضرورة أن تكون الصورة في القصيدة أعمق فنياً، وأوضح مثالية، وأفصح جمالاً، وأروع فتنة، لم يمنعه من أن يستقي من شاعر كبير كالبحتري المعاني التي تُمثلها اللحظة الشعورية وما يتصل بها من إيماء يُغني عن التفصيل، ولمحة تفتح أمام القارئ مجالات أرحب، فيها من الغنى والثراء والتعدد، ما يجعل المبدع يُلقي بكلمته ثم يترك للآخرين تفسير ما عناه أو قصد إليه بل إنه استطاع أن يفيد أيضاً مما قاله النقد عن طبيعة الشعر، وفي مقدمتهم (الجاحظ، ١٥٩ - ٢٥٥هـ)، الذي سبق عصره بالقول «المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي، والقروي، والمدني وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير الألفاظ وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحة الطبع وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة، وضرب من النسيج، وجنس من التصوير»^(٢).

وهذا الجمع بين ثقافات نقدية عربية شتى، يُعبر عن ثقافة (شحاتة) الواسعة، التي استطاع من خلالها أن يهضم، عن مقدرة ووعي، كل ما قرأ، ثم يخرج لنا شاعراً متميزاً. ولقد عبر عن هذه الشاعرية في هذه

(١) مقدمة شعراء الحجاز، للأستاذ عبد السلام الساسي.

(٢) د. حسن عبد الله شرف، النقد في العصر الوسيط والمصطلح في طبقات ابن سلام، ط ١،

المقدمة التي كانت في حقيقتها بياناً شعرياً أصيلاً ومتجدداً.

فهو بعد أن بدأ حديثه بمادة البناء، وفنون الإبداع، والمقارنة بينها في أسلوب رصين ومتميز، لم يكن يخفي في جرسه ودقته في التصوير شعراً ونثراً على مجايليه من الشعراء والأدباء. فالأستاذ الكبير محمد حسين زيدان الذي كان من أنصار مدرسة (شحاتة) مثله في ذلك مثل القنديل، وضياء الدين رجب ومحمد علي مغربي، يتحدث عما يوضح هذه الحقيقة التي ذهبنا إليها «وتحدثت طويلاً، فأغرقني جرسك في حب العاشقين لك حتى إذا قرأت لك مقالاً موقعاً بحرف «قاف» في جريدة «صوت الحجاز» وأنا في رانجون، ألقىتُ الجريدة من يدي، وقلت لصاحبي بعد أن رفعت صوتي، أأذوق جرسك فيما تكتب أقول لصاحبي: إن «قاف» هو «حمزة شحاتة» ورجعت إلى المدينة، وسألت لأصدق معرفتي لك فإذا أنت كاتب المقال»^(١).

انتقل «شحاتة» في هذا الشأن المتصل بالإبداع الشعري: «والشعر على ما يبدو أنه الصحيح، كلام وصناعة وفن، ولكنه في كل صورة من هذه الصور، الترف الحافل بمعاني القدرة المعبرة وذخايرها النفيسة، في أبهى الحُلل والأثواب، حتى بساطته، وهي من أسمى صفاته وغاياته، إنما تكون ترف البساطة الغنية بالمدخورات، لا فقرها العادي أو المتكلف».

(١) محمد حسين زيدان، الأستاذ حمزة شحاتة، البلاد، ١٧/١٢/١٣٩١هـ ص ٥.

(٢)

في المقدمة النقدية لكتاب الأستاذ عبد السلام الساسي (شعراء الحجاز في العصر الحديث) يربط «حمزة شحاتة» بين الشعر كفن من فنون القول وبين الحياة وما يدور فيها، وهو بهذا التوجه النقدي يلغي الفكرة التي تشبث بها بعضهم وهي دراسة الشاعر أو الأديب بعيداً عن البيئة التي عاش فيها والظروف التي أحاطت بشخصيته عند تعامله بما تزخر به الحياة من سعادة أو شقاء، وحب أو بغض، وثراء أو فقر، وترف أو معاناة، يقول شاعرنا الذي أجاد إبداع النثر كإبداعه الشعر وذهب إلى أبعد من ذلك فاخترق ميدان النقد عن معرفة وإدراك عميقين، يقول «شحاتة» تلك الصلة الوثيقة بين الشعر والحياة وكأن كل واحد منهما معادل للآخر، أو موازٍ له، إن يواعث الشعر فكرية كانت أو نفسية، هي ذات بواعث الحياة وانفعالاتها، ومعانيه وخيالاته وصوره هي التي تجول في كل نفس وفكر، غامضة مكبوحة أو واضحة طليقة، وباهتة أو لامعة (انظر: شعراء الحجاز - المقدمة).

وما يذهب إليه (شحاتة)، من آراء نقدية في هذه المقدمة، لا يعكس فقط ثقافته الواسعة في فنون الأدب وما يتصل بها، بل إن المقدمة تعكس ولع «شحاتة» بالمقولات الفلسفية والتنظيرات المنطقية، وخاصة إذا علمنا

أن شحاتة كان (فلاحياً) - نسبة إلى مدارس الفلاح المشهورة في مكة المكرمة وجدة - فلقد كانت هناك عناية بتدريس فن المنطق في مناهجها التعليمية بل كان طلاب العلم في المساجد يقرأون (إيساغوجي) وهو مقدمة في علم المنطق، ولقد استطاع الإمام أبو الحسن الأشعري - رحمه الله - أن ينتصر لأهل السنة والجماعة من خلال إجادته لعلم المنطق الذي كانت تجيده فرقة المعتزلة وتسخره في ترويج أفكارها ومقولاتها المعروفة.

فكان شحاتة يمزج بين الشعر والفكر والمنطق، دون أن يفسد الفكر رصانة الأسلوب ووضوحه، ودون أن يفرق في المقولات المنطقية المعقدة فينصرف القارئ عما يقول، بل إنه يدمج ذلك كله في بناء واحد. وهذا يجعل حمزة نسيج وحده شاعراً وناقداً ومفكراً. ويُبعد عنه ظلال التأثير بالمدارس النقدية التي ظهرت في عصر النهضة الأدبية العربية مثل (الديوان)، و(المهجر) وهذه الأخيرة لم يسلم من تأثيرها شاعر كبير مثل محمد حسن عواد رحمه الله، يقول (شحاتة) في قضية تأثر الشعر بالغناء «وندير الكلام على طريقة أخرى، فنقول: إن بواعث الشعر هي بواعث الغناء في كل نفس إنسانية، ونظن الأمر في هذه الفكرة من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى دليل أو موازنة»^(١)، ولا يكتفي أديبنا الكبير بالتنبيه إلى بواعث الشعر ومشابقتها لبواعث الغناء أو الإنشاد فحسب، بل إنه يذهب إلى أبعد من ذلك، فيُقلِّب الأمر على وجوه عدة، حتى يستقر ما يذهب إليه من رأي في عقول ونفوس المطلعين على هذه الصحيفة النقدية المتميزة، فهو يفرق بين غناء ذاتي يُقصد من ورائه تحقق المتعة الشخصية المحضة، وبين غناء للحياة، وهذا الأخير غناء إنساني النزعة، شمولي

(١) ديوان حمزة شحاتة، هذا الشاعر، بقلم عزيز ضياء، ص ٧ - ٨.

التوجه . . . يقول «شحاتة» في التفريق بين الاثنين «وباعث الغناء يقر في نفس كل إنسان - تقريباً - فكل إنسان يغني لنفسه بكلام ذي معنى يصنعه ويستعيده، أو يدندن بشيء يقل أو ينعدم نصيب المعنى وأثره فيه، وما في ذلك ضير ولا به غرابة، فهو طبيعي بل ضروري في كثير من الأحوال فلو سأل سائل لماذا يُغني الإنسان لنفسه؟ لما كان هذا السؤال إنكاراً أو اعتراضاً، وإنما يكون تقصياً للأسباب والبواعث والعلل»، وهذه العبارة السابقة يشير فيها (شحاتة) بوضوح إلى أن الإنسان إذا أنشد وبالتالي إذا ما أبدع، فإنه يحب أن يكون إنشاده أو إبداعه ذا معنى إذا ما قصد به التوجه للآخرين، ولكنه من منطلق حرية القول يقر له أنه بإمكانه أن ينشد أو يبدع إبداعاً ليس للمعنى وللفكر فيه نصيب، ولكن من منطلق الحرص على أذواق الآخرين أو توجهاتهم يتوجب عليه أن يحتفظ به لنفسه، فلا يضايقهم ولا يزعجهم به، وليت (شحاتة) الذي كان يجيد الغناء، ويعرف مداخل النغم ومخارجه معرفة المتمكن والقادر، عاش لهذا الوقت الذي أصبح فيه ميدان الشعر والإنشاد حمى مستباحاً، وأن الغناء في الاثنين - معاً - هو الذي يجذب انتباه العامة والخاصة - معاً - وأن الشعر (الحلمنتيشي) الذي كان يبدعه - شخصياً - ومعه صديقه «القنديل» والعُتيبي، يعتبر فصيحاً، إن لم يكن في الذروة من الفصاحة بجانب ما يقال في هذا اللون من الشعر، وأن الجيد منه ضاع في صخب أو جلبة الرديء والغث الذي أفسد الأذواق أو هي فسدت معه.

والعبارة التالية يُوضح شحاتة من خلالها كيف يكون الإنشاد الإنساني أداءً وقوة، وألا يطغى فيه الشكل على المضمون، ويفترض فيه - أيضاً - أن تكون الموسيقى في تعزيز المعنى وترسيخه، وإلا كان ذلك من باب

رفع العقيرة بما لا يحسن من القول، ولا يستساغ من الإنشاد.

تقول عبارة شحاتة: والإنسان إذا غنى للناس - احترافاً أو هواية - كان أول واجباته وأخلاقها بالالتزام والرعاية من جانبه أن لا يقول شيئاً على أنه باب من أبواب الكلام يفهم، بل شيئاً يستجاب ويضطرب، ويحرك الإقبال من باب حسن التصويت، ورخامة التنعيم، وقوة الاستجابة للمشاعر أولاً، فهذه الصفات تنزله منزلة الأسلوب واتساق العرض وجماله، وتأثيره في بسط النفس واجتذابها إلى ما تحتها، أو وراءها من غرض هذا المعنى المائل في المقطوعة المُنغاة، أو القول المردد).

ولقد استطاع (شحاتة) أن يحقق هذه المعادلة الصعبة التي ذهب إليها فيما سطره في هذه المقدمة المليئة بالمعاني النقدية التي تمنح من تجربته الشعرية والفكرية والفلسفية، ويعترف الناقد الكبير المرحوم «عزيز ضياء»، بما كانت تثيره قصائد شحاتة لدى مجايله من أهل الأدب والشعر فيشير إلى ذلك في المقدمة التي كتبها لديوانه الشعري اليتيم قائلاً: «ولعلي لا أثير ذكريات غمرتها رمال الزمان، إذ قلت: إن قصيدته القصيرة التي مطلعها:

بعد صفو الهوى، وطيب الوفاق عزّ حتى السلام عند التلاقي
كانت تتردد على أذهان المجموعة في هوس، أو هلوسة لا تكاد تهدأ حتى تثور^(١).

وإذا كان الأستاذ محمد حسين زيدان - رحمه الله - قال مرة في حديث أجراه معه الدكتور الأديب عبد الله مناع في مجلة (إقرأ) عندما كان

(١) مقدمة الأستاذ عزيز ضياء، ديوان حمزة شحاتة، ص ١٠ - ١١.

رئيساً لتحريرها، قد أشار إلى أسباب عدم خروج (شحاتة) من الدائرة المحلية إلى الدائرة العربية الأكبر، قال الزيدان بأسلوبه المُنجنح. «ولكن القصور وفقدان الحُظوة، قد جعلاً من حمزة ما يستحق». فإن الأب عزيز في معرض مقارنته لقصيدتين شهيرتين لـ(شحاتة) و(القنديل) - رحمهما الله - يُعرِّج على هذه الناحية المهمة فيقول: «وتطل القصيدتان، تعيش كل منهما حياتها في الأذهان، رائعة من روائع الإبداع، لو قدّر لهما أن تجدا مجالهما للنشر في العالم العربي منذ ما يقرب من ربع قرن من الزمان، لكان من الطبيعي أن تتصدرا الكثير من الأعمال الفنية، التي كانت تصطبغ بها حركة الإبداع في هذا العالم، ومصر منه - بخاصة - التي كنا نتهافت على ما يتسلل إلينا منها بين الحين والآخر».

(٣)

الشاعر الناقد حمزة شحاتة بعد حديثه عن الشعر والدور الذي يؤديه في الحياة، وعن تلك الصلات القائمة بين الفن الشعري وفن الغناء أو الإنشاد، وهي صلة لا يخلو منها أدب أمة من الأمم، ينتقل بعد ذلك كله إلى الحديث عن أغراض الشعر، ونراه يُلقي السؤال بهدف استشارة الأذهان وتهيتها، وهذا يدخل في تمكن (شحاتة) من لغة النشر كتمكنه من لغة الشعر وإبداعه في كليهما. ويأتي سؤال شاعرنا على هذه الصورة البسيطة التي لم يفسدها ما عهدناه عند بعضهم من زج للمصطلحات الغامضة، والتنظيرات التي أصبحت حاجزاً بين المبدع والمتلقي. ويستفسر شحاتة: ولو سألنا الآن ما هي أغراض الشعر؟ ثم يجيب عن استفساره: لتوشيتها وجلائها، وتلوين الحقائق والأفكار أو صنعها، أو ما شاءت المذاهب والطاقات.

لقد أراد الشاعر من الحديث عن أغراض الشعر أن يلج بنا إلى موضوع شغل به النقاد قديماً وحديثاً وهو الأسلوب والأثر الذي يؤديه في تقريب الصورة الشعرية من ذهن المتلقي، ونلاحظ أن (شحاتة)، يؤكد على أهمية الأسلوب ليس في الشعر وحده فحسب بل في فنون أخرى كالغناء. بل إن «شحاتة» الذي عُرف بكتاباته المستفيضة في علم (الجمال)

على صفحات جريدة «البلاد»، كما يذكر الأستاذ محمد حسين زيدان - رحمه الله - في كتابه (ذكريات العهود الثلاثة: ص ٢٤٣)، يجعل الأسلوب قواماً لصور الجمال المتعددة في هذه الحياة. يقول شحاتة في هذه القضية ما نصه: «إن الأسلوب قوام الشعر، كما هو قوام الغناء، أو كما هو قوام كل فتن وجميل وقوي ومؤثر في جملة ما يتوقف حصول تأثيره على اجتذاب الرغبة فيه، وإثارة الإعجاب به، وتحريك الميل إليه، وربط (شحاتة) بين دور الأسلوب في الشعر وفي الفنون الأخرى، إنما هو من باب ولع شاعرنا بتقليب المعنى على أوجه عديدة حتى يتضح المعنى الذي يرمي إليه، وهو هنا التأثير الذي يمكن أن يُحدثه الشعر، وما يترتب على هذا التأثير من سمو للنفس، وتطهير للروح للارتقاء بها عن الساقط من السلوكيات، والمرفوض من الأخلاق. وهنا نضع أيدينا على أثر مهم وهو: كيف يتأتى للكلمة أن تؤدي دورها في الحياة؟، فهي تحتاج إلى كثير من الصقل والتهذيب، ولعل شاعرنا الكبير صاغ هذه القضية النقدية القديمة بأسلوب عصري بعد أن تمثلها في داخله وعالجها من خلال ما أبدعه من شعر بلغ الذروة من حيث معناه ومبناه، ثم فصل القول فيها في هذا البيان الشعري المهم. وليس هناك ما يمنع أن نورد رأي بعض النقاد العرب القدماء، كضيء الدين بن الأثير، في هذه القضية حتى نقف على جهود علمائنا الأوائل في هذا الميدان من جهة، ولنكشف عن المنابع الأولى والأساسية التي تذوقها (شحاتة) ثم نهل منها حتى ارتوى عن وعي وإدراك، وهذا هو الفرق بينه وبين بعض معاصريه، بل بينه وبين من أتوا بعده بزمان طويل، وعجزوا عن تقريب الأسس النقدية الأصيلة في تراثنا للأجيال التي هي أحوج ما تكون إلى الدليل، وأشد افتقاراً إلى الساري في ليلها البهيم من حيث جميع مناحي الثقافة، وضروب الفكر، وصنوف

الإبداع التي تتحدد من خلالها هوية الأمة الحضارية بين الأمم الأخرى، فيكون لها وجود وترتفع لها قامة.

يقول ضياء الدين بن الأثير في كتابه (المثل السائر) عما اصطلح على تسميته في عصره بالجمال اللفظي: «إن الكلام الفصيح هو الظاهر البين، وأعني بالظاهر البين أن تكون ألفاظه مفهومة لا يحتاج في فهمها إلى استخراج من كتاب لغة». ثم يوضح ابن الأثير دور الجمال اللفظي في اجتذاب الرغبة، وإثارة الإعجاب، وتحريك الميل، كما فضل (شحاتة)، يقول هذا الناقد العربي الأصيل في المثل السائر: «لأن الألفاظ داخلية في حيز الصوت، فالذي يستلذه السمع، ويميل إليه هو الحُسن والذي يكرهه وينفر منه هو القبيح»^(١).

ذهنية «شحاتة» المتأثرة بعلم المنطق والمناظرة، لا تنتهي من قضية حتى تدخل في أخرى بعد أن تكون أشبعتها بحثاً بما يكفي لإيضاحها وتبيان معالمها، فهو ينتقل من قضية الأسلوب على المعنى، والقضيتان منذ القدم مترادفتان، بل إن كتب الأدب العربي شُغلت بهما إلى درجة كبيرة، وهذا نابع من الربط بين اللفظ والمعنى في بيان القصيدة ومعمارها، إن لم يكن نابعاً من الحياة نفسها، التي تجمع بين عوالم الحس والغيب، والمادة والروح، والعقل والقلب، ولا تستقيم الحياة بدون هذا الكل المترابط الذي يجعل لهذا الوجود معنى وغاية وهدفاً.

يقول (شحاتة) مفصلاً في الربط بين الأسلوب والمعنى: «ولكننا

(١) انظر: د. أنيس المقدسي: الشعر العربي في قديم الزمن وحديثه، مقالة في كتاب العربي الموسوم: آراء حول قديم الشعر وجديده، الكتاب الثالث عشر، أكتوبر ١٩٨٦م، ص: ٦٥ -

نسأل: أي جمال «أسلوبي» يخلو من صفات التأثير ودواعيه وأسبابه؟ كما نسأل أي كلام يمكن أن يخلو من المعنى؟ إنما أسوأ الفروض أن يكون وجود صفات التأثير ودواعيه وأسبابه في الجمال الأسلوبي وجوداً ناقصاً أو مرجوحاً فلا يكون بهذا النقص سبباً مباشراً في التأثير أو السبب المباشر له، بل معنى فيه، أو عنصراً في جملة عناصره، أو عاملاً من عوامله فهذا أخلق بأن يكون المعقل والواقع المفسر»^(١).

إن «شحاتة» يدمج بهذه المقولة دمجاً فلسفياً بين جميع عناصر الصورة التي يقتضيها إبداع الشعر. وهو يرى أن حظ المبدعين من جمال اللفظ، أو روعة الأسلوب ودهشته هو حظ متفاوت. وهو من تجربته الرائدة في الشعر والنثر - معاً - يميل إلى أن المبدع المتمكن هو الذي يستطيع أن يُحيك الأثر الإبداعي بجميع العناصر التي يتطلبها وجود هذا الأثر بحيث إذا تفكك إلى وحداته الصغيرة والمتداخلة، لا نجد فيه المتعة الأدبية المطلوبة، وهو معنى بعيد الدلالة ولكنه ليس بمستحيل التحقق.

(٤)

لقد كان (حمزة شحاتة) من عمق الثقافة، واتساع الأفق، والقدرة على التعبير عما يعتمل في داخله من البحث عن السبل التي ترتقي بالحركة الشعرية في الجزيرة العربية، بحيث تمكن من تشخيص ما تعانيه القصيدة من اضطراب وخلل. وهو يرى أن هذا الاضطراب أو ذاك الخلل سببه الاهتمام ببعض المظاهر الخارجية التي لا تستطيع أن تُحدث الأثر الوجداني على المتلقي للإبداع الشعري.

وهذا الخلل سببه عدم التمكن من الأدوات الفنية؛ وهذا يعود إلى ضعف الموهبة التي هي الأساس في كل فن تنهض به الذات الإنسانية، أو إلى عدم القدرة على فهم حركة التجديد التي تحتاجها القصيدة العربية بالوصف والتعبير عن الإحساس الداخلي بمظاهر الحياة الحديثة بعيداً عن رص الكلمات، ونظم العبارات التي تكتفي بالشكل الخارجي للأشياء فيما تقع عليه العين الإنسانية.

(شحاتة) الذي يرى أنه يجب أن تتوافر للأثر الشعري مقومات الجمال الحقيقية التي يفتقر إليها أي أثر إبداعي خارج دائرة الكلمة الشعرية، يقول: «ولنذهب أبعد من هذا المذهب فتصور جمالاً توازنت فيه معنويات الروح المعبرة المنطلقة، على مقاييس جمال الجسد، وحسن

شارته، ولكنه فقد جمال الاتساق في التصرف، وبراعة الحركة في المشي، والالتفات، والإيماء، والاستجابة، أو فقد لبوس النشاط المستمد من حذق القدرة وترفها في الإدراك والفطنة واللمح والحنكة والدربة المكتملة في استخدام المفاتن، أو استخدام ما تدور عليه من انسجام الزينة والملبس! أفلا يكون بهذه «العنجهية» جمالاً يستثير العطف والرحمة والإشفاق أو ربما استثار السخرية، لما طرأ على جملة أسلوبه من النقص والاضطراب والمفارقة بسبب فقدان هذه العوامل التي هي أسلوب أو تكميل له؟ فالأسلوب في هذه الحالة، هو فن القدرة على استخدام المظاهر وتطويعها للتعبير عما ترمز إليه تعبيراً تنهض به الفتنه ويستقيم التأثير»^(١).

إن العبارة الأخيرة الخاصة بالأسلوب هي محصلة ذلك النقاش الفلسفي الذي استخدم فيه فلسفة الجمال، وما يتصل بها من براعة وحركة والتفات وإيماء واستجابة، وهذه العبارة الأخيرة التي حدد بها مهمة الأسلوب أو دوره الفعال تذكرنا بمقولة الأستاذ العقاد الذي انتقد الصورة الشكلية القديمة، ووضح مفهوم الصورة التي يقوم عليها الأسلوب من منطق تجديدي خالص أخذت به (مدرسة الديوان) الذي كان العقاد مع زميله (عبد الرحمن شكري) و(إبراهيم المازني) تصدوا من خلالها لنقد الشاعر الكبير أحمد شوقي ومجايليه: «وإنما هي قدرة الشاعر التي تصرفنا عن ظواهر المحسوسات إلى واقع الموصوفات في النفس والباطن لأن شعوره يصدر من داخل - نفسه - وخطره، ويمتلئ به وعيه، ولا يصدر عن تلفيقات الظواهر والأشكال»^(٢).

(١) شعراء الحجاز، المقدمة.

(٢) د. مصطفى ناصف، الصورة الأدبية، ط ٢، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م، ص ١٩٣.

ولقد شارك العقاد في الحملة على المنهج البلاغي كل من طه حسين وميخائيل نعيمة، وإن كانت مشاربهم شتى كما يذكر ذلك الباحث حسين الواد^(١).

وإذا كنا نبحث عن تفسير لاستفاضة (حمزة شحاتة) المتشعبة عن (الأسلوب) وضربه الأمثلة المتعددة من الحياة أو الفنون الأخرى حتى يصل إلى النتيجة المبتغاة بعد كد للذهن لا يقوى عليه إلا العظماء من ذوي الإبداع في كل فن، فإننا لن نعثر على ما نتطلع إليه إلا عند رفيق مسيرته الأديب والناقد الكبير الأستاذ «عزیز ضیا» - رحمه الله - يقول عزيز مفصلاً هذا المنحى المهم في حياة «شحاتة» من مختلف وجوهها: «إن خصيصة حمزة التي تبدو خليقة من خلائق العبقرية النادرة، هي القدرة على إتقان ما يولع بإتقانه، بحيث لم يكن يرضى قط إلا بأقصى مراتب التفوق فيما يعن له أن يعنى بمعرفته ودرسه، كان لا يكتفي بمجرد الإلمام، على قاعدة الأخذ من كل فن بطرف، وإنما الذي يجهد نفسه فيه، هو استغراق واستيعاب كل ما يستهدفه من عناصر تكوينه مادة وجوده، ولا يقف ما كان يولع به عند الشعر، أو النثر أو الفلسفة، أو علوم اللغة العربية، وتاريخها، وأدبها القديم والحديث أو ما يتصل بكل ذلك من المعارف وألوان الثقافة وأغذية الفكر، فحسب بل ينسحب هذا الحرص على التفوق، والاتقان حتى على أسباب اللهو»^(٢).

هذا ما حاول من خلاله الأستاذ (عزیز) أن يكشف ولع «شحاتة» بإتقان

(١) حسين الواد، مناهج الدراسات الأدبية، ط ١٩٨٤م، الدار البيضاء، ص ٤٢.

(٢) عزیز ضیا، في أدبنا قمة عُرفت ولم تكتشف، بحوث المؤتمر الأول للأدباء السعوديين، المجلد الثاني، ص ٨٠٩ - ٨١٠.

كل ما يتوجه إليه أو يتعشقه في هذه الحياة، وهو مظهر من مظاهر عبقريته النادرة. وإذا كان المرحوم (عزيز) قد عبر عن ذلك بأسلوبه النثري المتمكن فإن الشاعر الكبير السيد (محمد حسن فقي) - شفاه الله - استطاع من خلال مرثيته الشهيرة في صديقه «شحاتة» أن يرسم لنا صورة صادقة ومؤثرة عن هذا النمط الفريد من الرواد في تاريخنا الفكري والأدبي المعاصر:

يقول السيد (الفقي) راثياً ومنشداً ومصوراً:

يا صاحب الفكر الحصيف تجسدت	فيه الرؤى، ونعمن في أغواره
ألقي إليك الروض كل زهوره	رغباً، وألقى الحقل كل ثماره
ورنا الغني إليك في أطلسه	ورنا الفقير إليك في أطماره
يجدون فيك الألمعي مناضلاً	دنياه... منطوياً على أوتاره
قد لازم الدار العتيقة واحتوى	من كان... أو ما كان... خارج داره
فإذا بها، والكون في جنباتها	بسعوده، ونحوسه، ومداره
وإذا به يجلو الدّجى بيمينه	فنرى الحقيقة جهرة... ويساره
بعض الفرار من الثبات، وربما	نال المجاهد أجره بفراره
إن الذي خلق الحياة حفيلة	بالشر، أنقذنا ببعض خياره

أكاد أجزم بأن هذه الأبيات الأخيرة التي ختم بها الرائد (الفقي) رائعته لا تقل في جودتها ومدahaا الشعري العميق عن شوارد المتنبي وأبي العلاء وشوقي.

(٥)

إن من يقرأ هذه المقدمة التي كتبها شحاتة قبل حوالي نصف قرن من الزمن (١٣٧٠هـ)، لكتاب (شعراء الحجاز في العصر الحديث) لا بد أن يقرأ فيها نتاج عقل مثقف، وشخصية موسوعية، وأديب متعدد المواهب والتي انصقلت إلى موهبة على نمط عجيب من التفرد والنصوصية والعمق. ولقد دافع الأستاذ الناقد السيد إبراهيم هاشم فيلالي عن هذه المقدمة في كتابه المعروف (المرصاد)، وكان الأستاذ الفيلاي، مع رصيفه الأستاذ الكبير عبد الله عبد الجبار من أوائل من عنوا بالنقد وطرقه ومناهجه عن وعي وأصالة في بلادنا. . يقول الناقد الفيلاي في حديثه عن هذه المقدمة: «الواقع الذي لا شك فيه أن القارئ الحصيف، الدقيق النظر، يشعر عند قراءتها أن كاتبها توخى الدقة فيما كتب. وكان يعني ما يقول بكل كلمة سطرها، وليس العيب إذن في المقدمة بل في الذهن المعوج، والفهم السقيم^(١)».

يضع الأستاذ الفيلاي، بما يملكه من حس مرهف، يده على أهم موضوع نقدي ناقشته هذه المقدمة، وهو الأسلوب فيقول: «اقرأ معي رأي الكاتب في أهمية «الأسلوب» للشعر، ثم احكم - وحدك - له، أو عليه،

(١) إبراهيم هاشم الفيلاي «المرصاد» ص ٩٤ - رابطة الأدب الحديث.

وخبرني، أهو كلام إنشائي منمق، أم هو رأي قيم لكل كلمة فيه دلالتها وفحواها ومعناها الخاص؟»^(١).

إن ولع «شحاتة» بالجمال في الأسلوب نابع من مقومات شخصيته فهو فنانقدير. وقد ذكر لي الأستاذ المربي عبد الرحمن كابلي (نقلاً عن الفنان الدكتور هاشم هاشم من رجالات حي الشامية) أن حمزة كان يجيد العزف على أكثر من آلة موسيقية، بينما ذكر لي الأستاذ السيد علي حسين عامر - رحمه الله - الشاعر والأديب المعروف، أن شاعرنا كان يجيد العزف فقط، على آلة العود، عزف هواية ذاتية لا احتراف فيها وهو في هذا يشبه المرحوم الفنان الكبير سعيد شاولي، الذي كان أيضاً فناناً في صناعته (التصوير)، وكان إذا جلس بجانب المرحوم حمزة قزاز، صاحب الصوت الشجي، فإنه ما يلفت نظرك، تلك الأناقة المتوائمة مع مما ينبعث من صوت «حمزة» من شجن، وما ينبعث من بين أنامل «سعيد» من نغم أصيل ورائع.

وقد أشار الأستاذ الكبير عزيز ضياء رحمه الله، إلى هذه الناحية المهمة في شخصية شحاتة - أي الجمال - فذكر في بحثه الذي يظل أفضل ما دُونَ عن «حمزة» لمعرفة أبي ضياء الشخصية معرفة دقيقة لعوامل عدة لعل من بينها وشائج صلة الرحم التي تربط عائلتيهما. ذكر الأستاذ عزيز الجمال غير المتصنّع في هندام (حمزة) وحديثه. فقال: «ولا بد أن أذكر في هذه اللحظات إعجابي البالغ بالمثل الذي بدا - لي - رائعاً للأناقة في هندام حمزة وملابسه. كان له ذلك المظهر السري الذي يذكر بإحساسه ببواعث الشباب ونوازعه، وما يستتبعانه من تعلق بالترف، وحرص على

التأنق، في إطار من صرامة الرجولة، ودفقة عنفوانها، واعتزاز بالشخصية وإحساس بالوزن الفكري تُحلق به مشاعر النبل وليس التنبُّل، والرفعة وليس الترفُّع، وصدق العاطفة فيما يفضي به عن ذات نفسه، وخلوصها وليس افتعالهما أو التظاهر بهما»^(١).

كان «شحاتة» من الذكاء بحيث تجده في السطور التالية يتحدث عن الصلة بين الشاعر والفنان ودور الجمال في كل منهما، لأنه الوسيلة المثلى لإحداث التأثير المطلوب عند المتلقي وما يترتب على ذلك من الارتقاء بالنفس الإنسانية والتحليق بها في عوالم الطهر والصفاء والحب الإنساني. لقد كان (شحاتة) يتحدث عن شخصية الشاعر والفنان التي نُسجت خيوطها على نحو بديع في ذاته المُحلقة في هذه الأجواء جميعها، يقول هذا الفنان والمبدع: «فإن كان الشعر فناً، والشاعر فناناً، أو كانا صناعة وصانعاً، فالحقيقة لا تختلف وهي أن الشعر موضوعه وغايته الجمال والتأثير في كل مدخل ومخرج من مداخله ومخارجه، وإلا كان كل كلام يُغني عن الشعر، وكل مبین عما يحس ويتخیل ویبتغی یُغنی عن الشاعر»^(٢).

نستطيع أن نلاحظ تأثير الغناء والإنشاد في شخصية (حمزة) من خلال قوله: «والتأثير في كل مدخل ومخرج من مداخله ومخارجه». فالمداخل والمخارج مصطلح يعرفه من أجادوا مخارج الأصوات اعتماداً على الذبذبات التي تحملها. فالمنشد المجيد لفنه هو من إذا بدأ مثلاً بـ«نغم» (الرصد) وانتقل منه إلى (الجاركة) أو (الحجاز)، فإن المحط عنده يجب أن يكون من مقام الرصد أيضاً، والمحط هو ما عناه شاعرنا بالمخرج.

(١) عزيز ضياء: في أدبنا قمة عرفت ولم تكتشف، بحوث المؤتمر الأول للأدباء السعوديين ج ٢، ص ٧٩٥ - ٨٢.

(٢) شعراء الحجاز في العصر الحديث: المقدمة.

وإذا كان «شحاتة» قد فضل القول في الأسلوب وجماله والتأثير أو الإيحاء من خلال هذا الجمال، فإن هذا التوجه له دلالاته المهمة، وهو معرفة (حمزة) بما كانت تصطبغ به ساحة الأدب والإبداع في العالم العربي بمناحي التجديد في القصيدة العربية على أسس قوية، ومفاهيم محددة بعيداً عن المصطلحات الغربية والغامضة، وكان تأثير هذه المناحي قوياً على القصيدة العربية وتطورها الطبيعي، فنحن مثلاً، نجد كاتباً كبيراً، مثل الدكتور زكي نجيب محمود يخصص قضية الأسلوب بكثير من التحليل والتفسير متخذاً (العقاد) وأسلوبه محوراً لهذه القضية النقدية الهامة، ولك على ضوء ما ذكرنا أن تقرأ أدباءنا أصحاب الأساليب لترى هل تستطيع حقاً أن تبين الرجل في أسلوبه؟ ها هو ذا (العقاد) الإنسان، وهذه في كتابته، فأفرض أنك لم تقابل العقاد، ولم تتحدث إليه ولم تعلم من أمر حياته الشخصية قليلاً ولا كثيراً، فماذا تراك مستدلاً من كتابته عن حقيقته وطبيعته؟ لا تتصنع القول ولا تفتعله، بل كوّن أحكامك لنفسك - وهذه نصيحة أسوقها لك عابرة في حياتك الأدبية كلها - فماذا ترى؟ أليست هي كتابة فيها الجد والصرامة، وهكذا (العقاد) الإنسان فهو رجل يسير على الجادة المستقيمة لا يسهل إغراؤه لينحرف هنا أو هناك، أليست هي كتابة لم يرد صاحبها أن يُسري عن القارئ همومه، وأن يستجلب لعينيهِ النعاس، بل أراد أن ينبهه ويطرد عنه النوم؟ وهكذا «العقاد» الإنسان، إنه لا يتزلف القارئ ولا يمالئه، ولا يكتب له ما يسليه، بل هو يتحداه وهو يعلمه، وهو يوقظه وهو يقلقه ويؤرقه، ثم أليست تشعر من كتابته أنها كتابة رجل عزوف صلب عنيد؟، وهكذا العقاد الإنسان»^(١).

(١) د. زكي نجيب محمود، «في فلسفة النقد»، ط ٢، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، ص ٩٣.

الكاتب والمفكر زكي نجيب محمود كان قد ربط بين الكاتب العقاد وصفاته الشخصية من قوة وجد صرامة، وبين أسلوبه الذي يوقظ العقل وينبهه، بحيث يمكنك التعرف على أسلوب العقاد إذا كنت من قرائه أو عشاق أدبه حتى ولو كان ما بين يديك من نتاج فكره وأدبه لا يحمل اسمه، بل هو يحمل روح الكاتب التي تسري في كل عبارة، أو جملة، أو كلمة - ولعل هذه الروح الأدبية هي التي جعلت الأستاذ الكبير محمد حسين زيدان - وكان من عشاق أدب شحاتة - يتعرف على (شحاتة) من خلال جرس الكلمة التي اتسم بها أسلوبه الخاص والمتميز... يقول «الزيدان» في هذا الشأن: «وتحدثت، طويلاً في بيت الأفندي نصيف، فأغرقني جرسك في حب العاشقين لك حتى إذا قرأت لك مقالاً موقعاً بحرف «قاف» في جريدة «صوت الحجاز»، وأنا في «رانجون» ألقىت الجريدة من يدي، وقلت لصاحبي، بعد أن رفعت صوتي أذوق جرسك فيما تكتب أقول لصاحبي، إن «قاف» هو «حمزة شحاتة»، ورجعت إلى المدينة، وسألت لأصدق معرفتي لك، فإذا أنت كاتب المقال، لم يكن هذا عن ذكاء. وإنما كان عن زكاء كبير به»^(١).

ومن رائعة (القنديل) في رثاء صديقه حمزة شحاتة نختار هذه الأبيات:

أخي يا رفيق الدّرب... والعمر... والمنى

ودنيا فنون الشعر... والفكر... والحبّ

(١) محمد حسين زيدان، الأستاذ حمزة شحاتة، صحيفة «البلاد» ١٧/١٢/١٣٩١هـ، ص ٥.

أخيراً... على كرّ الزمان وفرّه
لقد عدّت «للمعلاة» نعشاً... وجثة
جنيناً يبطن الغيب عاد... كما أتى
وسفراً بأذهان الرجال سطوره
وهبت لهم دنياك كنزاً من الحجى
سألقاك روحاً... أو أحاذيك جثة
متى جاء ميعادي فكلّ لحينه
وفي غفلة قادتك طوعاً وفي غضب
فوارتك في صمت المقابر والركب
من الأمس ذكرى لن تضيع مع الغيب
مبعثرة حول الرفوف بلا كتب
فواروك دوني بين هول وفي رعب
تنام بساح الأرض غالية الترب
وما الموت إلا السلم أو هدنة الحرب

(٦)

لقد احتُفل، أخيراً، بالشاعرة الرائدة نازك الملائكة، بمناسبة مرور نصف قرن على انطلاقة الشعر الحر، وقد وصف النقاد ديوانها (شظايا ورماد) الصادر عام ١٩٤٩م، بأنه من أبرز التجارب المؤسسة في حقل الشعر الحديث^(١). وانطلاقاً من هذا فإنه يحق لنا أن نحتفل بهذه الظاهرة الأدبية التي برزت في تاريخنا الأدبي المعاصر نعني «حمزة شحاتة» وكان بروزها أخذاً ومدهشاً، حتى إن أدبياً وناقداً، كبيراً، مثل الأستاذ عزيز ضياء - رحمه الله - لم يمنعه اعتزازه بثقافته وشخصيته الذاتية أن يدون في لحظة صدق، وفي أسلوب فني رائع مشاعر رصفائه من رواد الأدب في بلادنا إزاء شاعرية «شحاتة»، ونثره، وفكره الذي وصفه بالعمق والتحليل والخروج على المألوف، قائلاً: «ورصفائي من الشيوخ، هم أصحاب تلك العيون التي أخذتها القمة بشموخها، وهؤلاء الرصفاء، رغم ما طال وامتد من الزمن معاشرة لها، وتفاعلاً مع ما يشبه تفجر الينبوع الثر من عطائها، ليس في الشعر فن، أسر، أخذ، وليس في النثر درر ولا لآلئ فحسب، وإنما في الفكر غواص في الأعمال في أبعد الآفاق، ومتمرد على المألوف

(١) جريدة «الحياة» ٥ حزيران، ١٩٩٩م.

والتقليدي والمتبع ما وصفه محبوه قبل شائئيه بأنه لا يطاق»^(١).

ويرى (شيخ النقاد الأكاديميين) في بلادنا الناقد الأستاذ الدكتور منصور ابن إبراهيم الحازمي - الذي عرف أسرار الحياة الشعبية في مكة المكرمة من خلال سكنى أسرته العريقة في جرول، كما عرف آباء وأجداد له من قبل أسرار الحياة الجميلة والممتعة في (لاب) بالخيف على طريق مدينة الرسول ﷺ، أن الأستاذ (عزيز) كان يلقي الأسئلة في حميمية ودفع عن شخصية (شحاتة) المدهشة ولكنه يعتمد عدم الإجابة عن هذه الأسئلة، وربما كان للأسلوب القصصي الجميل الذي استخدمه الأستاذ (عزيز) في حديثه عن شخصية (شحاتة) وراء جعل القارئ يلهث خلف إجابات ليس من السهولة الوصول إليها ولعلها تحتاج إلى كثير عناء قبل بلوغها... يقول الناقد الحازمي: «والحقيقة أن موقف «عزيز ضياء»، من «حمزة شحاتة» هو موقف المنبر... المندesh، الذي تتساءل - دوماً - ويمتنع عن التفسير أو الإجابة، ولا أظنه عاجزاً عن ذلك، ولكنه يعتمد إثارة فضول القارئ ويشركه معه في الإعجاب والدهشة، بدله... فقط، على موطن التميز والتفرد، ويتركه فاعراً فاه أمام تلك الشخصية العملاقة المستحوذة، ولا أشك في صدق عزيز ضياء حين يحدثنا عن دهشته وإعجابه، فهناك الكثيرون الذين دهشوا وأعجبوا - مثله - بحمزة شحاتة في حياته وبعد مماته، ولكنني أتكلم هنا عن الفن أو طريقة تناول». ويرى الدكتور الحازمي أن الذين سيتصدون لدراسة (شحاتة) في المستقبل، سوف يجدون الطريق أمامهم ممهداً. ولكنه يشير - كناقد أكاديمي - بأنه ربما

(١) عزيز ضياء: في أدبنا قمة عرفت ولم تكتشف، بحوث المؤتمر الأول للأدباء السعوديين ج٢،

أزيج النقباب عن الأسطورة فغدت واقعاً مألوفاً ولكن كيف يكون للحياة نكهة بدون غموض فطري أو أسطورة يلعب الخيال كثيراً في تزويقها، وإضفاء صفات الغرابة عليها؟!

ولننظر إلى أستاذنا الحازمي، وهو يرسم معالم الطريق أمام دراسة نقدية وموضوعية عن شحاتة وأدبه: «ومن يتوافر على دراسة - حمزة شحاتة - في المستقبل سيفيد كثيراً مما كتبه عزيز ضياء، ولكن لن تتاح له دفء كلماته، وفنية لمساته، ووقد حماسه. سيضطر إلى إخضاع الحالة للتشريح والتحليل، في موضوعية باردة، مليئة بالهوامش والتعليقات، ولكنه سيجيب عن كثير من الأسئلة التي ظلت عالقة في ذهن «ضياء» دون إجابة لا عن عجز - كما أشرنا - بل عن أشفاق أن تغتال تلك الصورة الأثيرة القديمة التي تطل عليه من وراء السنين في كبرياء وصمت^(١).

وفي العبارات التالية التي سوف نتابع من خلالها ما بدأناه من قراءة نقدية في البيان الشعري للرائد شحاتة من خلال دراسة المقدمة النقدية المتميزة التي كتبها شحاتة لكتاب لا يضم شيئاً من إنتاجه الشعري أو النثري، وكان ذلك قبل ما يقرب من نصف قرن من الزمن. في هذه العبارات يحدد (شحاتة) دور الشاعر في الحياة، ويراه دوراً مختلفاً عن الأدوار جميعها، ولكن هذا الدور لا يتحقق إلا عندما يكون قد تهيأت له - أي للشاعر - دواعي التمكن وأسباب القدرة، وهي في رأيه الانفعال لتصويره والتحليق من خلاله في عوالم الفتنة والجمال. وهذه العوالم هي التي طبعت شخصية شحاتة بدءاً من قامته الفارعة ومروراً بلباسه الأنيق، وانتهاء بقدرته على توليد الأنغام من بين أنامله وحلاوة حديثه التي جعلته

(١) د. منصور إبراهيم الحازمي: مواقف نقدية، ط١، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م، ص ٢٤٦ - ٢٤٧.

من أبرز المتحدثين في عصره. وقد أقر له بهذا المرحوم الأستاذ حسن بن عبد الله آل الشيخ الذي رثاه بكلمة بعد وفاته في مطلع التسعينيات الهجرية أتذكر منها بعد مرور ما يقرب من حوالي ثلاثين عاماً على هذا الحديث: «لقد كان حمزة شحاتة من أبرز المتحدثين الذين سمعته على الإطلاق، وكنت أستمع إليه أكثر مما أحدثه».

تقول عبارة شحاتة مصورة الشاعر، ودوره، وطرق أداء هذا الدور الفاعل والمؤثر في الحياة: «والناس أفلا يحبون ويتألمون، ويحسون، ويصفون الشاعر ويستثير بعضهم بعضاً، ويفكرون ويحللون، ويتنادرون ويتمثلون الأمثال والحكم. على نحو لا يختلف إلا باختلاف صيغ الكلام وأساليبه؟؟ فما حاجتهم - إذن - إلى الشعر والشاعر إن لم يكن أسلوبه في العرض والتركيب، والتلوين والتصوير، واستخدام الخيال، والتصرف بعناصر الجمال تعقيداً... وتبسيطاً، وتوليداً، جاعلاً لكل ما يعرفون ويحسون أبعاداً وصوراً وفتنة أعمق وأغنى وأحفل ببواعث التأثير وهكذا فما حاجتهم إلى النجار والبناء؟؟ أفلا يسع أحدهم، أو يسعهم بالتعاون والاشتراك أن يصنعوا من الحجر والخشب ما يشاءون على النحو الممكن ومعناه المقصود؟»^(١).

وهذه الأبيات من قصيدة (الحياة) للشاعر (حمزة شحاتة) - رحمه الله - والتي تذكرنا بالشاعر الحكيم أبي العلاء المعري - رحمه الله -:

أيها الكادح الذي اتخذ الوعد - ر سبيلاً إلى السعادة رفقاً
هي وهم مجدد أنت منه - في نضال، به تنوء وتشقى

(١) شعراء الحجاز في العصر الحديث، تأليف: عبد السلام طاهر الساسي، مكة المكرمة ١٣٧٠هـ، المقدمة.

وهي لغز تمضي الحياة ولا تك
كم سرينا على سناها حيارى
وانتشينا بها خيالاً من الرا
فإذا نحن في كفاح مرير
شف عنه الظنون خرقاً ورتقاً
نركب الوعر والعواصف خرقاً
حة أحنى مهذاً، وأنضر أفقاً
بين سارٍ على الكلال، وملقى

* * *

قل لمن يبتغي المذلة بالصّب
إنّما الصبر، والمنيّة غيب
كم نجا من كريهة مستميت
حكمة أن تصان بالصبر والذّ
غير أن البقاء أحبولة المو
شرب النَّاس بالردّيلة صفوا
قال لي صاحبي على الفوز مرّحى
لا يسرن حاله بمنّاه
ولقد يعجل السليم فيقضي
ر عليها قد ارتضيت الأشقا
أن تخوض الغمار غير موقى
وأصابت سهامها من توقى
ل حياة لو أن حيّاً سيبقى
ت أقيمت لنا، نسوراً وورقا
وشربنا على الفضيلة رنقاً
ولو استشعر القلى قال: سحقا
فمساري الأحلام أخطر طرقا
ولقد ينهض السقيم فيبقى

(٧)

في تصنيف الأستاذ والناقد الكبير عبد الله عبد الجبار لمواقف شعرائنا من النهضة الأدبية الحديثة في العالم العربي يتحدث عن التجديد وارتباط شعراء الجزيرة العربية به قائلاً: «أدباء حاولوا التجديد ودعوا إليه، وكانت دعوى بعضهم في التجديد أكبر كثيراً من طاقتهم على التجديد، ومن هؤلاء «خواطر مصرحة»، وغيره... ومن هنا كانت النزعة الرومانسية وشعر التأمل الذهني»^(١).

ولا بد من إلقاء نظرة على المشهد التجديدي في تلك الحقبة من خلال عرض سريع لتياراته ورموزه:

يعترف - صراحة - الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد بالروابط الفكرية التي تربط بين مدرستي الديوان والمهجر، والمتمثل في قوله: «والحق إنني وقعت من قراءة هذه الصفحات على قرابة صحيحة، وجوار ملاصق في الحي الذي أسكنه من هذه الدنيا الأدبية الجديدة» إلا أنه يشير إلى الخلاف بين المدرستين وذلك في معرض تقديمه لكتاب الأستاذ ميخائيل نعيمة «الغربال» والذي يعتبر البيان الشعري للمهجرين والذين يعد (نعيمة) من شيوخهم في الإبداع والنقد، إلا أن العقاد يختصر هذا الخلاف

(١) عبد الله عبد الجبار، التيارات الأدبية الحديثة في إقليم الجزيرة العربية، ١٩٥٩م، ص ٢٤٦.

في عملية التطبيق وليس في الجوهر، لذا نراه يلمس هذه القضية بأسلوبه الصارخ فيقول: «وزبدة هذا الخلاف أن المؤلف - يعني ميخائيل نعيمة - يحسب العناية باللفظ فضولاً، ويرى أن الكاتب أو الشاعر في حل من الخطأ ما دام الغرض الذي يرمي إليه مفهوماً، واللفظ الذي يؤدي به - معناه - مفيداً»^(١).

ويؤكد الناقد المعروف الأستاذ محمد مندور هذا الاختلاف بين مدرستي الديوان والمهجر... فيتحدث عنه بشيء من الإفاضة والوعي الذي تفتقده عند كثير من النقاد المعاصرين الذين قرأوا المدارس النقدية الشكلائية قراءة ينقصها التمثل والفهم والقدرة على تطبيقها - فنياً - على أدبنا بمختلف أشكاله وضروب الإبداع فيه... يقول «مندور» واضعاً مبضعه النقدي على نوعية هذا الاختلاف: «وقد تجسمت هذه الحملة - أي على الأدب التقليدي - بنوع خاص في كتاب (الغربال) للأستاذ ميخائيل نعيمة، وهو كتاب يختلف عن كتاب الديوان كل الاختلاف وإن اتفق معه في الهدف» ويلمح مندور إلى أن الأسلوب الذي أخذت به مدرسة الديوان كان أسلوباً عاصفاً حتى مع المهجرين الذين حياهم الأستاذ «العقاد» ثم جعلهم في منظومة واحدة مع شعراء المشرق العربي، نقول: «إنه بالرغم من اتفاق الحملتين في الهدف بدليل ما نقرؤه في كتاب «الغربال»، ومقدمته من تحايا متبادلة، وتأييد متفاوض، فإن أصحاب الحملة المصرية لم يخفوا معارضتهم لشعراء المشرق العربي وشعراء المهاجر بنوع خاص في مسألة الأداء اللغوي»^(٢).

(١) ميخائيل نعيمة، الغربال، ط ١١ ١٩٧٨م، مقدمة الطبعة الأولى، ص ١٠.

(٢) د. محمد مندور، الشعر المصري بعد شوقي، الحلقة الثانية، دار نهضة مصر، ص ٣ - ٤.

ويذكر الباحث بيسوفه محمد عبد السلام: «إن أول من أطلق هذا الاسم - أي الديوان - هو المرحوم الدكتور محمد مندور في مقالات نقدية نشرها بالمجلة المصرية وهي عبارة عن خمس مقالات، ثلاث في العقاد، ومقاليتين إحداهما في شكري والأخرى في المازني»، إلا أن الباحث بيسوفه نفسه يعود للقول: بأن «رواد الديوان مهدوا لدعوتهم التجديدية بمقالات نقدية قبل ظهور كتاب «الديوان» وكان «عبد الرحمن شكري» أول من تناول «طه حسين» بالنقد، ثم تناول العقاد بعده «شوقي» وخصص «المازني» نقده «لحافظ» من الشعراء و«المنفلوطي» من الكتاب بالإضافة إلى طه حسين^(١).

وإذا صح أن مندور هو من أطلق على آراء هذا الثالوث التجديدي في الأدب العربي مسمى (الديوان) فإنه في مسعاه النقدي لتتبع حركة التجديد في البلاد العربية، ينفي عن روادها سمة المدرسة... على عكس ما أقره لشعراء المهجر، الذين ساروا بحسب تعبيره قدماً في تجديد مضمون ذلك الشعر ولغته على السواء، ولكن للأستاذ مندور حيثياته في هذه الرؤية إزاء أصحاب «الديوان»... فهو يقول: «والشيء المؤكد هو أن حركة الديوان لم تخلق مدرسة شعرية، ولم ترب تلاميذ وأتباعاً، وذلك لأن المازني لم يلبث أن هجر الشعر إلى النثر، والتهاب العاطفة إلى السخرية، وإذا كان الأستاذ العقاد لم يهجر الشعر بل واصل إخراج الدواوين حتى (أعاصير مغرب) ثم بعد «الأعاصير» سنة ١٩٥٠م فإن هذا الأستاذ الكبير لم يواته، فيما يبدو، الطبع الذي يستطيع معه أن

(١) بيسوفه محمد عبد السلام، مدرسة الديوان، ثالوث التجديد في الأدب العربي الحديث، مطبعة

يكون مدرسة وأن يتبنى تلاميذهم مواهبهم وشخصياتهم الأصيلة»^(١).

وامتد تيار التجديد في مصر فإذا بشاعر عربي الروح، أمريكي الثقافة يظهر على الساحة، إنه الدكتور أحمد زكي أبو شادي (١٨٩٢ - ١٩٩٥م). ويعده الأستاذ محمد عبد النعم خفاجي «رائداً للمدرسة الرومانسية في الشعر العربي المعاصر ومن الذين بذروا بذور الواقعية الحديثة في الأدب، وهذه المدرسة هي التي حملت لواء الشعر بعد شوقي وحافظ، متابعة خطأ المجديين من أمثال: مطران، وشكري، ومحرم»^(٢).

ويؤكد مندور تأثير خليل مطران على أحمد زكي أبي شادي، مؤسس جماعة (أبوللو). ويرى أنه بشعره كان أكبر من أن تحتويه مدرسة أو مذهب شعري محدد، يقول مندور في هذا الشأن:

«إن جماعة (أبوللو) ومجلة «أبوللو» لم تكونا مدرسة أدبية متجانسة، ومذهباً موحداً ذا خصائص مميزة، لأن رائدها وهو أحمد زكي أبو شادي قد كان هو نفسه موسوعة شعرية».

وإذا كان مندور قد قلل من شأن مدرسة الديوان وتأثيرها في تيار الشعر الحديث، فإننا نراه يتحمس لحركة «أبوللو» ورائدها «أبي شادي» الذي جمع بين الشعر القصصي، والدرامي والعاطفي، والوصفي، والفلسفي، بل وتخطى الشعر إلى مجالات أخرى كالنثر والنقد والعلم وبعض الفنون وبخاصة فن التصوير الزيتي، يقول «مندور» موضحاً أثر «أبوللو» على الشعر المعاصر والذي - لا ريب - فيه أنه إذا كانت حركة

(١) د. محمد مندور، الشعر المصري بعد شوقي، الحلقة الثانية، دار نهضة مصر، ص ٥.

(٢) د. أحمد زكي أبو شادي، أبو شادي في المهجر، مجموعة من مقالاته وأحاديثه، تقديم الأستاذ محمد عبد النعم خفاجي، دار مصر للطباعة ص ٧.

«أبوللو» لم تكن مدرسة محددة متميزة، فإنها قد أدت إلى ذلك التفاعل الكبير، وتلك الفورة الشعرية التي أغنت شعرنا المعاصر بعدة اتجاهات^(١).

وإذا عدنا بعد هذه التوطئة التي بدأنها برأي لناقد كبير ينتمي لهذه البلاد الكريمة وهو الأستاذ عبد الله عبد الجبار الذي ذكر أن دعوى بعض شعراء بلادنا في التجديد كانت أكبر من طاقاتهم. ومثّل في هذه الناحية بإنتاج الأستاذ محمد حسن عواد - رحمه الله - الذي برز تلميذ له ليأخذ منه راية التجديد التي ابتدأها بكتابه المعروف (خواطر مصرحة) وكان هذا التلميذ على قدر كبير من الموهبة والفكر والثقافة ونعني به الأستاذ «حمزة شحاتة» - رحمه الله - فإنه لن يمتنعنا عائق من إيراد رأي الدكتور محمد حسين هيكل الذي ضمنه مقدمة أهم الكتب الأدبية التي حاولت التعريف بالأدب السعودي في نهضته التجديدية الحديثة، ألا وهو كتاب (وحي الصحراء)، الذي ضم إنتاج معظم الرواد في بلادنا باستثناء «حمزة شحاتة»، يقول الدكتور «هيكل» حول تأثير ذلك الجيل بالنهضة الأدبية في مصر - وغيرها - «والحق إن الأدب الحجازي الحديث متأثر بهذه النهضة تأثراً تاماً، وإنك لترى أثناء قراءتك هذه المجموعة أثر النهضة بادية في كل ما اشتملت عليه. فالأسلوب والصور وطرائق التفكير والتعبير تجري كلها مجرى ما تقرأه في أدب مصر وسورية والعراق من البلاد العربية في هذا العصر الأخير، بل تجري مجرى الصور الأخيرة لهذا الأدب الحديث في تلك البلاد - فأنت ترى شعراً منثوراً، وترى أوزاناً في الشعر من أوزان المدرسة الحديثة، وترى تفكير هؤلاء الأدباء مصوراً في قوالب تكاد تردّها إلى مصادرها في تفكير العصر الحاضر وأدبه. ثم إنك ترى أساليب يحتذى

(١) مندور، الشعر المصري بعد شوقي، الحلقة الثانية، جماعة أبوللو، دار نهضة مصر ص ٦ - ٧.

فيها أصحابها بعض الكتاب المعروفين - اليوم - في مصر وغير مصر^(١).
عام ١٣٥٥هـ.

لكن الدكتور هيكمل في مقدمته لهذا المصدر الأدبي، الذي كانت طبعته الأولى في عام ١٣٥٥هـ، لم يدل على ما ذهب إليه من قول يرى فيه وطأة التأثير العربي والمصري - خاصة - على مجمل إنتاج أدباء الجزيرة العربية في تلك الحقبة، ولربما غلبه شيء من المجاملة فلم يقل إن إنتاجهم ما هو إلا استنساخ لما يكتبه الأدباء المصريون. ولعل هذا الشعور بالذاتية المفرطة هو الذي دفع بالأستاذ الكبير أحمد عبد الغفور عطار أن يشيد بالأدب السوري واللبناني أثناء الزيارة التي قام بها الدكتور طه حسين للأراضي المقدسة قبل حوالي نصف قرن من الزمن، ولقد سببت كلمة الأستاذ العطار شيئاً من الغضب والحدة للدكتور طه حسين، الذي اختصر رده على العطار في بيت شعري مشهور.

وإذا كان «شحاتة» عزف عن نشر أي شيء من إنتاجه مع جملة رصفائه - آنذاك - في كتابه (وحي الصحراء)، وتعدد الأقوال عن هذا العزوف الذي كان سمة من سمات شخصية هذا المبدع، فإنه في الوقت نفسه ذكر في عبارات موجزة وضع لها عنواناً هو (لم أنتم لأية مدرسة) عدم التزامه بأي منهج معين ونجده في إجابته متواضعاً إلى حد بعيد، يقول «شحاتة»: «ورب سائل يسألني عن المدرسة الأدبية التي أنتمي إليها، وفي هذا المجال أحب أن أوضح أنني قرأت الكثير، كل شيء وصل إلى يدي... تأثرت، وانفعلت بكل ما كان له صدى في نفسي وفكري...»

(١) محمد سعيد عبد المقصود، وعبد الله عمر بلخير وحي الصحراء، ط ٢، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م
المقدمة ص ٢١ - ٢٢.

ولم ألتزم منهجاً معيناً ففاتني التخصص في أي شيء... كما فاتني الاحتراف، وربما كان أثر من آثاري الأدبية يعكس لوناً من ألوان المدارس الأدبية والفكرية في شكل من أشكالها، ولكن هذا لا يعتبر انتماء، لأن الانتماء الموسع اعتباري من طراز «اللامنتمي»، ربما كان الكلام عن نفسي بهذه الصورة، يعتبر تكبيراً لصورة بالغة بالنسبة لي إنه ليست لي آثار مجموعة تحدد وجودي الأدبي^(١).

ومع أن «شحاتة» اشتهر من خلال معاركه الأدبية - وخاصة مع الأستاذ الراحل محمد حسن عواد - رحمه الله - إلا أنه كان من الشجاعة بمكان أن ينقدها قبل غيره، وربما كان هذا عائداً لبعض ما تضمنته تلك المعارك من تجريح شخصي. والأمر لم يكن مقتصرًا عليه وحده ولكن يشمل جميع من دخل دائرتها. ولكنك تقف احتراماً للرجل الذي يرفع صوته قائلاً: «إن المعارك الأدبية التي خضتها، كما سماها البعض بالمعارك، لم تكن في رأيي سوى مشاجرات تغلب عليها صبيانية الفكر قبل أن يذبل، وكانت أسبابها في غاية التفاهة، وكذلك موضوعاتها، ولأنني مجرد من الذكاء كانت تفرض على المثقفين في صورة دفاع عن حرمتهم الأدبية»^(٢).

(١) حمزة شحاتة، رفات عقل، جمع وتقديم الأستاذ عبد الحميد مشخص، ط١، ١٤٠٠ -

١٩٨٠م ص ١٢.

(٢) رفات عقل، ص ١٨.

(٨)

إذا كان المبدع «شحاتة» نفى عن نفسه سمة الانتماء لأية مدرسة أدبية أو منهج معين، فإن الناقد الأستاذ عزيز ضياء - رحمه الله - يضع يده على قضية تطور حركة الإبداع عند شاعرنا بعد نزوحه إلى مصر، وذلك من خلال نص المقدمة التي كتبها عزيز لديوان شحاتة: «ولقد عكفت على قراءة معظم قصائد المجموعة - متوخياً - أن ألمس تطور حركة الإبداع عنده، وإذ وجدت المجموعة ضخمة نسبياً قدرت أنني سأجد شواهد هذا التطور فيما لم يسبق لي أن قرأت من هذا الشعر، ولكن لست أدري إن كانت نظرتي إلى مفهوم التطور في الإبداع، لم توقف حركة التطور في شعر حمزة، هي التي جعلتني أقول بعد كل قصيدة قرأتها إن أوائل ما أبدع من شعره في مكة وجدة، وربما بعد ذلك بفترة قصيرة في مصر، يظل هو الذي بنى له هذه الشهرة وذيوع الصيت كشاعر في القمة، وعدم التطور أو وقوف حركة التطور لا تعني بطبيعة الحال أنه هبط عن مستواه»^(١).

ولا بد أن نبحت عن أسباب إقدام حمزة على النشر في بداية حياته مما بنى له الشهرة وذيوع الصيت كشاعر في القمة بحسب تعبير الأستاذ

(١) ديوان حمزة شحاتة، ط أولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، المقدمة ص ١٢.

عزيز. لقد كان حمزة مقبلاً على الحياة ومتوقفاً منها الشيء الكثير، وليس أدل على هذا الإقبال الطبيعي لشاب «فارح القامة وثيق البنيان عالي الجبهة» من قصيدته «سطوة الحسن» التي أزعج أنه لم يتحقق لقصيدة مثلها ذلك الذبوع والانتشار الكبيرين، وهي قصيدة نابغة من البيئة التي نشأ فيها الشاعر، ولهذا وحده، كان الشيوخ والشباب يرون فيها تعبيراً عن عواطفهم وأحاسيسهم الطبيعية، ولما تحملها القصيدة في طياتها من جرس قوي، ونغم عذب، يدل على تمكن الشاعر من السيطرة على أدواته الشعرية وتوجيهها الوجهة الملائمة، لهذا وسواه كانت القصيدة نشيداً عذباً يردده الناس في جميع المناسبات، ومصحوباً في بعض الأحيان بالآلات الموسيقية. تقول بعض أبيات القصيدة ذات المطع الأخاذ:

بعد صفو الهوى وطيب الوفاق عزّ حتى السلام عند التلاقي
يا معافى من داء قلبي وحزني وسليماً من حرقتي واشتياقي
هل تمثلت ثورة اليأس في وجهي وهول الشقاء في إطراقي

ومنها:

وتهيات للسلام ولم تفعل فأغريت بي فضول رفاقي
هبك أهملت واجبي صلفاً منك فما ذنب واجب الأخلاق

وفي رأي أن هناك بيتاً في القصيدة لا يقل في روعة صياغته الشعرية، وعميق معناه عن تلك الأبيات الشاردة التي جرت على ألسنة الشعراء الكبار أمثال جرير، والبحتري، وأبي تمام، والمتنبي، وأحمد شوقي، وعمر أبو ريشة، ومحمد إقبال.

وهذا البيت الشعري المؤثر والمتداول من هذه السيمفونية الشعرية هو:

قد يطاق الصدود يوجبه الذنب وصدّ الملal غير مطاق

إلا أن إقبال «حمزة» على الحياة وتفاعله معها في مرحلة الشباب أدى إلى اصطدامه ببعض العقبات فأثر شحاتة التمسك بمثله وبمبادئه وعدم التفريط فيها، بينما سار الآخرون في الدرب في شيء من الواقعية والتوفيقية التي تأباها شخصية «شحاتة». ولعل بعض هجائياته التي كانت تنشر تحت اسم مستعار، أو رمز له دلالاته الخاصة مثل «أبو الهول»، يدخل في باب اختلاف الشاعر مع بعض مجاليه أو أنداده حول التعامل مع قضايا الحياة وشجونها المختلفة. وقليل أولئك الذين احتفظوا بصداقة دائمة مع الشاعر، ويأتي في مقدمتهم معالي الأستاذ الأديب محمد عمر توفيق - رحمه الله - الذي وصف شعره ونثره - على حد سواء - «بأنه يمثل الجزء الحي من أدبنا». ومعروف أن الأستاذ محمد عمر - كان يملك حاسة نقدية مرهفة مما يجعل رأيه في «شحاتة» وأدبه له وزنه واعتباره وقيمتة النقدية والأدبية، ولعل الكاتب الكبير والمبدع السيد عبد الله جفري يعرف عن هذه الناحية أكثر مما أعرف، فلقد تبادل مع الشاعر الرسائل في أخريات حياته، وكتب مرثية رائعة فيه بعنوان (من يجفف دموع القصاص؟) كما أن الأستاذ عبد الإله عبد المجيد ممن يعتد برأيه في هذه القضية. أما شيخنا محمد نور جمجوم ورديفه أستاذنا الفاضل عمر عبد ربه إضافة إلى الأساتذة عابد خزندار وعبد الحميد مشخص ومحمد سعيد بابصيل ومحمود عارف وعبد الله خياط ومحمد صالح باخطة فليدهم ما يقولونه ويضيفونه عن الشاعر وحياته ومعاركه الأدبية.

ولقد ألمح الأستاذ الكبير محمد حسين زيدان إلى الصعوبة التي كان

يجدها البعض عند الاقتراب من شخصية «شحاتة» التي كانت تزن الآخرين بمقاييسها الخاصة، يقول صاحب الكلمة المرتجلة «الزيدان» رحمه الله مخاطباً شحاتة: «سألوني عنك: هل أنت صديق حمزة شحاتة؟ قلت: أنا صديقه، وهو صاحبي، لأنه كالوردة شمهها ولا تضمها»^(١).

ويشير الزيدان في مقالته تلك التي كانت رثاء في شحاتة إلى العلاقة الوثيقة التي كانت تربطه بالقلة من أدباء هذا البلد، وفي مقدمتهم الأستاذ المرحوم حسين سرحان: «لم تكن جائراً حين لا يعجبك إلا صديقك حسين سرحان، ولم تكن متجنباً حين تتواضع فلا تعجبك حتى نفسك» ومعروف عن الأستاذ الزيدان اعتزازه بشخصه، ولكنه يتحدث في هذه الكلمة بإعجاب كبير بشخصية «شحاتة» ولا أظن أحداً حظي من الزيدان بهذا الثناء كما حظي الراحل شحاتة. ويختتم الزيدان كلمته بعبارات تؤيد ما ذهبنا إليه بأن شحاتة عانى من بعض أنداده في صداقته لهم وطوى نفسه على جراح أليمة، تقول العبارة الزيدانية المجنحة: «وأخيراً فإن القلة من الرجال الذين صنعتهم قد يكونون أهل جفوة في حياتك ولكنهم - اليوم - كلهم الصفا... كلهم الوفاء... كلهم الباكون، حتى الذين أقصيتهم أنت كانوا أقربنا إليك حين وضعوك في القبر».

لقد كان «حمزة» شاعراً وناثراً ومفكراً، وأعتقد أنه كان يعني نفسه بهذا القول الذي ضمنه محاضراته الذائعة الصيت «الرجولة عماد الخلق الفاضل» والذي يربط فيه بين رؤية حقائق الحياة بصورة متجردة وبين القدرة على المواءمة الحقيقية بين القول والفعل أو النظرية والتطبيق.

يقول «شحاتة» في هذا المعنى: «لا تكون النظرة إلى حقائق الحياة

(١) محمد حسين زيدان، الأستاذ حمزة شحاتة، البلاد، ١٧/١٢/١٣٩١هـ.

والفكر خالصة إلا من أناس يرون أنفسهم فوق قيودها وقوابلها»^(١).

وقد عمل شحاتة طوال حياته على أن يكون الإنسان الذي لا تناقض بين أقواله وأفعاله، وهي مهمة عسيرة وقليل من رجال الفكر والأدب العالمي الذين استطاعوا تحقيق هذه المعادلة الصعبة، ولقد دفع «شحاتة» ثمن ذلك فكانت الهجرة وكان الزوج، وكان الصمت البليغ.

لقد كان نزوحه في البداية إلى أعماق نفسه - وكأنه بهذا يمارس رياضة روحية، أو زاهداً يستجلي من خلاله صورة هذا الكون وحقيقة هذه الحياة، ولهذا نجد له عبارات أدبية، تمتدح الصمت وتدعو إليه، كما أنها تحث على الإيجاز وتعتبره فناً... يقول شحاتة: (الصمت أفضل لغة للحوار) وفي موضع آخر «الإسهاب صنعة» و: «الإيجاز فن» وفي شيء من الصدق والمرارة يعترف بقوله إنني: «أعرف الواقع تماماً... ولكنني غير واقعي»^(٢).

ثم هاجر «حمزة» إلى مصر، ولكنه لم يخالط أدباءها ومفكراتها، وربما يمكن تفسير هذا الابتعاد عن الجو الفكري والأدبي المصري الذي كان في مرحلة توهجه في أثناء وجود شاعرنا هناك - هو اعتزاز شحاتة بشخصيته الفكرية والثقافية، ولو توافر لـ«شحاتة» من عوامل الاستقرار «الذاتي» منها، فإن شهرته لم تكن لتقل عن رواد الفكر والأدب - آنذاك - من أمثال: العقاد، وطه حسين، ومصطفى صادق الرافعي، وإبراهيم المازني، ولطفي السيد، وجبران خليل جبران، وميخائيل نعيمة، وغيرهم من رواد النهضة.

(١) حمزة شحاتة... الرجولة عماد الخلق الفاضل، ط١، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، ص ٢٢.

(٢) حمزة شحاتة، رفات عقل، جمع وتقديم: عبد الحميد مشخص، ط١، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م - ص ٥٣.

لقد كان «حمزة» إنساناً مثالياً بحق، فلقد نسي نفسه، وآثر العزلة في ديار الغربية، وذلك في سبيل تحقيق تربية فكرية وخلقية لأسرته... لذا نجده يعبر عن هذه الناحية المهمة في شخصية الرجل الذي فسر بعضهم علاقته بأسرته تفسيراً خاطئاً، يقول الأستاذ شحاتة: «ورب سائل يسألني عن الأسرة في حياتي، وماذا أتمناه لأبنائي، والواقع المؤلم، أنني حاولت بكل جهدي أن أكون أباً مثالياً لبناتي وظللت أصارع المتاعب حتى خارت قواي»، بل إنه يذهب إلى أبعد من ذلك عندما يجعل حب الأب لأبنائه ضياءً ينير دروب الحياة المعتمدة: «ومعقول أن يصبح حبنا إياهم، شاغلاً قوياً بعد ذلك، لشعورنا بالحاجة إليهم كجزء متمم لحياتنا، وفي بعض الأحيان كضوء ينير جوانبها المظلمة»^(١).

لقد كان «شحاتة» مثالياً في كل شيء، ولكنه كان واقعياً إلى أقصى حدّ في حبه لأبنائه، وعطفه عليهم، وسعيه لكسب لقمة العيش «الحلال» لتربيتهم، ولقد تجاوز الحد الطبيعي في الحرص على كيان أسرته وتحقيق رغبات بناته اللاتي كن كل شيء في حياته، حتى تمنى أن يموت في سبيلهن، فلقد رفع صوته ذات يوم وفي لحظة صفاء نادرة ليقول: «عندما يعجز رب الأسرة عن تحقيق رغباتها يكون موته أفضل» ترى أي شيء نسعى لمعرفته عن هذه القمة الشامخة، رجولتها، وفائها، فكرها وأدبها، أم ذلك ينبوع المتدفق حناناً وعطفاً وأبوة حانية ورحيمة.

وهذه أبيات من قصيدة للشاعر الكبير السيد محمد حسن فقي، شافاه الله، في رثاء حمزة شحاتة:

قد كنت بالأمس القريب أجله لنبوغه وألومه لحداره

واليوم أحمدته على علاته
إن شذ في أطواره فلأنه
لم يحمده على المقام ولا السرى
يا من ترحل هيكلاً متحللاً... عنا
سنظل من إحساسه في نعمة
بل الغمام ثراك موصول الندى
إلى لامح بالخيال جواره
وأى زكانتته وبعد قراره
عرف الأنام فشذ في أطواره
فلوى العنان ولج في إصراره
وأبقى الخلد في آثاره
وبنعمة سنظل من أفكاره
حتى ينمنمه بحلو إطاره
فأروح مغتبطاً بحسن جواره^(١)

(١) محمد حسن فقهي، وغربت الشمس، البلاد، ١٦ ذي الحجة، ١٣٩١هـ.

(٩)

نعود إلى ما نحن بصده من قراءة نقدية متفحصة لمقدمة الأستاذ حمزة شحاتة لكتاب المرحوم عبد السلام بن طاهر الساسي (شعراء الحجاز في العصر الحديث) والتي دعيناها بالبيان الشعري لهذا الرائد المتفرد في شعره ونثره - على حد سواء - يقول شحاتة بعد عرضه لآرائه النقدية في فنون الإبداع - جميعها - والتي خص الشعر منها بنصيب وافر وهو فن تفوق فيه على كثير من أنداده والذي يعترفون له بعبقريته، وقدرته على التأثير حين يتحدث، وحين ينشد، بل وحين يشتغل بما هو مألوف وبريء في هذه الحياة كما أشار إلى ذلك الأستاذ المرحوم أحمد عبد الغفور عطار في إتقان شحاتة للدامة .

يقول الرائد الأستاذ محمد حسين زيدان - رحمه الله - : «رجال أربعة لا أريد أن أسميهم يتحدثون كأن الجرس في الحرف الذي ينطقون يعرب الكلمة أو يزيدها إعراباً، وأنت واحد منهم تقول: فتعرب ليس فيك عجمة فيما تعتقد، فيما تقول كأنك قد لبست الجاحظ والرافعي، كأنك قد شبت من نهج البلاغة»^(١).

ولقد وضع الأستاذ الزيدان - يده - بهذه العبارات المجنحة على منابع

(١) الأستاذ حمزة شحاتة بقلم محمد حسين زيدان (البلاد) ١٧/١٢/١٣٩١هـ.

ثقافة «شحاتة» الأصيلة وهي الأدب القديم والحديث معاً، ولكنه لم يكن نسخة من الجاحظ، أو البحتري، أو الشريف الرضي أو الرافعي، بل تمثل ذلك الأدب الرفيع وغيره، ثم خرج لنا على نمط فريد من الشاعرية، والخطابة، والكلمة النثرية القوية في بنائها، والعميقة في معناها، والبعيدة المدى في جرسها.

أما الرائد الأستاذ «محمود عارف» - رحمه الله - والذي كان يقف إلى جانب الأستاذ الكبير محمد حسن عواد - رحمه الله - في معركته الأدبية المعروفة مع «شحاتة»، فقد صورته في مرثية مؤثرة وكأنه «أبو الهول» في عظمته، وصمته، وإعجاب الناس على مر التاريخ بالأيدي التي نحتته، والعقول التي رزقت القدرة على تشكيل ملامحه الصلبة.

يقول المرحوم محمود عارف، في لغة رقيقة ومؤثرة:

عشت في مصر... غريباً، صامتاً	«كأبي الهول» سواء بسواء
فإذا الأهرام والتَّيل ترى	فيهما سلوى، ورؤيا، ونجاء
أين نجواك التي قد صورت	«جدة» والليل مسدول الرداء
أين رؤياك التي قد جاوزت	مكة، والبيت في جنب حراء
أين سلوكك التي قد خلَّدت	«ذكريات» في لياليك الوضاء
ذكريات، زخرفتها ملح	ونكات بين إخوان الصفاء
شهد «المركز» فيها طرفا	في «النقاء» بين كدي وكداء
أين «سمار» أضاعوك سدى	مثلما ضاع من الصبح المساء ^(١)

(١) زفرة من الأعماق، شعر محمود عارف «صحيفة البلاد» الأربعاء ١٧/١٢/١٣٩١هـ.

يقول الأستاذ «شحاتة» في صدد كتابته لهذه المقدمة التي تهرب منها قبل القبول بكتابتها ثم نفى نسبتها إليه كما ذكر الأستاذ «الفيلالي» في (المرصاد)، وإن كان صاحب (المرصاد) يعتقد - تماماً - أنها من إنتاج حمزة شحاتة - نفسه. أما الأستاذ الكبير عبد الله عبد الجبار، فقد أوجز في عبارات دقيقة رأيه حول هذه المقدمة فقال: «والواقع الذي لا شك فيه أن القارئ، الحصيف، الدقيق النظر، يشعر عند قراءتها أن كاتبها توخى الدقة فيما كتب، وكان يعني ما يقول بكل كلمة سطرها وليس العيب - إذن - في المقدمة، بل في الذهن المعوج، والفهم السقيم»^(١).

يقول شحاتة - كما ذكرنا - عن بواغث كتابة هذه المقدمة وما اكتنف تلك الكتابة من مصاعب: «والآن إن كنت لم أستوف الكلام - بعد إبقاء على صبر القارئ، أدعوه أو أعزم عليه - باسم الله - أن يخوض - وحده - معركة سافرة ضد ثلاثين شاعراً - على وجه التقريب - من شعراء الحجاز في هذه المجموعة التي اختار جامعها - غفر الله له - أن لا يقدم لها سواي دون عباد الله - قاطبة، ففعلت بعد أن سدّت في وجهي أبواب الهروب والإفلات».

يبدو أن الأستاذ «شحاتة» كتب هذه المقدمة بعد خروجه من المعارك الأدبية التي خاضها مع بعض معاصريه، وفي مقدمتهم الأستاذ «العواد» ولهذا نجده اختار لفظ «معركة» ووصفها بالمعركة السافرة، وأراد للقارئ أن يدخل - وحده - هذه المعركة وكأن شاعرنا يتحدث إلى فئة معينة من القراء وهي الفئة المثقفة، فلا يمكن للقارئ العادي أن يخوض معركة، بل هو ربما احتاج إلى من يخوضها عنه، ومع هذا فإن «شحاتة» لم يترك

(١) مرصاد المرصاد، بقلم الأستاذ عبد الله عبد الجبار، رابطة الأدب الحديث، ج ٢، ص ٩٤.

القارىء - وحده - أياً كان نصيبه من الثقافة الأدبية والشعرية ليقترح ميدان هذه المعركة، ولهذا أردف يقول: «والقارىء لا شك يعلم أن من مصطلح أدب التقديم الذي جرى فيه الناس على مألوف العادة، والعرف أن يكون تنبيهاً عريضاً إلى المحاسن، وإعلاناً عنها ولها، وإشارة مجملة إلى نقائصها وأضدادها لا تخرج عن نافلة الاستبراء بحركة أو بحركتين إن روي أن هذا ضروري لإثبات الأمانة».

يشير «شحاتة» في شيء من الدعابة، والطرفة، إلى ما استقر في الأذهان عن أدب «التقديم» الذي يطغى عليه أسلوب المجاملة، وهو في عباراته هذه يتحدث بعقلية الناقد الذي يريد للحركة الأدبية في بلادنا - آنذاك - ضرباً جديداً من النقد يقوم على الموضوعية، وينأى عن تلك الأساليب التي استقرت في أذهان الناس عن النقد ووظيفته التي تعمل على تقويم ما يكتب، وتوجيهه الوجهة الصحيحة التي تعمل على إشاعة ذلك الأدب الرفيع الذي يرتقي بعقول الأمة، ويهذب نفوسها، ويصقل مشاعرها ويفتح أمامها أبواب الرقي الثقافي والحضاري والفكري، و«شحاتة» في هذا الفهم الواعي لدور النقد، يلتقي مع آراء أكبر ناقد عربي شهده العصر الحديث - بشهادة المرحوم الدكتور شكري عياد - يقول الأستاذ الكبير «محمد مندور» - رحمه الله - موضحاً دور الناقد في المشهد الأدبي والفكري: «إن الناقد الحقيقي ليضيف إلى النص الشيء الكثير، يخلقه خلقاً بفضل ما في الكتب الجيدة من قدرة على الإيحاء، وهذا من حقه، بل من واجبه ما دام لا يتعسف، فيخرج المعاني غير مخرجها، أو يحملها ما لا تطيق».

وفي الحق أن النقد الجيد خلق جديد، إذ سيان أن نحس ونفكر ونعبر

بمناسبة كتاب، أو بمناسبة حادث، أو مشهد إنساني، وكل تفكير لا بد له من مشير^(١).

لقد كان «شحاتة»، ملماً بوعيه النقدي الفطري وعن طريق ما قرأه واطلع عليه، بالتيار النقدي الجديد الذي بدأت تترسخ مفاهيمه في أذهان الكتاب والقراء - معاً - ولو توافر لـ «شحاتة» ما توافر لـ «مندور» من عوامل الاستقرار، وبواعث الذبوع والشهرة لحظيت الحركة الأدبية في بلادنا بناقد متميز لا يقل عن نظرائه في البلاد العربية الأخرى، ولأصبح لدينا «شحاتة» الشاعر والناثر والفيلسوف والناقد.

(١) د. محمد مندور، في الميزان الجديد، دار نهضة مصر للطبع والنشر، ص ٩.

(١٠)

يبدو أن «شحاتة» في المقدمة التي كتبها لمؤلف الأستاذ الساسي «الشعراء الثلاثة» كان معنياً بنقد الحركة الأدبية الحديثة في بلادنا نقداً موضوعياً فلقد تفتحت عيناه على هذه الحياة وقد سبقها إليه جيل أو جيلان كما أنه عاصر عدداً كبيراً من الأدباء والشعراء الذين ينتمون إلى هذا الجيل أو تلك الأجيال، وهذه المعاصرة منحتة الفرصة الكافية لينفتح - في بداية حياته - على مجايليه، ويخالطهم بما هيأ له دواعي معرفة ما يدور في الساحة الأدبية، ولا بد أن شيئاً منها لم يرق لشاعرنا ونظرته إلى دور المثقف والأديب والشاعر في الحياة، ولهذا تجده يشير إلى شيء من هذا بقوله «وهذا - أي مصطلح أدب التقديم» - ولا أكتم القارئ، مزاح ثقيل الوطأة على مزاجي وعقلي، أو هو امتحان عنيف لطبيعتي بما لا تواتيني عليه، فما يسهل علي أن أنزل منزلة المعلن، أو قارع الجرس، أو السمسار يروج السلعة بالباطل أو بما يدخل تحته من صور الحق والجد المصنوعة الجاهزة للطلب»^(١).

ثم ينتقل الناقد «شحاتة» ليعرّف دور الناقد - من وجهة نظره - مثبتاً له ما يليق به وناظراً عنه ما لا يليق. «والمقدم - وهو هنا إذا كان القارئ لا

(١) مقدمة شعراء الحجاز في العصر الحديث.

يعلم - وسيط بين الشاعر وقرائه فأول ما ينبغي أن يتصف به أمانة الوسطاء في دفع أسباب الخداع، والتضليل، ووضوح البراءة منهما، ويشهد القارئ الجاد أنني فعلتها بما قلت وإن كنت لم أفتح الباب على مصراعيه، اعتماداً على فطنة الناس وزكائهم».

لقد كان «شحاتة» في فهمه لوظيفة النقد ودوره التوجيهي الخالص من أسباب المجاملة ودواعي الخداع والتضليل ينطلق من الفهم والوعي نفسه الذي ينطلق منه الأستاذ الكبير د. «محمد مندور» الذي تحدد هذه العبارات التالية رؤيته للنقد الذي يفترض أن تكون له موازينه الدقيقة، ومعايير الموضوعية البعيدة عن أسلوب السباب والإعلان.

يقول الأستاذ د. «مندور» - رحمه الله -: «وسار الزمن سيرته فلم نعد نرى «موازين» حتى أصبح النقد، إما سباباً أو إعلاناً، فهذا يريد أن يحطم «الأصنام» والجمهرة العظمى لا هم لها إلا أن ترضي هذا أو ذاك بالإعلان عن كتبه إعلاناً متنكراً في صيغة النقد الأدبي وأكبر الظن أن معظم هؤلاء النقاد المحترفين لا يقرأون ما يكتبون عنه فيما عدا العنوان وبعض الصفحات»^(١).

ولا نعلم إذا كان د. «مندور» عنى بمحطم الأصنام اثنين من كبار النقاد الذين سبقوه، وهما الأستاذ «عباس محمود العقاد» والدكتور «طه حسين» الذي تتلمذ عليه د. مندور ثم دبّ الخلاف بينهما، وقد كان ذلك نتيجة لصراع الأجيال الناشئة في ميادين الأدب جميعها، والنقد يدخل في إطار هذه المنظومة، بل ويشكل أهم قواعدها.

(١) في الميزان الجديد، د. محمد مندور، دار نهضة مصر، ص ٨.

يرفض «شحاتة» أن يكون قارع جرس، أو حامل طبله، أو سمساراً، فهل كان «شحاتة» يوجه عباراته إلى أقلام لم تحسن صناعة الشعر والنقد؟ وخصوصاً أن «شحاتة» رفض أن يكون من بين الأدباء والشعراء الذين ضم كتاب (وحي الصحراء) شيئاً من إنتاجهم وتضاربت الأقوال حول هذا الرفض، ولكننا لا نريد أن ندخل في قضية لا نملك إزاءها الدليل والبرهان.

يقول «شحاتة» في توضيح ملامح المنهج النقدي الذي يؤمن به، ولا يرضى بالحييدة عنه: «ولقائل أن يقول: ولكن الناس يعرفون، أو هذا المفروض فيهم، فما ضرورة تنبيههم إلى المساوىء؟ أو يجهلون فما حكمة أن تفتح عيونهم على ما يسوء ويغثي؟

في أن الإنسان الطبيعي إنما يستهدف حتى من تحمل الخير الخالص نفعاً لنفسه، ولو جاء هذا النفع من باب اللذة والارتياح، وإذن، فلا أقل لمن يقدم مجموعة من الشعر كهذه من أن يدفع التهمة عن رأيه، وفطنته، وبصره، وإلا كان قارع جرس، أو حامل طبله، أو سمساراً، وما أحسب أن الجامع يبطن الرضاء لي بهذه المنزلة، وعلى أعين القراء، وأسماعهم، وفي هذا المقام الذي لم يحملني على التعرض لأذاه المؤكد إلا هو ومن استعان بهم علي... نعم إنه لكذلك وإلا كان شر ما في الدنيا صداقة جامعي الشعر، وحاشدي الشعراء.

لقد كان «حمزة» يشد قارئه عن طريق طرح الأسئلة، ثم محاولة الإجابة عنها حتى يتخلص من تبعات ما قد يوجد من مثالب في المجموعة الشعرية التي قدم لها، وترى بين السطور محاولة «شحاتة» المستميتة في ألا تهتز صورته في أعين القراء كناقذ، وهم الذين عرفوه شاعراً متميزاً،

وخطيباً مفوهاً، وشخصية تؤمن بالقوة والتفرد في كل شيء، والتي نجد آثار إيمانه بها، في هذه الجزئية التي ضمنها محاضراته الشهيرة «وفي هذا الشأن يقول «شحاتة»:

والآن إلى القوة.

فرصة الحياة شائعة يأخذ كل فرد في الجماعة بنصيبه منها.

هذا يطارد الغزال، وهذا يمكن له.

هذا يصيد أكثر لأنه أكثر قوة وحيلة.

وهذا لا يصيد لأنه أقل قوة وحيلة.

لا يصيد كثيراً إلا القوي.

هذان طفلان يموتان في مطلع حياتهما بسبب ظاهر أو خفي.

وهذا طفل يعيش.

هذا قوي يسقط من شجرة فيموت.

وهذا قوي تطبق عليه صخرة فيموت.

هذا قوي يصارع الرجال فيغلبهم «قوي».

هذا قوي يصرع الأسود ويصطادها «أقوى».

هذه مقارنة ثم: «خوف، حسد، تسليم، بطولة، زعامة».

هكذا آمن الإنسان بالقوة، وبمظاهر اقتدارها.

وهكذا آمن بالحظ والزعامة... والبطولة.

وهكذا قارن واستنتج^(١).

(١) الرجولة عماد الخلق الفاضل، حمزة شحاتة، ط ١، ١٤٠١ - ١٩٨١م.

يذكر الأستاذ الشاعر صالح باخظمة الذي لازم الشاعر في أخريات حياته بمصر أن (شحاتة) كان معجباً بالزعامات العالمية القوية. كما يذكر الأستاذ أحمد عائل فقيهي أنه طرح سؤالاً على الأستاذ عزيز ضياء رحمه الله عند إلقائه محاضرة في نادي جازان الأدبي عن شخصية «شحاتة»، إذا ما كان «شحاتة» مؤمناً بفلسفة القوة عند المفكرين الألمان، فأجاب الأستاذ عزيز بالإيجاب.

ولكن، ما هي البواعث التي جعلت «شحاتة» يعتنق فلسفة كهذه إن صح ذلك؟ هل تكوينه الجسماني المتميز الذي يصفه الأستاذ «عزيز ضياء» بقوله «وسمعت الشيخ صالح باخظمة، يهمس «انظر... هذا الشاب... أبو نضارة»، وأشار بأصبعه، فرأيت شاباً فارح القامة، وثيق البنيان، عالي الجبهة، أسمر اللون»؟ انظر (في أدبنا قمة عرفت ولم تكتشف)^(١).

هل ذلك التكوين المتميز الذي وهبه الله لهذا الإنسان حتى إن الناس في الماضي كانت تشرئب منها الأنظار بصورة خاصة إلى هذا الفتى الناشئ عندما كان يسير في حوار «جدة» كما ذكره لي الشيخ يوسف شكري - رحمه الله - الذي توفي قبل حوالي عامين بعد أن تجاوز المائة، وكان يعرف عن «جدة» ورجالاتها الشيء الكثير مما كان يجعلني أولي حديثه الكثير من الاهتمام عندما كنت أزوره بحانوته المعروف في سوق الندي.

هل هذا التكوين مع ما عرف عن حمزة من نبوغ مبكر، وإجادة لفنون الأدب المعروفة في زمانه إجادة تامة؟ إضافة إلى ما كان يملكه من مزايا ومواهب أخرى، ثم ارتطام ذلك بجدار الحياة وواقعها المغاير لما دأب

(١) عزيز ضياء، بحوث المؤتمر الأول للأدباء السعوديين، ج ٢، ص ٨٠٠.

«حمزة» إلى التطلع إليه أو نشدانه وهو ما عبر عنه الأستاذ محمد حسين زيدان في هذه العبارة الموجزة: «لقد كان حمزة، كما قال الرافعي في الأمير شكيب إرسلان. لو لم يكن شاعراً مجيداً، لكان كاتباً مجيداً، ولكن القصور وفقدان الحظوة جعلاً من حمزة غير ما يستحق».

هل هذا كله، مع تعمق حمزة في قراءة الفلسفة وتمكنه من إجادة فن المنطق الذي كان يسعى للتمكن من وسائله وأدواته العلماء والأدباء على حد سواء في الحقبة الماضية، يفسر اعتناق «شحاتة» لمفهوم القوة واعتزازه بهذا المفهوم، وإشاراته المتعددة إليه فيما يكتبه من شعر ونثر؟ ولقد أشار الأستاذ المرحوم «أحمد قنديل» إلى شيء من هذا في مراثيته الفريدة في صديقه «شحاتة» التي توضح كذلك غربة المثقف بين بني قومه وسواهم.

يقول الأستاذ القنديل راثياً، ومصوراً، ومبدعاً:

أخي . . . يا رفيق الدّرب والعمر والمنى

ودنيا فنون الشعر والفكر والحبّ

أتسمعني . . . طبعاً . . . فأنت بجانبني

حياة . . . بها عشنا للحياة . . . على الدّرب

غريبين في الدنيا . . . تباعد أهلها

تباعاً . . . ولما ينأى جنبك عن جنبي

نطوف بأكوان العوالم . . . حسرة

ونأوي لركن ساحر الشّدّ والجذب

نقضي سواد الليل للصّبح . . . نجتلي

أمانينا موصولة البعد . . . والقرب

على الرمل كم نصغي لسقراط . . . والأولى
أقاموا صروح الفكر . . . بالشرق . . . بالغرب
على الصخر . . . كم نبني من الشعر جنة
نفّت بعض الصخر بالألسن الذرب
على البحر . . . كم نمشي مع الموج ساكناً
وفي الصدر موج هادر النبض والوثب
نريد لأهلينا الحياة . . . طليقة
فيسخر أهلونا، ونأسف للجدب

(١١)

يخول الناقد (حمزة شحاتة) في ختام بيانه الشعري المعروف، والذي مضى على إصداره أكثر من نصف قرن من الزمن والمتضمن مقدمة كتاب (شعراء الحجاز في العصر الحديث). للأستاذ المرحوم عبد السلام الساسي، يخول ناقدنا وشاعرنا الكبير القارئ لإصدار الحكم على المجموعة الشعرية التي ضمها الكتاب المذكور، فيقول بهذا الصدد: «وما على القارئ الآن - وهذا هو الحق لا غيره - إلا أن يخوض المعركة وحده فيسأل نفسه أو يسأل سواه - وله الخيرة - ما هو نصيب كل شاعر في هذه المجموعة من قصة الأسلوب والديباجة هذه إشراقاً وقوة ومتانة تركيب؟ وما هي قدرته على التصرف وفطنته وحذقه في الصياغة والتركيب والاتساق وسلامة الحركة ورشاقته، وتجنب وطء الأقدام أثناء الرقص؟ وما هو حقه في ادعاء الشاعرية واكتساب رسمها؟ أو حقه في أن يرفع عقيرته بين الناس في الشعر».

قبل الخوض في المقاييس النقدية التي ذكرها ضمن عبارته السابقة والتي يتحدد من خلالها قوة الشاعر أو ضعفه وصعوده في السلم الشعري الرفيع أو هبوطه فيه، فإنه يمكن القول إن حمزة «أراد أن يضع القارئ أمام مسؤولية جسيمة في إصدار الحكم على كل شاعر ضُمن إنتاجه هذه المجموعة المتباينة في قدرة أصحابها على إبداع الفن الشعري، ولكن ناقدنا يعلم أنه ليس بمقدور كل قارئ أن يميز بين القوي من هذا الإبداع

وسقيمه بل إن هذه القدرة تكون في بعض الأحيان مفقودة عند قراء الأدب أو متدوقيه، وأنه في أحيان أخرى تخضع للذوق الشعري الذاتي، فما يراه أحدهم إبداعاً شعرياً متميزاً، ينظر إليه آخر - من خلال ذوقه - بأنه لا يرقى إلى المستوى الشعري الرفيع. إن ناقداً مثل «شحاتة» يدرك الفرق بين قدرات القراء ومواهبهم في مسألة الرؤية الشعرية الناقدة - ولهذا قال بفطنة الناقد وذكائه: «فيسأل نفسه أو يسأل سواه». لقد انحاز «شحاتة» في تحديد القدرة التي يتمتع بها الشاعر القوي - من وجهة نظره - إلى ما يمكن اعتباره داخلياً في باب لغة الشاعر من حيث الإشراق والقوة ومثانة التركيب، وهي وإن كانت - أي هذه الاصطلاحات - تندرج ضمن المقاييس النقدية الكلاسيكية، إلا أن وعي حمزة بما طرأ على الذوق الشعري في العالم أجمع ومن ضمنه عالمنا العربي، جعلته يستطرد في قضية الشكل الشعري بحيث تجمع بين المقاييس النقدية الكلاسيكية القابلة للحياة والاستمرار، فأضاف إلى ذلك قدرة الشاعر على التصرف والفطنة والحدق في الصياغة والتركيب والتعبير والاتساق وسلامة الحركة ورشاقتها، ولقد فطن شحاتة إلى ما يربط بين فنون الإبداع فجاءت هذه العبارة التي تربط بين الشعر والرقص وبعبارة أخرى بين الشعر والموسيقى، هذه العبارة التي تجسد الشاعر إنساناً يحسن استخدام فن الموسيقى أو يجهل قواعده، فتنقلت من بين أنامله الصياغة الشعرية الجامعة بين الفطنة والحدقة في الصياغة، والاتساق وسلامة الحركة ورشاقتها، كما تنقلت من صوت المنشد بردات «النغم» أو تزل قدم الراقص فيطأ الأقدام الأخرى؛ فيكون الاضطراب الذي يذهب بجمال العبارة الشعرية، كما يذهب بسلامة صوت المنشد عند خروجه على «المقام» بغير معرفة أو دراية، لأن هناك من يخرج بدراية فيعود إلى النغم الأصلي في نهاية الصوت الموسيقي أو ما

يسمى بـ«المحط» والمقابل «للمشق» وهو بداية النغم أو انبثاقه. وإن كان «شحاتة» يدرك الروابط الخفية أو الظاهرة بين فنون الإبداع عن طريق ما تهيأ له من أسباب القراءة المتمكنة، فهو - أيضاً - قد حذق من فن الموسيقى ما جعله مرجعاً في هذا الميدان، ولقد حدثني المرحوم الشاعر السيد علي حسين عامر والذي كان على صلة بـ«شحاتة» بأنه سمع ذات يوم منشداً كبيراً ومعروفاً يبدع مقطوعة موسيقية من نغم اسمه «حجاز كار» ولكنه - أي شحاتة - لاحظ أن هذا المنشد لم يستوف «بردات» هذا النغم كاملة، فأمسك بالآلة وأنشد على مسامع الحاضرين ذلك النغم بكامل برداته المعروفة.

إلا أنه لا بد لنا من التقصي والبحث حول تأكيد «شحاتة» على قضية الأسلوب والديباجة والحذق في الصياغة والتركيب والتعبير، فهل كان لتأكيد هذه المقاييس النقدية صلة بالمذهب «البرناسي» الغربي؟ وهو ما يعرف في النقد العربي بمذهب «الفن للفن»، وهو المذهب الذي باشر نشاطه منذ عام ١٨٦٦م، والذي قدمه بداية الشاعر «ليكونت دي ليل»، وذلك عبر مقدمة «القصائد القديمة» سنة «١٨٥٢م». فهذه المدرسة الشعرية ترى أنه «كما أن النحت هو نقش في الحجر، فإن الشعر هو نقش بالألفاظ فهم ينحتون العبارة نحتاً كالصائغ الذي ينحت جوهرة بين يديه»^(١).

لا يستبعد تأثر شحاتة بما كان يدور حوله من حركة نقدية عالمية، ولكن في كل الأحوال فإن شاعرنا كان قادراً على هضم هذه المفاهيم، وتمثلها تمثلاً ذاتياً، بعيداً عن التأثير الشكلي أو الحرفي والذي وقع فيه كثير من الشعراء والنقاد فيأتي إنتاجهم باهتاً لا لون له ولا رائحة.

(١) إيليا حاوي، البرناسية، ط ١، ١٩٨٠م، ص ٢٣.

(١٢)

(الأستاذ حمزة) يجعل من نفسه وسيطاً بين القارئ وبين الإبداع الشعري الذي ضمنه الأستاذ عبد السلام الساسي - رحمه الله - كتابه، وهو بهذا يتطلع لأن يرتقي القارئ بثقافته الشعرية والأدبية حتى يستطيع أن يصدر أحكامه على شعراء هذه المجموعة المتباينة في شعرها قوة وضعفاً، كما يبدو من عبارات الناقد (شحاتة) أنه - بحكم مقاييس ذلك الزمن الماضي - إضافة إلى ضيق العقلية القريبة بعملية النقد وعدم قدرتها على تقبله بشيء من التسامح الحضاري، يبدو أن (شحاتة) لم يشأ أن يدخل في خصومة مع أحد. ولا أعلم إذا ما كان الأستاذ (شحاتة) قد كتب هذه المقدمة قبل هجرته إلى «مصر» بزمانٍ قليل وإيثاره العزلة الأدبية، بعد أن شغل الناس هو ومحمد حسن عواد الوسط الأدبي بذلك النتاج الشعري الذي بلغ من الحدة ما يجعل نشره صعباً إن لم يكن مستحيلاً حتى بعد مرور فترة طويلة على تلك المعركة التي نشبت بين الشاعرين وتورط فيها عدد من أصدقاء الشاعرين... ربما هذا العامل هو الذي دفع بالأستاذ (شحاتة) أن يزعم أنه في موقع الحكم فقط أو الوسيط النزيه الذي لا يحب أن يوصم بالتحيز مع أو ضد أحد من معاصريه من الشعراء، أو الأجيال الأخرى التي توالى بعد جيل الرواد، وعباراته الآتية توضح ما ذهبنا إليه من الدور الذي حدّده (شحاتة) لنفسه عند تقديم هذه المجموعة

إلى القراء إذ يقول شاعرنا: «أما أنا فقد نصبت الميزان، وأقمت المقاييس، ومهدت الجادة بما وسعني من جهد ودفعت التهمة عن فطنتي بما حسب القارئ به وكفى، وأديت للوساطة حرمتها أو حقها من الأمانة ولم يعد للقارئ إلا أن يزن ويذرع ويحدد الفروق والمراتب والدرجات فما يتسع طوقي لأكثر من هذا، ولو اتسع لكنت خليقاً بالاً أتجاوزته اتقاء لما تجرّه إليه الجرأة على حرمت الشعراء من نصيب الدفاع، وأوصاب الزيادة في هذا الزمن المُدبر الذي تضخم فيه كل شيء حتى الشعر والشعراء»^(١).

تجنّب (شحاتة) الإشارة الواضحة إلى من صعدَ شِعْرُهُ أو هوى، وما قوى من قدرات المجموعة وما ضعف لم يمنعه من اتخاذ أسلوب التّهم والسُّخرية سبيلاً إلى الإشارة إلى أن الإبداع الشعري الذي ضمنه الأستاذ «السّاسي» هذه المجموعة - يزخر بعضه بكثير من المساوئ أو العيوب - والتي ترك ناقدنا للقراء اكتشافها - بأنفسهم - طبيعة لأذواقهم أو ملكاتهم النقدية إن كان - بعضهم يمتلك هذه الحاسة النقدية الهامة - وهو في نظري عبء كبير تخلص منه (شحاتة) ووضعه في عنق القارئ وكان المنتظر أن يدل عليه أو يشير إليه ولو في اقتضاب أو إيجاز حتى تكتسي هذه المقدمة أهمية أكبر، وإن كان هذا الهروب النقدي - لا يقلل من قيمتها واعتبارها بياناً شعرياً لم نعطه - حقه - من العناية والاهتمام -.

تطبيقاً حرفياً للمثل المعروف «زامر الحي لا يطرب» مكتفين بأن نكتب عن روادنا ومفكرينا بعد أن يغادروا هذه الحياة الدنيا، ومما يؤسف له أن البعض - منا - تبلغ به الوقاحة للنيل من هذه الرموز - ظلماً وجحوداً -

(١) شعراء الحجاز في العصر الحديث، عبد السلام بن طاهر الساسي، المقدمة.

لأسباب شخصية بحثة وتنتفي عنها أسباب الموضوعية المطلوبة في العملية النقدية .

لقد اكتفى (شحاتة) - اتقاء للشُرور المترتبة على توضيح العيوب الفنية المتمثلة في بعض هذا الإبداع الشعري - بأن يأخذ دور «الواعظ» الذي يكتفي بأسلوب التعميم - وفي هذا إشارة إلى أن (شحاتة) كان يسعى لمخاطبة الناس بما يعرفون ويألفون من أساليب النقد التقليدية . وإن كان يبدو من طرح الأسئلة بينه وبين القارئ والإجابة عنها يشير إلى أنه أخذ هذا الدور كراهية لا طوعاً واططواراً لا اختياراً... يقول (شحاتة) إزاء هذا الموضوع: وهذا حق نفسي في التماس السلامة، والتقية و الاحتراس أو بقبول تهمة العجز عن اضطلاعي بأعباء الملاحاة المتوقعة من نيف وعشرين شاعراً، وذوي عصبياتهم الأدبية وأشياعها فإن الأمر - على ما يرى القارئ - جدير بأن يُروَّع القلبُ أو يخلَّعه، والإنسان مطالب باتقاء التهلكة فإن قال القارئ - متخابثاً - وهو مطالب - أيضاً - بألا يجهر بالسوء قلت إن تعميم الرمز والتضمين والإشارة، وإطلاق الدلالة بالقواعد التي يكتشف بها النقص، أو تفرق المعابث في الشعر والشعراء مثلاً ليس من باب الجهر بالسوء أو الهمس به، أفلا يقول الواعظ لوجوه الناس وعليتهم في المسجد وبملء صوته: أيها الناس لقد فسدت أعمالكم وزاد إمعانكم في الضلال وركوب الموبقات والأوزار والسوء وكيكيت وكيكيت من الرذائل؟ فلا يكون لأحد من سامعيه أن يأخذ بتلايبه إلى حيث يقاضيه^(١).

(١) «انظر شعراء الحجاز في العصر الحديث، عبد السلام الساسي، المقدمة».

كلمة تقدير وعرفان

أود أن أتقدم بالشكر بعد الله تعالى لسعادة الأستاذ الكبير والناقد العربي المعروف عبد الله عبد الجبار والذي رحب وفاءً منه لصديقه المرحوم حمزة شحاتة وتشجيعاً لابن من أبنائه على قراءة فصول هذا الكتاب وكتابة مقدمة نقدية تعرض فيها لحملة من القضايا المتصلة بالشاعر ونتاجه الفكري والأدبي وخصوصاً فيما يتصل بالمقدمة التي كتبها شحاتة رحمه الله - لكتاب الأستاذ/ عبد السلام الساسي - رحمه الله - (شعراء الحجاز في العصر الحديث) والتي عليها مدار هذا البحث. ولقد تفضل أخي الأديب السيد محمد أحمد العربي بقراءة فصول هذا الكتاب على أستاذنا - عبد الجبار - وكان للعلاقة والأصرة القوية التي تربط بين الأستاذ عبد الجبار والسيد محمد العربي أثر كبير في خروج هذا الكتاب متوجاً بهذه المقدمة.

ولقد كان الصديق والأخ الكريم الأستاذ الشاعر عبد المحسن حليت مسلم حاضراً معنا بحماس وإخلاص شديدين فيما يتصل بالنواحي الفنية لإخراج هذا الكتاب. ومع إيماني بأن شاعرنا الحليت يفعل هذا وفاءً منه لأصدقائه وحباً منه للإبداع المتأصل في شخصيته إلا أنه في الوقت نفسه يكره الظهور والإشادة وهو في هذا يشبه شحاتة الذي كان عزوفاً عن كل

نواحي البروز حتى روى أنه كان يتخلص من كثير من شعره المعروف بالقوة والرصانة. أما صديقي وزميلي الأستاذ الدكتور محمد خضر عريف فإنني أدين له بفضل كبير - بعد الله - فهو الذي أشار عليّ بضرورة تحكيم هذا البحث أكاديمياً وكان هذا من خلال وحدة البحوث بكلية الآداب والتي اكتسبت شهرة علمية قوية في عهد إشرافه عليها والزميل عريف أو أبو أيمن كما يحلو لي أن أخاطبه. والأستاذان محمد بابكر وعبد الرحمن محمد إدريس كان لهما أيضاً فضل مراجعة الكتاب قبل خروجه في صورته النهائية أما الابن والزميل والأستاذ فهد الشريف - مدير تحرير الأربعاء بصحيفة المدينة فلقد كان لمتابعته وحرصه على نشر معظم الحلقات التي يتكون منها موضوع هذا الكتاب أثر بالغ في عدم تطرق الملل إلى نفسي فالكثابة البحثية المتخصصة مملة في بعض جوانبها للكاتب والقارئ - معاً - ولعل الصديق الشاعر الأستاذ صالح باخظمة والذي يعرف عن شخصية شحاتة الشيء الكثير بحكم قربه منه في القاهرة قى أثناء عمله في السفارة السعودية آنذاك أحس بهذا الأمر لذا فلقد كان هو الآخر حريصاً على ألا أتوقف عن متابعة فصول هذا البحث من خلال مكالماته الهاتفية معي.

وفي الختام لا بد من شكر الزملاء الكرام في مطابع المحمودية والمعروف عنهم التعامل بخلق كريم وصبر ومثابرة دائمين فالشكر لهم ولأخي المهندس/ أشرف حجازي الذي أحس بقربه الشديد إلى نفسي وهذا يدخل في باب تلاقي الأرواح وتآلفها والله ولي التوفيق.

قطوف آخر

الانبهار بالغرب . . عطل رؤية البنيويين

لا شك أن الفكرة الإسلامية في الإنتاج الأدبي والثقافي غدت ظاهرة من ظواهر الصحوة الإسلامية في العصر الحديث، فبالإضافة إلى التقدم الاجتماعي العربي في مجال الصحوة الدينية يتزامن الفكر والأدب والثقافة مع هذا التوجه الاجتماعي الإسلامي نحو الحياة الإسلامية في مختلف مجالاتها في العصر الراهن.

يفترض في الإبداع الأدبي - أياً كان مصدره - وبعيداً عن تحديد البيئة التي ينطلق منها أن يسعى للارتقاء بالإنسان إلى عوالم الروح وأن يعمل على تعميق الفضيلة في نفوس الناس بعيداً عن المباشرة التي تنقله من مجال الفن إلى مجالات أخرى أقرب إلى النثر منها إلى الشعر، لم يخلد الزمن أسماء من أمثال محمد إقبال، وفريد الدين العطار، وطاغور وشكسبير، لأنهم كانوا يوجهون أدبهم إلى اكتشاف الزوايا المظلمة من النفس الإنسانية بل على العكس من ذلك فإن أدبهم كتب له الخلود واكتسب سمات الذیوع والانتشار لأنه يحمل رؤية مشرقة لهذا الكون، وهذه الرؤية المشرقة لا تخرج عما يريده الإسلام من الأديب الذي ينتمي إلى دائرته فالقرآن ذم من الشعر ما يعارض الفطرة الإلهية، وامتدح ما يتلاءم مع هذه الفطرة ويؤكد على وجودها.

على أنه لا يفوتني أن أذكر هنا أن معظم الإبداعات المشهورة في الأدب العالمي مثل «الفردوس المفقود» للشاعر الإنجليزي «ملتون» والكوميديا الإلهية للشاعر الإيطالي المعروف «دانتي» و«الأرض الخراب» للشاعر الأمريكي الأصل والإنجليزي الثقافة (ت.س. إليوت) هي أعمال تنطلق من رؤية دينية محضة. فالأخير على الرغم من تلقف شعراء الحداثة في العالم لأعماله فإنهم ينسون أو لربما يتناسون أن قصديته الذائعة الصيت في جميع مقاطعها على رؤية كاثوليكية محضة، ولهذا هاجمه الكتاب العرب الماركسيون مثل د. لويس عوض، في كتابه المعروف «في الأدب الإنجليزي الحديث» فكأن واقع حالهم يقول: نريد أرضك ونرفض رؤيتك الدينية. والذي قادهم إلى ذلك كله هو تحمسهم للأيدولوجيا الخاصة بهم والمنطلقة من فراغ نفسي وخواء روحي، ورغبتهم في تعميم ذلك على جميع قراءاتهم للنصوص الأخرى واستنطاقهم لها بصورة تدعو في هذا السياق أن نشير إلى أن أعمال الروائي اليهودي الأصل والثقافة «فرانز كافكا» تنطلق هي الأخرى من رؤية دينية محضة وهذا ما أثبتته الدراسة التي نشرت في أكسفورد سنة ١٩٨٥ بعنوان «(كافكا) يهوديته ورؤيته السياسية وأدبه» ويقصد برؤيته السياسية كما تكشف عن تلك الدراسة، انخراط «كافكا» في النشاطات الصهيونية الداعية إلى إنشاء وطن قومي لليهود وتكريس كل أعماله الأدبية لهذا الواجب القومي - من وجهة نظر الكاتب نفسه - وخصوصاً أن اليهود كانوا في تلك الحقبة يعيشون في «الغيتو» وهو المجتمع المغلق الذي يسعى لتثبيت هويته الدينية والثقافية. ولعلّ السؤال يكون مشروعاً هنا: أليس أعمال «إليوت» و «كافكا» التزاماً واضحاً برؤية معينة لهذا الكون ويشكل الدين قاعدتها وبناءها الفني؟ فلماذا نستكثر على الشاعر المسلم أن يصدق في هذا الكون بأنشودة الحب

الإلهي؟ ولماذا ننظر بشيء من الاستغراب لكاتب يحاول أن يرسم في قصة أو رواية عوالم الفضيلة وتجسيد مآثر الخلق القويم؟ لماذا نقبل من الأديب الغربي أعماله الأدبية المصطبغة برؤية دينية ونتهم الأديب المسلم في أعماله الملتزمة بأنه يسعى لوعظنا وإرشادنا؟ إنني أفضل أن يعظني أديب مسلم وأرفض وعظ الأديب الغربي الذي يريد تحت مسميات الفن والإبداع أن يقنعني بتوجهاته الدينية والفكرية، إنه تناقض غريب، حبذا لو وقفنا عنده وأثريناه بالحوار والمناقشة لأنهما السبيل الأمثل للوصول إلى الأهداف والمقاصد.

في رأيي أن الاستشراق انتهى من مهمته الأساسية وهي محاولته لاختراق الإسلام من داخله بمعنى إنشاء مصداقية معينة لبعض الكتاب المنتسبين إلى الإسلام بهوياتهم، ألا ترى احتفاء جامعات الغرب بكاتب مثل «محمد أركون» الذي يدعو في كتابه المترجم عن الفرنسية «الفكر العربي» إلى التعامل مع القرآن كنص، بعيداً عن مصدره الإلهي وقديسيته الدينية؟

ثم فاجأنا د. نصر حامد أبو زيد بكتابه «في مفهوم النص - دراسة في علوم القرآن». حيث يسعى المؤلف في كتابه هذا إلى تطبيق بعض المذاهب الأدبية التي انتهت فاعليتها في الغرب نفسه - منذ أمد بعيد - مثل «البنوية» على كتاب الله، وهم يسعون بهذا إلى استبعاد حقيقة الوحي الإلهي وهي الحقيقة التي يقوم عليها هذا الدين العظيم.

وما دام الأمر على هذا النحو الذي يتصوره هؤلاء الكتاب فلماذا لا نعتبر كفار قريش مؤمنين؟ ألم يقرأوا ببلاغة القرآن وعدم قدرتهم على تحديه ولكن قلوبهم المغلقة رفضت الإيمان بأن هذا الكلام ليس كلام نبي

الله - محمد - ﷺ - ولكنه كلام الله الذي خلق هذا الكون ومن فيه . ومن هنا كان ذلك الصراع الذي انتهى بانتصار الإيمان على الكفار، ومن هذا المنطلق الاستشراقي الجديد لن تكون مقولة «حسن حنفي» إن الوحي كان علمانياً قبل أن يجعله المسلمون دينياً، لن تكون هذه المقولة غريبة ما دمتنا نعلم البواعث البغيضة والخفية الهدامة وراءها، لقد تردد بعض من المستشرقين في السابق من الاقتراب من دائرة القرآن ولكنهم الآن سوف يغمر نفوسهم كثير من الغبطة لأنهم رأوا هدفهم الذي كانوا يتطلعون إليه منذ أمد بعيد وقد تحقق على أيدي بعض أبناء الأمة والذين نسأل الله لهم من الله الهداية في الوقت الذي نحذر من مغبة القول في كتاب الله بغير علم . وإن محاولة تطبيق ما هو بشري محض وقابل للتغيير من مناهج ونظريات على ما هو أزلي وثابت ولا يخضع للتغيير والتبديل هي محاولة مشبوهة تلتقي مع تلك الأهداف التي يسعى من ورائها أعداء ديننا الحنيف إلى الطعن فيه لأنه معجزة هذه الأمة وضياؤها الذي نستهدي به في جميع شؤون حياتهم وهم يريدون لهذه الأمة أن تعيش في الظلام فويل لهم مما يمكرون به .

في الوقت الذي يفتخر فيه بعض المتممين إلى دائرة النقد العربي بأنهم هم أول من استعمل بعض النظريات الغربية كالتشريحية مثلاً في مقارنة نصوص عربية معينة نجد أن النقاد الذين ازدهرت على أيديهم بعض هذه المذاهب والنظريات التي يطلق عليها في الغرب مسمى «الشكلانية» نجدهم يتخلون بعد دراسة عميقة عن هذه المذاهب، ومنهم الناقد الفرنسي «تودروف» الذي كان له دور كبير في نشر المنهج البنيوي وإدخال نظرات الشكلانيين الروس إلى الساحة الفرنسية، فبعد انقضاء زمن على احتقار هذا

الناقد لمعنى العمل الأدبي أو مضمونه لصالح العلاقات الشكلائية نجده يصدر أخيراً كتاباً بعنوان «نقد النقد» ويعلن كما يذكر الأستاذ هاشم صالح في مقالته المنشورة بصحيفة الحياة «١٢ أكتوبر ١٩٩٠م» عن توبته عن الشكلائية والبنوية ويقرر الاهتمام بمسائل أخرى أكثر جدوى، بل تأكيداً على خطأ موقفه الفكري السابق نجده يقول: «الناقد ليس فقط تقنياً مختصاً بلعبة النص والكلمات واللغات وإنما هو أيضاً رجل مسؤول عن بحث مشكلة المعنى والقيم».

لقد كان تعامل بعض النقاد العرب مع المناهج الغربية تعامللاً آلياً حرفياً، وعلى الرغم من المبالغات التي تتسم به كتابات هؤلاء النقاد عن دورهم في تطوير النقد العربي عن طريق تطبيق هذه النظريات والمناهج التي وجدت أصلاً في سياق حضاري وفكري مختلف تماماً عن سياق النصوص التطبيقية.

عن إغراق هذه الفئة في الطرح المفاهيمي دون احتكام إلى دينامية اشتغال النصوص ومحاولة الكشف عن خصوصياتها وكذلك تغليب كفة التنظير دون طرح مردودية الوصف الشكلي لمظاهر الخطاب.

ويمكننا أن نقول إن الاشتغال بهذه المناهج يطرح مشاكل عدة منها:

- أن النص العربي له هويته المستقلة والمختلفة عن المنهج المستورد والنظرية الجاهلية التي وجدت أصلاً في إطار حضاري مختلف، كما أن هذه النظرية انبثقت الحاجة إليها في ذلك المجتمع نتيجة لبروز إبداع عربي له كذلك خصوصياته وتميزه.

- إن بعض المتحمسين مثلاً يُجرّم كل محاولة لربط النص بواقعه التاريخي وهذا أمر مخالف لأبسط قواعد تحليل العمل الأدبي فكيف يمكن

مقاربة إبداع أدبي بفصله عن قائله، وقطعه عن كل خلفية تاريخية أو مؤثرات بيئية.

- إن بعض هؤلاء المغالين في جدوى هذه المناهج الأدبية لا يريدون لها أن تقتصر على مقارنة النصوص والأعمال الأدبية وكفى بل يريدون إخضاع جميع مناحي النشاط الإنساني في مجتمعاتنا لهذه المناهج وتفسير ذلك في ضوء ما توحيه هذه المناهج لهم. ويكفي في هذا السياق أن واحداً منهم أرجع تخلفنا الحضاري كله للعامل اللغوي حيث أخفقنا من وجهة نظره من الاستفادة من الإمكانيات الهائلة الموجودة في المنهج الألسني، فهل يقول عاقل بهذا؟ إنها الرؤية المتسرفة، والحماس الذي يدخل في نطاق الأيديولوجيا، أو ربما هي صدمة الحضارة التي حفزت عند هؤلاء حاسة البحث عن كل غريب وشاذ.

العدد: ٨٩٤٦ - صحيفة المدينة

الثلاثاء: ٦ جمادى الأولى ١٤١٢هـ

عندما يختفي رجل . . ويموت أديب

(حسين عرب)

لعلّ المرء يسأل نفسه: لماذا أحب هذا المكان دون غيره؟ ولماذا يؤثره دون الأشياء الأخرى بعاطفته وتطمئن نفسه في حالة القرب له ويحن إليه في حالة البعد؟ ولكنه في حالة الحب أو الحنين لمكة شرفها الله ولمدينة الحبيب ﷺ لا يستطيع ذلك الإنسان تفسير ما تنطوي عليه النفس من حب وشوق وهيام، فلقد فطر الله النفوس المؤمنة والصادقة على حب بيته المعظم ومثوى مصطفىه الأغر، فهنئاً لمن سكن وجاور ولمن قصد وزار وسلم.

وطئت قدماي (مكة) المعظمة في أواخر الثمانينيات الهجرية، أسرّني - آنذاك - بروحانيتها، فهي نقطة هذا الكون ودائرته منها تشع الأنوار على هذا الكون، هذا المطاف وذلك المقام والحجر، وهذا الشعب حيث ولد سيد الكائنات حقاً، وقدوتهم ومعلمهم وشفيعهم حيث هرولت (ثوبية) من شعب بني هاشم لتخبر سراة بني هاشم بأن - آمنة - الآمنة من المخاوف - بإذن الله - قد أهدت مولوداً لفتى قريش عبد الله بن عبد المطلب الذي شاءت قدرة الله أن يحل ضيفاً عند قدومه من الشام على أخوال والده من بني النجار في يثرب التي أضحت فيما بعد منورة بالحبيب ﷺ وتعاليمه

وما زالت كذلك حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وورقد عبد الله في ديار خوؤلته (دار النابغة) فيما عرف بعد باسم زقاق (الطوال) وما إن نطقت (ثوية) بكلمات البشرى حتى قال لها سيدها أبو لهب: أنت حرة طليقة، وما علم أبو لهب، الذي ناصب ابن أخيه العداة فيما بعد ومات كافراً، أن الله سوف يخفف عنه بهذه الفرحة الصادقة ما هو فيه من عذاب في الآخرة، فلقد قال العباس بن عبد المطلب - رضي الله عنه - كما أورده الإمام البخاري في صحيحه بإسناد إلى عروة بن الزبير مرسلًا، يقول العباس بأنه رأى أبا لهب في النوم بعد وفاته فسأله عن حاله فقال: لم ألق خيراً بعدكم - غير أن سقيت في هذه بعثاتي - ثوية - وإنه ليخفف علي في كل يوم الاثنين.

يحس الإنسان المؤمن بانسراح صدره عند قدومه إلى مكة ففيها ولد الحبيب عليه صلاة الله وسلامه ولا تزال أنوار تلك الساعة الفاصلة بين الحق والباطل في التاريخ تظلل جبال مكة ووديانها وسماءها وساحاتها ودورها.

ولن تخطئ عينك وأنت داخل إلى مكة قبل حوالي ثلاثة عقود وأكثر تلك الدار المتميزة في بنائها البسيط والجميل - في آن - وأمامها شرفة تطل على ذلك المرقى الذي كان يسلكه، الناس على أرجلهم أو مطيهم، وكانت الشرفة تعمر بروّادها من بعد صلاة المغرب، وقدم المرحوم السيد حسين هاشم من المدينة زائراً وسألني - أبو طلال - هل تعرف دار الأستاذ حسين عرب، فأسرعت أجيبه بنعم!! ورأيته ينظر إلى الأفق ويخاطبني قائلاً: لقد كان صديقي منذ أيام الشباب - ويبدو - أن صاحب ذلك الصوت الجميل والشجي قد عاش فترة من حياته بين جنبات الأرض

المباركة، وصلنا إلى الدار واحتفى صاحب الدار بالقادمين. وأهل مكة من أكثر الناس حباً لمدينة الحبيب ﷺ والتأدب فيها، وصديقاى أحمد زكي يمانى ومحمد عمر العامودي يعلمان أنني مكى الهوى ولا تثريب علي في الإقرار بذلك، وكان مجلس الأستاذ (عرب) يضم الأستاذ الكبير أحمد عبد الغفور عطار، والمؤرخ الكبير عبد القدوس الأنصاري والأستاذ الراوية عبد السلام بن طاهر الساسي رحمهم الله جميعاً.

كان الأستاذ عرب حينها (عام ١٣٩٣هـ) في الخمسينيات من عمره وينضح وجهه بالحياة، مع أنه غادر منصب الوزارة وهو في الأربعينيات من عمره، وسمعت السيد أحمد زكي يمانى يقول يوماً: كنت في الوزارة التي تشكلت، وكان حسين عرب وزيراً فيها. ومع أنه لم يمض، (أي عرب) وقتاً طويلاً فيها إلا أنه كان إنساناً مهذباً ورقيقاً. لقد كان (حسين عرب) شاعراً وأديباً قبل أن يكون وزيراً وإن أظهر في بداية حياته قدراً كبيراً من المعرفة بشؤون الإدارة، ولقد أكد لي شخصياً المرحوم الشاعر السيد علي حسين عامر صفة مناصب عدة، فكان أول رئيس لديوان الموظفين ثم وكيلاً لوزارة المواصلات، ثم اعتزل الحياة الإدارية وتفرغ لقول الشعر عذباً فيه إلى مواطن صباه بين سلع والعنبرية.

لقد انطبعت شخصية (عرب) بصفات عدة منها الأريحية، والكرم والجرأة في قول الحق وبذلك الجاه لمن يطرق بابه وحتى بعد أن وهن وضعف لم يكن يشيح بوجهه عن عامة الناس وخاصتهم وكان يشاركه في هذه السمة الرجولية الرفيعة رجال أمثال: السيد علوي المالكي والشيخ عبد الملك آل الشيخ ومحمد سرور الصبان، والفريق طه خصيفان والشيخ عرابي سجينى وصالح وأحمد جمال، وعبد الله وحمزة بصنوي وإبراهيم

فودة، وعبد الله بن ظافر، والشريف شاکر بن هزاع، والشريف عبد الله مسعود، ومحمد حابس، وصديق دمنهوري، ومحمد سفر وصالح قزاز، وزيني حسن، والشريف مساعد بن منصور، وبكر تونسلي وصديق جان شاه وغيرهم من رجال الوطن الكريم والمعطاء.

وإذا كان المرحوم (عرب) قال الشعر في يفاعته وبدأ في النشر مع بداية الخمسينيات الهجرية، إلا أن أعماله الشعرية الكاملة لم تظهر إلا في عام ١٤٠٣هـ، في مجلدين كاملين وكتب لها مقدمة الدكتور عبد الله الغدامي ولم يستطع فيها التخلص - للأسف الشديد - من نزعة الحداثي الذي هجره فيما بعد في رؤيته لإبداع الشاعر عرب، فجاءت المقدمة على شمولها تحمل وزر عدم أخذه بالمنهج الشعري الشكلائي. وهل يمكننا أن نطلب في إنتاج شحاته والعواد وقنديل والسنوسي، وعبيد مدني، والرفاعي، وعبد الله بن خميس ما يتواءم مع المنهج الألسني الذي ضاعت ملامح شحاته الحقيقية بسببه في (الخطيئة والتكفير)؟ ويقرر الناقد المعروف جورج واطسن في كتابه (الفكر الأدبي المعاصر) إلى سلبية التنظير ذي الرؤية الواحدة والقائم على الشكلائية والتي تعد مرحلة منقرضة من مراحل تاريخ الأدب الغربي، يقول (واطسن) منتقداً هذا المنحى النقدي ومشيراً إلى ابتعاد منظريه من أمثال (ليفي شتراوس) في معهد (كوليج دي فرانس) لتلامذته ستجدون الكثير من الصدق في هذا إن أطلتم النظر فيه. قال هذا الكلام وهو يشير إلى السبورة في قاعة الدرس وقد رسم عليها رسماً بيانياً لتماثلات من المحرمات في مجالي (الجنس) والطعام، وكان (ليفي شتراوس) عنه في مرحلة لاحقة، وما زلت أذكر شخصياً قول أستاذ من مريدي (ليفي شتراوس) نفسه - حينذاك جالساً في الصف الأمامي يبدو

على وجهه الممل من هذا الكلام واستمر يلعب بقلمه على الورقة التي أمامه. لقد وجد هو الكثير في مثل هذه الأشياء من قبل عدة سنوات، ولقد بدأ يضجر منذ وقت بوسيلة التحليل هذه التي أبدعها).

إلا أن حمزة شحاته في بيانه الشعري الذي كتبه قبل أكثر من نصف قرن والذي ضمنه مقدمة كتاب (شعراء الحجاز في العصر الحديث) قد أنصف حسين عرب أكثر من غيره عندما سلكه في عداد الشعراء الرواد الذين يكبرونه سناً ومقاماً أدبياً آنذاك، لذا نجده يختتم مقدمته النقدية قائلاً بكل وضوح وبساطة ومصادقية: (وبعد فإن من شعراء، هذه المجموعة من لا يفخر الحجاز - وحده - بهم، ويتيه، بل في كل بلد عربي وهم السرحان، وعواد، وقنديل، وحسين عرب، وأشباههم في معظم السمات وفي بعضها دون جملتها).

مسيرة التاريخ العربي بين ابن خلدون وأمين مدني

على شرف صاحب السمو الملكي الأمير مقرن بن عبد العزيز أمير منطقة المدينة المنورة أقيم حفل (جائزة أمين مدني للبحث في تاريخ الجزيرة العربية) وذلك في سنتها الرابعة وقد حاز الجائزة في تلك السنة كل من الأستاذ عاتق عيث البلادي، ودارة الملك عبد العزيز. وبالرغم من أن أعمال الأستاذ أمين مدني تؤكد مكانة مؤلفها كعلم من أعلام بلادنا، فهو حاضر ما دار الحديث أو البحث في تاريخ الجزيرة العربية وآدابها، إلا أن هذه المناسبة تعزز هذا الحضور وتدعونا للتأمل في مؤلفاته الجليلة. وسوف أتناول فيما يلي ناحية مهمة من نواحي دراسة أمين مدني للتاريخ.

يعتبر ابن خلدون ٧٣٢ - ٩٠٨هـ (١٣٣٢ - ١٤٠٦هـ) أهم من أرخ للحضارة الإسلامية من المؤرخين المسلمين القدماء، إلا أن ابن خلدون تنبّه لقضية هامة من قضايا تدوين التاريخ ألا وهي المبالغة في نقل الصورة.. وقد ذكر ابن خلدون، ولع الناس بالمبالغة قائلاً: «وقد نجد الكافة من أهل العصر إذا فاضوا في الحديث عن عساكر الدول التي بعدهم أو قريباً منه، وتفاوضوا في الأخبار عن جيوش المسلمين أو النصارى، أو أخذوا في إحصاء أموال الجبايات وخراج السلطات ونفقات المترفين، وبضائع الأغنياء الموسرين، توغّلوا في العدد وتجاوزوا حدود العوائد

وطاوعوا وسأوس الإغراب، فإذا استكشف أصحاب الدواوين من عساكرهم، واستنبطت أحوال أهل الثروة في بضائعهم وفوائدهم، واستجلت عوائد المترفين في نفقاتهم، لم تجد معشار ما يعدونه وما ذلك إلا لولع النفس بالغرائب، وسهولة التجاوز على اللسان والغفلة على المتعصب والمنتقد^(١).

وقد تنبه المؤرخ الموسوعي أمين بن عبد لله مدني «١٣٢٨ - ١٤٠٤هـ»، إلى وجوب الحذر والحيطه عند كتابة التاريخ، إلا أنه نفى ما يردده بعض المستشرقين عن التاريخ العربي القديم.. ففي الجزء الأول من كتابه المعروف (العرب في أحقاب التاريخ) يقول المؤرخ المدني «أنا أنكر قيمة التحقيق المتأخر، وما يفرضه الشك والحذر من حرص وتريث، وفي الوقت نفسه أنا لا أعتقد أن بحوثنا التاريخية العربية القديمة كلها بحوث أسطورية تافهة لا وزن لها في معايير كتابة التاريخ في العصر الحاضر، فلو كنت أعتقد ذلك لما أقدمت على بذل ما استطعت في تتبع ما وصل إليه جهد رواد الباحثين عن تاريخ جزيرتنا الغالية الخالدة، ولما أقدمت على تنقية ما جمعته من بطون مؤلفات التاريخ الضخم منها والمختصر، العربي منها والمعرّب، ومقابلة الظن الحديث بالرأي القديم، وتحقيق ما أمكن تحقيقه من هذا أو ذاك»^(٢).

لقد أخذ السيد أمين على عاتقه كتابة التاريخ العربي كتابة موضوعية وهي مهمة صعبة كما يذكر الأستاذ محمد المدني، الأستاذ بجامعة الأزهر

(١) مصادر التاريخ الإسلامي ومناهج البحث فيه، د. سيدة إسماعيل كاشف، ط ٢، ١٣٩٦ - ١٩٧٦م، ص ٦٠ - ٦٢.

(٢) التاريخ العربي وبدايته، أمين مدني، ط ٢، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، التواطئة، ص ٢٧.

والعميد السابق لكلية الشريعة، تلك الصعوبات التي تعترض الباحث في التاريخ العربي القديم بقوله عند تقديم الجزء الأول من موسوعة «العرب في أحقاب التاريخ»: «وما من شك في أن تاريخ العرب القديم منطوق على كثير من الخبايات والمجاهل التي ترهن السالكين، وتحير المدلجين، وأنه قد توارد على الكتابة في هذا التاريخ أصناف من الناس، منهم الذين لا يرون في العرب إلا أوزاعاً من الخلق كانوا في قديم الزمن أصحاب أشعار وأوبار، وسكان بواد وقفار تدور بين حل وارتحال، وليست لهم جامعة تجمعهم، ولا أهداف تدفعهم وإنما همهم أن يجدوا ما يُقَيِّمهم ويعيشهم ولو كان فيما يصيدون من حيوان أو يجوشون من ضب^(١)».

وإذا كان الجزء الأول من موسوعة العرب في أحقاب التاريخ «التاريخ العربي وبدايته» قد صدر في عام ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م، فإن الجزء الثاني الغربي أخذ عنوان التاريخ العربي ومصادره «صدر عن دار المعارف حوالي عام ١٣٩١هـ - ١٩٧١م، وخصصه الكاتب للتقصي في المصادر العربية التاريخية في مراحلها الأولى، وهو يعترف بقيمة هذه المصادر والحاجة إلى البحث العلمي المجرد حولها، فيقول عن ذلك «وكذلك فرض عليّ البحث أن أعرف حقيقة النصوص التي اعتمد عليها مؤرخو الشرق العربي، وفرضت عليّ معرفة حقيقة النصوص أن أفرد لكل مصدر من مصادر التاريخ فصلاً خاصاً يوضح ما هو جدير بالإيضاح، ويناقش ما هو خليق بالمناقشة، والإيضاح والمناقشة الزماني بأن أعود إلى العصور القديمة، وأنظر بمنظار أبنائها وأقف مع آرائهم في كل مكان ظهر فيه نشاط علمي

(١) صفحات من تاريخ الإبداع الأدبي بالمدينة المنورة، عاصم مدان علي، ط ١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، ص، ٢٢٩ - ٢٣١.

ذو أثر في دعم الدراسات التاريخية وتطويرها، وأبحث معها في أمهات قضايا التاريخ ومصادره^(١).

ولهذا نجده في هذا الجزء المخصوص للتقصي عن المراجع الأولى في تدوين التاريخ العربي، يتحدث عن الأوائل من رواد التفسير والمغازي والنساب في القرنين الأول والثاني من الهجرة مثل كعب الأحبار، وعبد الله بن عباس، وعبيد شهرية، وعروة بن الزبير، وإبان بن عثمان، ومحمد بن مسلم الزهري، ومحمد بن إسحاق، كما يعقد فصلاً آخر من نقاد الشعر الجاهلي ورواة أيام العرب من أمثال أبو عمرو بن العلاء، وحماد الراوية، وأبو العباس المفضل الضبي، وخلف الأحمر وأبو عبيدة معمر بن المثنى.

ويخص الأستاذ أمين مدني المؤرخ العربي ابن خلدون بمبحث خاص متعرضاً فيها لما كان يدعى بشكوك ابن خلدون، وكيف أن الدراسات التاريخية المعاصرة أزاحت النقاب عن ذلك وبهذا يربط مؤلفنا بين طرق ومناهج تدوين التاريخ العربي في الماضي والحاضر، مؤكداً على حقيقة هامة وهي أن القديم ضروري في عملية البحث التاريخي لكن يجب عدم التوقف عند ذلك بل يجب الانطلاق في ميدان التاريخ الذي عرف مناهج وطرق جديدة يتوجب على الباحث الأخذ بها واعتمادها وسيلة في الوصول إلى الحقائق برؤية عربية أصيلة لا تنكر لجهود السابقين ولا تنغلق على ذاتها أو دائرتها المحدودة يقول المؤلف عن ابن خلدون ومنهجه، وما بعد المنهج الخلدوني «أما ابن خلدون فهو أقدم مؤرخ وضع الرواية التاريخية على مشرحة النقد، وأن ابن خلدون ككل ناقد أخطأ وأصاب فيما نقده من

(١) التاريخ العربي ومصادره، أمين مدني، دار المعارف بمصر، ص ٢١.

الروايات وأنا لا أريد أن أتعرض لأخطاء ابن خلدون التي تحدث عنها ناقدوه، ولكن ألقت النظر إلى أن الكثير من شكوك ابن خلدون لم يبق لها محل في بحوث المؤرخين في عصر الدراسات الأثرية^(١). ويحدد السيد أمين في الجزء الثالث من موسوعته القيّمة والهامة والموسوم (التاريخ العربي وجغرافيته) الباعث وراء بحثه الجغرافي في هذا بقوله: «والآن أضع جغرافية الجزيرة العربية بين يدي القارئ على صفحات هذه الحلقة الثالثة وأضع بين يديه جهداً بذلته في سبيل جمع الأقوال التي تناقلها الذين ألفوا في جغرافية البلاد العربية وتاريخها، والوصول إلى ما يقصده أصحابها^(٢). فلازالة تخرصات المستشرقين الذين كانت كتابات الكثير منهم تخدم أهداف المشروع الاستعماري الغربي - الذي ما زال مستمراً حتى الآن فيما نشاهده من احتلال عسكري وفاشي صهيوني لأرض فلسطين العربية والمسلمة وبتواطؤ غربي مكشوف - وضع المؤلف هذا الجزء الثالث من موسوعته والتي بلغ عدد صفحاتها حوالي «١٦٥٠»، وقضى معظم حياته الحافلة بالعطاء الفكري والأدبي في تدوينها، لإزالة هذه التخرصات والشكوك والتشويهات المعتمدة، ولأجل أن يكون القارئ على بينة مما يقرؤه لم يبالغ - المؤلف - كما ذكر في مقدمتي الجزئين السابقين، «التاريخ العربي وبدايته»، و«التاريخ العربي ومصادره»، ولم أغمّ عليه النتائج التي توصلت إليها، ولم أدع أنها كاملة سليمة من كل ما تتعرض له البحوث التاريخية مما قد يراه القارئ خطأ، فكثيراً ما بعدت الشقّة بين وجهة نظر الكاتب ورأي الناقد، فأنا إذا كنت أدافع عن وجهة رأيي، فالقارئ - اليوم - وفي

(١) المصدر السابق، ص ٥٥٥ - ٥٥٦.

(٢) التاريخ العربي وجغرافيته، ط٢، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م ص، ٩.

الغد هو الحكم بيني وبين من اختلف معي في الحاضر، ومن يختلف معي غداً في النتائج التي وصلت إليها^(١).

يتحدث السيد أمين بكل تواضع وشفافية، ومع أن عمله هذا وأعماله الأخرى الفكرية والثقافية تؤهله لأن يكون أحد أشهر المؤرخين العرب في العصر الحديث، ويوضح هذا الأسلوب أثر التنشئة الدينية الصحيحة التي تلقاها في جامعة الإسلام - الحرم النبوي الشريف - على أيدي علماء أجلاء وموسوعيين من أمثال الشيخ محمد الطيب الأنصاري، والسيد أحمد فيض آبادي - مؤسس أقدم مدرسة نظامية في المدينة المنورة - وهي دار العلوم الشرعية، والشيخ إبراهيم برّي، والد شاعر المدينة الكبير عمر برّي^(٢).

جائزة أمين مدني

أنشأها أبناء السيد المؤرخ أمين مدني عام ١٤٠٩هـ، تكريماً لوالدهم وإبرازاً لجهوده في البحث التاريخي الذي أثرى به المكتبة العربية، تصدر الجائزة عن نادي المدينة المنورة الأدبي، وينحصر موضوعها في البحث في تاريخ الجزيرة العربية وجغرافيتها والدراسات المتعلقة بها، وتهدف الجائزة إلى تشجيع النشاط البحثي في هذا المجال وتأصيل التراث والإسهام في تعميق معرفة الأجيال القادمة بتاريخها وحضارتها وتراثها، وحفز همهم على التعرف عليه والتأمل في أبعاده.

(١) المصدر السابق، ص ١٠.

(٢) الموسوعة الأدبية، عبد السلام بن طاهر الساسي، ط، ١٣٨٨هـ - ج ١، ص ٣٠٨ - ٣٢٢.

هيئة الجائزة

تشكل لجنة علمية من الباحثين والمختصين للإشراف على دراسة البحوث المتقدمة لنيل الجائزة واختيار الأفضل منها.

الفائزون بجائزة أمين مدني:

فاز بها مناصفة في عام ١٤١٤هـ كل من:

١ - أ.د محمد عيد الخطراوي، رئيس قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية بكلية التربية جامعة الملك عبد العزيز - فرع المدينة المنورة (سابقاً)، عن مجموعته التاريخية، (المدينة المنورة في العصر الجاهلي وصدر الإسلام).

٢ - أ.د صالح لمعي مصطفى، مدير مركز إحياء تراث العمارة الإسلامية القاهرة، عن كتابه، (المدينة المنورة، وتطورها العمراني، وتراثها المعماري).

وفي عام ١٤١٦هـ فاز بها مناصفة كل من:

١ - أ.د محمد بن سعيد الشعفي، عميد كلية الآداب بجامعة الملك سعود بالرياض، عن كتابه: (تجارة جدة الخارجية في الفترة بين ١٨٤٠ - ١٩١٦م).

٢ - د. محمد أحمد الرويثي، الأستاذ المشارك في كلية التربية بجامعة الملك عبد العزيز - فرع المدينة المنورة (سابقاً)، عن كتابه (الموانئ السعودية على البحر الأحمر، دراسة في الجغرافية الاقتصادية).

وفي عام ١٤١٨هـ فاز بها أ.د سعد بن عبد العزيز الراشد، وكيل وزارة المعارف المساعد لشؤون المتاحف والآثار، عن أعماله في الكشف

الأثري للمدن والموانئ الإسلامية في الجزيرة العربية وعن دراساته المنشورة وأعماله التنقيية في منطقة الربرة.

وفاز بالجائزة في سنتها الرابعة ١٤٢١هـ كل من :

١ - الأستاذ عاتق بن غيث البلادي الباحث في الجغرافيا والتاريخ والنساب وجغرافية الجزيرة العربية وذلك عن موضوع، المدن الإسلامية في الجزيرة العربية «تاريخ وحضارة» ولإنتاجه العلمي المتواصل وتأليفه سلسلة مؤلفات عن مكة المكرمة وتاريخها وجغرافيتها وأوديتها وشعرائها.

٢ - دارة الملك عبد العزيز وذلك عن موضوع، تأثير الدعوة الإصلاحية التي قامت في منتصف القرن الثاني عشر الهجري في وسط الجزيرة العربية على النهضة العربية الحديثة، وكذلك لدور الدارة في خدمة تاريخ المملكة العربية السعودية وجغرافيتها وآدابها وآثارها الفكرية.

أمين مدني في سطور

هو السيد أمين بن عبد الله مدني، أحد أعيان ومؤرخي وأدباء المدينة المنورة، ولد عام ١٣٢٩هـ، من أسرة عرفت بالعلم والأدب فجده لأمه «أحمد البرزنجي» مفتي الشافعية بالمدينة المنورة وعضوها في مجلس «المبعوثان العثماني» أما والده السيد عبد الله مدني فقد كان من وجهاء المدينة ورجالاتها البارزين، وكان مجلسه يضم أهل العلم والأدب، تلقى تعليمه الابتدائي في المدارس النظامية ثم انتقل إلى الحرم النبوي الشريف فتلقى علوم الدين واللغة والأدب والتاريخ على يد شيوخها. يعد من رعيال الرواد المؤسسين لنهضة الجزيرة العربية. له مؤلفات كثيرة من التاريخ، والثقافة الإسلامية، والنحو، وأدب الرحلات، منها ما هو مطبوع وما هو

معد للطبع . وكان له مجلس علمي يرتاده مجموعة كبيرة من أدباء المدينة المنورة ومثقفها وضيوفه والمهتمين بالتاريخ والأدب وقد ظل المجلس قائماً حتى وفاة صاحبه عام ١٤٠٤هـ.

من أهم مؤلفاته: كتاب التاريخ العربي وبدايته، والتاريخ العربي ومصادره، التاريخ العربي وجغرافيته، توفي عام ١٤٠٤هـ.

الفكر والأدب في المدينة المنورة بين الأسكوبي ومحمد هاشم رشيد

عرفت بيئة المدينة المنورة في القرن الثالث عشر الهجري أوائل القرن الرابع عشر - أيضاً - بكثرة الشعراء وكان فيهم المتميزون، فعبد الجليل برادة^(١) كان يكتب الشعر باللغتين العربية والفارسية، وإبراهيم الأسكوبي^(٢) - التلميذ له وللشيخ العلامة اللغوي محمد بن محمود التركي الشنقيطي صاحب الحماسة المشهورة^(٣)، كان رائداً للشعر السياسي في الجزيرة العربية، ومحمد العمري^(٤) المحدث في الحرم والمنشد للكلمة الشعرية

(١) عبد الجليل عبد السلام برادة المدني، المتوفى سنة ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م، انظر:

عبد الجليل برادة المدني، بقلم السيد عبيد مدني، المنهل: عدد مايو ويوليو عام ١٩٦٩م، ص ٣٥٧ - ٣٦٤.

(٢) إبراهيم بن حسن بن حسين بن رجب الأسكوبي: ١٢٦٤ - ١٣٣١هـ انظر:

الشاعر العالم إبراهيم الأسكوبي، المنهل عدد رمضان وشوال: ١٣٦٨هـ، وقد قام بتحقيق ديوانه: د. محمد العيد الخطراوي، وصدر في سلسلة دراسات حول المدينة المنورة، ط، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

(٣) الحماسة السنية الكاملة المرية أو الرحلة العلمية الشنقيطية التركزية، للشيخ محمد محمود بن التلاميذ التركي الشنقيطي، مصر ١٣١٩هـ.

(٤) الشيخ محمد العمري المتوفى سنة ١٣٦٥هـ - ١٩٤٥م، انظر الشعر الحديث في الحجاز، عبد الرحيم أبو بكر، نادي المدينة الأدبي، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.

الجميلة في منتدى الأبارية^(١) بـ «السنبلة» كان الأقدَر على صياغة القصيدة بلغة جزلة وفصيحة وكان يصدر في شعره عن عاطفة صادقة للقضايا التي آمن بها مثل الولاء للدولة العثمانية - ليس حباً فيها - بمقدار ما هو كره للإنجليز وسياستهم ووعودهم الكاذبة.

وعن العُمري أخذ عبيد عبد الله مدني وهو الأكثر ذيوعاً بين مجاليه من أمثال عبد الحق النقشبندي وعلي حافظ^(٢)، وإلى هذه الطبقة ينتمي ضياء الدين رجب^(٣) الذي تأثر بخؤولته من آل الكردي الكوراني في قول الشعر وخصوصاً جده لأمه الخطيب عمر الكردي، ويجب أن نقر بأنه كان لجامعة الإسلام الأولى - الحرم النبوي الشريف - دور ليس فقط في نشر الثقافة الدينية - وحدها، ولكن يضاف إليها الثقافة الأدبية التي لم تكن تفصل آنذاك - عن المنظومة المتكاملة للثقافة العربية والإسلامية، ولهذا نجد الشيخ عمر بن إبراهيم البري^(٤) يتحدث في الحرم بين السواري ويحفظ كتاب الأغاني عن ظهر غيب ويقول الشعر أيضاً. وكان بعض تأثير هؤلاء الشعراء تجاوز بيئة المدينة المنورة إلى خارجها، وفي مقدمتهم الأسكوبي وكذلك عمر بري الذي عاش قاضياً وعالماً في تونس لفترة من

(١) عبيد عبد القادر حافظ، ولد بالمدينة المنورة سنة، ١٣٢١هـ، انظر: شعراء الحجاز في العصر الحديث، عبد السلام بن طاهر الساسي، القاهرة: ١٩٥١م، بينما ورد تاريخ ولادته في كتابه فصول من تاريخ المدينة، سنة ١٣٢٧هـ.

(٢) علي عبد القادر حافظ، ولد بالمدينة المنورة سنة، ١٣٢١هـ، انظر: شعراء الحجاز في العصر الحديث، عبد السلام بن طاهر الساسي، القاهرة: ١٩٥١م، بينما ورد تاريخ ولادته في كتابه فصول من تاريخ المدينة، سنة ١٣٢٧هـ.

(٣) ضياء الدين حمزة رجب، ولد في المدينة المنورة، سنة ١٣٣٠هـ، انظر الموسوعة الأدبية، عبد السلام الساسي، ج، ص ٢٦٩ - ٢٧٦.

(٤) عمر بن إبراهيم البري ولد سنة ١٣٠٩هـ وتوفي سنة ١٣٧٨هـ انظر: ديوان عمر بن إبراهيم البري، تحقيق د. محمد العيد الخطراوي، ط ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

الزمن وهو يذكر في هذا المنحى بالشيخ عمر حمدان المحرسي والسادة الغمارية في المغرب العربي، الذين أذهلتهم مواهب الفاداني فأطلقوا عليه اسم مسند العصر، ويعرف أستاذنا محمد حميدة أطل الله بقاءه - أكثر مما أعرف في هذا الميدان.

بعد جيل عبيد مدني ظهر جيل التجديد مع أن المدني وعبد القدوس الأنصاري قطعاً مرحلة مهمة في مشروع التجديد للقصيدة العربية الأصيلة - وكان هذا الجيل يضم أسماء عديدة من أمثال حسين قاضي - رحمه الله - وعبد الرحمن دفة، وحسن الصيرفي وماجد الحسيني صاحب ديوان «حيرة» الذي صدر في بداية السبعينات الهجرية ومحمد العامر الرميح الذي كان مبرزاً في إبداع قصيدة التفعيلة، ومع أن الأستاذ عبد الله بن إدريس سلكه ضمن شعراء نجد في العصر الحديث إلا أن الرميح أخذ العلم عن جهابذته في حرم رسول الله ﷺ وفي دار العلوم الشرعية ونطق بالكلمة الشاعرة في بيئة المدينة، وهي بيئة قادرة على أن تصهر الناس في بوتقة واحدة ولذلك صلة بأجوائها العامة والمتمثلة في قيم الإيثار والمحبة واحتضان الآخرين.

ويضاف إلى من ذكرنا عبد العزيز الربيع وعبد الرحيم أبو بكر الأنصاري في النقد الأدبي، ومحمد عالم أفغاني وأحمد رضا حوحو في كتابة فن القصة الحديثة، وعبد الله سلامة وأمين مدني في التاريخ، ومحمد هاشم رشيد^(١) وعبد السلام هاشم حافظ ومحمد كامل خجا ومحمد العيد

(١) محمد هاشم رشيد، ولد بالمدينة المنورة سنة ١٣٨٩هـ، وتوفي بها، يوم الجمعة ٢٧/٣/١٤٢٣هـ، ولمزيد من الاطلاع على إنتاجه الشعري يمكن الرجوع إلى أعماله الكاملة الصادرة عن نادي المدينة الأدبي ط، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

الخطراوي وأسامة وأنس عبد الرحمن عثمان، وهي أسرة تسلسل فيها الشعر عن أستاذنا الفاضل عبد الرحمن عثمان وأخيه أحمد اللذين درسا في العلوم الشرعية وأقدم المؤسسات العلمية في المدينة في العصر الحديث كما نزع بهم لخؤولتهم المتمثلة في الشيخ الراوية محمد الحافظ - رحمه الله - محمد رشيد الذي كان والده صديقاً للشيخ عبد المجيد خطاب - والد الدكتور عزت خطاب وإخوانه .

وكانا من المتميزين في العمل الفني الخاص بسكة حديد الحجاز . أبو طه كان من الشعراء الذين أثروا الحركة الأدبية في المدينة المنورة عن طريق أسرة الوادي المبارك والتي كان يعد المربي والأديب محمد سعيد دفتردار أباً روحياً لها، احتضنتها دور الرفة وحسن الصيرف والدفتردار نفسه، وكانت داره تقوم في حي باب المجيدي، وكانت باكورة إبداع الرشيد ديوان دعاه بـ (وراء السراب) وصدر في القاهرة سنة ١٩٥٣م . كان جيل التجديد .. رشيد .. وحافظ .. وجحا .. والرميح . يغلب على شعرهم الطابع الرومانسي وفي نظري أن بيئة المدينة ببساتينها ومرأى المياه المنحدرة من العقيق وقربان ورائوناء، إضافة إلى تغلغل الإنشاد الديني في البيئة ذاتها، وذلك يعود إلى الحقبة النبوية حيث استقبل الأنصار الرسول ﷺ بالأهازيج المعبرة عن الحب والرقه ..

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

وحيث قالت أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها: عندما قدمنا إلى المدينة لم يكن فيها بيت إلا ويقول الشعر . وقال الحبيب المصطفى ﷺ: «إن الأنصار قوم فيهم غزل» وأقر - عليه صلوات الله وسلامه - بضرب

الدف على رأسه عندما قدم من إحدى الغزوات منتصراً، ولم يعترض على الجواري اللاتي كن ينشدن بالدف في حجرة السيدة عائشة - في يوم عيد - وهي الحجرة التي أصبحت مثوى له ولصاحبيه - رضي الله عنهما كل ذلك طبع إبداع شعراء المدينة ومن بينهم المرحوم محمد هاشم رشيد بتلك الروح الشفافة، شفافية تنبعث من بين الروضة والمقام، وتصيخ لصوت المؤذن شجياً في الرئيسية وباب السلام والشكيلية والسليمانية، وفي الليل يسري الصوت أم الشجرة والمصرع والأخوين ومن قبل من منتديات الأبارية والنورية في باب الشامي نسبة لشاعر المدينة الكبير السيد أنور عشقي^(١) جد صديقنا المفكر والأديب أنور ماجد عشقي والسيد أنور الجد كان معاصراً للأسكوبي والعمري وكان بين الثلاثة المتميزين من صادق الود ما كان بين الرشيد والصيرفي وعبد السلام حافظ^(٢)، ولقد كان من مناقب الأستاذ الرشيد صلته لود الأستاذ عبد السلام حتى بعد أن اشتد المرض عليه وإن لم يحل بينه وبين قول الكلمة وإبداعها.

وعندما اندلعت المعركة الأدبية في التسعينات الهجرية بين الربيع وعبد الرحيم أبي بكر من جهة والأستاذ عبد السلام هاشم حافظ من جهة أخرى والذي وصف حسب تعبيره - وآمل ألا تخيبي ذاكرة الكهولة - وصف بعض جلسات أمرة الوادي المبارك بأنها لاحتساء الشاي والقهوة، لكن

(١) أنور بن مصطفى بن عمر عشقي، ١٢٤٦ - ١٣٣٦هـ، انظر، صفحات من تاريخ الإبداع الأدبي بالمدينة المنورة ط، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، ص ١٥٨ - ١٦٥.

(٢) عبد السلام هاشم حافظ، ولد بالمدينة سنة ١٣٤٧هـ من مؤلفاته، الرافعي ومي، الصيام عبر التاريخ، وسيرة نبي الهدى والرحمة، والمدينة المنورة في التاريخ، له ما يقرب من عشرين ديواناً شعرياً: انظر المدينة المنورة بين الأدب والتاريخ، عاصم حمدان، أديب أهمله قومه ٧٩ - ٨١.

الدكتور الخطراوي ذكر يومها أن تحميل الأسرة أكثر مما تطيق يعني القضاء عليها. واختلاف الرأي بيني وبين الخطراوي لا يمنعني من القول بأن رأيه كان الأقرب إلى الصواب، وخصوصاً أن الأسرة لم تكن مؤسسة رسمية وذلك قبل إنشاء نادي المدينة الأدبي، وكنت أميل إلى هذا الرأي، وعامل السن - يومها - كان يحول بيني وبين حضور جلساتها وخصوصاً أن بعض روادها كانوا من أصدقاء والذي من أمثال الأستاذ الرفعة^(١)، والبعض كان أستاذاً وموجهاً من أمثال الأساتذة محمد حميدة وناجي حسن الأنصاري^(٢)، هذا الأخير أثرى بشكل واضح الحركة الأدبية من خلال كتبه ومؤلفاته عن التعليم في المدينة والحرم النبوي الشريف وتوسعته، إضافة إلى كتبه الأخيرة والتي خصصها لدراسة نواحٍ من الأدب الشعبي في المدينة مثل كتاب «الطيرمة»^(٣). أعود إلى تلك المعركة الآنفه الذكر التي كانت مثل سحابة صيف في العلاقة بين الأستاذ حافظ والمسؤولين عن النادي لأقول: إنها لم تؤثر على العلاقة المتميزة التي كانت تربط بين الأستاذ محمد رشيد ورفيق دربه السيد عبد السلام حافظ. وتلك أخلاق

(١) عبد الرحمن بن سليمان رفة، من مؤسسي أسرة الوادي المبارك صدر له ديوان شعري واحد، وهو «جداول وينابيع» عن نادي المدينة الأدبي، ١٤٠١هـ - ١٩٨٠م، ويعتبر أكبر أعضاء نادي المدينة الأدبي سناً حيث تجاوز عمره المديد بإذن الله التسعين عاماً ولا يزال يحتفظ بذاكرته ويروي في تاريخ المدينة المنورة الاجتماعي شيئاً كثيراً مما يجعله رائداً من رواد الحركة الأدبية في المدينة.

(٢) ناجي محمد حسن عبد القادر الأنصاري ولد بالمدينة سنة ١٣٦٣هـ، من مؤلفاته «التعليم في المدينة المنورة»، وعمارة وتوسعة المسجد النبوي عبر التاريخ بتقديم الشيخ عطية محمد سالم - رحمه الله - ط١، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

(٣) الطيرمة، حكايات من المدينة المنورة، نادي المدينة الأدبي ط١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م وله كذلك التعمية بتقديم المرحوم محمد هاشم رشيد، ط١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

الرجال وشمائيل ذوي الفضل وطبائع تلك الصفوة من جيل الرواد وأسلافه . وفي الختام لا بد من الاعتراف بأن جيلاً آخر ساهم في إثراء الحركة الأدبية في بلد الهجرة والإيمان من أمثال علي حسون الذي يعتبر عمله «الطيون والقطاع» رواية لا تقل زخماً عما كتبه حمزة بوقري في «سقيفة الصفا» وسبق صدور هذه الرواية مجموعات قصصية حملت أسماء يطل من ورائها معانٍ يمكن أن تدخل في باب الرمز أو الإيحاء، مثل «حصّة زمن» و «حوار تحت المطر» ولقد عرف الحسون أسلوب السرد حتى عندما كان يكتب التعليق الرياضي، ولعلّ قراءات الحسون ليوسف إدريس ونجيب محفوظ وغيرهم مثلت رافداً مهماً من روافد ثقافته المتعددة الجوانب، وحتى عندما كان يكتب في الوجدانيات نجد أن الأسلوب القصصي لم يفارقه وهذا ما يوضحه كتابه الموسوم «إليها أين ما كانت» .

وإلى جانب الحسون في كتابه فن القصة نجد مجالين له في هذا الفن وظهرت كتاباتهم القصصية في وقت متقارب، وهم أنور عبد المجيد جبرتي، وحسين علي حسين والذي كان لدراسته في العلوم الشرعية أثر واضح في قوة الأسلوب ومتانته وكان أستاذ اللغة العربية في المدرسة نفسها بكر آد، يشجع على قراءة الفن القصصي، كما كان أستاذاً عبد الرحمن عثمان علي خليفته الشعرية المتميزة، يشجع مريده على قول الشعر وارتجال الكلمة فكان العلماء والأدباء والخطباء . وتمثل قصة حسين علي حسين «القدر الشاطئ» أثر بيئة المدينة بروحانياتها وعفويتها ورقتها في أدب المبدعين من أبنائها، ولقد استمد أنور الجبرتي كثيراً من أبطال قصصه من أبناء الحارة الذين جلس معهم على تلك الأرض الممتدة بين جبريل وحارة الأغوات في تلك الرحبة التي كانت ضيقة في عالم المكان المحدود،

المنبسطة في عالم الروح اللامتناهي، كنت تشاهد أبناء الحارة وهم يحملون «شكات» الدوارق بين أيديهم، وإنهم ليسرعون في خطواتهم بين سبيل عم «مالاه» وحصوة «الحرم» وديار «العشرة».

وكانت الأذان تصيخ لصوت خاشع من المحراب، وآخر يأتي ندياً من المنارة شجياً ومثيل له من أمام الحضرة الشريفة متبتلاً، لقد وطد رأيه الفكر والثقافة والأدب رواد أفذاذ من أمثال الدفتردار والربيع، ورشيد، والرقة، والصيرفي، وحميدة، ومن حولهم رجال من أمثال الخطراوي، والأنصاري، ومحمد صالح البليهشي الذي أثبت وفاءه للربيع من خلال موقفه النبيل في جمع إنتاج هذا الرائد بعد أن كاد يطويه الزمن، وينهال عليه تراب النسيان، ودخيل الله الحيدري الذي يعد كتابه عن التعليم بالمدينة مرجعاً رئيسياً في ميدانه، فالعلوم الشرعية ودار الأيتام كانتا مع دور علم أخرى منجماً للرجال ولكن الوفاء لهما قليل من كثير من أبنائهم، ومن الجحود ما قتل ومن النكران ما يدخل في باب ظلم أولي القربات الأكثر مضاضة والأشد فتكاً.

واليوم تنمو شجرة الإبداع في المدينة حيث سقيا الروح وغذاء العقل والوجدن معاً فترى تلك البراعم وقد استوت والثمر في قنوه «قد نضج، فهذا مبدع قد سمع القرآن في بيته مرتلاً، والمقام تردده الختام قوياً بين سلع وأحد، وتسير به الركبان بين قباء والعوالي وقربان، لقد قطع هذا المبدع عبد المحسن بن حليت بن مسلم المحمادي، المسافة بين سفح الوادي وذروة الجبل الأشم بخطو واثق فلم ترتعش منه ولم تزل به عن الأصالة قدم، فكانت «حولياته» التي أعادت للقصيدة العربية الأصلية الدماء في شرايينها المتكلسة وكان الصوت الأكثر قوة وجاذبية بين مجايليه من

جميع التوجهات وبين مختلف التيارات، ولقد راهن بعض نقاد «الموضة» على نهايته ولكنه استمر في مسيرته الواضحة المعالم في صمت ولم يلتفت إلى ضجيج إثارة هؤلاء المنظرين المتقلبين في آرائهم، فتعانق القديم والجديد في قصيدة «الحليت» بينما طويت الصفحة الأخرى لأن القارئ لم يجد فيها نفسه، وابتعدت عن تطلعاته وهمومه، وكان الرمز فيها طليماً والأسطورة بين سطورها بالية والعبارات في تراكيبها باهتة واللغة على هوامشها مفككة مصنعة.

كم هو رائع أن يشارك في حمل الراية هناك أو «هنا» في القلب والوجدان «يا طيبة»، مبدعون من أمثال محمد إبراهيم الدبيس، الذي أعطى من نفسه وجهه الكثير للإمام الفكر والأدب، وأحمد العرفج الذي يجمع في كتاباته بين الفكر والإبداع، وبشير الصاعدي، ومحمد سالم الصفراني، وعيد الحجيلي، وأبو الفرج عسيان، ونايف الزايدي، ومجدي خاشقجي وطارق حريري، وشقيقات لهم مبدعات من أمثال لميس منصور، وهناء أبو الفتوح وليلى الجهني، وكاتبات متألمات من أمثال سهيلة زين العابدين حماد، ووفاء الطيب إدريس، ونورة عبد العزيز الخريجي، وبثينة إدريس، ولعلّ السياق يقتضي أن أشيد بدور رائدات التعليم الأهلي في المدينة ومن أمثال المعلمة زينب مغربل، والأستاذة شرف علمي، فهؤلاء وغيرهن علمن بنات البلدة الطاهرة القراءة والكتابة قبل أن يكون هناك تعليم نظامي ورسمي للفتاة في بلادنا، بلاد النور والإيمان.

قراءة حضارية وفكرية من خلال تقرير بيرل

بداية لا بد من القول إن تقرير (ريتشارد بيرل) والذي تم تقديمه إلى مجلس سياسة الدفاع الأمريكي والذي يتهم المملكة بأنها دولة تمول الإرهاب، إن هذا التقرير هو جزء من الحملة التي تستهدف هذا البلد وعقيدته وتاريخه ووحدته الوطنية.

ويتبع هذا القول أو الحقيقة أن كثيراً من اليهود الأمريكيين ومنهم (بيرل) هم من الشخصيات التي يمكن تصنيفها ضمن دائرة ما يسمى بـ (عقيدة الولاء المزدوج) حيث يحل الولاء للحركة الصهيونية وإسرائيل المحل الأول لدى معتنقيها ويكون للبلد الذي تعيش فيه هذه الشريحة من الدرجة الثانية فإذا تعارضت مصالح إسرائيل مثلاً مع مصالح الولايات المتحدة الأمريكية يقدم هؤلاء المعنيون مصلحة إسرائيل على مصلحة البلد الذي يعيشون فيه أو عاش فيه آبائهم أو أجدادهم فالأمر سيان. ويشاركهم هذا المعتقد بعض طوائف الفكر المسيحي البروتستانتي الأصولي إلا أنه هناك قضايا لا بد من مناقشتها بكل وضوح وصراحة فالدوائر الغربية السياسي منها والفكري والإعلامي تنتهج سياسة لا يوليها العرب شيئاً من اهتماماتهم وهذه السياسة تتمثل في عملية تبادل الأدوار، فالإعلامي الغربي مثلاً له حق مناقشة قضية معينة ثم طرحها على دوائر لصيقة بالمطبخ

السياسي - إن صح التعبير - وما على الدائرة السياسية سوى إعطاء الضوء الأخضر للنخبة الفكرية أو الإعلامية، أو لمجموعة معينة في الكونجرس أو مجلس العموم حتى تطرح للنقاش علانية، وبعد أن تخرج إلى حيز الوجود يمكن من ردة الفعل إزاءها جس نبض الطرف المعني بهذه التهمة و ذاك القول، وليس هناك من مانع بأن تصدر الدوائر السياسية بياناً موجزاً مفاده أن هذه الأفكار لا تمثل الحكومة أو وزاراتها المعنية. وقد قدم الغرب للعالم العربي والإسلامي منذ أكثر من قرن من الزمن كثيراً من الوعود ولكنه تنصل منها. وما معاهدة سايكس بيكو، ووعد بلفور، وبيان بوش القاضي بإنشاء دولة فلسطينية، أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة، ثم التنصل منه أو تحويره دبلوماسياً، لتصبح هذه الدولة مؤقتة ثم في مرحلة لاحقة نجد الأمر تحول ليصبح الحديث عن الدول أمراً سابقاً لأوانه. وكل هذا يتم والمسؤول يلعب (الجولف) أو يقضي عطلته الأسبوعية في المنتجع، أو إجازة (الكريسمس) و (الإيستر). ما هذا كله وسواه إلا دليل واضح على أن الغرب استمرراً هذا الأسلوب مع العرب مكتفياً بتطبيب الآخر والعودة إلى أساليبه - وهو جزء من التفكير الغربي إزاء الآخر، وإذا كان العرب سرعان ما ينسون أو يصفحون فإن الغرب لا يؤمن بشيء اسمه التسامح أو الصفح وخصوصاً إذا كان الأمر ملتصقاً بمصالح الغرب، وهنا نقف لنقول بأن الزعيم البريطاني المعروف (تشرشل) سبق أن قال ما معناه، بأنه ليس هناك صداقات دائمة أو عداوات دائمة ولكن بالتأكيد هناك مصالح دائمة، ولقد خضنا حروباً مع الاستعمار الأوروبي البغيض، ومع الكيان العنصري الإسرائيلي، ولكننا لم نحاول اكتشاف الغرب من الداخل كما فعل هو من زمن بعيد فأنشأ أقسام الدراسات العربية الإسلامية، أو الشرق أوسطية في جامعات عريقة مثل: أكسفورد، كيمبردج، لندن،

مانشستر وهارفارد، وأنديانا، وأنشأ المعاهد الاستراتيجية المتخصصة في دراسة الفكر السياسي العربي والاقتصادي والاجتماعي، واكتفى الليبراليون منا بتمجيد ديمقراطية الغرب ونسوا أن الغرب لم ولن يسمح بأن يتعدى ذلك أسوار الكونجرس ومقاعد مجلس العموم، أو يتجاوز عتبات البيت الأبيض ودوانغ ستريت، وانخرط هؤلاء في علاقة رومانسية حالمة وكاذبة مع الغرب الواقعي، واكتفى دعاة العودة إلى التراث وهو شيء محمود وفعل جيد، اكتفوا بهذه الدائرة المغلقة ودعوا إلى قفل النوافذ والأبواب وما علموا أن الرياح عاتية والصواعق قوية، وأن تحصين البيت من الداخل لا يمكن أن يأتي من سلاح نشهره في وجوه بعضنا البعض، فهذا سُني وذاك شيعي وهذا سلفي وذاك صوفي، وما زلنا في العالم العربي والإسلامي ترتفع أصوات كراهية ترمي من يتفق معها بالكفر حيناً والشرك والنفاق حيناً آخر. ويقول بعضهم جهلاً وانغلاقاً وتحجراً إن معركتي مع أخي المسلم المختلف في الرأي معي هي مقدمة على معركتي مع أعدائي الآخرين، وإذا كان البعض قفز السلم بسرعة متناهية داعياً إلى الحوار مع الآخر عقيدة وفكراً فإنه ليس بصادق مع نفسه مادام هو ليس على استعداد للحوار مع من يشاطره العقيدة ويعيش جاراً له. وإذا كان تقرير (ريتشارد بيرل) كشف عن وجه قبيح لتلك الحملة التي يقودها أصحاب الولاء المزدوج لبلد الإيمان والسلم والمحبة، فإنه من أوجب الواجبات علينا أن نتصدى لذلك فكراً وإعلامياً ولا مانع من أن نُلقي نظرة فاحصة على أنفسنا فيكون الولاء - بعد الله - لهذا الوطن، ووحدته مقدم على أهواء نفوسنا ونعراتها.

أعود مرة أخرى لمناقشة تقرير (ريتشارد بيرل) من وجهة نظر حضارية

وفكرية وبعيداً عن الإطار السياسي الذي حاولت فيه جهة محددة وهو مجلس سياسة الدفاع الأمريكي، تقديمه والدفاع عنه، وأخرى حاولت أو عملت على التنصل منه، وهذا الأمر المتعلق بهذا التقرير الظالم والمتحيز والمرفوض بكل أبعاده أي قضية تبادل الأدوار في الفكر السياسي الغربي المعاصر وهو سمة من سمات السياسة الخارجية التي عمل الغرب على إنتاجها منذ أمد طويل ولا أعلم إذا ما حظي هذا النهج بدراسة عربية جادة بعيداً عن تيار يبهره ما يدعيه الغرب من تطبيق للديمقراطية، وآخر يرى الحضارة الغربية شراً كلها، وإذا كان هناك سياسي ومفكر أوروبي معتبر قد تحدث عن حقيقة ديمقراطية الغرب فهو اللورد بيتر كارنغتون Lord Carrington والذي عمل وزيراً للدفاع في حكومة إدوارد هيث ١٩٧٠ - ١٩٧٤م، وزيراً للخارجية في حكومة تاتشر الأولى ١٩٨٠ - ١٩٨٢م. وأدى الغزو الأرجنتيني لجزيرة الفوكلاند إلى استقالة طوعية فيما عرف بعد باسم (نقطة شرف). فلقد خاطب حزبه المحافظ أو أصواتاً فيه من اليمين المتشدد كانت تعارض نقل الحكم في جمهورية زيمبابوي، روديسا، سابقاً من الأقلية البيضاء إلى الأكثرية من سكان البلد والذين عانوا من الاضطهاد والظلم ما عانوا، وإني لأتذكر كلماته الخارجة من أعماقه الصادقة والقائلة: (السيد المتحدث يعني المتحدث باسم مجلس العموم.. أنهم يحللون الديمقراطية لأنفسهم ويحرمونها على غيرهم. ولقد دفع (كارنغتون) ثمن صراحته مع بني قومه، ودفعه من قبله نظيره في محافظي بريطانيا آيان ماكلاود Iain Macleod والذي توفي فجأة في عام ١٩٧٢م في منزله بدوانغ ستريت حيث كان وزيراً للخزانة، فلقد كان أعداؤه في حزبه من الكثرة وذلك لأنه كان يدعو لتحرير القارة السوداء من الاستعمار الإنجليزي ثم يفترض - فينا - أن نعي أن السياسي يتمهى مع الفكري في الغرب،

فأنت تجد هنري كيسنجر الأمريكي ذا الجذور اليهودية حاضراً في المنتدى الفكري كحضوره في المنتدى السياسي وأنتك لواجد - أيضاً - التوافق الفكري بين الأحزاب الغربية الحاكمة والأخرى المعارضة عندما يخص الأمر مسألة قومية من وجهة نظرهم فالديمقراطيون في الولايات المتحدة يتميلون فرحاً وسروراً عندما يخطب الرئيس متحمساً، ويصفقون كثيراً لتلك الكلمات التي يوقعها بالمنصة التي توضع أمامه وإلى حد ما يمكن أن ينطبق القول على محافظي بريطانيا. فالرجل القابع في (١٠ دوانغ ستريت) هو محافظ في فكره ولباسه وهو يحاول أن يقلد (التاتشرين) في لغتهم اللندنية الفخمة، ولهذا فهم يقفون خلفه حتى وإن خالفته أصوات حرة في حزبه تدعوه لعدم الرقص على الأنغام الأمريكية الصاخبة، وحذرت من أن يلعب دور سفير الشؤون الخارجية الأمريكية. فالساسة البريطانيون حسب تعبير هذه الأصوات أكبر من أن يلعبوا دوراً كهذا وحتى مارجريت تاتشر على رغم هواها الأمريكي لم تصل إلى الدرجة التي وصلها بلير بتبني الرأي الأمريكي دون وقفة صادقة مع النفس أو رؤية موضوعية في الرأي المعروف والفكر المتقلب لساسة هدفهم الأول هو إرضاء شارون، وإذا كان (بوش) و (بلر) لا يرغبان مطلقاً في نقد سفاح العصر الصهيوني فإنه من المخجل للغرب أن نسمع أصواتاً في الكنيست الإسرائيلي وخصوصاً من العمالين ترفض السياسة الهوجاء لدولة الحاخامات، وكيان الأصولية اليهودية المفرطة في تشدها. لا أعلم إلى متى نظل على تلك الرؤية السطحية عن الغرب؟ فليس في إعلامنا وصحافتنا من هو متخصص في الشأن الغربي سياسياً وفكرياً واقتصادياً واجتماعياً. ولنضرب مثلاً على ذلك، ففي بريطانيا يوجد صحافيون على درجة عالية من المهنية معروفون باهتمامهم بالعالم العربي، إلا أنهم يتوزعون أيضاً على حقول مختلفة،

فلقد كان مثلاً وإلى حد قريب يعتبر مايكل آدمز Michael Adams مرجعاً في القضية الفلسطينية، أما ديفيد هيرست David Hirst صاحب كتاب السلاح وغصن الزيتون The Gun and the Olive Branch فرغم إلمامه بكثير من شؤون الشرق الأوسط، إلا أن الشأن اللبناني بكل أبعاده هو ما يطغى عنده على الاهتمامات الأخرى ويأتي (باتريك سييل) في هذا السياق كمتخصص في الشأن السوري. فالصحافي المعروف (روبرت فيسك) كاتب صحيفة الأندبندنت المعروف فهو يمزج في كتاباته الصريحة بين الفكري والصحافي. ويتميز الوزير المحافظ السابق (جيم براير) Jim Prior باطلاعه الواسع على الشأن الاقتصادي العربي لذا فقد اختير رئيساً للغرفة التجارية العربية البريطانية المشتركة. أما المفكر والسياسي البريطاني دينيس هيلي Denis Healey فيعرف عن النواحي العسكرية العربية ما يمكن أن تلاحظه في فصول كتابه المعروف والقيم (The time of my life). دعونا نصارح أنفسنا ما الذي نعرفه عن عدونا الأول والأخير إسرائيل؟ فبينما يتكلم عدد من الإعلاميين والصحافيين اليهود اللغة العربية، وتخصص فرق كثيرة منهم لدراسة الشأن العربي أدباً وتاريخاً ولغة. فإن الأمر في العالم العربي لا يتعدى الاهتمام الفردي المحض، وإذا برز مفكرون يعرفون عن الصهيونية وأدبياتها الشيء الكثير مثل المرحوم حسن ظاظا رحمه الله وعبد الوهاب المسيري شافاه الله فإنه يصعب علينا أن نجد من يخلفهما في هذا الحقل الهام من الدراسات المقارنة بين الفكرين العربي والعبري.

لقد ذكرت في مقالة سابقة أنني سوف أناقش ابعاد تقرير بيرل من نواح حضارية وفكرية، إنني على يقين أنني لم أفعل إلا القليل ولقد حاولت أن أتחסس مواضع الضعف في رؤيتنا لآخر فكراً وحضارياً وإعلامياً، وأن

الواجب الوطني ليلقي علينا عبئاً كبيراً حتى نعرف عدونا كما هو عمل على معرفتنا منذ قرون، ولا يمكن فهم تقرير بيرل الحاقد والمضلل بمنأى عن هذه السياقات جميعها وأن الفهم أولى درجات التكافؤ مع عدو يتربص بنا ويسعى لتفكيكنا، ويسعى لضربنا في معتقدنا ووحدتنا عن طريق التضليل الفكري والذي يستخدم فيه أدوات متعددة يأتي في مقدمتها توزيع الأدوار، ويتركنا خيارى إزاء هذا الأمر. هل نصدق مجلساً رسمياً للدفاع القومي، أم نرضى بعبارات تصاغ بدبلوماسية حذرة يتفوه بها المتحدث باسم الإدارة السياسية فهو لا ينفذها ولا ينفذها ولكنه يكتفي بأنها لا تمثل وجهة النظر الرسمية، وسوف نخدع أنفسنا إذا ما صدقنا هذا التضليل المتعمد والرؤية الساعية لجعلنا في حيرة من أمرنا. ولكن ما تتمتع به بلادنا من تاريخ مشرف ووحدة وطنية قوية وتلاحم بين مختلف المؤسسات هو ما يبعث فينا الأمل لمواجهة هذه السياسة التي أوغلت في كذبها وتخريصاتها واستمرت هذا الطريق الصعب والشاق.

صور من التجارب الإبداعية القصصية بين جيل الحسنون وعبد خال

بداية لا بد من الاعتراف بأن القاص المشهور والصحافي المعتق علي محمد حسنون^(١) أثر في (محبته) أن يتحدث عن جيل الرّواد في فن القصة في المدينة المنورة من أمثال الأفغاني وحوحو وألا يتطرق من قريب أو بعيد إلى دوره في الارتقاء بهذا الفن الذي وإن كانت له جذوره في أدبنا العرب القديم (كالمقامة) مثلاً، إلا أن الأدب العربي قد تأثر في هذا الجانب بالأدب الغربي، ونلاحظ أن الروائي العربي الكبير نجيب محفوظ قد تأثر بواقعية الروائي الإنجليزي المعروف أرنولد بينيت Aranold Bennett، ١٨٦٧ - ١٩٣١م^(٢). . ويذكر (محفوظ) عدداً من الأدباء الذين قرأ لهم، وتأثر بهم فيذكر من الروس (توستوي) و (ديستوفيسكي) و(تشيكوف) ومن الفرنسيين (أناطول فرانس) و (فلوبير) و (بروست) ومن

(١) من المحبرة، علي حسنون، البلاد، ١٦ ربيع الأول، ١٤٢٣هـ.

(٢) كتب الروائي بينيت ما يقرب من ١٥ رواية، وأربع مجموعات تضم ما كتبه من قصة صغيرة، و ١٥ مسرحية، و ٤٠ مجلداً تضم كذلك المقالات التي نشرها في بعض الصحف اللندنية، ومن أشهر رواياته (قصص خمس مدن) وظهرت عام ١٩٠٨م انظر:

الإنجليز (شكسبير) و (وويلز) و (شو) و (جويس) و (لورانس) ومن الألمان (توماس مان) و (جوته) (كافكا) ومن الأمريكيين (هيمونجواي) و(فوكتر) و (دوس) و (آرثر ميلر)^(١).

وقد ذكر الناقد يوسف الشاروني أن نجيب محفوظ هو الذي أرسى دعائم الرواية المصرية بل والعربية وعبّد طريقها نهائياً لمن يتلوه من أجيال وأفسحت مسيرته الروائية الخصبة مجالاً موازياً لمدارس النقد في تاريخنا الأدبي كما وكيفاً^(٢).

إلا أن الجزيرة العربية لم تكن بمنأى عن هذا الفن الجديد والمشاركة فيه، فنجد محمد علي مغربي، يكتب (البعث) وعبد القدوس الأنصاري (التوأمين)، وأحمد السباعي (فكرة)، وخالد خليفة (في وادي عبقر)، ومحمد زارع عقيل (أميرة الحب)، وأمين سالم ويحيى، (الأذن تعشق)، و(الأصابع المحترقة)، وعبد الله عبد الجبار (أمي)^(٣)، وهي قصة تدور أحداثها في البيئة المحلية (مكة المكرمة) وهذا مما ينفي زعم بعض النقاد بأن كتاب القصة والرواية في الجزيرة العربية لجأوا إلى البيئة العربية ليعبروا عن همومهم الذاتية من خلال هذا الفن الأدبي.

ثم جاء حامد دمنهوري ليبرز بصورة قوية في هذا الفن من خلال تلك الروايات الطويلة التي كتبها وهي: (ثمن التضحية، و (مرت الأيام).

(١) انظر: الواقعية النقدية في أدب نجيب محفوظ، د. حامد أبو حامد، مجلة القارة، العدد ٩٠، جمادى الأولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م، ص ١٣ - ١٩.

(٢) مؤلف الثلاثية أعطانا أصدقاء يشبهوننا، الحياة ٢٠ رمضان ١٤٢٢هـ، ملحق آفاق.

(٣) قصص الجيل الجديد، دار مصر للطباعة.

ثم كان جيل (سعد البواردي) وغالب أبو الفرج، وإبراهيم الناصر^(١)، وعبد الله الجفري، والذي راوح في كتاباته بين القصة والرواية، ففي الأولى نجد له (حياة جائعة) و (الجدار الآخر) وفي الأخرى (العاشقان) و(الحلم المطعون) ومن رواياته الأخيرة التي لم تتجه إليها الدراسات النقدية رواية (تلك الليلة) وقد أطلق عليها (رواية صغيرة)، وقد استمر إبراهيم الناصر في عطائه الأدبي كعبد الله جفري فكانت قصصه الشهيرة (ثقب في رداء الليل) و (أرض بلا مطر) و (أمهاتنا والنضال)، وقد توزعت جهود كل من الجفري والناصر فنون كتابية أخرى وفي مقدمتها كتابة المقالة الصحفية، وانعكس أسلوب السرد بطريقة غير مباشرة على ما كتبه في فن المقالة.

وفي نظري أن الأستاذ علي حسون^(٢) ولد قاصاً فعندما كتب المقالة الرياضية على صفحات جريدة المدينة، نجد أثر أسلوب السرد قد هيمن على كتاباته تلك، وأتذكر أنني عندما كنت في السنة الأولى من المرحلة الإعدادية عام ١٣٨٦هـ، كتب (الحسون) مقالاً مؤثراً عن نادي (العقيق) والمأساة التي حلت بمؤسسيه من آل عربي - رحمهم الله - في عام ١٣٨٠هـ - كما أتذكر - وأحفظ عبارات من ذلك المقال الرياضي (وعندما

(١) صدر أول عمل قصصي لإبراهيم الناصر سنة ١٣٨١هـ وتبعه في عام ١٣٨٢هـ بإصدار مجموعته القصصية الأخرى (أمهاتنا والنضال) ثم رواية غدير البنات ١٣٨٧هـ، ثم توالى أعماله الروائية الأخرى مثل (الضياع) و (غيوم الخريف)، و (عيون القطط)، و (رعشة الظل).

(٢) نشر الحسون أول أعماله القصصية سنة ١٣٩٦هـ بعنوان (حصنة زمن) ثم (حوارتحت المطر) سنة ١٤٠٣هـ ثم كان عمله الروائي الأول (الطيون والقاع) وأخبرني أن هناك جزءاً متمماً لهذا العمل ولم يظهر بعد، كما أن له كتابات وجدانية تحت اسم (أينما كانت) وصدرت سنة ١٤٠٤هـ.

وضع آخر مسمار في نعش الفريق، فإذا بشاب أسمر يخترق الصفوف)، وكان يعني بذلك (مصلح جابر)، شافاه الله -، الذي حمل عبء مسيرة النادي بعد مؤسسيه، ثم كان هاشم شيحة والذي تعرف بـ (الحسون في منزله) في أواخر الثمانينات الهجرية. ومع أن (علي) كان (أحدياً) إلا أنه كان يميل إلى أبناء باب السلام من لاعبي (العقيق) من أمثال عبد الرحمن سنان - رحمه الله - وأبناء (السيبع) عبد القادر وأحمد ولقد تنبأ أستاذنا الشاعر حسن الصيرفي بمستقبل واعد للأخ الحسون، وإذا كانت صفحة الأدب في جريدة المدينة التي كان يُشرف عليها المرحوم سباعي عثمان قد شهدت البدايات الأولى لعدد من الكتاب من أمثال: الجبرتي، والسندي وحسين علي حسين^(١) والسالم، وعبد الله باقازي، ومحمد يعقوب تركستاني - وآخرين -، فإن (الحسون) كان هو الآخر فارساً من فرسان تلك الصفحة والتي كانت النواة الأولى للملحق الأدبي والثقافي (الأربعاء) والذي انطلق في عهد الأستاذ أحمد محمود، برعاية كبيرة من الأستاذ الجفري وكأني بأبي زين يضع الأسس لأعمال كبيرة ثم يتركها للآخرين بعد أن تكون قد وقفت على أقدامها وترسخت جذورها.

لم أجد عند النقاد المعروفين لأدبنا من أمثال سعد البازعي، ومنصور الحازمي، ذكراً أو إشادة بدور (الحسون) في كتابه (فن القصة والرواية في بلادنا) ولكننا نجد ناقداً عاش بيننا وهو الدكتور يوسف نوفل^(٢) يتعرض

(١) يشير الدكتور منصور الحازمي، إلى أن حسين علي حسين من أكثر قاصّينا نضجاً ومن أغزّهم إنتاجاً، ومن أكثرهم تمثلاً للتيارات العربية والغربية الجديدة. انظر: الوهم ومحاور الرؤيا، د. منصور الحازمي، ط ١، ١٤٢٢هـ - الرياض، ص ١٧٤ - ١٧٥.

(٢) يجب أن نشير في هذا السياق إلى أن الأستاذ الدكتور بكري شيخ أمين، قد قام بدراسة =

لأعمال الحسون، والمشري - رحمه الله - القصصية تحت عنوان ذي دلالة هامة وهو (تعقيل (التجربة الوجدانية) وتقليب (الرؤية الشعرية)) وقد خص مجموعة الحسون (حصة زمن) بشيء من التحليل الفني مشيراً إلى تأثير الحسون والمشري بكتّاب عالميين من أمثال (مارسيل بروت) و (جيمس جويس) ويصفه (أي الحسون) بأنه يملك موهبة قصصية.

إلا أن عمل الحسون الذي لم ينل هو أيضاً اهتماماً كافياً من النقاد فهو عمله الذي يمكن تصنيفه بأنه عمل روائي، والذي نشره في صحيفة المدينة على حلقات ودعاه بـ (الطيبون والقاع)، وهو في عمله هذا مثل حمزة بوقري في (سقيفة الصفا) يرسم صورة عفوية وجميلة لمجتمع ما قبل الطفرة، ولقد آزرت الحياة الشعبية كلاً من البوقري والحسون في إخراج عمليهما، وإذا كانت (سقيفة الصفا) قد لقيت من اهتمام الناقدة العربية المعروفة (سلمى الجيوسي) ما جعلها تقوم بترجمتها إلى اللغة الإنجليزية بعد أن وجدت فيها ملامح البيئة المحلية الحقيقية فإن عمل الحسون سوف تمتد إليه الأيدي لترجمته يوماً إلى لغات أخرى.

وهذا يدفعنا للقول بأن كُتّاب القصة والرواية في أمريكا اللاتينية قد أدركوا هذه الحقيقة فعبروا عن مجتمعاتهم التي عاشوا فيها وسلبوا تجارتهم ومعاناتهم في هذا الفن الأدبي، فوجد العالم في أدب (ماركيز)^(١) وزملائه

= للقاص غالب أبو الفرج، من خلال مجموعته المسماة (ليس الحب يكفي) انظر: (قراءات نقدية في كتب سعودية) د. بكرى شيخ أمين ط ١، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م الدار السعودية للنشر والتوزيع، ص ١٧ - ١٨١.

(١) هو الروائي العالمي جابريل جارسيا ماركيز، وقد تبرأ ماركيز أخيراً من جائزة نوبل للسلام تضامناً مع قضية الشعب الفلسطيني، انظر: ماركيز أخلتنا من أنفسنا، الوطن الخميس ٢ ذي الحجة ١٤٢٢هـ.

ما لم يجده في آدابه، فتوافر النقد على ترجمته، والعناية بنشره. ولعلّ الجيل الجديد من كتاب القصة والرواية في بلادنا من أمثال عبده خال^(١)، ورجاء عالم، وعبد الحفيظ الشمري^(٢)، ومحمود تراوري^(٣) وعبد الله التعزي: قد تنبهوا إلى هذه الحقيقة بصورة عفوية فجاء إنتاجهم معبراً عن هموم الفرد في بلادنا وملتصقاً - كذلك - بالتراث الثقافي والفني والأسطوري للمجتمع السعودي، ولعلّ في اسم رواية (التعزي) (الحفائز تتنفس) ما يؤكد هذه الرؤية التي ذهبنا إليها.

(١) نشر عبده خال مجموعته القصصية الأولى سنة ١٤٠٧هـ تحت عنوان (حوار على الأرض)، وظهرت مجموعته القصصية الثانية سنة ١٤١٠هـ وهي لا أحد) وقد أشاد الناقد المعروف الدكتور محمد حسن عبد الله بإنتاجه الروائي والذي تتابع ظهوره أخيراً بصورة كبيرة.

(٢) من أعمال هذا الروائي: رحيل الكادحين، أبي والقوافل، عطش ورميل، وقد ناقش منتدى السرد - أخيراً - روايته (فيض الرعد) وذكر الأستاذ إبراهيم الناصر في ورقته المقدمة لهذه الحلقة النقدية، إن العمل يشد القارئ منذ الصفحات الأولى إلى عالمه المليء بالشجن.

انظر: الثقافة صحيفة الوطن، الخميس ٥ صفر ١٤٢٣هـ.

(٣) حملت المجموعة القصصية الأولى للتراوري اسم (بيان الرواة في موت ديما) ودعا مجموعته الثانية بـ (ريش الحمام) ونلاحظ أن الحمام يشكل أيضاً رمزاً فنياً في قصص (التعزي) والذي يكتب قصة بعنوان (بئر الحمام) ومن وجهة نظر شخصية أرى أن التراوري والتعزي قد تأثرا بالأجواء الشعبية الخاصة بمكة المكرمة وقد تأثر د. منصور الحازمي قبل ذلك بهذه الأجواء، فكتب النص الأدبي المعروف (الدحلة) وقد ترجم هذا العمل الإبداعي إلى اللغة الإنجليزية، والدحلة التي عناها الحازمي هي دحلة حرب في جرول، وهناك دحلة الجن في حي شعب عامر، حيث توجد بئر الحمام في هذا الحي كما توجد بئر طوي في حي جرول، وقد أخبرني التراوري أن روايته الجديدة وهي تحت الطبع تدور أحداثها في المدينة المنورة، وتحمل هي الأخرى اسماً شعبياً في المجتمع المدني وهو (ميمونة).

تيار الحداثة بين نقد عبد الله عبد الجبار وتنظير فائز أبّا (١)

إذا ما أردنا الحديث عن تيار الحداثة في بلادنا فلن نحتاج إلى كثير من التنظير مثل ذلك الذي وجدناه عند مناصريها ومناوئها على حد سواء . وبالتحديد في حقبة الثمانينيات الميلادية، وكل الذي نحتاجه في هذا الشأن هو تلك الرؤية الموضوعية والتي صاحبت بروز هذا التيار نتيجة للسياق الحضاري والاجتماعي أو خفوته وليس تلاشيه كما نطن ونزعم .

بداية لا بد من القول إن تيار الحداثة الذي لمسنا وجوده الحقيقي وبسمات متكاملة وضمن أيديولوجية معينة قبل حوالي عقدين من الزمن، قد وصل إلى الساحة الفكرية والثقافية في بلادنا وذلك بعد أمد طويل من وصوله أو توطنه في كثير من البيئات الثقافية والأدبية في العالم العربي ويمكن التأريخ له من خلال قول الشاعر أدونيس المعروف وذلك في العدد ١٧ و ١٨ من مجلة (مواقف) (إن هذا العدد يشكل بالقصائد التي يتضمنها نواة لمرحلة متميزة في التجربة الشعرية الجديدة)، ويعلق الناقد السعودي الكبير عبد الله عبد الجبار على هذا المنحى بقوله: إن أدونيس يدعو إلى تغيير الشعر العربي (أي في الستينيات الميلادية). وإن هذا

التغيير ليس تغييراً في الشكل أو طريقة التعبير فحسب، وإنما هو قبل ذلك تغيير في المفهوم ذاته .

إن تيار الحداثة منذ بداياته الأولى اتسم بالعنف وهذا له أسبابه ودواعيه، ومن هذه الأسباب سيطرة تيار واحد على الساحة الأدبية آنذاك وهو ما يطلق عليه التيار المحافظ، ولقد أصاب هذا التيار شيء من الترهل بعد أن كان متوقداً أو قوياً إبان مرحلة الرواد والتي مثلها خير تمثيل إبداع الرائدان محمد حسن عواد وحمزة شحاتة ثم من أتى بعدهما من الأجيال اللاحقة المعروفة بتوجهاتها النقدية من أمثال عزيز ضياء، والربيع وعبد الرحيم أبو بكر إضافة إلى أن من سمات هذا التيار عالمياً وخصوصاً في بلد الموضوعات الأدبية فرنسا استخدامه لما يمكن تسميته بالإرهاب الفكري وينقل الناقد الإنجليزي المعروف جورج واطسن عن (بادت) ما نصه (وفي المراحل الأولى للتعصب الثوري لا يستنكف الشاعر عن استخدام شيء من الإرهاب الفكري ولقد اتخذ العنف أشكالاً عدة ويمكن حصره في هذا السؤال الذي تحرك ضمن إطاره تيار الحداثة بشيء من الحرفية التي هاجموا التيار المحافظ بسببها وهذا السؤال الحرفي هو: هل هو واحد منا أم لا).

فلقد ظلت صفحات ثقافية لمدة طويلة لا تنشر إلا لأولئك الذين ينتمون لهذا التيار وهذا أدى إلى ردة فعل معروفة وهي تبني صفحات ثقافية لوجهات نظر المنتسبين أو المحسوبين على التيار الآخر. وظلت بعض المنابر الثقافية إلى الوقت الحاضر ملتزمة التزاماً كلياً بهذه الأيديولوجية، وكأنها لا تعلم أنه بهذا الصنيع أو الانحياز قد حكمت على نفسها بالفشل أو الموت البطيء، ووصل الأمر إلى حلقات أضحت تضيق

بنفسها قبل أن تضيق بالآخر، ولا ينكر أحد أن بضعاً من أنصار تيار الحداثة بمجرد اختلافهم مع زملائهم في هذا المنحى الفكري والأدبي لا ينشرون لهم إبداعاتهم الأدبية، وكان الناقد المعروف فائز أبا - شافاه الله - أحد ضحايا الاختلاف داخل تيار الحداثة نفسها، مع أنه لا يستطيع أحد - إن كان يتفق مع وجهة نظر أبا أو يختلف معها - أن ينكر المنظر الحقيقي لتيار الحداثة، فإجاده للغة الإنجليزية إجادة تامة وتمكّنه من الأدوات الضرورية التي يجب توافرها في الناقد أو حيازته لها حيازة قوية، جعلته يتبنى العديد من المواهب الجديدة في الساحة - آنذاك.

ولكن اختلاف المريدين أو تنكرهم أو أن ثورة الحداثة بدأت تأكل أبناءها إن صح هذا التعبير كل ذلك أدى بأن ترتفع الأصوات قبل سقوط (أبا) وبدون موضوعية داخل التيار الحداثي نفسه (أبا ليس أديباً ولكنه صديق الأدباء) وهذه العبارة توضح مدى المأزق الذي وصلت إليه حركة الحداثة، وهو مؤشر غير صحي ويتناقض مع بيان أو مانفيستو الحداثة.

تيار الحداثة بين نقد عبد الله عبد الجبار وتنظير فائز أبّا (٢)

تحدثت في الحلقة السابقة عن المأزق الذي وصلت إليه حركة الحداثة في بلادنا ففائز أبّا ليس له وجود على الخارطة التي صممها ومحمد العلي ليس مبدعاً بسبب عاطفته الدينية والتي انعكست - أحياناً - وبطريقة غير مباشرة على شعره وذلك لأنه كان يرثي الأمة في وضعها الراهن مستهدياً في عملية الرثاء - هذه - بتلك الروح الوضاعة التي توفرها مناسبات دينية معينة .

لهذا وصنوه في هذا المنحى - محمد الفيتوري - يصعدان ويهبطان في ميزان عملية الربح والخسارة الحداثي وهو ميزان لم يجد من يقض عليه باتزان وحكمة ووعي وصدق، وتناولت أقلام الناشئة من الحركة رموزها الأولى فالدكتور عبد الله الغدامي - من وجهة نظرهم - مارق على الحركة لأنه نقد شعر أدونيس وتشعر أحياناً أنهم قد وصلوا إلى مرحلة بعيدة في رؤيتهم الإيديولوجية لأدونيس حتى إنه هو أنكرها على نفسه في مناسبات عدة .

إلا أن الناقد الغدامي لم يكن أول من انصب عليه عتب مريدي أدونيس، أو موقف بعض منظري الحداثة، كما هي الحال في الموقف

الذي عبر عنه الدكتور الناقد معجب الزهراني إزاء رأي عبد الجبار في الحداثة والمتضمن كتابه الصغير في الحجم، الكبير في الفكرة والمضمون والموسوم (الغزو الفكري في العالم العربي).

يقول أستاذنا عبد الله عبد الجبار في نقد أدونيس وفكره بصورة موضوعية (وأدونيس يتصور اللغة مثل آنية مليئة بأشياء ماضية، ويقول أي أدونيس: «أول ما أعمله أن أفرغ هذه اللغة من محتواها وأحاول أن أشحنها بدلالات جديدة تخرجها من معناها الأصلي.. ثانياً أبدل علاقتها بجارتها، ثالثاً أغير جذرياً النسق الموضوعية فيه» وبهذه الأفعال الثلاثة يخيل إليه أنه يمكن أن يبتكر لغة جديدة.. وهو يشعر - أي أدونيس - بأن هذا هو ما يعوّق الاستجابة لشعره، وعلى ذلك فنحن بإزاء فعل واع لإفراغ اللغة من مضمونها الأصلي وتغيير العلاقات بين مفرداتها - بل إن الغموض هدف مطلوب لهذه المدرسة)، ويرى عبد الله عبد الجبار أن رأي أدونيس في كون الغموض مطلباً بحد ذاته هو محل اختلاف ونظر.. وذلك تعليقاً على مقولة أدونيس قيمة القصيدة في المقياس الكلاسيكي العربي هي في وضوح المعنى واكتمال الشكل.. اما قيمة القصيدة بدءاً من النفري فهي على العكس - في كونها - توحى بأكثر من معنى وفي كونها لا تكتمل بل تظل مفتوحة.

ويعترف عبد الله عبد الجبار بعمق ثقافة أدونيس والتي تبنت من خلال إصداره لديوان الشعر العربي في عدة أجزاء، مؤكداً على القيمة الكامنة في هذا العمل من حيث توافر حاسة الذوق الرفيعة لأدونيس، وهذا - يذكرني بالمقولة المعروفة عن أبي تمام أنه في حماسته كان أكثر شاعرية مقارنة بما أبدعه من شعر.

ويعلق الأستاذ الكبير عبد الله عبد الجبار على قصيدة رائعة أبدعها أدونيس والتي كتبها بلغة جميلة دون تغيير في دلالاتها وعلاقاتها وهي قصيدة (الحسين بن علي) يعلق عبد الجبار متسائلاً في موضوعية: عجباً كيف يقوم أدونيس بدعوة نفى التراث مع أن أجمل شعره مأخوذ من التراث وأنا لا أعارض الحرية في تطوير الشكل الفني، فالحكم في ذلك للزمن ولكنني أتساءل: كيف تشيد مجلة مواقف بالفدائيين وتدافع بحرارة عن المقاومة الفلسطينية، ثم تستطيع بدعوتها هذه وشعرها هذا الجديد، إن الجماهير لمعركة المصير، إن علينا أن نخاطب الجماهير بروحها وفهمها وهي روح عربية وفهم عربي فهل يمكن لهذا الشعر الجديد أن يصل إلى أعماقها. . والأستاذ عبد الجبار الذي جاهر بهذا الرأي في مطلع الستينيات الميلادية - الثمانينيات الهجرية يتفق مع الرأي المطروح في الساحة عن مساحة الهم الوطني في شعر الحداثيين وكان الأستاذ والإعلامي المعروف محمد سعيد طيب يتساءل باستمرار عن هذه القضية مع إبداء إعجابه بأدونيس ولا بد أن أنصف الأخ الكاتب أحمد عائل فقيه، فلقد كنت اتفق مع الأستاذ الطيب عن الوضوح الذي تتسم به مقالاته، ولقد وجدت أن الأستاذ سعد الحميدين وهو من الجيل الأول من شعراء الحداثة يتمتع برؤية شاملة وخصوصاً فيما يكتبه من نظير نقدي ولا يزال ملحقه الثقافي في صحيفة الرياض يحتفي بالرأي الآخر. وتمثل كتابات معالي الأستاذ عبد العزيز السالم الفكرية والأدبية نموذجاً رائعاً لأخذ هذا الملحق بالتعددية المطلوبة كما أن احتفاء الملحق في سنوات خلت بكتابات جهاد فاضل والمرحوم حسن ظاظا ومتابعات الأستاذ الدكتور منصور الحازمي النقدية هي مما يجعلنا نشيد بموقف الحميدين، في وقت كانت فيه بعض الملاحق تغلق أبوابها وتوصد نوافذها أمام الرأي الآخر خوفاً منه أو حجراً عليه أو

ردة فعل لسلوكيات بعض المنتسبين لتيار الأصالة أو المحافظة . وإذا كنا قد أشرنا إلى مساوئ الرؤية غير السوية والتي تطلب حتى من أنصار التيار ألا يخالفوه في شيء أو يتعرضوا لرموزه بالنقد، فإن المد وصل إلى شخصية الدكتور الحازمي نفسه والذي يمثل هرمًا كبيراً تلقتني في رحابه كثير من التيارات المختلفة، فلقد كان للحادثة موقف من الناقد الحازمي - فقط - لأنه لا يؤمن بالتجريب ولموقفه المبدئي من قصيدة النثر. ولقي الحازمي من الجحود ما لقي، ويبقى الأشد على النفس ظلم أولئك الذين ترك لهم الرائد الحازمي الأبواب مشرعة في الوقت الذي كان هؤلاء في أمس الحاجة لنسمة هواء ولمسة صادقة من حنان الأبوة.

مصطفى بدوي وستانلي هايمان والكشف عن أبعاد تجربة ت. س إليوت

لقد أشرت إلى الجهد المبذول في ترجمة كتاب (الأدب العربي الحديث) والصادر عن جامعة (كيمبردج) البريطانية والذي قام بتحريره الباحث الأكاديمي المعروف محمد مصطفى بدوي ويلاحظ اهتمام الباحث (بدوي) بالمرسح وكان الفصل التاسع من الكتاب المذكور والذي كتبه المحرر نفسه يتطرق إلى المسرحية العربية - التطورات المبكرة - والأشكال التقليدية للفن المسرحي وقام بترجمة هذا الفصل ابتسام صادق - وقد بدأ اهتمام (بدوي) بالمرسح وما يتصل به من إبداع شعري منذ الستينيات الميلادية عندما أصدر كتابه (دراسات في الشعر والمسرح) وبين يدي الطبعة الثانية من هذا المؤلف الهام والتي صدرت عن الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٧٩م ووقع في يدي هذا السفر الهام أثناء رحلتي العلمية الأولى إلى القاهرة عام ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م. ويذكر بدوي في مقدمة كتابه هذا بأن المقالات التي ضمنها عمله الأدبي (تتعلق بمسائل حية تهم الشعر العربي حاضره ومستقبله كما أن لها دخلاً كبيراً في تذوقنا وتقويمنا للشعر القديم)، ويضيف د. بدوي عند حديثه عن تأثر الشعر العربي الحديث بالشعر الأوروبي والفرق بين الأدبين العربي والغربي في وظيفة الفن وما

يؤديه من دور . . يقول (بدوي): ولما كانت بعض المحاولات الحديثة التي تستهدف التجديد في الشعر العربي متأثرة إلى حد بعيد بالشعر الأوروبي وبالمفاهيم النقدية الأوروبية لذا كان لازماً علينا أن نقف موقفاً نقدياً من أساسه إزاء الشعر العربي القديم من ناحية، فنستعرض بعض ملامحه وصفاته الأساسية كما كان لازماً علينا أن نوسع من نظرتنا بحيث تشمل الشعر الأوروبي - أيضاً - فنقارن بين التراثين العربي والأوروبي لنرى ما يتميز به كل منهما وهكذا اتضحت لنا بعض الفروق الهامة - بينهما - في مفهوم الفن ووظيفته ولا سيما في إدراك العنصري الشكلي بأعمق مدلولاته (انظر الشعر والمسرح د. مصطفى بدوي المقدمة).

ونجد بدوي في بعض مقالات كتابه هذا يتعرض لتجربة الشاعر والناقد المعروف (ت.س. إليوت) ويخص قصيدته أغنية حب ج. ألفريد بروفروك J. Alefred Preufroc وقصيدته الأخرى صورة سيدة بتحليل موضوعي وفني إلا أنه يرى أن هناك صعوبات عدة تتعلق بالقدرة على فهم شعر (إليوت). وإذا كان (بدوي) المتخصص في الأدبين العربي والإنجليزي عن جدارة يعترف بأن شعر (إليوت) ليست مادة سهلة بل فيه من الصعوبة والتعقيد الشيء الكثير فما بال بعض بني قومننا يرفعون أصواتهم في كبرياء وتعالٍ أنهم قد هضموا إليوت قراءة وبحثاً ويزيد البعض أنه تجاوز فهم إليوت للشعر ووظيفته وأنه - الآن - سيد الموقف في كل شيء - وأن لا أحد سواه قرأ إدوارد سعيد وإيهاب حسن أما النقد الثقافي فهو سيده في كل مكان وزمان.

يختصر (بدوي) الصعوبات المتعلقة بتعدد التجربة الشعرية عند إليوت مشيراً إلى تعدد الألوان العاطفية التي تتألف منها (ففي القصيدة الواحدة

تجد النقد والتهكم والسخرية والفكاهة والجزع والإحساس بالمأساة - معاً - ومنها أيضاً اعتماده على التلميح والاقتباس والإشارة إلى التراث الأوروبي بأسره ماضيه وحاضره بل التراث الشرقي أحياناً (المصدر السابق ص ٧٦ - ٧٨)، وإذا كان (بدوي) قد تنبه إلى تعقد التجربة الشعرية عند (إليوت T. S. Eliot) فإن ذلك راجع إلى صعوبات جمّة تعرض لها الشاعر في حياته وتنقله الفكري والعاطفي من مدرسة إلى أخرى حتى انتهى به المطاف، كما يذكر الناقد الدكتور جلال كمال الدين، (غائياً أخلاقياً مؤمناً بقيم معينة هي القيم الجماعية الدينية) (المسيحية الكاثوليكية) المتعلقة بروما أكثر من تعلقها بالكنيسة (الأنكليكانية).

ويؤكد الناقد جورج ويليام سون George William Son تأثر (إليوت) وخصوصاً في قصيدته (الأرض الخراب) بالشاعر الإيطالي المعروف (دانتي Dante) كما أنه صدر أولى قصائده الهامة أغنية العاشق (بروفرك) (Prufroc) صدرها بأبيات باللغة الإيطالية من الكوميديا الإلهية لدانتي ويشير الباحث كمال الدين إلى أن إليوت لم يفعل ذلك لأنه يريد أن نعرف أنه يعرف اللغة الإيطالية أو أنه يحبها إنما لأن تلك الأبيات التي لا يهمه سوى مضمونها تخدم قصده (انظر دراسات أدبية د. جلال كمال الدين المؤسسة العربية للدراسة والنشر ط ١ ١٩٨٥م ص ٢٦٣).

ويرى الباحث المعروف (لويس عوض) أنه لا يمكن فهم (إليوت) إلا بالرجوع إلى (الكوميديا الإلهية) لدانتي كما يشير إلى أثر الديانة المسيحية عليه وهذا البعد غائب عن منظري الحداثة العربية فبعضهم يتوهم أن (إليوت) في سعيه لتبوء مكانة رفيعة في الأدب الغربي الحديث قد تخلص من كل موروته الديني والفكري والحضاري يقول (عوض) ملقياً كثيراً من

الضوء على هذه الناحية الفكرية في حياة إليوت (وإليوت مؤسس هذه المدرسة الجديدة يكثر من الاستعانة بالتراث المسيحي - خاصة وأثر شاعر المسيحية الأول (دانتي) فيه صريح لا يقبل الجدل بل إنه لا سبيل إلى فهم (إليوت) أصلاً إلا بدراسة ملحمة دانتي المشهورة (الكوميديا الإلهية).

انظر في الأدب الإنجليزي الحديث. د. لويس عوض، الهيئة المصرية العامة للكتاب ط ٢ ١٩٨٧ س ٢٩١ - ٢٩٣.

ويرى الناقد المعروف (ستانلي هايمان) Stanley Hayman أن الكثلكة التي طبعت حياة (إليوت وكثيراً من شعره مردها إلى تأثره بـ (ت. ا. هيوم) والذي قتل في الحرب العظمى عام ١٩١٧م وعمره أربعة وثلاثون عاماً ولم تنشر آثاره إلا في سنة ١٩٢٤م وذلك عندما نشر (هربرت ريد) مجموعة من الأوراق بعنوان (تأملات) (Speculation)، وقد كان (هيوم) مترجماً عن (برغسن وسورل) وكان كاثوليكياً، عقلاً نياً كلاسيكياً عسكرياً فاشياً قبل الأوان.

ويرى د. (بدوي) أن قصيدة (الأرض الخراب) والتي كانت سبباً لشهرة (إليوت) موضوعها المجتمع الأوروبي الحديث الذي عم فيه الفساد وانعدم فيه الإيمان وغلبت عليه النزعة الآلية وساده اليأس ولا سيما بعد تجربة الحرب العالمية الأولى وهذه كلها مشكلات أوروبية في جوهرها فلا غرابة إذن إذا اهتم الأوروبيون بشعره كما أن دعوته إلى العودة إلى الدين لاقت صدى عند الكثير من الأوروبيين في فترة من تاريخ أوروبا تتميز بعدم الثقة بسلطان العقل والتبرم بالآلة والقيم المادية وبالحنين إلى الدين والحياة الروحية عامة لذلك يمكننا أن نقول: إن (إليوت) كان يعبر في شعره عن الأزمة الروحية والنفسية والاجتماعية التي كان يعانيها الرجل الأوروبي الحديث.

محمد مندور . . رائد النقد العربي الحديث

كان الجو الثقافي والفكري في العالم العربي يُوْذِن بميلاد حركة أدبية جديدة، تختلف عن تلك التي مثَّلتها «حركة الإحياء» والتي وُجِدَ صداها فيما كتبه الأستاذ عباس محمود العقاد في كتابه النقدي المعروف «شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي»، والذي كان نصيب «شوقي» فيه من النقد المُوجَّه إلى إبداعه، أكثر من أنداده، مثل حافظ إبراهيم، وإسماعيل صبري، ومحمود سامي البارودي، وعائشة التيمورية، إلا أن العقاد اعترف - ولو بطريق غير مباشر - على أثر «شوقي» في الحركة الأدبية والشعرية في مطلع القرن الميلادي السابق، ولهذا ففي الفصل الذي يسمى بعبارة «ما بعد شوقي» ما يُوحى بأنَّ الأستاذ العقاد مُتيقن بأن روح «شوقي» تغلغلت في العصر الذي عاش فيه هذا الشاعر الكبير، وليس من السهولة - بمكان - إنكار مثل هذا الأثر الذي تركته مدرسة «شوقي» في المجالين الشعري والنثري، وعندما يتحدث «العقاد» عن الجيل الناشئ بعد شوقي فلعلَّه كان من باب التوطئة للمدرسة التي أصبحت معالمها تتحد يوماً بعد آخر - وهي مدرسة الديوان - والتي تميَّز رُوادها بأنهم كانوا يجمعون بين الإبداع والنقد، يقول العقاد عن هذا الجيل الجديد المتأثر بالمدرسة الإنجليزية في الأدب والنقد «وأما الروحُ فالجيل الناشئ بعد شوقي كان وليد مدرسة لا شبه بينها، وبين من سبقها في تاريخ الأدب العربي الحديث، فهي مدرسة

أوغلت في القراءة الإنجليزية، ولم تقصر قراءتها على أطراف من الأدب الفرنسي، كما كان يَغلبُ على أدباء الشرق الناشئين في أواخر القرن الغابر، وهي على إيغالها في قراءة الأدباء والشعراء الإنجليز لم تنس الألمان والطلليان والروس، والأسبان، واليُونان، واللاتين الأقدمين، ولعلّها استفادت من النقاد الإنجليز فوق فائدتها من فنون الشعر، وفنون الكتابة الأخرى، ولا أخطئ إذا قلت إن «هازلت» هو إمام هذه المدرسة كلها في النقد لأنه هو الذي هداها إلى معاني الشعر والفنون، وأغراض الكتابة، مواضع المقارنة، والاستشهاد «شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي» لِعباس محمود العقاد، ط٣، ١٩٦٥م، ص ١٩٢.

وإذا كان وليام هازليت William Hazlitt (١٧٧٨ - ١٨٣٠م) قد عُرف في بداية حياته الفكرية صحافياً غزير الإنتاج، ومحرراً سياسياً في شؤون البرلمان، فإنه سرعان ما تحول إلى كاتب وناقد أدبي، واحتضنت الملاحق الأدبية مثل: Edinburg-Review «مجلة أدنبرة النقدية» كتاباته النقدية التي وإن لم تكن موضع إجماع من معاصريه، إلا أنه حظي بسمعة كبيرة في إنشاء فن تاريخ الأدب الإنجليزي، في الحقبة التي لم يكن مثل هذا النوع من الكتابة الأدبية معروفاً. . انظر: "The Oxford, Companion, To English Literature, Ed By Margaret Drabble Oxford 1985 P.P 444 - 4511" إلا أن مدرسة العقاد وزملائه في النقد المتأثر بالمدرسة الإنجليزية التي يقف على رأس هرمها «وليام هازلت» قد أخفقت في تقديم عمل نقدي بعيداً عن الأهواء الذاتية، والميول الشخصية، فسرعان ما انقلب العقاد والمازني على زميلهما عبد الرحمن شكري، ولم يكن حظ «شكري» بأحسن حالاً من «أحمد شوقي» ممثلي مدرسة الإحياء، والذي خصّه «العقاد» بما يقرب من «٥٢» صفحة من

النقد اللاذع، حتى إذا فرغ العقاد من رأس هذه المدرسة وزعيمها - أمير الشعراء - أفرغ الكاتبان ما في نفسيهما من شحنة الغضب المتأثرة بالخصوم الشخصية البحتة، ونعتا رفيق دربهما بـ «صنم الألاعيب»، بل إنَّ القارئ ليصدم جداً بمثل هذا النوع من الكتابة - البعيدة كُلَّ البعد - عما تعهد به العقاد والمازني في مقدمة كتابهما النقدي «الديوان» حيث وصفا مذهبهما بأنه مذهب إنساني، مصري، عربي، إنساني لأنه من ناحية يترجم عن طبع الإنسان خالصاً من تقليد الصناعة المشوَّهة، ومظهر الوجدان المشترك بين النفوس قاطبة «انظر الديوان، لمؤلفيه: عباس محمود عباس العقاد، إبراهيم عبد القادر المازني، ط ٣، الشَّعب، المقدِّمة»، وسبب الخصومة أن «شكري» كتب في مقدمة الجزء الخامس من ديوانه تحليلاً أشار فيه إلى إغارة زميله «المازني» ووضح فيه بأن المازني، إنما ترجم هذا الشعر، ونسبه إلى نفسه، ولقد اعترف المازني بقراءة شعر هؤلاء، ولكنه هاجم شكري هجوماً عنيفاً في الجزء الأول من كتاب «الديوان في الأدب والنقد»، وعنوان نقده لشكري بـ «صنم الألاعيب»، «انظر: مدرسة الديوان، ثالوث التجديد في الأدب العربي الحديث، يسوقه محمد عبد السلام، الدار البيضاء ص ١٣».

وفي الوقت الذي أطلَّت مدرسة الديوان برأسها على المشهد الثقافي والفكري، كانت مدرسة المهجر تُصدِّر بيانها الأدبي المتمثل في كتاب «الغربال» الذي كتب مقدمته الأستاذ العقاد في مارس ١٩٢٣م، وكانت مدرسة «أبولو» التي انضوى تحت لوائها شعراء مثل، أحمد زكي أبو شادي، محمود حسين إسماعيل، علي محمود طه، حسن كامل الصيرفي، إبراهيم ناجي، صالح جَوَدَت، أبو القاسم الشَّابي «تقتحم الميدان الشعري بنفْسٍ رومانسي جديد، هذا هو المشهد أو الجو الفكري والثقافي من

أعماق الريف، والمنتمي كما يقول د. محمد برّادة «إلى أسرة مسلمة مُحافضة، ومنتشبة بالأدب العربي القديم» انظر «محمد مندور وتنظير النقد العربي، ط ٢، ١٩٨٦م، القاهرة، ص ٢٥»، ولكن ثمة عوامل أخرى تدخل في تكوين هذه الشخصية التي ارتبط «مصطلح النقد الحديث» بها أيما ارتباط، فكان تأثير كتابات «مندور» التي برزت في «النقد المنهجي عند العرب» وفي «الأدب والنقد» و «الأدب ومذاهبه» و «النقد والنقاد المعاصرون» و «في الميزان الجديد» تأثيراً قوياً ومحددًا، حتى ليحق أن يُطلق عليه رائد النقد العربي الحديث.

إن النقد هو فن من فنون الإبداع الأدبي، ولا يمكن فصل الأدب عن السياق الحضاري والفكري للأمة، فهذه الفنون تشهد انطلاقها عندما يهيئ لها السياق - نفسه - وبطريقة غير مباشرة وسائل القوة التي تمكّنها من بلوغ الغاية التي تنشدها والهدف الذي ترمي إليه، ثم إن هناك سبباً آخر لحالة الركود هذه، وهو أن بعض المحاولات النقدية لم تتضح ظروفها - بعد - لتؤدّي دوراً قوياً وفعالاً في الحركة الأدبية والنقدية، وهو ما دعاه الناقد الراحل الدكتور «شكري عياد» بالنقد المتعجّل رابطاً بينه وبين عدم التريث أو التمحيص أو الوعي بالسياق الغربي الذي أفرز تيارات أدبية مختلفة، قال المرحوم «عياد»: نقد الجيل الراهن هو بكلمة واحدة متعجّل في الأخذ من المذاهب النقدية الغربية، متعجّل في محاولة ابتداء ما يسمونه نظرية عربية في النقد، وكلا الأمرين لا يؤخذ هكذا بالعنف وأضاف. الراحل الكبير يقول: «الأمر تحتاج إلى نضج والفكر الجديد يتكوّن من شتى الروافد، لكي يَبني نفسه من داخله، وهذه عملية طويلة الأمد»، انظر: «ثقافة اليوم، صحيفة الرياض، ٢٢ جمادى الأولى،

١٤٢٠هـ.. إن الدكتور «عيّاد» يضع يده على المنهج الصحيح في النظر إلى قضية النقد العربي، وهي البناء من الداخل، بمعنى أنه لا يمكن الاستغناء عن الموروث الأدبي العربي لبناء قويم ومتماسك لهذا الفن الهام من فنون الأدب ونعني به النقد.. يمكن للأديب أن يكون مبدعاً وناقداً ففي الأدب الغربي يُعتبر ت. س. إليوت T. S. Eliot، صاحب القصيدة الأشهر والأجمل في الأدب الغربي الحديث، «الأرض الخراب» The waste land، يعتبر إليوت أديباً مبدعاً ومنظراً نقدياً تعرض لكثير من الأعمال الشعرية السابقة على عصره أو المعاصرة له بالنقد الجيد والبناء، وفي أدبنا العربي يمكننا الاستدلال على هذه الناحية بالأديب الكبير طه حسين، فهو في (الأيام) مبدع، وفي حديث الأربعاء ناقد. وفي أدبنا الحديث - في الجزيرة العربية - يمكن الإشارة إلى بيان حمزة شحاته الشعري» وهي المقدمة التي كتبها «لشعراء الحجاز في العصر الحديث» للأستاذ المرحوم عبد السلام طاهر السامي، وهذه المقدمة التي مضى على كتابتها حوالي نصف قرن من الزمن تنبئ في معانيها ولغتها عن حس نقدي متميز، لا يقل إبداعاً وتميزاً عن شعره الذي ضمه كتاب الشعراء الثلاثة للمرحوم السامي ويسري الأمر - نفسه - على الأستاذ الكبير عزيز ضياء فلقد كان مبدعاً وناقداً، وأجد عمله الأدبي المعروف (في أدبنا قيمة عُرفت ولم تكتشف) - يعني حمزة شحاته - مثلاً حياً لعمل يجمع بين الإبداع الأدبي المتميز - في لغته الرصينة وصوره المتألقة - وبين النظرة النقدية الموجودة في ثنايا وصفه «لشحاته» ومواهبه المتعددة. لا شك بأن النكبات التي مرت بها الأمة العربية كان لها مردود سيئ على واقع الثقافة. العربية والأدب جزء من تلك الثقافة والسبب الآخر هو أن بعض المنظرين للأدب والنقد في عالمنا العربي لم ينظروا إلى حقيقة هامة وهي أن مسار الأدب

الغربي له خصوصياته التي لا يمكن فرضها بالقوة على الأدب العربي بعد اجتزائها من مسارها الحضاري والفكري، ففي الخمسينات والستينات بعد انتشار الاشتراكية في بلدان العالم الثالث، حاولت المؤسسات السياسية في بعض أقطار العالم العربي فرض المذهب الواقعي فرضاً، ويتحمل بعض المنتسبين إلى المؤسسات الفكرية والأدبية جزءاً كبيراً من هذه المسؤولية، فلقد قمعوا لإرضاء، المؤسسات التي أخذت بالنظرية الاشتراكية، كل من لم يتقيد بالمذهب الواقعي. وأشير هنا إلى الكاتب القصصي المعروف محمد عبد الحليم عبد الله، فلقد عمت الأوساط الأدبية على إبداعاته لأنه رفض الخضوع لهذه الهيمنة وذلك التسلط، وكذلك الأمر بالنسبة للأديب الكبير محمد مصطفى صادق الرافعي الذي ظلم ظُلماً كبيراً لأسباب تتعلق بالمنهج الذي أراد أن يستقل به عن الآخرين، وهذا يُفسر العقلية القمعية التي يحاول الأدباء إلصاقها بالمؤسسات السياسية، فإذا هي تتمثل في سلوكياتهم وتعاملهم وهذا سرّ من أسرار التعثر الأدبي العربي في العصر الحديث، وهو الأمر - نفسه - عندما شاعت موجة المذهب الأدبي «البنويّة» فكل من لم يأخذ بهذا المذهب الذي وصل إلى بعض أقطار العالم العربي - متأخراً - وبعد تلاشي فورته في الغرب - البيئة الحقيقية لنشأته - كل من لم يتدثر بالبنويّة فهو خارج السياق ولا بد من مناصبته العداء، بينما الأمر في الغرب مختلف كل الاختلاف، فإنه يمكن في الغرب أن تتجاوز تيارات أدبية عدة دون أن تضطر إلى إلغاء بعضه البعض، بل إن الأدباء الإنجليز رفضوا لخصوصياتهم الثقافية هذا المذهب الأدبي - أي البنويّة - ولم يسع الفرنسيون لفرضه عليهم بالإكراه ويمكن هنا الاستشهاد بقول الناقد الإنجليزي جورج واطسن (George Waston) في كتابه المعروف «الفكر الأدبي المعاصر».. يقول «واطسن»، مما يصلح

أن يكون درساً للمتحمسين من جميع الاتجاهات في البلاد العربية المتوقع منها أو المتسرع والمفرط في انفتاحه: (ليس النقد الإنجليزي - الأمريكي - مستعمرة من مستعمرات «باريس»)، ولذلك لم يتحول الكثيرون من نقاد العالم المتحدث بالإنجليزية إلى البنيوية في الخمسينات والستينات، على حين أن أولئك الذين اعتنقوا «البنيوية» لم ينتجوا أكثر من مؤلفات قدموا فيها أفكار أساتذتهم من باريس، ويضيف «واطسن»، في السبعينات الميلادية - أن البنيوية - قد ماتت مorte طبيعية «وعلى الرغم من أن البنيوية هي الآن مدرسة ميتة لا تظهر إلا في هيئة أشباح لنظرية، فإن بعض هذه الأشباح لاتزال تتردد على التراث النقدي بشدة تستحق المناقشة، وهي غالباً - أي البنيوية - تُقلل من شأن عقلانية الإنسان، أليس في هذا درس عملي لنا في العالم العربي عندما نريد أو نسعى لأن نكون أكثر حماساً وتشدداً من أصحاب الملكية الأصليين.

قنطرة الإبداع من الشعراء الثلاثة إلى ما وراء السراب

بعد توحيد جزيرة العرب على يد المغفور له الملك عبد العزيز، وائتلاف القلوب والبعد عن التنازع بالأنساب والألقاب مما شكّل دعامة هامة من دعامات البناء الوطني، أخرج الراحل محمد حسن عواد كتابه الأدبي المعروف (خواطر مصرحة)، وأهداه إلى بلاده وأمته. ويعتبر العواد بهذا ليس رائداً في الكلمة الأدبية فقط، ولكنه الراحل الذي أدرك مخاطر التفكك، ومزالق التنافر وحتمية التوجه إلى المستقبل تحت راية واحدة، وإننا كما كنا بالأمس بحاجة إلى تمعن ما افتتح به كتابه من نفثات وطنية - اليوم - أكثر حاجة إلى الوقوف عندها والتعمق في دلالاتها الكبيرة. إلى بلادي.. هذه هي العبارة التي توج بها العواد إهداءه إلى بني قومه في جزيرة العرب ومهد الإسلام وموئل حضارية، ثم أردف عبارته هذه بأبيات شعرية تحمل التجديد - الحق - الذي انتظرته الأمة كثيراً.

نفثات حر هذه

لك من فؤادي يا بلادي

أنا لا أقول لك اقربها

في المجامع والنوادي

وترنمي بنظيـمها

ونثـيرها ترنـيم شادي

لكن أقول لك اذكري

إنـي أذبت بها فؤادي

كيما ألبـي داعياً

في النفس قام بها ينادي^(١)

وكانت كلمات المرحوم محمد سرور الصبّان الذي أخذ على عاتقه نشر هذا الإصدار المتميز في تاريخنا الأدبي تدل على تلك الروح القوية والتي تسري في نفوس وعلى أقلام أرباب الكلمة الحرة في بلادنا.

يقول الأديب الوطني (الصبّان): لقد طلع الفجر فاستيقظنا، ونادانا الواجب فلبينا، وبدأنا نسمع صوتنا لمن أنكرنا، وصرّنا نكتب ونشعر، نكتب لنعلم كيف نكتب، ونشعر لنعرف كيف نشعر.

ولقد حمل إلينا كتاب (الشعراء الثلاثة في الحجاز) للأستاذ المرحوم عبد السلام الساسي إنتاج أولئك المبدعين الذين عايشوا حقبتين، مختلفتين، وعبروا عن واقعهم الاجتماعي خير تعبير، ومنذ خروج كتاب الأستاذ الساسي المذكور ارتبط أدبنا ارتباطاً قوياً بهؤلاء الرّواد وهم: حمزة شحاته، ومحمد حسن عواد، وأحمد قنديل^(٢).

.. إلا أن دائرة المبدعين تعدّت الشعراء الثلاثة - بعد ذلك - إلى ما يقرب من أربعة وعشرين شاعراً وأديباً يمثلون مختلف التيارات الشعرية -

(١) خواطر مصرّحة، محمد حسن عواد، ط٢، ١٣٨٠هـ - ١٩٦١م.

(٢) الشعراء الثلاثة في الحجاز، جمع عبد السلام الساسي، مكة المكرمة: ١٣٦٨هـ.

آنذاك - وذلك في كتاب (شعراء الحجاز) وإن ظل الشعراء الثلاثة حاضرين بقوة مذهلة بين ذلك العدد الكبير من المبدعين، ولهذا نجد الأستاذ (شحاته)، الذي كتب مقدمة هذا الكتاب الذي أتى صدوره بعد عامين من صدور كتاب الشعراء الثلاثة، يخصص بالثناء عدداً ضئيلاً من هؤلاء المبدعين وذلك عندما ختم مقدمته أو بيانه الشعري بقوله: (وبعد فإن من شعراء هذه المجموعة من لا يفخر الحجاز - وحده - بهم وبقيّة، بل كل بلد عربي وهم السرحان، وعواد، وقنديل، وحسين عرب، وأشباهه في معظم السمات وفي بعضه دون جملتها^(١)).

ونجد من شعراء المدينة الذين ضمهم كتاب الأستاذ الساسي الأخير أسماء من أمثال: محمد عمر توفيق، وعلي حافظ وحسين قاضي - رحمهم الله - وعبد الرحمن رفة - أطال الله بقاءه - ولا نعلم لماذا غاب إنتاج عبد الله مدني عن هذه المجموعة مع أنه كان من أوائل الشعراء الذين عبروا في شعرهم عن حب صادق لهذا الوطن، وهذا ما تُمثله قصيدته التي أبدعها قبل التّمام كيان هذا البلد وإقصائه لعوامل التناحر القبلي والطائفي، لقد رفع السيد عبيد صوته في غرة ربيع الأول من عام ١٣٤٤هـ بهذه الأبيات التي تفيض بالمشاعر الوطنية الصادقة:

هذي المدينة أصبحت ألعوبة

صماء بين زعانف وغواة

يستاقها النفر الرعاع ذليلة

(١) شعراء الحجاز في العصر الحديث، عبد السلام الساسي، مطبعة دار الكتاب العربي،

لموارد الولايات والنكبات

الحكم فوضى والمطامع جمة

والشعب بينهما فريسة عاتي

حال تذوب لها الضمائر لوعة

والموت فيها أهون الحالات^(١)

وفي سنة ١٣٧٤هـ، قدم إلى المدينة المنورة الأديب الذي ملأ الدنيا وشغل الناس (طه حسين)، وقف عميد الأدب العربي أمام القبر الطاهر والشريف فأخذه جلال الموقف وعندما طالبه بعض رجال الفكر والأدب في البلدة الطاهرة - ومن بينهم السيدان علي وعثمان حافظ، والأستاذ عبد العزيز الربيع - رحمهم الله، التحدث عن الموقف لم يزد على القول:

(كيف أستطيع الكلام في بلد صاحب الرسالة عليه أفضل الصلاة والسلام، إنني أجد نفسي مأخوذاً بجلال الموقف، وهيبة هذا البلد المقدس، وذكرياته العظيمة في تاريخ العالم، ولا أستطيع أن أقول شيئاً إلا أنني أحيي صاحب الرسالة ثم المدينة وأهل المدينة^(٢)).

وأردف العميد - متواضعاً في الحضرة النبوية الشريفة - القول: وأنتم هنا في المدينة المنورة، مدينة السلام، تعيشون هذا الإحساس، ولقد وددت الاستطراد في الحديث، ولكن أنى لي هذا، والله سبحانه وتعالى يقول

(١) التيارات الأدبية الحديثة في قلب الجزيرة العربية، عبد الله عبد الجبار، ١٩٥٩م، ص ١٤٥ - ١٤٦.

(٢) صور وذكريات عن المدينة المنورة، عثمان حافظ - نادي المدينة الأدبي، ط ١، ١٤٠٣ - ١٩٨٣م، ص ١٢٨ - ١٢٩.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾^(١) (الحجرات: ٣).

وعند وداعه لمدينة الحبيب ﷺ طلب منه الأستاذان أحمد عبد الغفور عطار وناصر المنقور، أن يستمع لصوت فتى يافع من فتيان المدينة - لم يبلغ بعد - الثانية عشرة من عمره. وكان الفتى قد تفتق لسانه عن شعر صادق، فقال على مسمع العميد المتأدب:

أسمع العالمين لحن الخلود

وأنز بالبيان كل الوجود

جئت يا ذا اليراعة أشكو

حال قوم لم يقتدوا بالجدود

أيها القوم جددوا كل عزم

واجمعوا كل طارف وتليد

إنما العز بالمعارف والإيمان

لا بالتهريج والتقليد

هو ذا صوت أحمد من وراء

الغيب يدعوكم لدنيا الصعود^(٢)

وتحدث طه حسين يسأل الفتى المدني عن اسمه وعمره، ومستواه الدراسي، فأجاب الفتى بلسان عربي مبين، ولم يكن ذلك الفتى - آنذاك - سوى الأديب الشاعر الأستاذ محمد كامل خجا.

(١) أفكار من المدينة المنورة، محمد كامل خجا، دمشق، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م، ص ٤٤ - ٤٧.

(٢) المصدر السابق، ٤٦.

وفي عام ١٣٧٣هـ أصدر الأستاذ محمد هاشم رشيد - يرحمه الله - ديوانه الأول (وراء السراب) وكان يبلغ من العمر حوالي خمسة وعشرين عاماً، وكتب صديقه السيد عبد السلام حافظ مقدمة لهذا الديوان، ووصفه بالشاعر الملهم وقال عنه بأسلوب رومانسي - هو وليد تلك الحقبة التي عرفت مدرستي الديوان وأبللو التجديديتين «هكذا دائماً هو الشاعر الملهم السيد هاشم - حاضر البديهة، يفيض بالأحاسيس، ويبدع بالأنغام، ويعربد بالأنشيد والخيالات ومصدر كل هذا وجدانه السليم، السامي، وقلبه اليقظ الطروب الذي لا يعرف غير الصفا والمرح، وهو في قصائد ديوانه يتمشى مع مذاهب التجديد التي تتكوّن لها اليوم مدرستها الخاصة»^(١).

وفي السنة نفسها أصدر أحد مؤسسي أسرة الوادي المبارك وهو السيد ماجد أسعد الحسيني ديوانه الأول الموسم (حيرة)، إلا أن الأستاذ عبد الفتاح أبو مدين ذكر في (علامات) أن هناك ديواناً مخطوطاً للحسيني (النجوي) ويرجع تاريخ قصائده إلى الستينيات الهجرية^(٢)، وكتب مقدمته الأستاذ القاص أحمد رضا جوجو بتاريخ ١٦/٥/١٣٦٤هـ.

لقد ساهم المرحوم محمد هاشم رشيد في إثراء الحركة الأدبية في المدينة من خلال أسرة (الوادي المبارك) و(نادي المدينة الأدبي) ووزارة الإعلام، كما ساهم مع زملاء له من أمثال الشعراء: عبد السلام هاشم حافظ، وماجد الحسيني، ومحمد العيد الخطراوي، وحسن الصيرفي، ومحمد العامر الرميح، ومحمد كامل خجا في تطوير بنية القصيدة الشعرية

(١) وراء السراب، محمد هاشم رشيد، مصر، ١٩٥٣م.

(٢) من حديث الشعر، عبد الفتاح أبو مدين، (علامات في النقد) المجلد الحادي عشر، رجب ١٤٢٢هـ - سبتمبر ٢٠٠١م.

الحديث في بلادنا وذلك مع نظراء لهم من أمثال: حسن عبد الله القرشي،
وعبد العزيز الرفاعي، وعبد الله إدريس، وطاهر زمخشري، وسعد البواردي
وحمّد الحجي وغيرهم، فاصبحت القصيدة على أيديهم أكثر التصاقاً بهموم
الفرد، والأقدر على التعبير عن تطلعاته وأمانيه ونأوا بها عن طلاس القول
في الأدب القديم والحديث - معاً - ولهذا كانوا روّاداً يستحقون من أمتهم
كل حب وتقدير وثناء، ورحم الله الأستاذ (الرشيد) الذي قادنا إلى هذه
الإطلالة العجلى على مراحل تطور أدبنا المحلي المتجذر في تاريخ الأمة
رؤية وعاطفة وحساً وطنياً صادقاً.

لماذا يَسْرِقُ المَبْدَعُ وَيَسْطُو البَاحِثُ؟؟

لقد سُئِلَ الراوية والناقد عمرو بن العلاء: أَرَأَيْتَ الشاعرين يَتَفَقَّانِ فِي المَعْنَى وَيَتَوَارِدَانِ فِي اللَّفْظِ، لَمْ يَلْقَ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ وَلَمْ يَسْمَعْ شِعْرَهُ؟ قَالَ: تِلْكَ عَقُولُ رَجَالٍ تَوَافَتْ عَلَى أَلْسِنَتِهَا. وَسُئِلَ أَبُو الطَّيِّبِ عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ فَقَالَ: الشُّعْرُ جَادَّةٌ وَرُبَّمَا وَقَعَ الحَافِرُ عَلَى مَوْضِعِ الحَافِرِ.

توضَّح مثل هذه الأقوال مدى اهتمام النُّقَد العربي بالموضوع الذي اتَّخَذَ مُسَمًّى (السَّرِقَاتُ الأدبية). وفي العَصْر الحديث تصدَّى الناقدون لدراسة هذه الظَّاهِرة فكتب الدكتور بدوي طبانة - رحمه الله - كتابه المعروف (السَّرِقَاتُ الأدبية) «مكتبة نهضة مصر، (١٣٧٦هـ - ١٩٥٦م)، وتوسَّع المرحوم الدكتور محمد مصطفى هدازة في هذا الموضوع فأخرج دراسته العلمية الموسَّعة «مشكلة السَّرِقَات في النُّقَد العربي» - دراسة تحليلية مقارنة، وصورت في طبعات عدَّة منها الطبعة التي خرجت عن المكتب الإسلامي (١٤٠١هـ - ١٩٨١م). وإذا كان موضوع السَّرِقَات الأدبية انحصر في الماضي في موضوع الإبداع الأول عند العرب وهو الشُّعْر، إلَّا أَنَّ اتَّسَاع المفاهيم الثقافية في العَصْر الحديث أدَّى إلى اتَّسَاع الدَّائِرَةِ فيما يُسَمَّى بالسَّرِقَات الأدبية. فإذا كانت السَّرِقَات الأدبية في الماضي اقتصرَتْ عَلَى أدبية مُعَيَّنَةٍ فَإِنَّهَا - اليوم - شاملة عامَّة تتخطَّى

الأدبَ لتحيط بميادين الحياة المختلفة مع التقدم العلمي والتكنولوجي الرّاهن، ولاهتمامنا - الآن - بالناحية الشّعريّة، فإننا نلاحظ هذه المسألة قد اتّخذت لها بُعداً جديداً مع غزارة التّرجمة عن اللّغات الأخرى، وانتشار ما يُسمّى بقصيدة «النّثر»، أو الشّعْر الحر الذي هو تَقْلِيدٌ أَعْمَى لهذه التّرجمات ممّا يُسهّل على كثيرٍ من المترجمين انتحال كثير من القصائد المترجمة، خصوصاً إذا كانت اللغة المترجمة منها قليلة الانتشار في بلد المترجم، وكم من شاعرٍ كبير في أيامنا هذه ثبتت سرقاته المُترجمة عن الأسبانية أو الإنجليزية، أو الفرنسية أو السريانية مثلاً كما «انظر: علي يوسف نور الدين، السرقات الأدبية هي مُحَرَمَةٌ أم أنها تفاعلٌ حضاريٌّ لا بُدّ منه؟ صحيفة الحياة، الأحد، ٧ «يوليو» ١٩٩١م، ٢٥ ذو الحجة ١٤١١هـ، العدد: ١٠٣٧٩».

ولعلّه يُقصد من وراء العبارة السابقة (وكم من شاعرٍ كبير؟) الكتاب الهام الذي خَرَجَ في الوقت نفسه الذي كُتِبَتْ فيه الدّراسة السابقة في صحيفة الحياة، وهو عامٌ ١٩٩١م، هذا الكتاب الذي حاول البعض التّعقيم عليه لأسباب شللية هو «أدونيس منتحلاً» للكاتب كاظم جهاد...، أفريقيا الشرق، ١٩٩١م، ويذكر الكاتب حيثيات وضع هذه الدّراسة قائلاً «ولم يخطر على بالنا وضع كتاب فيه إلّا بعدّما تراكمت حوال انتحالاته أي أدونيس وثائق وشواهد جعلت كلّ سلوك يُندو معادياً للمساهمة في جريمة سَطو على التراث الإنساني لا يمكن تبريرها بأي من الدوافع الإبداعية وغير الإبداعية» «انظر، أدونيس منتحلاً، توطئة، ص ١٠».

ويختم كاظم دراسته هذه والتي جاءت في حوالى ١٨٠ صفحة بنتيجة يشير فيها إلى أنّ القسم الخاص بالانتحال يستحق خاتمة نقول فيها، بلا

ادّعاء بأخلاقية أو مثليّة هذه الكلمات لم تعد تحرك ساكنَ أحدٍ منذ فقدتْ الناس، كم لاحظ «أندريه بریتون» حسَّ الفضيحة مدى الشُّطط الذي يبلغه «أدونيس» عبر ممارسته الانتحالَ على هذا النّحو المُخزن، شطط بإزاء اللغة، بإزاء العالم، وبإزاء نفسه، بإزاء الإنسان القابع في نفسه، ولقد لاحظنا كيف يتدرّج في انتحالاته هذه، من الانتحال الموجز «جملة أو بعض جُمْلَة، إلى الانتحال الشّامل قصيدة أو بعضها، مقالة أو بعض مقالة». كما يتّهمه كاظم بأنّ انتحاله من النّفري وبرنار ديسياني هو انتحالٌ سافرٌ لا إسنادَ فيه ولا إشارة.

ولقد سَطّا بعض الأكاديميين في دراساتهم عن المرأة في العالم العربي على كتابات «مَيّ غُصُوب» النّاشرة اللبنانيّة المعروفة والمقيمة في لندن والمسؤولة عن أشهر مكتبة عربية فيها «السّاقبي» ولكن معرفتي بـ «مَيّ» غُصُوبٌ منذ بداية الثمانينات الميلادية كأديبة وكاتبة مهتمة بقضايا المرأة بغضّ النظر عن الإتفاق أو الاختلاف معها - يقودني إلى القول أنّ حيّاء «غُصُوب» منعها من الإدلاء برأيها في موضوع ذلك السّطو السّاخر والذي قدّم على شكل دراسة نقدية موضوعية نُشرَتْ في ثقافة «عكاظ» قبل أعوام. وقد طلب الزميل الدكتور مرزوق بن تُنباك ممّن اتّهم بالسّطو المتعمد للدّفاع عن نفسه - أمام هذا الاتهام - فَرَضَ، كما سَطَى البعض على أفكار الناقد عابد خزندار في التّقْدِ الثّقافي الذي كان له فضل الرّيادة في الكتابة عن هذا النوع من التّقْد قبل ما يقرب من قرنين، وهذا التّقْد - أي الثّقافي - عُرِفَ في أوروبا منذ القرن التاسع عشر الميلادي، بينما ارتفعت أصوات البعض لتزعم ريادة هذا الضّرْب من الدّراسة التّقْدية ليس في جزيرة العرب - وحدها - ولكن في العالم العربي بأكمله، واليوم تفتح

صحيفة الندوة في ملحقها الذي شهد قفزة نوعية بعد تولي الأستاذ والباحث الأدبي المعروف «حسين الغريبي» مسؤولية الإشراف عليه - نعم لقد فُتِحَتْ هذه الصحيفة قضية سرقة بين أكاديمي إماراتي وآخر سعودي، مما يُبطل مفهوم الريادة التي نسبها البعض - لنفسه - في مشروع النقد الثقافي، ولعلَّ مرد وقوع بعض الأسماء الكبيرة في قضايا سطو واضح مرده إلى التَّرجسية التي يعيشها بعض الأكاديميين «العرب»، فمجرد ذبوع اسمه داخلياً أو خارجياً يبيح لنفسه تحت مظلة هذه الشهرة ما لا يبيحه للآخرين، إضافةً إلى أنَّ بعض الأكاديميين تقتحم ميادين معرفية لا تمتُّ إلى تخصُّصه الأصلي بصلة، ويمكن إدراجها في ميادين اهتماماته الثانوية - مع إصراره غير الحقيقي أنَّ هذا هو جَوْهرُ دراسته في الجامعات الغربية - والاهتمام مَيِّدانَ آخر غير التخصُّص - وربما لم يتسنَّ لهذا الأكاديمي امتلاك الحدِّ الأدنى من أدوات المعرفة ما يؤهِّله لاقتحام تلك الميادين البعيدة كُلِّ البُعدِ عَنْ تخصُّصه؛ فيضطر إلى التَّسلُّل إلى كتابات الآخرين والاعتداء والسَّطو عليها. ولو أنه أشار إلى اقتبساته منها لكان الأمر أهْوَن بكثير مِنْ التعدي غير المَشروع أو المبرَّر، ثم الرفض تكبُّراً وتعالياً على الاعتراف بالحقيقة ثم التَّواري عن الأنظار حياءً.

روبنسون والموقف الديني في ديربان

شاهدنا مفوضة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان «باري روبنسون» وهي تُحتجز في الأراضي العربية المحتلة عند قيامها بزيارة الكيان العنصري ومناطق السلطة الفلسطينية وأظهرت «روبنسون» شيئاً من التذمر أمام كاميرات التلفزيون، ولكن يبدو أن ذلك التذمر كان تمثيلية هزلية من شخصية «روبنسون» التي تعود لأصل إيرلندي ومعلوم أن الإيرلنديين متمسكون بديانتهم المسيحية وهذا التمسك من قبل أفراد جماعات مسيحية يقودهم إلى التطرف في كثير من الأحيان في مشاعرهم العدائية ضد العرب والمسلمين، بينما يعتبر هذا الجناح المسيحي المتشدد والمسيطر الآن - على كثير من المؤسسات الغربية وهي: أن الولاء لليهود والصهيونية واجب ديني مقدس وأنه يحق لليهودي أن يقتل الغير طغلاً كان أو شيخاً، وأن اليهودي له مكان محجوز في الجنة - بحسب العهد القديم. وعندما سألت شخصية مسيحية متشددة في أواسط الثمانينات الميلادية في بريطانيا، ما رأيك إذا ما كان اليهودي من صنف مجرمي الحرب والسفاحين من أمثال «بيجين» و «شامير» و «شارون»؟ هل هو - الآخر - له مكان محجوز سلفاً في الجنة؟ فأوماً برأسه إيجاباً، وهذا الجانب يجب أن نوليهِ اهتماماً كبيراً عند تفسير بعض المواقف الغربية سواء كانت هذه المؤسسات الغربية سياسية أو فكرية، أفراداً كانوا أم جماعات، فهؤلاء - بحسب معتقدتهم

المُستند إلى العهد القديم يَرَوْنَ أَنَّ سفك دماء المسلمين على يد اليهود أمراً لا يثير الاشمئزاز ولا يستوجب الإدانة مُطلقاً - ولهذا فصورةُ الطُّفل «محمد جمال الدُّرّة» والذي قتلته القَوَّاتُ الإسرائيليَّةُ وهو يَحْتَمِي بحضنِ والدِهِ لم ولن يُؤثِّر في صورة اليهوديِّ عند الغربيين ولهذا فإنَّ الحديث عن كيفية التَّأثير في العقلية الغربية إزاء اليهود والصهيونية هو مِنْ الصُّعوبة بمكان، للاستناد الغربي - إلى العهد القديم في كل ما يتصل بإسرائيل ووجودها كدولة.

العهد القديم هو الذي كتب عنه الباحث «ارنست بيغين» قائلاً: «العهد القديم هو أشدُّ الكتب بُعداً عن الأخلاق فهو كتابٌ يدعو إلى القسوة والقتل وسفك الدِّماء في كُلِّ سِفَرٍ مِنْ أسفاره». وقد ذكر الكاتب الفلسطيني الأصل، والأمريكي الجنسية - أخيراً - في صحيفة الحياة، «الأحد، ٩ سبتمبر، ٢٠٠١م، ٢١ جمادى الآخرة ١٤٢٢هـ» «أنَّ نموذج السِّرد الرئيسي المُهيمن على التفكير الأمريكي لا يزال بحسب ما يَبْدُو، هو رواية «ليون يوريس» «سفر الخروج» ١٩٥٠م، وسفر الخروج هو أوَّل أسفار التوراة وأوَّل أسفار العهد القديم، ويروي السفر في كذب وصفاقة واللاعقلانية «كيف أنَّ الله كَوَّنَ لنفسه بَيْنَ أُمم الأرض شَعْباً كَتَبَ لَهُ أَنَّ يُصْبِحَ شاهداً له»، ولقد صرَّح «بيجين» و «شارون» و «بيريز» و «شامير» «بأنَّه لا يُمكن التنازل عن أرض يهودية، بمقتضى أوامر الرَّبِّ نفسه والرَّبِّ - نفسه - بحسب مُعتقدهم الخُرَافيِّ - قَدْ أَمَرَ بِكُلِّ وضوح في التوراة بطرد سكان هذه الأرض - يَعْنِي الضَّفَّة الغربيَّة - مِنْ وَجْه إسرائيل وإلَّا وَجَبَ قَتْلُ كُلِّ نَفْسٍ حيَّةٍ مِنَ الطُّفل الرِّضيع إلى الشيخ الفاني».

هذا ما تفعله إسرائيل منذ نِصْف قرنٍ مِنَ الزَّمن إزاء العرب بدءاً مِنْ

مذبحة دير ياسين، ومروراً بكفر قاسم، وقيّة، وصبرا وشاتيلا، والحرم الإبراهيمي، وانتهاءً بقتل الأطفال والشيوخ في الانتفاضة الأخيرة.

الغرب الذي يدّعي الديمقراطية والعلمانية، يُظهر أنّ دَعْمه لإسرائيل هو مِنْ ناحية سياسية - فقط - ولكن الحقيقة القائمة - فعلاً - أنّ الغربيين يُؤمنون بأساطير العهد القديم أكثر مِنْ إيمان اليهود بها، وأثبت مؤتمر «دير بان» لمناهضة العنصرية، أنّ الأوروبيين - وفي مقدمتهم الكاثوليكية - «روبنسون» أنّهم يدعمون الإرهاب الإسرائيلي انطلاقاً مِنْ الترهات التي تملأ صفحات العهد القديم، ولهذا كانوا الأكثر بشاعةً وعنصريةً، وقد كفوا سادتهم «اليهود» مِنْ أمثال السفاح «شارون» مؤونة الدفاع عَنْ الحركة العنصرية الصهيونية.

المسافةُ بين أتلي وتوني بلير

إذا كان تشرشل كمحافظ هو الحليف القويّ لأمريكا في الحرب العالمية الثانية، فإنّ خروجه من الحرب مُنتصراً لم يجعله في نظر الشعب البريطاني ذلك الرجل الذي يمكن قيادة بلدهم في زمن السلم، ولهذا جاء اختيارهم في عام ١٩٤٥هـ، على الزعيم العمّالي كليمنت أتلي C. R. Attlee. ليشكّل أول حكومة عمّالية بعد الحرب التي دُمّرت الاقتصاد البريطاني، فما كان منه إلا التوجّه نحو أمريكا التي فرضت شروطها عليه في حال رغبته الحصول على المساعدات المالية. وذهب «أتلي» إلى الولايات المتحدة التي منحته - في نظره - شرف مخاطبة الكونغرس الأمريكي فقال عبارته الشهيرة «سوف يكون العلم البريطاني مرفراً إلى جانب العلم الأمريكي في أي مكان في العالم»، وبهذا ضمنَ بهذا التحالف بقاء حكومته العمالية في دوانغ ستريت حتى عام ١٩٥١م، وكان تجاوز أنتوني إيدن Anthony - Eden، للخطّ الأحمر في عام ١٩٥٦م، بتحالفه مع فرنسا وإسرائيل لضرب البلد العربي مصر وإغفاله العلاقة الحتمية مع أمريكا، سبباً في نقمة الرئيس الأمريكي - الوحيد - الذي لم يصعد إلى الرئاسة بأصوات يهوديّة ونعني به ديويت إيزنهاور (Dewight-Eisenhower) وتوجيه إنذار له ولحلفائه بالخروج من قنّة السويس. وسقط «إيدن» من داخل الحزب وحلّ محله هارولد مكميلان الذي استقال لظروفه الصحيّة

في عام ١٩٦٣م ليأتي لزعامة الحزب «سير دوقلاس هوم» S. Douglas home والذي سَقَطَ لعداءِ اليهودِ لَهُ في عام ١٩٦٤م، ليصعد نجمُ «هارولد ويلسون» - أكثرُ الزُّعماءِ البريطانيين ولاءً للحركة الصهيونية الاستعمارية، ومع أنَّ حزب العُمَّال كان ضدَّ الوجود الأمريكي في فيتنام، إلا أنه تصرَّف كزعيم محافظ وأيد الوجود غير الشرعي للولايات المتحدة، هناك، كما سار خلف السياسة الأمريكية الدَّاعمة لسياسة التمييز العنصري آنذاك في جنوب أفريقيا، وكان هذا التناغم البريطاني - الأمريكي سبباً رئيساً وراء مكوث ويلسون لمدة تقارب ثمانية أعوام في رئاسة الوزراء، وعند اندلاع حرب ١٩٦٧م بين العرب والكيان الصهيوني كان ويلسون أكثر تطرفاً من «جونسون» في الدَّعم المُطلق للحركة الصهيونية العنصرية، وبعد استقالة «ويلسون» في عام ١٩٧٦م، واختيار الحزب لجيمس كالاها - James Callaghan، زعيماً للحزب ورئيساً بالتالي للوزراء. وعندما قوي الجناح اليساري داخل الحزب، والمؤيد في بعض طروحاته للقضية الفلسطينية، كان الصعود المفاجيء للزَّعيمة «مارجريت تاتشر». وصَادَفَ وجودها في رئاسة الوزراء - بأصوات دائرة «فنشلي» اليهودية ورجال الأعمال اليهود، صادف ذلك وجود الزعيم الجمهوري المحافظ والمتشبع بالأساطير التلمودية عَنْ أَرْضِ الميعاد، ونَعْنِي به - رونالدريجان - ووجدتْ تاتشر نَفْسَهَا في حَرْبٍ مع الأرجنتين حول جزر «الفولكلاند»، فكان الدَّعم الجمهوري الأمريكي لها بغير حدود، وضَحَّى ريجان بعلاقته القويَّة مع دول أمريكا اللاتينية في سبيل الحفاظ على العلاقة الوثيقة مع بريطانيا، ثم احتاج إليها ريجان - نفسه - بعد خروجها من الحرب منتصرةً عَلَى الأرجنتين، وذلك عندما قرَّر التنفيس عن مشاعره الغاضبة فلم يجد أمامه سوى البلد العربي «ليبيا»، والذي تعترف تاتشر في مذكراتها أَنَّ النُّظام

اللّبي لم يكن مسؤولاً عن تفجير النادي اللّلي في برلين . وهيّأت «تاتشر» مطارات بريطانيا لتنطلق منها الطّائرات الأمريكية لتضرب وتدمّر ذلك البلد العربي ، وكانت المكافأة الكبيرة لها هو الحفاظ على وجودها في الحزب ورئاسة الوزراء لمدة تقارب ١٨ عاماً، ولم تكن تاتشر تملك من الخبرة السياسية التي يملكها إدوارد هيث Edward-Heath الذي سقط فجأة في انتخابات عام ١٩٧٤هـ، ولكن هيث ووزير خارجيته «دوقلاس هوم» رفضاً تزويد الطّائرات الأمريكية بالوقود في حرب ١٩٧٣م، لأنها تحمل الذخيرة الفتاكة لإسرائيل، ومع ما ذكرناه لم يكن هناك حاجة لطرح السؤال: لماذا كان توني بلير موجوداً في الكونغرس وكأنه واحد من أعضائه.

جوائز الغرب والتّحيز الديني والسياسي

لم يَكُن النّاقِدُ الإنجليزي «بول بيلي» Paul - Baily متجنّياً - وهو مِنْ البيئة الغربية التي توزّع جوائزها على مَنْ يستحقُّون ومَنْ لا يستحقُّون عندما وَصَفَ جائزة بوكر (Booker) الإنجليزية بأنها جائزةٌ مَغشوشةٌ (bunkum) كما وَرَدَ في المُلحقِ الأدبيِّ لِصحيفةٍ «ذي ميل» الإنجليزية:

(The mail, sept, 126, 1999)...

لقد حُصِّصَتْ جائزةُ «بوكر» التي أنشئت عامَ ١٩٦٩م للرواية أو القصة الخيالية Fiction، وعندما فاز بالجائزة البريطانية المذكورة «نايول» الحاقِد في بداية السبعينيات الميلادية. ويبدو أنّه كان - آنذاك - يعملُ في الإذاعة البريطانية المشهورة B.B.C «بي. بي. س»، يذكر الناقدُ الغربيُّ «بيلي» أنّه مِنْ الصَّعبِ على أيِّ شَخْصٍ - يَقْصِدُ الغربيِّين الذين يعرفون - أهدافَ هذه الجائزة الحقيقية - تذكُّر اسمِ الرواية التي مُنِحَ «نايول» بسببها الجائزة، ولكن هذا لا يَنْطبقُ على بَنِي قَوْمنا - وخصوصاً مِنْ دَوِي الثَّقافة الأرستقراطية - الذين يُدخنون سيجار «الهافانا» ويعيشون في أَرْقى الأحياء الغربية زائرين أو مُقيمين ثم يَزعمون أنّهم مِنْ مُناصري الضّعفاء والمساكين، وأنّهم يُمثلون اليسار العربي المعارض - الذي تُعتبر جميع المؤسسات القائمة - والمُنتقدة - منه - مُقارنةً رَحمةً ونعيمًا. فهو في نظرِ

هؤلاء كَاتِبٌ إنساني لتهجمه المكشوف على الإسلام، بينما نُحِلُّ بموضوعية الكاتب المتخصص إدوارد سعيد بواعث هجمة «نايبول» قائلاً «ولقد قَالَ أخيراً - أي نايبول - متأثراً ربّما بأصله الهنديسي، أَنَّ الكارثة العُظْمَى التي شوّهت تاريخ الهند - كانت دُخول الإسلام إليها «صحيفة الحياة، الجمعة، ١٢ أكتوبر ٢٠٠١م»، وبالمناسبة فإنَّ «إدوارد سعيد» كَاتِبٌ ليبرالي وعلماني وليس لَهُ صِلَةٌ بالعقيدة الإسلامية - ويضيف إدوارد سعيد في المقال نفسه وهكذا في جملة واحدة، يَحْتَزِلُ «نايبول» حياة بليون مُسلم، ويُلقِي بها جانباً»، وأن «نايبول» آمَنَ بأفكار مُسبقة - وغير حقيقية عن الإسلام - أدَّتْ به كما يقول سعيد «إلى هَوَسٍ عِدائي للإسلام وهذا أدَّى به في شَكل - ما - إلى التَّوقف عَن التَّفكير أَوْ إلى ما يُشَبِّهُ الانتحار الفِكرِي الذي.. يُجْبِرُهُ عَلَى تَكَرَّارِ المقولة - نَفْسُهَا - إلى ما لا نهاية، إِنَّهَا ما اعتبره كارثة فكرية كُبْرَى فَقَدَ فيها «نايبول» الكثيرَ مِنْ قدراته، إذ أصبحت كتاباته مَكْرُورَةً مُضْجِرة، وضاعَتْ مواهبه ولم يَعُدْ قادراً عَلَى التَّفكير السَّليم» انظر: مقالة إدوارد سعيد، حادثُ فكريٍّ خَطِيرٌ دَفَعَ «نايبول» إلى مُعاداة الإسلام «صحيفة الحياة، ٤٩٩، ١٩٩٨م، وهذا يُوحِي بأنَّ روايته «ما بعد الإيمان».

كانت مِنْ صُنْعِ اللّاشعور لدى هذا الكاتب القَلِقِ الحاقِدِ والذي ينطلق في كراهيته للإسلام مِنْ ديانته الهندوسية التي لم يتخلَّص منها كما يتوَهَّم بعض مُثَقِّفي العروبة المرحِّبين بِكُلِّ ما يُسيء إلى دينهم ومُعتقدهم. وبينما يَعِيشُ الآخرون مِنْ الكُتَّابِ ضمن إطار ثقافتهم الدِّينية المترسِّخة في أعماقهم نجدُ مثقفينا مِنْ دُونِ هَوِيَّةٍ، أَوْ ملامح، أَوْ خُصوصية ثقافية ولهذا فإنَّ الآخرين يحتقرونهم في دَوَاحِلهم بَلْ ولا يَرْضون باندماجهم في

المُجتمعات الأخرى لأنَّ مَنْ يَخُون دينَهُ وتُراثه هو مُهَيَّأٌ بعد حين إلى ممارسة نفس السُّلوك مع الهوية الجديدة تلك الهوية المُلفقة أو المُصطنعة.

بالمناسبة فإنَّ «نايبول» يُقدِّس الحُقبة الاستعمارية ويتطلَّع لعودة أفريقيا والهند وأمريكا اللاتينية وما يُوصَفُ بالعالم الثالث إلى «الكولونيالية» الغربية.

إنَّه الهُراءُ والتخبُّطُ والحقدُ الأعمى الذي لَطَخَ سُمعة الأكاديمية السُّويدية التي منحتهُ جائزة نوبل للآداب والتي أوصى صاحبُها بأنْ تُمنَحَ جائزته لأولئك الذين يُرسِّخون «اتجاهاً مثاليًا»، كما أشار إلى ذلك الناقدُ فاضل السُّلطاني (ثقافة الشُّرق الأوسط، الجمعة ١٢/٩/٢٠٠١م).

أمَّا الكاتبة والصحافية الإنجليزية «سيارا ديفير» التي ذهبت في رحلة طويلة لإجراء مُقابلة صحافية معه، ولم يلبث أنْ غادرها وهو يقول لزوجته أجبي عن أسئلتها، لأنها ذكَّرتُه بوالده وبجذوره الهندية، فكيف تجرؤ كاتبة «الصَّنداى إند بندنت» على تذكيره بجذوره الحقيقية؟ وقد أصبح ارسطوياً يَحْمِلُ لَقَبَ «سير» ومُنِحَ هذا اللقب لأنَّه كرَّسَ أَعْمَالَهُ لتشويه الإسلام ورميه حقداً وزوراً بما لا يجرؤ أحد أنْ يرمي ولو بالقليل منه الديانة اليهودية والمسيحية، فهذه الديانات محظورة في الغرب المسيحي والتمتدُّثُ أو المتصنُّع والمتخفي تحت الشُّكل العُلْمانِي - أنْ يَنَالَ أَحَدُ منهما بسوء أو نَقْد. فَهَذَا هو الحصْن المُقدَّس الذي لا يجرؤ على الاقتراب منه - فَضْلاً عَنْ اقتحامه - نايبول، وزُمرته مِنْ أمثال: «سَلْمَان رُشْدِي» أو «تَسْلِيمة نِسْرين» وغيرهما.

وأختمُ مقالتي هذه بما ذكَّرتُه الكاتبة الإنجليزية «سيارا ديفير» التي طردها مِنْ مَنْزِلِهِ في «ساليسبوري»، وطلب منها على لِسَانِ زوجته أنْ تعود

لإجراء مُقابلةٍ صحافيّةٍ مَعَهُ بَعْدَ عَشْرِ سِنَوَاتٍ. فَلَقَبُ «سير» أُوْهِمَهُ أَنَّهُ مِنْ
سُلَالَةٍ إنْجِلِيزِيَّةٍ عَرِيقَةٍ فَلَمَّا ذَا الْحَدِيثِ عَنِ الْهِنْدِ أَوْ تَرِينِيدَادِ؟

تَقُولُ «دَفِير» نَقْلًا عَنْ حُسُونَةِ الْمِصْبَاحِي «الشَّرْقِ الْأَوْسَطِ، ١٢/١٠/
٢٠٠١: «هَذَا اللَّقَاءُ مَعَ «إِف، سِي، نِيْبُول» غَيَّرَ نَظْرَتِي تَجَاهَ مَا كَتَبَ، فِي
كُتُبِهِ هُنَاكَ إِنْسَانِيَّةٌ أَمَّا كَشَخْصٌ فَهُوَ لَا يَمْلِكُ شَيْئًا وَلَوْ قَلِيلًا مِنْ هَذَا» تُرَى
مَاذَا سَيُجِيبُ عَنْ هَذَا بَنُو قَوْمِنَا؟

رجل الإحسان . . هليل العبيري

- يفتح باب البقيع في طيبة الطيبة، في بلد الحب والأمان، وتحتضن تربته الزكية كما احتضنت منذ اليوم الذي دفن فيها أخ المصطفى ﷺ من الرضاعة سيدنا عثمان بن مظعون رضي الله عنه فهو أول من حظي بهذا المرقد الكريم، نعم يفتح الباب وتهب النسيمات الندية، وتطأ الأقدام في أدب وخشوع، وترتفع الأكف في تبتل وسكون لتلحد رجلاً من رجالات البلد الطاهر، الشيخ «هليل خليل العبيري».

- لقد شهد والدي - رحمه الله - أصدقاءه يتساقطون واحداً بعد الآخر وكان منهم الشيخ خليل الذي كان يسكن في حي قباء وبنزلة المغيسلة، كأني به يطلب مني أن أصحبه لمسجد رسول الله ﷺ حتى نسير خلف الأجساد المنطلقة من «باب جبريل» لمثاها الأخروي.

لقد ذرف دمعة في الربوة على: يوسف صيادة، وعلي كاموخ، وعباس حماد المنفلوطي، وعثمان أبو عوف، وإبراهيم شاكر، والشريف يحيى بن حمود.

- واليوم وقد لحق ركبه بركبهم، وانطوى شراعه كما انطوت أشرعتهم، وصعدت الأرواح منهم إلى بارئها، فإن واجب المودة الصداقة التي كانت تقوم بينه وبين الرجال من قبيلة حرب هناك في الفقرة،

وعرقوس، والمسيحيد، ووادي الصفراء، وأم ديان، على مدى أكثر من نصف قرن من الزمن، هذه المودة، وذلك النسب المتصل بخؤولة أعتز بها، ولا أتطاول من خلالها على أحد ومعرفة وثيقة بآل «العبيري»، تدعوني لأحمل اليراع لأرثي به رجل الفضل والإحسان الشيخ «هليل بن خليل العبيري»، لن أنسى قوله لي، كان والدك يطرق بابي، ويخاطبني مبتسماً ألا تعرف يا أبا عزيز أنني صديق والدك؟ فأحني رأسي خجلاً، وكنت أعلم أنه - أي العم هليل - واحد من الذين يضمهم المجلس في الزاهدية، فلقد ضرب هو وابن أرومته الشيخ حامد العبيري، المثل في الوفاء للمحبة، ومواساة الناس، وتفقد ذوي الحاجة، وكان مجلسه في حوش «منصور» يعج بالفقراء والمساكين، ينفق - رحمه الله في خفاء، ويبذل في غير تصنع، ويبتسم في وجوه القوم عرفهم أو لم يعرفهم، وعندما زرته في جدة في منزل أبي عادل، دنوت من مجلسه فدعونا رب العزة والجلال وصلينا على خاتم الأنبياء والمرسلين، عليه صلواته وسلامه، وودعت أبا خالد فإذا هو يمسح دمعة تنحدر على ذلك الوجه المضيء بنور الإيمان، وودعني ابن أخيه زميلي سعود بن حميد حميد العبيري، فإذا أنا أمسك بمقود مركبتي، وتأخذني العبرة فأجهش بالبكاء كبكائي وأنا أدون هذه السطور في حق رجل، عاش كريماً، ومات كريماً وخلف لأبنائه الذكر الحسن من بعده.

العُرُوبَةُ أَضَلُّنَا وَالْإِسْلَامُ دِينُنَا

كُنَّا فِي زَمَنِ الطُّفُولَةِ حَيْثُ نَشَأْتُ فِي بَلَدِ الْمُصْطَفَى - ﷺ - نَفْرَحُ بِقُدُومِ شَهْرِ رَمَضَانَ الْمُبَارَكِ فَرِحًا نُعَبِّرُ بِهِ بِطُرُقَ شَتَّى وَلَكِنَّهَا بَرِيئَةٌ وَصَادِقَةٌ، هَذِهِ الْمَدَافِعُ تُؤْذِنُ بِدُخُولِهِ تَنْطَلِقُ مِنْ جَبَلِ «سَلْعٍ»، وَهَذَا الْمَصْبَاحُ الْأَحْمَرُ يُضِيءُ مِنَ الْمَنَارَةِ الرَّئِيسَةِ فِي مَسْجِدِهِ - ﷺ - وَمَعَ أَنَّ اللَّوْنَ أَحْمَرٌ إِلَّا أَنَّهُ مِثْلُ الضَّوِّ الْأَخْضَرِ لِلْإِنْسَانِ الْحَادِّ الْبَصَرِ الَّذِي يَقُومُ بِإِطْلَاقِ الْمَدْفَعِ عِنْدَ رَفْعِ الْأَذَانِ نَدِيًّا مِنْ جَوَارِ مَثْوَى الْخَلْقِ وَسَيِّدِهِمْ وَشَفِيعِهِمْ - عَلَيْهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ . .

الْيَوْمَ وَقَدْ دَخَلْنَا زَمَنَ الْكُهُولَةِ وَمَعَ تَغْيِيرِ أَحْوَالِ الدُّنْيَا أَضْحَيْنَا نَفْرَحُ بِالْقَلِيلِ؛ فَهَذَا صَدِيقٌ يَأْتِي صَوْتُهُ عِبْرَ سَمَاعَةِ الْهَاتِفِ لِيَقُولَ عَلَى عَجَلٍ «كُلَّ عَامٍ وَأَنْتَ بِخَيْرٍ!» وَتَقُولُ فِي دَاخِلِكَ هَذَا إِنْسَانٌ فِيهِ خَيْرٌ، أَوْ أَنَّهُ قَادِمٌ مِنْ زَمَنِ الْبِرَاءَةِ وَالصَّفَاءِ . .

وَفَرِحْتِي الْكُبْرَى مَعَ بَدَايَةِ هَذَا الشَّهْرِ الْمُبَارَكِ فِي كُلِّ عَامٍ هِيَ التَّهْنِئَةُ الصَّادِقَةُ الَّتِي يَدْفَعُ بِهَا الْمَفْكَرُ الْكَبِيرُ السَّيِّدَ أَحْمَدَ زَكِيَّ يَمَانِي لِأَصْدِقَائِهِ، وَلَقَدْ عَرَفْتُ أَبَا «مَيِّ» وَهُوَ يَجْلِسُ عَلَى كُرْسِيِّ الْوِزَارَةِ وَبَعْدَ أَنْ غَادَرَهَا وَقَدْ خَدَمَ دِينَهُ وَمِلَّتَهُ وَوَطَنَهُ وَأُمَّتَهُ فَلَمْ تَغْيِرْهُ أَحْوَالُ هَذِهِ الدُّنْيَا كَمَا تُغَيِّرُ الْبَعْضَ فَهُوَ حَفِيٌّ بِهِمْ يَسْأَلُ عَنْهُمْ مِنْ لَنْدَنِ، وَجَنِيفِ، وَبُوسْطَنِ، وَيَحْتَضِنُهُمْ فِي

هذا البلد المعطاء حُبًّا صادقاً، وإخاءً كريماً، وهذا ليس بغريب على ابن شَيْخنا السَّيد حَسَن يمانِي .

في تهنئته التي يجد فيها العَقْلُ والفكرُ نُزْهَةً ومُتَعَةً طَرَحَ مَفْكَرُنَا هذا العام أسْئَلَةً لم يجب عنها حول العمل الإرهابي الشَّنيع الذي وصفه بالعبارة التالية «إنني أَجْرَمُ ما حَدَثَ في الحادي عشر مِنْ سبتمبر بمدينةني «نيويورك» وواشنطن بوصفه عملاً ضِدَّ الإسلام لا ينبُعُ منه ويتعارض مَعَ تَعَالِيمِهِ». ثم يدخل أستاذنا إلى جَوْهر الحَدَثِ المأساوي بهذه الحِيثِيَّة: «ولكن الذي يتضح للمراقب المحايد المتجرّد مِنْ عاطفته ويفكّر بِعَقْلِهِ أَنَّ هناك جِهَةً أَوْ أكثر عرفتْ بالجريمة قبل وُقوعها وقامت بتصرّفاتٍ تدُلُّ عَلَى مَعْرِفَتِها». ولا يتوقَّع أستاذنا الكريم مِنْ الجهات المسؤولة عن التحقيق أَنْ تسمح لجميع الحقائق بالظهور. وَمِنْ الأمثلة التي يطرحها صاحب التَّهنئة الرَّمْضانية المتميزة:

المثال الأوّل: يتعلّق بجماعة غير معروفة دخلتْ سُوْقَ البورصة في «نيويورك»، واستخدمتْ وسيلةَ البَيْعِ المُسمّى (Puts, option) لأسهم شركات الطيران وشركات التَّأمين، وذلك فُيْلَ الحادي عَشَرَ مِنْ سبتمبر.

المثال الثاني: يتعلّق بخمسة مِنْ الرِّجال اليهود الذين صَعَدُوا بِآلاتِ التَّصْوِيرِ إلى سَطْحِ عمارة تُشْرِفُ مِنْ بَعِيدٍ عَلَى البُرْجين المُستهدفَيْن. ويُذَكِّرُ مَفْكَرُنَا الكَبِيرُ أَنَّ صَحيفةً أَمْرِيكيةً اسْمُها (الوثائقُ) (The records) تَصُدِّرُ في ولاية «نيوجرسي» انفردتْ بِذِكْرِ الواقعةِ واستطردتْ تقول: إِنَّ الخمسة أصابَتْهُم لَوْثَةٌ فَرَحٍ وَسُرُورٍ. وعندما سألَتْهُم الأجهزَةُ المُختصةُ عَنْ سَبَبِ فرحتهم أَجَابُوا بِأَنَّ الشَّعْبَ الأَمْرِيكي يذوق - الآن - طعم الإرهاب الذي يُعاني منه الإسرائِيلِيون مِنَ الفِلَسْطِينِيِّين. ويضع أستاذنا علامة تعجب بعد

العبارة التي نطق بها هؤلاء الإسرائيليون فما يحصل من الشعب الفلسطيني هو مقاومة في وجه إرهاب الدولة. وقد أفرجت السلطات عن هذه الةة الإسرائيلية التي كانت تعمل في شركة نقل معظم موظفيها من الإسرائيليين. ويُقارن السيد زكي يمانى هذه الأريحية مع اليهود بما يحصل للمسلمين فيقول: «أنا أعلم أن العربي المسلم بأمريكا ولمجرد الاحتمال بضلوعه في الإرهاب يقبض عليه ويودع المعتقل محروماً من أبسط الحقوق في الاتصال بمحام رغم أنه في بلد الحرية والديمقراطية».

لقد بقي الكثير من التساؤلات التي طرحها كاتبنا الكبير دون تحديد إجابة عنها، وكان ينقل معلوماته من مصادر أمريكية موثقة من بينها صحيفة (الوثائق) القليلة الانتشار. وهي صحيفة كما يذكر كاتبنا الموضوعي تحظى باحترام قرائها ودقة معلوماتها، ولكن ما يدعو إلى الدهشة أن أخبارها لا تتعدى نطاق قرائها، وتغفلها جميع الصحف ومحطات الإذاعة والتلفزيون الأمريكية.. ويختتم «السيد زكي يمانى» تهنئته الموضوعية والهادفة والموثقة بما وصف «بأنه هجوم إعلامي مكثف على المملكة وهو لا شك يجد دعماً وتوجيهاً من صقور السياسة وهدفه الحقيقي هو الهدم وليس الإصلاح، والضغط للحصول على المستحيل وهم في حملتهم جملة واهمون يلعبون بالنار التي تحرقهم وتهدم اقتصادهم ويدفع ثمنها شعوب العالم كافة». مضيفاً رعا الله أن «بلادنا العزيزة بمثابة القلب يضخ لاقصاد العالم المتردي - حالياً - الدماء إلى شرايينها ويبعث فيها الحياة»، مضيفاً، جزاءه الله خيراً - «أنا لن نخلع رداءنا ونغير سحتنا فالعروبة أصلنا والإسلام ديننا».

التاريخ الإسلامي وصلته بالآثار النبوية

أنفقت حكومة خادم الحرمين الشريفين على توسعة المسجدين الشريفين ما لم تبدله أي حكومة أخرى في التاريخ، إضافة إلى إعمار المساجد الأثرية حفاظاً منها على كل ما يتصل بالإسلام وحضارته وآثاره التي لا تبلى مع الأيام والدُّهور وتذكيراً للأجيال الناشئة بتاريخها الإسلامي الممتلئ سمحةً ومحبةً ومودةً وعدلاً ووفاءً، كما قامت هذه الدولة السنية - رعاها الله - بإعمار المسجد الأقصى قبل حرب ١٩٦٧م، فكان لها فضل الحفاظ على المساجد الثلاثة التي لا يجوز شدُّ الرِّحالِ لسواها. . واقتضت توسعة المسجدين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة إضفاء بعض الآثار الإسلامية التي ترتبط بكثير من الأحداث الهامة في تاريخنا المجيد، وهي تمثل جزءاً هاماً من تاريخ الحضارة الإنسانية فدين الإسلام هو الدين الذي ختم به الرِّسالات، وكانت رسالة النبي محمد ﷺ، موجّهة لجميع الأمم وليس للعرب وحدهم، فهو الدين الذي يدخل فيه الناس أفواجاً ولا يخرج منه إلا مَنْ أُصيب بظلمة في عقله وقَلْبِه - نسأل الله أن يحفظ علينا ديننا الذي هو من أجل النعم وأعظمها وأسمها. فهناك في المدينة، ومن الناحية الجنوبية - تقع دارُ أبي أيوب الأنصاري - رضي الله عنه - التي أوث المصطفى ﷺ عند قدومه إلى المدينة مهاجراً من مكة، ثم يأتي موضع آخر ذهب لصالح التوسعة الميدانية سنة ١٣٨٣هـ وهو موقع سقيفة

بني سَاعِدَةَ التي رُوِيَ أَنَّ النبي ﷺ جَلَسَ فيها وَقَدَّمَ له فيه الصحابي الجليل سعد بن عبادة - رضي الله عنه - لبناً مخيضاً فشربه، وهو المكان الذي شهد أول مجلس للشورى الإسلامية بين المهاجرين والأنصار، وبُوع في هذا المجلس سيدنا وأبو بكر الصديق - رضي الله عنه - خليفةً للمُسلمين بعد أن لحقَ الرَسُولُ ﷺ بالرَّفِيقِ الأَعْلَى. ويذكر السَّيد علي حافظ في كتابه (فصولٌ مِنْ تاريخ المدينة المنورة) - والذي كان رئيساً لبلدية المدينة في الحقبة التي نُزعت فيها ملكية مثلّت السُّلْطانية - حيث مَوْقعُ السَّقِيفَةِ - وكان نَزْعُ الملكية كما يذكرُ المؤلِّفُ لَهْدَفِ سام وهو «أنْ تُبْنَى فيه مكتبةٌ عامَّةٌ نابعةٌ للبلدية ومسجدٌ، وعلى أنْ تُشْمَلَ المكتبة قاعة كُبرى تُسمَّى سَقِيفَةُ بني سَاعِدَةَ، ولقد تَمَّت الموافقة السَّامية واعتمدت المبالغ اللازمة للمشروع، وأزيلت المباني ولم يَبْقَ إلَّا تنفيذ المشروع» (فصول مِنْ تاريخ المدينة، ص ١٩٧ - ١٩٩). ثم بئر «أديس» أو بئر «الخاتم» نسبةً إلى خاتم النبي ﷺ والذي سقط فيها مِنْ يد الخليفة الرَّاشد سيدنا عثمان بن عفَّان رضي الله عنه وكان موقع البئر أمام مسجد قباء وهو أولُ مسجدٍ في تاريخ الإسلام.

إذا كانت هذه المواقع قد أُزيلت لِصالح التَّوسعات الكبرى لمسجد النَّبي ﷺ أو مَسْجِد قِباء وغيره، فلا أَعْلَمُ ما هو الدَّاعي لهدم مسجد بني قريظة؟ كما علمته مِنْ بعض الأخوة في المدينة - وهو المسجد المذكور في حديث الصَّحَّاحين عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - حيث قال «نَزَلَ أَهْلُ قُريظة على حُكم سَعْد بن معاذ فأرسل رسول الله ﷺ إلى سعد، فأتى على حمارٍ فلما دنا - قريباً - مِنْ المسجد: قال رسول الله ﷺ «لأنصار «قوموا إلى سيِّدكم أو خيركم» ثم قال: مُخاطباً سَعداً «إنَّ هؤلاء

قَدْ نَزَّلُوا عَلَى حُكْمِكَ فَقَالَ: «سعد» رضي الله عنه مجيباً النبي ﷺ - «تقتل مقاتلتهم وتُسبي ذريتهم». وإنني لأتساءل: هل تمت إزالة هذا المسجد الذي كان من المساجد التي عمَّرها الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز عندما كان والياً على المدينة في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك، هل تمت إزالته بعلم المسؤولين الذين هم أشدُّ الناس حرصاً على تاريخ الإسلام وآثاره الصحيحة والمرتبطة به ارتباطاً وثيقاً؟ أم أنه اجتهد من بعض طُلاب العلم؟ إننا لنأمل أن يقوم أمير المدينة المحبوب صاحب السمو الملكي الأمير مقرن بن عبد العزيز - حفظه الله - بإنشاء إدارة خاصّة بآثار المدينة وتكون برئاسة سموه للنظر في الوسائل التي يمكن بها الإشارة الواضحة وليست المُبهمة للآثار التي ذهبت لتوسعة القصر الكُبرى كدار أبي أيوب وسقيفة بني ساعدة وبئر الخاتم وغير ذلك، كما نتطلع لإجابة كريمة من رجل العلم والفضل والمعروف عنه سعة الأفق وعمق المعرفة، وشَمائل الحكمة والتَّروي والتعقُّل معالي فضيلة الشيخ صالح آل الشيخ وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية - فيما يتّصل بالوضع الذي آل إليه مسجد بني قريظة، والوقوف بنفسه - حفظه الله - على كل ما يتصل بهذا الأمر.

جماعات إرهابية تستحق الإدانة من الغربيين

أعلنت الولايات المتحدة قائمة بأسماء شخصيات متورطة في الإرهاب - بحسب التعبير أو الوصف الأمريكي. وكثير من هذه الأسماء يُصنفون على أنهم عرب ومسلمون.

ولقد أصدرت المؤسسات العربية والإسلامية بيانات حازمة تدين الإرهاب بكافة أشكاله داعية إلى التفريق بين الإرهاب ومقاومة الاحتلال الذي هو حق للشعوب - جميعها - ولقد استخدمته الدول الغربية نفسها ضد التيار النازي الهتلري والتيار الفاشي والنظام الشيوعي الديكتاتوري، وهي سابقة تجيز لشعوب تعيش تحت نير الاحتلال لعشرات السنين مثل الشعب الفلسطيني الأغزل الذي واجه مجازر بشعة متعددة ارتكبت في حقّه منذ قيام الكيان الصهيوني بدعم غربي واضح ومستمر حتى الوقت الحاضر.

وتطرح دوائر غربية وعربية عدّة: لماذا لم تتضمن القوائم التي أصدرتها الهيئات الغربية أسماء شخصيات وجماعات أخرى عُرفت بتبنيها للإرهاب وقيامها بسفك دماء الأبرياء؟

فالقادة الإسرائيليون منذ ديفيد بن غوريون ومروراً بأشكول، وبيجين، وشامير ونتنياهو وبيريز، وأخيراً سفاح صبرا وشاتيلا «أريل شارون»،

ارتكبوا مجازر بشرية في دير ياسين وكفر قاسم، وقبية واللّد وقانا، من الجرائم ما جعل هيئات قضائية غربية تقبل الدعاوى المرفوعة ضد بعض هؤلاء السّفاحين المنتمين إلى الدّولة العبرية العنصرية. ولا بدّ أنّ نتذكر أنّ الجيش الجمهوري الإيرلندي يرتكب أعمالاً إرهابية في حق الأبرياء هي من البشاعة بمكان ولقد قامت هذه الحركة المسلّحة بتفجير الفندق الذي كانت تقيم فيه حكومة المحافظين في مدينة برايتون السّاحلية Brighton، عام ١٩٨٤م ولقد ذهبَ ضحية تفجير فندق Grand-Hotel حوالي خمسة من الأبرياء، وتعرضتُ فيه زوجة السياسي المعروف نورمان تيببت Norman-Tebbit، لشللٍ وكادتُ أن تُقتل فيه زعيمة الحزب نفسها - آنذاك - مارجرت تاتشر كما تذكر ذلك في مذكراتها، مُعلنةً أنّ A.R.I هي المسؤولة عن هذا الحادث الإرهابي، انظر: The downing, street, Years, p.p 79 368, 1995.

وكان آخر أعمال الجيش الجمهوري الانتقام من مدارس الأطفال الأبرياء. وهو المنظر نفسه الذي يتكرّر أمام أعين العالم في كلّ يوم، حيث لا يَسْتحي الجنود الإسرائيليون ولا يخجلون من محاصرة أطفال المدارس الفلسطينية غير مُبالين كم حصدت دباباتهم من أرواح هؤلاء الأطفال وهم البراعم - حقاً - لا الجنود الإسرائيليون كما يدّعي الناطق غير الرّسمي باسم الحكومة الصهيونية - العفيف الأخضر - على صفحات جريدة الحياة الدّولية ولا يجد من يُوقفه عند حدود اللياقة واحترام مشاعر الشّعب المنكوب.

يذكر الكاتب والسياسي البريطاني المعروف «سيريل تاونسند» أنّ بعض المؤسسات الأمريكية هي المسؤولة عن تمويل جماعات الجيش الجمهوري

الإيرلندي. انظر: «صحيفة الحياة» ١٠ أكتوبر ٢٠٠١، ص ٩».

فهل نرى شجاعة غربية وأمريكية للإعلان عن قائمة تُعلن عن مسؤولية شامير وعصابته، والجيش الإيرلندي، ومنظمة الباسك، والمؤسسات الحزبية التركية المسؤولة عن قتل الآلاف من الأكراد، تُعلن مسؤوليتهم عن الإرهاب وملاحقتهم قضائياً؟

رحلة الشوق ونشيد الإيمان

لَنْ يَغِيبَ عَنْ ذَهْنِ الْفَتَى ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانَ فِيهِ يَنْهَبُ الْخَطُوءُ مِنْ «المناخة» إِلَى «شارع العينية»، فَنَفْسُهُ لَا تَجِدُ طَمَأْنِينَتَهَا وَسَكِينَتَهَا إِلَّا بَيْنَ أَوَّلَتِكَ الْقَوْمِ الْبُسْطَاءِ فِي كُلِّ شَيْءٍ - فِي لِبَاسِهِمْ وَمَأْكَلِهِمْ وَمَشْرَبِهِمْ، كَانَتْ نَظَرَاتِهِ تَمْتَدُّ مَعَ امْتِدَادِ هَذَا الدَّرْبِ لِتَصِلَ إِلَى ذَلِكَ الْأَفْقِ الرَّفِيعِ الَّتِي تَقِفُ فِيهِ الْقُبَّةُ الْخَضْرَاءُ عِزَّةً وَشُمُوخاً، أَيْ رَحِمَاتٍ تَنْزِلُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَيْ حَيْثُ يَنْتَشِرُ هُنَاكَ وَيُطَوَّى، أَيْ طَيِّبٌ زَكِي تَحْمِلُهُ النَّسَمَاتُ مِنْ ذَلِكَ الْمَقَامِ السَّنِيِّ لِيَنْتَشِرَ فِي الْكَوْنِ فَتَخْفِقَ مَعَ قُلُوبِ الْمُحِبِّينَ وَجُوداً وَحَنِيناً وَهَيَاماً.

فِي غَمْرَةِ ذَلِكَ الثُّورِ سَمِعَ وَقَعَ أَقْدَامِ مُتَأَدِّبَةٍ، إِنَّهَا أَقْدَامُ الْمُطِيِّ وَالَّتِي تَقْصِدُ الْمَسْجِدَ وَالْمَقَامَ زَائِراً مِنْ مَكَّةَ حَيْثُ وُلِدَ الْمُصْطَفَى - ﷺ - حَيْثُ أَهْدَتْ «الْأَمْنَةَ» إِلَى الْكَوْنِ رَحْمَةً السَّمَاءِ فِي لَيْلَةِ ضَاءَتِ مِنْ نُورِهَا كُلَّ مَوَاقِعِ الظُّلْمَةِ وَالظُّلَمِ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ، لِتَبْدَأَ مَسِيرَةَ الْعَدْلِ، وَلِيُهْزِمَ الشَّرُّ وَالْكَفْرَ وَالطُّغْيَانَ فِي كُلِّ رُكْنٍ، وَفِي كُلِّ زَاوِيَةٍ، وَلِتَفْتَحَ قُلُوبُ حَالَ بَيْنِهَا وَبَيْنَ الثُّورِ آثَامِ الْهَوَى وَأَوْرَارِ الضَّلَالِ، وَظُلُمَاتِ الظُّلَمِ الَّتِي مَا لَامَسَتْ نَفْساً إِلَّا وَأَصَابَهَا بِالْدَّاءِ الَّذِي لَيْسَ لَهُ دَوَاءٌ إِلَّا فِي كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ، وَاتَّسَخَّتْ مَعَ ذَلِكَ الدَّاءِ أَعْمَاقُ النَفُوسِ الَّتِي لَنْ يَغْسِلُهَا إِلَّا وَحْيٌ يَنْزِلُ وَقُرْآنٌ يُتْلَى.

تجاوبت نَفْسُ الْفَتَى في ذلك الضُّحَى الأغر، في زَمَنِ الْبَرَاءَةِ، في ساعات الصَّفْوِ والنِّقَاءِ والطُّهْرِ ونظر إلى الرِّجَالِ الَّذِينَ تَرَجَّلُوا مِنْ فَوْقِ ظُهُورِ مُطَيِّهِمْ عندما اقتربوا مِنْ ذَلِكَ الْمُنْخَفِضِ مِنَ الْأَرْضِ، إنه ساحة باب السَّلَامِ، ورفعوا أصواتهم مُسَلِّمينَ ومُنْشِدِينَ فتجاوبت مع أصواتهم وديان البلدة الطَّاهِرةِ وَجِبَالِهَا فغَرَّدَ الطَّيْرُ في وَكْرِهِ، وترقرق الدَّمْعُ في العيون والمحاجر وخفقت القلوب وجدًّا وشوقًا، وما إنْ عادوا أَدْرَاجَهُمْ يَجْرُونَ خُطَامَ مَطَايَاهُمْ أَدْبًا في حضرة مَنْ أوجب الإله خَفْضَ الصَّوْتِ في رحابه، حتى ارتفع صَوْتُ المؤذِّنِ في باب السَّلَامِ يدعو للصَّلَاةِ بـ (حيَّ على الفلاح).

مَشَاهِدٌ مِنْ الْعَيْنَةِ فِي زَمَنِ النَّقَاءِ

كانت أبوابُ الحَرَمِ تُوصَدُ مع الثالثة ليلاً - أي بعد صلاة العشاء - قبل أن يعرف الناس التوقيت الزوالي - وكان الناس يصعدون إلى سطوح دورهم - أعلاها - قَبْلَ هذا الوقت فلقد كانوا يبحثون عن نسمة هواء تهبُّ من بين أشجار النَّخِيلِ، أو عَرِيْشَةِ «العنب» أو مِنْ «قيعان» الوَرْدِ والفُلِّ والياسمين، وكانت سَاحَةُ «بَابِ السَّلَامِ» مَهْوَى الأفئدة العاشقة والنُّفوسِ المتعلقة بالحُبِّ الإلهي وكانت نسماتُ هذا الحُبِّ تَسْرِي في دَوَاحِلِهِمْ مِنْ ترديد باللسانِ والقلْبِ والمشاعرِ لذكرِ الله والصَّلَاةِ على نبيِّه ومُصْطَفَاهُ - عليه - صَلَوَاتِ الله وسلامُهُ - وإذا اقترب العَبْدُ مِنْ خَالِقِهِ - بالذِّكْرِ - تَيَقَّنَ أَنَّ لَهُ رَبًّا خَلَقَهُ، وهو الْمُتَكَفِّلُ بِهِ، وَإِنَّكَ لَتَنعَى على قومٍ تنزلُ ألسنتُهُمْ، ويشتطُّون في أفكارِهِمْ، ويتوهمون أَنَّهُمْ كلٌّ ما في هذا الكَوْنِ، فتكون الغَفْلَةُ ويكون النِّسيانُ، ويكون البُعْدُ والإِفْصَاءُ - أعَاذَنَا اللهُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ .

خرج الفتى مِنْ «الخَوْخَةِ» وَجَدَ صديقَهُ ابنَ جَبَلٍ - رحمه الله - يَضَعُ «الخَصْفَ» في وَسْطِ السَّاحَةِ، وكثيراً ما اكْتَسَتْ الدُّورُ في هذه البلدة الطَّيِّبَةِ بهذا الصَّنْفِ مِنْ «الفِرَاشِ»، قبل أنْ تَعْرِفَ الأجيالُ الصَّاعِدَةُ «الموكيت» و «الكَنْبَ». لقد كان الخَصْفُ تصنعه الأيدي، ومعه تصنع كَرَّاسِي الشَّرِيطِ لتَحْصُلَ عَلَى لُقْمَةِ العَيْشِ الحَلَالِ في زَمَنِ النَّقَاءِ والصِّفَاءِ.

وإذا كان الرجال - في ذلك الزمن الذي ولّى - يصنعون الخَصَفَ من «سَعَف» النّخيل بأيديهم، ويخبزون العَيْشَ البلدي في دورهم أو حَوْلها. وتحمل المرأة «البَيْضَ البلدي»، وربطة من النّعناع المغربي، أو الحساوي و «الدّوش» من بساتين قباء، والعوالي، وقُربان، وكانت هذه المرأة تبيع وقد اكتنفها كثير من الحشمة، و «خَفِضِ الصَّوْت»، والأخذ والعطاء في البَيْع من غير تبذّل، فلقد كان الإيمان يعمّر القلوب، وكان الناس في البلد الطاهر يتوقعون كثيراً عند المثل البلدي القائل «دَقّة بدقّة ولو زدنا لزد السّقا»، وهو مثل شعبي نابع من «بيئة» عرفت معاني الشرف والنزاهة، ولا تختلف المرأة عن الرجل في ذلك، ولا يقل الشاب عن الرجل في تمسكه بهذه المبادئ والمثل.

وجاء - ذات - يوم رجل «غريب»، طويل القامة، أسمر اللون، مفتول الكتفين، يأخذه زهو الشّباب وطيشه بأن يسأل المرأة الجالسة في شارع العينية - وبالقرب من باب السلام حيث مَثوى سيّد الخلق - عليه صلوات الله وسلامه - عن «سعر» ما تبيع، ثم يمد يده إلى جسّمها ويلاَمِسها في موضع حسّاس، إنها المرأة التي لا تتخلّى عن شرفها حتى ولو كانت الحاجة وضيق اليد هو ما دفعها إلى النزول إلى السوق تاركة أبناءها خلفها.

في الجهة «المقابلة» كان هناك «حلاق» معروف من الإخوة التركستانيين المجاورين حُباً في الله ورَسُوله، وكان هذا الرجل «جرويه» صغير القامة، ضعيف الجسم، وتقتحمه عُيون الناس من الغادين والرائحين، وانعكس منظر الرجل الغريب وهو يفعل فعلته الشّنيعة على «المرأة» التي يجلس أمامها، وعلى كُرسي خشبي عتيق زبائنه من أهل المدينة الذي يفضلونه

على غيره لصمته، وبُعده عن سُؤال الناس فيما لا يرغبون في الحديث عنه، وترك «جرويه» مَوْسَى الحلاقة ثم انطلق نَحْوَ الرَّجُل «العملاق» وأمسك بتلابيبه فإذا الرَّجُل طَرِيحُ الأَرْضِ، وقد تَضَمَّخَ بدمائه، ثم عَادَ صاحبنا إلى حَانُوتِهِ وَكَأَنَّ شَيْئاً لَمْ يَحْدُثْ، واستمرَّ فيما بدأهُ مِنْ حِلَاقَةٍ ذُفْنِ الشَّيْخِ الجليل والحافظِ لكتابِ الله .

لقد أَخَذَ النَّاسَ شَيْءٌ مِنَ الذُّهُولِ وكثيرٌ مِنَ الدَّهْشَةِ فلم يخطر بأذهانهم - يَوْماً - أَنَّ «جرويه» عَلَى هذا القَدْرِ مِنَ الشَّجَاعَةِ والقُوَّةِ .

رَفَعَ الرجل العملاق - نفسه - مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ بعد شيء من العناء وقد اتسخت ثيابه بالتُّرابِ، وفي لحظة اعتراف صادقةٍ مَعَ نَفْسِهِ، وَقَفَ أَمَامَ الحانوت وخاطب «جرويه» قائلاً: «عشرةٌ مِنْ أمثالك لا يقوونَ عَلَى طُرْحِي، وعلى صُنْعِ مَا صَنَعْتُهُ بِي، أَيُّهَا الرَّجُلُ، ولكنني أَسَأْتُ الأَدَبَ، حَيْثُ يجب أن ألتزمَ به»، وأشارَ بأصبعه إلى «باب السَّلام»، وَكَانَ في مِثْلِ هذه الإشارةِ مَعْنَى ودلالة بالغيْن، يَعْرِفُهَا حَتَّى أَبْنَاءُ «الحارَّة» الذين إذا اشتاقتْ منهم النُّفُوسُ لزيارةِ صَاحِبِ المَقَامِ السَّنِيِّ - عليه صلواتُ الله وسلامُهُ - تَوْضَّؤُوا، وَصَلُّوا في أَقْرَبِ مَكَانٍ مِنَ المَسْجِدِ الطَّاهِرِ، ثم سَلَّمُوا على شَفِيعِهِمْ وَسَيِّدِهِمْ والحَرِيصِ عليهم كما جاء في كتابِ الله العزيز - «لقد جاءكم رسولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عزيزٌ عليه ما عَنتم حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بالمؤمنين رؤُوفٌ رحيم، فَإِنَّ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لا لَهُ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ»، وكانوا مِنْ بابِ الأَدَبِ يَخْفَضُونَ الصَّوْتَ والبَصَرَ - معاً - أَخْذاً بالتَّوَجُّهِ الإلهي الكريم ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (الحجرات: ٢) .

فَاتِشِيتْ ، وَالْعَرَبُ يَفْقِدُونَ أَصْدِقَاءَهُمْ

لم يكن بَيْنَ «هيو جيتسكيل» Hugh - Gaitskell ، والوصول إلى دوانغ ستريت - ليصبح رئيساً للوزارة في بريطانيا، إلا خطوات معدودة، ولكن القدر كان الأقرب، فلقد توفي زعيم حزب الْعُمَّال فجأة في ١٩٦٣م، وهو في منتصف الخمسينات مِنْ عُمُرِهِ، ولم يَعْرِفْ مَجْلِسُ الْعُمُوم مُتَحَدِّثاً مُفَوَّهاً - مِثْلَهُ - حتى إِنَّ الرئيس الأمريكي «جون كينيدي» كان مُعْجَباً به إلى دَرَجَةٍ لَا تُصَدَّقُ، ولكن ظهور كتاب ضابط المخابرات الإنجليزي السابق «بيتر رايت» (Peter - Wright) أَوْ صَائِدِ الْجَوَاسِيس (- Spy Catcher) كما اختار هو - بنفسه مُسَمَّى الكتاب الذي أَقْضَى مَضْجَعِ رَئِيسَةِ الْوُزَرَاءِ السَّابِقَةِ «مارجريت تاتشر» يَزْعُمُ أَنَّ مَوْتَ «جيتسكيل» لم يكن طَبِيعِيًّا، وَأَنَّ الْمُخَابَرَاتِ السُوفِيَّتِيَّةَ - آنَذاك - كانت ضَالِعةً في هذا الحدث .

وبعد استقالة «نييل كينيك» Neil - Kinnock ، مِنْ زَعَامَةِ حِزْبِ الْعُمَّالِ بعد فَشْلِهِ لمرتين متتاليتين في الانتخابات العامة، اختير «جون سميث» John - Smith ، زَعِيمًا لِلْحِزْبِ . وعندما أَصْبَحَ هو - الآخر - قَرِيبًا مِنْ رِئَاسَةِ الْوُزَرَاءِ تُوْفِيَ بِأَزْمَةٍ قَلْبِيَّةٍ مَفَاجِئَةٍ، وكان أَيْضًا في أَوَاسِطِ الْخَمْسِينَاتِ مِنْ عُمُرِهِ، و «سميث» كان الزَّعِيمُ الَّذِي كَدَحَ كَثِيرًا في سَبِيلِ تَغْيِيرِ سِيَاسَةِ حِزْبِ الْعُمَّالِ . ولكن «توني بلير» قَطَفَ الثَّمَرَةَ الَّتِي غَرَسَهَا «كينيك» ورعى

نُمُوها وازدهارها «سميث». تواردت هذه الأحداث إلى الذهن بَعْدَ وفاة وزير الدولة البريطاني للشؤون الخارجية «ديريك فاتشيت» - Deark Fatchett بأزمة قلبية مفاجئة عَنْ عُمُرٍ يَبْلُغُ ٥٣ عاماً، حيث كانت ولادته في مدينة: Lincoln، البريطانية سنة ١٩٤٥م، التي انطلق منها إلى جامعة «برمنغهام» حَيْثُ دَرَسَ القانون، كما دَرَسَ الاقتصاد في جامعة لندن، أَوْ عَلَى وَجْهِ الدِّقَّةِ في مَدْرَسَةِ الاقتصاد التي يُرْمَزُ لها عَادَةً بالحروف: L.S.E.، وقادَهُ تَفَوُّقُهُ الدراسي لِيُصْبِحَ مُحَاضِراً في شُؤُونِ الْعِلَاقَاتِ الصَّنَاعِيَةِ في جامعة «ليدز» Leeds، وهذه الخلفية العلمية جَعَلَتْ زُعَمَاءَ الْحِزْبِ بعد انتخابه نَائِباً سنة ١٩٨٣م، يُسْنِدُونِ إِلَيْهِ مَهَامَ مُخْتَلَفَةٍ تَوَزَعَتْ بَيْنَ التَّعْلِيمِ، وَالتَّجَارَةِ وَالصَّنَاعَةِ وَالِدِّفَاعِ وَالْخَارِجِيَةِ وَذَلِكَ كَمُتَحَدِّثٍ فِي حُكُومَةِ «الظِّل» التي كَانَ يَقُودُهَا «كينيك» والذي كَانَ يَرْتَبِطُ بِعِلَاقَةٍ وَثِيقَةٍ مَعَ مُدِيرِ مَكْتَبِهِ - آنذاك «روبن كوك» Robin - Cook. وَكَانَتْ حَلَقَةً، كِينِيك، «وَكُوكُ» «وفاتشيت»، تُمَثِّلُ الْوَسْطَ الْمُعْتَدِلَ الَّذِي عَمِلَ عَلَى تَغْيِيرِ سِيَاسَةِ الْحِزْبِ السَّلْبِيَةِ وَالتَّي كَانَتْ تَقُومُ عَلَى الْإِنْحِيَاذِ الْكَامِلِ لِلْحَرَكَةِ الصُّهْيُونِيَّةِ، إِلَّا أَنَّ الثَّنَائِي «بلير» وَ «بَرَاون» عَمِلَا مِنْ وَجْهَةٍ نَظَرٍ دِينِيَّةٍ إِلَى تَقْوِيَةِ اللَّوْبِي الصُّهْيُونِيِّ فِي الْحِزْبِ، وَهَذَا الْمَسَارُ أَوْقَعَ الْحُكُومَةَ الْعُمَلِيَّةَ الْآخِرَةَ فِي بَعْضِ الْأَخْطَاءِ بِسَبَبِ الْحَمَاسِ الْمُتَنَامِي لِلْحَرَكَةِ الصُّهْيُونِيَّةِ وَالدِّيَانَةِ الْيَهُودِيَّةِ عَلَى حِسَابِ الْمَصَالِحِ الْعَرَبِيَّةِ - الْبَرِيطَانِيَّةِ - الْمُشْتَرَكَةِ. وَكَانَ وَجُودُ مُحَوَّرِ كُوكِ - فَاتَشِيَّتِ، مُهْمًا فِي إِيجَادِ سِيَاسَةٍ مُتَوَازِنَةٍ إِزَاءَ الصَّرَاحِ الْعَرَبِيِّ - الْإِسْرَائِيلِيِّ، وَمَنْطَقَةِ الشَّرْقِ الْأَوْسَطِ - عَمُومًا - لَذَا عَمِلَ «كُوكُ» عَلَى إِسْنَادِ مَلَفَاتِ الشَّرْقِ الْأَوْسَطِ، وَمَنْطَقَةِ جَنُوبِ آسِيَا إِلَى «فَاتَشِيَّتِ»، الَّذِي اسْتِطَاعَ خِلَالِ السَّنَوَاتِ الْآخِرَةِ أَنْ يُطَوِّرَ عِلَاقَاتٍ جَيِّدَةً مَعَ الْمَوْسَّسَاتِ الْعَرَبِيَّةِ فِي لَنْدُنْ، وَكَانَتْ وَفَاتُهُ قَبْلَ سَاعَاتٍ قَصِيرَةٍ مِنْ افْتِتَاحِهِ الْأُسْبُوعِ اللَّبْنَانِيِّ فِي

عُرِفَتِ التَّجَارَةُ الْعَرَبِيَّةُ الْبَرِيطَانِيَّةُ، وَقَبْلَ افْتِتَاحِهِ لِلسَّفَارَةِ الْبَرِيطَانِيَّةِ فِي الْبَلَدِ الْعَرَبِيِّ الْجَزَائِرِ. وَمَعَ هَذَا الْإِنْفِتَاحِ عَلَى الْمُجْتَمَعِ الْعَرَبِيِّ وَالْمُسْلِمِ فِي بَرِيطَانِيَا الَّذِي اسْتَطَاعَ «فَاتَشِيَّت» أَنْ يُجَيِّرَهُ لِصَالِحِ الْحُكُومَةِ الْعُمَالِيَّةِ فِي عِلَاقَاتِهَا مَعَ الْعَرَبِ دَاخِلَ الْمَمْلَكَةِ الْمُتَّحِدَةِ وَخَارِجَهَا فَلَقَدْ كَانَ «فَاتَشِيَّت» كَمَا وَصَفَتْهُ صَحِيفَةُ «الدَّيْلِي تَلْغَرَف» ذَاتَ التَّوَجُّهِ الْمُحَافِظِ بِأَنَّهُ الْإِنْسَانُ الَّذِي كَانَ يَتَمَتَّعُ بِسِمَاتِ الْأَمَانَةِ وَالِاسْتِقَامَةِ، وَهَذَا مَا جَعَلَ مَجْلِسَ الْعُمُومِ بِشَطْرِهِ يَنْجَذِبُ فِي إِعْجَابٍ كَبِيرٍ إِلَى مُدَاخَلَاتِهِ الْمُدْهِشَةِ وَالظَّرِيفَةِ فِي - آَنَ - فِي وَفْتٍ فَقَدْ فِيهِ الْمَجْلِسُ الْغَالِبِيَّةُ مِنَ الْمُتَحَدِّثِينَ الْبُلْغَاءِ الَّذِينَ كَانُوا يَجْعَلُونَ لِلْحَوَارِ نَكْهَتَهُ وَتَأْثِيرَهُ الْبَالِغِينَ. وَبِمَوْتِ «فَاتَشِيَّت» فَقَدْ الْعَرَبُ - أَيْضاً - سِيَاسِيّاً مُنْصِيفاً لَا يَخْشَى مِنْ ضُغُوطِ اللَّوْبِيِّ الصَّهْيُونِيِّ وَتَهْدِيدَاتِهِ، وَكَانَ يُقَدِّمُ مَصَالِحَ بَلَدِهِ عَلَى الْمَصَالِحِ الْيَهُودِيَّةِ الضَّيِّقَةِ. فَهَلْ يَأْتِي بَعْدَ زَمَنِ مَنْ يَكْشِفُ شَيْئاً غَامِضاً فِي حَيَاةِ «فَاتَشِيَّت»، كَمَا اسْتَطَاعَ «بِيْتَر رَايْت» أَنْ يُلْقِيَ شَيْئاً مِنَ الضَّوْءِ عَلَى فُقْدَانِ «جِيْتَسْكِيْل» الْمُفَاجِئِ؟

وجه مضيء من الحياة

يوم توقفت العربة عند مدخل الدار، تباطأت كعادتي في الدخول.. فلقد تعودت ألا أدخل عليه إلا وأنا على هيئة خاصة، ثم دلفت إلى ساحة الدار، كان كل شيء صامتاً فيها حتى تلك الأشجار المتناثرة في حديقة الدار كانت هي الأخرى متناغمة في حركتها الهادئة مع الجو الذي يسيطر على كل جزء من أجزاء الدار، وقفت على باب مقصورته وخلعت حذائي، لقد كان يبادرني - رحمه الله - في الماضي بكلمات لن أنساها ما حييت (الحمد لله على السلامة)، وعلى الرغم من تشوقه لرؤيتي إلا أنه بعد برهة كان يقول لي بنبرة مميزة وابتسامة صادقة: «اصعد يا ابني فوالدتك هي الأخرى في انتظارك».

أمر عجيب! هي تطلب مني ألا أفارقه في كل الأوقات التي يتيسر فيها لي زيارتهم، وهو يأمرني أن أكون باراً بها، ورحيماً في حضرتها، ومحققاً لها ما تتطلع إليه من رغبات، مع أنني أعلم أن رغباتها كانت منحصرة في خدمته، والقيام على أمره.

ويوم أوصد باب غرفتي وأستعيد الماضي البعيد أذرف الدمع غزيراً على (نساء) خلقن على الفطرة، وعشن على الفطرة «رضاء الرجل من رضاء الله» هذه هي عقيدتهن.

ترى كم بقي في الوجود من ذلك الطراز الفريد من الأمهات اللاتي لا يعنيهن شيء من هذا الوجود بعد طاعة الله.. سوى رضا رب الأسرة، والاحتفاء بضيوفه، وعدم إزعاجه مما يمكن أن يدخل في دائرة «المنغصات» و «المزعجات»، ويكفيه قلقاً ما يصادفه في هذا البحث الدائب ليلاً ونهاراً عن هذه اللقمة الحلال.

في هذه المرة تراجعت.. كانت المقصورة خالية، وكانت جدرانها تنطق بتلك الوحشة التي لا تطيقها النفس، ففي هذه الحياة نفارق من نحب لأمد، أو نفارقهم ونحن نعلم أنهم لن يعودوا لنا ثانية ولكن شيئاً من هذا الأمل يظل يراودنا، إلا أن الأمل يتبدد وتظل الحقيقة، ويغيب الحلم لتصحو على الواقع.

دخلت عليها في الغرفة رحبت بي - كعادتها - ولكنها انصرفت بعد برهة لتغلق على نفسها باب غرفتها الصغيرة، تذكرت عبارتها يوم حملوا إليها نبأ رحيله - رحمه الله - قالت بلسان الفطرة «لقد طاح الجمل» وحبست دموعها طوال أيام اجتماع الناس حولها - فهذا هو الصبر عند الصدمة الأولى - ويوم تفرق الجمع من حولها تركت دموعها تسح وأطلقت العنان لخيالها، إنها تعود إلى الورا.. لزمن يقرب من نصف قرن، لقد تركت وراءها شجيرات النخيل، ومضارب الخيام، تركت السماء الصافية والجبال الشامخة وقوماً يبيعون متاعهم إذا لم يجدوا في منازلهم ما يقدمونه للضيف أو النزيل، وصاحب الحاجة.

وجاءت لتسكن في الأرض التي يقصدها الناس من كل مكان في هذا الوجود، تسمع الأذان ندياً، والقرآن مرتلاً، والحارة يملؤها الحب وتكاد تنطق منازلها بالرحمة، الناس أسرة واحدة لا يفرقهم فرح أو حزن ولا

تساوي المادة في حياتهم شيئاً، قوم أكرمهم الله بالجوار وتفضل عليهم بالنعمة فكان الشكر على ذلك كله هو الأدب في البقعة التي لا يدانيها في الشرف والرفعة بقعة في هذا الكون.

بعد نصف قرن من الزمن لا تزال (ربة الدار) تعود مع أذان (المغرب) إن هي خرجت لأمر ضروري، تعود لصنع (القهوة) وإخراج التمر من (شنته) ووضع ذلك بالقرب من المكان الذي كان يقيم فيه - رحمه الله - ويتجمع الأحباب حوله ليملاًوا أنظارهم منه، وهي ترفض أن تحيد عن هذه العادة، وإذا خاطبها أحد بقوله: «لقد رحل العزيز يا أماء»، لا تجيب بأكثر من عبارة: (ولكنه يعيش في قلبي ووجداني ولا تفارق طلعتة البهية ناظري، فلا تلموني على صنيعي).

ومن هذا الذي يلوم نفساً وفيه، وقلباً صادقاً، ولساناً لا يعرف الزيف أو الكذب والتلجلج؟!!

يوم رحلت عنا إلى مثواك الأخير!

تعودت أن أراك تخرج من الدار منتصب القامة، شامخ الأنف، حسن الهندام، ثم رأيته وأنت تخرج منها ولكن ليس على تلك الصورة التي تعودت عليها عيناى، وكنت في كل مرة تعود إلى الدار في (المدرج) أو في (الزاهدية) أو في (قباء)، ولكنك في هذه المرة خرجت على قدميك، كأني أسمعك وأنت تذكر الله، تستعين به، وتردد ذكر المصطفى - عليه صلوات الله وسلامه - الذي اخترت أنت وآباؤك من قبل سكنى دياره ولم ترض عنها بديلاً، وكأن إحساساً غريباً يتوطن نفسي أن خروجك الأخير هذا لن تعود بعده إلى الدار التي ارتبطت بك، وارتبطت بها منذ زمن.

ويوم وقفت على رأسك في إحدى ليالي الشهر المبارك أشرت إليّ بيدك التي لم أرها تهتز من قبل كاهتزازها في تلك الليلة، اقتربت منك، طبعت قبلة على جبينك الأغر، وإذا بك تبتسم تعيد إليّ ذكرى أحباب ودّعوا هذه الدنيا قبلك، نشأت أعرفهم أحباباً لك، جلساء في مركزك، يأنسون إليك وتأنس إليهم، وكنت صغيراً آنس بمراهم كما آنس بحديثهم، ثم صمت وأنت تقول: السوق مزدحمة يا ابني!. وعرفت من ابتسامتك، ومن نظراتك المحلقة في عالم الملكوت، أي سوق أنت تقصد ليست (المناخة) حيث العمامة الصفراء، والعباءة المطرزة التي كان الآخرون في

ماضي الزمن يفتحون (رواشين منازلهم) ليروا صورة ذلك الفتى المشرق الوجه، الحاد النبرة، الثابت الخطوة. وليست السوق حيث كان القوم يتحلقون في (باب المصري) أو في رحاب (العنبرية) أو على مشارف (العينية)، إنها سوق (الآخرة) وأنعم بها من سوق لأنها السوق الراححة.. السوق الخالدة التي لا تعرف الزوال..

وبقيت بعد تلك العبارات التي همست بها في أذني همساً.. عيناك مفتوحتان.. ربما ظن أنهما مفتوحتان على الدنيا في عالم الظاهر، بينما هما تستشرفان عالم الغيب الذي يُحجب عن الأحياء مرآه، ولكن لا بد لهم من ولوجه مهما طال بهم الزمن على ظهر هذه الحياة.

ثم حانت (لحظة الوداع) كانت أشبه بالحال التي ترتخي فيها الأهداب، ويداعب الكرى فيها الأجفان، كانت السبابتان منك مرفوعتين إلى أعلى، والوجه منك يا أبتاه كقطعة قمر، كنت أسمع منكم كبار القوم في بلد المصطفى - ﷺ - تتحدثون عن تلك الخاتمة الحسنة التي يكرم الله بها جيرانه وجيران نبيه، وكانت لحظات وداعك هي (البرهان) و (الدليل) على ما كنت أسمعته منذ سن اليقاعة، ولكنني رأيته حقاً وأنا على مشارف الكهولة.

ويوم صعد منك السر الإلهي إلى عالم الملكوت، كان (الأذان) يرتفع من جوار الروضة الطاهرة، والضريح المبارك، والمحراب الذي خلدته آيات الوحي الذي تنزل على سيد ولد عدنان - عليه صلوات الله وسلامه - وحملناك إلى دارك الأخيرة، كانت الأكتاف تتزاحم، ولكن الجسد كان يلاحق الزمن تواقاً لرؤية مثواه الأخير، حيث صحابة رسول الله - ﷺ - وآل بيته وتابعوه - رضوان الله عليهم أجمعين.

وَكَمْ شَقَّتْ (الْمَسَاحِي) مِنْ (لَحُود) وَكَمْ حَثَوْنَا التُّرَابَ عَلَى أَكْرَمِ النَّاسِ
وَأَقْرَبِهِمْ إِلَى قُلُوبِنَا، وَصَدَقَ اللَّهُ الْقَائِلُ فِي مُحْكَمِ تَنْزِيلِهِ (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ
وَفِيهَا نَعِيدُكُمْ، وَمِنْهَا نَخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى).
رَحِمَكَ اللَّهُ يَا أَبَتَاهُ وَأَسْكَنْكَ وَجَمِيعَ مَوْتَى الْمُسْلِمِينَ فَسِيحَ جَنَاتِهِ.

وغمضت جفنيك يا عزيز القوم

استيقظت كعادتي مع كل صباح ولكنني في هذا اليوم لم أسمع النداء يأتي من أسفل الدار كما تعودته منذ ما يقرب من أربعين عاماً، تسللت في شيء من الذهول إلى حيث تجلس، وكانت النفس مني يملؤها الحب لك والمهابة منك، كان كل شيء في المكان يغطيه الصمت، كان المكان فسيحاً فأضحى في ناظري صغيراً، كنت أملأ العين من محياك المشرق.. لم يذهب البهاء من ذلك المحيا وأنت تدلف يا أبتاه نحو التسعين من عمرك، واليوم أجيل البصر في المكان فلا أجد من ألقى عليه تحية الصباح.. ولا ألقى من أطبع القبله على جبينه ولا أسمع أعذب عبارة في حياتي كلها: «الله يرضى عليك ولا يريني فيك وفي إخوتك السوء» دعاء كنت - يا أبتاه - تخرجه من أعماقك وتصوغه من وجدانك، ورجعت بذاكرتي إلى الوراء، تذكرتك وأنت تجلس وسط أصدقائك في ذلك الحي الفسيح في «المناخة» أو عند منعطف باب المصري، تأخذ بيدي وتقول لي: هناك كنت أستأنس بالحديث إلى الرجل العارفة «ذياب ناصر»، ثم تأخذك العاطفة فتبكي.. هنا في «دكة الترجمان» كان المرحوم ناصر حمزة غوث لا يفارقني ولا أفارقه.. نشأنا سوية ولكن العمر يا بني لم يطل بابن غوث، وتروي لي الحديث مفصلاً: صعدت مع ناصر ووالده إلى بستان «أم الشجرة» قبل ما يقرب من نصف قرن إلى حفل يقيمه «ذياب ناصر»

لحمزة غوث . سمعت الشيخ ذياب يقول : عندما ضحكت الدنيا للسيد عبد الله مدني أقام بستان أم الشجرة ، ثم تشير إلى الدار التي كانت ترتفع فوقها القبة المصنوعة من الحجر ، هناك كنت أجلس إلى الشيخ عبد العزيز الخريجي - رحمه الله - لقد كان الرجل يحبني ولا يسافر خارج المدينة إلا ويصطفيني بين الآخرين .

وجاءك رجل يوماً يهمس في أذنك وأنت تنعم بالجلوس في «مركزك» فإذا بك تضع عمامتك الصفراء فوق رأسك ، ترتدي عباءتك . . لقد تعودت ألا أسألك إلى أين أنت ذاهب؟ ولقد تعودت أن أصمت في حضرتك كبقية إخوتي أدباً واحتراماً ، فإذا أنت تنعطف في مسيرتك إلى حي سيدنا مالك بن سنان - رضي الله عنه - وتصعد داراً عالية . . تدنو من الرجل فيقول لك : لقد اشتقت إلى حديثك - يا أبا علي . كان الرجل نحيلاً وكنت أحس من عباراته أنه مودع هذه الدنيا ، تتوجه بالقول لي : هذا يا ابني الشيخ محماس الدخيل ، جدهم في الحقبة الماضية - على وجاهته - كان لا يحلو الجلوس له إلا مع رجال الحارة . وأسألك عن رجل كان يقصد مجلسك بين الحين والآخر ولكنه كان قليل الحديث . . تبتسم وتقول لي هذا «علي كاموخ» كبقية المطاليق في المدينة المنورة الذين كانوا يرعونني إبان نشأتي منهم «درويش سعد» ، «يوسف صيادة» ، «قاسم مراد» ، «حمزة محرم» ، «حمزة نور» ، وفي فترة لاحقة من حياتك كان لك أحباب اصطفيتهم ، أو اصطفوك ، أدنيتهم من نفسك كما لم تدن أحداً من قبل ، في مقدمتهم عثمان أبو عوف ، والسيد عباس سقاف والسيد عبيد مدني ، وهاشم كماخي والسيد أديب صقر ، وإبراهيم شاكر ، وحليت بن مسلم ، والسيد صالح حلواني ، وإبراهيم صبيحي ، ومحمد علي بن عساف ، وشاهر

بن حمد، وعبد الله بخيت، والسيد أحمد محضار، وعبد العزيز ساب،
وعبد الحميد المعقل، وعبد الرحيم عويضة ومحمد علي عبد الرحمن
المويلحي.

لست أدين لك بعد الله.. بلقمة العيش الحلال التي كنت تكدح ليلاً
ونهاراً لتوفرها لي ولإخوتي، ولكننا يا أبتاه ندين لك كذلك بتلك المثل
الرفيعة التي كنت تؤمن بها.. تعنتقها ولا ترضى أن تحيد عنها. لقد
سمعتك يوماً تقول لمن سألك عن قوم في البلد الطاهر وكان رجلاً من
أهل العلم والفضل. تقول له: يا فضيلة السيد، لقد عاش في المدينة
المنورة بيننا أقوام لم يكونوا أبناء الأحرار ولكنهم بصنيعهم كانوا يفوقون
أبناء الأحرار، وسألك يوماً شاب: خؤولتنا يا عم حمدان واحدة. ترى ما
هو أصلهم؟ تصمت ويأتيه الجواب حاسماً وموجزاً: (الأصل طيب يا بني
وكفى).

لم يكن يسوؤك شيء في هذه الدنيا كما كان يسوؤك الحديث في
شؤون الناس بما يكرهون، بل كنت تحتد إلى درجة الغضب ويبلغ بك
الأمر إلى ترك مجلس تكون بضاعته تجريح الآخرين والخوض في
خصوصياتهم.

أنت خريج مدرسة الحياة الذي لم يكن همه جمع المال ولكن
طموحاته في الحياة كانت شيئاً آخر، كنت تدعو إذا رضيت بالتفوق،
وبالهداية إذا أصابك شيء من الغضب، وكنت تحذر البعض من الدعاء
على أبنائهم، وكان ذكر الله أنيسك في السراء والضراء وكان حب
المصطفى ﷺ متغلغلاً في أعماق نفسك.. تذرّف الدمع إذا ذكر اسمه
الشريف، وتقف على ضريحه المشرف في وقار وسكينة.

لقد ورثتنا، يا أبتاه، حب الله وحب رسوله وأصحابه وآل بيته، وإننا
لنتشرف بما ورثتنا إياه، فتم قرير العين أيها الحبيب في الربوة الطاهرة،
حيث ينثر رب العزة والجلال في يوم الميعاد أهل البقيع في الجنة نثراً كما
ورد في الأثر الصحيح.

إنهم جيران المصطفى نشأوا على التأدب معه ومع صحابته وآل بيته -
رضوان الله عليهم - ونشأوا أبناءهم على هذا المسلك الإيماني القويم،
فهنيئاً لقوم ناصر أجدادهم سيدنا رسول الله ﷺ - في دعوته - ففازوا
بالقرب منه وحظوا بالرعاية في كنفه الشريف، وهنيئاً لأحفاد أولئك القوم
العظام الذين تفتحت عقولهم وقلوبهم وأبصارهم على ذلك النور المضيء
وتلك الشمس المشرقة، إن حياتهم يا صديقي لتختم بالإيمان الكامل وما
أروعها من خاتمة وأكرمها من نهاية.

حمد الجاسر المؤرخ والنسابة والأديب

كنتُ واحداً من الذين عرفوا الشيخ حمد الجاسر - رحمه الله - من خلال (مجلة العرب) قبل أن أعرفه من خلال مؤلفاته التي كُتِبَ، وكُتِبَ التاريخ والأنساب التي حقق، فلقد كانت مجلته لا توجد في الأماكن التي تباع فيها الصحف والمجلات ولكنها توجد في خزائن الكتب العلمية: (مكتبة عارف حكمت) و (مكتبة المدينة العامة) و(المكتبة المحمودية). ويبدو أن صلة الشيخ بمكتبة عارف حكمت والتي كانت تقوم في الجهة الجنوبية من المسجد النبوي الشريف هي صلة قديمة تعود للخمسينات الهجرية، عندما كان الشيخ الجاسر يدرس في مدينة ينبع والتي انطلق منها باحثاً ومحققاً. فلقد كان يتحدث عن جبل رضوي ولا يعرف موقعه، فأشار أحد الطلاب للشيخ إلى موقع الجبل فكانت هذه الحادثة بمثابة الشرارة التي بعثت في نفس الشيخ حب البحث والتحقيق المعرفي والموضوعي والشامل. ويذكر الشيخ الجاسر في مقدمة كتاب (تذكرة الألباب في أصول الأنساب) عنايته بالمخطوطات الفريدة التي عثر عليها بين جدران مكتبة «عارف حكمت» بمدينة الرسول ﷺ، فيقول ما نصه: «في سنة أربع وخمسين وثلاث مائة وألف، كنت مدرساً في مدرسة ينبع الابتدائية، فأمضيت جزءاً من صيف تلك السنة في المدينة المنورة، وكنت في ذلك العهد شغوفاً بالمطالعة، فكنت أتردد على مكتباتها، وكان من

أحفلها بالمخطوطات (مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت)، وكان مما نسخت من مخطوطات تلك المكتبة كتاب (النبات) للأصمعي، ولخصت كتاب (الروض المعطار) للحميري، ولخصت جزءاً من (معجم ما استعجم) للبكري (انظر: العرب، ج ٧، و ٨، س ١٥، محرم - صفر ١٤٠١هـ).

هذه الصلة العميقة بين الشيخ ومكتبات المدينة هي التي دفعته فيما بعد لتحقيق كتاب (المغانم المطابة في معالم طابة) للفيروز آبادي، الجزء الخاص بالمواضع. وأخال أن الشيخ - رحمه الله - حصل على النسخة الخطية لهذا الكتاب من الشيخ النمنكاني - رحمه الله - ولا يعرف مصير الأجزاء الباقية من هذا الكتاب الهام.

كما قام الشيخ بنشر كتاب «رسائل في تاريخ المدينة المنورة ضمن سلسلة دار اليمامة بالرياض سنة ١٣٩٢هـ وكان من أهمها رسالة «وصف المدينة المنورة في سنة ١٣٠٣ - ١٨٨٥م» لعلي بن موسى، وقد عهد «الجاسر» للمؤرخ السيد عبيد مدني - رحمه الله - بكتابة ترجمة «علي بن موسى» وقيمة الكتاب العلمية، ويبدو أن الدكتور «علي» مهتم بتاريخ المدينة المنورة ويعتبر بحثه الموسوم «المؤلفات العربية عن المدينة والحجاز» والمنشور في مجلة المجمع العلمي العراقي «المجلد الحادي عشر، سنة ١٣٨٤ - ١٩٦٤م، من المراجع الهامة في تاريخ البلدة الطاهرة.

ونظراً لانتساب الشيخ لقبيلة حرب، ولبني علي خاصة، فقد كان مهتماً بمخطوطة كتاب (الأخبار الغربية في ذكر ما وقع بطيبة الحبيبة) للسيد جعفر بن هاشم الحسيني المدني لاحتوائها على أخبار تخص بني علي والذين يقطنون - أيضاً - المدينة وما جاورها من المناطق، وفي مداخلته

العلمية على صفحات ملحق الأربعاء الأغر لما كتبته عن نسب السيد أحمد العربي وأبناء عمومته في المدينة «الشريف عبد الله بن حسين وعائلته وذريته» أشاد بما بذله العبد الفقير إلى الله بالتحقيق العلمي الذي قمتُ به لهذا الكتاب كجزء من رسالة الدكتوراه المقدمة لقسم الدراسات الشرقية بجامعة مانشستر بالمملكة المتحدة سنة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، ويعنوان:

(The, Literature, of, Medina, in the, Twelfth, Century. A. H, Examine, from, Contemporary Sources.)

(أدب المدينة المنورة في القرن الثاني عشر الهجري - الثامن عشر الميلادي دراسة نقدية اعتماداً على المصادر المعاصرة).

لقد اهتم الشيخ الجاسر - رحمه الله - بعلم الأنساب قديماً وحديثاً، وقاده هذا الاهتمام لتحقيق كتاب «الإيناس في علم الأنساب»، وكتب مؤلفه المعروف «جمهرة أنساب الأسر المتحضرة في نجد» ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، كما أخرج كتاباً عن أنساب القبائل أسماه «معجم قبائل المملكة العربية السعودية» ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

وخرج المرحوم «الجاسر» بنتيجة هامة بعد رحلة طويلة في علم الأنساب دَوَّنَهَا في بعض مؤلفاته فقال: «ولقد عنيت بالأنساب عناية حملتني على مطالعة كثير من مؤلفاتها مطالعة بحث ودراسة، وجمعت كثيراً من تلك ونسخت ما لم أستطع اقتناؤه منها، وحاولت أن أوّلف في هذا الموضوع الذي أدركت اهتمام الناس في بلادنا به، وللحياة الاجتماعية أثر كبير في ذلك فلا يزال جل سكان قلب الجزيرة تقوم حياتهم على التكافؤ في النسب، ويشددون في هذا الأمر تشديداً كثيراً ما سبب مشكلات وأموراً صعبة» ثم خَلَصَ المرحوم الجاسر لنتيجة هامة يوافقه

عليها كل مسلم يؤمن بالميزان الذي وضعه الإسلام للتفاضل بين الناس، ألا وهو التقوى والأعمال الصالحة، يقول في هذا الشأن الفقيه «الجاسر»: «وأخلص مما تقدم على أنني أنظر الآن إلى علم الأنساب باعتباره من تراثنا القديم فهو جزء من تاريخ الأمة يُنظر إليه كما يُنظر إلى ذلك التاريخ، لا أن تبني عليه مقومات الحياة الاجتماعية في هذا العصر، أو يعتبر من الأمور التي يميز بها بين الناس تمييز تفاضل، بصرف النظر عن أسباب التفاضل الصحيحة وهي الأعمال». (انظر: العرب، ج ٧ - ٨، ص ١٥، محرم/ صفر سنة ١٤٠١هـ، ص ٤٨٣ - ٤٨٤).

يُحمد للشيخ، في تاريخه العلمي والثقافي والفكري، ريادته للصحافة في المنطقة الوسطى من بلادنا العزيزة، فلقد أصدر أول صحيفة من قلب الجزيرة العربية وهي الإمامة وكان صدور العدد الأول من الإمامة في شهر ذي الحجة ١٣٧٢هـ الموافق أغسطس ١٩٥٣م، ويذكر السيد عثمان حافظ - رحمه الله - «أنها صدرت على شكل مجلة في ٤٢ صفحة على مقاس ٢٨ - ١٨، وقد أشارت الإمامة إلى أنها صحيفة أسبوعية جامعة تصدر - مؤقتاً - في أول كل شهر». (انظر: عثمان حافظ، تطور في المملكة العربية السعودية، ج ١، ص ١٨١ - ١٨٣، شركة المدينة للطباعة والنشر).

ويعده الأستاذ الناقد عبد الله عبد الجبار «من مقدمة الكتاب الاجتماعي المعنيين بدراسة نواحي الضعف في الجزيرة العربية، والتنبيه عليها، ووضع الأسس القويمة لعلاجها». (انظر: عبد الله عبد الجبار: التيارات الأدبية الحديثة في قلب الجزيرة العربية، النشر، فن المقالة).

ولقد تشعبت الميادين العلمية والفكرية التي كتب فيها الفقيه حتى

أضحى مرجعاً في تاريخ هذه البلاد، وجغرافيتها وسكانها وآثارها، وكان أوّاباً عندما يعرف ويتيقن من الصواب أو الرأي المجمع عليه دراية وبحثاً. فلقد كتب بعد وفاة الأستاذ الكبير عبد القدوس الأنصاري - رحمه الله - يرثيه رثاءً حاراً، ويعترف بأن الرأي الصحيح في اسم مدينة «جدة» هو الضم - وهو ما كان يذهب إليه المرحوم الأنصاري - ومجموعة من مجايليه - كالأستاذ الأديب عبد الرحمن المعمر - أمد الله في عمره ، وقد اختلف مع المؤرخ الكبير السيد «أمين مدني» حول بعض القضايا المتصلة بالتاريخ العربي، فسأل عنه ذات مرة فقال إنه «أديب وقور».

واليوم وقد نضجت فكرة إنشاء مجمع للغة العربية بمهد العروبة والإسلام، فحبذا لو حملت قاعته أو قبته العلمية اسم هذا الرائد الكبير فذلك من حقه على بني قومه أن يكرّموه ميتاً كما كرّموه حياً.

قصة العلاقة الحميمة بين حرب وآل حافظ

سررت جداً بالكلمة الصادقة التي سطرها قلم رئيس تحرير صحيفة (المدينة) الغراء الصديق الأستاذ أسامة بن أحمد السباعي في عدد من أعدادها.. وهذه كلمة أكتبها وباعثها الحرص على حقائق التاريخ من التشويه، وإيجاد التآلف والمحبة بين الناس في هذه البلاد المباركة التي تدين بالإسلام شريعة وأخلاقاً وسلوكاً.

أكتبها بعد انتقال والدي - إلى الدار الأخرى - والكل يعلم سواء في بلد المصطفى ﷺ أو خارجه أنه كان - رحمه الله - مخالطاً لمشائخ (حرب)، عارفاً بعاداتهم. فلقد عاصر الرجال الكرام منهم من أمثال المشائخ: عساف بن جزاء الأحمدي، وابنيه محمد علي وعباس، شاهر بن حمدان محمد بن سليمان الأحمدي، ومنصور الأحمدي، وأبنائهما و خليل العبيري، ومطلق بن شنيف الرادادي وأسرته - رحمهم الله جميعاً وأسكنهم فسيح جناته. كما أنه في حياته كان على صلة بذوي الفضل منهم من أمثال (عبد الرحمن بن خلف بن حذيفة، عائش الأحمدي، ثلاب بن زيد، عقيل الأحمدي، سليمان ونعيمش الأحمدي، خليل العبيري، خالد محمد علي بن عساف وأخوته وغيرهم - أمد الله في حياتهم - وكان مصدر هذه المعرفة الوثيقة هو انتقال الوالد قبل أن يبلغ العشرين من عمره إلى قرية

(المسيحيد) وبقاؤه هناك حوالي ثلاثين عاماً وإن كان في خلال هذه الفترة لم ينقطع عن المدينة حيث يقيم أهله وأقاربه. ولقد حدثني أنه عندما أتى السيدان الكريمان (علي وعثمان حافظ) إلى المسيحيد، كان الوالد آنذاك مقيماً بها. ولقد ذكر السيد عثمان في مذكراته طرفاً من ذكرياته مع الوالد هناك، وأن والدي - رحمه الله - الذي لم يزل جسده طرياً في أظهر بقعة، وأشرف منزل في هذه الدنيا، كان يشيد بالسيدين الكريمين ووالدهما المرحوم السيد عبد القادر، ولقد سألته يوماً عن جد هذه الأسرة الكريمة.. فقال لي في كلمات لا تزال ذاكرتي تحتفظ بها: لقد كان سيداً وأي سيد؟ وأضاف: كان الناس يستدينون منه في السوق فلا يحرجهم بسؤال، ولا يضيق عليهم في قضاء، وكنت يوماً في مجلسه (بالزاهدية) فدخل علينا السيدان زهير وسعود حافظ، فذكر السيد زهير أن أخويه (علي وعثمان حافظ) استداننا من والدهما السيد عبد القادر مائة جنيه من الذهب ليستعينا به على إنشاء المدرسة، وأنهما لم يقضيا هذا الدين إلا بعد وفاة والدهما، فأمن والدي - رحمه الله - على قولهما. فكيف يعقل أن يغامر السيدان بما يملكان من متاع، ويفتحان مدرسة في قلب الصحراء. في الوقت الذي كانت فيه المدارس في المدن لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة - كيف يغامران مثل هذه المغامرة إن لم يكن هدفهما هو العمل المجرد لله ورسوله ﷺ؟

ولم يعرف عن السيدين في حياتهما أنهما أساءا إلى أبناء قبيلة حرب، ولم يذكر (المسيحيد) وأهله إلا بكل خير، فكيف إذن يمكن لكلمة تورد خطأ أن تجعلنا ننسى ذلك التاريخ المضيء والمشرق للسيدين الكريمين واللذين لا نستطيع أن نحصي مآثرهما في المدينة نفسها وغيرها؟ وحاشا

أن يكون غرض السيدين هو التكسب أو الشهرة. فلقد حظي السيدان بمناصب عديدة وكانا يسلكان فيها خير مسلك ويتمتعان فيها بأعظم منقبة.

وعندما علم السيد (علي) في منتصف الثمانينيات الهجرية أنه لا يستطيع تقديم المزيد لرئاسة بلدية المدينة تركها في هدوء، وانسحب من الحياة العامة ليسكن (جدة) ويتفرغ للتأليف العلمي.

وإنني أذكر - تماماً - كيف أن صديقاً لوالدي تعرض في مجلسه - ذات يوم - لآل (حافظ) بما لا يليق، فنهره الوالد وقال له: إنني أعز آل (حافظ) ولا أريد أن يذكرهما أحد بسوء في مجلسي، وفي الوقت - نفسه - كان يشيد بكرم قبلة (حرب) وينثر على أسماعنا أخباراً عن رجالاتها المخلصين، وأهلها الأوفياء، وإذا كنا لا نرضى أن يشوه تاريخ السيدين بأي سوء، فلا نرضى أن يذكر أهل (المسيحيد) وأبنائهم إلا بكل خير يتلاءم مع مقامهم ومنزلتهم الرفيعة.

وما دمت بصدد الحديث عن هذه المدرسة العزيزة على النفس فإنه لا بد من الإشارة إلى رجل أسهم عند إنشائها في تربية النفوس، وتثقيف العقول، وحمل الأمانة العلمية التي حمله إياها مؤسس المدرسة، أما الأستاذ الرائد فهو الأستاذ (سالم داغستاني) الذي يعترف له أبناء المدرسة جميعاً بالفضل، ويقرون له بالمعروف، لقد خرج (سالم) من المدينة وكان يومها في (رغد) من العيش فهو سليل أسرة علم وفضل، لقد ضحى (سالم) بحياته في المدينة، وخرج (للمسيحيد) يحدوه باعث العلم والواجب الوطني وأخرج معه أسرته من المدينة، وظل هناك سنين عديدة يؤدي واجبه في صمت وهدوء، ثم عاد بعد رحلته تلك إلى الأرض الطيبة، وإنني لا أذكر تماماً، سمته الهادئ وهو يخرج من داره في دكة

الترجمان) بالعنبرية متجهاً صوب (قباء)، ثم يعود لداره قبل حلول الليل، وفجأة يفقد الرجل الفاضل فلذة كبده، فيطوي نفسه على أحزانها ويلزم داره، ولقد حدثته تليفونياً قبل وفاته فكانت كلماته موجزة، ولم أر أن أثقل عليه، فوضعت سماعة التليفون، والدمع ينحدر من عيني على هذا الرائد المتواضع ثم إذا به بعد وقت وجيز يفارق الحياة الدنيا ليستقر في (ربوة البقيع) حيث كان مؤمناً صادقاً ومحباً لله ورسوله المصطفى - ﷺ - يتطلع أن تكون تربته بجوار صحابة رسول الله ﷺ وآل بيته وتابعيه، أنعم بها من تربة، وأكرم به من جوار، والنفوس يا صديقي ظمأى لموارد الحب والوجدان، منابع الرضا والرضوان.

ولقد سمعت والدي بعد وفاته يقول: رحمك الله (يا سالم). ويعقب قائلاً: لئن كان (لآل حافظ) الفضل في إنشاء المدرسة فإن (للداغستاني) الفضل في إدارة المدرسة.

إن لحظة الغضب والانفعال يجب ألا تمنعنا من قول الحقيقة وهذه شهادة أدلي بها، والكل يعلم أن لي في (حرب) خوؤلة أعتر بها، وقراءة أشرف بها، ونسباً لا أتحاشاه.

رحم الله آل حافظ، ورحم الداغستاني، ورحم الرجال الكرام من شيوخ (حرب) ورجالاتها الأفاضل، فلقد كانوا قلباً واحداً، ويداً واحدة، وسوف يظل الحب هو تلك العلاقة التي تربط بين القرية التي نعتر بأهلها أعني (المسيجيد) وإنهم جزء من مدينة الحبيب ﷺ، البلدة التي شع منها نور الهدى، فاستقامت به النفوس وارتوت منه القلوب، وإنهم جميعاً في المدينة وما حولها من ضيع وقرى يجب عليهم أن يتمعنوا في معاني هذا الحديث النبوي الصادق الذي رواه عبد الله بن زيد بن عاصم، لقد قال

حبيبي وسيدي رسول الله ﷺ مخاطباً (الأنصار) بعد موقعة (حنين) بالطائف: «ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وتذهبون بالنبى - ﷺ - إلى رحالكم، لولا الهجرة لكنت امرأاً من الأنصار، ولو سلك الناس وادياً وشعباً لسلكت وادي الأنصار وشعبها، الأنصار شعار، والناس دثار، إنكم ستلقون بعدي أثرة، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض». انظر، فتح الباري لابن حجر، ج ١٦ ص ١٦٣.

ما أبلغك يا سيدي يا رسول الله وما أكرمك! فلقد جعلت الحوض المكان الذي سوف يلتقي فيها أحبابك وأنصارك بك، فاللهم اجعلنا جميعاً منهم، إنك على كل شيء قدير.

الصلة بين الأدب والبيئة في تراث الجاحظ والنقد الغربي الحديث

أشار الدكتور جابر عصفور في مقالته عن الرائد المنسي «أحمد ضيف» بصحيفة الحياة «٢٩ جمادى الآخرة، ١٤٢١هـ» أن «ضيف» اهتم بمذهب «سنت بيف»، ومذهب «هيبوليت تين» في أهمية الرابط بين الكاتب وبيئته، ولا بد لنا من التعرف بداية على رأي هذين الناقلين الغربيين في هذا الموضوع النقدي الهام.

يقول سانت بيف - وهو من أكثر النقاد الفرنسيين شهرة ١٨٠٤ - ١٨٦٩م: «إن العلاقة بين العمل والمؤلف - بما يكتنفه من ظروف عائلية، وقومية، وحقبة تاريخية، وارتباط تلك الحقبة بالحقبة الأخرى، بما يشكل دوائر ذات مركز واحد - أمر ضروري لعملية التقويم التي يقوم بها الناقد» (انظر: مقالات في النقد الأدبي، د. إبراهيم حمادة، دار المعارف، ص ٩٢).

أما هيبوليت تين (١٨٢٨ - ١٨٩٣م)، فقد التزم كما يذكر د. حمادة بمعايير ثلاثة في تحليل العمل الأدبي وتصنيفه، وهي: الجنس، الحاضر، البيئة، أي الشخصية القومية، والعصر أو الحقبة، والظروف الاجتماعية العامة، ويخرج بنتيجة مفادها أن العمل الأدبي في الغالب هو نتاج هذه العوامل مجتمعة.

ولسوف نعرض لنظرية الأديب والناقد العربي عمرو بن بحر الجاحظ، للتنبيه إلى أن ما ذهب إليه نقاد غربيون من أمثال «سنت ييف» و «تين» في العصر الحديث من ربط بين الأديب وبيئته وجملته العوامل الأخرى المؤثرة في نتاجه الأدبي، هو مما سبق إليه النقاد العرب وفي مقدمتهم محمد بن سلام الجمحي، وعمرو بن بحر الجاحظ، ويرى الناقد العربي الجاحظ الذي عاش في الحقبة الزمنية الممتدة بين سنة ١٥٩م - إلى ١٢٥٥هـ ، بأن الشعر يعتمد على ثلاثة عناصر: الغريزة «أي الطبع المواتي للشعر»، والبلد «أي البيئة»، والعرق «أي الصلة من حيث الدم»، ونص عبارته في هذا الارتباط الوثيق بين الشعر والعناصر المحددة تحديداً دقيقاً، هي: «وإنما ذلك (أي قول الشعر) عن قدر ما قسم الله لهم من الحظوظ والغرائز والبلاد والأعراق». (انظر: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، د. إحسان عباس، ط ٤، ١٤٠ - ١٩٨٣م، ص ٩٦).

وعند المقارنة بين آراء ابن سلام النقدية وآراء الجاحظ الموازية لها من حيث تأثير البيئة في الأدب عامة، نجد أن الجاحظ طور كثيراً هذا المفهوم وتوسع فيه فكانت «نظرته إلى دواعي الشعر أقدر على تفسير ظواهر أدبية كثيرة، وأشمل من فكرة ابن سلام عن البيئة وأثرها، فاختلف موقف الجاحظ عن موقف ابن سلام من أثر البيئة في الشعر، وخالفه أيضاً في اعتبار مظهر من المظاهر يساعد على كثرة الشعر، أو قلته، وبهذا لم يعتبر الجاحظ أن عاملاً واحداً كالحروب يكفي لإكثار شعر قرية أو قبيلة. (انظر: النقد في العصر الوسيط، د. حسن عبد الله شرف، ط ١٩٨٤م، ص ١٦٠ - ١٦١).

إذا كانت البيئة لها ارتباطها بما يبدعه الفنان أو الأديب وإن إنتاج

الأديب لا يمكن تفسيره إلا في ضوء جملة من العوامل ذات الصلة المباشرة بالإنسان، فإن السياق الحضاري والفكري والاجتماعي له هو الآخر أثره في نشأة الفنون الأدبية وتطورها، فبيئة الأندلس بكل خصائصها الحضارية أدت إلى نشأة الموشحات في القرن الخامس الهجري، كما أن شعر التفعيلة في العصر الحديث لا يمكن تفسير نشأة قصيدته الخاصة بلغتها وصورها وإيقاعها الموسيقي بعيداً عما شهدته الأمة العربية من عمليات تحرر من المستعمر الأوروبي البغيض، وتطلع الأمة إلى مستقبل تبني لبناته على ضوء ما تتطلع إليه المجتمعات العربية - آنذاك - من أهداف وطنية وتطلعات حضارية مستقلة.

وإن كان الباحث س. موريه S. Moreh، يرى في كتابه (الشعر العربي الحديث (Modern, Arabic, Poetry, 1800-1970) أن التراث الشعري الأوروبي وخاصة قصائد ت.س. إليوت، كانت وراء عملية التطور الشعري العربي في العصر الحديث، ومع هذا التأثير لا يزال هذا الشعر مرتبطاً بالبيئة العربية في دلالاته ورموزه وحتى أساطيره.

طيبة وذكريات الأحبة

سيرة أمة وأحاديث رجال

في مؤلفاته التي اختار لها اسماً مغريباً وهو (طيبة وذكريات الأحبة) يأخذك أحمد مرشد من خلال أحاديث رجال البلد الطاهر والتي تجسدت فيها العفوية والبساطة، يأخذك إلى أزقة المدينة، وأسواقها المتميزة التي كانت تتناثر بين المناخة، وسوق الحبابة، وباب المصري، وسويقة، وباب الجمعة، وباب المجيدي، وزقاق الطيار، والعنبرية، وقباء.

وتطرح على نفسك السؤال: ألم يكن الأوائل أكثر حرصاً منها عندما يطلقون على المكان اسماً معيناً؟ إن حرصهم يبرز في المواءمة بين المكان وما يمثله في الأذهان، ولهذا فإننا قد ننسى أسماء جديدة وتبقى الذاكرة مضيئة ومتوقدة بالأسماء القديمة نتمنى أن نقبض عليه بأيدينا لأنه يعيدنا إلى أيام حياتنا الأولى حيث «الفطرة» التي لم تفسدها تعقيدات «التكنولوجيا» المعاصرة، حيث ترابط الناس ليس كأسرة فقط، بل كأسرة صغيرة كبيرة تضم جميع أفراد الحي الواحد، وتمتد إلى بقية الأحياء.

أعود مع كتاب الصديق «المرشد» إلى الطفولة حيث الأرض التي درجت عليها صبيّاً، واستنشقت ذرات هوائها فامتلاّت به رثتي حباً للحياة والناس معاً، أتذكر ذلك الرجل الذي يطرق الباب مع الصباح الباكر، طبعاً

الطفولة في ذلك الوقت تجعلني أقفز قفزاً!! اليوم يا صديقي نسير الهوينا، ونلتفت يمنة ويسرة، افتح الباب هذا رجل من آل الحيدري الذين كانوا يسكنون حوش مناع، لا أتذكر اسمه، والدي - رحمه الله - كان يخاطبه بأبي صالح يسألني الرجل النحيل جسماً، المربوع قامه هل والدك بخير؟ نعم، هل خرج هذا الصباح؟ بالتأكيد لقد ذهب إلى السوق كعادته، تعود للرجل ابتسامته، لقد قلقت عليه إنه يمر علينا في السوق كل صباح إلا أنني افتقدته هذا اليوم، يعود والدي في الظهر، أتهيب الحديث معه، ولكنني أحاول الاقتراب منه لأخبره بأن صديقاً له جاء سائلاً عنه، يهز رأسه جزاءه الله خيراً، أمر كهذا كان في الماضي شيئاً عادياً، ولكنه اليوم يبدو غريباً، والأكثر غرابة أننا نسينا في غمرة الحياة أن نسجل مثل هذه السلوكيات الرفيعة التي لا نبالغ إذا ما قلنا إن المسلمين يتفردون بمثل هذا السلوك الإنساني الرفيع.

كان حوش عميرة هادئاً إلا من أصوات الأطفال الذين يلعبون في برحته التي كانت تقوم فيها الحسينيات، والكردية، والباز، والحلواني، والشيخ مطلق، وآل العامودي، وآل بشير، وآل السيبي، وآل الشيخ. ولكن الحوش كان في ذلك اليوم يبدو على غير عادته، جموع غفيرة من الناس تؤمه من كل مكان. حملني فضول الطفولة على سؤال الوالدة حفظها الله عن سر هذا التغيير، أرادت أن تصرفني عن السؤال، ولكنني حاولت معها مراراً: «يا ابني عمك بكر رزق يعاني من مرض أصابه، وهؤلاء أصدقاؤه جاءوا لزيارته» أعرف دكان العم بكر في السوق بجانب دكان حسين البرق رحمهما الله، وربما لمحت في الدكان الصغير المخصص للراحة رجلاً آخر يجلس معه وأظنه «سعيد عزوني» كان

الرجلان لا يفترقان، ويوم انتهت رحلة واحد منهما في هذه الحياة، لم تمض مدة طويلة حتى لحق به الآخر.

وأعود لنفسي لأحدثها: ما أعظم أولئك القوم! المريض يزورونه، لمحتاج يحسنون إليه دون أن يمسوا مشاعره، والكبير يتأدبون معه، والصغير يعطفون عليه، المرأة يكرمون مقامها شهامة ورجولة.. هذا الصباح قمت على صوت حركة غريبة في إحدى الدور المجاورة لنا، وهو بيت السادة آل الزهدي، لا يفصل بيننا وبينه سوى بيت المرحوم ناجي أفندي الذي كان موظفاً في مركز الشرطة بالمدينة «الخالدية»، وكان الشاب «خالد زهدي» صاحب وجه مستبشر، وصوت شجي، قلت منذ زمن ليس غريباً أن يولد الناس شعراء في بلد المصطفى - ﷺ - وأضيف اليوم ليس غريباً أن تكون المدينة موطناً للأصوات الندية، فالأذان عندما يرتفع من المنارة الرئيسية بالمسجد النبوي يتجاوب معه الناس في كل منعطف وحي من أحياء البلدة الطاهرة، كنت أسمع «خالد» يدعو والدي باسم «يا خال» فهناك قرابة وصلة رحم لعلها جاءت عن طريق المرحوم الشيخ «حسن بن عبد الله بن مرشد».

خرج «خالد» الذي كان في ميعة الصبا وعنفوان الشباب، منتدباً لخارج المدينة، ثم مات فجأة، جاؤوا به إلى مسقط رأسه، شيعته الحارة، بكته النساء في خدورهن، ظل الحزن قابعاً في حوش «عميرة» و «حوش سيد أحمد» لأمد، لقد كان وحيد «أمه» وفريداً في أخلاقه بين أهل الحي، ولم يعد المدياع يردد أنشودته المعروفة:

الدنيا حلوة وجميلة والمدة ما هي طويلة

كثير من أصحاب الأصوات الشجية ماتوا في مقتبل العمر أذكر منهم،

عقيل توفيق، محمود نعمان، السيد حسين بن إدريس هاشم، وهذا الأخير الذي ترجم له الزميل المرشد ولأسرته الكريمة التي كانت تقطن حارة الساحة، سمعته ذات ليلة يحدث صديقيه الشيخ فضل الرحمن أطل الله في عمره ومصطفى الحموي رحمه الله يحدثهما وهو واقف على عتبة دار المرحوم محمود كظلي قائلاً: أعترف أنه يؤدي مقام الحجاز أفضل مني، وما زلت إلى اليوم أتمنى أن أعرف من ذلك المنشد الذي كان يتقن هذا المقام، مع أن أبا طلال وطريف فاق كثيراً من معاصريه في المدينة في حسن الأداء، ولكنه كان يعترف للرئيس عبد الستار بخاري بالريادة فهو الوحيد من كبار المؤذنين والمقرئين والمنشدين الذي ظل صوته ندياً لآخر حياته، وكان الرئيس يحب الحياة كثيراً، ويحب إنشاد الشعر، وروى الكثير لي من أشعار سعد الدين براده، ومحمد العمري، وأنور عشقي. . ذات يوم كان صوته ينطلق من المكبرية لصلاة الظهر وكان المسجد خالياً لأن الوقت لم يكن وقت حج أو زيارة، رأيت الشيخ عارف براده في الصفوف الأولى وهو يشير بسبابته إزاء المكبرية. عندما انقضت الصلاة، وقفت بالقرب من سلم ذلك المقام، سألت الرئيس: هل شاهدت الشيخ عارف وهو يشير إليك؟ هز رأسه وابتسم، ثم أردف: كان المقام يمانى السيكة وهو مقام صعب لا يجيده إلا العارفون بهذا الفن الصوتي. وكان البرادة رحمه الله عارفاً كبقية جيله بالصوت ومخارجه فعبر لي عن سروره بحسن الأداء، ويوم ذهبت إلى مكة كان المرحوم الشيخ عبد الله بصنوي يجيد أداء يمانى السيكة، ويكاني الرصد، واليوم يعتبر السيد الفاضل عباس المالكي مرجعاً في ذلك كله، وليت المريدين يأخذون عنه ما يمكن أن يدخل في باب «النادر» في هذا العلم الذي له أصوله، وضوابطه، كبقية العلوم الأخرى في هذه الحياة.

أعود إلى كتاب الزميل المرشد الذي لم يتميز فقط بتلك الصورة النادرة التي ضمنها بين دفتيه، وتلك الوثائق الهامة لمن أراد أن يبحث في تاريخ الحياة الاجتماعية والثقافية، والفكرية لبلد المصطفى ﷺ. ولكنه تضمن توثيقاً لبعض الحوادث الاجتماعية التي شهدتها المدينة، كسفر برلك الذي يتحمل فخري باشا فيه مسؤولية نزوح عدد كبير من أهالي المدينة المنورة أثناء الحرب العالمية الأولى وما تعرضوا له من ضنك وشقاء، حتى أن أسراً كثيرة من أهالي المدينة ظلت إلى اليوم تسكن الشام، أو مصر، أو تركيا، لأن من خرج من آبائهم وأجدادهم في تلك الحقبة لم يستطع العودة، ولعل قصيدة الشيخ محمد العمري المتوفى سنة ١٣٦٥هـ - ١٩٤٥م، والتي يصور فيها حال المدينة بعد اضطراب أهلها تحت تأثير الأحداث المؤلمة للنزوح منها يصور ذلك تصويراً شعرياً بالغاً، هي الشاهد الحي على ما خلفه حادث النزوح من مأس وفتن، يقول العمري:

دار الهدى خف منك الأهل والسكن واستفرغت جهدها في ربك المحن
عفا المصلى، إلى سلع، إلى جشم والحرثان، ومرأى أرضها الحسن
أقوى العقيق، إلى الجما، إلى أحد إلى قباء التي يحيا بها الشجن
منازل شب فيها الدين واكتملت آياته، فاستعارت نورها المدن

كما تضمن الكتاب دخول الهاتف إلى المدينة في أثناء الحرب العالمية الأولى، في الموض الذي يعرف اليوم في طريق العيون بالترسيس محطة اللاسلكي، ولقد أخبرني شخصياً الشيخ جعفر بن إبراهيم فقيه رحمه الله أن الاتصال الخارجي عن طريق الهاتف لم يكن موجوداً آنذاك في العالمين الإسلامي والعربي، وكان هناك خطان دوليان أحدهما بين ألمانيا وتركيا، والآخر بين تركيا والمدينة.

لقد كانت الدولة العثمانية الإسلامية تعتبر المدينة منطقة عسكرية، إلا أن هذه الخصوصية العسكرية أضرت بالمدينة وأهلها، ولذا فإن مأساة (سفر برلك) ما هي إلا نتيجة لهذا الأمر الذي كانت تحاول الدولة العثمانية آنذاك الحرص من خلاله على الحرمين الشريفين لأهميتهما في العالمين الإسلامي والعربي، في الوقت الذي كانت تعاني فيه الدولة من مخططات التتريك السيئة، كما أنها حاولت أحياناً إرضاء الغرب الذي كان يتربص بالعالم الإسلامي وهو ما ظهر في معاهدة سايكس بيكو المعروفة التي تقاسم العالم الأوروبي من خلالها أراضي الدولة الإسلامية.

ذكر المؤلف أن الوفد المكوّن من المشائخ: ذياب ناصر، عبد العزيز الخريجي، السيد عبيد مدني، أبو بكر الداغستاني، إضافة إلى الوالد حمدان علي - رحمه الله - ذهب إلى الطائف سنة ١٣٤٤هـ للسلام على الملك عبد العزيز آل سعود - رحمه الله - بينما حقيقة التاريخ الذي ذكره لي الوالد كان في الخمسينيات الهجرية، وذلك عندما كان الشيخ ابن إبراهيم رحمه الله وكيلاً لأمير المدينة المنورة حيث ذكر لي الوالد: إن الشيخ الداغستاني اعتذر في البداية لظروف أسرته، فتكفل الشيخ ابن إبراهيم بالأسرة في أثناء فترة غيابه مع الوفد، ولعلّ وفداً آخر خرج من المدينة في مناسبة أخرى كانت في الأربعينيات الهجرية.

تحدث الأستاذ المرشد عند ترجمته للشيخ الكريم إبراهيم حسوبه - رحمه الله - عن إنشاء سكة حديد الحجاز، ومشاركة الشيخ الحسوبه في أعمال البناء ولقد عرفت من الوالد أن الشيخ محمود أبو عنق - رحمه الله - والذي عمر طويلاً عمل في المحطة مع شخص آخر من أهل المدينة وهو الشيخ علي رنقا الذي انتقل إلى جوار ربه قبل سنين قليلة ولعلّه كان

آخر الشاهدين على إنشاء المحطة والمسجد الحجري الذي ما زال قائماً إلى اليوم عند مدخل المدينة. ولقد كانت البداية لانطلاق هذا المشروع سنة ١٣١٧هـ - ١٩٠٠م، وتم الانتهاء منه سنة ١٣٢٦هـ - ١٩٠٨م (انظر: بحث د. خالد حمود السعدون في مجلة الدارة، السنة الرابعة عشرة، العدد الثاني، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م).

إن جهد الأستاذ أحمد أمين مرشد في كتابه الذي اختار له اسماً يلائم مادته (طيبة وذكريات الأحبة) في أجزائه الثلاثة يعتبر جهداً مميزاً بين الجهود العديدة الموفقة التي تحاول رصد تاريخنا الاجتماعي الحافل بكل الصور المشرقة والمضيئة في آن.

العلوم الشرعية وبواعث الوفاء

تزحف جموع الطلاب من جميع أنحاء البلدة الطاهرة إلى تلك البقعة التي تفصل بين بقيق الغرقد الذي سألت أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ: ماذا تقول عند زيارة من أكرمهم الله بالتربة الطيبة؟ قال ﷺ: «قولي: السلام على أهل الديار المؤمنين». والحديث رواه الإمام مسلم وأحمد بن حنبل. في البقعة التي تفصل بين باب الجمعة والمسجد الشريف حيث رقد سيد الخلق وهاديهم عليه صلوات الله وسلامه، يقوم بناء المدرسة التي تلقت فيها النخبة من أبناء هذا الوطن تعليمهم وثقافتهم، فيها كان يدرس «الشيخ أبو الطيب الأنصاري» من تلقى عليه العلم الرواد من أمثال الأساتذة عبد القدوس الأنصاري، ضياء الدين رجب، محمد علي الحركان، عبيد وأمين مدني، علي وعثمان حافظ، السيد أحمد العربي، أسعد طرابزونى. كما يدرس فيها العالم الذي جمع بين علوم النقل والعقل الشيخ أمين طرابلسي، ولقد أفاد من الشيخ الطرابلسي كل من الأساتذة محمد موسى الحافظ، محمد عمر توفيق، محمد حميدة ولقد أدرك جيلي الذي أنتمي إليه في مدرسة دار العلوم الشرعية عدداً من رجال العلم وممن كانت سلوكياتهم تتواءم مع العلم الذي يحدثون أو يعظون به طلاب العلم، ومن هؤلاء الأستاذ الذي كان

يتقن علوم الرياضيات وعلوم لغة القرآن ويجيد نظم الشعر باللغتين العربية والإنجليزية وهو المرحوم الأستاذ عبد الرحمن عثمان والد د. أسامة ود. نعيمان والأساتذة أنس وحسان وزاهر وعثمان. وقد ورث الأبناء عن آبائهم قول الشعر.

ويعتبر أسامة أحد المجددين في الحركة الشعرية في بلادنا، وأحد الأكاديميين الذين تفتخر بإنجازاتهم العلمية جامعة الملك سعود بالرياض، وكان أخ للأستاذ عبد الرحمن، هو الأستاذ أحمد عثمان صاحب روح مرحة، ونفس كريمة يدرّس مادة الحساب، أما الأساتذة بكر آدم، رجب أبو هلال عمر عينوسة، أحمد السنوسي التونسي، حمزة حوحو، عاشور المشهراوي، عمران الحسيني محمود، بكر عبد الملك النعمان، خليل حبيب الرحمن، سليمان سمان، حسين عفيفي، فكانوا أطواداً شامخة في سماء المعرفة التي كانت تمنح من تلك الأجواء العلمية التي عرفت بها مدينة الحبيب عليه صلوات الله وسلامه، منذ عشرات القرون، وكان يوم استلام الشهادات في نهاية العام يوماً مشهوداً يأتي فيه مدير المدرسة وسليل أسرة العلم، وصاحب العقل الراجح، واللسان العف السيد حبيب محمود أحمد، فهو النَّبْتُ وَالْغَرْسُ الصَّالِحَ لِمُؤَسَّسِ هَذَا الصَّرْحِ الْعِلْمِيِّ الْكَبِيرِ المرحوم السيد أحمد الفيض آبادي الذي حدثني أستاذنا الفاضل أمين عبد الله القرقوري أنه كان في فترة ماضية أدركها الأستاذ القرقوي، يحرص كل صباح على مصافحة طلاب المدرسة وتفقد أحوالهم... إني عندما أكتب عن أبي أحمد وتراث أجداده فإن الباعث وراء هذا هو شيء من الوفاء لصداقة استمرت بين والدي وبينه دامت لعشرات السنين، وكان مما أوصاني به صاحب العمامة الصّفاء، واللسان الصريح، والقلب العطوف، كان مما أوصاني به ابن العنبرية وقباء والمناخة قبل أن تصعد روحه لبارئها

أن أبر أحيابه وفي مقدمتهم هذا الرجل الذي أكرمه الله بالتواضع وحسن الخلق، حبيب محمود أحمد.

لقد عرفت معنى الحرف في العلوم الشرعية، وأدركت سعة الأفق، ورحابة الصدر، والتأدب مع جيران رسول الله ﷺ وإكرامهم عند مشائخ بين الصفة وباب السلام، وصدق المصطفى ﷺ عندما قال: «آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بُغْضُ الأنصار» متفق عليه. ويا أمان الخائفين.

رسائل أدبية

إلى الشاعر المبدع، الصديق الأستاذ عبد المحسن بن حلّيت بن مسلم

عندما نلتفت إلى الماضي القريب، ويحدونا شيء من الوجد إلى الإنصات إلى الهُتاف القادم من بين ظلال النخيل و «عريشة» الكرم وتربة الفل والورد والياسمين عندما يشتد بنا الشوق إلى سماع هدير المياه مناسبة في جداول «البقيع» و «سواله» و «العباسية» و «الزُهرة» و «الأخوين» عندما تسعى بنا الأجفان لرؤية الوجوه المضيئة في قبا والعنبرية، وقربان والعوالي وعندما تثقل هموم الحياة كهول «الصابرين»، يبرز ذلك الوجه المضيء الذي كان يمتلئ المحراب في أول مسجد أسس للتقوى بصوته ترتيلاً وتجويداً وتشرئب الأعناق لرؤيته وهو يخطو متئداً متأدباً بين «الخوخة» و«المقام» وإذا كانت الأناقة هي مظهر الرجال الذين كانت تمتلئ بهم ساحات المناخة والعينية في البلدة المحبوبة، فإن والدك ووالد أجيال شرفها الله «بالجوار» وأكرمهم «بالقرب» ورقق قلوبها بالمحبة الصادقة لسيّد الخلق وشفيع الأمم، وهاديتهم إلى صراط مستقيم، نعم، لقد كان المرحوم «حلّيت بن مسلم» هو ذلك الوجه المنير والصوت الشجي والمظهر الأنيق والقلب الكبير، والكلمة المهذبة، واليد التي تمتد إلى من تعرف ومن لا تعرف، فتزيل عنها كثيراً من عناء الحياة، وتجفف دموعاً حرّى كثيراً ما

حبسها أو حالت العفة والكبرياء بينها وبين الظهور.

يا شاعر الكلمة الصادقة، والهارب في «أزقة» المدينة وحواريها،
والعازف عن الشهرة بتسلق الجبال والزاهد حتى فيما يبثه وجدانك النبيل
وتمليه عاطفة الحب العُذري في زمن اختفى فيه صوت الحادي وأصبحت
فصاحة الكلمة، وجزالة العربية المرتوية من عروق هذه الأرض التي
شهدت نزول القول المعجز أصبح ذلك كله «الكبريت الأحمر» في
مصطلح القوم، وأنت يا أبا الحسين من يتطلع القوم لتشد على أسماعهم
ما يروي ظمأ نفوسهم، ويمس شغاف قلوبهم بذلك الهاتف المبلل بندى
الأزهار الفوّاحة التي تفتحت عيناك عليها في روابي قباء ومغاني العوالي
وظلال قربان... فهل أنت فاعل؟

رسائل أدبية

السَّيِّدان - هشام ومحمد علي حافظ - (مُتَدَي العَيْنِيَّة)

قصة الكفاح الشريف في عالم الكلمة والتي كان أبطالها أولئك الرجال الكبار في طموحهم، النبلاء في مواقفهم، الصادقين في أقوالهم، قصة الأخوين اللذين حملا كتاب العلم سوية في حلقات الدرس بمسجد رسول الله - ﷺ - ودفعهم ذلك النور الذي يشع من بين الروضة الشريفة، والمقام الطاهر الذي تصغر عند أبوابه كل النفوس التي تأخذها مباهج هذه الدنيا الفانية فتسير مختالة - فالنفس البشرية من الضعف - أحياناً - حيث تظن - نفسها - أنها مركز هذا الكون وقطبه ودائرته، نعم - أيها الأصدقاء هناك يتجسد التاريخ حياً، وتحدث الأرض عظمة، ويشع النور، فتتعم به نفوس أحببت فصدمت في ذلك الحب، وحملها ذلك الحب إلى عالم يمتلئ صفاء وطهراً ونقاء.

مسيرة آبائكم الكرام نسباً وعلماً وسلماً بدأت من هناك وعلى بعد خطوات من باب السلام والمنارة «الرحمانية» و «سقيفة رصاص» و «زقاق الخياطين»، هناك في شارع «العينية» حيث تخطو الأقدام متأدبة، وحيث حياة القوم الذي قال رسول الله ﷺ في حقهم: «إن الناس يكثرون، وتقل الأنصار، حتى يكونوا كالملح - في الطعام، فمن ولي منكم أمراً يضرّ به

أحداً، أو ينفعه، فليقبل من مُحسنهم، ويتجاوز عن مُسيئهم» رواه البخاري، نعم في ذلك الشارع الذي كان لا تطأه قدم من أقدام أهل البلد الطاهرة قبل أن تلقي السلام على سيد ولد عدنان، وصفوة الله من خَلقه - عليه صلوات الله وسلامه، هناك وُلدتْ بالعزيمة القوية والصادقة للسَّيدين علي وعثمان حافظ الصحيفة التي لن نجد صحيفةً تراحمها في الاسم الذي تحمله، ولا تدانيها شرفاً في الشُّعار الذي يحتضن ذلك الاسم العزيز على كل نَفْس مُؤمنة، واليوم بعد مرور ما يَقْرُب من ستين عاماً تكون افتتاحية الصحيفة في عيون القوم الذين أكرمهم الله بالجوار وخصهم بالقرب هو الدعاء نعم أيها الأخوة الكرام، إنهم ليستفتحون الصفحات المطوية من الصحيفة الغراء والعزيزة على نفوسهم بالدعاء بالرحمة والسكينة والغفران لرجال فتحوا أبواب منازلهم سواء في المناخة أو قباء والعنبرية نعم لقد كانت قلوبهم تتَّسعُ لحب الناس فأحبهم الناس، وعز عليهم فرقهم، وللفراق ألم، وللبعد جوى، ومع هذا الفراق الذي فرضته ظروف الحياة، وذلك البعد الذي لم يكن لجفوة، فإن القوم في بلد المصطفى عليه صلاة الله وسلامه وما جاورها من حواضر تسكنها - قبيلة حرب العريقة - لا يملون من الحديث عن «رجلين» هما علي وعثمان حافظ نشرنا الكلمة مكتوبة في طرس، والحرف منحوتاً على صخر، والشعر مَهْموساً في أندية ترتفع فيها قامات الرجال شامخة، تلك القامات التي تزينها العمائم من تيجان العرب ومناط عزهم.

هذا تاريخ وعيته عن والدي الذي طواه الثرى، وضمت ذرات جسده الربوة الطاهرة فيما ضمت من قوم كان همهم من هذه الدنيا أن يجمع الله لهم بين السُّر وحسن الخاتمة. وهل الحياة في جوهرها - لو تأملنا غير

ذلك؟ وهل المسافة بين المهد والحد سوى عمل بر وكلمة ذكر وصنيع إحسان.

السيدان الناشران، إن كلمة المسلمين أحوج ما تكون في حاضرها، إلى أن تكون متماسكة، وحضارتهم وفكرهم الإنساني يبحث عن منبر عالمي «باللغات الحية» يحمله للأمم في أصقاع الأرض، نعم منبر يتجاوز ما يختلف فيه المسلمون من فروع ليصل إلى الجواهر النفيس الذي تحمله شريعة الإسلام ومبادئها ومثلها الرفيعة إلى منبر تتجسد من خلاله السماحة والرفق الذي تبدى في أخلاق المصطفى - ﷺ - وصحابته - رضوان الله عليه - والتابعين، إلى منبر يتحاور فيه الناس بلغة حضارية مهذبة، ولقد كان رسول الله ﷺ - وصحابته أمثلة رفيعة في تعاملهم مع الآخر، وما كان ذلك ليتحقق لولا أن أخذوا أنفسهم بجهاد النفس، وتزكية الباطن، والتغلب على هوى النفس وإثرتها، ذلك الهوى الذي لولا يقين صادق وأفق واسع، ورؤية شاملة لسيطر على حياة الناس فأدخلها في نفق مظلم، وكيف ترى العين ضوء الشمس إن لحقها أذى، وكيف يستسيغ الفم طعم الماء إن لم يكن الجسم، صحيحاً.

إن الأمة الإسلامية، أيها الأعضاء، في انعطافاتها التاريخية هذه لا تحتاج إلى أكثر من كلمة رقيقة صادقة تنأى بها عن مواضع الألم، وثغرات الفرقة، ومنحدرات الصراع، وصدق الله القائل في كتابه العزيز ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (الأنفال: ٤٦) وأعظم به من قائل تقدس عن النظائر والأشباه حيث وصف خلق خاتم الأنبياء والمرسلين بقوله الكريم ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

رسائل أدبية

الصديق السيد الدكتور غازي عبيد مدني

لم أكتب إليك كمسؤول ولن أخاطبك بغير ما تعودت أن أخاطبك به في ماضي الأيام. فعراقة النسب، وطيب المنبت وكريم التّشئة جعل منك الإنسان الذي يحسن اصطفاء الخلان ويسلك سبلاً شتى ليشعرهم بصادق الحب وخالص الوداد، وإنك في هذا كله - يا صديقي - لا تتصنع مذهباً ولا تتكلف مرقى. وإنني لأذكر اليوم الذي خاطبتك فيه بلقب المنصب الذي تبوأته عن جدارة فإذا أنت تطلبُ مني - بصوت خافت - أن أعود إلى لقب قريب إلى نفسك كنت أناديك به من قبل، وهنا تكمن المفارقة فمن الناس من يكبر بالمقام، ومنهم من يكبرُ به المقام، فلم يزدك المقام يا صديقي إلا تواضعاً وقرباً من الناس.

.. إنني أعلم بأنك درجت في هذه الحياة وسلكت دروبها يحدوك صوت أسر من أبيك، ورأيت في سلوكه القدوة والمثال، فلقد كان عُبيد مدني قريباً من نفوس الناس، وصاحب حظوة لديهم. ولقد حدثتك ذات يوم عن المشهد الذي رأيت فيه أباك لأول مرة. لقد كان يوم المناخة يتفقد صديقاً له، هذا الصديق الذي طالما جلست إليه منصتاً وهو يحدثني عن رجال كانوا الصفوة في بلد تشد إلى مسجده الرحال وتحيط ملائكة

الرحمة بمقامه ومنبره ومُصلاًه ولطالما ردّد على مسمعي - رحمه الله - هذا النشيد الذي عمق في ذاتي حب النفوس التي عاشت بالناس وللناس ولم تبخل يوماً على من حولها بما تحوز وتملك والناس في دنيانا الفانية هذه أحوج ما يكونون إلى حب تصفو مشاربه وتطيب أنفاسه وتسمو في الآفاق معانيه نعم يوم حدثك عن السيد «عبيد» رأيت دمعاً يترقرق في عينيك لقد كنت تستعيد صورته في نفسك فيهتزُّ منك قلبٌ ووُجْدان.

لقد رأيتَه وأنا في مطلع العمر لا يغيبُ عن عيني مرأى «للمناخَة والعينيَّة»، والحياة بين جوانبهما تصطخب وتتطلع النفس مني «للحارة» وفُرْش الحجر و «العالية» أعلل بذلك كله نفساً دأبت على عشق صوت يرتفع بالحداء، ويترنّم بالكلمة وشغفت بسماع شعر حفظته رواية بين سوارى المسجد الطاهر، ثم قرأته في «المدنيات» بعد أن كان محفوظاً في صدور الناس. وكان مما حفظته ذاكرة أوهنتها متاعب الأيام، وأثقلتها أطياف من كدورات الحياة، قصيد يفيض بمشاعر يمتزج فيها الحزن والحب معاً وتصور إحساس نَفْس صادقة قد أمضَّها الفراقُ، إنه الإحساس الذي يتبدى مِنْ خلال هذه الألفاظ الموسقة والكلمات الهامسة:

كيف ارتضيت بأن أوسدك الثرى	في مضجع من أعْظَمِ نخراتِ
وأروح عنك، وأنت بين جنادل	وصفائح مِنْ جيرةِ الأموات
وأنا الذي لا تجهلين حُؤوَه	أين الحنو اليوم في «المعلاة»؟
أتموت «عزّة» لا «فعزة» لم تَغِبْ	عن ناظري يوماً ولا خطراتي
ربّاهُ هذا ما أردتَ قَضاءُهُ	فأنقذ يقيني من ردى النّزغات

صديقي أبا عبيد، لقد رأيت المرحوم الأستاذ محمد حسين زيدان -

رحمه الله - يسعى للصديق علي حسون - يحمل سفر «المدنيات» بين يديه، ويتحدث باكياً وكثيراً ما بكى هذا شِعْرُ بَقِيَّةِ الناس في بلد المصطفى ﷺ ولكن دعني أسألك: ماذا عن السفر الذي يتحدث عن تاريخ البلد الطيب وآثاره وعلمائه ومفكره؟ إنه السفر الذي حدثني عنه العلامة الأستاذ عبد القدوس الأنصاري وكان - رحمه الله - الأقرب لأبيك إخاء وصداقة، فقال: إنه يَحْمِلُ بين - دَفْتِيهِ - كل ما تتطلع لمعرفة النفوس المؤمنة عن بلد الطهر والإيمان، ولقد طال انتظار النَّاس لرؤية هذا العمل الموسوعي الذي كتب سطره واحدٌ من الذين شاركوا في صناعة تاريخ هذا الوطن الغالي، وما دونه يراعه جدير بأن يأخذ مكانه بين ما ورثناه عن الرواد من فكر وأدب وبيان.

رسائل أدبية

الصديق الأستاذ محمد عمر العامودي

«حديث الأربعاء»

لم أشاهدك بالقرب من بركة «مأجن»، أو في المسيل وأنت في مطلع العمر، حيث نشأت بالقرب من بيت الله الحرام، ولكنني شاهدتك وأنت تدخل من باب أول كلية «علمية» وهي كلية الشريعة، كان يُحيط بك الصّاحبان، عبد الوهاب أبو سليمان، وإبراهيم مُحمد علي، ولم أكن لأجرؤ - يومها - لأقترب منك وأقول لك إنني واحد من الذين يعشقون الحرف الذي تسطره والكلمة التي تكتبها. ولن أنسى - يوماً - داعبت فيما تكتب ذلك الأديب الراحل الطيب القلب الذي حفظ تراث «العواد» و «شحاتة» ورواه ودوّنه، وأعني به المرحوم - بإذن الله - الأستاذ عبد السلام الساسي. وكتب الأستاذ «عبد العزيز الربيع في أدب - رحمه الله - واصفاً غضبه بأنه «الغضب الجميل»، وأكبرت فيك وأنت تعترف في الدار العامرة لصديق الجميع السيد أحمد زكي يمانى، أن المرحوم الساسي وابن أخيه أستاذنا الدكتور «عمر الطيب الساسي» قدّما للفكر والأدب ما لا يُمكن لباحث أن يشيح عنه لو رغب في دراسة هذا الإبداع، أو ذاك النتاج مما كتبه جيل الرواد، ومن أتى بعدهم، وإنني لمتيقنٌ بأنك واحد من الذين

يعرضون رأيهم على مرآة العقل - مراراً قبل أن تجهر به أمام الآخرين .
وإذا كان الآباء يُورثون أبناءهم شيئاً من متاع هذه الدنيا وحطامها
الزائل، فإن بعض الآباء يورثون فلذات أكبادهم ما هو باقٍ أثره ودائمة
مزاياه، لقد ورثت عن ذلك الرائد الذي كتب بعقلية الباحث، ولغة
الأديب، وخيال الشاعر، كتب ذلك الأثر الكبير في تاريخنا الأدبي
المعاصر (من تاريخنا). وأعلم أنه ليس الأثر الوحيد الذي كتبه، ولكن
كثيراً من المبدعين لم يتركوا إلا قصيدة واحدة أو أثراً يتيماً من مقدماتهم
صاحب البائية الخالدة المشهورة: (مالك بن الرّيب) والتي يقول فيها لأهله
متشوقاً، ولنفسه راثياً:

تذكرت مَنْ يبكي عليّ فلم أجد سوى السّيف، والرّمح الرّديني باكياً
وأشقر محزون يجرّ عنانه إلى الماء، لم يترك له الموت ساقياً
ولكن بأكناف «السّمينّة» نسوة عزيزٌ عليهنّ - العشية - مابيا

.. نعم لقد ورثت عن أبيك كيف يجتمعُ الأدب والوقار، وكيف تقترن
الكلمة مع نظافة السلوك وشهامة النفس، وإنني لألمح هذه الشهامة فيك
والتي لم يمنعها من أن تبدو جليّة أمام أعين الآخرين، ما طبعت عليه من
«أناقة» لم تكن حجاباً بينك وبين الذين يقصدون مجلسك، ولا يطيبُ لهم
- مساء الخميس - إذا لم يُعرّجوا على دارتك، ولقد خالطتُ القوم - يا أبا
علاء - في الشامية والمسفلة، والنقاء وسوق الليل، فعشقت فيهم ذرابة
اللسان، و «نخوة» الجار، و «بذل» الصديق وبساطة «العالم» و «طراقة»
ابن الحارة وشهامته. وشاهدتك - يا صديقي - قبل عقدين من الزمن
تسعى لتصافح ذلك الرّجل الطويل القامة، العفيف اللسان «اليابا رجب»
أتعلم أيها الحبيب أن صورته لا تفارق مخيلتي وهو في «الميدان» يهباه

الصغار، ويوقّره الكبار، وهو يقف في الأفراح مشاركاً وفي الأتراح مؤازراً، لم يعيش «رجب» للمسفلة وحده، ولم يعيش «عبد الله بصنوي» للشامية وحدها، ولم يعيش «محمود الجنقلي» للقرارة وحدها، ولم يعيش «الحابس» للنقّا وحده، ولكنهم عاشوا لأجل الناس جميعاً في بلد الرحمة والأمان ولهذا كانوا الضّمير، والوُجْدان، والمثال بين من عرفوهم عن قُرب، أو سمعوا بآثارهم عن بُعد، وفي كل مرّة أراك فيها - يا أبا علاء - تُذكرني بهؤلاء الأفاذاً حقاً من الرجال.

«تراث الربيع» يعود إلى الحياة من جديد

- تفتحت أبصار الأجيال الناشئة في بلد المصطفى - ﷺ - وهي ترى أعلاماً شامخة تجمع بين العلم والأدب، ونشارك في الحياة الثقافية والفكرية في البلد الذي شَعَّ منه نور العلم فأضاء الكون جميعه من ذلك الشعاع، وتفتحت به العقول والبصائر. ومن تلك الأعلام: محمد سعيد دفتردار، وجعفر فقيه، وأمين مُرشد، وعماد عادل، وماجد عشقي، وأحمد بو شناق، وعبد الحميد السناري، ومحمد الطيب إدريس، ومحمد الثاني، ومحمد حميدة، وجعفر سبيه، وعبد الله الخربوش، وعبد العزيز الربيع وغيرهم.

- وكان الأستاذ «الربيع» مَمَّنْ جَمَعَ الله لهم بين سماتٍ عدة منها التعمق في المجال التربوي كأستاذ ثم مدير للتعليم، وفرض بثقافته المتعددة نفسه على الساحة الأدبية؛ فاستأثر لفترة زمنية طويلة بالكتابة في التعدد الأدبي. ولئن كانت معارك «شحاتة» و «العواد» ظلت، وستظل طي الكتمان لأسبابٍ لا داعي لذكرها، فإن معارك «العواد» و «الربيع» كان مما أثرى الساحة الأدبية في بلادنا ومكن لتيار نقدي علمي أن تترسخ جذوره بعيداً عما يمكن تصنيفه ضمن دائرة أحادية الرأي، والتعصب لمدرسة نقدية واحدة، مما نرى له - وللأسف - ظلالاً - بعد أن بقينا لفترة طويلة نترقب

مساهمة جيل الأكاديميين في ميدان الإبداع والنقد - معاً - ولا يمكن - بحال - التقليل من دور الزملاء الذين تصدوا لفن النقد الأدبي بمدارسه ومناهجه المتعددة، ونأمل أن يسود الساحة من سعة الأفق، ومصادقية القول والإيمان بالرؤى المختلفة فكرياً وأدبياً مما يمكن أن يساهم في الانتقال بأدبنا إلى دوائر أخرى أكثر شمولاً واتساعاً.

- وكان أول إصدار لنادي المدينة الأدبي - بعد أن اجتمع شمل أسرة (الوادي المبارك) - تحت مظلة ثقافية تدعهما رعاية الشباب كبقية الأندية والمؤسسات الثقافية في بلادنا، كان هذا الإصدار هو (ذكريات طفل وديع) للمرحوم الأستاذ عبد العزيز الربيع، وهو سيرة أدبية كتبها بلغة فيها الكثير من الرؤية الشفافة والواضحة والجريئة في بعض المواقف.

- وانتقل الأستاذ «الربيع» - إلى رحمة الله - وسارعت الأفلام في الساحة الأدبية تَرْثِي عِلْماً من أعلام الفكر والأدب والتربية والتعليم في بلادنا، وتصدى الأستاذ الكريم «محمد صالح البلهشي» إلى جمع ما كُتِبَ عن هذا الفقيه، وأصدر كتابه المعروف «لمحات عن حياة الربيع»، إضافة إلى أنَّ النَّادِي طَبَعَ له كتاباً آخر بعنوان «رعاية الشباب في الإسلام».

- وكان السؤال يُطْرَحُ - دوماً: هل هذا كلُّ ما خَلَفَهُ «الربيع» من نتاج فكري وأدبي؟ أين كتاباته عن شَوْقِي والدكاترة زكي مبارك، و «داود باشا»؟ وأين ما كتبه عمّا كانت تَقْذِفُ به المطابعُ في العالم العربي وبلادنا وما تَضَمَّنَ ذلك من نقد علمي كُتِبَ بلغة رصينة ومعبرة؟

- وكانت عزيمة الأستاذ «البلهشي» المُنبَثَّة عن وفائه لأستاذه أكبر من الصُّعوبات، والعوائق، فإذا هو يتصدَّى للتَّحْقِيبِ عن تراث الأستاذ «الربيع»،

فيخرجه في مُجلدات عدّة، بعث بها إليّ أستاذي الفاضل الدكتور محمد الرُّويثي - تشجيعاً منه ووفاءً كريماً.

- لقد بلغ ما كتبه الرّائد «الرّبيع» طُوال رحلته مع الحرف المضيء، والكلمة الأدبية الرّفيعة، ما يزيدُ على ألفي صفحة، سوف تكون مادةً أدبيّةً أمام الأجيال التي سمعتُ «بالرّبيع» ولم تتح له الفرصة لقراءة ما أبدعَ ودوّن. وإنّ السُّؤال الذي يطرحُ - نفسه: هل جيل - اليوم - يتبقّى له وقتٌ مع انتشار الفضائيات وما تبثّه من برامج ليطلع على إنتاج هذا الرّائد الذي كرّس وقته للقراءة والعلم وساهم في الحركة الأدبية في بلدِ المصطفى - ﷺ - مع زملاء له ورُصفاء؟ بقي أن أذكر موقفاً مؤثراً شاهدته - بنفسِي - وذلك عند انعقاد المؤتمر الأوّل للأدباء برعاية - كليّة الآداب في جُدّة ومشاركة كلية الشريعة والتربية - جامعة أم القرى - حالياً - فلقد كان من ضمنَ جلسات المؤتمر حلقة عن شوقي وشعره. وكان الأستاذ الكبير محمد حسن عوّاد - رحمه الله - حاضراً تلك الحلقة التي ألقى فيها المرحوم الرّبيع. بحثاً عن شاعريّة شوقي، ثم انصرف قبل أن يكمل «الرّبيع» قراءة بحثه. وعندما أتى دَوْرُ الأسئلة، قام أحدهم يذكر رأياً للأستاذ «العوّاد» في شاعرية «شوقي»، فاعتذر الأستاذ «الرّبيع» عن الإجابة لأنّ الأستاذ العوّاد غير موجود حتى يمكن أن يُدلي برأيه إزاء هذه القضية التّقديّة. لقد كانوا - جميعاً - كباراً بكلّ ما تعنيه هذه العبارة من دلالاتٍ حضاريّة وسلوكيّة.

- وفي الختام - تحية صادقة - للأستاذ البليهشي، ونادي المدينة الأدبي على هذه الخُطوة الرّائدة في حقّ رئيسه وراعيه السّابق.

الشيخان . . الزغبى وابن صالح . . والمسلك الإيماني

ما زالت البقية الصالحة من سكان بلد رسول الله - ﷺ - من أمثال المشائخ والسادة: محمد حميدة، عبد الرحمن عويضة، عبد العزيز بن ناصر التركي، أمين مرشد، حبيب محمود أحمد، إبراهيم غلام، أسعد خليل، عبد الرحمن بن خلف الأحمدى، وغيرهم يتذكرون ذلك الرجل الصالح والزاهد الذي كان يؤم الناس في مسجد سيد الأولين والآخرين وهو فضيلة الشيخ صالح الزغبى. وكان الشيخ «الزغبى» حريصاً على إمامة الناس حتى في أوقات مرضه، ولقد ترك وراءه ذكراً حسناً وثناءً عطراً بعد مرور ما يقرب من نصف قرن على وفاته، وهو في زهده وورعه وتقواه يذكرني بالشيخ «محمد علي التركي» - رحمه الله الذي أدركته وأنا طفل أتنقل بين دار العلوم الشرعية والمسجد الطاهر، وكان الشيخ محمد منصور عمر - أمد الله في عمره - يحظى بمحبته وقربه. وقد أدرك فضيلة المرحوم الشيخ عبد العزيز بن صالح، بعد أن تسلم إمامة المسجد النبوي، ما للمشائخ علي كماخي، صديق الميمني، محمد منصور عمر، أدرك ما لهم من فضل ودراية بعلوم القرآن فعرض عليهم مساندته في مقام الإمامة ولكنهم اعتذروا جميعهم ورعاً منهم وتقوى وليس لمآثر الشيخ ابن صالح

من نهاية، فهو كان يجلس الشريف «محمد العلمي»، أحد الحفظة والمجودين لكتاب الله فكان يسند إليه القيام بصلاة الوتر في شهر رمضان المبارك، ثم خلفه في ذلك أستاذنا الشيخ «محمد الثاني» الذي أصبح إماماً من أئمة المسجد مثله في ذلك مثل المشائخ: عبد المجيد حسن، عبد القادر الجزائري، عبد الله الخربوش، عبد الله بن زاحم، وكان الشيخ ابن صالح على ما يتمتع به من علم وفضل إلا أن هذا لم يمنعه من أن تشمل عنايته مؤذني المسجد من أمثال المشائخ عبد الستار بخاري، وأبو السعود ديول، وحسين عفيفي، وغيرهم، وكان في هذا المسلك يأخذ بحديث المصطفى، ﷺ، «آية الإيمان حب الأنصار» أنظر: صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار».

وكان يخرج إذا ما سمحت له مقتضيات العمل وهو القضاء الشرعي، مع جنائز المسلمين الخاصة منهم والعامة، ويواسي ذويهم. . ولم يكن بعيداً عنه في هذا المسلك الإيماني الشيخ عبد الله بن عثمان الصالح - والد الدكتور ناصر الصالح - وأخوه الدكتور محمد الذي كان مسؤولاً مع السيد أحمد الرفاعي عن شؤون الحجرة النبوية، وكان عمله في هيئة الأمر بالمعروف ورئاسة الحرمين الشريفين رجلاً سمحاً، عطوفاً، واسع الأفق. ولا يزال القوم في البلدة الطاهرة يجدون في مسلك هؤلاء المشائخ الأفاضل نموذجاً لما ينبغي أن يتمتع به رجل العلم من خلق وفضل معترفاً للآخرين بما أعطاهم الله أو منحهم إياه من جيرة، أو معرفة ودراية.

مرزوق بن تنباك الحربي . . وشُجُون بين أدبرة والاثنيّة

- كانت رحلة شاقّة ومُمتعة في - آن - لشاب في مُقبل العُمُر يَقطَعُها بين لندن وأدبرة، وكان يَمَعن النَّظَر في تلك الخَزَات العنيفة التي تتساقطُ على الأرض الممتلئة بالأعشاب الخضراء وهي خُضرةٌ تَخْتَلِفُ عن تلك التي كان يُمتّع الفتى ناظريه في البساتين الممتدّة على دَرَب «قُربان»، وطريق «قُباء»، وساحة «سيّد الشُّهداء» - رضي الله عنه - حيث تشعُّ الأنوار من «أُحد» ذلك الجبل الذي اهتزَّ عندما صعدَ إليه سيّد ولد عدنان - عليه صلوات الله وسلامه - فخاطبهُ قائلاً: «اثْبُتْ أُحُدْ، فما عليك إلا نبيٌّ وصديقٌ وشهيدان» فكان في الخطاب معجزة، وفي القول استشراقٌ لمُستقبل مَجهول، كَشَفَ الله فيه الحجاب وفق إرادته - عزَّ وجلَّ - لحبيبه ونبيّه، وصفيّه محمد بن عبد الله - ﷺ - إنّ المطرَ والشمس، والأرض لتختلفُ في هذه الأرض الغريبة بسمائها وأهلها وعاداتها عمّا شبَّ عليه الفتى ورآه في نشأته الأولى وفي سنين قضاها بين العنبريّة، والمناخة في طيبة الطيّبة، أو بين الشّامية والنّقا في البلد الحرام.

- وكثيراً ما حلَّ الضيقُ بنفس الفتى عندما يحلُّ الظّلام - مبكراً - وتأوي النَّاس إلى بيوتها، وتعصفُ الرِّياحُ بمُدن الشّمال الأسكتلندي حتّى

لتحسَّ مع قُوَّة الأعاصير أَنَّ البيوتَ سوف تُقْتَلَعُ من مكانِها، وسرعان ما تشرقُ الشمسُ فيبدو كلُّ شيءٍ جميلاً ومحَبَّباً إلى النَّفسِ التَّواقية والظَّامئة لاستكشاف ما يدور حولها. لقد كان - يا صديقي - ظمأً لا ينقطع، وتوقاً يعرف أو يتذكَّر بداياته، ولكنَّه - لا يفقَّه - حتى اللحظة مداهُ أو نهايتهُ.

- هذا (برنيسيس ستريت ما شارع الأميرة) - وهذه قلعة الملكة، وتلك البحيرات الجميلة التي عرفت بها ضواحي جلاسكو، وأباردين، وأدنبرة، وكان ينصت لهذا الحديث وغيره من زميل كريم سبقه إلى الدراسة العليا في ذلك الجزء من الجزيرة البريطانية، والذي يحتفظ أهله بلهجتهم الخاصة ولكنه تعجب بعد ذلك كيف أن «أبناء اسكتلندا» الذين يداعبون بعضهم البعض بعبارة عامية مثل «كمرا - هاو» - «كيف الحال»؟ قبل أن يأخذوا مقاعدهم في مجلس العموم، ثم إذا أذن لهم المتحدث باسم المجلس بأن يأخذوا - حظهم أو فرصتهم - للنقاش فيما ينفع الأمة الواحدة، فإذا بهم الأكثر فصاحة في لغة تشوسر، وشكسبير، وديكنز، وإن الفرصة لم توات الفتى لسمع «سير دوقلاس هوم» الذي كان يرد على معارضيه في البرلمان بلغة صافية، وشفافة، فإنه أصغى كثيراً لـ «روي جينكز» الذي كان يحتل في حكومة العمال منصب وزير الداخلية. أما مالكولم ريفكند، الذي كان يمثل دائرة اسكتلندية في المجلس، فإنه قبل أن يصبح وزيراً للخارجية بعد ذلك، كان يتحدث بطلاقة عجيبة من غير أن تكون - هناك - مدونة أمامه، وكانت فصاحة هذا الأسكتلندي، لا تقل عن فصاحة ابن الشمال الإنجليزي «مايكل فووت»، أو ابن مقاطعة «ويلز»، «نييل كينيك» الذي كان يذكر السامعين في مداخلاته مع «تاتشر»، بالخطيب العمالي المفوه «هيو جيتسكيل» الذي قضى في بداية الستينات - فجأة - وكان الرئيس

الأمريكي السابق «كينيدي» معجباً بقوة حضوره، ونباهته، وفصاحته التي تجعل الناس يشوقون لمراءه، وهو يحدثهم بصدق في «بلاك بول».

- وفي منزل الزميل الذي كان يصدق عليه اسم الدليل المخلص «الدكتور عبد الرزاق سلطان»، عرفت وجوهاً عدة من أبناء الوطن - حسن غفوري وعلي قربان، حسين الدَّواد، عبد الرحمن مطرودي، عبد الله مندورة ومن قبلهم عدنان محمد وزان الذي حللت عليه ضيفاً وكان يعتد - آنذاك - بمشيخة العالم الفاضل ورجل الإسناد حسن المشاط - رحمه الله - والذي يعتبر فضيلة الدكتور عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان من أكثر الأبناء البررة وفاءً له على أنه يبر - إلى اليوم - أصدقاء ذلك العالم الرباني الذي حدثني عنه معالي السيد أحمد زكي يماني.

أطال الله بقاءه - إنه - أي الشيخ المشاط - كان ينزل إلى الحرم الشريف ويطوف بالبيت في أوقات يخلو فيها الصَّحنُ والمَقَامُ بُعداً عما يمكن أن يَدْخُلَ في باب الرِّياء، وإذا كان الصَّدِيقُ «أبو هاني» سَبَقني لطلب العِلْم على يد فقيه مذهب الإمام مالك، هو والدكتور عبد الوهاب، وفضيلة الدكتور السَّيد المُحدِّث محمد بن علوي المالكي، فإنني تردَّدْتُ على منزل الشيخ «المشاط» مَعَ رجل الفَضل الوالد عبد الله بَضْنوي وأجازني في بعض مروياته العالية السَّند.

- وكان الشَّيْخُ «المشاط» محلَّ تقدير العالم والفقهاء الحنبلي الشَّيْخ «عبد الله بن حميد» - رحمه الله - والد الخطيب البليغ، والذي يمتلك من سعة الأفق وحُسْن الخُلُق ما يجعله جديراً باحترام الذين يعرفونه عن قُرب أو أولئك الذين يسمعون به عن بُعد، وهو فضيلة الدكتور صالح بن حُميد.

- أعودُ إلى «أدنبرة» التي عرفت فيها وجْهاً كريماً، هو الزميلُ العَصَّامي «الدكتور مرزوق بن صنيّتان بن تُنباك الحُرْبِي - الذائد عن لغة القرآن بفكره وقلمه الرّصين - وكان الزُّملاء الذين سبقونا إلى الدّرس في المملكة المتحدة أو الذين حطّوا رحالهم - معنا - في نهاية التسعينات الهجرية والسّبعينيات الميلادية - يخلُفون في مشاربهم، وأذواقهم وتوجهاتهم الفكرية، ولكنهم كانوا يتّفقون على محبة «ابن صنيّتان»، «كان مرزوق» الذي نشأ في بادية المدينة، ونَهَلَ العِلْم في جامعها الإسلامية الأولى - المسجد النبوي الشريف، وفي ثانويتها التي تحمل اسماً عزيزاً على كلّ نفسٍ مؤمنة، وهو «طَيِّبة» الطيّبة، كان الزميل يحمل في داخله قلباً ناصعاً، تجلس إليه فيبتسم في وجهك ابتسامة الصّفاء، ويحدّثك حديث الصدق، ثم يخابك بلغته البسيطة والعفوية متوسّلاً إليك في أدب جم بأن ترافقه إلى منزله، وتجد نفسك مُنجذباً لشخصية لم تنتكر لماضيها، ولم تنصّل من عراقتها، ولم تبهرها تلك المظاهر الكاذبة من حضارة الغرب، مع الانفتاح الواعي الذي تنمو معه، وبه شخصية الأكاديمي الذي قال عن الوطن في كتابه الرّصين والمتميّز «رسائل إلى الوطن» كان أمام المُصلحين من أبنائك خياران لا ثالث لهما، إمّا أن تبقى ذلولاً لتحقيق مصلحة لفئة محدودة الساحة، وميداناً للقبيلة والعشيرة والقرية والإقليم، وأن تتعدّد لك الولاءات بتعدّد المصالح الضيّقة، أو أن تجمع الولاءات والأطراف، وتتحدّد الأغراض والأهواء، وتصهرها في بوتقة الوطن الذي يصنّع الأمة ويجمع الشّمل، وأن يكون الولاء له - وحده - وأن تذاب التّعرة للقبيلة، والحميّة للقرية، والانتماء للإقليم، وتُصبّ في كيان الأمة وحسبُك ذلك، (انظر: د. مرزوق بن صنيّتان بن تنباك، رسائل إلى الوطن، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، ص ١٣).

- لم تكن، صديقي، مُتَجَنِّياً عندما كتبت إليَّ بتاريخ ١٨/٢/١٤١٣هـ - ١٦/٢/١٤١٣هـ - ١٦/٨/١٩٩٢م، بلغة العالم الواعي، والأديب المُرْهَف الإحساس، والأكاديمي المتواضع وأنت تتحدّث عما بعثته إليَّ ممّا كتبت وألّفت في رحلتك العلمية الطويلة والمُضيئة مع الحرف والكلمة.. لقد كتبت يا ابن الوطن الواحد، والكلمة المُجمّعة، والفكر «النّظيف» تقول «تأخّرتُ في الردّ عليك - منتظراً - ما ستجده مُرفقاً في هذه الرّسالة، لا اعتداداً فيما ستجد، ولكن محاولة لتقديم بعض ما كنت تُتخف به - أخاك - من وقت لآخر - من مؤلّفات قيّمة غالية على نفسي فأحببت أن أفصح أمامك جهلي، وأقدّم بعض عقلي فيما ستقرأه - إن شاء الله - كتابان قد تجد فيهما ما تقرأ بحُكم التخصّص والطّبيعة وملكة الأدب النّامي في ذوقك وإحساسك. لكن أخاك يعتزُّ بالثالث كل الاعتزاز وإن كان قد خلا من سمات الأكاديمية وصراحتها، أشعرُ أنني أقول رأيي «ولن أمش»، بل سأقوله كل ما استطعتُ أن أقول، أو وجدتُ وسيلةً للقول».

نعم لم تكن متجنّياً عندما كتبت - صادقاً - بأن «رسائل إلى الوطن» هو الأقربُ إلى نفسك ولهذا فأنت تعتزُّ به، مع أنّك نلت جائزة كنت جديراً بها على مؤلّفك القيّم، الذي سوف يظل علامةً مضيئةً في تاريخ ثقافتنا المعاصرة «الفُصحى - ونظرية الفكر العامّي».

- لقد كان «رسائل» في مضمونه وأسلوبه يحملُ تلك القيم الرّفيعّة التي أمنت بها، وطبّقتها في حياتك، وفي تعاملك مع زملائك في ديار الغرب، وأرض الوطن، فلقد كنْتَ الأخ الأكبر بطيبة نفسه، وأريحية يديه، ورجولة مواقفه، ونظافة سلوكه، ولقد حقّقت ما عجز الآخرون عنه - بهذا وغيره -

على كثرة في الادّعاء، وتصادم مع ما ينادون به عندما يعتلون منبر الفكر والثقافة .

- لأنّ كرمك راعي الأدب والأدباء الصّديق الأستاذ عبد المقصود خوجه في دارته العامرة، فإنك جديرٌ بهذا وسواه وأعلم أن بصرك جال بين الحاضرين، تبحث عن إنسان يعتز بشخصية الأديب والمثقف فيك، فلم تجده بين مَنْ حضروا ليحيّوك، وتنطلق الألسنة منهم لتقول في حقك - يا أبا راشد - شيئاً، فلعلّك وصاحب الدّارة تجدان لي العُذر في غياب لم أتعمّده، وليس كل ما يُعلّم يُقال، ولعلّ هذه السّطور المتواضعة تشفع لي عندكما، فكلّكما قريبٌ إلى النّفس ومحبّب إليها.

عبيد الله كردي . . فقيد العلم والمعرفة في مآزر الإيمان

- بالأمس كنت أقرأ له موضوعه الشيخ في صحيفة البلاد، واليوم - مساء الخميس - ينعاه لي عبر الهاتف الزميل والنسيب الدكتور عبد العزيز كابلي، إنه أستاذ الأجيال في مدينة المصطفى ﷺ، الشيخ عبيد الله كردي .

- وتعود بي الذاكرة إلى مطلع التسعينيات الهجرية عندما وجدت نفسي في مدرسة طيبة الثانوية . . أمام جيل متميز من الأساتذة الكرام: صالح حبيب، يدرس اللغة العربية، ومحمد الرويثي، يُلقني دروسه في مادة الجغرافيا، وخالد الجر في مادة الرياضيات وغيرهم واخترت أن ألتحق بالقسم الأدبي فإذا بي أجد نفسي في فرع للمدرسة الأم (طيبة) والتي كان يديرها أستاذ قدير، ومُربِّ فاضل هو الأستاذ أحمد بوشناق - أمد الله في عمره .

- وأطلق على الفرع اسم (أحد) لوجوده في طريق سيد الشهداء وعم النبي المصطفى «سيدنا حمزة بن عبد المطلب» رضي الله عنه، وقد تولى الإشراف عليه في بدايته الأستاذ علي يوسف، وكان يعاونه في تلك المهنة الجليلة أستاذنا الفاضل عبد الله عبد الإله خطيري، وكان الأستاذ الخطيري وزملاء له من أمثال الأساتذة الكرام: حسين الخطيب وعيد بن سالم

الردادي، ومحمد سعيد حلاية، وحمزة سييسي، وناجي حسن عبد القادر الأنصاري وعمر حسن عثمان فلاتة ومحمود محمد علي خيمي، ومحمد حسوبة وعبد الله المطوع وسامي فقيه وحمزة مسعودي وأمين عثمان فلاتة، وغيرهم، هم الطليعة من شباب البلد الطاهر الذين أثروا الحركة العلمية والتربوية فيها لمدة تقارب الثلاثين عاماً أو تزيد، ودخل علينا في الفصل الدراسي رجل مهيب الطلعة، يتكلم عن اللغة العربية وآدابها وكأنه قد تخصص فيها، ويستقرئ التاريخ فإذا هو الخبير بدقائقه من شخصيات وحوادث، ومع أنه جاء ليلقي علينا درساً في (الجغرافيا) فإذا أنا أسمع منه مصطلحاً اقتصادياً لم أدركه إلا بعد مضي زمن وهو (تعويم العملة)، وكان يرسم الخريطة على السبورة ليس كجغرافي بل كفنان يجيد رسم المشاهد وتصويرها بدقة وإتقان. ولقد كان ذلك المربي هو المرحوم عبيد الله كردي.

درس في الغرب ثم عاد، فإذا هو الفقيه في علوم الشريعة، والحافظ لكتاب الله، والمجاهد بلسانه وقلمه ينعي على بعض طلاب العلم تشدهم لأن الإسلام دين الوسطية والسماحة والاعتدال ولكنه يجادل في أدب، ويناقش بسعة أفق ورحابة صدر، وكان قد تصدى لمواضع التعصب والفئوية الممقوتة أخذاً بقول المصطفى ﷺ (دعوها فإنها منتنة) فإنه لا يمكن أن يجتمع في قلب مؤمن الإيمان بالله ورسوله والدعوة بدعوى الجاهلية التي اختفت تداعياتها المؤلمة منذ من الله على هذه الملة باعتناق عقيدة الإسلام الصافية. فلقد خاطب رسول الله ﷺ أحد صحابته، رضوان الله عليهم، أنه امرؤ فيه جاهلية، فما كان من الصحابي الذي أدرك غضب سيدنا رسول الله ﷺ، إلا أن طلب من سيدنا بلال رضي الله عنه أن يضع

قدمه على صفحة وجهه، ولكن هذا الصحابي الذي تخرج في مدرسة النبوة، والذي قال في حقه سيدنا عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، (أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا) نعم لقد أبى بلال، رضي الله عنه، أن يفعل ذلك مع أخ له في الإسلام ورديف في الهجرة وكان ذلك المشهد العظيم درساً للمجتمع المسلم الذي لم يناقض نفسه يوماً، ولم يعرف الازدواجية في سلوكياته وأقواله.

- وتصدى المرحوم (عبيد) للكتابة في تاريخ المدينة، فكتب المقدمات الضافية لمؤلفات الشيخ الحافظ لكتاب الله المرحوم أحمد ياسين الخياري، واهتم بمواقع قبور صحابة رسول الله ﷺ، فرسم الخرائط التي توضح أين دفن القوم الذين آزرُوا رسول الله ﷺ، وناصروه، وأحبوه عن إيمان وصدق، ولقد كان آخر عهد رسول الله ﷺ بالدنيا زيارته في دجى الليل لأهل البقيع يدعو لهم ويستغفر، ما أرحمك يا رسول الله بأمّتك في حياتك، وبعد مماتك وفي يوم البعث والشفاعة، وصدق الله القائل في محكم كتابه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨) قال القاضي عياض في كتابه المعروف (الشفاء بتعريف حقوق المصطفى) قال السمرقندي: وقرأ بعضهم ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ بفتح الفاء، وقراءة الجمهور بالضم، ورؤي عن سيدنا علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، عنه ﷺ في قوله تعالى: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، قال: نسباً وصهرًا، وحسباً ليس في آبائي من لدن آدم سفاح، كلها نكاح، (انظر الشفاء للقاضي أبي الفضل عياش اليحصبي، مذيلاً بحاشية العلامة: أحمد بن محمد بن محمد الشمني، دار الفكر، ص ١٤ - ١٥).

- وهناك جانب آخر في حياة الفقيه الشيخ عبید کردي وهو الدعوة إلى

الله بالحكمة والموعظة الحسنة في بلاد الغرب، وكان يسافر كثيراً على نفقته الخاصة ولقد كانت إجادته للغة الإنجليزية، عاملاً خاماً في مخاطبة الآخرين بلسانهم، وإذا كان فقيدنا، رحمه الله، رقيقاً مع بني قومه وحتى مع أولئك الذين يختلفون معه بشدة، فإنه كان أكثر رقة مع قوم تختلف رؤيتهم للكون والحياة عن رؤيتنا، ولقد كان لهذه السمائل الرفيعة التي ازدانت بها شخصية هذا العالم، والمربي، والمؤرخ أثرها في نفوس القوم الذين يدعوهم لاعتناق دين الوسطية والاعتدال، ودليله من كتاب الله عز وجل ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: ١٤٣) قال أبو الحسن القابسي (وسطاً، أي عدولاً خياراً، وفي رواية في (الشفاء) (حدثنا البخاري، حدثنا محمد بن سنان، حدثنا فليح، حدثنا هلال عن عطاء بن يسار، قال (لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص، فقلت أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ قال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ (الأحزاب: ٤٥) وحرزاً للأمين، أنت عبيدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح به أعيناً عمياً، وآذاناً صماء، وقلوباً غلفاً) (الشفاء للقاضي عياض، ص ٢٤ - ٢٥).

رحم الله أستاذ الأجيال عبيد الله كردي، فلقد كان حريصاً على نشر السيرة العطرة لسيدنا رسول الله ﷺ في كل مجلس يؤمه، وأن مآزر الإيمان وموئل الهجرة، ودار الهدى لتودع بوفاته واحداً من رجال العلم والفكر والدعوة، وتفقد لساناً ذرباً كان لا يخشى في الحق لومة لائم، اللهم اغفر له وارحمه، وعوض فيه أمة الإسلام خيراً.

الشيخ عمر محمد جاد وتاريخ مُضيء

- يَأْتِينِي صَوْتُ الصَّدِيقِ عَبْدِ الْمُحْسَنِ حَلَّيْتُ مُوَهْنًا وَحَزِينًا يَحْمِلُ العزاءَ فِي وَاحِدٍ مِنْ عُلَمَاءِ الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ وَمِنَ الْبَقِيَّةِ الصَّالِحَةِ فِيهَا، وَأَكْرَرُ مَا قُلْتُهُ مِنْ قَبْلُ، لَقَدْ تَسَاوَتْ أَغْصَانُ دَوْحَةِ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ سَعَةِ الْأَفُقِ بَحِثَ لَمْ يُؤْثِرْ عَنْهُمْ خِصَامٌ أَوْ شَطَطٌ، أَوْ حَجَرٌ عَلَى الرَّأْيِ الْآخِرِ، وَكَانُوا مِنَ الْفَهْمِ بِمَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ فَلَمْ يُؤْثِرْ عَنْهُمْ هَذَا الْقَامُوسُ الَّذِي بَدَأَ فِي الْإِنْتِشَارِ وَالْخَوْفُ كَبِيرٌ مِنْ اتِّسَاعِهِ عَلَى أُمَّةِ الْإِسْلَامِ، قَامُوسُ «التَّكْفِيرِ»، وَ «الْبِدْعَةِ» وَ «الشُّرْكَ» فَحَمْدًا «لِلَّهِ» الَّذِي جَعَلَ رَحْمَتَهُ شَامِلَةً لِجَمِيعِ النَّاسِ، وَاخْتَصَّ - وَخَدَهُ - بِمَصِيرِ الْعِبَادِ، فَمَفَاتِيحُ الْجَنَّةِ بِيَدِهِ - تَقَدَّسَ عَزَّ وَجَلَّ عَنِ النَّظَائِرِ وَالْأَشْبَاهِ، وَلَمْ يُحَذِّرِ الْمُصْطَفَى - ﷺ - مِنْ شَيْءٍ كَمَا حَذَّرَ الْمُسْلِمَ مِنْ رَمِي أَخِيهِ الْمُسْلِمَ بِكَلِمَةِ الْكُفْرِ، وَلَقَدْ كَانَ ﷺ - خُلِقَهُ الْقُرْآنُ، كَمَا رَوَتْ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ السَّيِّدَةِ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - وَهَذِهِ آيَاتُ مُحْكَمَاتٍ تُجَسِّدُ أَخْلَاقَهُ وَشَمَائِلَهُ الْكَرِيمَةَ ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنْ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنَّصُوتُكَ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

- تَفْتَحُتْ أَعْيُنُنَا فِي بَلَدِ الْمُصْطَفَى - ﷺ - عَلَى عُلَمَاءٍ تَفَقَّهُوا فِي

كتاب الله، ورووا أحاديث رسول الله - ﷺ معرفة ودراية، وكانت حلقتنا الشيخين الكريمين محمد الأمين المختار الشنقيطي و «عمر محمد جاد فلاتة» من أبرز الحلقات، وكان يؤمها الخاصة من الناس، ويفيد منها العامة - أيضاً - ولست مبالغاً في القول إذا ما قلت: إن حلقة الشيخ «عمر جاد» هي من أقدم الحلقات إن لم تكن أقدمها، ولم يحضر الشيخ عمر - نفسه - في جانب واحد فتعددت مواهبه وبرع في كثير من العلوم، ولا تشعر وأنت تتحدث إليه - رحمه الله - بحرج أو خوف، وذلك لتلك السّماحة التي كانت تبدى بوضوح على وجهه وكان جاهه مبذولاً للناس - جميعاً - في بلد المصطفى ﷺ، ولقد أخبرني صديقي المرحوم «معاذ بن عثمان فلاتة» أن الشيخ عمر ورفيقه الشيخ الحافظ محمد الثاني - أطال الله بقاءه - لا يسمعان عن مريض إلا وزاراه، ولا محتاج إلا واسياه.

- وتعود بي الذاكرة إلى حوالى عقدين من الزمن عندما توفي زميلنا «أيوب حسن فلاتة» - شقيق الدكتور عمر حسن - فجاء الشيخ عمر وكان يقف بجانبه الشيخ محمد عثمان قلادة - شافاه الله - وحثونا التراب على شاب اختاره الله وهو في مئة الصبا وريعان الشباب، فإذا الشيخ «عمر جاد» يرفع يديه ويدعو للمتوفى، وكنا نؤمن على دعائه ودموعنا تتفطر حسرة على الفقيد.

- ثم ينتقل إلى رحمة الله - الشيخ محمد الصّاوي، فيقف الشيخ في البقعة الطاهرة ويرفع صوته قائلاً: «اليوم فقدت المدينة خير المجودين لكتاب الله»، وعندما توفي أستاذنا «محمد الطيب إدريس»، وكان من خيرة الناس في البلد الطاهر - فعزيتة فيه عن طريق الهاتف فإذا الكلمات تخرج

مِنْ لِسَانِهِ مَمْزُوجَةً بِالذَّمِّعَ لِيَقُولَ لِي: لَقَدْ كَانَ الْأَقْرَبُ مِنْ بَيْنِنَا إِلَى فِعْلِ
الْخَيْرَاتِ، وَبُوفَاةِ «الشَّيْخِ عَمْرٍ» تَفْقَدُ الْأُمَّةُ رُجُلًا مِنْ رِجَالِ الْعِلْمِ النَّافِعِ،
وَيَأْتِي الْفَقْدُ فِي زَمَنِ كَثُرَ فِيهِ الْخَلْطُ، وَالْهَرْجُ وَالْمَرْجُ، فَاللَّهُمَّ ارْحَمْهُ
وَتَدَارَكْنَا بِالْطَّافِكِ.

الشيخ عبد العزيز بن صالح . . وسيرة حميدة

- كنت واحداً من ذلك الجيل الذي تعودت أذناه على ذلك الترتيل الموسوم بالمهابة والجلال، والمنبعث من محراب مسجد النبي ﷺ وأعني به صوت فضيلة المرحوم الشيخ عبد العزيز بن صالح.

ولقد جمع الله لأبي محمد - أسكنه الله فسيح جناته - مواهب أخرى منها الخطابة المرتجلة والمؤثرة من فوق المنبر الأجل بين الروضة الشريفة والمقام الطاهر والتّمتع بذلك التّعرق الدقيق في مقاصد الشريعة الإسلامية، وهو في هذا يماثل فضيلة الشيخ عبد الله بن حميد - رحمه الله - والد الخطيب المفوه - فضيلة الشيخ صالح بن حميد - أمد الله في عمره.

وكان الشيخ عبد العزيز وفيّاً مع شيخ القراء في بلد المصطفى ﷺ، الشيخ حسن الشاعر - رحمه الله - فلقد قرأ عليه القرآن وأفاد من علمه الواسع في علم القراءات الذي كان يُشاطره فيه المعرفة الشيخ أحمد ياسين الخياري - رحمه الله.

ولقد أدركت جملة من المشائخ الذين عرفوا بقراءاتهم المتميزة لخير كتاب وأعظمه وأكرمهم، ومنهم المشائخ: عبد المجيد حسن، أحمد السنوسي التونسي، جعفر فقيه، عباس القارئ، مدني حجار، محمد عبد القاهر مُلاً، هاشم شقرون، أمين مرشد، محمد حسين رمزي الميمني وابنه

صديق، محمد الصاوي، عبد الله الخربوش، محمد منصور عمر، صالح الخميمي، محمد الثاني، عبد الله بن زاحم، عمر محمد جاد، حسين عويضة، حليت بن مسلم المحمادي، صقر المطيري، عبد الستار بخاري، صالح البيجاني، سيف بن سعيد، عبد العزيز قاري، إحسان الصديقي، شهاب رضوان، عمر الحيدري، علي بن عبد الرحمن الحذيفي، عباس صقر، أديب صقر، علي كماخي، ماجد عسيلان، علي عمر جابر، محمد علي النجار، محمد علي السمان، خليل الرحمن القاري، وعلى يديه تلقى علوم القرآن عدد كثير من أئمة الحرمين الشريفين ومنهم الشيخ محمد أيوب الذي أحسن الشيخ عبد العزيز بن صالح - رحمه الله - في اختياره لصلاة التراويح والتهجد بمسجد خاتم الأنبياء وسيدهم عليه صلوات الله وسلامه، كما اختار الشيخ إبراهيم الأخضر القيم للإمامة، وهو آخر تلاميذ الشيخ الشاعر، وكان ملازماً له ملازمة كاملة سواء في الحرم أو في المنزل، وأفاد مما فتح الله به على المرحوم الشيخ الشاعر من علوم تتصل بكتاب الله، ولقد ظلت ذاكرته بقوتها ووهجها حتى قبل وفاته من عمره المديد الذي تجاوز المائة عام، قضاها في خدمة طلاب العلم ورعايتهم، واستزاد الشيخ «القيّم» من معرفة الأستاذ عبد الستار بخاري وكان حافظاً لكتاب الله، ومؤذناً بالمسجد الطاهر وراوية للشعر الرصين وعارفاً بأسرار اللغة العربية وخصائصها، وأعرف من «الريس» الكثير وقد أشرت إلى هذا في بعض كتاباتي المتواضعة عن طيبة الطيبة، كما أعجب الشيخ العلامة «عبد الفتاح القاضي» - رحمه الله - بموهبة الشيخ القيم فاحتضنه بين خاصته من طلاب هذا العلم الشريف.

رجلٌ بين العنبريّة وسوق النّدى يوسف شكري

- المكان هو الحي «العنبرية»، اسم طالما تردد على ألسنة شعراء الشوق والوجد إلى بلد الحبيب - ﷺ - من هنا كان يخرج ركب الداغستاني ورديفه حمزة لبان قاصداً بيت الله الحرام، ومن هنا كانت تظهر قباب الحي ومناثره لكل من دفعه الحب الصادق ليصلي في مسجد سيد الأولين والآخرين - عليه صلوات الله وسلامه - ويكرمه الله بالوقوف أمام مثواه مسلماً عليه وعلى صاحبيه - رضوان الله عليهما - وداعياً بالمغفرة والرحمة.. أما الزمن فهو منتصف الثمانينات الهجرية، حيث تقف سيارة سوداء اللون ويخرج منها رجل مضيء الوجه، سمح المحيا، خافت الصوت يستقبله الوالد - رحمه الله - بكل حرارة، ويدخل الدار فيتغير كل شيء. هؤلاء الصفوة من الأصدقاء عثمان أبو عوف، السيد صالح حلواني، يوسف صيادة، عباس حماد منفلوطي، يأتون - أيضاً من حوش «عميرة» وزقاق الطيار، والمناخه ليقابلوا الرجل الذي خرج من المدينة إلى جدة - الشيخ يوسف شكري - والذي انتقل قبل مدة إلى الدار الآخرة بعد عمر حافل بصالح الأعمال، ولقد كان يدفعني - فضول صغار السن لأسمع حديث قوم صفت منهم النفوس، وطاب مشربهم وتهذب القول منهم

والسلوك - إنهم يا صديقي الأصلاء وليسوا بالوافدين - كما جَمَحَ القلم بالأخ الذي أحسن الظن به، وأتطلع أن يحسن الظن بإخوته وأشقائه من أبناء هذا الوطن المتآلف ويغبطه الآخرون على وحدته وتماسكه وتناسقه.

كان «يوسف شكري» لا يكف لسانه عن ذكر الله، وكان القوم من أهل حارة «الشام» يرونه جالساً في حانوته الذي اشتهر به، فيطمئنون لرؤية رجل قلبه معلق بالمسجد، ونفسه تحلق في عالم الطهر والصفاء، يحفظ التاريخ لبلد الهجرة والجوار، وعندما سألته - ذات يوم - في سوق الندى حيث يقيم، هل تعرف حمزة شحاتة - يا أبا سالم؟ أجبني: كان حمزة إذا مشى في أسواق جدة تشرئب الأعناق لرؤية رجل جمع له من المكارم والمحاسن ما لم يجمع لغيره، كانت كلمته الشاعرة في جرسها ووقعها تتواءم مع حسن هندامه ورفيع ذوقه في لباسه وحديثه وكان هو الجواب الذي سمعته من المرحوم الشيخ سليمان لبان في دار أخواله مِنْ آل القُمصَّاني في طريق مكة.

رحم الله الرجل الذي كان إذا قَدِمَ لزيارة المدينة يوقف سيارته في - عروة - خارج المدينة، ثم يمشي على قدميه ليدخل - العنبرية - حتى لا يجرح شعور القوم من أهل الحي، في زمن كانت القلة من الناس تملك وسيلة النقل الحديثة. قد يرى البعض في هذا شيئاً من الأسطورة، ولكنه مسلك الأدب الذي تربت عليه الأجيال الماضية في بلد الطهر والإيمان، وهي الشمائل التي خلدت الرجال فوقف التاريخ بين يديهم ليسجل شيئاً من مآثرهم، ويرسم صوراً زاهية ومشرقة عنهم، لم أقل شيئاً كثيراً عن الوالد يوسف شكري - رحمه الله - ولكن وداد الآباء يرثه الأبناء، فعزائي لسالم ومختار وعدنان وإخوتهم، وعوضنا الله خيراً في واحد من بقية

الناس، أناس عرفتهم وجلست إليهم بين (المظلوم) و(العلوي) و(شارع قابل) و(سوق الندي)، رحم الله، عبد القادر أمير، وطه غيث، وصالح نوار وأحمد طوال وجميل عبده، وعبد الله صعيدي، وحسن إدريس وصالح بن عابد، لقد كانوا كباراً في قاماتهم، وكباراً في سلوكهم، وكباراً في تجربة الحياة ومعانيها السامية.

عاصِم حَمْدَان وَمُؤرِّخو المَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ(*)

نشر الكاتب الأديب المحقق الدكتور عاصم حمدان عليّ مقالاً شيقاً في عدد سابق من ملحق (التراث) ألقى فيه أضواء على التاريخ والمؤرخين للمدينة المنورة، في العصر الحديث؛ وقد رصّعه بمعلومات تاريخية عمّن كتب عن مختلف جوانب حياة المدينة المنورة؛ من قدماء ومحدثين؛ عاصر الكاتب بعضاً منهم، أو سمع أحاديث مروية من بعض أصدقائه أو أصدقاء والده الثقات؛ فأبان عن كثير من الجوانب الخفية؛ التي تكاد تطويها عبر الزمان وأحداث الدهر.

ولكنّ الكاتب الأديب - بما وهبه الله من المعية في الذكاء، ورهافة في الحس، وسعة في المعرفة بالتاريخ السياسي والاجتماعي والأدبيّ لمدينة الرسول - على ساكنها أفضل الصلاة وأتمّ التسليم - قد فطن لكثير من الحوادث التاريخية والأدبية، التي تناولها في أحاديثه وكتاباتهِ الثرة عن تاريخ وأدب وسير الرجال في مدينة طيبة الطيبة.

ولست بناسٍ ما سطرته يراعة هذا الكاتب الأديب الذي تمتاز كتاباته الأدبية والتاريخية برؤية فكرية ووجدانية عميقة تنفذ بقارئها إلى لبّ

(*) هذا الموضوع كتبه سعادة الأستاذ المربي السيد محسن باروم في صحيفة المدينة المنورة،

ملحق التراث، ٧ جمادى الأولى ١٤١٧هـ.

الموضوع في سهولة ويسر، ونقاء أسلوب، وحلاوة عرض، وغزارة في المعرفة تدلّ على أصالة صاحبها، ورسوخ قدمه في الموضوع الذي يعالجه .

ولست أشكّ في أنّ الدكتور عاصم من الكتاب الجامعيين القلائل؛ الذين وهبوا أنفسهم للبحث والتنقيب عن المعرفة في مختلف مصادرها المكنونة والمخطوطة، ومتابعة ما تنشره المطابع، في الشرق العربي والغرب الأوروبي، بكلّ دقة واهتمام في سبيل الحصول على هذه المخطوطة الغالي والنّفيس ممّا يملكه؛ وهو لذلك من الكتاب المثقفين الذين أحبّ أن أقرأ ما يكتبون؛ لأنني أخرج بذلك بفائدة فكرية تزيدني سعة في العلم، وعمقاً في الرؤية، وتواصلًا مع حركة الثقافة العالمية، التي تجسّدها كتابة هذا الكاتب الأديب أتمّ تجسيد.

ومنذ أن حصل الدكتور عاصم على (دكتوراه) الفلسفة من جامعة (مانشستر) في عام ١٤٠٦هـ، وهو يواصل تدريس طلابه فنون الأدب العربي بجامعة الملك عبد العزيز بجدة، ويواصل الكتابة في شؤون الأدب، والتأريخ والثقافة، والسياسة العالمية، في عموده الأسبوعي بصحيفة المدينة بفكر مستنير، ووعي سياسي متفتح، ونظرة ثاقبة إلى ما يجري حوله من أحداث في العالم العربي أولاً، وفي المحيط الدولي الكبير ثانياً، في أسلوب أدبي مشرق، ومنهج فكري رصين يضعه في مصاف الكتاب اللامعين؛ الذين يقودون حركة التواصل الفكري، والتطور الأدبي، في البلاد العربية السعودية في العصر الحديث.

ولقد كانت تلك المقالة المسهبة التي استعرض فيها الكاتب ضروب المصادر التاريخية؛ التي ألفها القدماء والمحدثون عن مدينة طيبة، التي

آثرها بُحْبُهُ وهَوَاهُ؛ فعكف على دراسة تأريخها الأدبي والاجتماعي، كان أولها أطروحته لدرجة (الدكتوراه) وكانت تدور حول (أدب المدينة المنورة في القرن الثاني عشر الهجري، الثامن عشر الميلادي وقاده هذا إلى تحقيق كتابين في تأريخ المدينة المشرفة؛ هما (تحفة الدهر ونفحة الزهر في شعراء المدينة من أهل العصر) للشيخ عمر بن عبد السلام الداغستاني؛ وقد شاركه في التحقيق الدكتور بكري الشيخ أمين، وثانيهما (الأخبار الغربية فيما وقع بطيبة الحبيبة) للسيد جعفر بن هاشم الحسيني؛ من أدباء المدينة في القرن الثالث عشر الهجري؛ ولم يزل هذان الكتابان مخطوطين لم يتح لهما النشر العلمي لغاية الآن؛ وأرجو أن يريا النور؛ ليستفيد من حقائقهما ومضامينهما جمهرة العلماء، والباحثين في تاريخ المدينة.

كما أنَّ أبناء المرحوم الشيخ خضر فارسي قد اعترفوا على صفحات هذا (الملحق) أنَّ مخطوط والدهم في تأريخ المدينة موجود تحت أيديهم؛ ولم تعصف به نكبات الزمان؛ فإنَّ مخطوط والدهم يقتضي - برأ بوالدهم - نشر كتابه هذا؛ إسهاماً منهم في إحياء ذكره من ناحية، وإحياء لمصادر التأريخ المتصلة بمدينة الرسول الأعظم من ناحية أخرى.

وعلى أية حال فإنَّ اللوحة التأريخية؛ التي رسمتها ريشة الدكتور عاصم كانت جميلة في ملامحها العامة، مفيدة في معلوماتها التأريخية والاجتماعية عن المدينة، وأحيائها الشعبية، ورجالها الأحياء والأموات منهم، وذكرياته اللطيفة مع كثير منهم، دفعني إلى أن أضيف إلى معالم الصورة التأريخية؛ التي رسمها لمدينة طيبة الحبيبة معالم أخرى؛ يبدو أنَّ مقام السرد التاريخي لم يتسع لها؛ فأثرت أن أدلي بدلوي معه في إكمال ملامح تلك اللوحة؛ حتى تكون مرجعاً للعلماء والمؤرخين في التعرف إلى

مختلف جوانب تأريخي المدينة المشرقة؛ التي شرفها الله بوجود المسجد النبوي الشريف، وكثير من المآثر المضيئة في تأريخ الإسلام؛ على امتداد عصوره.

وقد قسّمت هذه المصادر إلى سبعة أقسام، بحسب موضوعاتها، يندرج تحت كل قسم منها ما يكمل ملامح اللوحة التاريخية؛ التي رسمها الدكتور عاصم عن مؤرخي المدينة في العصر الحديث.

ولعلّ في هذه المصادر التي أوردتها ما يتحدّث عن أخبار المدينة في عصور سابقة للعصر الحديث، ويُعطيها خصائص فنيّة وتاريخية تجعلها درّة فريدة تُضاف إلى الدّرر الفرائد؛ التي قد ضمّها عقد الدكتور عبد الرزّاق الحربي برصد (ببليوجرافي) لما كتب عن المدينة؛ وذلك على صفحات (ملحق التراث) بهذه الصحيفة الغراء.

(أولاً) في الدّراسات الأدبيّة :

(أ) قصّة الأدب في الحجاز: عبد الله عبد الجبار، محمد عبد المنعم خفاجي .

(ب) المدينة المنورة بين الأدب والتّاريخ: د. عاصم حمدان .

(ج) نفحة الرّيحانة ورشحه طلاء الحانة: محمد أمين المحبّي، تحقيق د. عبد الفتاح الحلو (الجزء الرابع).

(ثانياً) دراسات في الشعر والشعراء :

(أ) سلافة العصر في محاسن الشعراء بكلّ مصر: لعلي بن معصوم .

(ب) تحفة الدّهر ونفحة الزّهر في شعراء المدينة من أهل العصر:

لعمر بن عبد السلام الدّاغستاني (مخطوط) د. عاصم حمدان ود. بكري شيخ أمين.

(ج) الشعر في الجزيرة العربية خلال قرنين (١١٥٠ - ١٣٥٠هـ):
للدكتور عبد الله الحامد.

(د) الشعر الحجازي في القرن الحادي عشر الهجري: جزءان للدكتور عائض الرّدادي.

(هـ) الشعر الحديث في الحجاز ١٩١٦ - ١٩٤٨م: لعبد الرحيم أبو بكر.

(و) الشعر والغناء في المدينة ومكة في العصر الأموي: للدكتور شوقي ضيف.

(ثالثاً) في التّاريخ والتّراجم والسّير :

(أ) عمدة الأخبار في مدينة المختار: لأحمد عبد الحميد العبّاسي.
(ب) رسائل في تاريخ المدينة: لعلي بن موسى، تحقيق حمد الجاسر.
(ج) تحفة المحبّين والأصحاب فيما للمدنيّين من الأنساب: لعبد الرحمن بن محمد الأنصاري.

(د) المدينة المنورة في العصر الأموي: لمحمد محمد حسن شراب.
(هـ) مجتمع المدينة قبل الهجرة وبعدها: لحسن خالد.

(و) المجتمع المدني في عهد النبوة: للدكتور أكرم ضياء العُمري.
(ز) مجتمع المدينة في عهد الرسول - ﷺ: لعبد الله عبد العزيز

إدريس.

(ح) مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول: لأحمد إبراهيم الشّريف .

(ط) دور الحجاز في الحياة السياسية العامة في القرن الأول والثاني الهجري: لأحمد إبراهيم الشّريف .

(ي) تراجم أعيان المدينة المنورة: لمؤلف مجهول، تحقيق الدكتور محمد التونجي .

(ك) بناء العلم في الحجاز الحديث - أحمد الفيض آبادي: لعبد القدّوس الأنصاري .

(ل) رجال الحجاز: للسيد إبراهيم هاشم فلالي .

(م) أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر الهجري (خمسة أجزاء): محمد علي مغربي .

(ن) بلاد الحجاز منذ بداية عهد الأشراف حتى سقوط الخلافة العبّاسية: للدكتور سليمان عبد الغني مالكي .

(رابعاً) في الجغرافيا والرحلات :

(أ) المغانم المطابة في معالم طابة - قسم المواضع: للفيروز آبادي، تحقيق حمد الجاسر .

(ب) الدرر الفرائد المنظّمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظّمة: لعبد القادر بن مُحمّد الجزيري، تحقيق حمد الجاسر .

(ج) مرآة جزيرة العرب: لأيوب صبري باشا، تحقيق د. أحمد فؤاد متولي ود. الصنفصافي أحمد المرسي .

(د) مرآة الحرمين: جزءان للواء إبراهيم رفعت .

- (هـ) ملء العيبة فيما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجهية بمكة وطيبة: لمحمد عمر بن رشيد الفهري، تحقيق د. محمد الحجّي.
- (و) المدينة في رحلة العياشي: دراسة وتحقيق محمد أمحزون.
- (ز) الرحلة الحجازية: لمحمد لبيب البتوني.
- (ح) في ظلال الحرمين: لمحمد كامل حنة.
- (ط) طريق الهجرة النبوية: لعاتق بن غيث البلادي.
- (ك) معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية: عاتق غيث البلادي.
- (ك) المدينة المنورة وتطورها العمراني وتراثنا المعماري: لصالح لمعي مصطفى.

(خامساً) في الإدارة والاجتماع والصناعة:

- (أ) التّرايب الإداريّة أو نظام الحكومة النبوية: لعبد الحي الكتّاني.
- (ب) الحياة الاجتماعية والاقتصادية في المدينة المنورة في صدر الإسلام: للدكتورة نورة بنت عبد الملك آل الشيخ.
- (ج) الحرف والصناعات في الحجاز في عصر الرسول - ﷺ : لعبد العزيز بن إبراهيم العمري.
- (د) ذكريات طفل وديع: لعبد العزيز الرّبيع.
- (هـ) صور وذكريات من المدينة المنورة: للسيد عثمان حافظ.
- (و) حارة الأغوات: للدكتور عاصم حمدان.
- (ز) حارة المناخة: للدكتور عاصم حمدان.

(سادساً) في تأريخ التربية والتعليم :

(أ) الكتاتيب في الحرمين الشريفين وما حولهما: للدكتور عبد اللطيف بن عبد الله بن دهيش .

(ب) التعليم في مكة والمدينة آخر العهد العثماني: للدكتور محمد الشامخ .

(ج) التعليم الأهلي في المدينة المنورة من عام ١٣٤٤ إلى عام ١٤٠٨هـ: لدخيل الله بن عبد الله الحيدري .

(د) الحركة العلمية في الحجاز من ظهور الإسلام إلى قيام الدولة العباسية: دراسة تأريخية من (١ - ١٣٢هـ) للطيفة محمد البسام (رسالة جامعية مخطوطة).

(سابعاً) في المعارف العامة :

(أ) أطلس المدينة المنورة: لمحمد شوقي بن إبراهيم مكي .

(ب) دليل المدينة المنورة: عبد الله أمين كردي وعبد العزيز محمد كابلي .

مؤرخو السيرة النبوية

أما الكاتبون والمؤرخون لسيرة رسول الله - ﷺ - من المسلمين والنصارى من المستشرقين وغيرهم، فأمر يطول الحديث عنه؛ وهو يستغرق مجلدات؛ وقد سبق لبعض الباحثين المسلمين أن تصدى له وأصدر فيه كتباً مستقلة، ولكن يعنيني أن أشير إلى بعض الكتب والمصادر الحديثة؛ التي ألفها علماء ومفكرون من المسلمين والنصارى؛ مما امتازت

به كتاباتهم من الجدة في أسلوب العرض، ومنهج البحث التاريخي، لبعض جوانب سيرة الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه.

وأذكر من هؤلاء المؤرخين والعلماء المسلمين ما يأتي:

(أ) عبقرية محمد: لعبّاس محمود العقّاد.

(ب) حياة محمد: للدكتور محمد حسين هيكل.

(ج) السيرة النبوية: للشيخ أبي الحسن عليّ التّدوي.

أمّا من كتب علماء النصارى في سيرة الرسول باللغة العربية، أو بلغات أجنبية أخرى، جرى ترجمتها إلى اللغة العربية، فإنه يهمني أن أشير إلى الكتب التالية:

(أ) محمد الرسالة والرسول: د. نظمي لوقا.

(ب) حياة محمد: لواشنجتون أيرفنج، ترجمة د. عليّ حسني الخربوطلي.

(ج) حياة محمد: لإميل أرمنغم، ترجمة عادل زعيتير.

(د) حياة محمد: لبودلي: ترجمة محمد فرح د. عبد الحميد جودة السحّار.

(هـ) الأبطال: لتوماس كارل لايل: ترجمة محمد السباعي.

(و) محمد في المدينة: لمونتجمري وات، ترجمة شعبان بركات.

(ز) مائة أوائل: لمايكل هارت، ترجمة أنيس منصور.

ولا ننسى في هذا الصدد بعض المستشرقين، الذين رحلوا إلى المدينة المنورة في أثناء اكتشافهم لمجاهل شبه الجزيرة العربية، ويأتي في مقدمتهم: المستشرق الألماني يوهان لودفيج بوركهارت؛ الذي نقل إلى

اللغة العربية ملاحظاته وتعليقاته عن مدينة الرسول في كتابه (رحلات إلى شبه جزيرة العرب كل من الدكتور عبد العزيز الهلابي، وعبد الرحمن عبد الله الشيخ.

وأستميح الدكتور عاصم حمدان عذراً إن أشرت إلى أن مقولته عن فقهاء المدينة السبعة قد أردفت بعدهم ذكر أئمة المذاهب الفقهية الأربعة: مالك، وأبي حنيفة، والشافعي، وابن حنبل، وأهمل ذكر غيرهم من المذاهب الفقهية؛ التي انتشرت في أمصار الحضارة الإسلامية، وكان لها أتباع فيها؛ وأعني بهم الأئمة الثلاثة البارزين: زيد بن علي، وجعفر الصادق، وداود الظاهري، فأحر بكتابنا الفاضل أن يضيف أسماءهم إلى قائمة الأسماء الشهيرة، التي أدت دوراً كبيراً في إبراز معالم حضارتنا الإسلامية المجيدة؛ وكان لهم أكبر الأثر في تأكيد حرية الفكر في التعبير عن أدق مظاهر الحياة العقلية والاجتماعية في تلك الحضارة.

وللدكتور عاصم حمدان علي أجمل تمنياتي له بالصحة، وهناءة البال، والتوفيق المستمر، في خدمة الأدب والتأريخ للمدينة المشرفة، التي منحها أوفى حبه، وأصدق مشاعره، فأنج لنا من الكتب ما يجعله في قائمة المؤرخين والكاتبين الذين تناولوا جوانب مضيئة من تأريخها الأدبي والفكري والاجتماعي في عصور التأريخ المتتابة وإنا لمتشوقون إلى المزيد منها، وبالله التوفيق.

أحمد محمد جمال في ذاكرة البلد الأمين

- هذه كلمات أكتبها عن رجل قرأته كاتباً، وأصغيت إليه مدرساً، ونعمت به صديقاً، وأحببت فيه صبره وثباته منذ أن نشأ في الأرض المباركة إلى اليوم الذي احتضنته فيه حجونها ومعلاتها جاراً لصحابة رسول الله - ﷺ - وخذيناً لأهل الصديق والمعرفة.

- ربع قرن من الزمن مضى منذ قرأت لأحمد جمال - رحمه الله - (مكانك تحمدي) - و(ماذا في الحجاز؟) و(سعد قال لي)، فهزت كلماته الأعماق مني وأثارت فيّ شعوراً بالغربة في التعرف إليه، وأستبين منه ما أشكل عليّ من القضايا. فرد في زاويته التي كان يكتبها بصحيفة (المدينة). ولما رأيت مقالته مذيلة باسمي أخذني فرح طفولي عميق واجتاحني مشاعر التطلع إلى معرفة الرواد من أدبائنا في تلك الحقبة كأحمد عبد الغفور عطار، وضياء الدين رجب ومحمد سعيد العامودي، ومحمد حسين زيدان - رحمهم الله وأسكنهم فسيح جناته - ومرت الأيام فإذا أنا طالب في كلية الشريعة أتنقل بين (الشعب) و(الشامية) و(سوق الليل). وفي هذا الحي الأخير، عرفت أخاه الأكبر المرحوم الأستاذ صالح جمال. فإذا السمات متقاربة، ابتسامة لا تفارق المحيا، وتواضع

ينم عن عراقية البيت الذي ينتمي إليه هؤلاء الكبار من الرجال. كبار فيما يكتبون، وكبار فيما يفعلون، وكبار في حبهم وعطفهم على الآخرين، وحضرت يوماً منتدى للأدباء فإذا أنا برجل طويل القامة، مشرق المحيا، كأنه في العشرينيات بينما كان يومها قد تجاوز الخمسين من سني عمره الحافل بصالح الأعمال. رأيته فاشترأت أعناقنا - نحن معشر الطلاب - لنرى هذا المثال الذي ينقل خطواته في تودة وثبات ويستلم براءة الريادة من الفقيد الأستاذ حسن بن عبد الله آل الشيخ - رحمه الله - ولكن الأيام لم تطل بي حتى قابلته بين الصفا والمروة وأنا بصحبة رجل المروءة والفضل الشيخ عبد الله محمد بصنوي - رحمه الله، فإذا برائد الكلمة الطيبة يتوقف يحيي شيخاً أحبه الكبار والصغار في البلد الحرام. وإذا الوالد البصنوي بصوته الخفيض وحياته المعروف يقدمني له فإذا هو يتذكرني وإذا أنا في نشوة وسرور كبيرين. يحتضنني رجلان لم أذرف الدمع في حياتي كما ذرفته عليهما. ولقد تذرف الدمع عيون ثم تنسى بعد أمد يطول ويقصر. ولكن حزني دائم وطرفي هامل على أبي محمد - وأردد قائلاً: هل يجود الزمان بمثل هؤلاء الرجال؟ وأتذكر فجأة بيت الشاعر السيد محمد حسن فقي - أمد الله في عمره - الذي قاله في رثاء صديقه - حمزة شحاتة - رحمه الله -

إن الذي خلق الحياة حفيظة بالشر، أنقذنا ببعض خياره

كثيرة هي المواقف التي لا تفارق ذاكرتي عن هذا الفقيد ولكن موقفاً من بين هذه المواقف لن أنساه ما حييت وكثيراً ما استشهدت به على وفاء هذا الرجل وكريم خلقه، وصفاء سريرته، فلقد غبت عن الأرض التي أحببت والقوم الذين ألفت سنين، كنت فيها طائراً غريباً، ونفساً سجيئة،

وشوقاً محرقاً ولعلّ صحيفة كتبت خيراً عن حصولي على الدرجة العلمية،
فإذا البريد.

فماذا أقول عنك لا تكفيني مجلدات ويكفي أنك الأديب والمفكر
والكاتب الإسلامي الذي لا يخاف في الله لومة لائم والأستاذ المتواضع
المؤدب بأدب القرآن فكنت القدوة الصالحة لأبنائك وأحبائك.

مات مُحدِّثُ العَصْرِ الشيخ محمد متولي الشعراوي

عندما يموت العَالَمُ الرَّبَّاني تفقد الأمة كثيراً من ضيائها، فهي بهذا الضياء تعيش، وبومضاته تهتدي، وبفكره تدفع عن ذاتها عوامل التخبط والحيرة، فكيف إذا كانت الأمة تعيش حقبة أقل ما يمكن أن يقال عنها إنها حقبة التشتت والضعف والتي أشار إليها المصطفى ﷺ في حديثه المعروف «سوف تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها، قالوا: «أو من قلة يا رسول الله، قال: بل أنتم - يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغُثاء السَّيل» أو كما قال. وهذا الحديث فيه من دلائل صدق النبوة، والتي تُعبر عن واقع مرير يعيشه المسلم، حيث تستغيث المرأة أو تنادي: «وامعتصماه» وفاروقها، وذلك السيف المسلول الذي رفض سيدنا أبو بكر - رضي الله عنه - أن يغمده لأن صاحبه - سيدنا خالد بن الوليد - نقش عليه بعظيم المآثر تاريخاً قوياً وناصعاً لأمة الإسلام والعروبة.

ثلاثة علماء تفجرت علوم القرآن في هذا العصر من ألسنتهم كما يتفجر ينبوع من قاع الأرض فيكون ماؤه صافياً زلالاً: أحدهم جاور في مدينة المختار - ﷺ - وأخذت عليه الصفوة من أهل العلم في هذا البلد الكريم وهو الشيخ محمد المختار الأمين الجُكني صاحب (أضواء البيان في

تفسير القرآن بالقرآن) كأني أنظر إليه يحدث في «الرُّواق بين الحصوتين» ينثال العلم على لسانه فلا يُصدِّقُ المرء أن الله قد جمع له بين علوم شتى من أصول، وحديث، ومنطق، ولغة وبيان، ولكن فضل الله على عباده كبير، ويمر الشهر الكريم - شهر رمضان - والشيخ «الجُكني» لم ينته بعد من الفواتح من الآيات التي أعجزت ببيانها أرباب الصنعة، وأصحاب اللغة المهذبة لغة قريش التي اختارها الله لتكون لسان الرسالة الخاتمة.

والثاني الدكتور محمد عبد الله دراز - الذي ذهب إلى ديار الغرب وعاد ليخرج سفره الشهير (النبأ العظيم) ولو قرأ أناس اغتروا بشيء من بريق حضارة الغرب هذا الكتاب، لما انحرفت منهم العقول، أو تجرأت الألسن على شرع الله الحنيف، أو أصيبت منهم القلوب بظلمة الشك، ولكن الله - وحده - القادر أن يعيد لهؤلاء القوم رُشدَهم، ويهديهم إلى صراطٍ مستقيم.

أما الثالث من هؤلاء العلماء الربانيين فهو فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي، رأيته في جامعة الملك عبد العزيز في مطلع التسعينيات يحدث فإذا المستعمون إليه، والمنصتون إلى علمه، أصحاب الدرجات العلمية العليا، يجلسون بين يديه وكأن على رؤوسهم الطير، فهو إذا حمد الله وصلى على خير خلقه - عليه صلوات الله وسلامه - فتح الله عليه في التفسير بما هو هبة من الله وفُتوح، وعطاء من رب العزة والجلال وتفضل، مع أسلوب بياني رفيع تتصاغر بجانبه أساليب الخطباء وأرباب الصنعة من أهل الكلام؛ ولقد فتح الله على الشيخ الشعراوي بهذا وغيره لتواضعه، فلقد دنوت منه يوماً وهو يجلس في الصحن - حيث متنزل الرحمات، وجمى البيت الحرام - آنذاك - لأسأله: لماذا لا يكون له درس في بيت الله، وهو المدرس يومئذٍ بكلية الشريعة؟ لقد خفض رأسه

واستغرق في التفكير، ثم همس بحيث لا يسمعه إلا صاحب هذه الكلمات المتواضعة ورفيقه أستاذنا الدكتور إبراهيم شعوط - رحمه الله - نعم لقد سمعته يقولها: أياكون من الأدب أن أدرس في بلد مقدس كهذا، وفيه من العلماء مثل فضيلة السيد محمد أمين كتبي؟ لقد كان يعرف الشعراوي «الكتبي» وورعه وزُهد، هذا التواضع منهل شرب منه الشيخ منذ نشأ في قريته التي وُلد فيها بمصر - وبمحافظة الدقهلية - ولازمه طوال حياته.

ولقد أكرمه الله بالجوار عندما درّس في مدارس الفلاح بمكة فكان الرجال الأفاضل من أبناء هذا الوطن يتلمذون عليه، وكانت الفلاح تضم الصفوة من علماء هذا البلد: من أمثال المشائخ: محمد العربي التّباني، والسيد علوي المالكي، والسيد محمد أمين كتبي، والسيد إسحاق عزوز، والشيخ محمد نور سيف - رحمهم الله - وسواهم، ولكنه عادَ مرة أخرى - ليدرس في قسم الدراسات العليا بجامعة أم القرى - بمكة المكرمة - ولكنه لم يُفكر في أن يعتلي منبر أهل العلم في البلد الحرام، فكانت له هذه المحبة في النفوس، وذلك التلهف على ما يُجريه الله على لسانه من علم، تلهف لا يقتصر على طلاب العلم - وحدهم - ولكنه يشمل عامة الناس وخاصتهم. وإذا كانت الأمة فجعت في هذه الحقبة بموت العلماء العاملين، من أمثال: أحمد جمال، ومحمد الغزالي، وحسن آل الشيخ ومحمد المنتصر الكتاني والسيد إسحاق عزوز، وعبد العزيز بن صالح، فإن فجيعتها في فقد الشيخ الشعراوي - تأتي في زمن أجذبت فيه الأرض، وصوّحت فيه غراس العلم النافع، ورُزئت فيه الأمة الإسلامية بذوي الجهل المُركب الذين يشيخون بوجوههم عن جوهر الدين المتمثل في سماحته ورفقه ووسطيته واعتداله، وتشبّثهم بالقشور من كل شيء، إلا أن الله قدير على أن يحفظ للأمة من تبقى من علمائها ويعوضها خيراً في الراحلين.

عبد المحسن حليت . . الصوت الشعري الصادق

ارتفع الإبداع الشعري إلى مستوى الحدث الذي تعيشه الأمة العربية في صراعها الطويل مع الحركة الصهيونية البربرية وحلفائها - دينياً وفكرياً واجتماعياً - وفي مقدمتهم الولايات المتحدة الأمريكية التي تشكو من كره الشارع العربي لها مع أنها بانحيازها الأعمى للكيان العنصري الإسرائيلي هي التي صنعت هذا الكره، وارتفعت به بتصرفاتها غير المسؤولة من مستوى الهمس إلى دائرة الجهر به. فمن يضع نفسه في خندق واحد مع «المعتدي» و «السفاح» و «الجزار» فإنه يفترض فيه أن يلوم نفسه قبل أن يلوم الآخرين، ويعود لعقله وضميره الإنساني إن بقي له شيء منهما، قبل أن يتحدث عن جدوى هذا العداء الذي تبرره كل عوامل المنطق ومقتضيات الموضوعية، هذه الموضوعية التي تنافح عنها المؤسسات الغربية السياسية والفكرية على مدى قرن كامل من الزمن، ثم إذا هي تخونها شر خيانة في سبيل إرضاء الوحشية والبربرية الصهيونية.

- وكانت صحافتنا من أوائل المنابر الفكرية والأدبية التي احتضنت «الإبداع» العربي الذي عبر بمصداقية عن مأساة إخوانه الذين يقتلون ويذبحون وينكل بهم في سبيل الدفاع عن مسرى الرسول ﷺ وأول

القبلتين، وثالث المساجد التي يشد المسلمون رحالهم إليها.

- وشكّلت القصيدة التي نشرتها صحيفة المدينة «الاثنين ١٣ رجب ١٤٢١هـ» للشاعر عبد المحسن حليت نموذجاً حياً للقصيدة التي تعبر عن معاناة الأمة بصدق وفنية إضافة إلى المضمون الذي نجح الشاعر في توظيف معانيه ضمن إطار البناء الفني للقصيدة في بلوغ المعنى المراد إلى جميع شرائح المجتمع المتطلع إلى الكلمة التي تعبر عن وجدان الأمة وضميرها تلك الكلمة التي تجسد الماضي والحاضر والمستقبل - معاً فهي لا تنظر إلى بعد واحد - بعينه - متغافلة عن الأبعاد الأخرى.

- ولا تتحدث بلسان غريب، ولا تستخدم رمزاً ميتاً، ولا تقع في تلك «الطلاسم» التي شوّهت وجه القصيدة العربية بحجة التجديد غير الواعي، وتحت ذريعة التحديث البعيد عن السياق الحضاري والفكري والاجتماعي للأمة التي تنتمي إليها.

- يخاطب الحليت معشوقة الملايين (القدس) بلغة تجمع بين الرقة والقوة، ومصوراً الوضع المأساوي لأمة العروبة وانسياقها وراء السلام «المزعوم» فنجدته يقول:

يا قدس يا مسرى النبي.. تصبري فالنار قد خلقت لأهل النار
للبائعين شعوبهم وكأنها قطع من الفلين، والفخار
لمقاولين يصدرون ترابهم ليباع ملفوفاً بدون غبار

ويضع الشاعر - يده - على ذلك التناقض الحاد في حياة أفراد من أمة الإسلام والعروبة. فهل يعقل أن تعمق الإيمان في قلوب من ينتمون للتاريخ الإسلامي والعرب - اسماً - ثم يكون ولاؤهم للغرب؟ ويقول

شاعرنا «الحليت» في هذا المنحى :

درسوا الشريعة في مدارس أحمد وتخرجوا من معهد الدولار
حقنوا دماء صغارنا بعروبة مجهولة الأبوين والأصهار

وهذا القول ينطبق - حقيقة - على بعض المنتسبين إلى الفكر العربي
الذين يدعون «الوطنية» ثم نراهم يهرولون وراء كل ما هو غربي متغافلين
أن «الغرب» لا يحترم إلا من يحترم ذاته ودينه وتراثه وأن الغربي قد
«يكره» الشخص الذي يتمسك بمنطلقات أمته وثوابتها، ولكنه يظل في
داخله معجباً به بينما هو يستخف بمن يحاول تقليده في كل شيء، وعلى
استعداد أن يتخلى في لحظة من اللحظات عن مبادئه بسبب نزوة عابرة أو
تلويحة يراد من ورائها امتحان قدرة هذا الإنسان على الصمود والتصدي .

- والشاعر لا يخفي غضبته من وهم «السلام» الذي تروج له «إسرائيل»
ومناصروها وحلفاؤها وما جره هذا الوهم على الأمة من نكبات تعبر عنها
قوافل الشهداء في «القدس» و «رام الله» و «نابلس» و «الخليل» ومع أن
الشاعر يتحدث بلغة ملتزمة إلا أن هذا المطلع الذي بدأ به هذا المقطع من
قصيدته ينضح رقة وعدوبة لشاعر تراوح شعره بين الغزل العذري والقول
الوطني الصادق .

يقول الشاعر «الحليت» مخاطباً «القدس» :

يا قدس، يا أم الحزاني . . ها هم سكبوا على خديك ماء النار
باعوك في سوق السلام ووقعوا بالصلح بين الثأر والثوار
حتى المصاحف صادروها باسمه لترتل التوراة في الأسفار

- وليس هناك غرابة في القاموس الشعري للشاعر، الذي يستخدم الشاعر من خلاله استخداماً فنياً كلمات مثل: المصاحف، الترتيل، الحج، السيوف، بدر، الأنصار، الطواف، التضرع، اليرموك، ذي قار، فشاعرنا قد استوعب التراث العربي الأصيل واستطاع أن يبعث الحياة في القصيدة العربية الكلاسيكية ويجعل منها منافساً قوياً على مدى عقدين من الزمن لصنوف الإبداع الشعري الأخرى، وكان رهانه من خلال «الصورة الشعرية» التي يجيد التأليف بين أجزائها، معولاً على الإيحاء والتلميح الذي يعد عاملاً هاماً من عوامل قوة القصيدة والتي كلما ابتعدت عن التفصيل واستعاضت عنه بالإيحاء والتكثيف كان لها الوقع النفسي الذي يتجاوز التأثير العابر إلى تأثير أقوى وأشد، وللتدليل على ذلك، فإنه بعد نشر هذه القصيدة على صفحات صحيفة المدينة الغراء، وجدنا قصائد عديدة تحاول استيحاء أو تمثل ذلك النفس الشعري القوي والأصيل الذي حفلت به القصيدة التي اختار الشاعر لها عنواناً مستمداً من أحد أبياتها الذي يسعى الشاعر من خلاله إلى مخاطبة (القدس) وكأنها ماثلة أمامه وحاضرة بمآسيها بين يديه. وهذا المثل أو الحضور الذي يجسد تلاحم الشاعر مع الموقف الشعري الذي انبثقت من خلاله القصيدة، هو ما أعطاها هذا الزخم القوي فأنت تسمعها في المنتدى، وفي الشارع، ووسط زحام الحياة وفي لحظات السكون والتأمل.

«أمين بن حسن الحلواني المدني : جهوده العلمية

وصلاته مع الشخصيات العلمية والاستشراقية في عصره»

مع دراسة لبعض جوانب الحياة الثقافية والفكرية في المدينة المنورة

في مطلع القرن الرابع عشر الهجري

لا يمكن للباحث أن يتعرف على شخصية أمين بن حسن الحلواني المدني المتوفى سنة ١٣١٦هـ - ١٨٩٨م^(١) دون أن يُلم بشيء عن الخلفية العلمية والفكرية للمدينة المنورة في مطلع القرن الرابع عشر الهجري، إضافة إلى تلك الصلة التي انعقدت أواصرها بين الحلواني من جهة وشخصية العالم اللغوي والأديب محمد بن محمود بن أحمد بن محمد التركي الشنقيطي والمتوفى في مصر سنة ١٣٢٢هـ - ١٩٠٤م، ثم صلتها - معاً - بالمستعرب السويدي الأصل كارلو لاندرج (١٨٤٨ - ١٩٤٢م) والذي قدم دعوة للتركزي نيابة عن ملك السويد والنرويج آنذاك (أسكار الثاني) لحضور مؤتمر المستشرقين الثامن المنعقد في مدينة استكهولم ١٣٠٦هـ - ١٨٨٨م والذي حضره ما يقرب من ٦٤٦ شخصية علمية مهتمة بقضايا اللغة العربية وفكرها وأدبها إلا أنه من خلال ما توافر لدينا من معلومات فإن أمين الحلواني قد ذهب إلى ليدن وأمستردام في سنة ١٣٠١هـ - ١٨٨٣م،

وتوطدت علاقته مع مستشرق آخر معروف وهو ك. سنوك هورخرونيه والذي قام برحلة إلى مكة المكرمة في نهاية القرن التاسع عشر ١٨٨٤ - ١٨٨٥م والتي أخذت العنوان التالي عند ترجمتها إلى الإنجليزية:

Mekka in The Latter Part of The 19th Century.

(مكة في الجزء الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي)، بينما حملت العنوان التالي باللغة العربية وهو (صفحات من تاريخ مكة المكرمة)، وذلك عند قيام دارة الملك عبد العزيز بإخراج هذا العمل في جزئين بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية، وقام بترجمة النص الأصلي لرحلة سنوك الدكتور علي عودة الشيوخ وأعاد صياغته وعلق عليه كل من الدكتور محمد محمود السرياني والدكتور معراج نواب مرزا.

إلا أن خطوة هامة وجديرة بالتوقف والإشادة تمت قبل قيام الدارة بهذا العمل وهو إقدام (نادي مكة الثقافي) بترجمة الجزء الثاني من كتاب المستشرق سنوك^(٢). وتشير الترجمة التي أعدها مترجمو الكتاب عن سنوك بأن هذا الأخير تعرف على أمين الحلواني في مؤتمر المستشرقين في ليدين سنة ١٨٨٣م، وأن الحلواني نشر انطباعاته عن المؤتمر فسارع سنوك إلى ترجمتها عن جريدة البرهان القاهرية، وأن الحلواني بعد ذلك سافر إلى الهند بعد انتهاء المؤتمر حيث عمل هناك على طبع كتاب (القرب في محبة العرب) لعبد الرحيم العراقي شهر صفر ١٣٠٢هـ - ١٨٨٤م، وقد وصف نفسه - أي الحلواني - بـ (المدرس بالروضة المطهرة)، وبعد انتهاء المؤتمر الاستشراقي بسنة سافر سنوك هورخرونيه بصحبة القنصل الهولندي (كروات) Kruyt^(٣).

وإن كان من أوائل من تحدثوا عن رحلات سنوك إلى الديار المقدسة

الأستاذ الدكتور عبد اللطيف بن عبد الله بن دهيش عضو هيئة التاريخ بجامعة أم القرى بمكة المكرمة وصدرت هذه الدراسة الموجزة والهامة عن جامعة الملك سعود «الرياض» - سابقاً - سنة ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م وحملت اسم مصادر تاريخ الجزيرة العربية إلا أن ابن دهيش لم يتعرض في دراسته القيّمة والرائدة هذه عن الصلة التي قامت بين أمين الحلواني والمستشرق سنوك^(٤) وهو الموضوع الذي دعانا إلى مثل هذه الوقفات عن المستشرق سنوك ورحلته إلى مكة المكرمة.

التركزي وصلته بعلماء المدينة المنورة:

من الشخصيات العلمية البارزة التي استقرت لفترة في بلاد الحرمين الشريفين، شخصية العالم اللغوي والأديب محمد بن محمود بن أحمد بن محمد التركزي الشنقيطي والمتوفى في مِصْر سنة (١٣٢٢هـ - ١٩٠٤م) فبعد أن قدم إلى مكة المكرمة مجاوراً، انتقل إلى المدينة المنورة ولهذا فهو ينعت نفسه بالشنقيطي المدني المكي، وفي ذلك تأكيد لما ذهبنا إليه خلال هذا البحث من تمكن الهوية الإسلامية والعربية عند أهل العلم، وانتفاء الشعور السلبي عند ذكر البلد الذي ينتمي إليه الإنسان أصلاً، ثم ذكر الأمكنة التي استقر فيها طلباً للعلم أو مخاطئاً لأهلها ومجاوراً لسكانها.

وعند إقامته بالمدينة المنورة اختلف مع بعض علمائها مثل السيد أحمد البرزنجي المتوفى (١٣٣٧ - ١٩١٩م)، وكان الخلاف حول ما تضمنته رسالة السيد البرزنجي الموسومة: (إصابة الداهي، شاكلة إعراب إن لم يجد إلا هي). وعبارة (إن لم يجد إلا هي) «وردت في كتاب (الموطأ) للإمام مالك - إمام دار الهجرة - وفي باب النذور بالتحديد، حيث قال إمام دار الهجرة: «فمن نذر المشي فليمش ما قدر عليه ثم ليركب وعليه

هدى بدنه أو بقرة أو شاة إن لم يجد إلا هي»، فعلق الفقيه المالكي أحمد بن محمد العربي زروق على هذه العبارة الأخيرة من ناحية لغوية صرفية بقوله: «حيث إن مقتضى القوانين العربية أن يقال: إلا إياها، إذ الضمير مفعول إليه الفعل المتعدي وهو (يجد)».

«وهذا الخدش واضح التعليق بعبارة الإمام وهو - رضي الله عنه - وإن لم يكن من أرباب السليقة العربية الذين يلتزمون في كلامهم عدم الحيادة عن قوانينها بل إن مالك بن أنس من الأئمة الذين يُحتج بأقوالهم دون استعمالهم، لكن حَمَل كلام مثله على موافقة قواعد اللسان واجبٌ ما أمكن».

ويبدو أن السيد البرزنجي دفعاً لتهمة التقليل من شأن الإمام مالك، دفع بالسؤال إلى أحد علماء المذهب المالكي في عصره والذين قدموا إلى المدينة المنورة - آنذاك - وهو الشيخ زروق، وهذا الأخير بدوره أرسل إلى شيخه سالم بوحاجب التونسي ليسأله عن هذا الإشكال اللغوي والذي كشف السيد البرزنجي أن أول من أثار الكلام حوله هو أحد العلماء المجاورين بالمدينة المنورة الشيخ السيد حبيب الرحمن ابن السيد علي اللكنوي، الموسويّ نَسَباً، المدني مهاجراً».

ولهذا نجد أن حكمة السيد البرزنجي تدفعه لأن يورد في رسالة موجزة من تأليفه تناقش هذه القضية رأي علماء المالكية أولاً من أمثال الشيخ زروق وشيخه بوحاجب التونسي، ثم يورد رأيه في الموضوع نفسه في الرسالة التي تضمنت مختلف الآراء والتي أسماها (إصابة الداهي شاكلة إعراب إن لم يجد إلا هي) ولقد طُبعت الرسالة والتي أحتفظُ بنسخة منها بالمطبعة الرسمية التونسية سنة ١٣٠٩هـ. ونجد في الترجمة التي كتبها

الزركلي للسيد البرزنجي يورد - أي الزركلي - اسم الرسالة مختلفاً كالتالي: (إصابة الدواهي في إعراب إلهي)^(٥).

وإذا كان الشيخ التركي، مثل بقية علماء شنقيط، مالكي المذهب وكانت له صلاته بالسلطان العثماني (عبد الحميد)، وأن السيد البرزنجي كان شافعي المذهب، بل إنه كما ورد في ترجمته عند الزركلي قد تولى منصب إفتاه الشافعية بالمدينة المنورة، كما أنه انتخب نائباً عن البلدة الطاهرة في مجلس النواب العثماني بإسطنبول.

إذا أخذنا جميع هذه الحثيات، سهل علينا تفهّم دواعي تلك الحملة التي قادها التركي ضد البرزنجي ورصيفه الشيخ عبد الجليل برادة، وحمل حملاً عنيفاً كذلك على منتداهم الأدبي في بستان الأبارية البرّادية والذي كان يقوم قرب باب بقيع الغرقد بالمدينة المنورة، مدعياً في حماسته أنهم تجرأوا على تلحين الإمام أبي عبد الله مالك بن أنس (إمام دار الهجرة) وذهب - أي التركي - إلى حد بعيد في التعرض بغير وجه حق لنسب آل البرزنجي^(٦).

نتج من هذا التعاطي مع هذه القضايا، التي تدخل في باب الشكليات ولا تمس جوهر العلم أو تتعرض للمقدس من أمور الشريعة^(٧)، قيام علماء المدينة بالرد على الشيخ التركي، فكتب السيد البرزنجي رسالة سماها (فتكة البراض بالتركي المعترض على عياض) لأن التركي في الوقت الذي دافع فيه عن الإمام مالك، خطأ أحد أعلام المذهب المالكي صاحب كتاب (ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك) وهو القاضي عياض بن موسى بن عياض اليخُصبي^(٨)، ولد بسبته سنة ٤٩٦هـ، وتوفي بمراكش ٥٤٤هـ وجاء رد التركي في شكل قصيدة

حادة سماها: (فتكة التركيزي الناظم بالبرزنجي المدعي نسبة مزورة إلى موسى الكاظم) والقصيدة التي تجاوزت المائة من الأبيات الشعرية مثبتة في كتاب التركيزي الذي أشرنا إليه (الحماسة السنية الكاملة المزية) القسم الثاني، ١٣ - ٢١.

ومن المأخذ على الشيخ التركيزي تعرضه لأنساب الأسر المدنية وكان بإمكانه وهو صاحب فقه ودراية بمقتضيات الشريعة ألا يُقحم النسب في قضايا علمية أشبعت بحثاً، ولكن يبدو أن خلاف العلماء يتجاوز أحياناً الحد المطلوب من الانضباط الخلقي ويدخل في متاهات تجر على أطرافها الكثير من العنت والمشقة. ولهذا الخلاف الحاد الذي وقع بين التركيزي من جهة وعلماء المدينة (البرزنجي والبرادة) من جهة أخرى طلبت الحكومة التركية من التركيزي مغادرة المدينة فرحل إلى مصر واتصل بالعالم المعروف (آنذاك) الإمام الشيخ محمد عبده. ولقد وجد التركيزي في أحد علماء المدينة المنورة (آنذاك) وهو أمين بن حسن الحلواني المدني المتوفى (١٣١٦هـ - ١٨٦٨م) معاضداً مؤازراً وخصوصاً أن (الحلواني) اختلف هو الآخر مع بعض علماء المدينة المنورة في تلك الحقبة وذلك بعد تأليفه في سنة (١٢٩٢هـ - ١٨٧٥م)، رسالة ينكر فيها صحة المُخلفات النبوية. كما أصدر سنة ١٣١٢هـ رسالة تحت عنوان (السيول المُغرقة على الصّواعق المُخرقة)^(٩)، ويذكر محب الدين الخطيب أن الكتاب رد على السيد أحمد أسعد المدني وهو من المنتمين إلى طريقة الشيخ أبي الهدى الصيادي، ولكن الرسالة المذكورة لم تحمل اسم الحلواني بل حملت اسماً مستعاراً وهو عبد الباسط المنوفي^(١٠).

ويشير المستشرق «سنوك» (SNOUCK)^(١١) إلى توجه الحلواني المخالف للتوجهات الدينية السائدة (آنذاك)، ولكنه (أي سنوك) يُورد وجهة

النَّظَر المختلفة الأخرى والتي جاءت على لسان أصدقاء الشيخ مظهر المدني، بأن كتابته ضد المخلفات النبوية هي نتيجة لعامل الحسد الذي يلاقيه الشيخ مظهر من أمين الحلواني.

كيف قامت العلاقة العلمية بين الحلواني والتركزي من جهة والمستشرقين لاندبرج وسنوك من جهة أخرى؟

كان لنزوح التركزي والحلواني أثره على حياتهما العلمية فلقد أقاما علاقة مع المستشرق السويدي «الكونت كارلو لاندبرج» - Carlo Landberg، والذي تخصص في دراسة لهجات جنوب الجزيرة العربية^(١٢).

وكان لاندبرج يشغل أيضاً منصباً رسمياً، وهو سفير السويد والنرويج لدى مصر، فقدمت دعوة من ملك السويد والنرويج (أسكار الثاني) عن طريق السلطان العثماني عبد الحميد الثاني، للشيخ محمود التركزي لحضور مؤتمر المستشرقين الثامن المنعقد في مدينة استكهولم، وكُلِّف (لاندبرج) بالإشراف على متطلبات الرحلة ولكن التركزي اشترط شروطاً عدة يجب تنفيذها من قبل الدولة العثمانية حتى يوافق على السفر، ولكن عدم قدرة الدولة العثمانية على تحقيق بعض الشروط حال، كما يبدو، دون حضور التركزي ذلك المؤتمر، ولكن حماسه نتجت منها قصيدة يمدح فيها ملك السويد (أوسكار الثاني)، ويشيد بحبه للعلم بحسب طلب السفير (لاندبرج) وقد بلغت أبيات القصيدة حوالي مائتي بيت على نسق الشعر العربي القديم^(١٣).

ويبدو أن (لاندبرج) شجع الحلواني للسفر إلى ليدن سنة (١٣٠١هـ - ١٨٨٣م)، وكان بصحبة الحلواني مجموعة مهمة من المخطوطات يبلغ عددها (٦٦٤) مخطوطة، فابتاعها منه مكتبة ليدن الغنية بنفائس المخطوطات العربية^(١٤).

ويذكر الباحث المتخصص في شؤون الاستشراق قاسم السامرائي أن جامعة برنستون بأمريكا اشترت قسماً من هذه المخطوطات^(١٥).

وأثمرت العلاقة العلمية بين الحلواني ولاندبرج، بأن قام هذا الأخير بوضع فهرس للمخطوطات التي جلبها الحلواني من المدينة المنورة عن طريق مصر إلى ليدن، وكتب مقدمة له. وتحتوي مكتبة جون رايلاندز بجامعة مانشستر: على نسخة من هذا الفهرست:

John, Rylands, Library, of Manchester

والذي قمت بمساعدة بعض الزملاء في جامعة مانشستر في أثناء دراستي بها (١٩٨٢ - ١٩٨٦م) بالحصول على نسخة منه والذي صنف باللغة الفرنسية ويحمل اسم:

Catalogue de Manuscrits Arabes.

Provenant d'une Bibliotheque Privee Almedina

Redige par, Carlo Lanoberg Leide - E.J. Brill LL 1883.

«فهرس مخطوطات عربية مأخوذة عن مكتبة خاصة بالمدينة».

ثم عملت على ترجمته من لغته الأصلية الفرنسية - التي كتب بها الفهرست - إلى اللغة الإنجليزية.

استطاع الحلواني أن يقيم في رحلته تلك لمؤتمر المستشرقين علاقة أيضاً مع المستشرق الهولندي «سنوك هورخرونيه» والذي قام هو الآخر برحلة معاكسة إلى مكة المكرمة في شهر فبراير عام ١٨٨٥م، ودون خلال رحلته الشهيرة تلك كتابه (مكة المكرمة في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي).

ومن الملحوظات الجديرة بالدراسة هي اهتمام المستشرق الهولندي (سنوك) بالعلاقة العلمية بين علماء الحرم المكي الشريف والمؤسسات

التعليمية في جنوب شرق آسيا وخاصة (إندونيسيا)، وكانت الكتب المعتمدة في الثقافة الدينية في إندونيسيا هي تلك التي يعتمد عليها علماء مكة المكرمة في جميع التخصصات الدينية.

ويذكر الدكتور مارتين برونسن^(١٦) أن أكثر هؤلاء العلماء تأثراً هم أولئك الذين ازدهروا علمياً في مكة المكرمة، في نهاية القرن التاسع عشر، ومن هؤلاء أحمد زيني دحلان، مفتي مكة المكرمة الشافعي خلال مكوث سنوك هورخرونيه هناك، ثم معاصرة السيد بكري بن محمد شطا.

وقد قمت بمكاتبة القيّم على القسم الشرقي بمكتبة بريل «لندن»، الباحث J. J. Witkam مستفسراً عن العلاقة الحلواني وسنوك التي ربما استثمارها الأخير في معرفته بالطريق المؤدي إلى الجزيرة العربية وإلى مكة خاصة - فأجاب (وتكام) أن مكتبة ليدن تحتفظ بصورة للشيخ الحلواني وعليها إهداؤه الخاص للمستشرق سنوك، ولقد قام هذا الأخير بترجمة انطباعات صديقه الحلواني عن مؤتمر المستشرقين من اللغة العربية إلى اللغة الهولندية.

ولعلّ في الرسالة الموجهة إليّ بتاريخ ٦ يناير، ١٩٨٦م من Witkam^(١٧) ما يجيب عن تساؤلات الدكتور قاسم السامرائي عما إذا كانت هناك علاقة بين الحلواني وسنوك، ودور هذه العلاقة، كما يذكر السمرائي، في رحلة سنوك إلى جدة ومن ثم إظهاره الإسلام، ودخوله مكة المكرمة.

لعلّ من المفيد أن نشير إلى أن خروج التركي والحلواني من المدينة بسبب خلافتهما الفكرية مع بعض علماء عصرهم، قد فتح أمامهم أبواب مستقبل علمي جديد، كان من ثمراته هذا الالتقاء العلمي والفكري بين

الشرق والغرب، على الرغم من كل الشكوك التي يثيرها البعض حول الدواعي الحقيقية لمثل هذه اللقاءات العلمية، وعائدها الإيجابي على مستقبل الأمة الحضاري والفكري.

الحلواني وكيفية اقتنائه أو حصوله على هذه المخطوطات:

لقد أثار عدد من الدارسين تساؤلات عدة عن كيفية حصول أمين الحلواني على هذا العدد الكبير من المخطوطات النفيسة والنادرة، وكان الأستاذ المرحوم محمد حسين زيدان من الذين اثاروا فقدان مكتبة عارف حكمت لعدد كبير من مخطوطاتها وكان ذلك في حفل التكريم الذي أقامه الأستاذ الأديب عبد المقصود خوجه لمحقق التراث المعروف الأستاذ صلاح الدين المنجد، وذكر الأستاذ زيدان بأن أحد المسؤولين عن المكتبة فرط في عدد كبير من مخطوطات المكتبة الهامة، وكانت المكتبة تقوم في الناحية القبليّة من المسجد النبوي وبالقرب من موقع دار أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه. ولما سمعت ذلك تواردت إلى ذهني الشكوك التي دارت حول أمين الحلواني وإن كان الأستاذ زيدان لم يذكره بالاسم فلقد ذكره غيره في مناسبة أخرى، ولهذا أروي هنا ما دونته عن المرحوم السيد حبيب محمود أحمد والذي كان مسؤولاً لمدة طويلة عن الحرم النبوي الشريف والمكتبات التابعة لوزارة الحج والأوقاف - سابقاً - قبل أن تصبح وزارتين مستقلتين. فلقد أكد لي - شخصياً - رحمه الله أنه للتحقق من هذه القضية كلّف كلاً من الأستاذ محمد حميدة الطيب - أطال الله بقاءه - والأستاذ محمد سعيد عبد القادر الشليبي - رحمه الله - ووالد هذا الأخير كان له الفضل في تزويد الأستاذ زيدان بالثقافة الدينية والعربية والتاريخية، فقام الاثنان بعملية مراجعة الكشف القديمة في المكتبة منذ عام ١٣٠٠هـ والتي كان الغرض منها جرد الكتب سنوياً، وتقديم كشف

بعملية (الجرد) هذه، للمسؤولين، ثم قاموا بعملية جرد لمحتويات المكتبة، فكان الفرق بين ما أثبتته الكشوف القديمة الموثقة وعملية الجرد المتأخرة، هو حوالي «١٣٠» مخطوطة وأن ما يقرب من حوالي «٧٠» أو «٨٠» مخطوطة قد عاد إلى الآستانة بطلب رسمي من المسؤولين - آنذاك - وأن المفقود من المخطوطات وهو لا يتعدى أربعين أو خمسين مخطوطة هو من الرسائل الصغيرة، وعلّق أبو حمدان إن هذا إبراء لذمة أمين المكتبة الشيخ إبراهيم خربوطلي - رحمه الله - وذكر لي - أدامه الله - أن القائد العثماني فخري باشا، حاول قبل تسليم المدينة أن يقنع حفيده شيخ الإسلام ومؤسس المكتبة - عارف حكمت - أن تسمح له بنقل المكتبة إلى تركيا فرفضت بشدة، ومع هذا فقد أمر بنقل المكتبة وعندما وصلت إلى الشام قامت الحرب العالمية الأولى فظلت المكتبة هناك وبعد انتهاء الحرب - أمر الشريف عبد الله بن الحسين بإرجاعها إلى المدينة - وأنه على الرغم من وجود مخطوطات المكتبة بالقرب من نهر بردى فإنها لم تصب بأذى، وحتى أكون أكثر دقة فإن اسم الشخص الذي أمر بإرجاع المكتبة سمعته من الشيخ الفاضل جعفر بن إبراهيم فقيه - رحمه الله - بداره السابقة (بصيّادة) بحي باب المجيدي، ورواية السيد حبيب والشيخ الفقيه الذي كان مسؤولاً عن مكتبة المدينة العامة، وبذل جهوداً كبيرة في ضم عدد من مكاتب المدارس الخاصة وبعض المجموعات الهامة التي كانت في دور العلم والمعرفة بالبلد الطاهر، مثل مجموعة السادة آل الصافي، ومجموعة محدث الحرمين الشريفين الشيخ عمر حمدان المحرسي، أقول إن هاتين الروایتين اللتين سمعتهما بأذني متطابقتان إلى حد بعيد.

إضافة إلى ما ذكرناه فإن الحقبة التي عاش فيها أمين الحلواني وهي نهاية القرن الثالث عشر ومطلع القرن الرابع عشر الهجريين هي حقبة تتسم

بالأمن نسبياً لأن عمليات السطو على الكتب تتم في الحقب التي يتدهور فيها الأمن تدهوراً تاماً ولم يحدث ذلك إلا عند حصار المدينة - في عهد القائد التركي المعروف فخري باشا في الفترة ما بين ١٣٣٤هـ - ١٣٣٧هـ^(١٨).

وإذا أخذنا في الاعتبار أن والد الحلواني كان من أعيان المدينة المنورة وأفاضلها، إضافة إلى أنه شخصياً من أهل العلم وكان مدرساً بالحرم النبوي الشريف كما كان حريصاً على إقتناء الكتب ونسخها ونشر المخطوط منها وخصوصاً أنه استقر في مصر وفترة أخرى بالهند، ولقد كان كثير من التراث الإسلامي والعربي يخرج منشوراً ومضبوطاً ومحققاً عن القاهرة بمصر وبومباي بالهند، ولقد أدرك الحلواني بذكائه أهمية الرحلة في طلب العلم ولم يتوقف حتى لقي مصرعه في بادية طرابلس الغرب سنة ١٣١٦هـ - ١٨٩٨م، وبناءً عليه فإن ما يدور حول شخصية الحلواني والمخطوطات التي ابتاعها منه مكتبة بريل، هو مما يدخل في دائرة الظن وليس في باب التحقق والتثبت، وفي النهاية لقد بقيت هذه المخطوطات ذات الأهمية البالغة والمتنوعة في الفنون التي تتطرق إليها. ومن هذه الفنون ما هو نظري ومنها ما هو تطبيقي محض. نعم لقد بقي هذا التراث محفوظاً ويمكن لطلاب العلم الاستفادة منه، وهناك تراث عربي وإسلامي متناثر في مكتبات العالم الغربي وجامعاتها ونحتاج إلى وقت طويل قبل أن نعرف بصورة شاملة كيف وصل هذا التراث إلى تلك المؤسسات الغربية. والأهم من هذا كله هو الحفاظ على ما تبقى لدينا من تراث مخطوط لا يزال حبيس بعض المكتبات الخاصة وحسب الأبناء أن يفرجوا عما خلفه الآباء والأجداد وعملوا على كتابته وتدوينه ونسخه حرصاً منهم على نشر العلم وتعميم فائدته على الآخرين.

الإحالات

(١) أمين بن حسن الحلواني المدني، ينتسب إلى أسرة الحلواني المعروفة بالمدينة المنورة والتي أدركت منها الشيخ عمر محمود حسن حلواني وكان يسكن في شارع العينية المعروف والمؤدي إلى الحرم النبوي الشريف - وبالتحديد في منعطف صغير بعد مكتبة ضياء وكانت مكتبة متخصصة في بيع الكتب والمجلات والصحف الأدبية، وعرفت شخصياً من الأستاذ محمود عمر حلواني والذي كان حتى فترة أواخر الستينيات الهجرية مساعداً لرئيس بلدية المدينة، أن صاحب الترجمة «أمين» هو ابن أخ عمر حلواني الذي جلست إليه ما بين عامي ١٣٨٦هـ - ١٣٨٧هـ، وقد أخبرني الشيخ جعفر فقيه - أحد المهتمين بتاريخ المدينة اهتماماً بالغاً - بأن تلك الدار التي كانت تقوم في شارع العينية كثيراً ما كان يسكنها رؤساء بلدية المدينة ووالد عمر حلواني أي «محمود» كان رئيساً للبلدية في حقبة ماضية وحمل اسمه «محمود» الثاني الذي أشرت إلى عمله أيضاً في منصب رفيع في بلدية المدينة، وتأكيدي على الموقع الذي كانت تسكنه أسرة الحلواني هو ما يعضد إشارة صاحب الترجمة - نفسه - أمين الحلواني في عبارة نقلها عنه الشيخ حمد الجاسر في كتابه «رحلات» ص ٢١٣، بأنه أي أمين الحلواني قرأ كتاب «عمود النسب» للفهامة أحمد البدوي على الشيخ محمد محمود الشنقيطي العشمي سنة ١٢٩٩هـ، في داره المطلة على حديقة العينية - وبالمناسبة فلقد كان إلى عهد قريب بقايا من بستان العينية تدل عليه بضع من أشجار النخيل والتي كانت بالقرب من النزل المخصص للضيوف - والواقع قبل مكتبة ضياء المعروفة - ويبدو أن هذا النزل كان يقوم على رعايته المرحوم سمان حمزة بخيت والد رجل الأعمال المعروف - حالياً - محمد سمان بخيت، وكان - سمان بخيت - صديقاً لوالدي رحمه الله وكان يدير إلى قبل وفاته حوالي ١٤٠٧هـ، بعض فنادق المدينة ومنها فندق التيسير والذي تعود ملكيته للشيخين محمد سرور الصبان وعطا الياس في حي السنبلية - نسبة إلى آل سنبل - وكان الفندق يطل على عدة جهات، واحدة منها على بداية شارع أبي ذر المعروف، وآخر على شارع الرومية وثالثة على شارع السنبلية، ويبدو بحسب ما عرفته من الشيخ جعفر فقيه أن منتدى

الأبّارية والذي كان يجتمع فيه شعراء المدينة وخصوصاً أولئك الذين ينتمون لمدرسة عبد الجليل برادة «١٢٤٠ - ١٣٢٧هـ» من أمثال إبراهيم بن حسن الأسكوبي، ومحمد العُمري الواسطي ثم انضم إليهم لاحقاً الشيخ محمد محمود التركي - قبل أن تسوء علاقته مع عبد الجليل برادة وبعض رفاقه، أن هذا المنتدى الذي عُرف بالأبّارية في مطلع القرن الرابع عشر الهجري لم يكن بعيداً عن فندق التيسير هذا الذي حاولنا تحديد موقعه.

ويبدو من النص الذي نقله الشيخ الجاسر عن أمين الحلواني أن التركي كان يسكن في حارة الأغوات بقرب منهل العين الزرقاء، يقول كاتب الترجمة الفقير إلى الله «لقد أدركت في مطلع العمر هذا المنهل وكان الناس يتزودون من مائه عن طريق النزول إليه بدرج خاص لوقوعه في مكان منخفض، وكان يفصل بينه وبين موقع المدرسة القديم المعروف في حارة الأغوات باسم «الرُستمية» شارع صغير يؤدي إلى الجزء الآخر من حارة الأغوات نفسه والذي يتصل في نهايته بما كان يعرف بدرب الجنائز، إضافة إلى مدخل آخر صغير يؤدي إلى المنطقة الواقعة أمام بقية الغرقد حيث كان يقع قبر إسماعيل بن جعفر الصادق - رحمه الله - والذي أزيل فيما بعد لصالح توسعة منطقة البقية.

ومن خلال نص الجاسر الذي نقله الجاسر في كتابه «رحلات»، يذكر الحلواني أنه قرأ كتاب «عمود النسب» على الشيخ التركي في سنة ١٢٩٩م مما يؤكد أن العلاقة بين الحلواني والتركي قد تمت بداية في المدينة قبل بداية القرن الرابع عشر ثم تعمقت بشكل أكبر في مصر عند هجرة كل من الرجلين تحت تأثير دوافع خاصة إليها، ويذكر التركي أن الحلواني رحل إلى أوروبا وغيرها لبيع مخطوطات كان قد جمعها ويحدد - رحمه الله - في كتابه الأعلام ج ٢، ص ١٥ - ١٦، سنة ١٣٠٠هـ كتاريخ لوصوله إلى أمستردام وليدن، وأن مكتبة لندن فازت بالنصيب الأكبر من هذه المخطوطات العربية، ولقد عمل الحلواني على نشر بعض كتب التراث خصوصاً في رحلته إلى الهند وهي محطته الثانية بعد ليدن، حيث نشر في بومباي بالهند سنة ١٣٠٤هـ - ١٨٨٦م كتاب مطالع السعود لعثمان بن سند البصري، وهو الكتاب الذي يشتمل على أخبار

بغداد، في الحقبة الممتدة بين سنتي ١٧٧٤ - ١٨٢٦م كما نشر الحلواني في الهند سنة ١٣٠٧هـ كتاباً ينتقد فيه مؤلفات جرجي زيدان التاريخية وأطلق عليه اسم «نشر الهذيان من تاريخ جرجي زيدان» وقد قام الزميل الدكتور مازن مطبقاتي بإعادة نشر هذا الكتاب بعد تحقيقه، كما التفت الحلواني - أيضاً - إلى الدواوين الشعرية وهذا يكشف عن جانب من جوانب حياته العلمية حيث قام في سنة ١٣٠٩هـ وبالهند أيضاً بطباعة ديوان لزوم ما لا يلزم لأبي العلاء المعري، وأردف أيضاً بكتابة ترجمة عن حياة أبي العلاء وبعض الشروح والتعليقات على عمله المعروف بالزوميات، وإذا كان الحلواني قد عاش في مطلع حياته في المدينة المنورة، والمعروفة بزراعتها للنخيل، وأنه كان يقيم في دارهم بحديقة العينية، المعروفة بأشجار النخيل أيضاً، فإنه أراد أن ينقل تجارب أهل المدينة في الفلاحة والتي اقتبسوها من أهل القصيم في نجد مثل بريدة وعنيزة والرس، لقرب المدينة من هذه المناطق الواقعة في شمالها، فآلف في مصر سنة ١٣٠١هـ، رسالة سمّاها «جني النحلة في كيفية غرس النحلة».

ويبدو أن الرحلة الأخيرة في حياة الحلواني كانت إلى طرابلس الغرب، وكانت هوايته الأصلية - وهي دراسة علم الفلك - لا تفارقه أبداً، ولقد تلقى هذا العلم عن حسن الأسكوبي والد الشاعر إبراهيم الأسكوبي، وقد أقام الأسكوبي الأب أسطرلاباً فلكياً في المدينة ليعرف به مواقع النجوم ولكن بعض رجال عصره انتقدوه فتخلّى عن تطبيق هذا العلم تطبيقاً عملياً، وكان الحلواني أبيض اللون ويرتدي نظارة ليستعين بها في المطالعة والدرس، فكان لون بشرته إضافة إلى اشتغاله بعلم الفلك العملي من العوامل التي أدت إلى فقدانه لحياته في طرابلس الغرب وذلك لاشتباه الأعراب فيه ظانين أنه جاسوس غربي وليس رجلاً عربي كما حاول بعض العارفين إفهام أعدائه، والذين كانوا ينقمون على الغربيين بسبب السياسة الاستعمارية إزاء العرب والمسلمين فوقع الحلواني على أيديهم قتيلاً سنة ١٣١٦هـ، بينما يرى الزركلي أن وفاته كانت في الهند.

مصادر الترجمة:

- حمد الجاسر: رحلات، ط ١ (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م) ص ٢١٣.
- خير الدين الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين، ط ٧، ج ٢، ص ١٥ - ١٦.
- عاصم حمدان: المدينة المنورة بين الأدب والتاريخ، ط ١ (١٤١٢هـ - ١٩٩١م) «مطابع دار العلم» جدة، ص ٤٧ - ٧٤.
- مجلة المنهل، ج ١، ص ١٨٦ - ١٨٧، السنة الثالثة عشرة، ربيع الآخر ١٣٧٢هـ يناير ١٩٥٢م.
- (٢) حمل الجزء الثاني من كتاب سنوك الذي ترجمه نادي مكة الثقافي والأدبي اسم «صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري» وقام بالترجمة كل من الأستاذين الكريمين محمد بن محمود السرياني ومعراج بن نواب مرزا، وراجع الدكتور المعروف بكلية الشريعة بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، محمد إبراهيم أحمد علي، وكان صدور الطبعة الأولى من هذا الجزء من كتاب سنوك سنة ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.
- (٣) انظر: صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر، «مطبوعات نادي مكة الثقافي والأدبي» ط ١، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م، ج ٢، ص: ١٣.
- (٤) انظر: دراسات تاريخ الجزيرة العربية «مصادر تاريخ الجزيرة العربية» الجزء الثاني، مطبعة جامعة الرياض ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- (٥) الأعلام: المجلد الأول، ص ٩٩ - ١٠٠.
- (٦) محمد محمود بن التلاميذ التركي الشنقيطي: الحماسة السنية، الكاملة المزينة في الرحلة العلمية الشنقيطية التركية، مطبعة الموسوعات بالقاهرة، ١٣١٩هـ، القسم الثاني، ص ٣.
- (٧) بينما يرى المؤرخ المعروف السيد أمين بن عبد الله مدني في مثل هذه المناظرات حرص مدرسة المدينة على قواعد اللغة العربية في أخرج ظروفها. انظر: أمين مدني، الثقافة الإسلامية وحواضرها/ «الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠م، ص ١٣٩».

(٨) لمزيد عن هذه الشخصية العلمية، انظر: القاضي أبي الفضل عياض اليحصبي، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، دار الفكر، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.

(٩) عاصم حمدان، المدينة المنورة بين الأدب والتاريخ، ط ١، (١٤١٢هـ - ١٩٩١م)، القسم الأول، ص ٥٥.

(١٠) عثمان بن سند البصري الوائلي، مطالع السعود بأخبار الوالي داود، اختصار أمين بن حسن المدني، تحقيق محب الدين الخطيب، القاهرة، ١٣٧١هـ - المقدمة.

(١١) Mekka, In The, Latter, Part of the 19th Century, Note, P. 289.

(١٢) د. عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ط ١، ١٩٨٤هـ - بيروت، ص ٣٥٠ - ٣٥١.

(١٣) الحماسة السنية الكاملة المزية، القسم الأول، ص ٦ - ١٧.

(١٤) المدينة المنورة بين الأدب والتاريخ، ط ١، (١٤١٢هـ - ١٩٩١م) ص ٥٥.

(١٥) د. قاسم السامرائي، الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، منشورات دار الرافعي، ط (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م) ص ١١١.

(١٦) مارتن فان برونسن، الكاتب العربي في إندونيسيا، ترجمة د. قاسم السامرائي، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض (١٤١٥هـ - ١٩٩٥م) ص ٤٣ - ٤٥.

(١٧) المدينة المنورة بين الأدب والتاريخ، ص ٧٢.

«دَعْنَا نُنْصِفَكَ قَلِيلاً يَا أَسْتَاذ!»

بدأ بَعْضُ الذين كَانُوا يجْثُونَ على «رُكْبِهِمْ»، وينحنون أمام أَسْتَاذِ الأَجْيَالِ «عبد الله عبد الجَبَّار» في الماضي القَرِيب، بَدَأُوا في تَوَجِيهِ سَهَامِ التُّكْرَانِ والجُحُودِ للأُسْتَاذِ في صَوْمَعَتِهِ التي اختارها طوعاً لِنَفْسِهِ ولقد كَفَانَا الأُسْتَاذُ الكبير عبد الله فَرَّاجَ الشريف الرَّدَّ عليهم بِكُلِّ موضوعية، وأُضِيفَ إلى ما قالَهُ الأُسْتَاذُ «الشريف» إِنِّي سمعتُ هذا البعض يقول في الماضي: «في تاريخنا الأدبي كتابان جَدِيرَانِ بالاعتماد عليهما في قراءة الأدب السُّعُودِي، وهما (التَّيَّارَاتُ الأدبية) لـ «عبد الله عبد الجَبَّار»، و (الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية)، للدكتور بَكْرِي شيخ أمين - وكان «شيخ أمين» زميلاً كريماً وباحثاً أدبياً قديرًا في قِسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة الملك عبد العزيز. لقد قَالَ الحقيقة آنذاك - هذا البعض البَاحِث - وأسَفَاهُ - عَنِ الأَضْوَاءِ بَأَيِّ ثَمَنٍ - حَتَّى وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ يَعْنِي التَّنْصُلَ مِنْ رَأْيِ طَرَحِهِ في ماضيه، أَوْ مَنَهِجِ اعْتِمَادِهِ في سنوات الضَّجِيجِ الذي خَفَتْ فِجَاءَةً في غَمْرَةِ التركيز عَلَى الذات ونَرْجَسِيَّتِهَا، فذاكَ السَّاحَةِ ما زالت تحتفظُ بِتَفَاصِيلِ فَضِيحَةٍ - انتهتْ - والتي أَصَرَ هذا البعضُ بِأَنَّهَا مَوْضِعٌ جَدِيدٌ في قصيدة الشَّاعِرِ النَّاشِئِ - آنذاك - فإذا بالشَّاعِرِ يوجِّهُ صَفْعَةً للرجل الذي استخف بعقول الناس في نادي جدة الأدبي واتهمهم بأنهم لا يعرفون أسماء نُقَّادَ عَرَبَ عاشوا في الولايات المتحدة الأمريكية مِنْ أمثال

إدوارد سعيد وحسن إيهاب ولقد تصدَّى الناقد المعروف - فائز أبا - لهذا التَّعالي الممجوج، على خلفية تعمُّق «أبا» في الأدب الغربي ولا بُدَّ أنْ أنصفَ أكاديميين وباحثين يعرفون عَن الأدب الغربي ما لا يعرفه هؤلاء الدُّعاة، وفي مقدِّمتهم: أستاذنا الكبير عابد خزندار الذي كتب «حديث الحداثة»، و «مستقبل الشُّعر». موت الشُّعر»، و «أنثوية شهرزاد» - رؤيا ألف ليلة وليلة - وغير ذلك مِنْ إبداعه النُّقدي المعروف كما أنَّ هناك الباحث الأكاديمي المُجيد للغة الإنجليزية إجادة تامَّة الدكتور عزَّت خطاب والذي قام بترجمة كتاب «الأدب عملية استكشاف» تأليف لويز روزنبلات»، وله كتاب قيِّم ينم عن معرفته بالتَّيارات الأدبية الغربية ومصطلحاتها وهو «مَلامِحٌ وصُورٌ شعرية»، وله «قراءة ثانية» نصوصٌ والذي صَدَرَ ضَمْن سلسلة كتاب الرِّياض «العدد: ٧٧ أبريل ٢٠٠٠م». ويضاف إلى هذين الاسمين اللامعين في معرفة الأدب الغربي معرفة واعية و متمكنة دون ادِّعاء وحجْر على الرأْي الآخر، أو تعال ممقوت لا يليق بالعلم وأهله - مِنْ تلك النخبة الكريمة، الدَّكاترة، معجب الزهراني، عادل إلياس، عدنان وزَّان، عبد الوهاب الحكيمي، ميجان الرّويلي وعلي جاد وسعد البازعي ونذير العظْمة ونُعيمان عبد الرحمن عثمان، ومحمد الشُّوكاني. أمَّا الشاب العصامي الذي يَعْرِفُ عن مقولات ت.س. إليوت النُّقدية وعقدة أوديب في الأدبين العربي والغربي، وغير ذلك مِنْ فنون علم الأدب بشقيه العربي والغربي فهو الزَّميل الكريم الأستاذ عبد الله الحكيم، صاحب الزاوية المقروءة في صحيفة «الاقتصادية» والتي جعل منها الزَّميل «محمد فرج التُّونسي» صحيفةً مَقْرُوءَةً في جميع الأوساط الثَّقافية والفكرية والاقتصادية والاجتماعية. أعودُ للأستاذ «عبد الجبَّار» الذي يقف شامِخاً في تاريخنا الأدبي ولا يَلْتَفِت إلى تلك السَّهام الطائشة التي تدل عَلى أنَّ البعض قد

تعمّق ذاته داء الغرور فلم يستطع التخلّص منه، فكان تنكّره حتى لأولئك الذين احتضنوه في الجامعة التي حلّ بها ضيفاً وللضيافة حقوقها مع أهل الدّار. عبد الله عبد الجبار لم يُقدّم إسهامه النّقدي في «التيارات الأدبية» والذي لا يُقلّل من قيمته أن مؤلفه ألّقه على طُلابه قِسم الدّراسات الأدبية واللغوية في معهد الدّراسات العربية العالمية بجامعة القاهرة - بل يجعل من مؤلفه ناقداً تجاوزَ المحليّة إلى العالمية - دون أن يفقده ذلك حُبّه لوطنه وأهله وعشيرته - فهو حفيّ بهم ورّاع لمشاعرهم ومودّتهم. . بل تجاوز ذلك إلى جزء آخر خصّصه لدراسة النّثر السّعودي - وهو لم يُطبع بعد - ولا بُدّ من الإشارة إلى أنّ دراسة الدكتور «عبد الرحمن الشّامخ» عن النّثر في المملكة السّعودية ١٩٠٠ - ١٩٤٥م والتي نال عليها درجة الدكتوراه من معهد الدّراسات العربية والأفريقية بجامعة لندن (SOAS) تُعتبر دراسة رائدة كالدراسة التي قدّمها شَيْخ الأكاديميين السّعوديين أ.د. منصور إبراهيم الحازمي عن الرّواية التّاريخية في أدب محمد فريد أبو حديد وأشرف عليها أستاذي المعروف البروفسور وليد عرفات والذي كان له إسهام كبير في توجيه الدّارسين لميادين أدبية غير مسبقة في الدّراسات النّقدية المعاصرة، ومن ذلك دراسة «سَلْمَى الجيُوسي» عن التّوجهات والتيارات الأدبية في الأدب العربي الحديث» Trends, And, Movements, in Arabic, Poetry, E, J. Brill 1977.

وكذلك دراسة الباحث اليهودي الأصل «س. موريه» S. Moreh، عن الأدب العربي الحديث (١٨٠٠ - ١٩٧٠م). ولقد سألت الجيوسي في دارة الأديب عبد المقصود خوجه عن الفرق بين دراستها ودراسة «موريه»، فذكرت أنّ «موريه» اهتمّ، فقط - بموسيقى الشّعْر العربيّ الحديث والتطوّر

الذي لحقَ بها، بينما زعمتُ أنَّ دراستها تناولت القصيدة العربية الحديثة من جميع جوانبها «صورة ومعانٍ وإيقاع» وقد عتبتُ عليها أنَّ دراستها لم تتضمن أيَّ شواهدٍ من شعراء الخليج العربي، فاعتذرتُ بأنها لم تتمكن إبان دراستها من الاطلاع على شيءٍ من ذلك، ولم أقنع بما ساقته من أعذار، وكان ردِّي عليها: لو بحثت عن كتاب «عبد الله عبد الجبار» والذي سبق «الجوسي» و «موريه» برؤيته النقدية والتحليلية الأصيلة لعرفت أنَّ الأدب السعودي لم يكن بمنأى عن تجسيد مشاعر الأمة الوطنية والإسلامية شعراً ونثراً. لم يكتف أستاذنا «عبد الجبار» فيما كتبه عن النقد في التيارات الأدبية، بل تعدَّاه إلى نقد «مرصاد» الأديب الكبير والشاعر المعروف السيد إبراهيم فيلاي، ودعا عبد الجبار عمَّله «بمرصاد المرصاد» (أنظر، المرصاد: ومرصاد المرصاد، ونقد المرصاد، النادي الأدبي بالرياض، ١٤٠٠/، تقديم د. يحيى «ساعاتي» ونجده يكتب مقدمة لواحد من أهم كتب الأدب الشعبي وهو «كيف كُنا» للأستاذ المرحوم عبد الله الخطيب، وقد كتب أستاذنا هذه المقدمة في عام ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م بالقاهرة، ومما وردَ في هذه المقدمة «وهذه الذكريات تذكّرني» بأرنست رينان - الكاتب الفرنسي المعروف، حين أثقلت الشيخوخة كاهله، فلم يجد - بدءاً - إلّا أن يبعث بخطابٍ إلى المدرسة الابتدائية التي كان قد تعلَّم فيها قبل ستين سنة، ويطلبُ منه أن يأذنَ له بزيارتها كي يرى الفضل الذي تعلَّم فيه حروف الهجاء، والغناء الذي لعبَ فيه مع أقرانه، كي يلمس جذرانها التي تمسَّح بها، ويصلي في إحدى غرفها على اختلاء، صلاة الحب والذكرى لتلك الأيام الماضية».

كما كتب ناقدنا الكبير مقدمة الكتاب الثَّري للأديب الكبير حمزة

شحاته والموسوم «حمادُ حمزة شحاتة» والصادر عَنْ دار المريخ ١٣٩٧ - ١٩٧٧م، ومُقدِّمة ديوان الشعر الوطني والوُجْداني السَّيد إبراهيم فيلاي الموسوم (طيورُ الأبايل)، أمَّا مُقدِّمته لكتابِ الشَّاعر والنَّاقد الأستاذ عبد اللطيف السَّحرتي «١٩٠٢ - ١٩٨٣» (الشَّعرُ المُعاصر في ضَوْءِ النِّقْدِ الحديث) وكان السَّحرتي رحمه الله زميلاً للأستاذ عبد الجبَّار في مَعْهَدِ الدِّراسات العربية، فهي بحق تُشكِّل مَنْحَى نَقْدِيّاً هاماً جديراً بالدِّراسات، أين أنت أيتها المتقلِّب في دَهْرِكَ مِنْ هذه القمَّة الشامخة «عبد الجبَّار».

أحمد محمد جمال بين العلم والأدب محاورته لخالد محمد خالد

الحديث عن العالم الفاضل أحمد محمد جمال - رحمه الله - حديث متعدد الجوانب، تعددت تلك المواهب التي منّ الله بها على فقيه الإسلام، والبلد الحرام، وأرض الطُّهر والإيمان، ذلك الرجل الذي امتدت معرفتي به لأكثر من ربع قرن من الزمان كان يبهرك بذلك الخلق الإسلامي الرّفيّع، ولمّا عرفته عن قرب كان بإمكانني أن أردّ تلك السّمات الكريمة إلى منابعها الأولى، فهو خريج الجامعة الكبرى «المسجد الحرام» أساتذته فيه، محمد العربي التّباني، والسّيد علوي بن عباس المالكي والسيد محمد بن أمين كتبي - رحمهم الله جميعاً - وهؤلاء قوم جمع الله لهم بين التمكن في العلم والرّفعة في الخلق، والقرب من قلوب من يجالسونهم من طلاب العلم والمعرفة. ولقد ورث فقيدنا من هذه الصفوة الزهد في متاع الدنيا، والتعلق بعالم الخلود ومتاعه، بل إن نفسه كانت تمتح من ذلك العالم أسرار الطهر والصّفاء الذي كان يتبدّى في أسارير وجهه المضيء، ونقاء داخله الذي كان يدفع ما استطاع - بالعبادة والصّبر - كل ما يمكن أن يدخل في دائرة الظُّهور الدنيوي الذي لا يليق بأهل العلم والفضل من أمثاله.

وفي الحرم نشأ «أحمد محمد جمال» يقرأ القرآن ويحفظه ويتدبره فكان هذا الارتباط بكتاب الله طريقاً لدخوله إلى عالم الكتابة الإسلامية، فأصدر سلسلة (القرآن كتابٌ أحكمت آياته) و(مأدبة الله في الأرض)، ولقد ناقش في الكتاب الأول بعض آراء المفسرين ولكن بأسلوب العالم الذي لا يبخس الآخرين حقوقهم ولا ينتقص من أقدارهم. وليتنا نتعلم من هؤلاء القوم كيف يتقبلون الرأي الآخر، ولا يضيّقون بمبدأ الاختلاف لأنهم يعلمون أنه دليل على ثراء علوم الشريعة واتساع آفاقها وقدرتها على الوفاء باحتياجات المكان والزمان ومن هن كان الإسلام هو الدين الخاتم والدعوة الشاملة المتمثلة في خطاب الله - عزّ وجلّ لنبيه سيدنا محمد ﷺ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧)، ولقد قادت مفاهيم القرآن الواسعة فقيدنا إلى أن يطرق أبواباً أخرى للتأليف العلمي في مجال الكتابة الإسلامية مثل «التربية الإسلامية وقضايا المرأة»، وكان كتابه المعروف (مكانك تحمدي) صرخة تحذير للمرأة المسلمة من أن تنساق خلف الدّعوات الكاذبة باسم الحرية التي انقلبت بسببها طبيعة المرأة في الغرب، واليوم تتعالى الصيحات في تلك المجتمعات بعودة المرأة إلى فطرتها ومكانها الطبيعي ولكن الزّمام أفلت والضوابط تحللت، ولم يبق للمرأة هناك إلا دموعها وحسرتها، ولم يكن الأستاذ - جمال - رحمه الله - بتحذيره للمرأة يسعى لسلبها حقوقها التي وهبها الله إياها من تعليم ورعاية واحترام، وكنت قد ذكرت في ندوة علمية بنادي مكة الثقافي، «أنّ العالم أحمد جمال لم يكن عدواً للمرأة، فالمرأة في بيته أختٌ وزوجةٌ وبنْتُ متعلّمة مثقفة»؛ ولكن ما كتبه عنها كان من باب الشفقة عليها والحرص من أن تستغل عاطفتها فيما تكون نتائجه سيئة وآثاره مخيفة. ولقد حدّثني -

رحمه الله - قائلاً ذات يوم: «يسألونني هل أشاهد المصارعة في التلفاز؟» نعم أشاهدها وأشاهد بعض المسلسلات التلفزيونية المناسبة وكما تشاهد فالتلفزيون في غرفة جلوسي. وقد لا أبيع سرّاً إذا ما قلت: إنّ «أحمد جمال» لم يكن متشدداً - قط - فهو يستمتع بالفنون ما دامت ترتقي بالمشاعر وتسمو بالأحاسيس فلقد ذكر لي أنه كان يحب سماع قصيدي «نهج البردة» و «حديث الروح» وذلك ليس بغريب على عالم مثله، تفتّحت مداركه على قول الشعر وسماعه، وإنني أجزم قائلاً بأنه لو استمر أحمد جمال في قول الشعر لكان من رواده القلائل في بلادنا، ولعلّ الزميل الدكتور جميل مغربي يخرج لنا بحثه عن شاعرية الأستاذ - جمال - فتزداد معرفة بهذه الموهبة الفنية التي كانت تنطوي عليها شخصية فقيدنا، وما أكثر المواهب التي أنعم الله بها على هذا الرجل الذي يؤلف لطلبة العلم ليلاً، ويعلمهم نهاراً في رحاب جامعتي أم القرى والملك عبد العزيز، ثم يلتفت إلى واجب آخر استنفد منه الكثير من الجهد والطاقة، وهو واجب الكتابة الصحافية التي كان مبرزاً فيها، فعموده في (حراء) أولاً وفي (الندوة) ثانية ثم في (المدينة) و(الشرق الأوسط)، كان مقروءاً من جميع الناس على مختلف طبقاتهم ومشاربهم وكان - رحمه الله - يقول في سطور ما يعجز الآخرون عن قوله في صفحات، وكان في كتاباته الصحافية صاحب أسلوب مشرق ومؤثر في الوقت نفسه، كما كان في مناظراته مع الآخرين يلتزم بآداب الحوار العلمي وأتذكر أن حواراً دار بينه وبين الأستاذ المرحوم «أحمد قنديل» على صفحات جريدة «عكاظ» حول كتاب «الأغاني» وكان الأستاذ جمال يرى أنّ كتاب الأغاني أساء للتراث الإسلامي والعربي لأنّ أبا الفرج كتبه بعقلية الأديب والفنان الذي كثيراً ما يجنح به

الخيال ويشتط به القول، ولهذا كان اعتماد بعض الأدباء عليه في العصر الحديث من حيث النواحي التاريخية أمراً غير محمود، لعدم تثبته من الرواية التاريخية إضافة إلى الشك الذي يحيط بشخصية أبي الفرج نفسه، واحتياط العلماء بسبب ذلك عند اعتماد روايته عن العصور السابقة. ورأي الأستاذ جمال - رحمه الله - يتفق مع رأي الدكتور زكي مبارك الذي كتبه في مجلة (المقتطف) وضمنه الدكتور «جبرائيل جبور» كتابه المعروف (كيف أفهم النقد) الصادر عن دار الآفاق ببيروت، ١٤٠٣ - ١٩٨٣، ص ٦٧ - ٧٦، والذي ختمه بنتيجة هامة يقول فيها: «هذا، ولو أمضينا نحصي ما في روايات الأغاني من التلفيق لطال بنا القول، فلنكتف بهذا، ولنسجل مرة ثانية أنّ الأصبهاني أراد أن يكون كتابه معرضاً لما تجمع بين أيدي معاصريه من طريف الأقاصيص، فليعتبره القارئ إذاً كتاب أدب لا كتاب تاريخ. وكان المرحوم الأستاذ القنديل يرى أنّ كتاب (الأغاني) إضافة هامة في التراث العربي، وأنّ ما ورد من روايات غير صحيحة لا يمنعنا من الاستفادة منه في جوانب أخرى.

محادثته لـخالد محمد خالد

- كما دار حوار بينه وبين الأستاذ خالد محمد خالد على صفحات جريدة الشرق الأوسط حول مفهوم الديمقراطية الغربية، وكان الأستاذ جمال في حوارهِ هذا يحرص على تدوين الحقائق العلمية التي تؤيد وجهة نظره دون أن يفرض على الآخرين جملة آرائه التي يؤمن بها ويدافع عنها دفاعه عن وجوب الإفساح للرأي الآخر حتى تتضح معالم الطريق الذي يجب أن تسلكه الأمة فيما تعتقد وتمارس ومن دون هذا المسار الطبيعي لقضايا الحوار وما يترتب عليها من آثار، لن تستطيع الأمة مواصلة مسيرتها الحضارية والفكرية، التي كانت نقطة بدايتها وحياءً منزلاً يحث على العلم والمعرفة، وصدق الله القائل ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: ١ - ٥).

ورحم الله الشيخ العالم الجليل أحمد محمد جمال وأجزل له الثواب على ما قدم لوطنه وأمتة ولغة العربية.